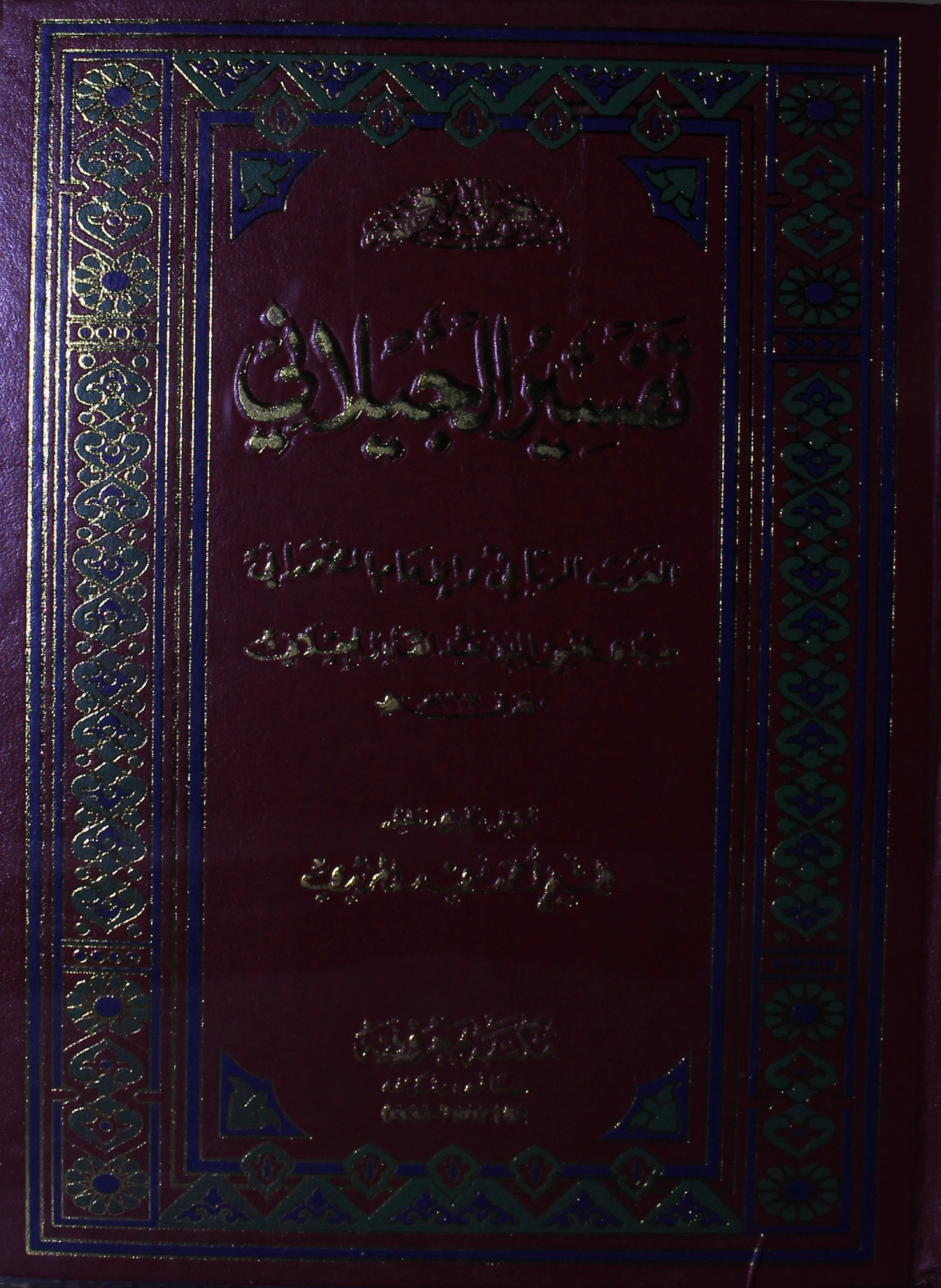

تفسير الجيلاني
الغوث الرباني والإمام الصمداني
سيدي محيي الدين عبد القادر الجيلاني
الشيخ أحمد فريد المزيدي

تفسير الجيلاني

الغوث الرباني والإمام الصمداني

سيدي محيي الدين عبد القادر الجيلاني

المتوفى ٧١٣ هـ

تحقيق وتخريج وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الثالث

المحتوى:

أول سورة الإسراء - آخر سورة العنكبوت



المكتبه المعروفيه

كانسى روڈ شالدره كوئٹه پاكستان

فون: 0333-7807152,0333-7907398

طبعة جديدة منقحة

ISBN: 9953-27-144-5

2010م 1431هـ



رَجَــــاءٌ

غَفَرَ اللهُ ذُنُــوْبَ هٰذَا النَّــاشِرِ

وَذُنُــوْبَ وَالِدَيْهِ مَعاً فِي النَّاظِرِ

غَفَرَ اللهُ ذُنُوْبَهُ وَسَتَرَ عُيُوْبَهُ وَوَالِدَيْهِ وَالْمُسْلِمِيْنَ

اَجْمَعِيْنَ وَلِمَنْ دَعَا لَهُ بِخَيْرٍ

راجي عفو ربه

عبدالغني حليمي



المكتبة المعروفية – كويتا – باكستان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الإسراء

فاتحة سورة الإسراء

لا يخفى على من سلك نحو توحيد الحق سلوكًا تدريجيًا، طالبًا أرباب الولاء الطالبين للعروج إلى معارج التوحيد معراجًا مخصوصًا، ومقصدًا معينًا، ومشربًا خالصًا مقدرًا عند الله، مثبتًا في لوح قضائه وحضرة علمه، وإن كان مقصد الكل بسحب الذات واحدًا، إلّا أنه وقع التفاوت والتفاضل في المعارج لِحِكَمٍ ومصالح لا يعلمها إلّا هو، فلا بدّ للسالك المسترشد أن يستكمل ويسترشد إلى أن يصل إلى معراجه المعيَّن المقدَّر له من عنده سبحانه، فإذا وصل إليه، وحصل دونه، فقد أدرك معراجه، ونال مقره ومقصده من التوحيد، وعند ذلك انقطع سيره، وتم سلوكه، وبعد ذلك سار وسلك فيه لا به وإليه، إلى أن حار وفني، وليس وراء الله مرمى ومنتهى.

وأشرف المعارج وأكملها، وأتمُّ المراقي وأعلاها وأشملُها: معراج نبينا ﷺ، إذ انكشف له التوحيد الذاتي إلى حيث شهد الحقّ شهودًا عينيًا حقيًا، وتكلم معه. كلامًا تفصيليا بلا كيف وأين، وبلا وضع وجهة، لا مقابلة ولا مقارنة، ولا قرب ولا بعد، بل حضورٌ وسرورٌ، وحصولٌ ووصولٌ، لا يفهمها إلّا ذوو الأذواق الصحيحة، والمشارب الصافية من أرباب العناية الفائزين بالفوز العظيم بمتابعته ﷺ، وذلك بعد انخلاعه عن جلباب ناسوته، وتشرفه بخلعة لاهوته.

لذلك أسند سبحانه إسراءه ﷺ ليلة المعراج إلى نفسه تفضلاً عليه وتكريمًا، فقال متيمنًا باسمه العظيم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى لحبيبه على مقتضى ذاته، المستجمع بجميع أوصافه؛ لذلك صارت مرتبته جامعةً لجميع المراتب، وغاية لجميع شئون الحق وتطوراته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ له، يوصله إلى ذروة معارج عنايته ظاهرًا ﴿الرَّحِيمِ﴾ له، يخرجه عن بقعة الإمكان، ويهديه إلى فضاء الوجوب باطنًا.

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) ﴾ [الإسراء: 1 – 7].

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾ نزه سبحانه ذاته بما يجب تنزهه عنه في حضرة علمه، وأبهم اسمه على مقتضى تعاليه وترفعه عن أفهام عباده، وأوصله بالإسراء الحقيقي الذي هو عبارة عن إخراج العبد من ظلمة الإمكان الذي هو الليل الحقيقي إلى نور الوجوب الذي هو النهار الحقيقي ﴿بِعَبْدِهِ﴾[1] يعني: حبيبه محمد ﷺ بعدما أخلع عنه كسوة ناسوته، وألبسه خلعة لاهوته، بحيث تجرد عن مقتضيات بشريته مطلقًا، وارتفعت عنه حجب تعيناته جملةً، وانكشفت سدل الغفلة والغشاوات عن بصيرته وبصره.

(1) قال نجم الدين كبرى: للتعجب فيها يشير إلى أعجب أمرٍ من أموره جرى بينه وبين أفضل خلقه، وأخص عبيده، وأحبهم إليه، وأقربهم لديه، وأعظمهم قدرًا، وأكملهم مقامًا، وأرفعهم درجة، وأعلاهم رتبة، وأجلهم منصبًا، وأكرمهم مثوى، وأعزهم منزلة، وأوفاهم قربة، وأفناهم عن أنانيته، وأبقاهم بهويته، وأخلصهم لعبوديته، وأوحدهم بوحدانيته، وأفردهم بفردانيته، وأوليهم بتجلي جماله، وأعظميهم من كشف جلاله، وهو العبد المطلق من بين سائر عباده، والحبيب المختص المخلص من أحبابه، والنبي المفضل على أنبيائه، وهو الحر المعتق عن عبودية الموجودات ورق وجوده، فلهذا سماه الله ﴿بِعَبْدِهِ﴾ عند فناء اسمه ورسمه اسمًا ما سُمي به أحد من خلقه إلا عند بقاء اسمه ورسمه، كما قال ﴿عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم:2] ومن هنا يقول كل نبي يوم القيامة: نفسي نفسي لبقاء وجودهم وهو ﷺ يقول: «أمتي أمتي» لفناء وجوده في وجوده.

وحينئذٍ انطوت المسافات مطلقًا ﴿لَيْلاً﴾ أي: في قطعةٍ منه ـ صرح به، وإن كان الإسراء في اللغة عبارة عن السير في الليل ـ ليُعلم أن ابتداؤه وانتهاؤه كان فيه ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الذي حُرمت ما أبيحت في الأماكن الأخر من الصيد وغيره، ألا وهو قلب الإنسان الكامل الذي هو بيت الله الأعظم حقيقةً؛ إذ حرمت فيه التوجه إلى الغير والسّوى مطلقًا، وإن كان مبنيًا في بقعة جسدانية إمكانية ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أي: كثَّرنا فيه الخير والبركة على زوارها وساكنيها، ألا وهو البيت المعمور الأبدي الأزلي الذي هو الوجود المطلق، المفيض على كافة المظاهر وحواليه عبارةٌ عن مقتضيات الأوصاف والأسماء الإلهية، وزوارها استعدادات المظاهر وقابلياتها المستفيدة منها، الناشئةُ عن أظلال أوصافها.

وإنما أسريناه ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على كمال قدرتنا وحكمتنا، ووفور جودنا وكرامتنا ﴿إِنَّهُ﴾ بعد تجرده عن جلباب تعيينه وهويته ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ بسمعنا، فيسمع بنا منا ﴿الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:1] ببصرنا، فيبصر ببصرنا عجائب صنعنا، وغرائب مبدعاتنا.

﴿وَ﴾ كما أيّدنا حبيبنا بما أيدناه من الإسراء به، وإراءة عجائب صنعنا وقدرتنا إياه، بأن أسريناه من مكة في ساعةٍ إلى بيت المقدس، ثمَّ فيها إلى فوق السماوات السبع، ومثَّلنا له أرواح الأنبياء والأولياء، فتكلم معهم، ثمَّ منها إلى ما شاء الله، وأخبر عنه سبحانه بقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم:8 ـ 9]، وسمع كلامًا لا من جنس الأصوات والحروف.

كذلك ﴿آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ تأييدًا له، وتنفيذًا لأمرنا إلى أن خصصناه بتكليمنا إياه، وكرمناه بأنواع الكرامات ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: هاديًا لهم، يهديهم إلى توحيدنا، وتقديس ذاتنا عن الأشباه والأنداد، وأمرناهم فيه ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ أيها المتحيرون في الأمور والوقائع ﴿مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ [الإسراء:2] أي: شريكًا لي، وكفؤًا تتكلون إليه في أموركم غيري؛ إذ ليس في الوجود سواي، فعليكم أن تتخذوني وكيلاً، وتفوضوا أموركم كلها إليّ؛ إذ لا معبود لكم غيري.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا﴾ بمقتضى جودنا ﴿مَعَ نُوحٍ﴾ حين استولى الطوفان على وجه الأرض، فهلك من عليها إلَّا مَن آمن لنوح، ودخل معه في السفينة، فأنجيناه أصالةً، ومن معه تبعًا ﴿إِنَّهُ﴾ يعني: نوحًا ﴿كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:3] مبالغًا في أداء الشكر، مواظبًا عليه وجه الخضوع والخشوع، فلكم أن تقتفوا أثر أسلافكم الذين هم

أصحاب سفينة نوح عليه السلام، وهم مؤمنون مصدقون له، ولكم أنِ تؤمنوا بمن أُرسل إليكم لإصلاح أحوالكم، وتصدقوا كتابه.

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ أي: أوحينا إليهم ﴿في الكتاب﴾ المنزل عليهم على وجه الإيذان والإعلام تنبيهًا وتذكيرًا، والله ﴿لتفسدنّ﴾ أنتم ﴿في الأرض مرتين﴾ مرةً بمخالفة أحكام التوراة، وقتل شعياء، ومرةً بقتل يحيى وزكريا، وقصد قتل عيسى - عليهم السلام - والكل من أعظم الجرائم عند الله ﴿و﴾ مع ذلك ﴿لتعلنّ﴾ وتستكبرنّ عتوًا وعنادًا على الأنبياء استهانةً واستخفافًا، وسخريةً واستهزاءً ﴿علوًا كبيرًا﴾ [الإسراء: 4] بحيث لا تبالونهم، ولا تعدونهم من العقلاء؛ لذلك تسفهونهم تارةً، وتكذبونهم أخرى.

فاعلموا أيها المسرفون أنّا ننتقم منكم في النشأة الأولى لكلّ جريمةٍ صدرت عنكم من الجريمتين العظيمتين ﴿فإذا جاء وعد﴾ انتقام ﴿أولاهما﴾ أي: أولى الجريمتين ﴿بعثنا﴾ وسلّطنا ﴿عليكم﴾ حين أردنا الانتقام، والأخذ عليها ﴿عبادًا لنا﴾ منتقمين عنكم من قبلنا ﴿أولي بأس شديد﴾ وشوكةٍ عظيمةٍ، وصَولةٍ قويةٍ، وإذا دخلوا عليكم ﴿فجاسوا﴾ أي: تجسسوا وترددوا لطلبكم ﴿خلال الديار﴾ ووسطها للقتل والاستئصال ﴿وكان﴾ ما ذُكر من الانتقام ﴿وعدًا﴾ من الله ﴿مفعولاً﴾ [الإسراء:5] حقًّا عليه إنجازه وإيقاعه، وذلك حين استولى بُختنَصّر عليهم، فقتل كبارهم، وسَبَى صغارهم، ونهب أموالهم، وخرب بلدانهم، وحرق التوراة، وخرب الأقصى.

﴿ثم﴾ بعدما ضعفناكم وأخذناكم ﴿رددنا لكم الكرة﴾ الدولة والغلبة والصولة ﴿عليهم﴾ أي: على أعدائكم ﴿وأمددناكم بأموال﴾ عظام ﴿وبنين﴾ معاونين ناصرين ﴿وجعلناكم﴾ في الكرّة الثانية ﴿أكثر نفيرًا﴾ [الإسراء:6] من الكرّة الأولى؛ أي: أكثر عسكرًا وجنودًا منها.

وبالجملة: ﴿إن أحسنتم﴾ لبني نوعكم خالصًا لوجه الله، وآمنتم لتزكية نفوسكم ﴿أحسنتم لأنفسكم﴾ إذ فوائد الإيمان والإحسان عائدةٌ إليكم ﴿وإن أسأتم﴾ لهؤلاء، وكفرتم بالله وبرسله ﴿فلها﴾ أي: وبال إساءتكم عليها؛ إذ الله في ذاته غنيّ عن إحسان المحسن، وإساءة المسيء ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ أي: وقت انتقام الجريمة الأخيرة، بعثنا عليكم أيضًا عبادًا لنا أولي بأس شديد، وبسطة قوية، وبطش شديد: طيطوس الرومي.

وقيل: ملك الفرس اسمه: جودرز، وقيل: حردوس، وإنما بعثناهم عليكم ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ ليسوءوا معكم، بحيث ظهرت آثار إساءتهم من وجوهكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ وخربوه ﴿كَمَا دَخَلُوهُ﴾ وخربوه ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في استيلاء بختنصر، وأحرقوا الكتب، كما أحرقوا ﴿وَلِيُتَبِّرُوا﴾ وليهلكوا ﴿مَا عَلَوْا﴾ وقدروا عليه وغلبوا ﴿تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء:7] هلاكًا كليًا، بحيث لا ينجو منهم أحد.

قيل: دخل صاحب الجيش، فذبح قرابينهم، فوجد فيه دمًا يغلي، فسألهم عنه، فقالوا: دم قربان لم يُقبل منا، فقال: ما هو إلّا كذب، فقتل ألوفًا منهم عليه، ثمَّ قال: إن لم تُصْدِقُوني، ولم تبينوا لي دم مَنْ هو هذا، ما تركت منكم أحدًا؟ فلما اضطروا قالوا: إنه دم يحيى النبي ﷺ قتلناه ظلمًا، فقال: لمثل هذا ينتقم الله منكم؟! ثمَّ قال ملتفتًا إلى الدم: يا يحيى، قد علم ربي وربك ما أصاب قومَك من أجلك، فأسكن من الغلي قبل ألّا أبقي أحدًا منهم، فسكن، ولم يقتل بعد هذا.

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الإسراء: 8 – 17].

ثمّ قال سبحانه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد المرة الثانية،

إن تبتم عن معاصيكم وجرائمكم ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إليها ثالثًا ﴿عُدْنَا﴾[1] إلى الانتقام والعذاب ثالثًا، وهكذا رابعا وخامسًا. وقد عادوا في النوبة الثالثة بتكذيب سيدنا محمد ﷺ، وقصدوا قتله، فأعاد الله عليهم الخزي، بأن سلط المسلمين عليهم، فقتلوهم وأسروهم، وضربوا الجزية على باقيهم، وصاروا مهانين أذلاء صاغرين إلى قيام الساعة. هذا في النشأة الأولى ﴿وَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿جَعَلْنَا جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان، والطرد والحرمان ﴿لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء:8] محبسًا ومضيقًا لا ينجون منها أبد الآباد.

ومن أراد نجاة الدارين، وخير النشأتين، فعليه الامتثال والانقياد بما في القرآن المنزل على خير الأنام ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ الفارق بين الهداية والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام ﴿يَهْدِي﴾ ويرشد ﴿لِلَّتِي﴾ أي: للطريق التي ﴿هِيَ أَقْوَمُ﴾ الطرق وأعدله، وأوضحُ السبل وأبينه إلى التوحيد المنجي عن ظلمات النشأتين ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ أيضا ﴿الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة منه، المقربة إلى التوحيد ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:9] هو الفوزُ بشرف اللقاء، والتحقق عند سدرة المنتهى.

﴿وَ﴾ يخبر القرآن أيضًا ﴿أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ولم يقصدوا ما فيها من الحساب والعقاب، والصراط والسؤال وجميع ما فيها ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيأنا ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء:10] مؤلمًا محزنًا لرؤيتهم المؤمنين متنعمين. مترفين في الجنة مترفهين.

﴿وَ﴾ من جملة الأخلاق المذمومة، والديدنة القبيحة: ﴿يَدْعُ الْإِنسَانُ﴾ مسرعًا مستعجلاً ﴿بِالشَّرِّ﴾ الملحق له من غير علم بشريته، ووخامة عاقبته ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أي: مثل دعائه بالخير؛ أي: لسرعته ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ﴾ في جِبلّته خُلِق ﴿عَجُولًا﴾ [الإسراء:11] مسرعًا مستعجلاً على ما يميل إليه، وإن كان مضرًا له.

﴿وَ﴾ من كمال رحمتنا وإشفاقنا ﴿جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ ذا نورٍ وإضاءةٍ ﴿لِّتَبْتَغُوا﴾ وتطلبوا ﴿فَضْلًا﴾ وعطايا ناشئة

(1) قال في التأويلات: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إلى الجهل ﴿عُدْنَا﴾ إلى العدل، بل إلى الفضل، وإن عدتم إلى الندم عدنا إلى الكرم، وإن عدتم إلى النسيان عدنا إلى الغفران، وإن عدتم إلى الإقدام على العبودية عدنا إلى الإنعام بالربوبية، وإن عدتم إلى طلب الهداية عدنا إلى اختصاصكم بالعناية، وإن عدتم إلى التقربات عدنا إلى الجذبات.

﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لتعيشوا بها، وتقوّموا أمزجتكم منها ﴿وَلِتَعْلَمُواْ﴾ بتجدد الملوين ﴿عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ المتداولة بينكم في معاملتكم وحراثتكم وتجارتكم ﴿وَ﴾ بالجملة: في ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ تحتاجون إليه في أمور معاشكم ومعادكم ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ أي: بيّناه وأوضحناه لكم، وعلّمنا طريق وصولكم ونيلكم إليها ﴿تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء:12] وتبيينًا واضحًا لائحًا، فعليكم أن تتخذوني وكيلاً في جميع حوائجكم الدنيوية والأخروية.

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾[1] أي: بعدما رتبنا أمور معاش الإنسان ومعاده على ما ينبغي ويليق بحاله، كتبنا جميع ما صدر عنه من الأعمال الصالحة والفاسدة في مكتوبٍ جامع لها، محيط بها، وعلقناه في عنقه تعليقًا لازمًا، شبّه الأعمال بالطائر؛ لأن الإنسان يطير ويميل نحو السعادة والشقاة بما صدر عنه من الأعمال، كأن الأعمال جناح له ﴿وَ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى المعدّة للاختبار والاعتبار ﴿نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا﴾ جامعًا لجميع ما صدر عنه في دار الابتلاء ﴿يَلْقَاهُ﴾ وينال إليه ﴿مَنشُورًا﴾ [الإسراء:13] على رءوس الملأ والأشهاد تكريمًا وتعظيمًا، أو تفضيحًا وتقريعًا.

وحين إلقائه إليه يُقال له: ﴿اقْرَأْ﴾ أيها المكلّف في دار الابتلاء بأنواع التكليفات، والمأمور فيها بامتثال الأوامر، وترك المنهيات ﴿كِتَابَكَ﴾ أي: مكتوبك المشتمل على جميع ما صدر عنك؛ إذ ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ﴾ أي: كفى نفسك اليوم ﴿عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:14] أي: كافيًا وشهيدًا بلا احتياج لك إلى محاسب آخر.

﴿مَّنِ اهْتَدَى﴾ في النشأة الأولى بمتابعة ما أُمر ونُهي ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي﴾ ويفيد ﴿لِنَفْسِهِ﴾ إذ نفعُ الهداية هو الوصول إلى مرتبة الخلافة والنيابة التي جُبل الإنسان عليها، عائد إلى الموحد نفسه بلا سراية إلى غيره، إلّا على وجه الإرشاد والتنبيه ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَن ضَلَّ﴾ عن طريق الحق، وانحرف عن مسلك التوحيد بترك المأمورات، وارتكاب المنهيات ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: إنما لا يعود ويرجع وبال ضلالها إلّا على

(1) قال التأويلات: يشير إلى ما طار لكل إنسان في الأزل وتعد بالحكمة الأزلية والإرادة القديمة من السعادة والشقاوة ويجري عليه من الأحكام المقدرة، والأحوال التي جرى بها العلم من الخلق والخلق والرزق والأجل، ومن صغائر الأعمال وكبائرها المكتوبة له، وهو بعد في العدم وطائره ينتظر وجوده، فلما أخرج كل إنسان من العدم إلى الوجود وقع طائره في عنقه ملازمًا له في حياته ومماته حتى يخرج من قبره يوم القيامة وهو في عنقه.

نفسها بلا سرايةٍ إلى غيرها، إلّا تسببًا وإضلالاً.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَاتَزِرُ﴾ ولا تحمل نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ آثمة عاصية ﴿وِزْرَ﴾ نفس ﴿أُخْرَى﴾ مثلها، بل كل نفسٍ رهينة ما كسبت، سواء كان خيرًا أو شرًا ﴿وَ﴾ بعدما قرر سبحانه أن الهداية والضلالة لا تسري إلى الغير، أراد أن يبين سبحانه أن الأخذ على الضلال إنما هو بعد الإرشاد والتنبيه، فقال: ﴿مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ لأهل الضلال ﴿حَتَّى نَبْعَثَ﴾ ونرسل إليهم ﴿رَسُولاً﴾ [الإسراء:15] منهم، حين ظهر عليهم علامات الفسوق والعصيان، وأمارات الضلال والطغيان؛ ليبين لهم طريق الهداية، ويرغبهم إليها، ويجنبهم عن الضلال، وينفرهم عنها.

وبعد بعثنا وإرسالنا، إن لم يقبلوا قول الرسل، ولم يمتثلوا بما أُمروا على ألسنتهم، ونُهوا عليها، بل أصروا على ما هم عليه من الضلال، أُخذوا وعُذبوا ﴿وَ﴾ كذلك جرت سنتنا أنّا ﴿إِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ﴾ ونستأصل ﴿قَرْيَةً﴾ مستحقةً للإهلاك والاستئصال ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي: متنعميها بالإطاعة والانقياد ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ وخرجوا عن مقتضى الأمر، ولم يبالوا به ﴿فَحَقَّ﴾ أي: ثبت واستقر ﴿عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ أي: على أهل القرية العذابُ الموعود والمعهود ﴿فَدَمَّرْنَاهَا﴾ وأهلكنا أهلها؛ بسبب فسقهم، وخروجهم عن الإطاعة والامتثال بالمأمور ﴿تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء:16] أي: هلاكًا كليًا، واستئصالاً حقيقيًا إلى حيث لم يبقَ منهم ومن عمرانهم وزراعاتهم شيء.

ليس أمثال هذا الإهلاك ببدعٍ منا، بل ﴿وَكَمْ﴾ أي: كثيرًا ﴿أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ﴾ الماضية ﴿مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ كعادٍ وثمود؛ لعتوّهم وعنادهم مع رسول الله ﴿وَ﴾ لا يحتاج لإثبات ضلال أولئك الضالين المضلين إلى شاهدٍ ومبينٍ، بل ﴿كَفَى بِرَبِّكَ﴾ أي: كفى ربك يا أكمل الرسل ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِ﴾ وخروجهم عن إطاعته وانقياده ﴿خَبِيرًا﴾ إذ هو عالم بما في سرائرهم وضمائرهم، بل ما في استعداداتهم ﴿بَصِيرًا﴾ [الإسراء:17] بما هو في ظواهرهم وعلنهم.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا

تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء: 18 – 27].

﴿مَن كَانَ﴾ منهم ﴿يُرِيدُ﴾ اللذات ﴿العَاجِلَةَ﴾ والشهوات الفانية الزائلة ﴿عَجَّلْنَا﴾ وأعطينا ﴿لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ أي: في النشأة الأولى ابتلاءً له، واختبارًا وتلبيسًا عليه واغترارًا، مطلعون على ما في سره وضميره ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا﴾ وهيأنا في النشأة الأخرى ﴿لَهُ جَهَنَّمَ﴾ منزل الطرد والحرمان، حال كونه ﴿يَصْلاهَا مَذْمُومًا﴾ مشئومًا محرومًا ﴿مَّدْحُورًا﴾[1] [الإسراء:18] مطرودًا مقهورًا.

﴿وَمَنْ أَرَادَ﴾ منهم بامتثال الأوامر المتعلقة لمصالح الدين، وباجتناب نواهيه ﴿الآخِرَةَ﴾ أي: اللذة الأخروية الأبدية ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: حق سعيها على مقتضى الأمر الإلهي ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ﴾ في حال السعي والاجتهاد ﴿مُؤْمِنٌ﴾ موقن، مصدق بوحدانية الله، وبما جاء من عنده على رسله، بلا شوب تزلزل وتردد ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ السعداء المقبولون ﴿كَانَ سَعْيُهُم﴾ واجتهادهم في امتثال الأوامر، واجتناب النواهي ﴿مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:19] مقبولاً مستحسنًا، وعملهم مبرورًا، وجزاؤهم

---

(1) قال في التأويلات: مطرودًا مهينًا ذليلاً، واعلم أن فيها إشارة إلى أن الله تعالى خلق الإنسان مركبًا من الدنيا والآخرة، ولكل جزء منهما ميل وإرادة إلى كله ليتغذى منه ويتقوى ويتكمل به، وإن في جزئه الدنيوي وهو النفس طريق إلى دركات النيران، وفي جزئه الأخروي وهو الروح طريق إلى درجات الجنان، وخلق القلب في هذين الجزءين، وله طريق إلى بين إصبعي الرحمن إصبع اللطف وإصبع القهر، فمن يرد الله أن يكون مظهر قهره أزاغ الله قلبه، وحول وجهه إلى الدنيا فيريد العاجلة ويربي بها نفسه إلى أن يبلغه إلى دركات جهنم البعد وتصلى نار القطعية، ومن يرد الله أن يكون مظهر لطفه أقام قلبه وحول وجهه إلى عالم العلو فيريد الآخرة.

موفورًا، وهم صاروا في دار الجزاء مغفورًا مسرورًا.

﴿كُلًّا نُمِدُّ﴾ أي: كل واحد من الفريقين المطيع والعاصي نُيسر ونوفق على مقتضى ما يهوى ويريد ﴿هَؤُلَاءِ﴾ المؤمنين المطيعين، نوفقهم على الطاعات، ونجنبهم عن المعاصي ﴿وَهَؤُلَاءِ﴾ الكافرين العاصين، نُيسر لهم ما تميل إليه نفوسهم من الأهوية الفاسدة، والآراء الباطلة؛ إذ كلٌّ ميسر لما خلق له.

كل ذلك ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل الذي ربَّاك وجميع عباده بأنواع اللطف والكرم ﴿وَ﴾ كيف لا ييسر لهم سبحانه، ولا يوفقهم؛ إذ لا رازق لهم سواه، ولا معطي لهم غيره؟! لذلك ﴿مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:20] ممنوعًا عن الكافر لكفره وعصيانه، موفورًا على المؤمن لإيمانه، بل لا يعلِّل فعل بالأعراض والأعواض مطلقًا، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد إرادةً واختيارًا.

والتفاوت الجاري بين عباده إنما هو لحكمةٍ ومصلحةٍ استأثر الله به في غيبه، لا اطلاع لأحدٍ عليه؛ لذلك قال: ﴿انظُرْ﴾ أيها الناظر المعتبر ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ﴾ في النشأة الأولى بالمال والجاه، والثروة والرئاسة ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾ مبتلى بالفقر والمسكنة، وأنواع المذلة والهوان ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ المعدَّة للذات الروحانية، والحقائق والمعارف، والمكاشفات والمشاهدات ﴿أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ﴾ لبقاء ذاتها أبد الآباد ﴿وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:21] من فضل المستعار الفاني الزائل بسرعة.

ومتى اعتبرتَ أيها المعتبر، وتأملت ما فيه من العبر ﴿لَا تَجْعَلْ﴾ ولا تتخذ ﴿مَعَ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد، المتعزز برداء الفردانية ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾ كفؤًا له، يُعبد بالحق مثله، وكيف تجعل وتأخذ ربًا سواه؛ إذ ليس في الوجود إلَّا هو ﴿فَتَقْعُدَ﴾ بعد جعلك واتخاذك إلهًا سواه خائبًا خاسرًا، بل ﴿مَذْمُومًا﴾ عند الملائكة وجميع النبيين ﴿مَخْذُولًا﴾ [الإسراء:22] عند الله يوم العرض الأكبر؟!.

﴿وَ﴾ كيف تتخذ إلهًا سواه، مع أنه ﴿قَضَى رَبُّكَ﴾ وحكم حكمًا مقطوعًا مبرمًا ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ أي: بألَّا تعبدوا أيها البالغون لحد التكليف ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إذ لا مستحق للعبادة والانقياد سواه؛ إذ هو المستقل بإيجادكم وإظهاركم بلا مشاركة ومعاونة، فعليكم أن تعظِّموه وتوقِّروه، وتذللوا نحوه غاية التذلل والخضوع.

﴿وَ﴾ أن تحسنوا ﴿بِالْوَالِدَيْنِ﴾ اللذين هما السبب الظاهري لتربيتكم وظهوركم ﴿إِحْسَانًا﴾ سلسًا طلقًا فرحانًا، بلا شوب المنة والأذى، سيما ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾ أي: أن

يبلغن ﴿عِندَكَ﴾ أيها الولد ﴿الكِبَرَ﴾ أي: سن الكهولة. بحيث عجز عن خدمة نفسه ﴿أَحَدُهُمَا﴾ أي: أحد الوالدين ﴿أَوْ كِلاهُمَا﴾ معًا ﴿فلا تقُل لَّهما﴾ في جميع الأحوال، سيما عند الكبر والكهولة: ﴿أُفٍّ﴾ أي: صوتًا شديدًا دالاً على تضجرهما وردعهما ﴿وَ﴾ إن خرجا عن مقتضى العقل، وفعلا فعلاً يجب لك صرفهما عنه ﴿لا تَنْهَرْهُمَا﴾ ولا تقهرهما زجرًا عليهما ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ [الإسراء:23].

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اخْفِضْ﴾ وابسط ﴿لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ والتواضع والمسكنة ﴿مِنَ﴾ كمال ﴿الرَّحْمَةِ﴾ والشفقة عليهما ﴿وَ﴾ لا يقتصر على الخفض والشفقة الدنيوية، بل ﴿قُل﴾ لهما ولأجلهما مناجيًا مع الله: ﴿رَّبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ على مقتضى رحمتك الواسعة، وجودك الشامل ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء:24] أي: ارحمهما بفضلك، مثل رحمتهما وتربيتهما إياي في حال صغري وطفولتي.

فعليكم أن تكونوا في دعائهما على العزيمة الصحيحة، والمحبة الخالصة، بحيث يكون بواطنكم موافقة لظواهركم، مثل تربيتهما إياكم حالة صغركم، ولا تتمنوا موتهما في قلوبكم؛ إذ ﴿رَّبُّكُمْ﴾ المطلع على سرائركم ﴿أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ من ابتغائكم موتهما، أو برهما وتكريمهما، فالله سبحانه يعفو عنكم، ويقبل توبتكم ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ مصلحين ما فوّتم وأفسدتم على نفوسكم من حق تعظيمهما وتوقيرهما ﴿فَإِنَّهُ﴾ سبحانه من كمال جوده وفضله ﴿كَانَ لِلأَوَّابِينَ﴾ الرجّاعين إليه سبحانه، النادمين بما صدر عنهم من المعاصي، سيما ما يتعلق بعقوق الوالدين ﴿غَفُورًا﴾ [الإسراء:25] يغفرهم ويتجاوز عنهم.

﴿وَ﴾ لا تقتصر أيها الولد على تعظيم والديك فقط، بل عليك تعظيم كل من ينتمي إليك من قِبَلهما؛ لذلك ﴿آتِ﴾ وأعط ﴿ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ أي: حق تواضعهم وتوقيرهم إن كانوا أغنياء، وأنفِق عليهم إن كانوا فقراء ﴿وَ﴾ آت من زكاة أموالك، وفواضل صدقاتك ﴿الْمِسْكِينَ﴾ الذي لا يقدر على قوته وقوت عياله ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ أيضًا الذي يبعد عن بلده، وليس معه مؤنة معاشه، وكن في إنفاقك مقتصدًا معتدلاً ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء:26] أي: لا تسرف إسرافًا مفرطًا خارجًا عن حد الاعتدال، سيما فيما لا يعني وينبغي؛ إذ التبذير والتقتير كلاهما مذموم عقلاً وشرعًا.

لذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ﴾ المسرفين أموالهم رياءً وسمعةً ﴿كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي: أشباههم وأتباعهم في صرف الأموال الموهوبة من الله إلى غير

المصرف، وغير المستحق من المصارف، بل صرفوها إلى المحظورات والمكروهات، بإغواء الشياطين وإغرائهم ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ﴾ الغوي الطاغي ﴿لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 27] لنعم الله، فيغري أتباعه إلى الكفران أيضًا.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: 28 – 38].

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ أي: إن تحقق إعراضك ومنعك عن هؤلاء المستحقين المذكورين، سيما بعدما سألوا عنك العطاء ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ﴾ أي: طلب رحمة وشفقة مرجوة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ حال كونك ﴿تَرْجُوهَا﴾ أي: الرحمة لهم؛ لعلمك بأنهم صرفوها إلى القبائح والمعصية، فعليك أن تمنعهم وتردهم هينًا لينًا، بلا تشدد وغلظة ﴿فَقُل لَّهُمْ﴾ حين دفعهم: ﴿قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء:28] سهلاً إلى حيث لا ييأسوا ولا يحزنوا، مثل أن تقول: سهّل الله علينا وعليكم، ويسّر لنا ولكم من فضله وجوده.

وبعدما نهى سبحانه عن التبذير صريحًا، والإعراض عن صرف النعمة إلى المعصية، نهى عن مطلق البخل والتبذير المذمومين تأكيدًا ومبالغةً، فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ معقودة ﴿إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ بحيث لا يسع لك إعطاء شيء مما رزق الله لك

على مستحقه شُحًّا وبخلاً؛ إذ هو إفراطٌ وتقتيرٌ ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ بحيث لا قرار لك عندها أصلاً، فهذا تفريطٌ وتبذيرٌ، وكلاهما مذمومان شرعًا وعقلاً، فعليك بالاقتصاد الذي هو عبارة عن الكرم والجود، وهو صراط الله الأعدل الأقوم ﴿فَتَقْعُدَ﴾ بعد اتصافك بالبخل والتقتير ﴿مَلُومًا﴾ عند الله، وعند الملائكة والناس أجمعين، واتصفت بالتبذير والإسراف، تقعد ﴿مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء:29] نادمًا متحسرًا، قلقًا حائرًا في نظم معاشك.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ الصوري والمعنوي، ويوسعه ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ من عباده على مقتضى علمه بحالهم، وسعة استعدادهم، وقابلية حوصلتهم ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقبض ويضيّق لمن يشاء منهم على مقتضى علمه بضيق صدرهم، وقلة تمكنهم ووقارهم؛ إذ الله الحكيم المتقن في أفعاله لا يتجاوز عن مقتضى حكمته ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ﴾ عليمًا ﴿خَبِيرًا﴾ عن بواطنهم وضمائرهم، وما يؤول إليهم أمورهم ﴿بَصِيرًا﴾ [الإسراء:30] بظواهر أحوالهم، وتقلباتهم في شئونهم وتطوراتهم.

﴿وَلَاتَقْتُلُوا﴾ أيها البالغون لرتبة التكليف الإلهي ﴿أَوْلَادَكُمْ﴾ الحاصلة من أصلابكم، سواء كانوا بنين أو بنات بلا رخصة شرعية، سيما ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾[1] أي:

(1) قال في التأويلات: إلى هذا الموضع وهو عشر آيات إشارة إلى تبديل عشر خصال مذمومة بعشر خصال محمودة. أما المذمومات:
فأولها: البخل، وثانيها: الأمل، وهما في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ﴾ [الإسراء:31] فإن البخل وطول الأمل حملهما على قتل أولادهم فدلهم على تبديلهما بالسخاء والتوكل بقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:31]، وثالثهما: الشهوة، وهي في قوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:32] فإن غلبة الشهوة يورث الزنا فبدلها بالعفة حين نهاهم عن الزنا، ورابعها: الغضب، وهو في قوله: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء:33] فإن استيلاء الغضب يورث القتل بغير الحق فبدله بالحلم في قوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ [الإسراء:33]، وخامسها: الإسراف، وهو في قوله: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء:33] فإن الإفراط في كل شيء يورث الإسراف فبدله بالقوام، وسادسها: الحرص، وهو في قوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ [الإسراء:34] فإن التصرف في مال اليتيم من الحرص فبدله بالقناعة بقوله: ﴿إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الإسراء:34]، وسابعها: نقض العهد فبدله بالوفاء بقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء:34]، وثامنها: الخيانة، فبدلها بالأمانة ﴿وَأَوْفُوا

فقر وفاقة؛ إذ ﴿نَّحْنُ﴾ من سعة جودنا، ووفور رحمتنا ﴿نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ إذ لا رازق لكم ولهم سوانا ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ﴾ إن صدر عنكم ﴿كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:31] أي: ذنبًا عظيمًا.

﴿وَ﴾ عليكم أيها المؤمنون المتدرجون في مسالك التحقيق أن ﴿لَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ بترتيب مقدمات تترتب عليها تلك الفعلة القبيحة، فكيف الإتيان بها. العياذ بالله. ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الزنا ﴿كَانَ فَاحِشَةً﴾ مسقطة للعدالة، مزيلة للمروءة، مبطلة لحكمة التناسل التي هي المعرفة الإلهية؛ إذ ولد الزنا لا يبلغ مرتبة الولاية والعرفان أصلاً ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:32] لقضاء الشهوة المعدَّة لسر الظهور والإظهار من لدن حكيم عليم.

﴿وَ﴾ عليكم أيضًا أيها الموحدون القاصدون إلى معارج التوحيد أن ﴿لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قتلها؛ إذ هي بيت الله، وتخريب بيته من أعظم الكبائر ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: إلّا برخصة شرعية من قصاص وحدّ وردّة، إلى غير ذلك من الأمور التي عيّنها الشرع ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ بلا رخصة شرعية ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا﴾ بمقتضى عدلنا ﴿لِوَلِيِّهِ﴾ أي: لمن يلي أمر المقتول بعده ﴿سُلْطَانًا﴾ سطوة وغلبة على القاتل الظالم مع

الكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء:35]، وتاسعها: الظلم وهو وضع الشيء في غير موضعه باستعمال الجوارح والأعضاء على خلاف ما أمره وذلك في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:36] فبدله بالعدل بقوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:36] فظلم السمع باستعماله في استماع الغيبة واللغو، والرفث والبهتان والقذف والملاهي والفواحش، وعدله استعماله في استماع القرآن والأخبار والعلوم والحكم والمواعظ والنصيحة والمعروف وقول الحق، وظلم البصر النظر إلى المحرمات والشهوات وإلى من فوقه في دنياه وإلى متاع الدنيا وزينتها وزخارفها، وعدله النظر في القرآن والعلوم وإلى وجه العلماء والصلحاء، ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم:50] وإلى الأشياء بنظر الاعتبار، وإلى من دونه في دنياه، وإلى من فوقه في دينه، وظلم الفؤاد قبول الحقد والحسد والعداوة وحب الدنيا والتعلق بما سوى الله، وعدله تصفيته عن هذه الأوصاف الذميمة وتحليته بالأوصاف الحميدة وتبديل هذه الصفات والتخلق بأخلاق الله، وعاشرها: الكبر وهو في قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: 37] فإن المشية بالخيلاء من الكبر فبدله بالتواضع بقوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء:37] أي: من الكبر فألزمه التواضع.

معاونة الحكام له ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ أي: الولي المنتقم ﴿فِي الْقَتْلِ﴾ لقصاص المقتول المظلوم بأن يقتل غير القاتل بدله، أو يُقتل هو مع غيره، وكيف لا يُقتل الظالم بدل المقتول المظلوم ﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ أي: المظلوم ﴿مَنصُورًا﴾ [الإسراء:33] عند الله، وعند جميع الخلائق؟!.

﴿وَ﴾ عليكم أيضًا أيها المتوجهون نحو الحق بالعزيمة الصحيحة، والقصد الخالص أن ﴿لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ الذي لا متعهد له من الأبوين ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بحالهم من ازدياد أموالهم وتنميته، وحفظه وتعميره على وجه العدالة والمروءة ﴿حَتَّى يَبْلُغَ﴾ اليتيم ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي: رشده، وبلغ إلى سن التمييز والتصرف، فلكم أيها المتعهدون المتحفظون لأموال اليتامى ردها إليهم بعد اختبارهم وامتحانهم مرارًا، وبالجملة: لكم أيها الموحدون الإيفاء والوفاء بالعهود والمواثيق مطلقًا، سواء كانت مما بينكم وبين الله، أو بين المؤمنين من عباده ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ﴾ والميثاق ﴿كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء:34] في النشأة الأخرى، وناقضه مؤاخذًا، وموفيه مأجورًا.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي: عليكم إيفاء الكيل ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾ لغيركم ﴿وَزِنُوا﴾ أيضًا، إذا زنتم ﴿بِالْقِسْطَاسِ﴾ أي: الميزان ـ وهو لفظ سرياني ـ ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ الذي لا ميل له إلى جانب، بل صار كفتاه على السوية بلا ميل ﴿ذَلِكَ﴾ أي: إيفاؤكم واستقامتكم في المكيال والميزان ﴿خَيْرٌ﴾ جالب لأنواع الخيرات في الدنيا ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [الإسراء: 35] أي: عاقبةً ومآلاً في العقبى.

﴿وَلَا تَقْفُ﴾ أي: لا تتبع أيها المؤمن الموقن، الطالب للوصول إلى مرتبة التوحيد ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: ما لم يتعلق علمك به تقليدًا أو تخمينًا؛ إذ أنت يوم الجزاء مسئول عما رُمته بلا علم، وأقدمتَ عليه بأي عضو وجارحة، وقلتَهُ رجمًا بالغيب ﴿إِنَّ السَّمْعَ﴾ قدمه؛ لأنه نُسبتْ إليه أكثر المفتريات والكواذب ﴿وَالْبَصَرَ﴾ لأن النفس تقع في أكثر الفتن والمهالك برؤية البصر ﴿وَالْفُؤَادَ﴾ الذي هو أصل في إنشاء الكواذب والمزوّرات ﴿كُلُّ أُولَئِكَ﴾ أي: كل واحد من القوى الثلاثة ﴿كَانَ﴾ يوم القيامة ﴿عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء:36] فتقرُّ أولئك القوى بعدما سُئل عمّا صدرت منها من المعاصي، فيفتضح صاحبها على رءوس الأشهاد.

﴿وَلَا تَمْشِ﴾ أيها الطالب لعدالة التوحيد والعرفان ﴿فِي الأَرْضِ﴾ التي أعدت

للتذلل والانكسار، والتواضع والخشوع ﴿مَرَحًا﴾ ذا كبرٍ وخيلاءٍ، فكيف تختال وتتكبر أيها المهان المخلوق من المهين ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ بشدة قوتك ووطأتك ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ﴾ باستعلائك واستكبارك ﴿طُولاً﴾ [الإسراء:37] أي: مدة متطاولة حتى تستعلي بها على من دونك؟! وبالجملة: لا تتكبر ولا تتجبر أيها العاجز الضعيف مع ضعفك، وقصير عمرك.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ من النواهي المذكورة، مِنْ ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: 22] إلى هنا، ﴿كَانَ سَيِّئُهُ﴾ أي: ثبت وتحقق كونه سيئة، وإنما ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ لذلك كان ﴿مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء:38] منهيًا عنه، مبغوضًا عليه.

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الإسراء: 39 – 49].

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأحكام المتقدمة، مِنْ أول السورة إلى هنا ﴿مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل تربيةً لك، وتأييدًا لأمرك ﴿مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ المتقنة التي يجب الامتثال والاتصاف بها على من أراد سلوك سبيل التوحيد، المبنيّ على عدالة الأخلاق والأطوار والشئون ﴿وَ﴾ معظم المنهيات والمحظورات: الشرك بالله ـ العياذ بالله منه ـ

لذلك كرره تأكيدًا ومبالغةً، وبالغ في الاحتراز عنه حبيبه، حيث قال: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ﴾ المتوحد المتفرد في ذاته، المعبود بالحق والاستحقاق ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾ يعبد له كعبادته، وإن اتخذتَ إلهًا سواه ﴿فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان، حال كونك ﴿مَلُومًا﴾ تلوم نفسك بأنواع الملومات بما ضاع عنك من التوحيد المنجي عن جميع المضائق والمهالك ﴿مَدْحُورًا﴾ [الإسراء:39] مبعدًا عن رحمة الله، وسعة فضله وإحسانه.

﴿أَ﴾ تزعمون أيها المشركون المستكبرون أن الله المتعزز برداء العظمة والكبرياء فضّلكم على نفسه ﴿فَأَصْفَاكُمْ﴾ أي: خصصكم واجتباكم ﴿رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ الذين هم أكرم الأولاد وأشرفها ﴿وَاتَّخَذَ﴾ لنفسه أولادًا ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ نواقص عقلاً ودينًا ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المسرفون بإقدامكم واجترائكم على الله بأمثال هذه الهذيانات الباطلة ﴿لَتَقُولُونَ﴾ في حق الله ﴿قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء:40] بهتانًا وزورًا، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

إذ نسبة الأولاد إلى الصمد المنزه عن الأنداد في نهاية الشناعة والفساد، وأشنعُ منه نسبة الإناث إليه، ثمّ نسبة الملائكة الذين هم من أفضل عباد الله وأشرفهم إلى الأنوثة المستحقرة المذمومة شرعًا وعقلاً، هذا مع غاية الإفراط في حق الله، والتفريط في خلّص عباده؛ لذلك وصف سبحانه هذا القول الشنيع بالعظمة.

ثمّ قال سبحانه توبيخًا لهم وتقريعًا، وإشارةً إلى تناهيهم في الضلال والطغيان: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ وكررنا مرارًا شناعةَ هذا القول؛ أي: نسبة الولد إلى الله الصمد المنزه في ذاته عن الأهل والولد ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ المنزل لهداية أهل الغي والضلال ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي: ليتذكروا ويتعظوا، ويتفطنوا إلى وخامة عواقبه ومآله، ومع ذلك لم يتذكروا ولم يتفطنوا، بل ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التكرار والمبالغة ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء:41] إعراضًا عن الحق، وإصرارًا على ما هم عليه من الباطل.

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا وتبكيتًا: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ﴾ أمثاله ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ وتدّعون أيها المشركون، هم معبودون بالحق، مستحقون للعبادة كما زعمتم ﴿إِذًا لَّابْتَغَوْا﴾ ولطلبوا ﴿إِلَى﴾ معاداة ﴿ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:42] ليغلبوا عليه، ويستولوا على ملكه، كما يفعل الولاة بعضهم مع بعض؛ إذ لو عجزوا عن مماراته ومقابلته؛ لم يكونوا مثله، فلم يستحقوا للعبادة المطلقة مثله.

﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: نزه سبحانه ذاته تنزيهًا بليغًا، وقدس تقديسًا متناهيًا في القدس والنزاهة ﴿وَتَعَالَى﴾ أي: تَرفَّع وتعاظم ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ هؤلاء الظالمون، المسرفون المفرطون في شأنه من إثبات الشريك المماثل له، والكفء المتكافئ معه ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:43] أي: تعاليًا وتباعدًا في غاية البعد والاستحالة؛ إذ لا موجود سواه، ولا إله غيره.

وكيف تغفلون وتذهلون عن دلائل توحيد الحق وشواهده أيها الضالون المضلون، مع أنكم مجبولون على فطرة المعرفة والتوحيد، ومع ذلك ﴿تُسَبِّحُ لَهُ﴾ وتُقدِّس ذاته عن الشريك والولد، والكفء والنظير ﴿السَّمَوَاتُ السَّبْعُ﴾ المطبقة المعلقة المنضودة، المنظومة على أبلغ النظام وأعجبه، مع ما فيها من الكواكب المختلفة الألوان والأشكال، والمنازل والحركات والآثار المترتبة عليها، ومع ما فيها من عجائب المخلوقات، وغرائب المبدعات والمخترعات التي لا علم لنا إلّا بأنياتها دون لمياتها، كل ذلك يدل على وحدة مظهرها وبارئها ﴿وَالْأَرْضُ﴾ وما عليها من أنواع النباتات والمعادن والحيوانات التي عجزت عن إحصائها ألسنة أولي البصائر والنهى، المعتبرين المتأملين في مصنوعات الحق، وعجائب مخترعاته ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ من الملائكة والثقلين، المجبولين على عبادة الحق وعرفانه.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِن مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ما من شيء مما يطلق عليه اسم الشيء، ويمتد عليه ظلُّ الوجود ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي: ينزهه ويقدسه عن شوب الحدوث والإمكان، بعضها بالحال، وبعضها بالمقال، سيما عن أقوى أمارات الإمكان التي هي الإيلاد والاستيلاد.

﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ﴾ تفهمون أيها المنهمكون في الغيّ والضلال ﴿تَسْبِيحَهُمْ﴾[1]

---

(1) قال نجم الدين: اعلم أن الله تعالى أثبت لكل ذرة من ذرات الموجودات ملكوتًا بقوله: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس:83] والملكوت باطن الكون وهو الآخرة والآخرة حيوان لا جماد كقوله: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:64] فأثبت بهذا الدليل لكل ذرة من ذرات الموجودات لسانًا ملكوتيًا ناطقًا بالتسبيح والحمد تنزيهًا لصانعه وقادره وحمدًا له على ما أولاه من نعمة، وبهذا اللسان نطق الحصى في يد النبي ﷺ، وبهذا تنطق الأرض يوم القيامة، وكما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة:4] وبهذا اللسان نطق الحصى وتشهد أجزاء الإنسان وأبعاضه عليه يوم القيامة وبقوله: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ

لعدم اشتغالكم بالتدبر والتأمل في مصنوعات الحق، والتفكر في آياته، بل تنكرونها وتصرون على القدح فيها عنادًا ومكابرةً، وتشركون بالله - العياذ بالله منه - أندادًا، وبذلك استوجبتم أشدَّ العذاب والنكال، فأمهلكم الله ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالانتقام والعقوبة رجاءَ أن تتعظوا وترجعوا نحوه بالتوبة والندم على وجه الإخلاص، فيغفر زلتكم كلها، إنه كان ﴿غَفُورًا﴾ [الإسراء:44] للأوَّابين التوابين، الرجَّاعين إليه بكمال الندم والإخلاص، وإن عظمت زلتهم، وثرت معصيتهم.

﴿وَ﴾ من كمال لطفنا معك يا أكمل الرسل، وغاية حفظنا وحراستنا إياك ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ واستغرقت في لجج رموزه وإشاراته، وخضتَ في تيار بحاره لِطَلَبِ فرائد فوائده، وصرتَ من غاية استغراقك وتلذذك بها إلى أن غبتَ عن محافظة نفسك، ومراقبة حالك ﴿جَعَلْنَا﴾ وصيرنا ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَ﴾ القوم ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ولا يوقنون بالأمور المترتبة عليها فيها ﴿حِجَابًا﴾ غليظًا، وغشاءً كثيفًا ﴿مَّسْتُورًا﴾[1] [الإسراء:45] يسترك عن أعين أعدائك، القاصدين لك سوءًا، مع أنهم لا يرون الحجب أيضًا.

روى سعيد بن جبير ﷺ أنه لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:1] جاءت امرأته بحجرٍ لترضخ به رأس رسول الله ﷺ ، وهو جالس مع أبي بكر ﷺ،

شَيْءٍ﴾ وبهذا اللسان نطقت السماوات والأرض حين ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:11] فافهم جدًّا واغتنم.

(1) قال نجم الدين كبرى: يشير إلى أن من قرأ القرآن حق قراءته ارتقى إلى أعلى المراتب كما قال ﷺ: «يقال - يعني: لصاحب القرآن - اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها» قال أبو سليمان الخطابي: جاء في الأثر أن عدد آي القرآن على عدد درج الجنة فمن استوفى جميع آي القرآن استولى على أقصى درج الجنة، قلت: واستيفاء جميع آي القرآن في الحقيقة هو التخلق بأخلاق القرآن، فالقرآن من أخلاق الله وصفاته والمتخلق بأخلاقه يكون متخلقًا بأخلاق الله، وهذا يكون بعد العبور عن حجب الظلماني والنوراني متمكنًا ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55] فهو الذي جعل بينه وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مستورًا، وإنما قال: ﴿حِجَاباً مَّسْتُوراً﴾ [الإسراء:45] ولم يقل ساترًا؛ لأن الحجاب يستر الواصل عن المنقطع ولا يستر المنقطع عن الواصل فيكون الواصل بالحجاب مستورًا عن المنقطع، والله أعلم.

فسألت: أين صاحبك، لقد بلغني أنه هجاني؟ فقال أبو بكر: ما نطق صاحبي بالشعر، ثمّ قال أبو بكر: ما رأتك يا رسول الله، فقال ﷺ: «لَمْ يَزَلْ مَلَكٌ بَيْنِي وَبَيْنَ أَعْدَائِي، أَنَا أَرَاهُمْ وَلاَ يَرَوْنَنِي»[1].

﴿وَ﴾ كيف لا يكون الكافر محجوبًا مستورًا عن سرائر القرآن ومرموزاته؛ إذ ﴿جَعَلْنَا﴾ أي: غطّينا ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ غشاوةً كثيفة تمنعهم ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ ويفهموا معناه ﴿وَ﴾ جعلنا ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: حممًا وثقلاً، يمنعهم عن استماع ألفاظه حتى يتأملوا ويتدبروا في معناه ﴿وَ﴾ من غلظ غشاوتهم، وكثافة أكنتهم ﴿إِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ منفردًا، بلا ذكر آلهتهم ﴿وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ﴾ معرضين كارهين ﴿نُفُورًا﴾ [الإسراء:46] متنفرين ساخطين عليك؟!.

ولا تبال يا أكمل الرسل بهم، وبسماعهم واستماعهم وعدمه، ولا تلتفت نحوهم؛ إذ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ أي: يفرضون المتعلق باستماعهم الذي هو الاستهزاء والسخرية، وقت ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَ﴾ كيف لا يكونون مستهزئين مستسخرين ﴿إِذْ هُمْ﴾ حين استماعهم كلامك ﴿نَجْوَى﴾ أي: ذوو مناجاة، يضمرون في نفوسهم مقتك وهلاكك، وأقله الاستهزاء معك؟! اذكر ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ منهم على سبيل العناد والمكابرة لأهل العدل والتوحيد: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما تتبعون أيها الضالون ﴿إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء:47] سحر به فجن، فاختلط كلامه، وذهب عقله، وتكلم من تلقاء نفسه كلامًا يشبه كلام العقلاء.

﴿انظُرْ﴾ أيها الناظر بنور الله، المؤيّد من عنده ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾ الحشو والبتراء من غاية اضطرابهم وتهالكهم، مرةً يقولون: إنك شاعرٌ، ومرةً: ساحرٌ، ومرةً: كاهنٌ، ومرةً: مجنونٌ ﴿فَضَلُّوا﴾ عن طريق الحق في جميع ما نسبوا إليك، وإلى ما جئت به من الكلام المعجز في أعلى مراتب الإعجاز ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾ إلى مقتك وقدح كتابك ﴿سَبِيلاً﴾ [الإسراء:48] واضحًا موجهًا، بل خبطوا في جميع ما نسبوا خبط عشواء، فضلّوا عن السبيل السواء.

﴿وَ﴾ من غاية انهماكهم في الغيّ والضلال، ونهاية إنكارهم بحقية القرآن ﴿قَالُوا﴾ مستبعدين متعجبين على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا﴾ أي:

---

(1) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (601/8).

أنبعث ونُحيي بعدما صرنا عظامًا باليةً رميمةً ﴿وَرُفَاتًا﴾ أي: غبارًا مرفوتًا، تذروه الرياح ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ محشورون من قبورنا ﴿خَلْقًا﴾ آخر ﴿جَدِيدًا﴾ [الإسراء:49] معادًا للخلق الأول، لا مثلاً له، بل عينًا، بلا مغايرة أصلاً، كلَّا وحاشا، من أين لنا هذا؟!.

﴿۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ [الإسراء: 50 – 58].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم تبكيتًا لهم وإلزامًا: لا تستبعدوا أيها الضالون المعاندون أمثال هذا البعث والحياء عن قدرة الله في الأشياء التي عهدوا حياتها من قبل؛ إذ لا بُعْدَ ولا غرابة فيها، بل ﴿كُونُوا حِجَارَةً﴾ أبعد بمراحل عن قبول الحياة ﴿أَوْ حَدِيدًا﴾ [الإسراء:50] هو أشدّ بعدًا.

﴿أَوْ خَلْقًا﴾ آخر مثلاً، هو ﴿مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ ويستحيل في نفوسكم اتصافه بالحياة، فالله المقتدر بالقدرة الكاملة، والقوة الشاملة قادر على إحيائها وإيجادها، إن تعلقتْ إرادته، ومضت مشيئته على تكوينه وإظهاره، ثمّ بعدما أُفحموا من سماع الحجة القوية، وانحسرت عقولهم عن المقابلة معها ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ مستفهمين عن تعيين الحق المبدئ المعيد على سبيل الإنكار: ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾ بعد موتنا وصيرورتنا عظامًا ورفاتًا؟ ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ﴾ وأظهركم من كتم العدم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إظهارًا إبداعيًا،

وإيجادًا اختراعيًا، بلا سبق مادةٍ ومدةٍ، فإعادتكم أهون عليه من إبدائكم وإبداعكم.

وبعدما سمعوا منك قولك ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ ويحركون ﴿إِلَيْكَ﴾ أيها المؤيَّد من عند الله لإلزام أولئك الغواة والطغاة، الهالكين في تيه المكابرة والعناد ﴿رُءُوسَهُمْ﴾ على وجه الاستبعاد والاستهزاء ﴿وَيَقُولُونَ﴾ مستسخرين: ﴿مَتَى هُوَ﴾ مع أن الأنبياء الماضين يدَّعون مثلك قيامها، فلم تقع بعدُ، وأنت أيضًا تدَّعي، فلا تقع، وما هي إلَّا مجرد الدعوى منكم ومنهم، بلا وقوعٍ ولا ورودٍ؟! ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء:51] أي: بعدما ختم أمر الرسالة والتشريع، وكمُل بناء الدين، قَرُبَ وقوعها.

فانتظروا أيها المؤمنون المصدقون ليوم البعث والحشر مترصدين مترقبين ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ الله للبعث والحشر ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ طائعين راغبين ملتبسين ﴿بِحَمْدِهِ﴾ معترفين على كمال قدرته، ووفور حوله وقوته ﴿وَ﴾ تذكروا من طول ذلك اليوم، وشدة أهواله وإفزاعه، حيث ﴿تَظُنُّونَ﴾ وتعتقدون فيه ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما لبثتم وأقمتم في النشأة الأولى ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء:52] أي: تستقلون وتستقصرون مدة لبثكم فيها من كثرة شدائدها وأهوالها.

﴿وَقُل﴾ يا أكمل الرسل على سبيل العظة والتذكير، وتهذيب الأخلاق، وتصفية الباطن ﴿لِّعِبَادِي﴾ يعني: المؤمنين الموقنين لشئوني وظهوري على سبيل جلياتي في النشأة الأولى والأخرى، إذا أرادوا إهداء التائهين في بحر الغفلة والضلال: ﴿يَقُولُوا﴾ كل منهم، وقت تذكيرهم وتنبيههم رفقًا لهم، وتليينًا لقلوبهم، بالكلمة ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الكلمات وألينُها، وأتمُّها نفعًا، وأقربُها للقبول، لا بالتي هي أخشن وأغلظ لتكون مدخلاً للشيطان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ﴾ المضل المغوي ﴿يَنزَغُ﴾ أي: يُوقِع الفتنة بين المرشد والمسترشد، ويهيجها ويثيرها إلى أن أدى الأمر إلى المشاجرة والمقاتلة، وأنواع الخصومات المخلة للحكمة المقصودة من أمر النبوة والرسالة، والكلمة الغليظة كثيرًا ما يفضي إليها، فيفوت الغرض الأصلي ﴿بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ﴾ في أصل جبلته وفطرته خُلق ﴿لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء:53] ظاهر العداوة، ومستمر الفتنة، بحيث لا يُرجى دفع عداوته أصلاً.

فلكم أيها الهادون الناصحون ألَّا تغلظوا، ولا تخشنوا في دعوة الناس إلى طريق الحق، ولا تبالغوا أيضًا في إرشادهم وإهدائهم؛ إذ ما عليكم إلَّا تبليغ ما أُمرتم بتبليغه،

وليس في وسعكم وطاقتكم رشدهم وهدايتهم ألبتة؛ إذ هو مبين على العلم باستعداداتهم وقابلياتهم، ولا علم لكم أيها الناصحون عليها، بل ﴿رَبُّكُمْ﴾ الذي ربَّاكم أيها الناس المجبولون على فطرة المعرفة والإيمان ﴿أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ﴾ هدايتكم ﴿يَرْحَمْكُمْ﴾ على متقضى جوده، ويوفقكم على قبول الإيمان، وحصول العرفان عناية منه وفضلاً ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ أي: يبقيكم ويغويكم في تيه الحرمان والخذلان، خاسرين خائبين بمتابعة الشيطان.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا أكمل الرسل، وأفضل البرايا، مع أنك لولاك ما خلقت الأفلاك؛ إذ كل من في العلم منوط بمرتبتك المحيطة الجامعة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الناس ﴿وَكِيلاً﴾ [الإسراء:54] أي: ليكون أمورهم موكولاً إليك، بحيث إذا أردت هداية بعض، وضلال آخرين، فيقع مرادك بلا خلف، بل إنما أرسلناك مبلغًا بشيرًا ونذيرًا، وما عليك إلَّا البلاغ، وعلينا الإصلاح والفساد؛ إذ نحن بكمال استغنائنا عن مطلق مظاهرنا ومصنوعاتنا، مستقلون في تدبيرات أمور ملكنا وملكوتنا، وشهادتنا وغيبنا، وجبروتنا ولاهوتنا.

﴿وَرَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: باستعدادات الملائكة السماويين والأرضيين، وقابليات الثقلين السفليين ﴿وَ﴾ لعلمنا باستعدادات جميع عبادنا ﴿لَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ لسُنَّة سنيَّة، وخصلة حميدة، مثل تفضيلنا إبراهيم بالخلة، وكمال الحلم، وكثرة التأوه، وموسى بالتكليم، وعيسى بأنواع الإرهاصات والكرامات، من الارتقاء نحو السماء والتكلم في غير أوانه، ووجوده بلا أب، وسيدنا محمد ﷺ بشق القمر وبالمعراج، وسليمان بالمُلك العظيم ﴿وَ﴾ من جملة تفضيلنا: إنَّا ﴿آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء:55] مشتملاً على أنواع الحكمة، وفصل الخطاب، سيما على ألقاب خاتم الرسالة سيدنا محمد ﷺ، وظهوره ونسخه جميع الأديان والكتب، وكون أمته أشرف الأمم، ودينه أكمل الأديان.

﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل للمشركين الذين يعون آلهة غير الله، ويعبدونهم كعبادته على سبيل التعجيز والتقريع: ﴿ادْعُوا﴾ عند نزول البلاء، وهجوم المحن والعناء، شركاءكم ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ آلهةً ﴿مِّن دُونِهِ﴾ أي: من دون الله حتى ينقذوكم من الشدة والبأس، وإن بالَغْتُم في الدعاء والتوجه نحوهم، الالتجاء إليهم ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ أي: لا يقدرون ولا يستطيعون وآلهتكم ﴿كَشْفَ الضُّرِّ﴾ فكيف ﴿عَنكُمْ﴾ بل عن أنفسهم ﴿وَلَا

تحْويلاً﴾ [الإسراء:56] أي: دفعًا وترديدًا منكم إلى غيركم.

إذ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الفقراء الضعفاء ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ إليهم، وتدعونهم آلهة، كالملائكة وعيسى وعزير ـ عليهما السلام ـ ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ويطلبون من غاية افتقارهم واحتياجهم ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ﴾ الذي أوجدهم وأظهرهم من كتم العدم ﴿الْوَسِيلَةَ﴾ المقربة إليه من الأعمال الصالحة، والأخلاق المرضية المقبولة عند الله؛ ليظهر لهم ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ إليه، وأقبل عنده ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَرْجُونَ﴾ في مناجاتهم وخلواتهم ﴿رَحْمَتَهُ﴾ على مقتضى لطفه وفضله ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ على مقتضى قهره وعدله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:57] واجب الحذر لكل من دخل تحت حيطة التكليف، سواء كان نبيًا أو وليًا.

ثمَّ قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: ما من قريةٍ من القرى الهالكة ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بالخسف والكسف، والزلزلة والطاعون وغير ذلك ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كالقتل والنهب والأسر، وأنواع البليات والأذيات والمصيبات ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإهلاك والتعذيب ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ الذي هو عبارة عن حضرة علمنا، ولوح قضائنا ﴿مَسْطُورًا﴾ [الإسراء:58] على التفصيل الذي وقع بلا مخالفةٍ أصلاً.

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الإسراء:

59 – 66].

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرۡسِلَ بِالآيَاتِ﴾ أي: ما صرفنا عن إرسال الآيات المقترحة عنك يا أكمل الرسل والإتيان بها ﴿إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا﴾ وبأمثالها ﴿الأَوَّلُونَ﴾ أي: الأمم الماضون بعد إتيان ما اقترحوا عتوًا وعنادًا، فاستأصلناهم بتكذيبهم؛ إذ من سنتنا القديمة وعادتنا المستمرة استئصال المقترحين المكذبين على أنبيائنا بعد إتيانهم بمقترحاتهم، فلو حصل مقترحات هؤلاء المقترحين أيضًا ليكذبوك ألبتة، فلزم علينا حينئذٍ إهلاكهم واستئصالهم على مقتضى سنتنا المستمرة، لكن مضى حكمنا ألا ننتقم من مكذبيك في النشأة الأولى؛ لأن منهم من يؤمن ومنهم من يُولِد مؤمنًا، لذلك ما جئنا بمقترحاتهم.

﴿وَ﴾ اذكر لهم إن كانوا شاكين مترددين فيما ذكرنا بعض قصص الأمم الماضية المشهودة في الآفاق، وذكِّرهم كيف ﴿آتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ﴾ المقترَحة حين اقترحوا على نبينا صالح عليه السلام بإخراجها من الحجر المعيّن، فأخرجها منه بإذن الله وقدرته، حال كون أعينهم ﴿مُبْصِرَةً﴾ خروجها منه، ومع ذلك ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: بالناقة بعدما أمرهم سبحانه بمحافظتها ورعايتها على لسان صالح، فكذبوه فعقروها، واستأصلناهم لأجلها، وأمثالها من الأمم الهالكة بتكذيبهم بعد إتيان ما اقترحوا أكثر من أن يحصى.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا نُرْسِلُ﴾ ونأتي ﴿بِالآيَاتِ﴾ المقترحة ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[1] [الإسراء:59] من نزول العذاب المهلِك المستأصِل على المقترحين.

﴿وَ﴾ اذكر للمؤمنين وقت ﴿إِذْ قُلْنَا﴾ موحيًا ﴿لَكَ﴾ مسليًا عليك: لا تحزن من كثرة عدَدَ عدوك وعُدَدهم، ولا تخف من شوكتهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي اصطفاك من البرية للرسالة العامة قد ﴿أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ إحاطة الظل بأظلالها، فهم مقهورون تحت قبضة قدرته يفعل بهم حسب إرادته ومشيئته، فامضِ على ما أُمرتَ بلا خوفٍ وترددٍ فلك الإستيلاء والغلبة.

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿مَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾ حين نزولك ماء بدرٍ، وأصبحت تقول

(1) ليؤمنوا فلم يؤمنوا بها وعقروها وكذبوا جرت سنة الله على ألا يهلكهم ويعذبهم ويأخذهم نكال الآخرة والأولى، فلما التمست قريش من النبي الآيات مثل أن يجعل الله لهم الضفادع وغيرها. [التأويلات النجمية].

مشيرًا بإصبعك: «هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ، وَهَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ»[1] فأخبر قريش بقولك وإشارتك إلى مصارعهم، فاستهزءوا معك، واستبعد بعض المؤمنين أيضًا ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ واختبارًا ﴿لِّلنَّاسِ﴾ هل يؤمنون بك ويصدّقون نزلك، أم يكذبونك وينكرون بك.

ثم لما وقع الأمر على الوجه الذي أُريت في منامك، اطمأن المؤمنون وازدادوا يقينًا وإخلاصًا، وجحد الكافرون وازدادوا شقاقًا ونفاقًا، ونسبوا أمرك هذا إلى السحر والكهانة والرجم بالغيب عنادًا ومكابرةً.

﴿وَ﴾ أيضًا ما جعلنا ﴿الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ﴾ المكروهة التي يلعنها كل من يذوقها ويطعمها، وهي الزقوم المنبت على أدوية الجحيم؛ لذلك لُعنت ﴿فِي الْقُرْآنِ﴾ حتى يحترز المؤمنون عن الأعمال المقربة إليها الموجبة لأكلها إلا فتنةً وابتلاءً للناس، لذلك لما سمعت قريش شجرة الزقوم، جعلوها منشأ الهزل والسخرية مع الرسول ﷺ حتى قال أبو جهل: إن محمدًا يخوفنا عن نار تحرق الحجارة، ويزعم أنها تنبت الشجرة، وقد علمتم أن النار تحرق الشجر، وما هي إلى فرية بلا مرية.

ثم اعلم أن الأمور الدينية كلها تعبدي، فلو ظهر لها وجه عقلي فيها ولو لم يظهر، لزم الإطاعة والانقياد على سبيل التعبد والتسليم من الصادق المصدوق، مع أن نبت الشجر في النار، مما لا يمتنع عقلاً أيضًا؛ لأن وجودِ الحيوان في النار أبعد من وجود النبات فيها.

وحكاية الدويبة التي يقال لها: السمندل، هي تعيش في النار كالسمك في الماء متى خرجت منها ماتت، واتخاذ الناس من شعرها منديلاً متى اتسخت، طرحت على النار فأحرقت، وأخرجت سالمة نظيفة منها، مشهورة معروفة، لا شك في وقوعها.

وأعجب من ذلك ابتلاع النعامة الجمرة والجذوة والحديدة المحماة المحمرة في النار، ولا تضرها أصلاً ﴿وَ﴾ من قساوة قلوب أولئك الغواة، وغلظ حجبهم ﴿نُخَوِّفُهُمْ﴾ بأنواع المخاوف الدنيوية والأخروية ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ تلك التخويفات الهائلة ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:60] متجاوزًا عن الحد غاية التجاوز لشدة عمههم وعتوهم.

﴿وَ﴾ ليس طغيانهم وإصرارهم عليه إلا بتسويلات الشياطين وتغريراتهم على

---

(1) رواه مسلم (75/12)، وأبو داود (165/8).

مقتضى العداوة القديمة، والخصومة المستمرة بين الشيطان وبني آدم. اذكر وقت ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ بأجمعهم بعدما جاءوا بما جاءوا من الحجج والدلائل الدالة على عدم لياقة آدم بالخلافة والنيابة إلى أن أُفحموا وأُلزموا: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ وتذللوا عنده، ولا تجادلوا في حقه إنا قد اخترناه لخلافتنا ﴿فَسَجَدُوا﴾ سجود تواضع وتكريم امتثالاً للأمر الوجوبي، بعدما ما تمادوا في إيراد الحجج استحياء منه سبحانه، ورهبة من سطوة قهره بالإعراض عن أمره وما خالف أمر الله منهم ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ فإنه أصر على الإنكار، ولم يرغب إلى امتثال المأمور بل زاد على الجدال والنزاع؛ حيث ﴿قَالَ﴾ مستبعدًا مستنكرًا: ﴿أَأَسْجُدُ﴾ وأتذلل من نجابة أصلي وشرف عنصري ﴿لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء:61] أي: لمن أنشأته وصوَّرته من طين منتن مذموم لا شرف له ولا نجابة، وما هو إلا تفضيل المفضول وتكريم المرذول.

ثم لما طرده الحق من ساحة عز الحضور، وأخرجه من بين الملائكة، ولعنه لعنة مؤبدة إلى أن آيس عن القبول مطلقًا ﴿قَالَ﴾ إبليس معترضًا على الله مسيئًا الأدب معه سبحانه، مستفهمًا على سبيل الاستبعاد والاستنكار: ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾ أي: أخبرني أن ﴿هَذَا﴾ القالب المستحقر المسترذل ﴿الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ وأمرتني بسجوده وطردتني لأجله طردًا مخلدًا، بناءً على أنه يعبدك ويعرفك، ويوحدك حق توحيدك، ويقدسك حق تقديسك وتنزيهك، ويتفطن على حق قدرك وقدر حقيتك، واللهِ وبحق عظمتك وجلالك ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ وأبقيتني فيما بينهم ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ المعدة لتنفيذ الأعمال وعرضها على جنابك ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ أي: أضلنهم وأغوينهم بالإغواء والإغراء إلى حيث أمحونَّ أسماءهم عن دفتر المؤمنين، فكيف عن العارفين المكاشفين المشاهدين؛ لأن تركيبهم وبنيتهم هذا مقتضى أنواع الفسادات وأصناف العصيان والضلالات، ولي فيهم مداخل كثيرة أوسوسهم وأغريهم إلى حيث أضلهم عن منهج الرشاد ومسلك السداد ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:62] منهم فإنهم ثابتون على ما جُبلوا لأجله لا أقدر على إغوائهم؛ لكونهم مؤيدين من عندك، موفقين بتوفيقك.

ثم لما سمع سبحانه منه ما سمع ﴿قَالَ﴾ سبحانه ساخطًا عليه مغاضبًا طاردًا له أشد طرد وتبعيد: ﴿اذْهَبْ﴾ يا ملعون فقد أمهلناك فيما بينهم إلى قيام الساعة، فلك أن تفعل بهم ما تفعل ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ بعدما جبلناهم على فطرة التوحيد والمعرفة، ومع ذلك أرسلنا عليهم الرسل المنبهين المرشدين لهم طريق الرشاد، وأنزلنا عليهم

الكتب المبينة لهم أحوال المبدأ والمعاد، ومع ذلك يتركون متابعة الكتب والرسل، ويتبعون لك ويقتفون أثرك، فهم حينئذٍ خارجون عن زمرة عبادنا الصالحين، لاحقون بك، مستحقون بما استحققت أنت وأعوانك من الجزاء ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ الطرد والحرمان وأنواع المذلة والخذلان حينئذٍ ﴿جَزَاؤُكُمْ﴾ تابعًا ومتبوعًا ضالاً ومضلاً ﴿جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء:63] أي: مستوفيًا وافرًا وافيًا، لا مزيد عليها مؤبدًا مخلدًا.

﴿وَ﴾ بعدما سمعت جزاءك وجزاء من تبعك منهم ﴿اسْتَفْزِزْ﴾ أيها المطرود الملعون؛ أي: حرِّك، وزلزل عن موضع ثبوتهم وقرارهم على جادة التوحيد ﴿مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾ وتمكنت على إضلالهم عن طريق الحق ﴿بِصَوْتِكَ﴾ أي: بمجرد أن تصوت عليهم، فينحرفوا من غاية ضعفهم في الإيمان ﴿وَ﴾ إن لم تقدر، ولم تظفر عليهم بمجرد صوتك لرسوخهم وتمكنهم في الجملة ﴿أَجْلِبْ﴾ أي: صِح وصوِّت ﴿عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ﴾ أي: بركبان أعوانك وجنودك ﴿وَرَجِلِكَ﴾ أي: بمشاتهم ورجالهم، وبالجملة: تمم، وأوفر جميع حيلك ومكرك مهما أمكنك حتى تستفزهم وتضعفهم من مقر الإيمان والعرفان.

﴿وَ﴾ إن شئت اتحادهم وإخاءهم ﴿شَارِكْهُمْ فِي﴾ جميع ﴿الأَمْوَالِ﴾ أي: علِّمهم السرقةَ والغصب وقطعَ الطريق والربا والحيلَ المشهورة المعروفة في هذا الزمن، بالحيل الشرعية التي وضعها المتفقهة المتفسقة، خذلهم الله من تلقاء نفوسهم الخبيثة الدنية ﴿وَ﴾ شاركهم أيضًا في ﴿الأَوْلادِ﴾[1] أي: علمهم طريق الإباحة والاستباحة وتحليل المحرمات المؤدية إلى تخليط الأنساب وامتزاج المياه كما ابتدعها أهل التلبيس والتدليس من المتشيخة الذين هم من جنودك، أهلكهم الله وقهر عليهم، ﴿وَ﴾ إن شئت ﴿عِدْهُمْ﴾ بالمواعيد الكاذبة التي مالت إليها نفوسهم واقتضت شهواتهم من ترك التكاليف والأعمال الشاقة من الفرائض والسنن والآداب والنوافل المقربة نحو الحق، والإنكار على النشأة الآخرة، وما يترتب عليها من الأمور المسئولة عنها، والمؤاخذة عليه والجنة والنار ﴿وَ﴾ معلوم أن ﴿مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ المغوي المضل

(1) قال في التأويلات: بتضييع زمانهم وإفساد استعدادهم في طلب الدنيا ورئاستها متغافلاً عن تهذيب نفوسهم وتزكيتهم أو تأديبها وتوفيها عن الصفات المذمومة وتحليتها بالصفات المحمودة، وتعلمهم الفرائض والسنن والعلوم الدينية، وتحرضهم على طلب الآخرة والدرجات العلى، والنجاة من النار والدركات السفلى.

﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء:64] أي: تزيينًا وتحسينًا للباطل بصورة الحق وادعاء الحقية والحقيقة لهم؛ ليغريهم بها، ويضلهم عن طريق الحق.

وبالجملة: افعل بهم أيها الحريص على إضلالهم ما شئت من المكر والحيل والخداع، وهم إن كانوا من زمرة أرباب الاطمئنان والإيقان، المقررين في مقر التوحيد والعرفان، الموفقين عليه من عندنا، لا يتبعونك ولا يقبلون منك وساوسك وهذياناتك، وليس لك عليهم سلطان أصلاً.

وإن كانوا من المطبوعين المختومين من عندنا، المجبولين على الضلال والغواية، فيتبعوك ويقتفوا أثرك، فلحقهم ما لحق بك، وهم من جنودك وأتباعك، وبالجملة: ﴿مَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ﴾ خُلّص ﴿عِبَادِي﴾ أضافهم سبحانه إلى نفسه؛ لكمال إخلاصهم واختصاصهم ﴿لَيْسَ لَكَ﴾ أيها المضل المغوي ﴿عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي: حجة واستيلاء تغلبهم بها بعدما اتخذوني خليلاً وأخذوني كفيلاً ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء:65] حفيظًا يتوكلون عليه مخلصين، ويستعيذون نحوه من إغرائك وإغوائك أيها الطاغي ملتجئين.

وكيف لا يحفظكم سبحانه، ولا يعيذكم أيها المؤمنون المخلصون عما يؤذيكم ويقصد مقتكم: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي﴾ يُسري ويُجري ﴿لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ الجاريةَ ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ بتيسيره وتسهيله عنايةً منه إياكم ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ وتطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ ما يوسع لكم طريق المعاش من أنواع التجارات والأرباح، واستخراج الجواهر منها، وغير ذلك ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه من كمال جوده وسعة رحمته ﴿كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء:66] مشفقًا عطوفًا، سيما بعد اتكالكم عليه سبحانه على وجه الأرض.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: 67 - 75].

﴿وَ﴾ مما ارتكز في نفوسهم ورسخ في قلوبكم، أنكم ﴿إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ بأن عرض لمركبكم ما يوجب كسرها وغرقها، وصرتم فيها حيارى سكارى؛ بحيث ﴿ضَلَّ﴾ وغاب عنكم ﴿مَن تَدْعُونَ﴾ وتستغيثون منه لو كنتم في البر، وما معكم من الأمتعة والبضاعات ﴿إِلَّا﴾ استعانتكم واستغاثتكم ﴿إِيَّاهُ﴾ سبحانه، فإنه بذاته لا يغيب عنكم، ولا يفارقكم؛ إذ هو أقرب إليكم من حبل وريدكم ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ﴾ وخلّصكم سبحانه من تلك المضائق الهائلة ﴿إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عنه سبحانه، وصرتم متعلقين بما معكم من الأمتعة والأعراض ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ﴾ في أصل فطرته خُلق ﴿كَفُورًا﴾ [الإسراء:67] لأنعم الله، ﴿هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ [المعارج:19-20] نحو الحق ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ﴾ كفورًا ﴿مَنُوعًا﴾ [المعارج:21] معرضًا عنه منكرًا له.

﴿أَ﴾ أعرضتم عنه سبحانه بعد إنجائه وخلاصه إياكم ﴿فَأَمِنتُمْ﴾ عن قهره وسخطه حين وصلتم إلى البر، مع أنه سبحانه قادرًا على إهلاككم في البر أيضًا، أما تخافون ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ أي: يقلب عليكم الأرض كما خسفها على قارون ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ ريحًا شديدًا ﴿حَاصِبًا﴾ ترميكم وترجمكم بحجارة كما رجمنا قوم لوط ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أخذناكم في البر بأمثال هذه البليات ﴿لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:68] حفيظًا يحفظكم عن أمثال هذه المصيبات، أو يشفع لكم بتخفيفها وكشفها.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾ أيها القاصرون عن إدراك قدر الله، وكمال قدرته ﴿أَن يُعِيدَكُمْ﴾ ويلجئكم إلى الرجوع ﴿فِيهِ﴾ أي: في البحر ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ بأسباب ووسائل لا تخطر ببالكم ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ في الكرة الأخرى لأخذكم وانتقامكم ﴿قَاصِفًا﴾ كاسرًا ﴿مِّنَ

﴿الرِّيحِ﴾ لتكسر مركبكم ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ فيه ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ في الكرة الأولى ﴿ثُمَّ﴾ بعد إرجاعنا إلى البحر، وإغراقنا فيه على نحو إنعامنا وإنجائنا من قبل ﴿لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [الإسراء:69] أي: لا تجدوا ناصرًا ومعينًا لكم، فيظهر علينا بأخذكم وانتقامكم، ويطالب منا قصاص ما فعلنا بكم؛ إذ لا رادّ لفعلنا، ولا معقب لحكمنا، نفعل ما نشاء ونحكم ما نريد.

ثم قال سبحانه على سبيل الإنعام والامتنان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا﴾ وفضلنا ﴿بَنِي آدَمَ﴾[1] بأنواع الكرامة والتفضيل على سائر المخلوقات من حسن الصورة والسيرة، واعتدال المزاج، واستواء القامة، والعقل المفاض المتشعب من العقل الكل الذي هو حضرة العلم الحضوري الإلهي، وكذا بالقدرة والإدارة، وسائر الصفات المترتبة على الصفات الذاتية الإلهية يشعر بخلافته ونيابته ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿حَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ﴾ بركوب النجائب من الخيل والبغال والبعير وغير ذلك، ﴿وَ﴾ في ﴿الْبَحْرِ﴾ بركوب الجواري والسفن ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: الأطايب التي يكسبونها بأيديهم على مقتضى إقدارنا إياهم، وإعدادنا أسباب مكاسبهم معهم، وأبحنا لهم ما تستلذ به نفوسهم وتشتهي قلوبهم على وفق ما نطق به رسلهم وكتبهم.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:70] والقليل

(1) قال نجم الدين كبرى: أي: خصصناهم بكرامة تخرجهم عن حيز الإشراك وهي على ضربين: جسدانية، وروحانية. فالكرامة الجسدانية: عامة يستوي فيها المؤمن والكافر وهي تخمير طينته بيده أربعين صباحًا، وتصويره في الرحم بنفسه، وأنه تعالى صوره فأحسن صورته وسواه فعدله في أي: صورة ما شاء ركبه، ومشاه سويًا على صراط مستقيم القامة آخذًا بيديه آكلاً بأصابعه مزينًا باللحى والذوائب صانعًا بأنواع الحرف. والكرامة الروحانية: على ضربين: عامة، وخاصة.
فالعامة: أيضًا يستوي فيها المؤمن والكافر وهي أن كرمه بنفخه فيه من روحه وعلمه الأسماء كلها، وكلمه قبل أن خلقه بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] فأسمعه خطابه وأنطقه بجوابه بقوله: ﴿قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:172] وعاهده على العبودية، وأولده على الفطرة، وأرسل إليه الرسل وأنزل عليه الكتب ودعاه إلى الحضرة، ووعده الجنة وخوفه النار، وأظهر له الآيات والدلالات والمعجزات.
والكرامة الروحانية الخاصة: ما كرم به أنبياءه وأولياءه وعباده المؤمنين من النبوة والرسالة والولاية والإيمان للإسلام والهداية إلى الصراط المستقيم، وهو صراط الله والسير إلى الله وفي الله وبالله عند العبور على المقامات والترقي من الناسوتية بجذبات اللاهوتية، والتخلق بأخلاق الإلهية عند فناء الأنانية وبقاء الهوية.

المستثنى هم الملائكة المقربون المهيمون المستغرقون بمطالعة جمال الله وجلاله، وإن كان الوالهون الهائمون من الإنسان في ولاء الله ومحبته، المكاشفون بسر الخلافة والنيابة التي أخبر بها الحق، الواصلون إلى مرتبة الفناء بالموت الإرادي، أفضل منهم أيضًا، وأرفع رتبة ومكانة.

وإنما كرمناهم وفضلناهم بما فضلناهم؛ لحكمةٍ ومصلحة تقتضيها ذاتنا، وهي أنَّا نريد أن نطالع ذاتنا المتصفة لجميع أوصاف الكمال ونعوت الجمال والجلال في مظهر تام كامل لمراتبنا وخلافتنا، وكرّمناه لأجل هذه الحكمة العزيزة، فمن لم يبلغ منهم إلى هذه المرتبة العلية والدرجة السنية بسلوكه الذي أرشدناه وعلمناه بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فهو نازلُ كل التنازل عن درجة الاعتبار، ساقطُ عن رتبة ذوي الألباب والأبصار.

بل أولئك البعداء الضالون عن منهج الرشاد كالأنعام بلا شعور إلى ما جبلوا لأجله، بل أضل سبيلاً منها وأسوأ حالاً ومآلاً، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40].

اذكر يا أكمل الرسل للمكرمين المفضلين على سائر المخلوقات: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا﴾ نحشر ﴿كُلَّ أُنَاسٍ﴾ منهم؛ لنسألهم، ونطلب عنهم ما اكتسبوا، وحصّلوا من المعارف والحقائق والأعمال المقربة إلينا باقتدائهم ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ الذي نرسل إليهم، وننزل عليهم من الرسل والكتب؛ لإرشادهم وإهدائهم مع أنا كتبنا منهم خيرهم وشرهم اللذين جاء كل منهم بهما في صحيفةٍ، ونعطيهم اليوم صحائف أعمالهم ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ﴾ منهم ﴿بِيَمِينِهِ﴾ فهو دليل خيرية أعماله وطيب أحواله ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المقبولون ﴿يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ فرحين بما فيها مسرورين، فيجازون على مقتضى ما كُتب بل أضعافها وآلافها، عنايةً منّا وفضلاً ﴿وَ﴾ هم ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ ولا ينقصون من أجور أعمالهم ﴿فَتِيلًا﴾ [الإسراء:71] مقدار ما في ظهر النواة من الخط الأسود أو بين الأصابع من الوسخ المفتول.

﴿وَ﴾ من أوتي كتابه بشماله فهو علامة شرّية أعماله، ووخامة حاله ومآله، فأولئك الأشقياء المردودون ينظرون إلى كتابهم، فيجدون ما فيها من أنواع المعاصي والآثام، فيغمضون عيونهم عن قراءتها آيسين محزونين، فيجازون على مقتضى ما كتب مثلاً بمثل عدلاً منه سبحانه؛ إذ ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ﴾ النشأة ﴿أَعْمَىٰ﴾ عن مطالعة آثار

الأوصاف الذاتية الإلهية، وملاحظة عجائب صنعه وغرائب حكمته وبدائع تجلياته وتطوراته لحظة فلحظة ﴿فَهُوَ فِي﴾ النشأة ﴿الآخِرَةِ﴾ أيضًا ﴿أَعْمَى﴾ إذ النشأة الأولى مزرعات الخيرات، والأخرى وقت حصاده، فمن لم يزرع فيها، فهو وقت الحصاد خاسر مغبون أعمى عن وجدان الخيرات ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:72] لفوات أسباب التدارك والتلافي عنه، فيبقى متحيرًا مدهوشًا قلقًا حائرًا ضالاً مستوحشًا.

ثم قال سبحانه مخاطبًا لحبيبه على وجه التنبيه والتأديب بعدما ظهر عليه مخايل الميل والركون عن الحق بمخادعة أهل الكفر والنفاق: ﴿وَإِن كَادُوا﴾ أي: أنهم؛ أي: الكفرة قاربوا ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل، ويوقعونك في الفتنة الشديدة بالميل والصرف ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وأنزلنا في كتابك من الأوامر والنواهي والأحكام المتعلقة بتهذيب الظاهر والباطن، ويرغبونك ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ أي: غير ما أوحينا إليك ﴿وَإِذًا﴾ أي: حين افترائك وانتسابك إلينا غير ما أوحينا إليك من الأمور التي تشتهيها نفوسهم وترتضيها قلوبهم ﴿لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ [الإسراء:73] وآمنوا بك بواسطة انتسابك هذا.

نزلت في ثقيف حين قالوا: لا نؤمن بك حتى تخصنا بخصالٍ نفتخر ونباهي على سائر العرب، لا نضن ولا نُحشر ولا نُجبي في صلواتنا، وكل رِبًا لنا فهو لنا، وكل رِبًا علينا فهو موضوع عنَّا، وأن تمتعنا باللات سنة، وأن تحرم وادينا كما حرمت مكة، فإن قالت العرب: لم فعلت معهم هذا؟ فقل: إن الله أمرني وأوصاني بها، وانتظر أن تنزل آية فيها، فإن فعلتَ بنا هذه نؤمن بك ونصدقك ونتخذك خليلاً، فتردد ﷺ وقرب أن يميل ويركن لشدة ميله إلى إيمانهم واتِّباعهم، فجاء جبريل عليه السلام فمنعه عن هذا الرأي.

لذلك قال سبحانه: ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ﴾ أي: ولولا إثباتنا وتثبيتنا إياك يا أكمل الرسل في مقر صدقك وتمكينك ﴿لَقَدْ كِدتَّ﴾ وقربت ﴿تَرْكَنُ﴾ وتميل ﴿إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ [الإسراء:74] أي: صرت في صدد الميل والركون إلى إنجاز ما أرادوا.

﴿إِذًا﴾ أي: حين إنجاحكم سُؤلهم ومأمولهم ﴿لأَذَقْنَاكَ﴾ في نشأتك هذه ﴿ضِعْفَ الْحَيَاةِ﴾ أي: ضعف عذاب من جاء بمثله في النشأة الأولى ﴿وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي: ضعف عذاب من جاء بمثله في النشأة الأخرى؛ يعني: نعذبك في الدنيا والآخرة بضعف عذاب من جاء به من سائر الناس؛ لأن جزاء الأبرار لو أتوا بالمعاصي والآثام ضعف جزاء الأشرار، بل أكثر؛ إذ لا يتوقع منهم الانصراف عن منهج الرشاد

أصلاً، ولو انصرفوا أُخذوا بضعف من يتوقع منهم الانحراف والانصراف ﴿ثُمَّ﴾ بعد أخذنا إياك انتقامنا منك ﴿لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء:75] أي: لا تجد ظهيرًا لك نصيرًا يظهر علينا بنصرتك، ويطالبنا بإنقاذك عن عذابنا.

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [الإسراء: 76 - 86].

﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ أي: وإن قاربوا؛ ليحركونك ويضطرونك بالنقل والجلاء ﴿مِنَ الأَرْضِ﴾ التي استقررتَ وتمكنتَ فيها؛ يعني: مكة ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ معللين بأن الأنبياء والرسل إنما بعثوا في أرض الشام وأرض المقدسة، خصوصًا أجدادك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأولادهم وأسباطهم - صلوات الله عليهم كلهم - بُعثوا فيها، فلك أن تخرج إليها حتى نؤمن لك ونصدق برسالتك، وما ذلك إلا حيلةُ وخديعةُ معك؛ ليخرجوك من مكة حتى تبقى رئاستهم معهم ﴿وَ﴾ لا تغتم يا أكمل الرسل ولا تحزن بالخروج منها، فإنك لو خرجت منها ﴿إِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا﴾ زمانًا ﴿قَلِيلاً﴾ [الإسراء:76] وقد جرى الأمر على مقتضى وعد الله سبحانه، فإنهم بعدما هاجر ﷺ قُتلوا ببدرٍ بعد مدةٍ يسيرةٍ.

وليس إخراجك يا أكمل الرسل عن مكة، وهلاكهم بعد خروجك منها ببدعٍ منا

مستحدث، بل من سنتنا القديمة وعادتنا المستمرة إهلاكُ الأمم الذين أَخرجوا نبيهم المبعوث إليهم من بين أظهرهم عتوًا وعنادًا بل صار ذلك: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ المبعوثين إلى الأمم الماضية؛ أي: من سنتنا الموضوعة فيهم بالنسبة إلى أقوامهم، فكذلك حالك مع هؤلاء المعاندين المكذبين ﴿وَ﴾ بعدما استمر منا هذه السُّنة السَّنية ﴿لَا تَجِدُ﴾ أنت وغيرك أيضًا ﴿لِسُنَّتِنَا﴾ المنبعثة من كمال حكمتنا ﴿تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:77] أي: تغييرًا وتبديلاً؛ إذ لنا فيها حِكَمٌ ومصالحُ مخفيةٌ استأثرنا بها لا اطلاع لك عليها، وإنما عليك التوجه والتقرب في جميع أوقاتك وحالاتك سيما في الأوقات المكتوبة.

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ وأدم التوجه ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أي: حين زوالها من الاستواء ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ أي: ظلمته بغروبها إلى حيث لم يبقَ من بقية آثار ضوئها شيء أصلاً، فيسع في المحدود المذكور: الظهر والعصر والمغرب والعشاء على ما عينه الشرع لكل منها وقتًا معينًا ﴿وَ﴾ طوّل ﴿قُرْآنَ﴾ صلاة ﴿الْفَجْرِ﴾ وأطِلِ القيام فيها مع القراءة ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ الذي هو وقت الانكشاف والانجلاء الصوري، المنبئ عن الانكشاف المعنوي والانجلاء الحقيقي، الذي هو عبارةٌ عن إشراق نور الوجود واضمحلال الأظلال والعكوس المشعرة بالكثرة والغيرية.

لذلك ﴿كَانَ﴾ قراءة القرآن المبين لسرائر الوحدة الذاتية، وكيفية سريانها على صفائح المكونات فيه ﴿مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:78] لخواص عباد الله من الملائكة والثقلين، بل لجميع الحيوانات من الوحوش والطيور؛ إذ الكل في وقت الفجر متوجهون نحو الحق، مسبحون مهللون حالاً ومقالاً.

﴿وَ﴾ إن شئت ازدياد القرب والثواب اسهر واستيقظ قطعةً ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ واترك النوم فيها طلبًا لمرضاة الله ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ أي: صلِّ فيها صلاة التهجد بتطويل القراءة؛ لتكون ﴿نَافِلَةً﴾ زائدة ﴿لَّكَ﴾ على فرائضك مزيدةً لقربك وكرامتك ﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ﴾ ويقيمك ﴿رَبُّكَ﴾ بسعيك واجتهادك في تهجدك ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:79] أي: مقامًا من مقامات القرب ودرجات الوصال مسمىً بالمقام المحمود؛ لأن كل من وصل إليه يُحمد له؛ إذ لا مقام أرفع منه وأعلى رتبة ومكانة.

وبعدما وصلت أيها السالك الناسك إليها لم يبقَ لك درجة الاستكمال والاسترشاد، بل صرت كاملاً رشيدًا وإن أُلهمت وأذنت من عنده سبحانه صرتَ مرشدًا

مكملاً لأهل النقصان، شفيعًا لهم عند الله بإذنه؛ لتنقذهم من لوازم الإمكان المفضي إلى دركات النيران، وتوصلهم إلى فضاء الجنان بتوفيق الله إياك وإياهم.

﴿وَ﴾ بعد وصولك لسعيك وجهدك وأنواع تهجدك، وإقامتك في خلال الليالي بتوفيق الله، وتيسيره على ما وصلت من المقامات العلية والمراتب السنية ﴿قُل﴾ مناجيًا إلى ربك ملتجئًا نحوه طالبَ التمكن والتقرر في المقام الذي وصلت إليه بتوفيقه وتأييده: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع اللطف والكرم ﴿أَدْخِلْنِي﴾ بفضلك وجودك ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ ومنزلَ قرارٍ، وهو مقر التوحيد المسقط لأنواع الإضافات والكثرات، وخلدني فيه بلا تذبذبٍ وتلوينٍ ﴿وَأَخْرِجْنِي﴾ عن مقتضيات أنانيتي وهويتي إلى فضاء الفناء الموصل إلى شرف البقاء واللقاء ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ بلا تلعثمٍ وتزلزلٍ ﴿وَاجْعَل لِّي﴾ حين معارضة أنانيتي معي واستيلاء أمّارتي عليّ ﴿مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا﴾ أي: برهانًا قاطعًا وكشفًا صريحًا وشهودًا تامًا؛ ليكون ﴿نَّصِيرًا﴾ [الإسراء:80] لمن ينصرني على أعدائي، ويخلصني من أيديهم حين هجومهم عليّ.

﴿وَقُلْ﴾ بعدما تحققتَ وتمكنتَ في مقر الكشف والشهود: ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾ الصريح الثابت، ولاح شمس الذات ﴿وَزَهَقَ﴾ أي: تلاشي واضمحل ﴿الْبَاطِلُ﴾ أي: العكوس والأظلال الهالكة الباقية على عدماتها الأصلية ﴿إِنَّ﴾ العدم ﴿الْبَاطِلَ﴾ الزائل الزاهق الظاهر على صورة الحق ﴿كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:81] في نفسه، مضمحلاً في ذاته، باقيًا على عدمه، وإن أُوهم وخُيّل أنها موجوداتٌ متأصلاتٌ في الوجود، إلا أنها ما شُمّ في رائحةٍ منه سوى أن أشعة التجليات الوجودية الإلهية لاحت عليها، فيتراءى ما يتراءى، فظن المحجوب بأنها موجود، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40].

ومتى تحققتَ وتمكنتَ بمقامك المحمود وفزتَ، فزتَ من الحوض المورود ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ عليك تعظيمًا لشأنك وتأييدًا لأمرك ﴿مِنَ الْقُرْآنِ﴾ المبيّن الموضّح لمراتبك العليّة من التوحيد ﴿مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾[1] لمرض القلوب بسموم الإمكان في مضيق

---

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن كلام الحبيب شفاء القلوب كما قيل: إن الأحاديث من سلمي تسليني، وإن من القرآن ما هو إيعاد بالوصلة والوصال، فهو شفاء لمعلول الهجر والفراق، وأين المدامة من ريقها؛ ولكن أعلل قلبًا عليلاً، كما كان قال موسى ﷺ وهو معلول القرآن، وكان يرى بشفائه في الوصال، فقال: ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143] فكان الله تعالى يشفيه

-

الحدثان، ومحبس الملوين من الموفقين بشرف متابعتك ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ نازلةُ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك المصدقين بدينك وكتابك؛ ليسترشدوا ويستشكفوا بما فيه من الرموز والإشارات قدر قابلياتهم واستعداداتهم كي يتفطنوا أو يتنبهوا بما فيه من السرائر المودعة المتعلقة بسلوك مسالك التوحيد ﴿وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى حدوده وأحكامه استنكارًا له واستكبارًا ﴿إَلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:82] ووبارًا لإخسار أعظم منه، وهو إبطالهم الحكمة التي جبلهم الحق لأجلها، ألا وهي المعرفة والتوحيد، وما ينتمي إليها من الأعمال الصالحة والأخلاق المرضية المقبولة عند الله.

ثم أخبر سبحانه عن تمايل الإنسان وتلوينه وعدم رسوخه، وتمكنه بحالٍ من الأحوال وعدم فطنته وذكائه بذاته، وكيفية افتقاره واختياره واحتياجه إلى الحق، وعدم تأمله في أمر مبدئه ومعاده، وكيفية ارتباطه بالحق في النشأة الأولى والأخرى فقال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا﴾ وأعطينا من كمال فضلنا وجودنا ﴿عَلَى الإِنسَانِ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان ووسّعنا له طرق معاشه ﴿أَعْرَضَ﴾ عنا، وانصرف عن شكرنا وعن الالتجاء والارتجاء بنا عنادًا واستكبارًا ﴿وَ﴾ صار من إفراط عتوّه إلى حيث ﴿نَأَى﴾ وتباعد ﴿بِجَانِبِهِ﴾ أي: طوى كشحه ولوى عطفه عنا، كأنه مستغنٍ في ذاته، مستقلُ في أمره، بحيث لا يخطر بباله احتياجه إلينا، ولهذا تجبر واستعلى، وبالغ في الجدال والمراء إلى أن قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات:24].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ وأزعجه البلاء، وهجم عليه الشدة والعناء، وترادفت عليه الوقائع والمصيبات ﴿كَانَ﴾ من قلة تصبره وضعف يقينه وتدبره ﴿يَئُوسًا﴾ [الإسراء: 83] عن رَوح الله، شديد القنوط عن سعة لطفه ورحمته، والطرفان؛ أي: إفراط الاستغناء والاستكبار، وتفريط اليأس والقنوط، كلاهما مذمومان محظوران عقلاً وشرعًا.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة منبئًا عن الاستقامة والعدالة مبنيًا عليهما: ﴿كُلٌّ﴾ من المحق والمبطل، والضال والمهدي ﴿يَعْمَلُ﴾

بكلامه فقال له: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ [الأعراف: 144] فإن فيه تسكين ثائرة شوقك في الحال ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:144] لا يزيد في نعمة اللقاء في المآل ﴿فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ [السجدة:23].

ويعتدي ﴿عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ وطريقته التي تشاكل وتشابه حاله ووقته إياها؛ إذ كل ميسر موفق من عندنا لما خلق له، سواءً كان من رشدٍ أو غي، أو ضلالةٍ أو هدايةٍ، ولا علم لكم يا بني آدم على حقيقة الأمر والحال ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَنْ هُوَ أَهْدَى﴾ وأقوم ﴿سَبِيلاً﴾ [الإسراء:84] وأوضح منهجًا وأسدّ طريقًا، فيوفقه على جهته ووجهته.

ثم قال سبحانه تأييدًا لحبيبه ﷺ وتعليمًا: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ فرق النصارى واليهود وجميع أهل الزيغ والضلال ﴿عَنِ الرُّوحِ﴾ المتعلق بالأجساد، المحيي لها ومحركها بالإدارة والاختيار، وإذا انفصل وافترق عنها مات، ولم يتحرك وانقطع الشعور والإدراك عنها؛ أي: يسألونك عن لِمِيِّه وكيفية تعلقه وارتباطه بالأجسام، وكيفية انفصاله عنها ﴿قُلِ الرُّوحُ﴾ نفسه، وكيفية تعلقه بالأجسام وكيفية انفصاله عنها كلها صادرةُ ناشئةُ ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[1] أي: مما حصل بأمره الدالّ على تكوين المكونات،

---

(1) يشير إلى أن الروح من عالم الأمر، فإن الله تعالى خلق العوالم كثيرة كما جاء في الخبر بروايات مختلفة، فقال في بعض الروايات: «خلق ثلاثمائة وستين ألف عالم»، وقد مرّ ذكر تفصيلها ولكنه جعله محصورة في عالمين اثنين وهما الخلق والأمر، كما قال تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ﴾ [الأعراف:54] ، تبارك الله رب العالمين، عبر عن عالم الدنيا: وهو ما يدرك بالحواس الخمس الظاهرة وهي: السمع والبصر والشم والذوق واللمس بالخلق، وعبر عن عالم الآخرة: وهو ما يدرك بالحواس الخمس الباطنة وهي: العقل والقلب والسر والروح والخفي بالأمر، فعالم الأمر هو: الأوليات العظائم التي خلقها الله تعالى للبقاء من الروح والعقل والقلم واللوح والعرش والكرسي والجنة والنار، وسمي عالم الأمر أمرًا؛ لأنه أوجده بأمر كن من لا شيء بلا واسطة شيء كقوله: ﴿خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:9] ولما كان أمره قديمًا، فما يكون بالأمر القديم كان باقيًا، وإن كان حادثًا، وتسمى عالم الخلق خلقًا؛ لأنه أوجده بالوسائط من شيء كقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:185] فكما أن الوسائط كانت مخلوقة من شيء مخلوق سماه خلقًا خلقه الله للفناء فتبين أن قول: ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:85] إنما هو لتعريف الروح معناه إنها منه من عالم الأمر والبقاء لا من عالم الخلق والفناء، وإن قوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:85] ليس للاستبهام، كما ظن جماعة أن الله تعالى أبهم علم الروح على الخلق واستأثره لنفسه حتى قالوا: إن النبي ﷺ لم يكن عالمًا به جل منصوب حبيب الله ونبيه ﷺ من أن يكون جاهلاً بالروح مع أنه عالم بالله، وقد منّ الله عليه بقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:113] أحسب أن علم الروح بما لم يكن يعلمه ألم يخبر الله أنه علمه ما لم يكن يعلم، فأما سكوته عن جواب سؤال الروح وتوقفه انتظارًا الموحي حين سألته اليهود فقد كان لغموضه يرى في معنى الجواب دقة لا يفهمها اليهود لبلادة

طباعهم وقساوة قلوبهم وفساد عقائدهم، وقال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:43] وهم أرباب السلوك والسائرون إلى الله، فإنهم لما عبروا: عن النفس وصفاتها ووصلوا إلى حريم القلب عرفوا النفس بنور القلب، ولما عبروا: بالسير عن القلب وصفاته ووصلوا إلى مقام السر عرفوا العلم السير للقلب، وإذا عبروا: عن السر ووصلوا إلى عالم الروح عرفوا بنور الروح السر، وإذا عبروا: عالم الروح ووصلوا إلى منزل الخفي عرفوا بشواهد الحق الروح، وإذا عبروا: عن منزل الخفي ووصلوا إلى ساحل بحر الحقيقة عرفوا بأنوار مشاهدات صفات الجمال الخفي؛ وإذا فنوا بسطوات تجلي صفات الجلال عن آنية الوجود ووصلوا إلى جنة بحر الحقيقة كوشفوا بهوية الحق تعالى، وإذا استغرقوا في بحر الهوية وأبقوا ببقاء الألوهية عرفوا الله بالله ووحدوه حين وجدوه هذا أوان إراءة ماهية كل شيء، كما هي هذا وقت ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ﴾ [فصلت:53] فحينئذ إذا طلع الصباح استغنى عن المصباح، وقد تحقق للعبد مقام «كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا، فبي يسمع وبي يبصر وبين ينطق وبي يبطش» ففي هذه الحالة كيف يبقى بمعرفة الروح خطر عند مَن هذه أحواله، وهو مع هذه الرتبة العلية والمواهب السنية من لواقط سواقط جنات سنبلات يبادر بوارد النبوة ونوادر الرسالة؟! فكيف بحال سيد المرسلين وخاتم النبيين وحبيب رب العالمين وأفضل الأولين والآخرين صلوات الله عليه وآله أجمعين في معرفة الروح، وهو الذي يقول: «علمت ما كان وما سيكون» وما أنا إذا أسرع في شرح معرفة الروح بما فتح الله علي ومنحني من الفتوح، كما يشهد به الكتاب والسنة والأخبار المروية والآثار المرضية، إن شاء الله عصمني الله من الخطأ والخلل، وعفا عني الشهود الذلل بفضله وكرمه، فاعلم أن الروح الإنساني وهو أول شيء تعلقت به القدرة جوهرة نورانية ولطيفة ربانية من عالم الأمر، وعالم الأمر وهو الملكوت الذي خلق من لا شيء وعالم الخلق وهو الملك الذي خلق من شيء، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:185]، فالعالم عالمان يعبر عنهما بالدنيا والآخرة، والملك والملكوت والشهادة والغيب والصورة والمعنى والخلق والأمر الظاهر والباطن والأجسام والأرواح ويراد بهما ظاهر الكون وباطنه، فثبت بالآية أن الملكوت الذي هو باطن الكون خلق من لا شيء إذ ما عداه من الملك خلق من شيء.

وأما قوله ﷺ: «أول ما خلق الله جوهرة وأول ما خلق الله روحي»، وفي رواية: «نوري» وقوله: «أول ما خلق الله العقل وأول ما خلق الله القلم». وقول بعض الكبراء من الأئمة: إن أول المخلوقات على الإطلاق ملك كروبي يسمى العقل وهو صاحب القلم القلب بدليل توجه الخطاب عليه في قوله: «أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر» كما جاء في الحديث، ولما سواه فلما قال له: «اجر بما هو كائن إلى يوم القيامة» وتسميته قلمًا، كتسمية صاحب السيف سيفًا، وقد جاء في الخبر أن الروح ملك، قيل لخالد بن الوليد: سيف الله وهو أول لقب في الإسلام، وقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ:38] وقد جاء في الخبر أن الروح ملك يقوم صفًا والملائكة صفًا، فلا تبعد أن يكون هو الملك العظيم الذي هو أول المخلوقات، وهو روح

النبي ﷺ لقوله: «أول ما خلق الله روحي» ولا يحتمل أن يكون المخلوق الأول المطلق إلا واحدًا؛ لأن الشيئين المغايرين لا يكون كل واحد منهما أولاً في التكوين والإيجاد على الإطلاق؛ إذ لا يخلو إما أوجدنا مصاحبين أو أحدثا متعاقبين، فإن أحدثا مصاحبين معًا فلا يختص أحدهما من الآخر بالأولية فلا يكون واحد منهما أولاً على الانفراد، وإن أحدثا متعاقبين يكون المبتدأ أولاً والمتعاقب ثانيًا؛ فيكون الأول واحدًا منهما لا محالة ولا يجوز الخلف في كلام النبي ﷺ؛ لأنه الذي جاء بالصدق ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: 3-4] وأنه ﷺ قد أثبت الأوليات فتعين لنا أن نحمل كلامه على أن المخلوق الأول هو مسمى واحد له أسماء مختلفة، فبحسب كل صفة فيه سُمي باسم آخر، وقد كثرت الأسماء والمسمى واحد وهو الأصل وما سواه تبعًا له فلا ريب في أن أصل الكون كان النبي ﷺ لقوله: «لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك» فهو أولى أن يكون أصلاً، وما سواه أولى أن يكون تبعًا له؛ لأنه كان بالروح بذر شجرة الموجودات، فلما بلغ أشده أربعين سنة كان بالجسم والروح ثمرة شجرة الموجودات وهي سدرة المنتهى، فكما أن الثمرة تخرج من نوع الشجرة كان خروجه إلى ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم:9] ولهذا قال: «نحن الآخرون السابقون» يعني: الآخرون بالخروج كالثمرة، والسابقون بالخلق كالبذر، فيلزم من ذلك أن يكون روحه ﷺ أول شيء تعلقت به القدرة، وأن يكون هو المسمى بالأسماء المختلفة، فباعتبار أنه كان درة صدف الموجودات سُمي درة وجوهرة، كما جاء في الخبر: «أول ما خلق الله جوهرة»، وفي رواية: «درة فنظر إليها فذابت» فخلق منها كذا وكذا، وباعتبار نورانيته سُمي نورًا، وباعتبار وفور عقله سُمي عقلاً، وباعتبار غلبات الصفات الملكية عليه سُمي مَلَكًا، وباعتبار أنه صاحب القلم سُمي قلمًا كما ذكرناه، وإذا أمعنت النظر وجدت كل وصف بالعقل.

وحكي عنه خاصية من خواص روحه ﷺ وهو قوله: «أول ما خلق الله العقل فقال له: أقبل فأقبل، ثم قال: أدبر فأدبر» وهذا حال روحه ﷺ إذ قال له: «أقبل» إلى الدنيا ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ «فأقبل، ثم قال أدبر» أي: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ «فأدبر» عن الدنيا وراجع ربه ليلة المعراج، ثم قال للعقل: «وعزتي وجلالي ما خلقت خلقًا أحب إلي منك» وهذا حاله ﷺ أنه كان حبيب الله، وأحب الخلق إليه، وقوله تعالى للعقل: «بك أعرف، وبك آخذ، وبك أعطي، وبك أعاقب، وبك أثيب» فهذا كله حاله ﷺ لأنه من لم يعرف النبي ﷺ بالنبوة والرسالة لم يعرف الله ولو كان له ألف دليل على معرفة الله فمعناه: بمعرفتك أعرف أي: من عرفك بالنبوة عرفني بالربوبية، «وبك آخذ» أي: آخذ طاعة من أخذ منك ما أتيته من الدين والشريعة، «وبك أعطي» أي: بشفاعتك أعطي درجة أهل الدرجات، كما قال ﷺ: «الناس يحتاجون إلى شفاعتي حتى إبراهيم»، «وبك أعاقب وبك أثيب» وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:81] وذلك أن الله تعالى أخذ ميثاق كل نبي بعثه بأن يؤمن بمحمد ﷺ ويوصي أمته بالإيمان به ونصرة دينه، فمن آمن به من الأمم

وهو قول: «كن» الدال على سرعة نفوذ قضائه.

وأما كمية المقضي وكيفية حصوله وانفصاله، فأمرٌ استأثر الله به في غيبه، ولم يُطلع أحدًا عليه لذلك قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُم﴾ يا بني آدم ﴿مِّنَ الْعِلْمِ﴾ المتعلق بالروح ﴿إِلَّا

الماضية قبل بعثه أو بعد بعثه فهو من أهل الثواب، ومن لم يؤمن به من الأولين والآخرين فهو من أهل العقاب، ووضح فيه قوله: «بك أعاقب وبك أثيب»، فكل ما ذكرناه في معرفة الروح فهو حال النبي ﷺ ومقاله؛ فكيف يظن به [أنه] لم يكن عارفًا بالروح، والروح هو نفسه؟! وقد قال: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» وذلك أن الله تعالى خلق آدم وبنيه، وجعلهم خلفاء في الأرض، كما قال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل:62] وهذا أحد كرامة بني آدم، ومن شرط الخلافة أن يكون المستخلف يستجمع أوصاف المستخلف بالنيابة إلا ما اختص به المنوب بالأصالة مثل القدم والأحدية والصمدية والسلامة عن كل عيب ونقصان، فالروح خليفة الله وهو مجمع صفاته الذاتية له كالحياة والقدرة، والسمع والبصر والكلام، والعلم والإرادة والبقاء، والجسد خليفة الروح وهو مجمع صفاته التي باجتماعها في الروح علمنا أنه خليفة الله، وبذلك علمنا أنه خليفة الله، وبذلك علمنا أن الجسد خليفة الروح لأنا وجدنا الجسد قبل اتصال الروح به وبعد انفصاله عنه خاليًا عن هذه الصفات علمنا أنه بخلافة الروح اتصف بهذه الصفات، ولو لم يكن الروح متصفًا بهذه الصفات لخلافة الحق تعالى لم يكن الجسد بها متصفًا فبقي أن الروح باقٍ أبدًا، والجسد فانٍ.

قلنا: وذلك لأن البقاء الأبدي من خاصية الروح فهو مختص به بالأصالة دون خليفته، كما أن الله تعالى اختص بالبقاء الأزلي والأبدي بالأصالة دون خليفته وهو الروح؛ فإنه حادث أبدي دون أزلي، ثم اعلم أن الأرواح كلها خلقت من روح النبي ﷺ وأن روحه أصل الأرواح، وإنها كما كان آدم ولهذا سُمي أميًا؛ أي: إنه أم الأرواح، فكما كان آدم ﷺ أبا البشر فكان النبي ﷺ أبا الأرواح، وإنها كما كان آدم أبا حواء وأمها وذلك أن الله تعالى لما كان روح النبي ﷺ: «كان الله ولم يكن معه شيء» إلا روحه، وما كان شيء آخر ينسب روحه إليه أو يضاف إليه غير الله، فلما كان روحه أول باكورة أثمرها الله تعالى بإيجاده من شجرة الوجود، وأول شيء تعلقت به القدرة وشرفه بتشريف إضافته إلى نفسه تعالى فسماه ﴿رُّوحِي﴾ [الحجر:29] كما سُمي أول بيت من بيوت الله وضع للناس، وشرفه بالإضافة إلى نفسه، فقال: ﴿بَيْتِيَ﴾، ثم حين أراد أن يخلق آدم سواه ونفخ فيه من روحه أي: من الروح المضاف إلى نفسه وهو روح النبي ﷺ كما قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:29] فكان روح آدم من روح النبي - عليهما السلام - بهذا الدليل، وكذلك أرواح أولاده لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة:8- 9] وقال تعالى في مريم عليها السلام: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء:91] فكانت النفخة لجبريل وروحها من روح النبي ﷺ المضاف إلى الحضرة، وهذا أحد أسرار قوله ﷺ: «آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة».

قليلاً﴾ [الإسراء:85] وهو أنيته وتحققه دون لميته وحقيقته؛ لأن اطلاع الإنسان على الأشياء إنما هو بقدر قابليته واستعداده، وليس في وسعه وطاقته أن يعلم حقيقة الخردلة وكيفية حصولها وتكونها، فكيف حقيقة الروح، وكيفية تعلقها في البدن.

غاية ما في الباب أن المكاشفين من أرباب الأذواق ينكشفون في البدن، ويتفطنون منها أن ظهور الأشياء وحياتها ومنبع نشأتها ونمائها إنما هي تلك السراية، هذا نهاية ما يمكن التكلم والتفوه عنه، وأما الاطلاع على كنهها، فأمرٌ لا يسعه مقدرة البشر.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: والله إن شئنا وأردنا إذهاب القرآن المرشد لقاطبة الأنام، لحككناه من المصاحف ومحوناه من الصدور والخواطر ﴿ثُمَّ﴾ بعد إذهابنا ومحونا ﴿لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: 86] أي: لا تجد ظهيرًا معينًا لك يطالبنا بمجيئه.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الإسراء: 87 – 96].

﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ ناشئة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل نازلةٌ إليك إن سألت منه سبحانه ردّه يردّه إليك تلطفًا وعطفًا ﴿إِنَّ فَضْلَهُ﴾ سبحانه ﴿كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ [الإسراء:87]

مثل اصطفائك من بين البرية، وإرسالك إلى كافة الناس، وتأييدك ونصرك في عموم الأوقات، وغير ذلك.

ثم لما قال بعض المعاندين من الكفار الطاعنين في القرآن: لو شئنا لقلنا مثل هذا القرآن الذي جئت به يا محمد، ونسبته إلى الله افتراء، نَزَل: ﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل في جوابهم مقسمًا مؤكدًا: والله ﴿لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ﴾[1] واتفقوا معارضين ﴿عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾ الجامع لأحوال النشأتين، الواقع في أعلى مراتب البلاغة والفصاحة لما حصل لهم الإتيان بمثله وهم فرادى، بل ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ في الجامعية والبلاغية، واتساق اللفظ والمعنى، ومتانة النظم والفحوى ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:88] أي: ولو كانوا متظاهرين متعاضدين في إتيانه، لم يتأت أيضًا منهم الإتيان، لكونه خارجًا عن طوق البشر.

﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ وكررنا ﴿لِلنَّاسِ فِي﴾ حق ﴿هَذَا الْقُرْآنِ﴾ المعجز لفظًا ومعنىً ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ موضح لهم إعجازه، وخروجه عن معرض معارضة البشر، وارتفاع شأنه عن القدح والطعن فيه ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ وامتنعوا عن قبوله، ولم يتفطنوا لإعجازه، ولم يزيدوا في حقه مع ظهور الدلائل والشواهد المكررة ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء:89] جحودًا وإنكارًا بدل القبول واليقين بحقيته.

﴿وَ﴾ مع ظهور هذا المعجز المشتمل لما في العالم غيبًا وشهادة، إجمالاً وتفصيلاً ﴿قَالُوا﴾ تعنتًا اقتراحًا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ ونصدّق بكتابك ﴿حَتَّى تَفْجُرَ﴾ وتشقق ﴿لَنَا مِنَ الأَرْضِ﴾ أي: أرض مكة ﴿يَنبُوعًا﴾ [الإسراء:90] أي: عينًا جارية نشرب منه ونزرع ونغرس على وجه العموم.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ﴾ عليها على وجه الخصوص ﴿جَنَّةٌ﴾ أي: بستان مغروسة مملوءة ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ سهل السقي ﴿فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا﴾ أي: أواسطها ﴿تَفْجِيرًا﴾ [الإسراء:91] سهلاً يسيرًا، بحيث لا تكلف في سقيها أصلاً.

﴿أَوْ﴾ تأتي بآية ملجئة لنا إلى الإيمان بأن ﴿تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ ونسبته

(1) لفظ الجن يتناوله الملائكة وكل من لم يدركه حس البصر لأنهم مستورون عن البصر يقال: جن بترمه إذا استتر به؛ ولهذا قيل للترس المجن، وإنما قلنا للباقون بمثله؛ لأنه ليس لكلام الله مثل؛ إذ كلامه صفته، وكما أنه ليس لذاته تعالى مثل وكذلك ليس لصفاته مثل؛ لأنها قديمة قائمة بذاته تبارك وتعالى وصفات المخلوق مخلوقة قابلة للتغيير والفناء.

إلى ربك بقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبأ: 9] ﴿عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ أي: قطعةً بعد قطعةٍ حتى نؤمن لك ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ﴾ الذي ادعيت الرسالة والنبوة عنه، تعالى عن ذلك، ﴿وَالْمَلائِكَةِ﴾ أي: وتأتي بالملائكة الذين ادعيت وساطتهم ورسالتهم بينك وبين ربك ﴿قَبِيلاً﴾ [الإسراء:92] أي: تأتي بهم بجماعةٍ أو مقابلاً عيانًا مشاهدًا محسوسًا.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ﴾ متخذ ﴿مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي: ذهبٍ وفضةٍ مكللةٍ بجواهرَ نفيسةٍ ﴿أَوْ تَرْقَى﴾ وتصعد على رؤوس الأشهاد ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ بلا أسبابٍ ووسائلَ ﴿وَ﴾ بعد صعودك وعروجك ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي: لن نؤمن لك ونصدق بمجرد رقيك وعروجك ﴿حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا﴾ أي: مكتوبًا من عند ربك مشتملاً على أسامينا ودعوتك إيانا إلى الإيمان وتصديقنا بك ﴿نَّقْرَؤُهُ﴾ بين أظهرنا ونؤمن بك بأجمعنا ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما سمعت منهم هذه المقترحات التي ليس في وسعك وطاقتك متعجبًا متنزهًا مستبعدًا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ وتعالى من أن يشارَك في قدرته فإن أمثال هذه المقترحات، إنما تصدر منه سبحانه وتعالى أصالةً، أو في خلقه وإظهاره في بعض عباده إن تلعق إرادته، ولم يخلق فيّ بل ﴿هَلْ كُنتُ﴾ أي: ما كنتُ ﴿إَلاَّ بَشَرًا﴾ ضعيفًا كسائر الناس، غاية الأمر أني بوحي الله وإلهامه عليّ صرت ﴿رَّسُولاً﴾ [الإسراء:93] كسائر الرسل، وقد كانوا أيضًا لا يتأتي منهم كل ما اقترح عنهم أقوامهم، بل ما يسّر الله ومكّنهم عليه، وما لي أيضًا إلا ما يسّر الله لي.

﴿وَمَا مَنَعَ﴾ وصرف ﴿النَّاسَ﴾ عن ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾ ويهتدوا وقت ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ أي: الرسول الهادي المرشد إياهم يرشدهم إلى طريق التوحيد والعرفان ﴿إِلاَّ أَن قَالُوا﴾ أي: قَوْلُهُمْ هذا على سبيل الاستبعاد والاستنكار: ﴿أَبَعَثَ اللهُ﴾ العليم الحكيم المتقن في أفعاله ﴿بَشَرًا﴾ متصفًا بأنواع الجهالات، منغمسًا بأنواع الكدورات ﴿رَّسُولاً﴾ [الإسراء:94] إلى بشرٍ مثلهم؛ ليهديهم إلى الكمال ويهذبهم عن النقصان؟! كلا وحاشا بل إن أرسل الله رسولاً إلى هداية عباده، فالمناسب إرسالك الملَك لكونه صافيًا عن الكدورات الجسمانية مطلقًا.

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا: لا بدَّ بين المفيد والمستفيد من المناسبة والملاءمة المصحِّحة لأمر الإفادة والاستفادة ﴿لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ﴾ سماويون نازلون منها إليها لمصلحة ﴿يَمْشُونَ﴾ عليها ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ متمكنين ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم﴾ حين

احتياجهم إلى الإرشاد والتكميل ﴿مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا﴾ مجانسًا لهم ﴿رَّسُولاً﴾ [الإسراء: 95] إياهم، ويرشدهم ويهديهم بمقتضى مجانستهم ومناسبتهم.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما آيست عن إيمانهم وصلاحهم: ﴿كَفَى بِاللهِ﴾ أي: كفى الله ﴿شَهِيدًا﴾ مثبتًا لرسالتي عليكم بإظهار أنواع المعجزات على يدي قاطعًا للنزاع الواقع ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ﴾ سبحانه بذاته وبحضرة علمه ﴿كَانَ بِعِبَادِهِ﴾ وبجميع ما صدر عنهم من الأعمال على التفصيل ﴿خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء:96] ذا خبرةٍ وبصارةٍ كاملةٍ؛ بحيث لا يشذّ من أحوالهم شيء من علمه وخبرته، فيجازيهم بكمال قدرته على مقتضى علمه وخبرته.

﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا (١٠٠) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤)﴾ [الإسراء: 97 – 104].

﴿وَ﴾ بعد ما ثبتَ أن أمرهم موكول إلى الله وحالهم محفوظٌ عنده ﴿مَن يَهْدِ اللهُ﴾ الهادي وتعلّق إرادتهُ بهدايته ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ أي: هو مقصورٌ على الهداية لا يتعداها أصلاً ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ الله، وتعلّق مشيئتهُ بضلاله ﴿فَلَن تَجِدَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ﴾[1] أي: من دون الله يوالونهم، ويظاهرون عليهم، وينقذونهم من بأس

(1) أي: من دون الله يشير به إلى أن الهداية في البداية مبنية على إصابة النور عند رشاشه؛ فمن لم

الله وبطشه بعدما أخذتهم العزة بإثمهم ﴿وَ﴾ لذلك ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ ونبعثهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بعد تنقيد أعمالهم منكبين منكوسين ﴿عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ تنفيذًا لأحكامنا؛ يعني: يُسحبون ويجرون نحو جهنم البعد والخذلان ﴿عُمْيًا﴾ لكونهم في النشأة الأولى أعمى من رؤية الحق في المظاهر والأعيان ﴿وَبُكْمًا﴾ لكونهم صامتين ساكتين عما ظهر لهم من دلائل التوحيد عنادًا ومكابرةً ﴿وَصُمًّا﴾ لكونهم أُضمِينَ عن استماع كلمة الحق من ألسنة الرسل وورّاثهم؛ أي: العلماء، لذلك صار ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ ومنزلهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ الطرد والحرمان المسعَّر بنيران الخذلان والخسران، وصارت من كمال سعرها إلى حيث ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ وسكنتْ لهبُ نارها بعدما أكلتْ جلودهم ولحومهم ﴿زِدْنَاهُمْ﴾ جلودًا ولحومًا مثل جلودهم ولحومهم، بل عينه؛ يعني: كلما انمحت جلودهم ولحومهم نعيدهم على ما كانوا لتصير ﴿سَعِيرًا﴾ [الإسراء:97] ذا شررٍ والتهابٍ مفرطٍ، بعدما وجدتْ ما تأكل، والسر في تكرارها وإعادتها: إنكارُهم للحشر وإعادة المعدوم بعينه.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي سمعت من العذاب ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ أي: جزاء المنكرين الكافرين، وإنما عذبناهم بها ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالّة على الحشر الجسماني ﴿وَقَالُوا﴾ منكرين مستبعدين: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَ﴾ صرنا ﴿رُفَاتًا﴾ أي: هباءً وغبارًا ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا﴾ أي: مخلوقًا موجودًا ﴿جَدِيدًا﴾ [الإسراء:98] مثل المخلوق الأول؟! كلا وحاشا.

﴿ أَ﴾ ينكرون الحشر وإعادة المعدوم بعينه، ويصرون على الإنكار أولئك المعاندون ﴿وَلَمْ يَرَوْا﴾ ولم يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ خلقًا إبداعيًا اختراعيًا بلا سبقِ مادةٍ وزمانٍ ﴿قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ بعد إعدامهم وموتهم، مع أن الإعادة أسهل وأيسر من الإنشاء والإبداء ﴿وَ﴾ لم يعلموا كيف ﴿جَعَلَ﴾ أي: صيّر وقدر ﴿لَهُمْ أَجَلاً﴾ معينًا ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ متى وصلوا إليه ماتوا؛ بحيث لا يسمع لهم طلب التقديم والتأخير أصلاً، ومع وضوح هذه الدلائل والشواهد ﴿فَأَبَى﴾ وامتنع ﴿الظَّالِمُونَ﴾ الخارجون عن مقتضى العقل والنقل عن قبول

يصب ذلك النور وأخطأه بقي في ظلمة الضلالة، وليس لأحد أن يخرجه منها إلى نور الهداية إلا الله تعالى؛ فإنه الهادي في البداية والنهاية، وهو الولي الذي يخرج المؤمنين من الظلمات إلى النور من الأزل إلى الأبد، واستوى عنده الأزل والأبد، وكل وقت له أزل وأبد. [التأويلات].

الحق وتصديق الحق المطابق، للواقع، وما يزيدهم وروده ووضوحه ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء:99] أي: جحودًا وإنكارًا للحق لخبث طينتهم ورداءة فطرتهم، متوهمين نفاد قدرة الله عند مراده وانقضاء تمكينه واقتداره لدى المقدور.

﴿قُل﴾ للمنكرين المتوهمين نفاد قدرة الله وانصرام حوله وقوته عن مراده: لا تقيسوا الغائب على الشاهد، ولا تتوهموا الشح والبخل والعجز والاضطرار في حق الله، بل الكل هو من أوصافكم وخواصكم؛ إذ ﴿لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ مع سعتها وعدم نفادها وتناهيها أصلاً ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ وبخلتم ﴿خَشْيَةَ الإِنفَاقِ﴾ أي: مخافة النفاد بالإنفاق بلا وضع شيء بدل ما ينفق ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ﴾ خُلق في أصل فطرته ﴿قَتُورًا﴾ [الإسراء:100] ممسكًا لازدحام لوازم الإمكان والافتقار فيه؛ إذ هو أحوج المظاهر وأبعدهم عن الوحدة الذاتية؛ لأنه آخر نقطة قوس الإمكان، وهي نهاية الكثرة، وصار أول نقطة قوس الوجوب إن انخلع عن ملابس الإمكان، وتجرد عنها بالمرة بلا شوب شينٍ ونقصانٍ.

﴿وَ﴾ من جملة كفورية الإنسان وفتوريته: أنا ﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾ من سعة رحمتنا وكمال حولنا وقدرتنا ﴿مُوسَى﴾ المؤيد من عندنا ﴿تِسْعَ آيَاتٍ﴾[1] أي: معجزاتٍ ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحاتٍ دالةٍ على صدقة في رسالته وحقيته في نبوته، وهي: العصا واليد البيضاء والجراد والقمل والضفادع والدم، وانفجار الماء من الحجر وانفلاق البحر ونتق الجبل فوقهم.

وإن شئت يا أكمل الرسل زيادة إيضاحٍ وإلزامِ المشركين اليهود ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: بقية أخبارهم؛ ليخبروك وقت ﴿إِذْ جَاءَهُمْ﴾ موسى ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ﴾ بعدما رأى منه ما رأى من الخوارق بدل من الإيمان والإطاعة ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى﴾

---

(1) قال في التأويلات: يشير إلى الآيات التي تدل على نبوته فيما يتعلق بنفسه خاصة منها إلقاؤه في اليم، وإخراجه منه، وتربيته في حجر عدوه فرعون، وتحريم المراضع عليه ورده إلى أمه، وإلقاء المحبة عليه، واصطناعه لنفسه، وإيناسه النار من جانب الطور، والنداء من الشجرة ﴿أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص:30]، واستماع كلام الله، وقوة حمل الخطاب والجواب، وأعظم الآيات جرأته على طلب الرؤية، وإجابته بالتجلي، وصعقه منه، وإفاقته من الصعقة، وإحلال العقدة من لسانه، وإلقاء النور على وجهه، واشتعال النار قلنسوته عند الغضب، واليد البيضاء وغيرها من الآيات.

بعدما جئت بسحرٍ عظيمٍ وكيدٍ كبيرٍ، وهو وإن كان من العقل والدراية: أعتقدك ﴿مَسْحُورًا﴾ [الإسراء:101] مجنونًا مخبطًا مختلّ العقل بادعائك الرسالة والنبوة من خالق السماء ونزول الملك والمصحف إليك من عنده مع انسداد الطرق وانعدام السبل.

ثم لما سمع موسى من فرعون ما سمع آيس من إيمانه وقنط ﴿قَالَ﴾ موبخًا مقرعًا: والله ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يقينًا أن ﴿مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ﴾ الآيات القاهرة الباهرة إليّ ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لكونها خارجة عن وسع غيره مطلقًا، وعلمت أيضًا أنه ما أنزله إلا ﴿بَصَائِرَ﴾ أي: بيناتٍ وشواهد دالةٍ على صدقي في دعواي لتبصرك، وتوقظك عن مقام غفلتك، وتتفطن بها لأصل فطرتك وجبلتك ﴿وَإِنِّي﴾ بعدما بالغتُ في تبليغ ما جئتُ من الهداية والإرشاد ﴿لَأَظُنُّكَ﴾ وأعتقدك ﴿يَا فِرْعَوْنُ﴾ المتناهي في الغفلة والغرور ﴿مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:102] مصروفًا عن الخير كله، مطرودًا عن ساحة عز الحضور، مجبولاً على الشر ودواعيه.

وبعدما رأى فرعون من موسى ما رأى من المعجزات الواضحات، خاف أن يميل إليه قومه ويؤمنوا له ﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ أي: بني إسرائيل، ويستأصلهم بأن يحركهم أولاً ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر، ويفرقهم بحيث لا يتأتى منهم المقاومة معه أصلاً، ثم يأمر بقتل كل فرقةٍ منهم مكرًا منه وكيدًا، فمكرنا له قبل مكره إياهم ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن﴾ كانوا متفقين ﴿مَّعَهُ﴾ في مكره وكيده ﴿جَمِيعًا﴾ [الإسراء:103] حين أمرنا موسى ومن معه بالفرار ليلاً، فأُخبر وأتبع أثره، فلقي موسى البحر وهو على عقبه، فأمرنا موسى بضرب البحر بالعصا، فضربه فانفلق وافترق وتشعب، فمر به موسى وأصحابه سالمين، فلقي فرعون على البحر الفور، فرأى البحر مفترقًا فاقتحموا مغرورين، فأغرقناهم أجمعين بعدما أمرنا البحر بالخلط والاجتماع على ما كان.

﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ﴾ أي: انقراض فرعون وانقضائه ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ على سبيل التوصية والتذكير في كتابنا المنزل عليهم، وهو التوراة ﴿اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ التي أراد فرعون أن يستفزكم منها بالقهر والغلبة، آمنين صالحين مؤمنين بما أرسل إليكم وأنزل عليكم، عاملين بمقتضى أوامرنا ونواهينا ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ وقيام الساعة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء:104] ملتفين مختلطين سعداؤكم مع أشقيائكم، فنميز بينكم، وندخلكم منزل الشقاوة والسعادة.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى

ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾
[الإسراء: 105 – 111].

ثم قال سبحانه في حق القرآن ونزوله وعظم قدر من أنزل إليه: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ أي: ما أنزلنا القرآن إلا ملتبسًا بالحق المطابق للواقع بلا عروض الباطل عليه أصلاً ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: ما نزل فيه من الأحكام والأوامر والنواهي والعبر والأمثال والرموز والإشارات والمعارف والحقائق، كلها نزل بالحق الصريح الثابت الخالص عن توهم الباطل مطلقًا ﴿وَ﴾ أيضا ﴿مَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا أكمل الرسل على كافة البرايا ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ بالحق للمؤمن المطيع بأنواع الخيرات واللذات الروحانية المعنوية ﴿وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء:105] بالحق للكافر الجاحد عن أنواع العذاب والعقاب الجسمانية والروحانية، وأرسلناك عليهم؛ لتكون داعيًا لهم إلى التوحيد والعرفان، تاليًا لهم.

﴿وَقُرْآنًا﴾ فرقانًا بين الحق والباطل والهداية والضلال ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ أي: فرقنا إنزاله مفرقًا منجمًا ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾ لدى الحاجة ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾ مهلٍ وتؤدةٍ، فإنها أسهل وأيسر للحفظ والفهم ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ [الإسراء:106] على حسب الوقائع ومقتضى الزمان والمورد في عرض عشرين سنة.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للطاعنين في القرآن، المائلين عن حقيته جهلاً وعنادًا على سبيل التهديد والتوبيخ: ﴿آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ أي: سواء منكم الإيمان بالقرآن وعدم الإيمان به؛ لأنكم جهلاء عما فيه من الحقائق والمعارف، غفلاء عن الرموز والإشارات المودعة فيه، فتصديقكم وتكذيبكم لا يجدي نفعًا، ولا يورث ضرًا، إنما العبرة لذوي الخبرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من لدن حكيمٍ عليمٍ بحقية ما فيه، وما في جميع الكتب الإلهية، وهم الأنبياء والأولياء المجبولون على فطرة التوحيد والعرفان، كانوا يؤمنون به ويصدقون به ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ أي: قبل نزوله، وبعد نزوله كذلك ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ﴾ ويسقطون ﴿لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء:107] متذللين، واضعين

جباههم وأذقانهم على تراب المذلة تعظيمًا لأمر الله، وشكرًا له لإنجازه وعده.

﴿وَيقُولُونَ﴾ في حين سجودهم منزِّهين مسبِّحين: ﴿سُبْحانَ رَبِّنَا﴾ وتعالى عن أن يأتي الخُلْف فيما عهدنا، أو عن أن يعجز عن إتيان ما وَعَدنا ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمفْعُولاً﴾ [الإسراء:108] أي: إنه كان وعد ربنا الذي وعدنا به في الكتب السالفة من إرسال رسولٍ بأوصافٍ مخصوصةٍ مع كتابٍ جامعٍ لما في الكتب السالفة، ناسخٍ لها، خاتمٍ للرسالة العامة والتشريع الشامل، لذلك صار دينه ناسخًا لجميع الأديان، فقد أنجز سبحانه وعده بإرسال هذا النبي الأمي الموعود.

﴿وَيَخِرُّونَ﴾ أيضًا العالمون العارفون بحقية القرآن بعد تأملهم، وتوغلهم في حِكَمِه وأحكامه وحقائقه ومعارفه ﴿لِلأَذْقَانِ﴾ حال كونهم ﴿يَبْكُونَ﴾ من خشية الله ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يزِيدُهُمْ﴾ التأمل والتدبر فيه على وجه التدقيق والتعمق ﴿خُشُوعًا﴾ [الإسراء:109] وخضوعًا؛ لاطلاعهم على سرائر شهِدَت بها أذواقهم، وذاق حلاوتَها وجدانُهم وسرائرُهم.

﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل للمحجوبين الغافلين عن سر سريان الوحدة الذاتية الإلهية في المظاهر كلها والمجالي برمتها: ﴿ادْعُوا اللهَ﴾ أي: سمُّو الذات الأحدية باسم الله المستجمع لجميع الصفات إجمالاً ﴿أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ أي: سموه باسم الصفات التي اتصفت بها الذات الأحدية تفصيلاً ﴿أَيًا مَا تَدْعُوا﴾ وتسَمُّوا من أسماء الذات والصفات ﴿فَلَه﴾ أي: لله المنزه عن سِمَة الكثرة والحدوث مطلقًا، ووصمة الشركة والتعدد رأسًا عن ﴿الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الكاملة الدالة على أحدية ذاته، غايته في الباب أنها باعتبار شؤونه وتجلياته؛ إذ الاسم والمسمى كلاهما يتحدان عن سقوط الإضافات ورفع التعينات؛ إذ لا يتصور التعدد دون جنابه إلا وهمًا واعتبارًا.

﴿وَ﴾ إذا كان الكل من المسميات راجعة إلى الذات الأحدية بعد رفع التعينات وسقوط الإضافات ﴿لَا تَجْهَرْ﴾ أيها العارف المتمكن في مقام التوحيد، الراسخ فيه بلا تلوين وتقييد ولا تعلق ﴿بِصَلاتِكَ﴾ وميلك نحو الحق بَوحًا وشطحًا، ولا تقل في حال صحوك إفاقتك كلامَ أرباب السكر والحيرة ﴿وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾ أيضًا خيفةً وشحًا على ذوي الاستعداد والاسترشاد ﴿وَابْتَغِ﴾ واختر يا صاحب التمكين ﴿بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:110] مقتصدًا معتدلاً مائلاً عن كلا طرفي الإفراط والتفريط؛ إذ الخير في كل الأمور أوسطها وأعدلها.

﴿وَقُلِ﴾ بعدما تحققتَ وتمكنتَ في مقر التوحيد شكرًا لما أنعمك الحق الوصول إليه، وأمكنك التحقق دونه والورود عليه: ﴿الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي﴾ توحد بذاته

وتقدس بأسمائه وصفاته، وتفرد بألوهيته، واستقل بوجوده وربوبيته إلى حيث ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ يخلف عنه لكونه صمدًا قيومًا أزليًا أبديًا سرمديًا، لا يعرضه الفناء ولا يعتريه الانصرام والانقضاء ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ والملكوت يظاهره أو يزاحمه ويخاصمه؛ إذ لا شيء في الوجود سواه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ﴾ يولي أمره ويعين عليه حين ما لحقه ﴿مِّنَ الذُّلِّ﴾ المسقطِ لعزه الأصلي وعِظَمِهِ الحقيقي الأزلي؛ إذ لا تغيرَ ولا تبدلَ في ذاته أصلاً.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء:111] ذاتيًا حقيقيًا وعظِّمه تعظيمًا صوريًا ومعنويًا؛ إذ لا وجود للغير معه حتى يتصور هناك النسبة والإضافة، بل هو أجل وأكبر لذاته بلا توهم الإضافة فيه.

اهدنا بفضلك سواء سبيلك إلى توحيدك، واجعلنا من زمرة أرباب تمييزك وتمجيدك.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحقق في مقام تمجيد الحق وتحميده - مكّنك الله بما أوصلك إليه وقررك دونه - أن تعظمَ الحقَ غاية التعظيم، وتكبره كمال التكبير والتكريم، واعلم أن تعظيمه إنما هو بتعظيم مظاهره ومجاليه؛ إذ ما من ذرةٍ من ذرائر الكائنات إلا وقد ظهر الحق فيه، وتجلى عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، فلك أن تتواضع وتتذلل عند المظاهر طوعًا ورغبةً، ولا تتكبر عليها، ولا تتعظم دونها؛ إذ التكبر والتفوق على ذرةٍ صغيرةٍ من أمارات عدم الوصول إلى مرتبة اليقين الحقي ومقرِّ التوحيد الحقيقي.

وذلك إنما يحصل لك بعد رفع مقتضيات أوصافك البشرية بموتك الإرادي الاختياري، وهو إنما يحصل بالرياضات الشاقة القالعة لدرن الهوى والغفلات، وترك العادات الراسخات في نفوس أصحاب الجهالات، والركون إلى العزلة والخلوات، والانقطاع عن رسوم أصحاب التخمينات والتقليدات، والتبتل نحو الحق في عموم الأوقات والحالات.

وفقنا الله وإياكم سلوك طريق التوحيد، ورزقنا الوصول إلى منزلة التجريد والتفريد، وجعلنا من زمرة أهل المحبة والولاء الوالهين في مقام التمجيد والتحميد، إنك قريب مجيب حميد مجيد.

سورة الكهف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الكهف

لا يخفى على المتحققين المحمديين في مقام المعرفة والتوحيد بمتابعته ﷺ، المسترشدين من القرآن المنزل عليه، المفصل لمرتبته ﷺ، الموضّح لشأنه في المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات وعروجه إلى معارج العنايات الإلهية وسلوكه في مسالك توحيده على الاستقام والاعتدال بلا عوج وانحراف أنّ من وُفق من عند الله على سلوك طريق التوحيد من أرباب العناية، ظهرَ عليه ولاح دونه استقامة القرآن المنزّل على العدالة والقسط الإلهي وبراءته عن العوج والانحراف.

وكذا اعتدال أخلاق النبي ﷺ ومقابلته ومطابقته إياه في الاستقامة والاستواء؛ إذ هو منزّل من عند الله سبحانه على مقتضى استعداده ﷺ على وفق مرتبته الجامعة لجميع مراتب الأنبياء والرسل الهادين المهديين؛ إذ هو مبدأ جميع المراتب ومنتهاه أيضًا.

لذلك كمُل ببعثته وإرساله أمر الدين، وخُتم بإقامته ﷺ باب الرسالة والتشريع، وبإنزال القرآن عليه باب التنزيل والتبيين.

لذلك وجب له ﷺ ولجميع من آمن له واقتفى أثره مواظبة حمد الله والإقامة بأداء شكره على إنعام هذه النعمة الجليلة التي هي نعمة القرآن الفارق بين أرباب اليقين والعرفان، وأصحاب الزيغ والطغيان.

لذلك أخبر سبحانه بالحمد على إنزاله تعليمًا له ﷺ ولأمته، فقال سبحانه متيمنًا باسمه العلي العظيم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلي بذاته باعتبار اتصافه بجميع أوصاف الكمال لعبده الذي انتخبه واصطفاه من بين عباده على مقتضى الكرم والإفضال ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم عباده بإرسال هذا العبد رسولاً إليهم، هاديًا لهم إلى درجات الكمال ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم بإرشاد حبيبه ﷺ إلى زلال الوصول.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢)﴾

﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾ [الكهف: 1 - 8].

﴿الْحَمْدُ﴾ المشتمل المتضمن على عموم الاثنينية والتوصيف بالأوصاف الجميلة حقيقٌ لائقٌ ﴿لِلَّهِ﴾ أي: للذات المستجمع لجميع مراتب الكمال، المستحق لجميع المحامد استحقاقًا ذاتيًا ووصفيًا؛ لأنه ﴿الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ المستجمع لجميع مراتب الكمال، المستظل بظلّ الألوهية، المستحق لرتبة الخلافة والنيابة عنه سبحانه بالأصالة؛ يعني: محمدًا ﷺ.

﴿الْكِتَابَ﴾ الجامع لجميع أوصاف الكمال إجمالاً وتفصيلاً، المشتمل لعموم الأحكام المتعلقة لها، المترتبة عليها في النشأة الأولى والأخرى، مع كونه محتويًا على ما في الكتب السالفة من الأوامر والنواهي، مع زياداتٍ خلت عنها تلك الكتب من الرموز والإشارات المتعلقة بالتوحيد الذاتي المسقطِ لعرق الإضافات والكثرات مطلقًا ﴿وَ﴾ بيّن لهم فيه طريق التوحيد الذاتي على الوجه الأبلغ الأقوم؛ بحيث ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾[1] [الكهف:1] وانحرافًا في تبيينه.

(1) قال البقلي: حمد نفسه سبحانه في الأزل، وكان موصوفًا بحمده الأزلي قبل حمد الحامدين له حمدًا يكافئ كتابه الذي أنزل على عبده، ولو وكل حمده إلى عبده لإنزال كتابه عليه؛ لذهب بحمده عن وجود الكون، ولم يطق أن يحمل وارد حمده بحكمة واستحقاق حمده. فشكر نفسه لما منَّ على عبده؛ ليسهل على عبده طريق عبوديته؛ لأن حمد القديم لا يحتمل إلا القديم، شرف على الأنام لما منَّ عليه من العرفان، وسماه عبده، وأي: تكرمة أكرم من هذا، ولا يليق الحدثان بعبودية الذي يفنى أول سطوات عظمته الكون كان مسألة تعليم لعبادة أي: احمدوا الله الذي عرف عبده الكلام الأزلي بعد أن وهبه استعداد سماع كلامه، وقبول وحيه قوة رؤيته من يعبر عنه بلسان غير معوج، وغير مفهوم ولو أنزل عليهم باللسان الأزلي من يفهم ذلك من العرش إلى الثرى إلا متصف بصفاته، فالحمد وجب عل الجمهور؛ حيث شاهدوا بصفاته وكلامه على عبده، وأنطقه بمراده من كتابه. قال ابن عطاء: أضاف الكل بالكلية إلى نفسه، وقال على عبده أي: على عبده المخلص، وحقيقة العبد الذي لا ملك له. وقال أيضًا: الكتاب منشورٌ

بل جعله ﴿قَيِّمًا﴾ مستقيمًا معتدلاً بين طرفي الإفراط والتفريط المذمومين عقلاً وشرعًا، وإنما أنزله إلى عبده وحبيبه ﷺ ﴿لِّيُنذِرَ﴾ بإنذاراته الكافرين الذين كفروا بالله وجحدوا في توحيده، وعملوا السيئات المبعدة عن طريق النجاة ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ وعذابًا أليمًا عظيمًا صادرًا ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: من عند الله العزيز المنتقم بطشًا لهم وانتقامًا منهم ﴿وَيُبَشِّرَ﴾ أيضًا بتبشيراته ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ الموحدين ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة لهم إلى مرتبة التوحيد الصادرة عنهم على مقتضى يقينهم وعرفانهم ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: أن لهم ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف:2] هو التحقق بشرف اللقاء والفوز بمطالعة جمال الله والاستغراق بملاحظة وجهه الكريم.

﴿مَّاكِثِينَ فِيهِ﴾ أي: في الأجر الحسن دائمين ﴿أَبَدًا﴾ [الكهف:3] مؤبدًا مخلدًا بلا تبديل وتغيير، مزيدين المحبة واللذة والشوق، متعطشين إلى زلال التفريد بلا رواءٍ أصلاً، كما أخبر سبحانه عن حال أولئك الوالهين بقوله: «**أَلاَ طَالَ شَوْقُ الأَبْرَارِ إِلَى لِقَائِي**»[1].

﴿وَيُنذِرَ﴾ أيضًا أشدَّ إنذارٍ بأسوأ عذابٍ ووبالٍ ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ من فرط إسرافهم في الشرك والجحود، وهم اليهود والنصارى: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنزه عن الأهل والولد ﴿وَلَدًا﴾ [الكهف:4] حيث قال اليهود: عزير ابن الله، والنصارى: المسيح ابن الله.

مع أنه: ﴿مَّا لَهُم بِهِ﴾ بالله باتخاذه ولدًا ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ يقينٍ أو ظنٍ متعلقٍ به وبمعناه، وبما يترتب عليه من النقص المنافي لوجوب الوجود؛ إذ اتخاذه إنما هو للإخلاف والمظاهرة والتزيين، وكلاهما محالان على الله لا يليقان بجنابه، تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ يعني: وإن ادعوا في إثبات الولد لله تقليد الآباء والأسلاف، فليس لهم أيضًا علمٌ بنقصه وعدم لياقته بجناب الحق المنزه المقدس في ذاته عن أمارات النقصان وعلامات الإمكان.

ظاهر فيه أسرار باطنه. ﴿عِوَجًا﴾ أي: زيغًا وميلًا إلى الغير، كما قال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:17] أي: لم ير الغير في شهوده.

(1) رواه أبو نعيم في «الحلية» (10/91).

وبالجملة: ﴿كَبُرَتْ﴾ أي: جلّت وعظُمت في الكفر وسوء الأدب مع الله ﴿كَلِمَةً﴾ أي: مقالتهم هذه مع أنها ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ هفوةً بلا علم وتأملٍ، بل ﴿إِن يَقُولُونَ﴾ أي: ما يقولون ويقصدون بقولهم هذا ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:5] وافتراء يفترونه على الله، وينسبونه إلى كتابهم ظلمًا وزورًا.

وبعدما كان حالهم في الافتراء والمراء على هذا المنوال، وشدة غيظهم وشكيمتهم مع الله على هذا المثال: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا أكمل الرسل بمحبتك ومودتك إيمانهم وانقيادهم، وبرجائك وتحننك إلى بيعتهم ومتابعتهم ﴿بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: قاتلها ومهلكها ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ عندما انصرفوا عنك وذهبوا ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ أي: إن هم لم يؤمنوا ولم يصدِّقوا ﴿بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي: القرآن ﴿أَسَفًا﴾ [الكهف:6] يعني: أهلكت نفسك بكثرة التأسف والتحزن على ذهابهم وانصرافهم عنك، وعدم إيمانهم وانقيادهم بك، وإنْ بعثك وحِداك إلى إيمانهم واتباعهم غناهم ورئاستُهم وترفههم وجاههم وثروتهم وسيادتُهم بين الناس، فاعلم أنه لا اعتداد لها ولا اعتبار بما يترتب عليها.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ﴾ من الأصول الثلاثة التي هي الحيوان والنبات والمعدن، وما يتفرع عليها من أنواع اللذات والشهوات الجسمية الوهمية ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ أو زخرفةً عليها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ ونختبرهم أي: أرباب التكاليف والتدابير، المجبولين على فطرة المعرفة والتوحيد ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف:7] وأتم رشدًا وعقلاً في الإعراض عنها، وعدم الالتفات إليها والاجتناب عن لذاتها الوهمية التي هي على التقضي والانصرام، وشهواتها المورثة لأنواع الحزن والآلام وأمانيها، المستلزمة لأصناف الجرائم والآثام، مع أن الضروري منها كِنّ حجرة، ولبس خِرقةٍ، وسدّ جوعة، وباقيها حطام ليس لها دوام، مورثة لآثام وآلام.

﴿وَ﴾ متى علمت أن ما في الأرض ليس إلا زينةً وزخرفة ستفْنى وتفوت عن قريبٍ، فاعلم يقينًا ﴿إِنَّا﴾ بشدة حولنا وقوتنا، وكمال قدرتنا وسطوتنا ﴿لَجَاعِلُونَ﴾ أي: مصيّرون مبدّلون جميع ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ من الذخائر والزخارف ﴿صَعِيدًا﴾ ترابًا مرتفعة أملس ﴿جُرُزًا﴾ [الكهف:8] خالية منقطعة عن النبات؛ بحيث لا تنبت أصلاً.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا

عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: 9 – 16].

أعجبت واستبعدت عن كمال قوتنا وقدرتنا بجعل ما على الأرض صعيدًا جرزا؟! ﴿أم حسبت﴾ وشككت ﴿أنّ أصحاب الكهف﴾ أي: قصتهم وشأنهم. والكهف هو: الغار الواسع في الجبل. ﴿والرَّقيم﴾ هو اسم الجبل الذي فيه الغار، أو اسم الوادي الذي فيه، أو اسم قريتهم، أو كلبهم، أو لوح رصاصي أو حجريّ، رُقِمَ أو رُقمت فيه أسماؤهم وجُعل على باب الكهف، أو أصحابُ الرقيم قومٌ آخرون على اختلاف الأقوال والروايات.

وبالجملة: ﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على كمال قوتنا وقدرتنا ﴿عجبًا﴾[1] [الكهف: 9] أي: آيةً يتعجب منها الناس، ويستبعدون وقوعها مع أنه لا

---

(1) ذكر سبحانه من بسط قدرته، وعظيم آياته، وعجائب شأنه أي: إيش معجب من أصحاب الكهف والرقيم من لبثهم في الكهف ثلاثمائة سنين وزيادة فإنهم في مراقد أنسنا، وبساتين قدسنا، غائبون فينا عن غيرنا، فإن في سعة قدرتنا، إنا نحن لو نشق وردة من بساتين غيبنا لمشامّ العالمين، يهيمون في البوادي والقفار أبدًا، وما أظهرنا فيك من الآيات الكبرى أعجب من حالهم ألف مرة، وليس في عالم القدرة القديمة عجز عن إيجاد كل موهوم ومعدوم.
قال الحسين: أصحاب الكهف في ظل المعرفة الأصلية لا يزايلهم بحال؛ لذلك خفي على الخلق آثارهم.
وقال ابن عطاء: سلبهم عنهم وأخذهم منهم، وحال بينهم وبين الأغيار، وألجأهم إلى غار الأنس، وآواهم . وآمنهم ثم أفناهم عنهم، وغيبهم من إرادتهم ومعاينتهم، فتاهوا في الحضرة والهين؛ لذلك قال الله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾، بل: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا﴾ أي: إذا شاهدت هذا الإنشاء والإفناء، فليس

شك في وقوعها؛ إذ بلغت من التواتر حدًا لا يتوهم فيها الكذب قطعًا؛ إذ أمثال هذا في جنب قدرتنا الكاملة وقوتنا الشاملة سهلٌ يسير.

ولو رفعتَ أيها المعتبر المتأمل الإلْف والعادة عن البين، وطرحتَ تكرر المشاهدة والمؤانسة عن العين، لكان ظهور كل ذرةٍ من ذرائر العالم في التعجب والاستبعاد وكمال الغرابة والبداعة مثل هذا، بل أغرب وأعجب من هذا، فلك أن تراجع وجدانك وتتأمل أمرك وشأنك حتى تجد في نفسك عجائب وغرائب يدهش منها عقلك وينحسر رأيك وفهمك ويكلّ إدراكك، وبالجملة: استغرقتَ في بحر الحيرة والدهشة من نفسك فكيف من غيرك.

أذقنا بلطفك حلاوة مطالعة مبدعاتك ومشاهدة مخترعاتك بنظر العبرة والحضور.

اذكر يا أكمل الرسل قصة أصحاب الكهف وقت ﴿إِذْ أَوَى﴾ أي: التجأ ورجع ﴿الْفِتْيَةُ﴾ الخمسة أو السبعة أو الثمانية من أشراف الروم ورؤسائهم، دعاهم ملكهم دقيانوس إلى الشرك، وهم موحّدون في أنفسهم، فأبَوا وهربوا منه ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ ملتجئين ﴿فَقَالُوا﴾ مناجين مستغيثين من الله: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربَّانا بأنواع اللطف والكرم وفقّنا بشرف توحيدك وتقديسك ﴿آتِنَا﴾ بفضلك وجودك ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ لا بسبب أعمالنا ومقتضياتها ﴿رَحْمَةً﴾ تنجينا عن يد عدونا وعذابه، وعن وبال ما دعانا إليه من الكفر والعصيان ﴿وَهَيِّئْ لَنَا﴾ أسباب معاشنا حين كنا فارّين من العدو وملتجئين إليك، مستعيذين بكنفك وجورك ووفق علينا ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذي نعمل لمرضاتك ولوجهك الكريم ﴿رَشَدًا﴾ [الكهف:10] أي: هدايةً توصلنا إلى زلال توحيدك آمنين فائزين بلا خوفٍ وخطرٍ، فاستجبنا لهم مناجاتهم وأعطيناهم حاجاتهم.

وبعدما دخلوا الكهف ملتجئين بنا متضرعين ﴿فَضَرَبْنَا﴾ وختمنا ﴿عَلَى آذَانِهِمْ﴾ حين كانوا راقدين ﴿فِي الْكَهْفِ﴾ حجابًا غليظًا يمنعهم سماع الأصوات مطلقًا، وأنمناهم على هذا الوجه ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف:11] بلا طعامٍ ولا شرابٍ ولا شيءٍ

حالَ أصحاب الكهف آية عجيبة من آياتنا، بل هذه أعجب. وقال الجنيد: لا تتعجب منهم فشأنك أعجب من شأنهم، حيث أسري بك في ليلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وبلغ بك سدرة المنتهى، وكنت للقربى كقاب قوسين أو أدنى، ثم رددت عند انقضاء الليلة إلى مضجعك.

من أسباب المعاش، وهم أحياء في صور الأموات، منقطعين عن لوازم الحياة مطلقًا سوى الأنفاس تجيء وتذهب.

﴿ثُمَّ بعثْناهُمْ﴾ وأيقظناهم من منامهم بعث الموتى للحشر ﴿لِنعْلَمَ﴾ أي: نجرّب ونميّز ﴿أيّ: الحِزْبَيْنِ﴾ المختلفين بعدما اختلفوا في مدة لبثهم ﴿أَحْصَى﴾ أي: أضبط وأحفظ ﴿لِما لبِثوا﴾ من المدة ﴿أمَدًا﴾ [الكهف:12] يعني: أيهم أحفظ ضبطًا لمدة رقودهم في الكهف، فكلا الفريقين ـ أي: اليهود والنصارى ـ لا يعلمان مدة لبثهم حقًا مطابقًا للواقع.

بل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾ من مقام فضلنا وجودنا ﴿عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿نَبأَهُم﴾ أي: خبرَ مدة لبثهم ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾[1] الثابت الصحيح المطابق للواقع ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ أي: شبّان من أرباب الفتوة والمروءة، وُفقوا من عند الله بالعقل الكامل والرشد التام إلى أن ﴿آمَنُوا﴾ وأذعنوا ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ أي: بتوحيد مربيهم باستعمالهم عقولهم الموهوبة لهم إلى دلائل توحيده ﴿وَزِدْنَاهُمْ﴾ من لدنّا بعدما أخذوا بالتأمل والتدبر في آياتنا الدالة على عظمة ذاتنا وكمال أوصافنا ﴿هُدًى﴾ [الكهف:13] وزيادةَ رشد تفضلاً وامتنانًا.

﴿وَ﴾ ثبتناهم في الهداية والتوحيد بأن ﴿رَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ محبة الإيمان والعرفان، واذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ قَامُوا﴾ بين يدي دقيانوس الظالم الطاغي حين دعاهم إلى الشرك والكفر على رءوس الملأ، وبعدما سمعوا منه دعوته ﴿فَقَالُوا﴾ بلا مبالاةٍ له ولسطوته وشوكته: ﴿رَبُّنَا﴾ الذي أظهَرَنا من كتم العدم، وأوجَدَنا في فضاء الوجود ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: هو رب العلويات والسفليات والغيب والشهادة

---

(1) قال الشيخ روزبهان: وليس شيء أطيب عند الحبيب من ذكر أحبائه لأحبائه، ذكر الحبيب الأول، ما الحبيب عند الحبيب استطاب الحق ذكر قصة فتيان محبته ومعرفته لحبيبه الأكبر؛ ليعرف منازل المحبين والعارفين الذين هاموا بوجوههم في بيداء شوقه وعشقه؛ ليزيد رغبته في شوقه ومعرفته أي: أنا أحقق خبر أسرارهم لك؛ لتعرفهم أين تاهوا في مفاوز القيومية، وأين استغرقوا في بحار الديمومية؟ يا حبيبي اعلم أن تلك فتيان محبتي انفردوا بي عن غيري، وهم شبان حسان الوجوه قلوبهم مُسفرة بأنوار شمس جلالي فيها، وأسرارهم مقدسة بسر أسرار قدسي، أبدانهم غائبة في مجالس أنسي آمنوا بربهم عرفوني بي، واستأنسوا بي واستوحشوا من غيري، ما أطيب حالهم معي، ما أحسن شأنهم في محبتي زدناهم نورًا من جمالي، فاهتدوا به طرق معان ذاتي وصفاتي، وذاك النور لهم على مزيد الوضوح إلى الأبد؛ لأن نوري لا نهاية له. وأيضًا: زدناهم مشاهدة وقربًا وصالاً ومعرفة وكمالاً ومحبة وشفاء.

والظاهر والباطن، أوجد الكل بوحدته واستقلاله في التصرف والاستيلاء بلا مشاركةِ مشيرٍ ومظاهرةِ ظهيرٍ، هو مستحق للألوهية والربوبية ﴿لَن نَّدْعُوَ﴾ ونعبد ﴿مِن دُونِهِ إِلَهًا﴾ باطلاً؛ إذ لا مستحق لعبادة إلا هو، واللهِ لئن دعونا وعبدنا إلهًا سواه ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف:14] أي: قولاً ذا بعدٍ عن الحق والتحقيق بمراحل، وصرنا حينئذٍ مغمورين في الشرك والكفر وأنواع الضلال والطغيان، عصمنا الله منها.

ثم قالوا على وجه التعريض والتسفيه: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ الضالون عن منهج الرشاد ومسلك السداد ﴿قَوْمُنَا اتَّخَذُوا﴾ من غوايتهم وضلالهم ﴿مِن دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿آلِهَةً﴾ باطلةً أي: أصنامًا وأوثانًا يعبدونها لعبادة الله ﴿لَّوْلَا﴾ أي: هلا ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أي: بحجةٍ واضحةٍ وبيّنةٍ لائحةٍ ومعجزةٍ باهرةٍ، صادرةٍ من قِبلهم دالةٍ على لياقتهم الألوهية والربوبية، فإن لم يأتوا فهم حينئذ مفترون على الله بإثبات الشريك له ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وأطغى وأضل ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ﴾ الواحد الأحد، المستقل بالألوهية بإثبات الشريك له، سيما أمثال هذه التماثيل العاطلة ﴿كَذِبًا﴾ [الكهف:15] مخالفًا للواقع، بلا مستند عقلي أو نقلي، بل ظلمًا وزورًا.

﴿وَ﴾ بعدما جرى بينهم وبين دقيانوس ما جرى، قال بعض الفتية لبعضهم: قد وجب علينا الآن الاعتزال منهم ﴿إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ وهجرتموهم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ أي: معبوداتهم من الأصنام والأوثان التي يعتقدونها آلهةً شركاءَ مع الله يعبدونها كعبادته ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الحق الحقيق بالعبادة، وأخلصتم العبادة له سبحانه بلا خوفٍ منه ودهشةٍ، كان أولى وأليقَ بحالكم.

وبالجملة: اتفقوا على الاعتزال واختيار الغربة والفرار من بينهم، فاعتزلوهم منهم وخرجوا من أظهرهم ﴿فَأْوُوا﴾ وانصرفوا ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ المعهود، ملتجئين إلى ربكم من خوف عدوكم، متوكلين عليه في رزقكم ومعاشكم ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ سبحانه ويبسط عليكم ﴿مِّن﴾ سعة ﴿رَّحْمَتِهِ﴾ وجوده ما تعيشون وتبقون بسبب أن تعلق مشيئته بإبقائكم ﴿وَ﴾ بعدما التجأتم إلى الله، وتوكلتم عليه، مفوضين أموركم كلها إليه ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم﴾ ويسهل عليكم ﴿مِّنْ أَمْرِكُم﴾ الذي اخترتم لرضا الله ورعاية جانبه ﴿مِّرْفَقًا﴾ [الكهف:16] أي: ما ترفقون وتنتفعون به من اللذات الروحانية بدل ما فوّتم لأنفسكم من اللذات الجسمانية.

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ

ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الكهف: 17 – 20].

﴿وَ﴾ من كمال رفق الله إياهم، ورأفته معهم أيها الرائي ﴿تَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت﴾ من مشرقها في مدة الصيف حين ازدياد حرارتها ﴿تَّزَاوَرُ﴾ أي: تنقلب وتميل ﴿عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي: جانب يمين الغار؛ لئلا تؤذيهم بشعاعها وحرارتها ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾ أي: زالت ومالت عن الاستواء نحو المغرب ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي: تقطعهم وتنصرف عنهم ﴿ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي: جانب يسار الغار؛ لحفظهم عن حرّها ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: والحال أنهم في متسع الغار ووسطه لا في زواياه؛ بحيث لو لم يكن رعاية الله وحفظه إياهم، وصرف شعاع الشمس عنهم لكانت متشعشعة عليهم إلى وقت الغروب ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: نشر الرحمة وتهيئة الرفق والرأفة وصرف أذى الشمس، وكذا جميع المؤذيات عنهم ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على قبوله سبحانه إياهم ورضاه عنهم كونهم مهتدين إلى توحيده، موفقين من عنده، مبتغين لرضاه، متوكلين عليه في جميع الأمور، راضين بقضائه في كل الأحوال، مخلصين له في جميع الأعمال.

﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ﴾ وأراد هدايته في سابق علمه وقضائه، ومضى عليه حكمه ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ الموفق على الهداية والفوز بالفلاح المقصور عليها، وإن لم يصدر ولم يسبق من الأعمال الصالحة ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ الله وتعلق مشيئته بضلاله في سابق قضائه، فهو الضال المقصور على الضلالة وإن صدرت عنه الأعمال الصالحة، لا يتبدل ضلالها أصلاً، وبعدما أراد سبحانه ضلاله ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا﴾ يولي أمره بالشفاعة لينقذه من الضلال الفطري ويخرجه عن الوبال الجبلي ﴿مُّرْشِدًا﴾ [الكهف:17] يهديه ويرشده

إلى طريق الرشاد ومنهج السداد. ﴿وَ﴾ من كمال لطف الله إياهم ورأفته لو رأيتهم أيها الرائي في مضاجعهم ومراقدهم ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ متيقظين؛ لانفتاح عيونهم، وورودهم أنفاسهم، وعدم نتنهم وانفساخهم ﴿وَهُمْ رُقُودٌ نُقَلِّبُهُمْ﴾[1] عناية منَّا إياهم وقت احتياجهم إلى التقلب ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ كي لا تؤثر الأرض بأضلاعهم وجوانبهم ﴿وَكَلْبُهُم﴾ هو كلبٌ مرُّوا عليه حين إوائهم إلى الغار معتزلين، فلحقهم فطردوه، فأنطقه الله فقال: أنا أحب أولياء الله وأحباءه دعوني أقتفِ أثركم فدعوه فتبعهم.

وقيل: كلب راعٍ مضوا عليه فأطعمهم وحكوا عليه حالهم، فتبعهم وتبعه كلبه، وقراءة من قرأ: ﴿وكالبهم﴾ يؤيد هذا.

﴿بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ أي: في الباب أو العتبة أو الفناء ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أيها الرائي ورأيت هيئة رقودهم في ذلك الغار المهيب ﴿لَوَلَّيْتَ﴾ أي: استدبرت ورجعت قَهْقَرى هربًا وهولاً ﴿مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ أي: من هيبتهم ﴿وَلَمُلِئْتَ﴾ وأملأت صدرك ﴿مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف:18] خوفًا من رقودهم منفتحة العيون عظيمة الأجسام في غارٍ مُهيبٍ في خلال جبال عوالٍ بعيدةٍ عن العمران.

﴿وَ﴾ كما أقدرناهم وأنمناهم على هذا الوجه العجيب والطرز الغريب ﴿كَذَلِكَ

---

(1) في الآية إشارة إلى حال الغفلة؛ فإنهم نائمون في صورة المنتبهين، فمَن نظر إليهم ممَن هو مثلهم في الغفلة عن الله تعالى يراهم متيقِّظين، ومَن نظر إليهم من أهل المكاشفة والمشاهدة؛ يراهم نائمين، فإن الاعتبار بحال الباطن لا بحال الظاهر، وإمَّا إلى حال أهل اليقظة، فإنهم لا إحساس لهم بما يتعلَّق بعالم الملك؛ لفنائهم عنه، وبقائهم بالله، والباقي بالله لا ينظر إلا إلى الله تعالى، والجاهل المحجوب يظن أنهم منغمسون في الحِسّ، وأنهم مشتركون معه في ذلك، وليس الأمر كذلك بل فرق كثير بين مَن حضر مع الحق في كل حاله، وبين مَن غفل عنه في كل حاله، أو في بعض حاله، فمَن حضر مع الحق، يشمُّ منه رائحة المسك في صورة الدَّم كدم الشهداء، ومَن لم يكن كذلك، كان صورته ومضاه دمًا، فالاشتراك في الدموية لا يوجب أن يكون بينهما أصلاً؛ ولذا قالوا: إن رجال الله أكثر نكاحًا من غيرهم لِما أن الدم في عروقهم يستحيل نورًا: أي يرجع إلى قوته، والنور أقوى من الدم؛ لأنه من عالم البقاء، والدم من عالم الفناء، فما بينهما كما بين الدنيا والآخرة، فإذا عرفت هذا؛ فاحذر أن تقيس أهل الله في أحوالهم على غيرهم؛ فهو كقياس الغائب على الشاهد، وذلك لا يصحُّ جدًّا، وقد رأيت في عصري مَن هو خارج عن القياس بحيث لا يعرفه إلا رب الناس، جعلنا الله وإياكم من المحققين بهم، والقائمين بنحو مطالبهم؛ إنه هو البرُّ الرحيم، والزم.

بَعَثْنَاهُمْ﴾ وأيقظناهم ﴿لِيَتَسَاءَلُوا﴾ ويتقاولوا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ ويستطلعوا عن مدة رقودهم ولبثهم في الغار؛ ليطلعوا على كمال قدرة الله، ووفور جوده ورحمته عليهم؛ ليزدادوا تعينًا واطمئنانًا واعتمادًا أو وثوقًا على كرم الله وفضله ولطفه، وبعدما قاموا من هجعتهم ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ راقدين في هذا الغار؟ ﴿قَالُوا﴾ على سبيل الظن والتخمين؛ لأن النائم لا اطلاع له على مدة نومه: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ تامًا ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأنهم دخلوا على الغار غدوة وانتبهوا في الظهيرة، فظنوا أنهم في يومهم أو الذي بعده.

ثم لما شاهدوا طول أظفارهم وأشعارهم ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ إذ هو قائمٌ حاضرٌ في كل حالٍ بلا تبدلٍ واختلالٍ، ونحن نائمون لا شعور لنا بمدة رقودنا ولا همَّ لنا بتعيينها بل أهم أمورنا أن نُطعم ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم﴾ إلى المدينة مصحوبًا ﴿بِوَرِقِكُمْ﴾ أي: بعينكم ونقدكم المضروبة المسكوكة.

والوَرِق في اللغة: الفضة، سواء كانت مضروبة أم لا، والمراد هنا المضروبة.

﴿هَٰذِهِ﴾ إشارة إلى ما في يد القائل من النقد ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ وهي: طرسوس التي فروا منها من دقيانوس ﴿فَلْيَنظُرْ﴾ الذاهب المرسل، وليتأمل ﴿أَيُّهَا﴾ أي: أي طبيخة طبّاخ ﴿أَزْكَىٰ﴾ أي: أنظف وأطهر ﴿طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ حتى نطعم؛ إذ نحن جيعان ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ الذاهب مع أهل السوق وليجامل معهم في المعاملة ﴿وَ﴾ ليخرج منها سريعًا حتى ﴿لَا يُشْعِرَنَّ﴾ أي: الذاهب ولا يُطعن ﴿بِكُمْ﴾ أي: بحالكم ومكانكم ﴿أَحَدًا﴾ [الكهف:19] من أهل البلد.

﴿إِنَّهُمْ﴾ بعد اطلاعهم وشعورهم بحالكم ﴿إِن يَظْهَرُوا﴾ ويغلبوا ﴿عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ أو يقتلوكم بضرب الأحجار ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ﴾ ويرجعوكم مرتدين ﴿فِي مِلَّتِهِمْ﴾ التي كنتم عليها قبل انكشافكم بالتوحيد ﴿وَلَن تُفْلِحُوا﴾ أو تفوزوا بالفلاح والصلاح ﴿إِذًا﴾ أي: حين عودكم وارتدادكم إليها ﴿أَبَدًا﴾ [الكهف:20] أي: لا يرجى فلا حكم بعد ذلك أصلاً.

ثم لما أرسلوا واحدًا منهم إلى البلدة فدخل على السوق، ودار حول الطباخين واختار طبيخةً زكيةً، وأخرج الدرهم؛ ليشتري الطعام، وكان عليه اسم دقيانوس، فاتهموه بأنه وجد كنزًا، فذهبوا به إلى الملك، وكان الملك نصرانيًا موحِّدًا، فقصّ عليه القصة عن آخرها، فقال بعض الحضّار: إن آباءنا قد أخبرونا أن فتيةً فروا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء؛ فانطلق الملك وجميع أهل المدينة مؤمنهم وكافرهم،

فأبصروهم وتكلموا معهم، ثم قال الفتية نستودعك الله، ونعيذك من شر الجن والإنس، ثم رجعوا إلى مضاجعهم فماتوا، فدفنهم الملك، وبنى عليهم مسجدًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الكهف: 21 – 27].

﴿وَ﴾ كما أنمناهم نومًا طويلاً شبيهًا بالموت، ورحمناهم بتقلبٍ من جانبٍ إلى جانبٍ وحفظناهم من حر الشمس وأنواع المؤذيات، وبعثناهم من نومهم بعث الموتى للحشر؛ ليزدادوا بصيرة وثقة على الله ﴿كَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا﴾ وأطلعنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وعلى من شاهد حالهم، وشهد قصتهم من المؤمنين ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ ويتيقنوا ﴿أَنَّ وَعْدَ اللهِ﴾ القادر المقتدر بالقدرة التامة الكاملة لكل ما أراد وشاء ﴿حَقٌّ﴾ ثابتٌ لائقٌ له أن ينجزه بلا خلفه ﴿وَ﴾ يتيقنوا خصوصًا ﴿أَنَّ السَّاعَةَ﴾ الموعودة التي وعدها الحق بألسنة جميع أنبيائه ورسله آتيةٌ ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ وارتفع نزاع الناس فيها، ببعث هؤلاء بعد ثلاثمائة وتسع سنين.

اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ المتعلق بدينهم في المحشر والمعاد الجسماني؛ إذ القادر على حفظهم ورعايتهم في المدة المذكورة، وبعثِهم بعدها قادرٌ على إحياء عموم الموتى من قبورهم وإعادة الروح إلى أجسامهم؛ إذ أمثال هذا سهلٌ يسيرٌ في جنب قدرة الله وإرادته، وبعدما بعثناهم من مراقدهم

وأطلعنا الناس عليهم، فمضوا وتكلموا معهم، وحكوا ما حكوا، وأخبر القوم لهم بمدة رقودهم، واستودعوا مع القوم ورجعوا إلى المراقد فماتوا وانقرضوا، فاختلف الناس في أمرهم، فقال المسلمون: هم منا لأنا موحدون، وقال الكافرون: بل هم منا لكونهم أولاد الكفار.

وبالجملة: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾ قال المسلمون: نحن نبني عليهم مسجدًا، وقال الكافرون نحن نبني عليهم كنيسةً، وكلا الفريقين ليسوا عالمين بكفرهم وإيمانهم، بل ﴿رَّبُّهُمْ﴾ الذي ربَّاهم بأنواع التربية ورحمهم بأنواع الرحمة ﴿أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ وبحالهم فأمرُهم موكولُ إلى الله مفوض إليه، ثم لما تمادى النزاع بينهم وتطاول جدالهم ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ بالقدرة والحجة، وهم الموحدون المسلمون ﴿لَنَتَّخِذَنَّ﴾ ونبنين ﴿عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف:21] نتوجه فيه لله، ونتبرك بهم ونجعله محل الحاجات وقضاء المناجاة، فاتخذو وجعلوه مرجعًا يرجع إليه الأقاصي والأداني.

ثم لما اختلف الخائضون في قصتهم في عددهم، ذكر سبحانه أقوالهم أولاً، ثم بين ما هو أولى وأحق فقال: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ﴾ أي: مصيرهم أربعةً ﴿كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ﴾ أي: مصيرهم ستةً ﴿كَلْبُهُمْ﴾ كلا القولين، الأول قول اليهود، والثاني قول النصارى صدر عنهم ﴿رَجْمًا﴾ ورميًا ﴿بِالْغَيْبِ﴾ إذ لا مستند لهم من التواريخ وقول الرسل ﴿وَيَقُولُونَ﴾ هم ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ﴾ أي: مصيرهم ثمانيةً ﴿كَلْبُهُمْ﴾ والواو وإن كان مقحمًا، أفاد توكيد لصوق الصفة بالموصوف وشدة اتصاله به، ليدل على صدقه ومطابقته، ومثله في القرآن كثير، منه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر:4] وغير ذلك، وهي مثل الواو في قولهم: جاءني زيدٌ، ومعه ثوبٌ.

هذا قول المؤمنين أخذوا من رسول الله، وهو من جبريل، وجبرائيل من الله سبحانه، فإن شكوا فيه أيضًا ونسبوه إلى الرّمي والتخمين ﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ إذ لا يعزب عن علمه شيءٌ من أحوالهم من أول أمرهم إلى آخره؛ لأن علمه بمعلوماته حضوريٌ، لا يغيب عنه أصلاً وهم ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ﴾ من أحوالهم ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ بالأخبار والتواريخ، وأكثرها غير مطابق للواقع، ولما كان قولهم وعلمهم راجعًا إلى الرجم والرمي بلا مستند ﴿فَلَا تُمَارِ﴾ ولا تجادل يا أكمل الرسل ﴿فِيهِمْ﴾ أي: في حق الفتية ﴿إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أي: جدالاً خفيفًا مقتصرًا على ما أوحينا -

إليك، لا متعمقًا غليظًا بأن تُجهلهم وتُسفههم، وتضحك من قولهم، وتنسبه إلى الخرافة والخرق.

﴿وَ﴾ أيضا ﴿لَا تَسْتَفْتِ﴾ ولا تسأل ﴿فِيهِم﴾ أي: في حق الفتية وأمرهم ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿أَحَدًا﴾ [الكهف:22] يعني: لا تستفتِ أحدًا منهم عن قصتهم وشأنهم بعدما ظهر عليك أمرهم بالوحي؛ لأن استفتاءك بعد الوحي، إما سؤالُ تعنتٍ وامتحانٍ، فهو لا يليق بمرتبة الرسالة والنبوة، بعيد عن مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم اللازمة لمرتبة النبوة، وإما سؤال استعلام واسترشاد، فهم قاصرون عاجزون عنها، مع أنه لا معنى للسؤال بعد الوحي.

﴿وَ﴾ لما أمر اليهود لقريش أن يسألوا رسول الله ﷺ سؤال تعنتٍ وامتحانٍ عن الروح وذي القرنين وأصحاب الكهف، فسألوا، فقال رسول الله ﷺ: «ائتُوني غدًا أُخبِركُم عَنهَا»[1].

قاله بلا استثناءٍ وتعليقٍ بمشيئةٍ؛ أي: لم يقل: إن شاء الله، فانسدَّ عليه باب الوحي بضعة عشر يومًا، فشق عليه ﷺ الأمر، وكذَّبته قريش وتحزّن حزنًا شديدًا، فنهاه سبحانه نهيًا مؤكدًا، وأدّبه تأديبًا بليغًا؛ لئلا يترك الاستثناء في الأمور أصلاً، فقال: ﴿لَا تَقُولَنَّ﴾ يا أكمل الرسل ألبتة ﴿لِشَيْءٍ﴾ عزمتَ عليه وأردتَ أن تفعله ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾ الشيء ﴿غَدًا﴾ [الكهف:23] على سبيل البت والمبالغة.

﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إلا أن تذكرَ وتجيءَ بالاستثناء بعد عزمك بقولك: إن شاء الله، ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ ذكرَ الاستثناء والتعليق على مشيئة الله في خلال الأمور حين القصد والعزيمة والقول بالإصدار، بعدما تذكرتَ نسيانَك تلافيًا لما فَوّتَ وتداركًا لما تركتَ، ولو بعد حينٍ بل سنةٍ، وقل: إن شاء الله متذكرًا الأمر الذي تركت التعليق فيه قضاءً لِما فات.

﴿وَقُلْ﴾ بعدما كشفنا عليك جواب سؤالهم هذا شكرًا له، وابتهاجًا عليه، وطلبًا للمزيد منه سبحانه: ﴿عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي﴾ وأرجو من فضله وجوده أن يرشدني ويدلني ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف:24] أي: لأمرٍ هو أقربُ دلالةٍ من أمر أصحاب الكهف وقصتهم إلى الهداية والرشاد، وأوضحُ إيصالاً إلى مسلك الصواب

---

(1) ذكره حقي في «تفسيره» (343/7).

والسداد؛ تأييدًا لنبوتي وتشييدًا لرسالتي، وهو قد هداه وأرشده بأعظمَ من ذلك: كالإخبار عن بعض الغيوب، وقصص الأنبياء المتباعد عهدهم وزمانهم، وأمارات الساعة وأشراطها، وإنزال القرآن المشتمل على الرطب واليابس الحادثة في العالمين، الجارية في النشأتين.

﴿وَ﴾ كما اختلف أهل الكتاب في عدد الفتية، اختلفوا أيضًا في مدة لبثهم في الغار راقدين نائمين قال بعضهم: ﴿لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ بالسنة الشمسية على ما هو المشهور ﴿وَ﴾ بعضهم ﴿ازْدَادُوا﴾ عليها ﴿تِسْعًا﴾ [الكهف:25] من تلك السنة أيضًا، وإن كان المراد بالسنة فيه الأولى شمسية والثانية قمرية، كان كلا القولين واحدًا؛ لأن التفاوت بينهما في كل مائة سنة ثلاث سنين، فيكون الزيادة في ثلاثمائة: تسع سنين قمرية.

﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل بعدما لم يوجد شيءٌ يوثَق به ويُعتمد عليه في تعيين مدة لبثهم في الغار سوى التخمين والحسبان ﴿اللَّهُ﴾ المطلعُ لجميع السرائر والخفايا ﴿أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ أي: بمدة لبثهم في كهفهم راقدين؛ إذ ﴿لَهُ﴾ سبحانه لا لغيره من مظاهره وأظلاله ﴿غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: الاطلاع على المغيبات الواقعة في العلويات والسفليات اطلاعًا حضوريًا شهوديًا؛ بحيث لا يجري في مبصراته ومسموعاته سبحانه من غاية انكشافه وانجلائه له أن يقال: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ كما يجري في مبصراتنا ومسموعاتنا؛ لاستغنائه وتنزهه سبحانه عن الالتفات والإصغاء، بل المغيباتُ والمحسوساتُ كلُّها في حضوره وحضرة علمه على السواء بلا تفاوتٍ أصلاً.

ثم قال سبحانه: ﴿مَا لَهُم﴾ أي: لأهل السماوات والأرض ﴿مِّن دُونِهِ﴾ أي: دون الله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يوليهم ويلي أمورهم؛ إذ هو مستقلٌ بالوجود والتصرف في ملكه وملكوته بلا مظاهرة أحدٍ ومعاونته ﴿وَلاَ يُشْرِكُ﴾ بمقتضى تعززه وكبريائه وسطوته واستيلائه ﴿فِي حُكْمِهِ﴾ السابق في قضائه إجمالاً، واللاحق في قَدَره تفصيلاً ﴿أَحَدًا﴾ [الكهف:26] من مظاهره ومصنوعاته، بل له الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة والتخليق والترزيق، وجميعُ ما حدث من الحوادث الجارية في الآفاق كلُّها مستندةٌ إليه سبحانه وتعالى أولاً وبالذات، بلا تخلل الوسائل والوسائط العادية الناشئة من الأوهام والخيالات الباطلة بالنسبة إلى أولي الأحلام السخيفة، وذوي الحجب الكثيفة المنافية لرؤية الحق وانجلائه في المظاهر كلها.

وأما أرباب الوصول والشهود، وهم الذين ارتقوا حجبَ الخيالات وسُدلَ الأوهام والعادات، فلا يَرون في الوجود سواه، ولا إله عندهم إلا هو، لذلك لم يُسندوا شيئًا من الحوادث الكائنة بمقتضى التجليات والشئون الإلهية إلا له سبحانه؛ إذ ليس وراء الله عندهم مرمىً ومنتهىً.

﴿وَ﴾ إذ كان مفاتيحُ المغيبات ومقاليدُ العلوم والإدراكات، وكذا جميعُ ما في العالم من المحسوسات والمشاهدات كلُّها مستندةُ إليه سبحانه، ناشئةُ من عنده ﴿اتْلُ﴾ يا أكمل الرسل على من تبعك من المؤمنين ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ على الوجه الذي أُنزل إليك بلا تبديلٍ وتحريفٍ؛ إذ ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ ولا متصرفَ في كلامه سِواه، ولا تسمع قول المشركين: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس:15] إذ لا يسع لأحدٍ أن يبدله ويحرفه ﴿وَ﴾ إن هممتَ إلى تبديله وتحريفه من تلقاء نفسك ﴿لَن تَجِدَ مِن دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف:27] ملجأً تلتجئ إليه عند نزول عذاب الله، وحلول أخذه وانتقامه على تبديلك وتغييرك كلامه.

ثم لما طلب صناديد قريش من رسول الله ﷺ إبعاد فقراء المؤمنين وطردهم عن مجلسه، مثل ابن أم مكتوم وأبي ذر وفقراء أصحابه؛ لرثاثة حالهم وشمول الفاقة عليهم حتى يصاحبوه ﷺ ويجالسوا معهم، فهمّ رسول الله ﷺ على إنجاح ما أرادوا واقترحوا، وأمر بالفقراء ألا يحضروا معهم في مجلسه، ردّ الله سبحانه على رسوله ردًا بليغًا، ونهاه عنه نهيًا شديدًا.

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤)﴾ [الكهف: 28 – 34].

فقال سبحانه مؤدبًا له مقرعًا: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ أي: إن التمس قرشيٌ منك إبعاد الفقراء، وبالغوا في طردهم وذبّهم عن صحبتك، لا تُجبهم ولا تُنجح مطلوبهم، بل اصبر ووطّن نفسك المائلة إلى غنائهم وصفاء زيّهم ولباسهم ﴿مَعَ﴾ الفقراء ﴿الَّذِينَ﴾ شأنهم أنهم ﴿يَدْعُونَ﴾[1] ويعبدون ﴿رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ أي: طرفي النهار وما بينهما ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ ويتوجهون نحوه مخلصين بلا ميلٍ منهم إلى الهوى ومزخرفات الدنيا مع غاية فقرهم وفاقتهم ﴿وَلَا تَعْدُ﴾ أي: لا تملِ ولا تُصرف ﴿عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾[2] لرثاثة حالهم وخلقِ ثيابهم إلى الأغنياء وزّيهم البهيّ حال كونك ﴿تُرِيدُ﴾ وتقصد ﴿زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالالتفات إليهم، والميل إلى مصاحبتهم ومجالستهم، والركون إلى جاههم وثروتهم ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ ولا تتفق معهم في طرد الفقراء بمجرد ميلك إيمان أولئك الأغنياء البعداء عن روح الله ورحمته، ولا تلتفت التفات متحننٍ متشوقٍ إلى ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ وختمنا عليه بالإعراض ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ ختمًا لا يرتفع عنه أصلاً ﴿وَ﴾ لذا صار من العتو والعناد إلى أن ﴿اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ واتخذه إلهًا، واجتنب عن مولاه ونبذه وراءه ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ﴾ في الاتباع والاتخاذ ﴿فُرُطًا﴾ [الكهف: 28] ميلاً وتقدمًا نحو الباطل، وإعراضًا عن الحق ونبذًا له وراءه ظهريًا.

﴿وَقُلِ﴾ على سبيل المثال الإرشاد والتبليغ بلا مراعاةٍ ومداهنةٍ: ﴿الْحَقُّ﴾

---

(1) أسند الإغفال إلى نفسه تعالى؛ والمراد إظهار الغفلة التي جُبل الغافل عليها في الأزل، فإن الاستعدادات والأقضية التي تُجرى عليها ليست بمجعولة، فلا جبر من الخالق للخلق. وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ تتميم لاتّباع الهوى؛ أمر قصدي أولاً، ثم أمر فعلي ثانيًا؛ كالإرادة والدعاء بالنسبة إلى الذكر؛ لكن قُدِّم الفعل هناك؛ وهو الدعاء إشارة إلى الحكمة، وأخر هنا إشارة إلى العلم، فتفطّن لهذه المقام، والله العلاّم.

(2) أي: عين الأزل، وعين الأبد، وآثر عدم العدّ، وحبس النفس معهم: أي الصحبة بهم في عالم الحيّز؛ لأن هذه الصحبة أثر صحبة الروح، فإن أرواح المؤمنين فائضة من نور محمد ﷺ؛ فهي كالأولاد له، ولا شك أن الآباء والأولاد متصل بعضهم ببعض؛ فهم في صحبة واحدة في المعنى، والصورة فافهم جدًّا.

الصريحُ الصحيحُ الثابتُ ما نزل ونشأ ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ الذي أنشأكم وأظهركم من كتم العدم وأصلح حالَكم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وبلِّغ ما أوحي إليك بلا تبديلٍ وتغييرٍ؛ إذ ما عليك إلا البلاغ والتبليغ ﴿فَمَن شَاءَ﴾ منهم الفوز والفلاح ﴿فَلْيُؤْمِن﴾ بالله وكتبه ورسله على مقتضى ما بلغت ﴿وَمَن شَاءَ﴾ منهم الوبالَ والنكالَ في الدارين ﴿فَلْيَكْفُرْ﴾ فاعلم أنه سبحانه لا يبالي بكفرهم وإيمانهم؛ إذ هو منزهٌ عن إيمان عباده وكفرهم.

ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والتنبيه: ﴿إِنَّا﴾ من مقام عدلنا وقهرنا من أعرض عنا من عبادنا وانصرف عن مقتضى أوامرنا ونواهينا ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيأنا سيما ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضيات أحكامنا ﴿نَارًا﴾ ذاتَ التهابٍ واشتعالٍ إلى حيث ﴿أَحَاطَ﴾ أي: احتوى واشتمل ﴿بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي: لهبُها التي هي كالفسطاط في الإحاطة والشمول، والفسطاطُ: المتخذُ من الشعر ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا﴾ من شدة العطش ونهاية حرقة الكبد والزفرة ﴿يُغَاثُوا﴾ ويُجابوا ﴿بِمَاءٍ﴾ في اللون ﴿كَالْمُهْلِ﴾ وهو الحديدُ المذابُ، وفي الحرارة إلى حيث ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ ويحرقها وقتَ تقريبه إلى الفم للشرب.

وبالجملة: ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ شرابُ المهل ﴿وَسَاءَتْ﴾ جهنم وأوديتها المملوءة بنيران الحرمان والخذلان ﴿مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:29] منزلاً ومسكنًا، تسكنون فيها أبدًا مخلدًا.

ثم اتبع سبحانه الوعيد بالوعد على مقتضى سنته المستمرة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة ذاتنا وكمال أوصافنا وأسمائنا، وبإرسالنا الرسل، وإنزالنا الكتب المبينة الموضحة لأحكامنا الصادرة منا على مقتضى الأزمان والأدوار ﴿وَ﴾ مع الإيمان والإذعان ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورةِ لهم في الكتب وألسنة الرسل، واجتنبوا عما نهيناهم عنها، فجزاؤهم علينا نجازيهم ونضاعف لهم بأضعاف ما يستحقون بأعمالهم وإخلاصهم فيها ﴿إِنَّا﴾ من مقام فضلنا وجودنا ﴿لَا نُضِيعُ﴾ ونهمل ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف:30] وأخلص نيةً، وأتم قصدًا وأكمل عزيمةً[1].

---

(1) قال نجم الدين كبرى: يشير إلى أن لأهل الإيمان والأعمال الصالحات جزاء يناسب صلاحية أعمالهم وحسنها، فمنها أعمال تصلح للسير إلى الجنان وغرفها وهي الطاعات القلبية من الصدق في طلب الحق والإخلاص في التوجه له بترك الدنيا، والإعراض عما سوى الله، والإقبال على الله بالكلية والتمسك بذيل إرادة شيخ كامل فاضل مكمل ليسلكه على طريق

﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المحسنون المخلصون ﴿لَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي: متنزهاتُ إقامةٍ وخلودٍ من مراتب العلم والعين والحق، ومع ذلك ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والحقائق، متجددةً بتجددات التجليات الإلهية والنَفَسات الرحمانية المترشحة من رشاشات بحر الذات الأزلية الأبدية، ومع ذلك ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ ويزينون ﴿فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ وخلاخل متخذةٍ ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ جزاء ما هذَّبوا أخلاقهم وجوارحه بمقتضى الأوامر الإلهية في النشأة الأولى ﴿وَيَلْبَسُونَ﴾ فيها ﴿ثِيَابًا خُضْرًا﴾ مصنوعةً ﴿مِّن سُندُسٍ﴾ وهو ما رقَّ من الديباج ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ هو ما غلظ منه جزاء ما يتصفون في النشأة الأولى بزي التقوى ولباس الصلاح.

ومن كمال تنعمهم وترفههم يكونون ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ﴾ والسرر، متمكنين عليها جزاء ما حملوا من المتاعب والمشاق في مواظبة الطاعات وملازمة العبادات، وبالجملة: ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ والجزاء جزاءُ أهل الجنة وثوابهم ﴿وَحَسُنَتْ﴾ المتنزهات الثلاثة ﴿مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:31] يرتفقون وينتفعون فيها أهل الكشف والشهود، بما لا عينُ رأت ولا أذنُ سمعت ولا خطرَ على قلب بشر.

ثم أمر سبحانه حبيبه ﷺ بضرب المثل لتوضيح حال المؤمن والكافر، ومآل أمرهما فقال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم﴾ يا أكمل الرسل ﴿مَّثَلاً﴾ بيّنًا موضِّحًا كان ﴿رَّجُلَيْنِ﴾ من بين إسرائيل هما أخوان؛ أحدهما مؤمنٌ موحدٌ، والآخر كافرٌ مشركٌ مات أبوهما، وورثا منه أموالاً عظامًا فاقتسما، فصرف المؤمن ماله في سبيل الله وأنفق للفقراء واليتامى وأبناء السبيل، واشترى الكافر مكاسبَ ومزارع وكثر ماله إلى أن ﴿جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا﴾ أي: للكافر ابتلاءً له واختبارًا ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ بستانين ﴿مِنْ أَعْنَابٍ﴾ وكرومٍ ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا﴾ أي: أحطنا كلاً منهما ﴿بِنَخْلٍ﴾ لتزيد حسنًا وبهاءً ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: بين الجنتين ﴿زَرْعًا﴾ [الكهف: 32] مزرعًا ومحرثًا للحبوب والأقوات من الحنطة والشعير وغيرهما.

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ﴾ كملتا إلى أن ﴿آتَتْ﴾ وأثمرت كل منهما ﴿أُكُلَهَا﴾ ثمرتها كاملةً وافرةً في كل سنةٍ ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ أي: لم تنقص ثمرتها وحاصلهما من كل منهما شيئًا من النقصان كما هو المعهود في سائر البساتين، فإن ثمرها يتوفر في عامٍ وينقص في أخرى ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿فَجَّرْنَا﴾ وأجرينا ﴿خِلالَهُمَا﴾ أي: أوساط الجنتين

المبالغة ظاهرًا وباطنًا، فلا نضيع أجر عمله إن أحسنه وهو إذ يعبد الله على مشاهدته أو لشهوده.

﴿نَهَرًا﴾ [الكهف:33] ليدوم سقيهما.

﴿وَ﴾ مع تينك الجنتين المذكورتين ﴿كَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ أي: أموالُ عظامُ وأمتعةُ كثيرةُ من أنواع الأجناس والنقود والجواهر والعبيد وغير ذلك، ﴿فَقَالَ﴾ الآخر الكافرُ يومًا على سبيل البطر والمباهاة ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ أي: للأخ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ ويخاطبه بعض الأموال والزخارف عليه، ويشنّع عليه، ويعيره ضمنًا، ويقرّعه تقريعًا خفيًا، إلى أن قال بطرًا: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا﴾ وبالأموال تقتضي الأماني، وتنال اللذات والشهوات ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف:34] أبناءً وعشائر وأحشامًا وخدمةً يظاهرن ويعاونون عليّ لدى الحاجة، ويجالسون ويصاحبون معي في الحضر والسفر.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: 35 – 45].

﴿وَ﴾ من شدة بطره وخيلائه: ﴿دَخَلَ﴾ يومًا ﴿جَنَّتَهُ﴾ التي ذكر وصفها ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بعرضها على عذاب الله وأنواع عقابه بكفره بالله، وبطره بحطام الدنيا، وإعجابه على نفسه اتكالاً على ثروته وجاهه وكثرة أعوانه وأنصاره ﴿قَالَ﴾ من طول أمله وحرصه وشدة غروره وغفلته: ﴿مَا أَظُنُّ﴾ بل ما أشك وأوهم ﴿أَن تَبِيدَ﴾ أي:

تنهدم وتنعدم ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ الجنة ﴿أَبَدًا﴾ [الكهف:35] بل هي على هذا القرار والنضارة دائمًا.

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿وَمَآ أَظُنُّ﴾ وأعتقد ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ الموعودة التي أخبر بها أصحاب الدعاوي من الأنبياء والرسل ﴿قَآئِمَةً﴾ آتيةً كائنةً ألبتة بلا تردد وشك حتى تنهدم وتنعدم هذه بانعدام العالم وانقراضها ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ﴾ هبني أن فرضتُ وقدّرتُ قيام الساعة وانقضاء النشأة الدنياوية على ما زعموا وبُعثتُ من قبري على الوجه الذي ادعوا وَرُددتُ ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ للحساب والجزاء وعرض الأعمال وتنقيدها ﴿لَأَجِدَنَّ﴾ ألبتة جنةً في العقبى ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾ أي: من هذه الجنة الدنياوية فآخذُها ﴿مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:36] أي: مرجعًا ومنزلاً كما أخذتُ هذه في الدنيا، وإنما يقول ذلك على سبيل الاستهزاء والاستخفاف، يعني: إني حقيق حريٌ بتلك المرتبة في الدنيا والآخرة، إن فُرض وجودها، فأنا حري بذلك فيها أيضًا.

ثم لما تمادى في المباهاة والمفاخرة، وتطاول كلامه في الغفلة والغرور والإنكار على الله وكمال قدرته وقوته، وسرعة نفوذ قضائه وحكمه المبرم متى تعلق إرادته ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ على سبيل العظة والتذكير وأنواع التسفيه والتعيير: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ وأنكرتَ أيها المفسد الطاغي ﴿بِٱلَّذِي خَلَقَكَ﴾ أي: قدّر أولاً مادتك ﴿مِن تُرَابٍ﴾ خسيسٍ مزدولٍ إلى أن صرتَ بكثرة التبدلات والتغييرات نطفةً مهينةً ﴿ثُمَّ﴾ قدّرها ثانيًا ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ دنيئةٍ يستحقرها بل يستخبثها جميع الطباع ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ﴾ منها وعد لك شخصًا سويًا سالمًا وربّاك بأنواع اللطف والكرم إلى أن صرتَ ﴿رَجُلًا﴾ [الكهف:37] رشيدًا عاقلاً بالغًا كافلاً للأمور والوقائع، كافيًا لإحداث الغرائب والبدائع، وافيًا في جميع المضارّ والمنافع.

ثم كلفك بالإيمان والمعرفة والإتيان بالأعمال الصالحة والإذعان بالنشأة الأخرى، وما يترتب عليها من العرض والحساب والسؤال والجزاء وجميع المعتقدات الأخروية، فاستنكرتَ واستكبرت إلى أن كفرتَ عنادًا ومكابرةً، فستعرف حالك فيها أيها الطاغي الباغي المستحقّ لأنواع العذاب والعقاب ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ أي: لكن أنا لا أكفر وأنكر مثلك ربي الذي أظهرني من كتم العدم ولم أكُ شيئًا مذكورًا، وقدّر مادتي من التراب الأدنى الأرذل من المني الأخس الأنزل، ثم عدّلني وسواني رجلاً رشيدًا كاملاً في العقل والرشد؛ لأعرف ذاته فاعبده، وأشكر نعمه، وأؤدي حقوق كرمه، وأتوجه

نحوه وأتضرع إليه، وأصدقَ رسله وكتبه وجميع ما فيها من الأوامر والنواهي والمعتقدات التي وجب الاعتقاد بها من الأمور المتعلقة بالنشأة الأولى والأخرى.

فكيف أنكره وأكفر نعمه وأنسى حقوق لطفه وكرمه؛ إذ ﴿هُوَ اللهُ رَبِّي﴾ وربُّ جميع من في حيطة الوجود من الأظلال والعكوس، وهو المستقل في الوجود والألوهية والربوبية، وهو المتوحد المتفرد بالقيومية والديمومية ﴿وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي﴾ الذي ربَّاني بأنواع اللطف والكرم ﴿أَحَدًا﴾ [الكهف:38] سواه؛ إذ لا شيء في الوجود إلا هو.

﴿وَلَوْلا﴾ أي: هلا وقت ﴿إِذْ دَخَلْتَ﴾ أيها المدبر العاقل ﴿جَنَّتَكَ﴾ التي افتخرت بها ﴿قُلْتَ﴾ بدل قولك: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ [الكهف:35] ﴿مَا شَاءَ اللهُ﴾ أي: ما شاء وأراد دوامها تتأبد وما لم يشأ لم تتأبد؛ إذ ﴿لَا قُوَّةَ﴾ ولا قدرة للتأبيد والتخريب ﴿إِلَّا بِاللهِ﴾ أصالةً وحقيقةً، وأنت أيها الكافر المسرف المنكر ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا﴾ [الكهف:39] فعيرتني وعرضت عليّ أولادَك وزخارفَك بطرًا وبوحًا، مع أني أكثر منك إيمانًا وعرفانًا وثقةً على الله واتكالاً.

﴿فَعَسَى رَبِّي﴾ وأرجو من كمال فضله وجوده ﴿أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا﴾ أي: أزيد حسنًا وبهاءً وأكثرَ بركةً ودخلاً ﴿مِّن جَنَّتِكَ﴾ التي تتفوق وتتفضل بها عليّ؛ إذ هو القادر على كل ما أراد وشاء ﴿وَيُرْسِلَ﴾ بغتةً ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على جنتك ﴿حُسْبَانًا﴾ أي: صواعقَ نازلةً ليلاً ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ فحرَّقتها وخرَّبتها واستأصلتها ﴿فَتُصْبِحَ﴾ أنت وترى ﴿صَعِيدًا﴾ ترابًا ﴿زَلَقًا﴾ [الكهف:40] ملساء لا تثبت فيها قدمٌ ولا تنبت فيها نباتًا.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا﴾ الجاري في خلالها ﴿غَوْرًا﴾ غائرًا عميقًا؛ بحيث لا يمكن سقيها منه أصلاً لغاية غوره وعمقه ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ﴾ وتقدر ﴿لَهُ طَلَبًا﴾ [الكهف:40] بالكفر والحيل وأنواع التدابير.

فأعطى سبحانه المؤمن ما أمله وأراده تفضلاً عليه وامتنانًا له، ﴿وَ﴾ أرسل على بستان الكافر صواعقَ نازلةً من السماء كثيرة إلى حيث ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ وعمّت الإهلاك والاستئصال جميع ما فيها من الثمار، فلم يبقَ الانتفاع بها أصلاً، وذهب ماؤها وبهاؤها واضمحلت نضارتها وصفاؤها ﴿فَأَصْبَحَ﴾ الكافر ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ ظهرًا لبطن تلهفًا وتأسفًا ﴿عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ أي: في تعميرها وإنشائها من الأموال والعظام ﴿وَهِيَ﴾ أي: لجنة ﴿خَاوِيَةٌ﴾ ساقطةٌ ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي: عروشها على الأرض والكروم عليها محرقةٌ جميعها ﴿وَيَقُولُ﴾ الكافر حينئذ بعدما أفاق عن سكر الغرور

والغفلة، وتفطن على منشأ الصدمة والصولة الإلهية نادمًا متحسرًا: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف:42] تعنتًا واستكبارًا حتى لا يلحق عليّ ما لحقني من الوبال والنكال.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ﴾ حينئذ ﴿فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ﴾ على مقتضى مباهاته ومفاخرته بالأعوان والأنصار من بأس الله وأخذِه بل لا ناصرَ له ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: استنصر منه، واستغفر عما صدر عنه من الجراءة والجرائم فقد نصرَه وعفا عنه وإن عظمت زلته ﴿وَمَا كَانَ﴾ أيضًا بنفسه على مقتضى استبداده وثروته ﴿مُنتَصِرًا﴾ [الكهف:43] مخلّصًا مُنجِيًا نفسه عن أمثال عن أمثال هذا النكال.

بل: ﴿هُنَالِكَ﴾ وفي تلك الحالة وأمثال تلك الواقعة ﴿الْوَلَايَةُ﴾ أي: النصر والاستيلاء، والغلبة والاستعلاء، والعظمة والكبرياء، والتعزز والاستغناء ﴿لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ الثابت القيوم المطلق، الحقيق بالحقية والقيومية، الجدير بالبسط والديمومية، ولذلك ﴿هُوَ﴾ سبحانه بذاته وبمقتضى ألوهيته وربوبيته ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ في النشأة الأخرى لأوليائه، وأفضلُ عطاءً لأحبائه وأمنائه ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف:44] لانتقام أعدائه انتصارًا لأوليائه.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم﴾ أي: اذكر يا أكمل الرسل للمائلين إلى الدنيا ومزخرفاتها ومستلذاتها الفانية الغير قارة، المستتبعة المستعقبة لأنواع الآثام والعصيان، المستلزمة لغضب الله وسخطه ومثّل لهم ﴿مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وانقضائها وفنائها سريعًا ﴿كَمَاءٍ﴾ أي: مثله مثل ماء ﴿أَنزَلْنَاهُ مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ﴾ إظهارًا لكمال قدرتنا وعجائب صنعتنا وبدائع حكمتنا ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾ أي: تكاثف وغلظ بسببه ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ وصار في كمال الطراوة والنضارة والحسن والبهاء إلى حيث يعجب منها أبصار أولي الألباب والاعتبار، ثم يبس من حر الشمس وبرد الهواء ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ مهشومًا متفرق الأوراق متفتتَ الأجزاء إلى حيث ﴿تَذْرُوهُ﴾ أي: تثيره وتطيره ﴿الرِّيَاحُ﴾ كيف يشاء ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ القادر المقتدر بالقدرة الكاملة التامة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مقدوراته ومراداته ﴿مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف:45] كاملاً؛ بحيث لا تنتهي قدرته لدى المراد، بل له التصرف فيه على ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ

أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَجْعَلَ لَكُم مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: 46 – 53].

ومتى سمعتَ وعلمتَ حال حياة الدنيا ومآل أمرها وعاقبتها، وانكشفتَ بعدم ثباتها وقرارها فمعظم ما يتفرع عليها: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ﴾ إذ هما ﴿زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الفانية عارضان عليها، ومتى لم يكن للمعروض دوامٌ وبقاء، فللعارض بالطريق الأولى ﴿وَالْبَاقِيَاتُ﴾ التي تبقى معك في أولاك وأخراك ﴿الصَّالِحَاتُ﴾ المقربةُ إلى الله المقبولةُ عنده، المترتبةُ عليها النجاةُ من العذاب والنيلُ إلى الفوز بالفلاح ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: أجرًا وجزاءً حسنًا من اللذات الروحانية المودعة لأرباب القبول ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:46] أي: عاقبةً ومآلاً؛ إذ يُنال بها المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات المودعة لأرباب العناية وأصحاب القلوب من الراجين المؤملين شرف لقاء الله والفوز بمطالعة وجهه الكريم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للناسين عهودَ الله ومواثيقَه ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ ونحركها بالقدرة الكاملة والسطوة الهائلة، ونفتت أجزاءها، ونحلل تراكيبها، ونشتتها إلى أن صارت دكًّا ﴿وَتَرَى﴾ أيها الرائي ﴿الْأَرْضَ﴾ المملوءة بالجبال الرواسي الحاجبة عما وراءها ﴿بَارِزَةً﴾ ظاهرةً ملساءَ مسوى لا ارتفاعَ لبعض أجزائها على بعضٍ، مظهرةً لما فيها من الأجساد المدفونة ﴿وَ﴾ بعد ظهورهم منها، وبروز الأجداث والأجساد عليها ﴿حَشَرْنَاهُمْ﴾ وجمعناهم بأجمعهم حفاةً عراةً إلى الموقف والموعد المعدّ للعرض

والجزاء ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ ولم نترك ﴿مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:47] لا نسوقه إلى المحشر.

﴿وَ﴾ بعدما جمعوا واجتمعوا في المحشر جميعًا ﴿عُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل عرضَ العسكر على السلطان الصوري ﴿صَفًّا﴾ صافين مصفَّفين على الاستواء؛ بحيث لا يحجب أحدٌ أحدًا، بل كل واحد في مرأى منه سبحانه بلا سترةٍ وحجابٍ، ثم يقال لهم من قِبل الحق على سبيل الاستيلاء والسطوة، وإظهار الهيبة والسلطنة القاهرة الغالبة: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ اليوم حفاةً عراةً ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كذلك؛ أي: في بدء وجودكم وظهوركم ﴿بَلْ﴾ كنتم ﴿زَعَمْتُمْ﴾ وظننتم فيما مضى من شدة بطركم وغفلتكم ﴿أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف:48] أي: لن نقدر على إنجاز ما وعدناكم بألسنة رسلنا من البعث والحشر والعرض والجزاء، بل كذَّبتم الرسلَ وأنكرتم الوعدَ والموعودَ جميعًا، فالآن ظهر الحق الذي كنتم تمترون فيه.

﴿وَ﴾ بعدما عُرضوا صافين على الوجه المذكور ﴿وُضِعَ الْكِتَابُ﴾ المشتمل على تفاصيل أعمالهم وجميع أحوالهم وأطوارهم، من بدء فطرتهم إلى انقراضهم من النشأة الأولى المعدَّة لكسب الزاد للنشأة الأخرى بين يدي الله على رءوس الملأ ﴿فَتَرَى﴾ أيها الرائي ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ حينئذ ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين مرعوبين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ أي: في الكتاب قبل القراءة عليهم ﴿وَ﴾ بعدما قُرئ عليهم، وسمعوا جميعَ ما صدر عنهم كائنةً مكتوبةً فيه على التفصيل بلا فوت شيء ﴿وَيَقُولُونَ﴾ متحسرين متمنين الموت، مناجين في نفوسهم، منادين: ﴿يَا وَيْلَتَنَا﴾ وهلكتنا أدركينا فهذا وقت حلولك ونزولك ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ﴾ العجيب الشأن الجامعِ لجميع فضائحنا وقبائحنا؛ بحيث ﴿لَا يُغَادِرُ﴾ ولا يترك فضيحة ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ فصَّلها وعدَّدها بلا فوتِ خصلةٍ منها.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: الصغيرة: التبسم، والكبيرة: القهقهة.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿وَجَدُوا مَا عَمِلُوا﴾ من الخير والشر والذميمة والحميدة ﴿حَاضِرًا﴾ ثابتًا مكتوبًا بلا نقصانٍ منها ولا زيادةٍ عليها، وكيف لا يكون كذلك؛ إذ ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَحَدًا﴾ [الكهف:49] من عباده لا بالزيادة ولا بالنقصان ولو قدر نقير.

ثم لما كان منشأ جميع الشرور والغرور، وأنواع الفتن والغفلات، وأصناف الشكوك والكفر والضلالات إبليسَ - عليه اللعنة - كرر سبحانه قصة استكباره واستنكاره مرارًا تذكيرًا للمتعظين وتنبيهًا على الغافلين المغرورين؛ ليكونوا على ذُكْرٍ منه - بضم

فسكون؛ أي: تذكُّرٍ وتفكرٍ - من غوائله وتسويلاته؛ ليتمكن لهم الحذرُ عن وساوس أعوانه وأنصاره التي هي جنود الأوهام والخيالات الباطلة والأماني الكاذبة الناشئة من صولة الأمّارة المستولية على القوى الروحانية.

فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ أي: اذكر لهم وقت قولنا للملائكة المعترضين لنا على اصطفائنا آدم للخلافة والنيابة بعد إفحامنا، وإلزامنا إياهم بما ألزمناهم ﴿اسْجُدُوا﴾ أي: تواضعوا وتذللوا على وجه الخضوع والانكسار ﴿لِآدَمَ﴾ النائبِ المستخلف عنا بعدما ظهر عندكم، وعليكم فضلُه وشرفُه واستحقاقُه لأمر الخلافة ﴿فَسَجَدُوا﴾ بعدما سمعوا متذللين امتثالاً للأمر الوجوبي ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ منهم أبى، ولم يسجد له معللاً بأنواع العلل والجدالات الباطلة الناشئة من خباثة فطرته على ما سمعت غير مرةٍ.

وإنما امتنع؛ لأنه ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾[1] في أصل خِلقته، فلحق بالملائكة لحكمةٍ

---

(1) قال في التأويلات: إشارة إلى معانٍ وحكم أودعها الله فيه:

فمنها: ما يتعلق بالله ﷻ وهو أنه تعالى أراد أن يظهر به صفة لطفه وصفة قهره وكمال قدرته وحكمته، فأظهر لطفه بآدم أن خلقه من صلصال من حمأ مسنون، وأمر ملائكته الذين خلقوا من النور بسجوده، ومن كمال لطفه وجوده وأظهر صفة قهره بإبليس إذ أمره بسجود آدم بعد أن كان رئيس الملائكة ومقدمهم ومعلمهم وأشدهم اجتهادًا في العبادة حتى لم يبق في سبع سماوات ولا في سبع أرضين شبر إلا وقد سجد لله تعالى عليه سجدة حتى امتلأ العجب بنفسه حين لم ير أحدًا بمقامه فأبى أن يسجد لآدم استكبارًا، وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [ص:76] فلعنه الله وطرده إظهارًا للقهر وإظهار كمال قدرته وحكمته بأن بلغ من غاية القوة والحكمة ما خلقه من قبضة خراب ظلماني كثيف سفلي إلى مرتبة يسجد له جميع ملائكته المقربين الذين خلقوا من نور علوي لطيف روحاني.

ومنها: ما يتعلق بآدم ﷺ وهو أنه تعالى لما أراد أن يجعله خليفة في الأرض أودع في طينته عند تخميرها بيده أربعين صباحًا سر الخلافة وهو استعداد قبول الفيض الإلهي بلا واسطة، وقد اختصه الله تعالى وذريته بهذه الكرامة لقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:70] من بين سائر المخلوقات كما أخبر النبي عن كشف قناع هذا السر بقوله: «إن الله خلق آدم فتجلى فيه»(1) ولهذا الكرامة صار مسجودًا للملائكة المقربين.

ومنها: ما يتعلق بالملائكة وهو أنهم لما خلقوا من النور الرحماني العلوي كان من طبعهم الانقياد لأوامر الله والطاعة والعبودية له فلما أمر بسجود آدم وامتحنوا به وذلك غاية الامتحان؛ لأن السجود أعلى مراتب العبودية له فلما أمروا بسجود آدم والتواضع لله فإذا امتحن به أحد أن يسجد لغير الله فذلك غاية الامتحان للامتثال، فلم يتلعثموا في ذلك وسجدوا لآدم بالطوع والرغبة من غير كره وإباءٍ امتثالاً وانقيادًا لأوامر الله تعالى كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:6].

ومصلحةِ ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ على مقتضى خِلقته الأصلية ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ﴾ أيها المغرورون بتغريره، والمأملون إلى تلبيسه وتزويره بعدما صدرتْ عنه هذه العداوة الظاهرة ﴿وَذُرِّيَّتَهُ﴾ المختلطة معكم المرتكزة في نفوسكم، وقواكم اللاتي هي أعدى أعدائكم ﴿أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾ بحيث تفوضون أموركم إليها؛ ليوالوها لكم ﴿وَهُمْ﴾ أصلهم وفرعهم ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ قديمٌ مستمرٌ ﴿بِئْسَ﴾ الشيطان وذريته، وولايتهما ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى أوامرنا ونواهينا ﴿بَدَلاً﴾ [الكهف:50] عنَّا وعن ولايتنا إياهم.

وعن يحيى بن معاذ ﷺ: لا يكون من أولياء الله، ولا يبلغ مقام الولاية مَنْ نَظَرَ إلى شيءٍ دونه واعتمد على سواه، ولم يميز بين معاديه ومواليه، ولم يعلم حال إقباله من حال إدباره. انتهى.

فكيف تتخذون أيها الحمقى المسرفون إبليسَ وذريتَه أولياءَ من دوني مع أني ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ﴾ وأحضرتهم إبليسَ وجنودَه ﴿خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: وقت خلقهما وإيجادهما؛ ليُعاونوا ويظاهروا عليّ حتى تتخذونهم أولياء غيري، شركاءَ معي في استحقاق العبادة ﴿وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أيضًا، أي: لا أحضرُ بعضهم عند خلق بعضٍ منهم.

﴿وَ﴾ بالجملة: أنا أستقل بالخلق والإيجاد بل في الوجود أيضًا، لذلك ﴿مَا كُنتُ﴾ في خلق الأشياء وإيجادها محتاجًا إلى المعين والظهير أصلاً، فكيف ﴿مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ﴾ الضالين عن ساحة عزِّ الحضور ﴿عَضُدًا﴾[1] [الكهف:51] أعوانًا وأنصارًا

ومنها: ما يتعلق بإبليس وهو أنه لما خلق للضلالة والغواية والإضلال والإغواء خلق من النار وطبعها الإشعال والاستكبار وإن نظمه الله في سلك الملائكة منذ خلقه وكساه كسوة الملائكة وهو قد تشبه بأفعالهم تقليدًا لا تحقيقًا حتى عد من جملتهم، وذكر في زمرتهم، وزاد عليهم في الاجتهاد بالاعتبار لا بالاعتقاد فاتخذوه رئيسًا ومعلمًا؛ لما رأوا منه اشتداده في الاجتهاد بالإراءة دون الإرادة فلما امتحن بسجود آدم في جملة الملائكة هبت نكباء النكبة وانخلعت عنه كسوة أهل الرغبة والرهبة ليميز الله الخبيث من الطيب، فطاشت عنه تلك المخادعات وتلاشت منه تلك المبادرات وعاد المشئوم إلى طبعه وقد تبين الرشد من غيه، فسجد الملائكة وأبى إبليس واستكبر من غيه وظهر أنه كان من الجن وأنه طبع كافرًا.

(1) قال في التأويلات: إشارة إلى أن الله تعالى لما أخبر أنه ما أشهد الشياطين خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم؛ لأنهم الأعداء دليل على أن يشهد بعض أوليائه على شيء ما أشهد

أعتضِدُ وأنتصرُ بهم حتى تشاركونهم بي في استحقاق العبادة والإطاعة والانقياد، بل ترجّحونهم عليّ بالولاية والمحبة.

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ الله سبحانه على سبيل التعيير والتقريع للكفار والمشركين: ﴿نَادُوا﴾ أيها المنهمكون في الغيّ والضلال ﴿شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم شفعاؤكم اليوم، وعبدتم لهم مثل عبادتي بل أحسن منها حتى ينقذوكم من عذابي، ويشفعوا لكم عندي ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ صارخين مستغيثين ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ ولم يجيبوا استغاثتهم؛ لأنهم حينئذٍ مشغولون بحالهم، مأخوذون بوبالهم ونكالهم، لذلك لا يلتفتون إليهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿جَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ أي: بين العابدين والمعبودين ﴿مَّوْبِقًا﴾ [الكهف:52] مهلكًا عظيمًا ووادِيًا غائرًا عميقًا من أودية جهنمَ مملوءة بالنار؛ بحيث لا يمكن تواصلهم أصلاً.

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ بعدما عُرضوا أو حُوسبوا، وسِيقوا نحو جهنم؛ ليُعذبوا فيها كلٌّ على مقتضى ما كسبَ من المعاصي والآثام الموجبة للأخذ والانتقام ﴿فَظَنُّوا﴾ بل تيقنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ داخلوها وملاصقوها ألبتة ﴿وَ﴾ كيف لا يجزمون بالدخول واللصوق أنهم ﴿لَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف:53] أي: منصرفًا ومعدِلاً سواها، ينصرفون إليه مع أن الموكلين من الملائكة يسوقونهم، ويدخلونهم فيها زجرًا وقهرًا.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ

عليه أعداءه، وإن استبعد العقل إمكانه؛ لأن العقل لا يحكم بإشهاد شيء معدوم على إيجاده، ولكن الله تعالى إذا أراد إجراء هذا الأمر يتجلى بصفة عالميته لمن يشاء من عباده فيبصره بنور علمه المحيط بالأزل والأبد ابتداء تعلق قدرته بالأشياء المعدومة، وكيفية إخراجها من العدم إلى الوجود فيشهده خلق كل شيء حتى خلق نفسه ويخبره عن خاصية كل شيء وحكمة إيجادها ويعلمه أسماء الموجودات كقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31] وعلى شهوده ونظره يخرج من العدم ما هو المقدر خروجه إلى الأبد وهذا مما لا يدرك نظره العلماء بالعقل؛ لأن الله تعالى أنعم على هذا الضعيف بكشف هذه الواقعة الشريفة في أثناء السلوك والسير إلى الله تعالى فيما رزقه من كشف حقائق الأشياء عليه وأراه ماهيتها له.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ [الكهف: 54 – 61].

﴿وَ﴾ كيف يجدون مصرفًا سواها، ومن أين يتأتى لهم الانصراف اليوم؛ إذ هم فوّتوا على أنفسهم المصرفَ، وسبب الانصراف في النشأة الأولى مع أنا ﴿لَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ وكررنا ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ المرشد إلى الهداية، الصارفِ عن الضلالة والغواية ﴿لِلنَّاسِ﴾ المنهمكين في الغفلة والنسيان ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كل شيءٍ مثلاً موضحًا ينبههم إلى الهدى، ويجنبهم عن الغفلة والهوى، فلم يتنبهوا ولم يتفطنوا بل قابلوا الباطلَ بالحق وجادلوا ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ﴾ المجبول على النسيان والكفران ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف:54] أي: جداله ومكابرته أكثر من جدال سائر المخلوقات، وأن رشده وإيمانه أكثر أيضًا منها أيضًا.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ عن الإيمان وصَرَفهم ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾ أي: يوقنوا ويصدّقوا ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ أي: النبيُ الهادي المؤيدُ بالكتاب المعجز المرشد ﴿وَ﴾ صرفهم أيضًا أن ﴿يَسْتَغْفِرُوا﴾ ويتوبوا عن ظهر القلب عقيبَ كل معصيةٍ، نادمين عنها بلا إصرارٍ وإدمان؛ ليسقط عنهم الأخذ والانتقام ﴿رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ﴾ وتحيطَ بهم ﴿سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ من الإهلاك والاستئصال بغتةً ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً﴾ [الكهف: 55] أي: أنواعًا وأصنافًا منه، مترادفةً متواليةً كالكسف والخسف والمسخ وغير ذلك، فيهلكهم على سبيل التدريج.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ بأنواع الفتوحات والفيوضات الروحانية، والكشوفات والشهودات اللدنية النورانية ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ عن أنواع العذاب والعقاب والنكبات، والبليات المورثة لأنواع الخذلان والخسران والطرد والحرمان والخلود في

النيران إصلاحًا لأحوال الأنام، وإرشادًا لهم إلى دار السلام، وحثًا لهم إلى سلوك طريق التوحيد المنجي عن ظلمات الشكوك والأوهام.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله، ويخاصمون معهم متشبثين ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الزائغ الزائل ﴿لِيُدْحِضُوا﴾ أو ينزعوا ﴿بِهِ الْحَقَّ﴾[1] ويزلقوا الثابت المستقر المطابق للواقع عن مقره ﴿وَ﴾ لذلك ﴿اتَّخَذُوا آيَاتِي﴾ الدالة على عظمة ذاتي، ووفور حكمتي، وكمال قدرتي وقوتي ﴿وَمَا أُنذِرُوا﴾ أي: ما اشتملت عليه من الإنذارات والتخويفات وأنواع الوعيدات ﴿هُزُوًا﴾ [الكهف:56] أي: موضع استهزاءٍ وسخريةٍ، ومحلَ هزلٍ وضحكةٍ؛ لذلك نسبوها إلى ما لا يليق بشأنه من السحر والشعر والأساطير الكاذبة، وغيرها من أنواع الهذيانات والأباطيل الزائغة افتراءً ومراءً.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على الله وأسوأ أربابًا لنسبته إليه سبحانه ﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ ليتعظ بها ويصلح بسببها ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ وانصرف من سماعها، فكيف عن قبولها وامتثالها استنكارًا واستكبارًا ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ﴾ أي: كسبت واقترفت ﴿يَدَاهُ﴾ من الجرائم والآثام وأنواع الكفر والشرك والطغيان، ولو اتعظوا بها وعملوا بمقتضاها لذهبت سيئاتهم وتضاعفت حسناتهم، وكيف يتذكرون بها ولا يمكنهم التذكر ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وسُخطِنا عليهم ﴿جَعَلْنَا﴾ أي: طبعنا وختمنا ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ التي هي وعاء التذكر والقبول ﴿أَكِنَّةً﴾ حُجبًا غليظةً كثيفةً مانعةً ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: القرآن ويفهموا معانية ومقاصده، فكيف بغوامض رُموزه وإشاراته ﴿وَ﴾ ختمنا أيضًا ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ صممًا يمنعهم عن الاستماع والإصغاء إليه، فكيف عن فهمه والعمل به.

﴿وَ﴾ من غلظ غشاوتهم، وشدة قساوتهم وصممهم ﴿إِن تَدْعُهُمْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِلَى الْهُدَى﴾ وترشدهم إلى الفلاح والفوز بالنجاح ﴿فَلَن يَهْتَدُوا﴾ ويفوزوا ﴿إِذًا﴾ أي: حين ختم قلوبهم ووقر صماخهم ﴿أَبَدًا﴾ [الكهف:57] في أي حالٍ من الأحوال؛ إذ لا يُعارض فعلنا ولا يُبدِّل قولنا إلا بأمرنا وتوفيقنا.

---

(1) قال في التأويلات: إشارة إلى عناد أهل الكفر مع أهل الحق من الأنبياء والأولياء جهلاً منهم وضلالة بشأنهم يرون الحق باطلاً، والباطل حقًا وذلك من عمى قلوبهم وسخافة عقولهم أنهم يسعون في إبطال الحق وتحقيق الباطل، فإن أهل الحق هم المنقادون للأنبياء والأولياء المستسلمون لهم من غير عناد وجدال؛ وذلك لأنهم ينظرون بنور الله فيرون الحق حقًا ويتبعونه، ويرون الباطل باطلاً ويجتنبونه لا جرم أنهم يتخذون آيات الله من القرآن وغيره.

وتكذيبُهم الرسل والكتب، وإصرارُهم على الكفر والشرك، وإن كان يستدعي نزول العذاب عليهم فجأةً لاستخفافهم بنزوله إلا أنه يمهلهم ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ﴾ المبالغ في ستر ذنوب عباده وعيوبهم؛ لأنه ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ الواسعة والحكمة الكاملة لعلهم يتنبهوا بقبح صنيعهم، ويتأملوا في وخامة عواقبهم، فانصرفوا عما هم عليه نادمين؛ إذ ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ على الفور، لكنْ أمهلهم بمقتضى رحمته وحكمته زمانًا لا دوامًا رجاء أن يتوبوا، ويرجعوا نحوه تائبين آيبين ﴿بَل لَّهُم﴾ أي: بل لهلاكهم ﴿مَّوْعِدٌ﴾ لا ينفع فيه التلافي والتوبة، وهو يوم الحشر والجزاء، وقيل: يوم بدر ﴿لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ [الكهف:58] منجيَ ومَخْلصًا بل يُعذبون ويُهلكون فيه حتمًا، بحيث لا يسع لهم التقدم والتأخر أصلاً.

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ التي في مرآك أطلالهم، وآثار منازلهم ومزارعهم ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي: حين خرجوا عن مقتضى حدودنا وأوامرنا ونواهينا المنزلة في كتبنا لرسلنا وكذبوهم وأنكروا عليهم ﴿وَ﴾ من سنتنا القديمة أنّا متى أردنا إهلاك قريةٍ من المستوجبين للمقت والهلاك ﴿جَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم﴾ أي: هلاكهم وإهلاكهم ﴿مَّوْعِدًا﴾ [الكهف:59] وقتًا معينًا حين وصلوا إليها هلكوا حتمًا مقضيًا؛ إذ لا مردّ لقضائنا المبرم، ولا معقّب لحكمنا المحكم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل قصة موسى الكليم عليه السلام وإعجابه لنفسه حين خطب على المنبر بعد هلاك القبط، ودخوله ملك مصر خطبةً عجيبةً بليغةً إلى حيث رقّت القلوب وذرفت العيون، فقيل له: هل في الأرض أعلم منك؟

قال: لا.

فعتب عليه سبحانه لإعجابه، فقال سبحانه: «إن لنا في مجمع البحرين عبدًا هو أعلم منك».

فقال موسى عليه السلام: دلني عليه يا ربي؛ لأخدمه وأتعلم منه، وأستفيد من فتوحات أنفاسه الشريفة.

فقال له سبحانه: «خذ حوتًا مملوحًا يكون زادًا لك واطلبه، فحيث فقدت الحوت فهو ثمة»[1] فأخذ ومضى على الوجه المأمور.

(1) ذكره القرطبي في «تفسيره» (11/14).

اذكر وقت: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾[1] وهو يوشع بن نون، وكان خادمه ﴿لَا أَبْرَحُ﴾ أي: لا أقعد ولا أستريح من السفر ﴿حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ ملتقى بحر فارس والروم، وأجد عنده من دلني الله عليه ﴿أَوْ أَمْضِيَ﴾ وأسير ﴿حُقُبًا﴾ [الكهف:60] زمانًا طويلاً ومدةً مديدةً إن لم أجده هناك حتى أجده وأستفيد منه، فرمى الحوت المشوي المملوح في مكتلٍ، وحمله يوشع فذهبا، وأوصى موسى لفتاه متى فقدت الحوت أخبرني.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي: بين البحرين ﴿نَسِيَا﴾ عند المجمع ﴿حُوتَهُمَا﴾ يعني: نسي موسى التفقد والاستخبار من يوشع عنه، ونسي يوشع أن يذكر لموسى ما رأى من أمر الحوت وحياته ووقوعه في الماء.

وذلك أنه عزم يوشع التوضؤ عند المجمع، وكان على شاطئ البحر صخرةٌ، فتمكن يوشع عليها ليتوضأ، فانتضح الماء على مكتله، فترشح على الحوت، فوثب من المكتل، ورمى نفسه في البحر ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف:61] أي: صار الماء كالطاق يسري الحوت تحته بسهولةٍ، فتعجب يوشع من حياته ووثبته في الماء وسلوكه، فارتحلا متجاوزين من البحر تلك الليلة والغد إلى الظهر فنسي يوشع ذكرَ ما رأى لموسى.

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ

(1) قال نجم الدين كبرى: اعلم أن في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ [الكهف:60] إشارات: منها: أن شرط المسافر أن يطلب الرفيق، ثم يأخذ الطريق، ومنها: أن من شرط الرفيقين أن يكون أحدهما أميرًا، والثاني مأمورًا له ومتابعًا، ومنها: أن يعلم الرفيق عزيمته ومقصده ويخبره عن مدة مكثه في سفره ليكون الرفيق واقفًا على أحواله، فإن كان موافقًا يرافقه في ذلك، ومنها: أن من شرط الطالب الصادق أن تكون نيته في طلب شيخ يقتدي به وألا يبرح حتى يبلغ مقصوده ويظفر به، وإلا سيكون بقية عمره طالبًا له فإن طلب الشيخ طلب الحق تعالى على الحقيقة.

أن تعلمن مما علمت رشدا ﴿٦٦﴾ قال إنك لن تستطيع معي صبرا ﴿٦٧﴾ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ﴿٦٨﴾ قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا ﴿٦٩﴾ قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ﴿٧٠﴾ فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا ﴿٧١﴾ قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا ﴿٧٢﴾ قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا ﴿٧٣﴾ فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا ﴿٧٤﴾ ﴾[الكهف: 62 – 74].

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ من الصخرة يومًا وليلةً عَيِيَا وجاعا ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا﴾ أي: الذي سرنا بعدما جاوزا الصخرة ﴿نَصَبًا﴾ [الكهف:62] تعبًا وألمًا ما كنا قبل ذلك كذلك.

﴿قَالَ﴾ يوشع متذكرًا متعجبًا: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ يا سيدي وقت ﴿إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ ورقدتَ عندها تستريح، وأنا أهمّ إلى التوضؤ وأمكن عليها لأتوضأ، فانتضح الماء إلى المكتل، فوثب الحوت نحو البحر، فاتخذ سبيله سربًا ﴿فَإِنِّي﴾ بعد تيقظك من منامك ﴿نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ وقصته مع غرابتها وندرتها وكونها خارقةً للعادة ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ أي: أذكر عنده قصته العجيبة البديعة ﴿وَ﴾ كيف ﴿اتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾ حين رمى نفسه ﴿فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف:63] أي: على وجهٍ يتعجب من جريه الرائي.

ولما سمع موسى من يوشع ما سمع من فَقْدِ الحوت على هذا الوجه سرَّ وفرح ﴿قَالَ﴾ على وجه الفرح والسرور: ﴿ذَلِكَ﴾ الأمر الذي وقع ﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ ونطلب من سفرنا هذا؛ إذ هو علامة وجدان المطلوب وأمارة حصول الإرب ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا﴾ على الفوز، فأخذا يقصان ﴿قَصَصًا﴾ [الكهف:64] لإزالة شدة السفر إلى أن وصلا الصخرة المعهودة ﴿فَوَجَدَا﴾ عندها ﴿عَبْدًا﴾ كاملاً في العبودية والعرفان؛ لأنه ﴿مِّنْ﴾ خُلّص ﴿عِبَادِنَا﴾ وخيارهم، لأنا من وفور جودنا وإنعامنا عليه ﴿آتَيْنَاهُ﴾ أعطيناه ﴿رَحْمَةً﴾ كشفًا وشهودًا تامًا موهوبًا له ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ تفضلاً بلا عملٍ له في مقابلتها يقتضي ذلك ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ بلا وسائل الكسب والتعلم والطب والاستفادة، بل بمجرد توفيقنا وفضلنا إياه امتنانًا له وإحسانًا عليه ﴿عِلْمًا﴾ [الكهف:65] متعلقًا بالغيوب؛؛ حيث أخبر بما وقع ويقع وسيقع.

فلما وصلا إليه وتشرّفا بشرف صحبته ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ﴾ على سبيل الاستفادة والاسترشاد وحسن الأدب ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ أيها المؤيد الكامل المتحقق بمراتب اليقين بتمامها الواصلُ إلى بحر الوحدة الخائضُ في لججها ﴿عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ وتفيدني ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ من سرائر المغيبات سوابقها ولواحقها ﴿رُشْدًا﴾[1] [الكهف:66] بالتوراة؛ أي:

---

(1) قال في التأويلات: بإرشاد الله لك أي: تعلمني طريق الاسترشاد من الله تعالى بلا واسطة جبريل والكتاب المنزل ومكالمة الحق تعالى، فإن جميع ذلك كان حاصلاً له، فإن قيل: فهل مرتبة فوق هذه المراتب الثلاثة؟
قلنا: إن هذه المراتب وإن كانت جليلة، ولكن مجيء جبريل يقتضي الواسطة، وإنزال الكتاب يدل على البعد والمكالمة تنبئ عن الاثنينية والرشد الحقيقي من الله للعبد هو أن يجعله قابلاً لفيضٍ نور الله بلا واسطة وذلك بتجلي صفات جماله وجلاله الذي كان مطلوب موسى بقوله: ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143] فإن فيه رفع الاثنينية، وإثبات الوجود الذي لا يسع العبد فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل.
ومنها: أن المريد إذا استسعد بخدمة شيخ واصل ينبغي أن يخرج عما معه من الحسب والنسب والجاه والمنصب والفضائل والعلوم ويرى نفسه كأنه أعجمي لا يعرف البحر من البر وينقاد لأوامره ونواهيه كما كان حال كليم الله لم تمنعه النبوة والرسالة ومجيء جبريل وإنزال التوراة، ومكالمة الله واقتداء بني إسرائيل به أن يتبع الخضر ويتواضع معه ويترك أهاليه وأتباعه وأشياعه وكل ما كان له من المناصب والمناقب، وتمسك بذيل إرادته منقادًا لأوامره ونواهيه.
ومنها: أن يكون المريد ثابتًا في الإرادة بحيث لو يرده الشيخ كرات بعد مرات ولا يقبله امتحانًا له في صدق الإرادة ويلازم عتبة بابه، ويكون أقل من ذباب فإنه كلما ذب آب كما كان حال كليم الله، فإنه كان الخضر يرده ويقول له: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف:67- 68] أي: كيف تصبر على فعل يخالفه مذهبك ظاهرًا ولم يطلعك الله على الحكمة في إتيانه باطنًا ومذهبك أنك تحكم بالظاهر على ما أنزل الله عليك من علم الكتاب ومذهبي أن أحكم بالباطن على ما أمرني الله من العالم اللدني.
وقد كوشفت حقائق الأشياء ودقائق الأمور في حكمة إجرائها، وذلك أنه تعالى أفناني عني بهويته وأبقاني به بألوهيته، فبه أبصر، وبه أسمع، وبه أنطق، وبه آخذ، وبه أعطي، وبه أفعل، وبه أعلم، فإني أعلم ما لم تعلم.
وأنه يقول: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف:69-72].
ومنها: أن يكون صابرًا على مقاساة شدائد الصحبة والخدمة، منقادًا لأوامر الشيخ ونواهيه، مستسلمًا لأحكامه، متأدبًا بتأديبه، قابلاً لتربيته، ملتجئًا إلى ولايته، مستظهرًا بعنايته، مهتديًا بهدايته.

أرشدتني إليها مقدار استعدادي وقدْر قابليتي.

قال: يا موسى كفى بالتوراة علمًا، وببني إسرائيل شغلاً.

قال موسى في جوابه: إن الله أمرني بالاستفادة والاسترشاد منك فلا تمنعني؟.

وبعدما ألحّ موسى ﴿قَالَ إِنَّكَ﴾ يا موسى بكمالك في العلوم الظاهرية المتعلقة بوضوح القواعد الدينية، ونصب المعالم الشرعية، وانتصاف الظالم من المظلوم،

ومنها: ألا يكون صابرًا على مقاساة شدائده، معترضًا على أفعاله وأقواله وأحواله وجميع حركاته وسكناته، معتقدًا له في جميع حالاته، وإن شاهد منه معاملة غير مرضية بنظر عقله وشرعه فلا ينكره بها ولا يسيء الظن فيه، بل يحسن فيه الظن ويعتقد أنه مصيب في معاملاته مجتهد في آرائه، وإنما الخطأ من تصور نظري وسخافة عقلي وقلة علمي.

ومنها: أن يسد على نفسه باب السؤال فلا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكرًا إما بالقال وإما بالحال.

ومن آداب الشيخ وشرائطه في الشيخوخة: ألا يحرص على قبول المريد، بل يمتحنه بأن يخبره عن دقة صراط القلب وحدته، وعزة المطلوب وغيرته، وفي ذلك يكون له مبشرًا ولا يكون منفرًا، فإن وجده صادقًا في دعواه راغبًا فيما يهواه عما سواه يقبله بقبول حسن ويكرم مثواه، ويقبل عليه إقبال مولاه، ويربيه تربية الأولاد، ويؤدبه بآداب العباد.

ومنها: أنه يتغافل عن كثير من زلات المريد رحمة الله عليه، ولا يؤاخذه بكل سهو أو خطأ أو نسيان أو عمد بضعف حاله إلا بما يؤدي إلى مخالفة أمر من أوامره أو مزاولة نهي من نواهيه، أو يؤدي إلى إنكار واعتراض على بعض أفعال له وأقوال، فإنه يؤاخذه به وينهاه عن ذلك، فإن رجع عن ذلك فاستغفر منه واعترف بذنبه وندم عليه وشرط معه ألا يعود إلى مثاله ويعتذر مما جرى عليه كما كان الكليم حين قال: ﴿قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي﴾ [الكهف: 73-76] أي: لا تضيق علي أمري فإني لا أطيق ذلك.

ومنها: أنه لو ابتلي المريد بنوع من الاعتراض أو مما يوجب الفرقة يعفو عنه مرة أو مرتين، ويصفح ولا يفارقه، فإن عاد إلى الثالثة فلا يصاحبه ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:76، 77] فقل كما قال الخضر: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ [الكهف:78].

ومنها: أنه لو آل أمر الصحبة إلى المفارقة بالاختيار وبالاضطرار فلا يفارقه إلا على النصيحة؛ فينبئه عن سر ما كان عليه الاعتراض، ويخبره عن حكمته التي لم يحط بها خبرًا، ويبين له تأويل ما لم يستطع عليه صبرا؛ لئلا يبقى معه إنكار فلا يفلح إذا أبدًا.

وانتقامه لأجله إلى غير ذلك من الأمور السياسية ﴿لَن تَسْتَطِيعَ﴾ وتقدر ﴿مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف:67] بل لا بدَّ لك متى اطلعت على ما يخالف الشريعة والوضع المخصوص الذي جئت به من عند ربك، ونزلتْ التوراةُ على مقتضاه، فعليك أن تمنعه أو تعترض عليه على مقتضى نبوتك ورسالتك على سبيل الوجوب، والذي أنا عليه من العلوم المتعلقة بالسرائر والغيوب قد يخالف أصلك وقواعدك فلن تستطيع حينئذٍ معي صبرًا.

ثم اعتذر وقال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ﴾ يا موسى ﴿عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: 68] أي: علمًا وخبرةً واطلاعًا على سرّه ومآله ﴿قَالَ﴾ موسى ملحًا عليه: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ﴾ وتعلق إرادته بصبري ﴿صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف:69] أي: ما أخالفك فيما تفعل وما تريد على جميع ما جئتَ به من المغيبات الخارقة للعادات التي لم أفز بسرائرها، وهي مخالفةٌ لظواهر الشرائع والأحكام.

وبعدما اضطره موسى إلى القبول ﴿قَالَ﴾ له الخضر على سبيل التوصية والتوطئة: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي﴾ بعدما بالغت ﴿فَلاَ تَسْأَلْنِي﴾ أي: فعليك ألَّا تفاتحني بالسؤال ﴿عَن شَيْءٍ﴾ أنكرتَه مني، ووجدتَه مخالفًا لظاهر الشرع ﴿حَتَّى أُحْدِثَ﴾ وأبيّن ﴿لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف:70] بيانًا واضحًا كاشفًا عن إشكالك ودغدغتك بلا سبق سؤالٍ منك.

ثم لما تعاهدوا على هذا ﴿فَانطَلَقَا﴾ يمشيان على ساحل البحر لطلب السفينة، فمرا على سفينة فاستحملا من أهلها، فحملوهما بلا نولٍ، فقربوهما إلى الساحل ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾ على شاطئ البحر فَجرت، فلما بلغت اللجة ﴿خَرَقَهَا﴾ أي: أخذ الخضر فأسًا فقلع منها لوحًا أو لوحين، فلما رأى موسى منه ما رأى أخذ يسد الخرق بثيابه ﴿قَالَ﴾ له موسى حينئذ على سبيل نهي المنكر: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ﴾ بخرقها ﴿أَهْلَهَا﴾ إذ من خرقها يدخل الماء فيها، فيغرقها ويغرق أهلها، واللهِ ﴿لَقَدْ جِئْتَ﴾ بفعلك هذا ﴿شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف:71] أي: منكرًا عظيمًا هو قصدُ إهلاكك جماعةً بلا موجبٍ شرعي.

﴿قَالَ﴾ له الخضر على سبيل التذكير والتشنيع: ﴿أَلَمْ أَقُلْ﴾ لك يا موسى من أول الأمر ﴿إِنَّكَ﴾ باعتيادك بظواهر العلوم ﴿لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف:72].

﴿قَالَ﴾ موسى معتذرًا متذكرًا لعهده: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أي: بنسياني وغفلتي عن وصيتك وعهدي معك ﴿وَلاَ تُرْهِقْنِي﴾ أي: لا تغشني ولا تحجبني ﴿مِنْ

أَمْرِي﴾ الذي بعثني على متابعتك، وهو الاطلاع على سرائر الأمور ومغيباتها ﴿عُسْرًا﴾ [الكهف:73] أي: لا تحجبني عن مطلوبي بالمؤاخذة على النسيان عسرًا يلجئني إلى ترك متابعتك، فيفوت غرضي ومطلوبي منك.

وبعدما ألح واقترح معتذرًا قَبِل الخضر بالضرورة عذره، ثم لما نزلا من السفينة: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا﴾ صبيحًا صبيًا لم يبلغ الحلم يلعب مع الصبيان ﴿فَقَتَلَهُ﴾ الخضر فجأة على الفور بلا صدور ذنبٍ منه وجريمةٍ؛ بأن أخذ رأسه وضرب إلى الجدار إلى أن مات، فاشتدَّ الأمر على موسى وامتلأ من الغيظ ولم يقدر كظمه، ﴿قَالَ﴾ على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ معصومة بريئة من جميع الآثام ﴿بِغَيْرِ﴾ إهلاك ﴿نَفْسٍ﴾ صدر منه قصدًا؛ ليكون قتله قصاصًا عنه شرعًا، مع أنه لا ولاية لك حينئذٍ على قتله وإن صدرَ عنه القتل عمدًا، والله ﴿لَّقَدْ جِئْتَ﴾ بإتيانك هذا ﴿شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف:74] في غاية النكارة؛ إذ قتل النفس من أعظم الكبائر سيما النفس المعصومة المنزهة عن جميع المعاصي، سيمّا بلا جرمٍ أصلاً.

﴿ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) ﴾ [الكهف: 75 – 83].

وبعدما سمع الخضر منه إنكاره ﴿قَالَ﴾ له على سبيل التشدد والغلظة: ﴿أَلَمْ أَقُل

لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ﴾ وتطيق ﴿مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف:75] إذ لا مناسبة بين وبينك، ولا موافقة لعلمي مع علمك، فخلني على حالي ولا تشوشني، وانصرف عني وامضِ حيث شئت، فقد بلغت الطاقة.

ثم لما رأى منه موسى ما رأى من الغيظ والحرارة: ﴿قَالَ﴾ معتذرًا مستحيًا: لا تحرمني عن صحبتك مما صدر عني من نقض العهد وسوء الأدب، ولا تردعني يا سيدي ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي﴾ ولا تجعلني رفيقك وصاحبك؛ لأنك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي﴾ ومن قِبلي وأجلي ﴿عُذْرًا﴾ [الكهف:76] فلا أعتذر لك بعد هذا، بل أفارقك إن وقع مني ما يشوشوك.

عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رَحِمَ اللهُ أَخِي مُوسَى اسْتَحَى فَقَال ذَلِكَ، لَوْ لَبِثَ مَعَ صَاحِبِهِ لَأَبْصَرَ أَعْجَبَ الأَعَاجِيبِ»[1].

﴿فَانطَلَقَا﴾ بعدما تقاولا في أمر العلوم ما تقاولا ﴿حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ هي أنطاكية أو أيلة ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ من شدة جوعهما واحتياجهما إلى الطعام ﴿فَأَبَوْا﴾ وامتنعوا ﴿أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ يميلوهما إلى نيل الطعام ونوله ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ﴾ أي: يميل ويشرف ﴿أَن يَنقَضَّ﴾ أي: يسقط وينهدم ﴿فَأَقَامَهُ﴾ الخضر وعدَّله وسواه بالعمود وأسقطه وأحكم بنيانه جديدًا.

ثم لما رأى موسى منه أمرًا مستغربًا مستبعدًا، وهو أنهما على جناح السفر، ولم يكن لهما شغلُ وغرضُ متعلقٌ بتعمير الجدار وإقامته ﴿قَالَ﴾ على سبيل التعريض بأنه فضول: ﴿لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:77] وأخذت جعلاً واكتسبت التقوت والزاد بعدما أبوا عن الضيافة.

ثم لما سمع الخضر من موسى ما سمع: ﴿قَالَ هَذَا﴾ أي: سؤالك وتعريضك هذا ﴿فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أي: يوجب مفارقتي عنك، لكن لا أفارقك في الحال بل ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ وأخبرك ﴿بِتَأْوِيلِ مَا﴾ أي: بتأويل الأمور التي أنكرتَ عليها، واعترضتَ مفتتحًا إياها مستعجلاً بحيث ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:78] حتى أحدّثك وأبينك سرائرها مع أني أوصيتك أولاً ببيانها.

ثم فصلها فقال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ التي خرقتُها بإلهام الله إياي، وإلقائه على قلبي

(1) ذكره الشيخ حقي في «تفسيره» (418/7).

﴿فَكَانَتْ﴾ هي ﴿لِمَسَاكِينَ﴾[1] ضعفاءَ لا مكسبَ لهم سواها ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ بها ويعيشون من نولها ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي: أجعلها ذاتَ عيب ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ﴾ ظالمٌ سيئ عليهم، وهو ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صحيحةٍ غير معيبةٍ ﴿غَصْبًا﴾ [الكهف:79] ظلمًا وزورًا بلا فديةٍ، فجعلتها ذاتَ عيبٍ حتى تبقى لهم، وذلك بإذنٍ من الله عنايةً منه سبحانه لضعفاء عباده ورعاية لحالهم ومصلحتهم.

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ الذي قتلته على الفور، فهو غلامٌ قد جبله الله على الكفر والعصيان وأنواع الشرك والطغيان ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ موحدين مسلمين ﴿فَخَشِينَا﴾ عليهما من سوء فعاله وقبح حاله ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ ويغشيهما ويغطيهما ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف:80] من غاية حبهما له وتحننهما إياه ﴿فَأَرَدْنَا﴾ وأحببنا بقتله وهلاكه ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ أي: يرزقهما ويهب لهما ﴿رَبُّهُمَا﴾ الذي ربّاهما بنعمة التوحيد والإيمان وكرامة العصمة والعفاف ولدًا ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً﴾ أي: طهارةً مطهرةً عن خبائث الكفر والآثام، متصفةً بجبلة الإيمان والإسلام ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف:81] مرحمة وعطفًا وبرًا على الوالدين ولطفًا.

قيل: وُلِدَت له جاريةٌ بدل الغلام، فتزوجها نبي من الأنبياء، فولدت نبيًا هدى الله به أمةً من الأمم.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾ الذي أردتُ إقامته، وقصدتُ تعميره بإلهام الله ووحيه ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ ولم يبلغا الحلم ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ مدفونٌ مخزونٌ من ذهبٍ وفضةٍ ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا﴾ رجلاً ﴿صَالِحًا﴾ موحدًا مسلمًا، متوجهًا نحو الحق دائمًا ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ يا موسى من كمال لطفه وعطفه لليتيمين ورعايةً للأب الصالح ﴿أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ ويدخلا رشدهما ويخرجا عن اليتم؛ إذ لا يُتم بعد البلوغ، ويصيرا ذوي رأيٍ رزين وفكرٍ بيّنٍ ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿يَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ وإنما أمرني الله سبحانه بإقامة الجدار وإحكام المخزن ﴿رَحْمَةً﴾ وعطفًا ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ يا موسى شاملةً إياهما تتميمًا لتربيتهما وتقويتهما.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا فَعَلْتُهُ﴾ وأنكرتَ عليه واعترضت وتعرضتَ عليه ليس صادرًا

(1) (لمساكين) أي: ضُعفاء لا يقدرون على مدافعة الظلمة، فسماهم مساكين؛ لذلهم وضعفهم، ومنه قوله ﷺ: «اللهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وأَمِتْنِي مِسْكِينًا، واحْشُرْنِي في زُمرةِ المَسَاكِينِ» فلم يُرد مسكنة الفقر، وإنما أراد التواضع والخضوع، أي: احشرني مخبتًا متواضعًا، غير جبار ولا متكبر.

﴿عَنْ أَمْرِي﴾ ورأي ناشئًا عن تدبر عقلي وفكري، بل مما ألهمني الله به وهداني عليه وأمرني بفعله، فأنا مأمورٌ والمأمور معذورٌ ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور على التفصيل ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع﴾ ولم تُطِقْ ﴿عَلَيْهِ صَبْرًا﴾[1] [الكهف:82] حتى ظهر لك سره.

---

(1) قال في التأويلات: وفي هذه الآية إشارة إلى حقائق ومعانٍ:

منها: أن إخراق السفينة وإعابتها لئلا تؤخذ غصبًا ليس من أحكام الشرع ظاهرة ولكنه لما كان فيه مصلحة لصاحبها في باطن الأمر جوز ذلك ليعلم أنه يجوز للمجتهد أن يحكم فيما يرى أنه صلاحه أكثر من فساده في باطن الأمر بما لا يجوز في ظاهر الشرع إذا كان موافقًا الحقيقة كما قال: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف:79].

ومنها: لكي يعلم عنايته بنبي من أنبيائه وعناية الله في حق عباده المساكين بأنهم يعملون في البحر غافلين عما وراءهم من الآفات، فكيف أن أدركتهم العناية ونبي من أنبيائه كيف دفع عنهم البلاء ودرأ عنهم الآفة.

ومنها: ليعلم أن الله تعالى في بعض الأوقات يرجح مصلحة بعض المساكين على مصلحة نبي من أنبيائه في الظاهر، وإن كان لا يخلو في باطن الأمر من مصلحة النبي في إهمال جانبه في الظاهر، كما أنه تعالى رجح رعاية مصلحة المساكين في خرق السفينة على رعاية مصلحة موسى ﷺ؛ لأنه كان من أسباب مفارقته عن صحبة الخضر ومصلحته ظاهرًا كانت في ملازمة صحبة الخضر، وقد كان فراقه عن صحبته متضمنًا عطاء النبوة والرسالة ودعوة بني إسرائيل وتربيتهم في حق موسى ﷺ باطنًا.

ومنها: أن قتل النفس الزكية بلا جرم منها محظور في ظاهر الشرع، وإن كان فيه مصلحة لغيره، ولكنه في باطن الشرع جائز عند من يكاشف بخواتيم الأمور ويتحقق له أن حياته سبب فساد دين غيره، وسبب كمال شقاوة نفسه كما كان حال الخضر مع قتل الغلام بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف:80] فلو عاش الغلام لكانت حياته سبب فساد دين أبويه وسبب كمال شقاوته، فإنه وإن طبع كافرًا شقيًا لم يكن يبلغ كمال شقاوته إلا بطول الحياة ومباشرة أعمال الكفر.

ومنها: تحقيق قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:216] فإن أبوي الغلام كانا يكرهان قتل ابنهما بغير قتل نفس ولا جرم، وكان قتله خيرًا لهما وإن كانا يحبان حياة ابنهما وهو أجهل الناس وكانت حياته شرًا لهما، وكان الغلام أيضًا يكره قتل نفسه وهو خير له ويحب حياة نفسه وهو شر له؛ لأنه أراد طول الحياة أن يبلغ إلى كمال شقاوته.

ومنها: أن من عواطف إحسان الله تعالى أنه إذا أخذ من العبد المؤمن شيئًا من محبوباته، وهو مضر له والعبد غافل عن مضرته، فإن حب وشكر فالله يبدله خيرًا منه مما ينفعه ولا يضره كما قال تعالى: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف:81].

ومنها: أنه من كمال حكمته وغاية رأفته ورحمته في حق عباده أن يستعمل نبيين مثل موسى

ومما جرى بينهما ـ صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهما ـ يتفطن العارف اللبيب والطالب الأريب الأديب أن شرطَ الاستفادة والاسترشاد، ومناطَ الاستكمال وطلب الرشاد، هو أن يميت المريد المسترشد نفسَه عند المرشد الكامل المكمّل بالموت الإرادي؛ بحيث لا يتصدى إلى معارضه ومقابلته، وإن جزم أنّ فعلَ المرشد خارجُ عن مقتضى العقل والشرع على زعمه، بل حمل فعله على المحمل الأصوب، وسكتَ عن الجدال والمقابلة؛ إذ بعدما فوض أمره كله إلى مرشده واتخذه وكيلاً وأخذه ضمينًا وكفيلاً، فقد فنيَ فيه وبقي ببقائه، فلم يبقَ له التصرف أصلاً بمقتضيات قواه وجوارحِه ومداركِه ومشاعرِه.

هب لنا ربنا من لدنك رحمةً تنجينا عن تسويلات نفوسنا.

وخضر ـ عليهما السلام ـ في مصلحة الطفلين، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف:82].

ومنها: أن مثل الأنبياء يجوز أن يسعى في أمر دنياوي إذا كان فيه صلاح أمر أخروي، لاسيما فائدته راجعة إلى غيره في الله.

ومنها: ليعلم أن الله تعالى يحفظ مصالح قوم وقبيلة ويوصل بركاته إلى البطن السامع فيه كما قال: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف:82].

ومنها: ليتأدب المريد فيما استعمله الشيخ وينقاد له، ولا يعمل إلا لوجه الله، ولا يشوب عمله بطبع دنياوي وغرض نفساني ليحبط عمله ويقطع حبل الصحبة ويوجب الفرقة.

ومنها: أن الله تعالى يحفظ المال الصالح للعبد إذا كان له فيه صلاح كما قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف:82].

ومنها: ليتحقق أن كل ما يجري على أرباب النبوة وأصحاب الولاية إنما يكون بأمر من أوامر الله ظاهرًا أو باطنًا.

أما الظاهر: فكحال الخضر قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف:82] أي: فعلته بأمر ربي، وأما الباطن: فكحال موسى واعتراضه على الخضر في معاملاته ما كان خاليًا عن أمر باطن من الله تعالى في ذلك؛ لأنه كان اعتراضه على وفق شريعته.

ومنها: أن الصبر على أفاعيل المشايخ أمر شديد، فإن زل قدم مريد صادق في أمر من أوامر الشيخ أو يتطرق إليه إنكار على بعض أفعال الشيخ أو يعتريه اعتراض على بعض معاملاته أو يعوزه الصبر على ذلك، فليعذره الشيخ ويعفو عنه ويتجاوز إلى ثلاث مرات فإن قال بعد الثالثة: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف:78] يكون معذورًا ومشكورًا، ثم ينبئه عن أسرار أفاعيله ويقول له تأويل: ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:78].

ثم قال سبحانه على وجه التنبيه لحبيبه محمد ﷺ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ أي: اليهود المردودون والنصارى المنجوسون المطرودون سؤال اقتراحٍ وامتحانٍ مثل سؤال أصحاب الكهف والروح ﴿عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ وأطواره وكيفية سيره وطوافه حول العالم ﴿قُلْ سَأَتْلُو﴾ وأقرأ وأذكر ﴿عَلَيْكُم مِّنْهُ﴾ أي: من ذي القرنين وقصته ﴿ذِكْرًا﴾ [الكهف:83] قد أخبرني به سبحانه بالوحي في كتابه المعجز، وهو الإسكندر الأكبر الرومي ابن الفيلقوس الرومي، سُمِّي بذي القرنين؛ لأنه طاف قرني الدنيا؛ أي: المشرق والمغرب، اختُلف في ولايته ونبوته.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)﴾ [الكهف: 84 – 97].

أخبر عنه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا وفضلنا ﴿مَكَّنَّا لَهُ﴾ وقدرناه ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ تمكنًا تامًا وقدرة كاملة ﴿وَ﴾ ذلك ﴿آتَيْنَاهُ﴾ أعطيناه تأييدًا له وتعضيدًا ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾[1] [الكهف:84] موصلاً إلى مبتغاه وما أمله؛ يعني: وفقنا وهيأنا

(1) قال البقلي: أخبر سبحانه عن ذي القرنين ﷺ أن أعطاه خلقه قدرته، وألبسه تمكين فعل حتى سهل له قلب الأشياء، وكان يفعل ما يشاء بالله، ويحكم بحكمه ما يريد، وكان مجمع عين الجمع من حيث نور تجلي الذات والصفات والفعل فيه معنى ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ -

أسبابه للوصول إلى كل مطلوب قَصَدَه وأراد الوصول ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف:85] حتى ارتكب أمر الوثوقة واتكاله علينا، وبإنجاحنا إياه إلى مبتغاه.

ثم لما أراد أن يسير نحو المغرب، فاتبع سببه وسار ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أي: موضعًا تغيب الشمس فيه؛ يعني: لم يبلغه حقيقةً، وإنما بلغ قومًا ليس وراءهم؛ أي: نهاية حد العمارة من جانب المغرب على ساحل المحيط ﴿وَجَدَهَا﴾ أي: الشمس ﴿تَغْرُبُ﴾ وتغيب ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: ذات حمأة وهي الطين والماء، وقرئ: «حمية» أي: حارة. ويجوز أن يكون عينًا ذات حماءةٍ وحرارةٍ؛ يعني: غروبها في رأي العين على عينٍ صفتها هذه، وإلا فلا تسع الشمس في جميع كرة الأرض، فكيف بجزءٍ منها؛ إذ نسبة كرة الأرض إلى عظم جرم الشمس عند أهل الرصد كنسبةِ جزءٍ من مائةٍ وست وستين جزءًا.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ أي: عند العين الموصوفة ﴿قَوْمًا﴾ كفارًا نافين للصانع الحكيم، لباسُهم جلود الوحوش وطعامهم ما لفظ البحر بالموج من أنواع الحيوانات الميتة، فلما وصل ذو القرنين إليهم ووجدهم كفارًا، خبرناه في أمرهم عنايةً منا بأن ﴿قُلْنَا﴾ له وألهمنا عليه مناديًا: ﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ لك الخيار في شأن هؤلاء الكفار ﴿إِمَّا أَن تُعَذِّبَ﴾ أي: تهلكهم وتستأصلهم بكفرهم؛ بحيث لا يبقى منهم أحد ﴿وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ﴾ وتصنع ﴿فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف:86] شرعًا ودينًا كما في سائر المؤمنين.

ثم لما خُيّر ذو القرنين في أمرهم، وفُوّض أمرُهم إليه: ﴿قَالَ﴾ على مقتضى العدل والإنصاف الذي جبله الحق عليه: ادعوهم أولاً إلى الإيمان، وألقِ عليهم كلمة التوحيد والعرفان: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ واستعلى وأبى وأصرّ على ما عليه من الكفر منه

من كل ما في الملكوت السفلي له برهانًا، وحكمة، وعلمًا، ومعرفة بالله، وسببًا إلى قرب الله من أن ذلك الشيء له ، كان مرآة الحق يرى فيها علوم الغيبية، وحكم القدرية، ويبلغ بها إلى معادنها من أسرار الأزلية فكان مقام تدريج الترقي من عالم الفعل إلى عالم الصفة، ومن عالم الصفة إلى عالم الذات، ولو كان على محل تحقيق الكلي؛ لما أحاله الحق إلى الأسباب من الأشياء، الحدثاني التي هي وسائط الحكمة، وأخرجه من الأشياء إلى معدن الأصل، وهو دنو الدنو كما فعل بحبيبه ﷺ حيث أخرجه من الحدثان وأفرده من جميع الأسباب، وبلغه إلى حقيقة الحقيقة؛ حيث شاهد الحق بالحق وفني الكل فيه، ولم يصرف طرفه إلى الغير؛ حيث لا حيث ولا غير.

والهوى ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ أي: نقتله حدًا بعد عرض الإسلام، ولم يقبل في دار الدنيا ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ﴾ في يوم الجزاء ﴿فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ [الكهف:87] شديدًا مجهولاً لا يعرفه أهل الدنيا.

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ﴾ منهم ﴿وَعَمِلَ﴾ على مقتضى الإيمان عملاً ﴿صَالِحًا﴾ فنصلح حالهم، ونراعيه في الدنيا ﴿فَلَهُ﴾ في يوم الجزاء عند واهب العطايا ﴿جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ والمثوبة العظمى والدرجة العليا والجزاء الأوفى ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذي أمرنا بالتخيير في أمر أولئك الهالكين في تيه الغواية ﴿يُسْرًا﴾ [الكهف:88] سهلاً معتدلاً بين إفراط القتل والاستئصال، وتفريط الإبقاء على الكفر والضلال مداهنةً.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما وضع بين أهل المغرب الشرعَ بالأمر الإلهي ﴿أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: 89] آخر يوصله إلى المشرق، وسار ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ وموضع شروقه وإضاءته على العالم ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ﴾ وتضيء أولاً ﴿عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف:90] يعني: لم نجعل لهم حائلاً كثيفًا وحجابًا غليظًا؛ ليكون سترًا لهم من حرّ الشمس وقت طلوعها لا من الجبل ولا من الحجر والشجرة وغيرها، بل كلهم عزلُ عراةٌ لا لباس لهم أصلاً، وهم يحفرون الأرض، ويتخذون سراديب وأخاديد بدل الأبنية؛ لأن أرضهم لا تمسك البناء ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: هم أيضًا كفارٌ مثل أهل المغرب، وهم أشدُّ الناس في الحروب والمعارك وأجرئهم على القتال والاقتحام في الوغاء، ولهم آلاتٌ وأسلحة عجيبةٌ وعُدَدٌ بديعة لا كمثل سائر آلات الناس وعُدَدهم، وهم أكثرهم أيضًا عددًا.

﴿وَ﴾ مع كثرة عددهم ومكرهم وخداعهم ﴿قَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: 91] يعني: أعلمنا إسكندرَ ومن عنده من الجند والخدمة علمًا بحال أعدائهم، فقاتلوا معهم وغلبوا عليهم، فوضع عليهم أيضًا شعائر الإسلام مثل ما وضع لأهل المغرب ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف:92] ثالثًا، وسار على العرض بين المشرق والمغرب.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ أي: بين الجبلين اللذين سدَّ بينهما إسكندر بسدٍ منيعٍ، وهما جبلا أرمينية وأذربيجان، وقيل: جبلان في أواخر الشمال في منقطع أرض الترك من ورائهما يأجوج ومأجوج ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾ أي: عندهما ﴿قَوْمًا﴾ أعجميًا ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ ويفهمون ﴿قَوْلًا﴾ [الكهف:93] لغةً من اللغات المتداولة.

﴿قَالُوا﴾ بلسان الواسطة والترجمان: ﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ نحن أناس ضعفاء مظلومون نحتاج إلى إعانتك وإغاثتك؛ لتنقذنا من يد الظلمة ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ عَلَمَان للقبيلتين من الترك هما ﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في أرضنا هذه بأنواع الفسادات.

قيل: كانوا يخرجون في الربيع فلا يتركون أخضر رطبًا إلا أكلوه، ولا يابسًا إلا حملوه، وقيل: كانوا يأكلون الناس أيضًا.

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ جُعلاً نوزع بيننا فيبلغ مبلغًا وافيًا ﴿عَلَى أَنْ تَجْعَلَ﴾ بسطوتك وسلطنتك ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف:94] منيعًا لا يمكنهم الخروج علينا فنأمن شرهم بجاهك.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: ما جعلني وخصني ربي بفضله وجوده مكينًا من المال والملك خير مما تجمعون بتوزيعكم وتخريجكم، ولا حاجة إلى أموالكم بل إلى إعانتكم وسعيكم أجراء ﴿فَأَعِينُونِي﴾ في وضع هذا السد ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: عملةٍ وصنّاع يأخذون مني أجرتهم ويعملون ﴿أَجْعَلْ﴾ بفضل الله وسعة جوده إن تعلق به مشيئته ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف:95] حاجزًا حصينًا منيعًا وثيقًا؛ بحيث لا يقبل التخريب إلى انقراض الدنيا.

﴿آتُونِي﴾ وأحضروا عندي أولاً ﴿زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ أي: قِطعها الكبيرة، فأتوا بها فأمرهم بحفر الأرض إلى أن وصل الماء، فوضع الأساس من الصخر النحاس المذاب حتى وصل وجه الأرض، ثم أمرهم بتنضيد قطع الحديد بأن وضعوا بين كلا قطعتي الحديد فحمًا وحطبًا، وأمرهم بارتفاعهم هكذا ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي: بين جانبي الجبلين حتى امتلأ بين الجبلين، وصار ما بينهما مساويًا للطرفين في الرفعة، ثم أمرهم بوضع المنافخ العظام من كلا طرفي السد.

ثم ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿انْفُخُوا﴾ فنفخوا ﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ أي: جعل المنفوخ فيه مثل النار في اللون والحرارة، فاحترق الحطب والفحم، واتصل بالزُبَر المحماة وبقيت فُرَجٌ صغارٌ إلى حيث لم تصل إلى الملاسة والاستواء ﴿قَالَ آتُونِي﴾ نحاسًا مذابًا ﴿أُفْرِغْ﴾ وأصب ﴿عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف:96] حتى يصير ملساة مسوى لا فُرجَ لها، ولا يرى أوصالها أصلاً فصَبّ فاستوى فصار أملس كأنه لا فُرجَ فيه أصلاً.

﴿فَمَا اسْطَاعُوا﴾ أي: ما قدر يأجوج ومأجوج ﴿أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ ويصعدوا عليه

ويعلوا لارتفاعه وملاسته ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف:97] لعمقه وغلظة كنه.

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: 98 – 110].

فلما تم السد واستوى ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين مسترجعًا إلى الله شاكرًا لأنعمه: ﴿هَذَا﴾ أي: إتمام هذا السد على الوجه الأسدّ الأحكم ﴿رَحْمَةٌ﴾ نازلةٌ عليّ ﴿مِّن رَّبِّي﴾ اذ لولا توفيقه وتمكينه لما صدر عني بقوتي أمثال هذا ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ وقرُب قيام الساعة، وظهر أماراتها وأشراطها.

ومن جملة أماراتها: خروج يأجوج ومأجوج ﴿جَعَلَهُ﴾ سبحانه هذا السد السديد الرفيع ﴿دَكَّاءَ﴾ أي: مدكوكًا مسوى مفتتًا أجزاؤه؛ بحيث لم يبقَ له ارتفاع أصلاً، وهم حينئذ يخرجون على الناس ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي﴾ بقيام الساعة واستواء الأرض، وكونها دكًا بحيث لا عِوجَ لها ولا أمتًا ﴿حَقًّا﴾ [الكهف:98] ثابتًا محققًا لا شبهة فيه.

ثم قال سبحانه: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي: وبعدما جعلنا الأرض مبسوطة مدكوكة بمقتضى قهرنا وجلالنا، وجعلنا السد السديد الرفيع المنيع مسوى، أخرجنا يأجوج ومأجوج بإقدارنا إياهم بالخروج، وتركنا بعض الناس يموج ويزدحم ويدخل من صولتهم واستيلائهم بعضًا مضطربين مضطرين، ﴿وَ﴾ هم في ذلك الاضطراب والتشتت من استيلاء أولئك الظلمة القهارين القتّالين ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾

للحشر إلى المحشر وقامت الطامة الكبرى ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ﴾ حينئذ؛ أي: جميع الخلائق للعرض والحساب ﴿جَمْعًا﴾ [الكهف:99] مجتمعين في المحشر.

﴿وَ﴾ بعد جمعنا إياهم ﴿عَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم الحشر ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ المعرضينَ المكذبينَ للرسل والكتب، المنكرينَ ليوم العرض والجزاء ﴿عَرْضًا﴾ [الكهف:100] على سبيل الإلزام والتبكيت للقوم ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ في النشأة الأولى ﴿فِي غِطَاءٍ﴾ وغشاوةٍ كثيفةٍ ﴿عَن ذِكْرِي﴾ أي: عن آياتي الدالة على ذكري المؤدي إلى التفكر والتدبر في آلائي ونعمائي، المؤدي إلى ملاحظة ذاتي المنتهية إلى المكاشفة والمشاهدة للمؤمنين المؤيدين من عندي، المنجذبين نحو توحيدي ﴿وَكَانُوا﴾ أيضًا ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ولا يقدرون ﴿سَمْعًا﴾ [الكهف:101] أي: إصغاءً والتفاتًا؛ أي: استماع كلمة الحق لتعطيلهم من خبث فطرتهم وطينتهم نعمةَ الحق الموهوبة لهم لاستماع كلمة الحق وإصغاء دلائل التوحيد عن مقتضاها.

ثم قال سبحانه على سبيل التقريع والتوبيخ للكفرة المشركين المتخذين آلهة سوى الله من مصنوعاته ومخلوقاته: ﴿أَفَحَسِبَ﴾ وظن القوم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأشركوا بسبب ﴿أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي﴾ مثل عزير وعيسى وجميع الأوثان والأصنام ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ آلهة يعبدونهم كعبادتي أنا لا نأخذهم ولا ننتقم منهم في يوم الجزاء؟! كلا وحاشا.

وكيف لا نأخذهم ﴿إِنَّا﴾ من كمال قهرنا وغضبنا على من أشرك بنا غيرنَا، وأثبت إلهًا سوانا ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيأنا ﴿جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان الممتلئة بنيران الحرمان ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ المعرضين عن مقتضيات آياتنا وكتبنا ورسلنا ﴿نُزُلًا﴾ [الكهف:102] أي: منزلاً معدًا ينزلون فيها يوم الجزاء نزول المؤمنين في جنة الوصال ومقر الآمال.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمشركين المتخذين أربابًا من دون الله من مصنوعاته، يعبدونهم مثل عبادته، وينكرون توحيده، ويكذبون كتبه ورسله المبينة لأحوال النشأتين ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ أي: نخبركم ونرشدكم أيها المنهمكون في الخسران والطغيان ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف:103] أي: العاملين الذين خسروا من جهة أعمالهم مع أنهم زعموا الربح فيها.

وهم: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ﴾ أي: بطل وضاع ﴿سَعْيُهُمْ﴾ الذين سعوا ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بإتيان الأعمال الصالحة والإنفاق، وبناء بقاع الخير وغير ذلك، كالرهابنة والقسيسين،

وكذا عموم أهل العجب والرياء من أي أمةٍ كانت ﴿وَهُمْ﴾ في النشأة الأولى ﴿يَحْسَبُونَ﴾ ويظنون ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:104] ينفعهم عند الله، ويتوقعون المثوبة العظمى والدرجة العليا لأجلها، مع أنهم خاسرون خسرانًا مبينًا؛ لفقدهم ما هو مبني الأعمال ومناط العبادات، وهو الإيمان بتوحيد الله والتصديقُ بكتبه ورسله.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء الأشقياء المجبولون على الكفر والشقاق هم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكذبوا ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الدالة على توحيده وتصديق رسله وكتبه ﴿وَلِقَائِهِ﴾ الموعود لعباده عند إنجلاء جميعهم وارتفاع أستارهم ﴿فَحَبِطَتْ﴾ أي: ضاعت واضمحلت وضلت في النشأة الأخرى ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ التي جاءوا بها في النشأة الأولى، ولطلب النفع والربح ﴿فَلاَ نُقِيمُ﴾ ونضيع ﴿لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعدة لجزاء الأعمال وتنقيدها ﴿وَزْنًا﴾ [الكهف:105] مقدارًا يُنتفع ويُعتد بها؛ لانحباطها وسقوطها عن درجة الاعتبار لدى الملك الجبار[1].

بل: ﴿ذَلِكَ﴾ العمل المترتب على الكفر والشرك ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ ونفعهم العائد لهم لأجل أعمالهم في يوم الجزاء ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد والحرمان، وسعيرُ الطرد والخسران ﴿بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا﴾ أي: بكفرهم واتخاذهم ﴿آيَاتِي وَرُسُلِي﴾ المؤيدين بآياتي، المبعوثين على تبيين دلائل توحيدي بين عبادي ﴿هُزُوًا﴾ [الكهف:106] محل استهزاء يستهزئون وينكرون عليها عتوًا وعنادًا.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة من تعقيب الوعيد بالوعد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأيقنوا بتوحيد الذات والصفات والأفعال ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة إلى التوحيد الذاتي، الملائمة المناسبة لشعائره ومناسكه ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾ وهو وسط الجنة المشرف على أطرافها المرتفع منها.

(1) في قوله: ﴿فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ نفى هنا أن يكون لهم الوزن يوم القيامة، وأثبت في قوله: (والوزن يومئذ الحق) لأن المقصود من نفيه بيان ألا يكون لهم قدر عند الله كما للمؤمنين؛ وهو لا ينافي الوزن في الحقيقة دلّ عليه أنه تعالى حكم بكون الوزن حقًا: أي ثابتًا، والثبات إنما يكون بالرزانة والثقل؛ وهو لا يكون إلا للمؤمنين، فمَن ثقلت موازينه؛ فله وزن عند الله ومقدار، مَن خفّت موازينه؛ فلا قدر له عند الله تعالى؛ لأن القدر إنما هو بالاعتقاد والعمل، وقد عدمهما الكفار.

لذلك قال ﷺ: «إِذا سَأَلتُمُ اللهَ فَاسأَلُوا الفِردَوسَ فَإِنَّهُ وَسَطُ الجَنَّةِ»[1].

وهو بستان الغيب ومهبط الفتوحات الغيبية، وأيضًا هو أعلى مراتب التوحيد، وعند ذلك انتهى السير والسلوك، وبعد ذلك السلوك فيه لا إليه وبه ﴿نُزُلاً﴾ [الكهف: 107] أي: منزلاً ينزلون إليه ويتمكنون.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ولصفائها ونضارتها، ودوام لَذَّاتها الروحانية وفيوضاتها ﴿لَا يَبْغُونَ﴾ ولا يطلبون بالطبع والإرادة ﴿عَنْهَا حِوَلاً﴾ [الكهف:108] أي: انتقالاً وتحويلاً؛ لكونه مقر فطرتهم الأصلية ومنزل استعداداتهم الحقيقية؛ إذ فوقه عرش الرحمن المفيض لجميع القوابل والاستعدادات مقتضياتها.

ثم لما طعن اليهود في القرآن، وأرادوا أن يثبتوا التناقض في بعض آياته مع بعض؛ حيث قالوا: أنتم تقرأون في كتابكم تارة: ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:269]، وتارة تقرأون: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء:85] وما هو إلا تناقض صريح.

أمر سبحانه حبيبه بقوله: ﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل كلامًا يُسقط شبهتهم إن أنصفوا، نحن لا ندعي أن من أوتي الحكمة فقد أوتي بجميع معلومات الله وعلومه، وكيف ندعي هذا وهو ممتنع محالٌ في غاية الامتناع والاستحالة؛ إذ ﴿لَّوْ كَانَ البَحْرُ﴾ أي: جنس البحر، وهو جميع كرة الأرض ﴿مِدَادًا﴾ أي: ماء يُمدُّ به القلم للرقم والكتابة ﴿لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ أي: لثبتها وكتبها ﴿لَنَفِدَ البَحْرُ﴾ وانتهى ألبتة؛ لتناهيه وكونه محددًا ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ لكونها غير متناهية ﴿وَ﴾ غير محدودةٍ بحدٍ معين، وكيف لا تنفد وتتناهى ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ﴾ أي: بمثل جنس البحر بل بأضعاف أمثاله وآلافها ﴿مَدَدًا﴾ [الكهف:109] إذ لا مناسبة بين المتناهي وغير المتناهي، وإن فرض أضعافًا وآلافًا.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما بلغت لهم كلمات الله الغير المحصورة كلامًا خياليًا عن وصمة التفوق، والتفضل المفضي للرعونة ناشئًا عن محض الحكمة والفطنة: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ قابل للعلوم والإدراكات على مقتضى البشرية، لا فرق بيني وبينكم بحسب الفطرة، غاية ما في الأمر أنه ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ ويُفاض إفاضةَ علمٍ وعين حقٍ

(1) رواه البيهقي في «الكبرى» (9/159).

﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ﴾ ومعبودكم ومُظهركم ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أحدٌ صمد فرد وتر، ليس له شريكٌ ولا نظيرٌ ولا وزيرٌ، بل هو مستقلٌ في الوجود والإيجاد والإظهار، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد استقلالاً إرادةً واختيارًا، وإنما امتيازي عنكم بهذا.

﴿فَمَن كَانَ﴾ منكم ﴿يَرْجُو﴾ رجاءَ مؤملٍ بصيرٍ ﴿لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ مكاشفةً ومشاهدةً ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ قالعًا لأصل أنانيته وهويته، قامعًا لمقتضيات أوصاف بشريته وبهيميته، مزيلاً لذمائم أخلاقه وأطواره ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:110] من خلقه؛ أي: لا يقصد من عمله وعبادته الرياءَ والسمعةَ والعُجبَ والنخوةَ.

قال رسول الله ﷺ: «أَخوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ».

قالوا: وما الشرك الأصغر؟.

قال: «الرِّيَاءُ».

وقال تبارك وتعالى: «أنا أغنى الشُّركاء عن الشِّركِ، فَمَنْ عَمِل عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ الَّذِي عَمِلَهُ لأَجْلِهِ»[1].

وبالجملة: يعمل على وجهٍ يسقط الكثرة والاثنينية لا على وجهٍ يؤيدها ويكثرها، بل العامل العارف لا يطلب لعمله الجزاء أيضًا، بل إنما يعمل امتثالاً لأمره سبحانه وطلبًا لمرضاته، ولا يخطر بباله شيء سواه.

جعلنا الله ممن تحقق بمقام التوحيد، وأمَّنه عن توهم الرياء والتقليد، وحفظه من كل شيطان مريد.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد القاصد للتحقق في مقام التمكن من التوحيد ـ قرَّرك الله في مقعد صدقك ويقينك، وثبتك في مقر تثبيتك وتمكينك ـ أن تحفظ أعمالك التي جئت بها متقربًا الوصولَ إلى محل القبول عن مداخل الرياء والسمعة والعجب وأنواع الرعونات؛ إذ هي كلها شباكُ الشيطان وعقاله، يقيد بها خواص عباد الله، ويلهيهم بها عما هم عليه من الرضا والتسليم، ويوقعهم في فتنةٍ عظيمةٍ ومعصيةٍ كبيرةٍ مستلزمةٍ

(1) رواه الطبراني (253/4، رقم 4301)، قال الهيثمي (222/10): رجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن شبيب بن خالد، وهو ثقة.

للشرك بالله، العياذ به من غوائل الشيطان وتسويلاته ويخلصها لمحض وجهه الكريم.

فعليك أن تلازم العزلة، وتداوم الخلوة حتى لا يلحقك من الخلطة أمثال هذه الأمراض العضال، وأيضًا لك أن تجلي خاطرك وتصفي ضميرك عن هواجسك المتعنقة بأمور معاشك بين بني نوعك، فإن أكثر عروض هذه الأمراض إنما يحصل من الأماني واللذات الوهمية من الجاه والثروة والتفوق على الأقران وغير ذلك.

وإن شئت أن يسهل عليك الأمر فاشغل جوارحك لكسب ضرورات معاشك في بعض الأحيان، واقنع بأقل المعيشة وسدّ الرمق، واحذر عن فضول العيش، فإن أكثر فحول الرجال قد استرق بفضول الأماني والآمال.

وبالجملة: نعم القرين العزلة، والفرار عن تغريرات الدنيا الغدارة المكارة، والخمول في زوايا الكهوف والأغوار عن اختلاط أصحاب الخسار والبوار.

وفقّنا بفضلكَ وجودكَ بما تحب منا وترضى.

سورة مريم

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة مريم عليها السلام

لا يخفى على من انكشف بوحدة الوجود، وتحقق عنده امتداده وسريانه على جملة الموجود حسب اقتضاء الصفات الذاتية الإلهية أن اقتضاء بعض المظاهر الإلهية شيئًا من الكمالات اللائقة واستدعاءه إنما هو باعتبار صنعته من الصفات الإلهية المندمجة به باطنًا، سيما إذ صدر من النفوس المقدسة عن الكدورات البشرية، المنزهة عن العلائق الناسوتية المتخلقة بالأخلاق الملكية المنتخبة لتحمل أعباء الرسالة والنبوة، المستخلفة عن الذات الإلهية النائبة عنها.

ولا شك أن زكريا ـ صلوات الرحمن على نبينا وعليه ـ من جمله المنتخبين للخلافة والنيابة المنزهين عن غوائل الشيطان وتسويلاته، وما هداه وبعثه إلى طلب الولد إلا الصفة الإلهية التي تقتضي الظهور والنزول من غيب الذات إلى عالم الشهادة.

ولما كان ظهوره وبروزه موقوفًا على طلب زكريا وتحننه لحكمةٍ، ومصلحةٍ استأثر الله بها لا اطلاع لأحد عليها، ناجى زكريا بوحي الله إياه مع ربه، وناداه نداءَ مؤملٍ ضريعٍ على وجهٍ انكشف بتحقق مأموله وإنجاح مسئوله حين جذبه الحق إلى نفسه وأخرجه عن قيود تعلقاته مطلقًا.

ثم لما كان ﷺ مبدأ جميع مراتب الأنبياء ومجمعها، أخرج سبحانه له ما ناجى معه عبده زكريا من استدعاء الولد الذي يخلفه وُيحيي اسمه، مع أنه من غرائب صنع الله وبدائع مخترعاته على سبيل خرق العادة؛ إذ لا استعداد له ولا قابلية لزوجته بحصول الولد منهما لانقضاء أوان التوالد من كلا الطرفين.

فقال سبحانه متيمنًا باسمه العلي مخاطبًا لحبيبه ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى على أنبيائه ورسله ببدائع الكمالات الخارقة للعادات ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لهم يفتح عليهم أبواب المرادات بأسباب السعادة ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم إلى أقصى المقامات وأعلى الكرامات.

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾﴾ [مريم: 1 – 11].

﴿كهيعص﴾[1] [مريم:1] يا كافي مهام جميع الأنام، وهاديهم إلى دار السلام بيد

(1) قال روزبهان: أخبر الله سبحانه عن «كاف» كان وجوده الأزلي القدمي الأبدي كقوله تعالى «كان الله»، والإشارة فيها إلى كون وجوده قبل كون الكون، وإشارة الحقيقة بالكاف خبر عن سرّ القدم قد صابها العارفين إلى غيبوبيتهم في قفار الأولية والاستغراق في بحار القدمية ليعرفوا بالأولية الأولية، وأيضًا تجلى من كينونية الأحدية التي قبل كل علة على قلوب الموحدين لتغرقهم في بحار كبريائه، ويفنيهم في أنوار كنه ذاته فأشهدهم كائنة الذات والصفات وبصّرهم بنور كبريائه، فأبصروا بعيون سره نورية مكحولة بنور كبريائه فأبصروا بها مشاهدة كنه ذاته، فذابوا فيه فأغرقتهم أنوار مشاهدة الكنه في بحر كمال الذات والصفات حتى لم يبقوا فيها، وأبقاهم نور كاف الكفاية، وبرز لهم سنا كاف حكمته الأزلية فعرفوا بها فناءهم في بقائه وبقاءهم ببقائه فطلبوا بقاء البقاء بلا فناء ليستوفوا في البقاء حظ مشاهدة البقاء، فانكشف لهم «كاف» بحار الكرم من صفات الكريم، فأوصلهم إلى بساط قربه فظهر من عين عيون الغيب نورها الهوية وغيبهم في غيب الغيب، وهداهم إلى قرب القرب، ثم هداهم إلى دنو الدنو، وهداهم إلى وصل الوصل ثم هداهم بنعت التعريف والمعرفة إلى مشاهدات الصفات، ثم إلى مشاهدات الذات فلما بهتوا في الغيب وتاهوا فيه وادي غيب الغيب، ولم يعرفوا من علم الربوبية ذرة ولم يروا من حقيقة الحقيقة شيئًا فأخذهم «يا» نداء القدم مع أصوات أجراس الوصلة فلما وصلوا وقفوا بنعت الجهل بالحقيقة على الحقيقة، فخرج أنوار عين علم القدم فعرفهم النعوت والأسامي.
ثم أعلمهم الصفات والمعاني، ومكنهم بالحق في الحق مع الحق فطلبوا من الحق ما وجد الحق لهم من عظيم عطايا فيض جلاله وجماله فبان نور «صاد» صبح صدق ظهور أسرار الحق

القدرة العلية الصادرة عنك نيابةً عنا.

هذه السورة: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ الذي ربَّاك كافيًا هاديًا للمضلين ينبوعًا للعلوم الصافية اللدنية الجارية من قلبك على لسانك بمقتضى الوحي الإلهي والإلهامات الغيبية ﴿عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم:2] المتوجه نحوه في السراء والضراء، المسترجع إليه عند هجوم البلاء وحلول العناء.

اذكر وقت ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ نداء مؤملٍ ضريع، وناجى معه مناجاة ما يؤنس فجيع ﴿نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم:3] متمنيًا متحسرًا، آمرًا في ندائه ليأسه وقنوطه؛ لانقضاء وقت الولد وأوانه؛ لئلا يُلام عند الناس لطلب الولد وقت الهرم من كلا الجانبين.

حيث ﴿قَالَ﴾ مشتكيًا إلى الله باثًا شكواه عنده سبحانه: ﴿رَبِّ﴾ يا من ربَّاني بأنواع اللطف والكرم ﴿إِنِّي﴾ من غاية ضعفي، ونهاية هزالي ونحولي ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي: ضعفت دعائم جسمي وقوائم بدني، وأشرفت على الانهدام والانصرام

لهم فاكتسبوا بها، وصاروا عارفين بها صادقين في صدق رويتها في دعوى معرفتها ومحبتها، فما أشرنا بهذه المقالة فهو من رموز الحق في مفاتيح كنوز الذات والصفات وهي «الكاف والهاء والياء والعين والصاد»، ففي هذه الحروف الخمسة بيان أسرار القدم والبقاء والأزل والأبد وسر الصفات والذات ولا يعرفها إلا حبيب من حبيب الحبيب مع حبيب غائب في الحبيب حاضر مع الحبيب، سكران في مشاهدته، صاح في شهوده، فيستفيد معنى المعاني من هذه المباني.

قال إبراهيم بن شيبان: أما «الكاف» فالله الكافي لخلقه، و«الهاء» فالله الهادي لخلقه، و«الياء» يد الله على خلقه بالعطف والرزق والعين، فالله عالم بما يصلحهم، و«الصاد» فالله صادق وعده، قيل: «الكاف» معناه الكافي للمسائلين حوائجهم، و«الهاء» هادي الضالين، و«العين» علم معاني إشارات المتعرضين في حوائجهم، و«الياء» النداء بهذه الدعوات، و«الصاد» صادق فيما وعد للمؤمنين.

قال بعضهم: كريم بعفوه، هاد بجوده، عالم بمصالح عباده، صادق فيما أخبره.

قال الأستاذ: تعريف الأحباب بأسرار ومعالي، وقد وقع لي من قبيل لطائف الخطاب كافي هم العارفين في طلبهم وصله، وهادي العارفين بنفسه إلى نفسه، ثم إلى ذخائر ما في كنوز قدمه من علومه المجهولة الغيبية ينادي بلابل بساتين ورد وصاله العارفين حتى يزيد رغبتهم في المسارعة بنعت الشوق المحبة إلى جلال بقائه عليهم بألم فؤاد العارفين في داء فقدان قدمه، ووجدان وجود بقائه صادق بصدق مواعيد قرباته، ومداناته للعارفين، ورفع حجب الاحتشام عن قلوبهم حتى ينظروا إليه بنظر البسط والانبساط لا بنظر القبض والهيبة؛ لأن هناك مقام تمتعهم بجماله وجلاله وصحبته ووصاله، وهذه الحروف عيون رحمة ذاته، وكرم صفاته بأنبيائه وأوليائه.

﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي: اشتعل شيب رأسي، وذهب سواده، وانقلب إلى البياض المشعر بالانقضاء والزوال، مثل ابيضاض النباتات وقت الخريف ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ﴾ أي: لم أكن في كل حالٍ بدعائي إياك ﴿رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم:4] خائبًا خاسرًا مردودًا، بل عودتني بفضلك وجودك بالإجابة والإنجاح، وهذا الدعاء وإن كان أبعدَ بحسب العادة من الإجابة، إلّا أنه بالنسبة إلى قدرتك وجودك أقرب، وبجنب حولك وقوتك أسهلُ وأيسر، سيما ألهمتني به ووفقتني على إظهاره.

﴿وَإِنِّي﴾ يا ربِّ ﴿خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ أي: من أبناء أعمامي الذين يترصدون الولاية والحبورة ﴿مِن وَرَائِي﴾ وبعد انقراضي وانقضائي أن يغيروها ويضيعوها، ويحرفوا مَعالم الدين وشعائر الإسلام بين المسلمين؛ إذ لا يرجى منهم الرشد والصلاح، والخير والفلاح، وأنت أعلم بحالهم مني يا رب، وليس لي ولد صالح يخلفني بعدي، ولم يبقَ لي قوة الاستيلاد لهرمي وضعفي ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ عقيمًا أصليًا لم تلد قط، فلا مرجع لي في أمري سوى بدائع صنعتك، وغرائب قدرتك ﴿فَهَبْ لِي﴾ بمقتضى فضلك وجودك ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ لا على طريق العادة ومقتضى الأسباب الصوري ولدًا ﴿وَلِيًّا﴾ [مريم:5] يولي أمر دين بني أمتي.

بحيث: ﴿يَرِثُنِي﴾ عني نبوتي وحبورتي وولايتي، وجميع ما أنزلت عليّ خاصةً من مقتضيات إحسانك إليّ وإنعامك عليّ ﴿وَيَرِثُ﴾ أيضًا ﴿مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ ما بقي منهم من شعائر الدين ومعالم الهدى واليقين، قيل: كان زكريا أخا يعقوب بن إسحاق، ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ﴾ بمقتضى كرمك وجودك ﴿رَضِيًّا﴾ [مريم:6] راضيًا عنك بجميع ما جرى عليه من قضائك، صابرًا على نزول عموم بلائك، شاكرًا على نعمائك مرضيًا عندك وعند عموم عبادك.

ثم لما اشتكى عنده سبحانه بما اشتكى، ودعا ما دعا أجاب سبحانه دعاءه، وأسرع إجابته مناديًا له على سبيل الترحم والتفضل: ﴿يَا زَكَرِيَّا﴾ المتضرع المناجي إلينا، المستدعي منا خلفًا يخلفك ويحيي اسمك ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ﴾ يولد منك ومن زوجتك العقيمة العاقرة ﴿اسْمُهُ يَحْيَى﴾ ليحيي مراسم دينك وشرعك وحبورتك مع أنه ﴿لَمْ نَجْعَل﴾ ولم نخلق ﴿لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم:7] بهذا الاسم، بل هو أول من سمي به.

سمع زكريا البشارة من قِبل الحق، ﴿قَالَ﴾ على سبيل الفرح وبسط الكلام معه

سبحانه، وإن كان جميع أحواله حاصلاً عنده سبحانه على التفصيل حاصلاً حاضرًا لديه مستبعدًا مستغربًا: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ في سني هذا وضعفي ونحولي ﴿وَ﴾ قد ﴿كَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ جبليًا ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ﴾ والكهولة والهرم ﴿عِتِيًّا﴾ [مريم:8] يبسًا؛ بحيث لا يبقى على رطوبةٍ في مفاصلي وأركان بدني وقوائم جسمي؟!.

﴿قَالَ﴾ سبحانه: يا زكريا لا تستبعد من قدرتنا أمثال هذا بل ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك قدّرنا لك ابنًا بأن تكون باقيًا على كبرك وهرمك، وزوجتك أيضًا على هرمها وعقرها، نخرج ونوجد منكما الولد إظهارًا لقدرتنا الكاملة وأمثال هذا وإن كان عسر عادةً، علينا يسيرٌ وفي جانب قدرتنا سهلٌ يا زكريا.

كذلك ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ اسمع قوله ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: إخراج الولد منك ومن زوجتك عليّ سهلٌ يسيرٌ وفي جنب حولي وقوتي حقيرٌ ﴿وَ﴾ كيف لا يكون سهلاً إني ﴿قَدْ خَلَقْتُكَ﴾ وقدّرت وجودك فيما مضى من العدم ﴿مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:9] ولا مسبوقًا بشيءٍ، بل أوجدتك إيجادًا إبداعيًا، وأظهرتك من كتم العدم إظهارًا إختراعيًا بلا سبق مادةٍ ومدةٍ وسببٍ وعادةٍ، وهذا هينٌ بالنسبة إلى ذاك.

ثم لما تفطن زكريا بإنجاح مطلوبه، أخذ يطلب العلامة والأمارة لحمل امرأته؛ حيث: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي﴾ بفضلك ﴿آيَةً﴾ علامةً دالةً على حمل امرأتي ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ أي: لا تقدر على المقاولة والمكالمة ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ﴾ مع نهارها لا عن عروضٍ عارضةٍ ولحوقِ مرضٍ وخرسٍ بل كنت ﴿سَوِيًّا﴾ [مريم:10] صحيحًا سالمًا عن جميع الأسقام، غير أن اشتغالك بالحق شغلك عن الخلق؛ بحيث لا تطيق التكلم معهم في المدة المذكورة إلا رمزًا وإشارة وإيماء.

ثم لما دنا وقت الحمل ولاحت أماراته ﴿فَخَرَجَ﴾ صبيحة ﴿عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أي: الحجرة التي هو فيها في خلوته للصلاة على عادته المستمرة، وكان من عادته أن يأمرهم في كل صبيحة خرج عليهم بالصلاة والدعاء والخشوع والتوجه ﴿فَأَوْحَى﴾ أي: أومأ وأشار ﴿إِلَيْهِمْ﴾ بلا قدرةٍ على النطق والتكلم ﴿أَن سَبِّحُوا﴾ ربكم ونزهوه عما لا يليق بجنابه ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[مريم:11] أي: في الصبيحة التي أنتم فيها والبكرة التي ستجيء إلى العشية الآتية وإلى الصبيحة بعده، أوصاهم كل يوم بذلك على الدوام، وفي تلك المدة ما قدر على التكلم لذلك أشار وأومأ.

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً

وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾[مريم: 12 – 25].

ثم لما أوما سوينا خلقة يحيى، وأخرجناه من بطن أمه صحيحًا سويًا، قلنا له تربية وتكريمًا: ﴿يَا يَحْيَىٰ﴾ الموهوب من لدنا المؤيد من عندنا ﴿خُذِ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة واشرع في ضبطها وحفظها ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بنيّةٍ خالصةٍ وعزيمةٍ صحيحةٍ ﴿وَ﴾ إنما أمرناه بحفظها وضبطها؛ إذ ﴿آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ﴾ يعني: الحكمة المندرجة فيها، وأعطينا فهمها واستنباط الأحكام منها حال كونه ﴿صَبِيًّا﴾ [مريم:12] لم يبلغ الحلم.

﴿وَ﴾ إنما آتيناه وأعطيناه في حال صغره فهم التوراة ﴿حَنَانًا﴾ ترحمًا وتعطفًا ناشئًا ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ تكريمًا له ولأبيه ﴿وَ﴾ لهذا أيضًا أعطيناه ﴿زَكَاةً﴾ طهارةً عن الخبائث والآثام كلها ﴿وَ﴾ لذلك ﴿كَانَ﴾ مدة حياته من أوان صباه إلى موته ﴿تَقِيًّا﴾ [مريم:13] حَذِرًا عن المناهي والمنكرات، خائفًا عن المعاصي والمحظورات.

﴿وَ﴾ لنجابة طينته ألقينا في قلبه ﴿بَرًّا﴾ وإحسانًا ﴿بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن﴾ في جميع أوقاته وحالاته ﴿جَبَّارًا﴾ عاقًا لهما مستكبرًا عن أمرهما ﴿عَصِيًّا﴾ [مريم:14] تاركًا حكمهما وأمرهما.

﴿وَ﴾ لسلامته عن جميع الآثام وطهارته عن جميع الخبائث والمعاصي ﴿سَلَامٌ

عَلَيْهِ﴾ أي: تحيةُ وتكريمُ وحفظُ وتسليمُ نازلُ منَّا عليه على الدوام ﴿يَوْمَ وَلِدَ﴾[1] نحفظه من الشيطان ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ نحفظه من زوال الإيمان ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًا﴾ [مريم:15] نصونه عن الخيبة والخسران ولحوق الحسرة والخذلان.

﴿وَاذْكُرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ أي: القرآن المنزل إليك سيدة النساء ﴿مَرْيَمَ﴾ أي: قصتها، وحالتها العجيبة الشأن التي هي أغرب وأعجب من قصة زكريا، واذكر وقت ﴿إِذِ انتَبَذَتْ﴾ أي: اعتزلت وتباعدت ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ حين حاضت وطهرت وأرادت الاغتسال على مقتضى طهارتها الفطرية ونجابتها الجبلية، فاختارت للخلوة والتستر ﴿مَكَانًا شَرْقِيًا﴾[2] [مريم:16] أي: في مشرق بيت المقدس، ومع كونه مكانًا بعيدًا خاليًا عن الناس.

﴿فَاتَّخَذَتْ﴾ وسدلت لكمال الاحتياط والانحفاظ ﴿مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ يسترها، ويحفظها عن أعين الناس إن وصلوا بغتة، ثم لما تجردت عن لباسها واشتغلت؛ لأن تغتسل ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي: حامل روحنا وهو جبرائيل عليه السلام إظهارًا لقدرتنا وحكمتنا، وإنفاذًا لحُكمنا الذي حكمنا به في سابق علمنا ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ جبرائيل عليه السلام

---

(1) قال روزبهان: سلام الأزلي على روحه حين خرجت من نور كافه ونونه الذين هما روحان من تجلي صفات الحق، وذلك السلام سلامه تجلي جماله لروح يحيى في بدء أمرها، فلما وصل بركة سلام الله مع نور جود وجوده إلى روحه؛ أحاطت بها بنعت العصمة إلى يوم خروجها من صورة؛ فلما كملت العصمة فيه جازاه الله بزيادة كشف جماله وخطابه معه وسلامه عليه حين انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء لئلا يكون له وحشة من خوف العاقبة، فيبقى بين سلامين، وبين مشاهدتين حتى يكون وقت العرض الأكبر، فلما حان وقت وقوفه بين يديه يؤمنه بسلامه من العتاب، ويفرحه بكشف النقاب، ويؤويه إلى خير المآب؛ فالسلام الأول تربية، والسلام الثاني عصمة، والسلام الثالث وصلة ومشاهدة.

(2) قال البقلي: الإشارة الحقيقية هاهنا أن جوهر مريم جوهر فطرة القدس، قرباه الحق بنور الأنس ففي جميع أنفاسها مجذوبة بنعت القرب والأنس إلى معدن الأنوار الإلهية، فصارت كل وقت مراقبة لظهور شمس الجبروت من مشرق الملكوت، فاعتزلت عن الأكوان بالهمة العالية المنعوتة بنور الغيب، فأقبلت إلى مشارق شموس الذات والصفات، واستنشقت نفحات الوصال من عالم الأزل، فوصل إليها نفحة وصال الأزلية، وأشرقت عليها شمس مشاهدة القدسية، فلما شهدت مشاهدة مشرق تجلي الأزل برقت أنواره، ووصلت أسراره إلى روحها فحملت روحها بروح الغيب فصارت حاملة الكلمة الكبرى ونور الروح الأعلى فلما أعظم شانها بعكس جمال تجلي الأزل عليها استترت من الخليقة، واستأنست بعروس الحقيقة.

﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:17] صحيحًا صبيحًا أمردَ قططًا مجعدَ الشعر لئلا تستوحش، ومع ذلك استوحشت وارتهبت رهبةً شديدةً، ومن غاية خوفها منه واضطرابها ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ﴾ وألوذ ﴿بِالرَّحْمَنِ﴾ الذي كفى لحفظ عباده عن مطلق الشذوذ سيما ﴿مِنكَ﴾ أي: من شرِّك ومن شرِّ أمثالك فامتنع أنت بنفسك عني ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم:18] خائفًا عن الله، حذرًا عن بطشه وانتقامه.

ثم لما رأى جبريل ﷺ من كمال عفتها وعصمتها ما رأى: ﴿قَالَ﴾ مستحييًا معتذرًا: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أرسلني إليك ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ بإذن الله إياي وأمره ﴿غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم:19] طاهرًا عن جميع الرذائل والآثام، مترقيًا في فنون الفضائل والكمالات إلى أقصى النهايات، مظهِرًا لأنواع المعجزات والكمالات والكرامات، وأصناف الإرهاصات الخارقة للعادات.

ثم لما سمعت عليها السلام مقالته، وتفطنت بنور الولاية أنه من قِبل الله ﴿قَالَتْ﴾ مستعجبةً مشتكيةً مستحيةً: ﴿أَنَّى﴾ أي: من أين ﴿يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَ﴾ لم يجرِ عليّ أسبابه؛ إذ ﴿لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ بالنكاح مساسَ مواقعةٍ موجبةً للحمل والحبل ﴿وَلَمْ أَكُ﴾ في مدة حياتي عاصيةً لله فاسقةً خارجةً عن مقتضى حدوده لأكون ﴿بَغِيًّا﴾ [مريم:20] فاحشةً زانيةً يلد مني ولد الزنا.

﴿قَالَ﴾ جبرائيل ﷺ: ﴿كَذَلِكِ﴾ جرى حكم ربك، وأمضى عليه في سابق قضائه لا تستبعدي ولا تستعسري؛ إذ ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ الذي ربّاك على العصمة والعفاف ﴿هُوَ﴾ أي: هبة الولد لك بلا مساس البشر، وسبق الأسباب العادية ﴿عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ سهلٌ يسيرٌ؛ إذ لا يعسر علينا شيء، ولا يعجز عن قدرتنا مقدورٌ، بل إذا أردناه نقول له: كن فيكون بلا سبق سببٍ وعلةٍ، ﴿وَ﴾ إنما نظهره ونوجده ﴿لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ دالةً على كمال قدرتنا وبدائع صنعنا وحكمتنا ﴿وَرَحْمَةً﴾ نازلةً ﴿مِّنَّا﴾[1] على كافة عبادنا سيما عليك يا مريم ﴿وَكَانَ﴾ خلق عيسى ظهورهُ بلا أب في العالم، وعروجه إلى السماء ﴿أَمْرًا

---

(1) قال سيدنا الجيلي في كتاب «الكهف والرقيم في شرح بسم الله الرحمن الرحيم» ما نصه: الحقيقة المحمدية خلق العالم بأسره منها لما ورد في حديث جابر أن الله تعالى خلق روح النبي ﷺ من ذاته وخلق العالم بأسره من روح محمد ﷺ فمحمد ﷺ هو الظاهر بالمظاهر الإلهية، ألا ترى إليه ﷺ كيف سري بجسمه إلى فوق العرش وهو مستوي الرحمن، انتهى.

﴿مَّقۡضِيّٗا﴾ [مريم:21] كائنًا مثبتًا في لوح قضائنا وحضرة علمنا.

ثم لما سمعت ما سمعت نفخ جبريل عليه السلام في درعها، فوصل أثرها إلى جوفها فحبلت: ﴿فَحَمَلَتۡهُ﴾ أي: صارت حاملةً بعيسى فجأةً وكبر في بطنها في الساعة، وبعدما ظهر عليها من أمارات الطَّلق ما ظهر ﴿فَٱنتَبَذَتۡ﴾ واعتزلت وتباعدت منفردةً ﴿بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ [مريم:22] بعيدًا عن العمران استحياءً من أهلها، ومن لوم الناس إياها وتعييرهم عليها بولادتها بلا زوج.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ﴾ وظهر أمارة الولادة، فألجأها التشبث ﴿إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ اليابسة؛ لتعتمد عليها عند الولادة، وتُستر بها عن الناس ﴿قَالَتۡ﴾ حينئذ من شدة حزنها وكآبتها، ووفور ضجرتها من ألم الملامة والفضاحة متيمنةً موتها: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ﴾ وعُدمت ﴿قَبۡلَ هَٰذَا﴾ اللوم والفضيحة ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ [مريم:23] متروكًا معدومًا لا التفات لأحدٍ إليّ أصلاً.

ثم لما وضعت حملها واشتد الألم عليها ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ أي: نادى الوليدُ أمه ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾ بإلهام الله إياه وتنشيطًا: ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ يا أمي، ولا يشتد عليك الأمر بواسطة ولادتي وظهوري بلا أبٍ، واعلمي ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ﴾ ولدًا ﴿سَرِيّٗا﴾ [مريم:24] سيدًا مطيعًا نقيًا سجيًا سخيًا ذا إرهاصاتٍ وكراماتٍ، من جملتها: إنه ظهر لك من تحت رجلك نهرًا جاريًا لدفع عطشك وتطهير الفضلات عن بدنك وثيابك.

﴿وَ﴾ لدفع جوعك ﴿هُزِّيٓ إِلَيۡكِ﴾ أي: حرّكي إلى نفسك حين أخذت ﴿بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ التي في جنبك ﴿تُسَٰقِطۡ﴾ أي: تتساقط منها ثمارها ﴿عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم: 25] بالغًا في النضج غايته، وحان وقت اجتنائه.

قيل: كانت النخلة يابسة لا رأس لها، والوقت وقت الشتاء، فتغصنت في تلك الحالة، وأثمرت ونضجت ثمارها كرامةً لعيسى وإرهاصًا لأمة صلوات الرحمن عليهما.

﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي

مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ [مريم: 26 – 38].

﴿فكلي﴾ يا أمي من النخلة ﴿وَاشْرَبِي﴾ من النهر ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي: نوّري عينك بولدك وطيبي نفسك به ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾ أي: إن رأيت ﴿مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ يسألك عن حالك وولدك ﴿فَقُولِي﴾ في جوابه؛ يعني: أشيري إليه: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: صمتًا عن التكلم ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم:26] أي: إنسانًا.

والحكمة في إلهام الله إياها بالصمت والسكوت حتى لا تجادل مع سفهاء الأنام؛ إذ ولدها يكفي عن مؤونة جوابها.

ثم لما ظهر أمر ولادتها وشاع بين الأنام قصتُها، فمكثتْ مدة نفاسها في غارٍ هناك وبعدما انقضتْ: ﴿فَأَتَتْ بِهِ﴾ أي: بولدها ﴿قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ أي: ولدَها على صدرها، فلما رأوه معها، أخذوا في لومها وتقريعها؛ حيث ﴿قَالُوا﴾ معيرين منادين بها على سبيل التوبيخ واللوم: ﴿يَا مَرْيَمُ﴾ الصالحة العفيفة المشهورة بالعصمة في بيت المقدس ﴿لَقَدْ جِئْتِ﴾ بالآخر ﴿شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم:27] منكرًا بديعًا في غاية الشناعة والفضاحة.

﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ هو رجلٌ صالحٌ نسبوها إليه تهكمًا، وقيل: هي من أولاد هارون أخي موسى، نسبوها إليه وإن تطاولت المدة بينهما ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ منسوبٍ إلى الفواحش والزنا والخروج عن حدود الله ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: 28] زانيةً فاجرةً بل هما من أصلح القوم وأزكاهم عن الفواحش والفسوق، فكيف أنت ومن أين اكتسبت هذا؟!.

وبعدما تمادى تعييرهم وتشنيعهم ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾[1] أي: إلى ولدها، بأن قل لهم في جوابهم ما يفحمون به ويسكتون، بل يتيهون ويتحيرون، ولما رأوا إشارتها إليه وتفويضها الجواب نحوه ﴿قَالُوا﴾ على سبيل الاستهزاء: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم:29] رضيعًا ولم يُعهد من مثله التكلم، أنت قد خجلتِ واستحييتِ تدفعيننا بهذا الرضيع، مع أنه معصومٌ لا ذنب له.

ولما رأى عيسى اشتداد اللائمين على أمة بالتقرح والتشنيع، واضطرار أمه واضطرابها من لومهم، أخذ في الجواب بإلهام الله إياه؛ حيث ﴿قَالَ﴾ مفصحًا معربًا على وجه الفصاحة والبلاغة، مشتملاً على الحكمة البالغة: لا تعيروا أيها الجاهلون عن أمري وعلو شأني في أمي الكاملة المتناهية في العصمة والعفة، ولا ترموها بما لا يليق بعلو شأنها وجلالة قدرها ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله، المستقل في حكمه وآثاره، خصني بالنبوة والرسالة ، بأنواع الكرامات والمعجزات، وأبدعني من محض جوده من روحه، وأرسلني إلى عباده للهداية والإرشاد إلى توحيده؛ لذلك ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ أي: الإنجيل النازل من عنده علي؛ لترويج رسالتي وإرشادي وتتميم تكميلي ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم:30] كسائر الأنبياء، ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ نفّاعًا كثيرَ الخير والبركة لأهل الصلاح من البرية ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ وحيثما توطنتُ وجلستُ معهم يَصِل خيري إليهم.

﴿وَ﴾ من كمال تربية الله وتزكيته إياي ﴿أَوْصَانِي﴾ وأمرني ﴿بِالصَّلَاةِ﴾ والميلِ التام والتوجه نحوه بالجوارح والأركان ﴿وَالزَّكَاةِ﴾ أي: التخلية والتطهير عن جميع الرذائل والخبائث المتعلقة بالنفوس البشرية، المنغمسة بالعلائق الدنيوية، المبعدة عن صفاء الوحدة الذاتية ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم:31] بروح الله الذي أبدعني منه خالصًا

---

(1) بيّن الله سبحانه أن مريم علمت بنور الحق نطق عيسى قبل نطقه، وعرفت بإلهام الله أنه نبي مرسل؛ لأن عيسى تكلم في بطنها بتوحيد الله سبحانه، وعلمت أن براءتها من مقالة القوم في نطق ابنها، وهذا غاية حسن اليقين وسماع إلهام الحق بلا واسطة، ولما علمت شأن عيسى آمنت برسالتهُ وعظمته عين أشارت إليه بأنه أهل مكان علم الله موضع معجزته، ولا يجوز عند الكبراء جواب السؤال؛ فهذا من كمال أدبها في حضرة عيسى، ومن هاهنا إشارة العارفين إلى كبرائهم عند حاجاتهم بفهم الحقائق. قال ابن عطاء: فأشارت إليه في الظاهر لتعليم القوم صدقها فيما تقول فأنطق الله عيسى ببراءتها. قيل: إن أحسن إشارات العارفين في أوقات الاضطرار حين لا تشتت الهمة على الرجوع إلى الحق.

صافيًا عن جميع الكدورات، وأوصاني بما أوصاني من عنايةٍ منه لأكون باقيًا على صفائي، وطهارة لاهوتي بلا كدرٍ من خبائث الناسوت.

﴿وَ﴾ جعلني أيضًا ﴿بَرَّا﴾ أي: بارًا محسنًا ﴿بِوَالِدَتِي﴾ ممتثلاً بأمرها، قائمًا بخدمتها، خافضًا جناح الذل من الرحمة إياها، والحمد لولي الحمد الذي ربَّاني سعيدًا على الطهارة والصلاح وأنواع الكرامة والفلاح والتذلل والتواضع مع عموم عباده ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ متكبرًا متجبرًا على الناس ﴿شَقِيًّا﴾ [مريم:32] بعيدًا عن روح الله مستجلبًا لعذابه.

﴿وَ﴾ متى سلمني الله، وطهرني عن جميع ما يعوقني عن مقتضى صرافة الوحدة الذاتية الإلهية المعبرة عنها بروح الله صار ﴿السَّلَامُ عَلَيَّ﴾ أي: سلام الله وحفظه ﴿يَوْمَ وَلِدتُّ﴾ عن أمرٍ يحفظني عن مسّ الشيطان، ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ يحفظني عن شرّه ووسوسته أيضًا ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ﴾ للحشر أكون ﴿حَيًّا﴾ [مريم:33] بحياة الله وروحه كما كنت قبل هذا.

ثم لما سمعوا من عيسى ما سمعوا، تاهوا وتحيروا في أمره، وصاروا حيارى متعجبين في علو شأنه وشأن والدته وجلالة قدرهما، فاختلفوا وتحزبوا، وفرقةٌ منهم قالت بألوهيته، وفرقةٌ قالت بإبنيته لله، وفرقةٌ قالت بالأقانيم، ومنهم من رماه وأمه بما لا يليق بشأنهما.

أخبر سبحانه حبيبه بما هو الواقع والحق الصريح فقال: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: القائل بهذه الكلمات والموصوف بهذه الصفات المذكورة هو ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لا ما قاله الغلاة من النصارى، ولا ما قاله طغاة اليهود بل ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ هذا ﴿الَّذِي﴾ ذُكر لك يا أكمل الرسل ﴿فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم:34] ويترددون، مع أنه لا ريب فيه، لا ما قالته النصارى بأنه ابن الله.

إذ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ أي: ما صحَّ وجاز بعلو شأنه سبحانه ﴿أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ أي: هو منزهٌ في ذاته عن الأهل والولد؛ لأنه لا يليق بذاته المعاونةُ والاستظهارُ بهما تعالى عن ذلك، بل من حكمه وشأنه أنه ﴿إِذَا قَضَى﴾ وأراد ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور الكائنة في عالم الأمر ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ﴾ حين تعلق إرادته بتكوينه: ﴿كُن﴾ بلا ترتيبٍ في السمع بتقديمِ الكاف على النون.

إذ كلامه القائم بنفسه سبحانه نفسيٌ ذاتيٌ لا يُتوهم فيه الحروفُ والأصوات

ومقاطعها؛ ليتصور الترتيب بالتقدم والتأخر كما يُتوهم في الألفاظ الصادرة عنا، بل يخلق سبحانه بقدرته الكاملة في لساننا لفظًا معجزًا لا من جنس ألفاظنا ليسع لنا التعبير عن كلامه وقتَ إرادة نفوذِ قضائه، وهو لفظه: «كن» وعن حصول المقضي بلفظ: ﴿فَيَكُونُ﴾ [مريم:35] أيضًا بلا تراخٍ وتعقيبٍ يُفهم من الفاء، ومَن كان شأنه هذا من أين يكون له حاجة إلى الأهل والولد وإحبالُ المرأة ووقاعها؟! تعالى عما يقولون علوًا كبيرًا.

بل هو سبحانه واحدُ أحدُ فردُ وِترُ صمدُ لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا هذا؛ أي: من قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [مريم:34] إلى هنا كلامُ وقع في البين.

ثم قال سبحانه حكايةً عن عيسى، ومن جملة ما أوحى إليه: ﴿وَ﴾ بعدما بالغ عيسى في بيان طهارته وعصمة أمه، وتكلم في غير أوان التكلم بكلام عجيبٍ غريبٍ، عَلِم بنور النبوة ونجابةِ الفطرة أن بعضهم قد يقولون في شأنه وشأن أمه ويتخذونه إلهًا، أورد كلامًا نافيًا لظنونهم وجهالاتهم دافعًا لغلوهم واتخاذهم.

فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الذي أوجدني وأبدعني بلا أبٍ هو ﴿رَبِّي﴾ الذي ربَّاني وأمي بأنواع الكرامة، وأظهرني من كتم العدم بمقتضى قدرته ﴿وَ﴾ هو سبحانه ﴿رَبُّكُمْ﴾ أيضًا أوجدكم وأظهركم مثلي إيجادًا إبداعيًا ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ ووحّدوه ولا تشركوا معه شيئًا من المخلوقات، وتوجهوا نحوه بالتذلل التام والانكسار؛ إذ هو المستحق للعبادة لا معبود سواه، ولا إله إلا هو ﴿هَٰذَا﴾ الذي بينت لكم ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم:36] وطريقٌ واضحٌ سويٌ موصلٌ إلى معرفة الحق وتوحيده، فاتبعوه إن كنتم مؤمنين موقنين بتوحيده.

وبعدما نبههم عيسى - صلوات الرحمن عليه - بالطريق الأبين الأوضح ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ أي: فِرق النصارى واليهود في شأنه وشأن أمه اختلافًا ناشئًا ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ بلا سندٍ شرعيٍ وعقليٍ، فأفرط النصارى باتخاذه إلهًا وابنًا له، وفرّط اليهود بنسبته وأمه إلى ما لا يليق بشأنهما.

وبالجملة: فاستحق كلا الفريقين بأشد العذاب وأسوأ العقاب ﴿فَوَيْلٌ﴾ عظيمُ وعذابُ شديدُ أليمُ ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ستروا ما هو الحق في شأنه، وعدلوا عنه إلى الباطل بلا حجةٍ وبرهانٍ ﴿مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم:37] أي: من شهود يوم القيامة وظهوره، وهم يُسحبون فيه على وجوههم نحو النار، ويُكبون عليها صاغرين مضطرين.

﴿أَسْمِعْ﴾ أيها المسمع ﴿بِهِمْ﴾ أي: بأنينهم وحنينهم ﴿وَأَبْصِرْ﴾ أيها المبصر بأغلالهم وسلاسلهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ للعرض والحساب مضطرين مسحوبين ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ﴾ الخارجون عن مقتضى أوامرنا ونواهينا ﴿الْيَوْمَ﴾ الذي في النشأة الأولى ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [مريم: 38] وجهلٍ عظيم عن أهوال يوم القيامة وأفزاعه.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ [مريم: 39 - 51].

﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل مَن عندك فهم ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ المعدة للجزاء؛ بحيث لا يكون فيها التلافي والتدارك على ما فات سوى الحسرة والندامة الغير المفيدة ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ ونزلَ العذاب ومضى زمان امتثال المأمور ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وغرورٍ عن مضيه ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: 39] ولا يصدقون بإتيان هذا اليوم الموعود على ألسنة الرسل والكتب، وكيف لا يصدقون هذا اليوم أولئك الكاذبون المكذبون المستغرقون في بحر الغفلة والضلال التائهون في تيه الغرور.

﴿إِنَّا﴾ من مقام قهرنا وجلالنا ﴿نَحْنُ﴾ بانفرادنا ووحدتنا ﴿نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ بعد انقهارها واضمحلال أجزائها وتشتيت أركانها بمقتضى القدرة الغالبة؛ بحيث صار كل من عليها فانٍ، ولم يبقَ سوى وجهنا الكريم وصفاتنا القديمة، فانقلبت

تجلياتنا المتشعشعة المتجددة من هذا النمط البديع إلى نمطٍ أبدعَ منه وأكملَ؛ إذ نحن في كل يومٍ وآنٍ في شأنٍ، ولا يشغلنا شأنُ عن شأنٍ.

﴿وَ﴾ كيف لا نرث من على الأرض الوجودَ وفضاءَ الشهودِ؛ إذ الكل ﴿إِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم:40] رجوع الظل إلى ذي الظل، والأمواج إلى البحر، والأضواء والأظلال إلى شمس الذات، وبعد رجوع الكل إلينا نُودِي من وراء سرادقات عزنا وجلالنا: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾؟! وأجيب أيضًا منها؛ إذ لا يجب الوجود لسوانا: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ للأظلالِ والأغيارِ.

﴿وَاذْكُرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ المتلوّ عليك المنزل إليك جدَّك ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: محامد أخلاقه ومحاسن شيمه؛ لتنتفع بها أنت ومن معك من المؤمنين، وتمتثل بأخلاقه أنت وهم ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾ صدوقًا مبالغًا في الصدق والصداقة وتصديق الحق وتوحيده ﴿نَّبِيًّا﴾ [مريم:41] من خُلّص الأنبياء.

اذكر أوان انكشافه وإيقاظه من منام الغفلة التي هي عبادة الأوثان والأصنام وقت: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ مستنكرًا عليه متعجبًا من أمره، مناديًا له رجاء أن يتفطن ويتنبه بما تنبه به هو: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ﴾ وتطيع ﴿مَا لَا يَسْمَعُ﴾ أي: شيئًا لا يقدر على السمع ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ أي: لا يقدر على الإبصار، والمعبودُ لا بدَّ أن يَرى ويَسمع أحوال عباده وحاجاتهم ومناجاتهم، ﴿وَ﴾ إذا لم يسمع ولم يبصر ﴿لَا يُغْنِي﴾ ويدفع ﴿عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم:42] من مكروهاتك ولا يعينك، فلا يصلح إذًا للألوهية والربوبية، فلِمَ عبدت وأطعتَ له مع أنه نحتَّه بيدك وأظهرتَ أنت هيكله وشكله، والعجب منك كل العجب أنه مصنوعك أخذته إلهًا صانعًا معبودًا مستحقًا للعبادة، مع أنك من ذوي الرشد والعلم، وهو جمادُ لا شعور له أصلاً.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي﴾ وإن كنت ابنك أصغر منك لكن ﴿قَدْ جَاءَنِي﴾ ونزل عليّ ﴿مِنَ الْعِلْمِ﴾ من قِبل الحق مع صغر سني ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾[1] مع كبرك؛ لأن الفضل بيد الله ويمقتضى إرادته يؤتيه من يشاء ﴿فَاتَّبِعْنِي﴾ أي: اتبع ما أنزل عليّ من قِبل ربي من

(1) قال في التأويلات: وذلك؛ لأن الفيض الإلهي إذا أفيض يقبله الروح لصفائه، ولكن لا يمسكه للطافته ويقبله القلب الصافي ويمسكه لكثافته، كما أن نور النفس الشمس إذا أفاض يقبله الهواء لصفائها ولكن لا يمسكه للطافتها، ويقبله المرآة الصافية لصفائها ويمسكه لكثافتها، فقد أوتي المرآة الصافية والأرض من نور الشمس ما لم يؤت الهواء.

خلوص الاعتقاد ﴿أَهْدِكَ﴾ بتوفيق الله وإرشاده ﴿صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم:43] موصلاً إلى المعبود بالحق وتوحيده.

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ بعباده هذه التماثيل الباطلة والهياكل العاطلة، إذ ما هو إلا بإغوائه وتضليله؛ لأنه عدو لك ولأبناء آدم عداوةً قديمةً مستمرةً ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ﴾ المغوي المضل عن طريق الحق ﴿كَانَ﴾ من الأزل إلى الأبد ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ المفيض لأصناف الخيرات والسعادات سيما الإيمان والعرفان المنجي عن الحرمان والخذلان عند لقاء الحنان المنان ﴿عَصِيًّا﴾ [مريم:44] عصى هو وانتظر لعصيان غيره وسعى بإضلاله وتسويلاته ليضل أهل الحق عن طريقه.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي﴾ من غاية إشفاقي وعطفي ﴿أَخَافُ﴾ عليك ﴿أَن يَمَسَّكَ﴾ وينزل عليك ﴿عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ المنتقم لأهل الضلال والطغيان بدل الثواب والغفران ﴿فَتَكُونَ﴾ حينئذٍ بشقاوتك وطغيانك ﴿لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم:45] صديقًا، وللرحمن عدوًا ببغيك وعصيانك له ومتابعتك لعدوه.

ثم لما تمادى مكالمة إبراهيم مع أبيه، ومحاورته على سبيل النصح والتذكير ﴿قَالَ﴾ أبوه مقرعًا عليه مهددًا له مضللاً إياه: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ﴾ أي: مُعرض بريءٌ ﴿عَنْ آلِهَتِي﴾ ومعبوداتي، مع أن عبادتهم أولى وأليق بحالك ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ إذ خير الأولاد أن يتبع آباءه في الدين، سيما وقد سلف أجدادك على هذا وأنت استنكفت عن عبادة آلهتنا، انتهِ عن اعتقادك هذا، والله ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ ولم تمتنع ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ وأرمينّك بالأحجار على رءوس الأشهاد حتى تموت، قم من عندي ﴿وَاهْجُرْنِي﴾ واتركني ﴿مَلِيًّا﴾ [مريم:46] زمانًا طويلاً، فإن ندمت عن اعتقادك هذا، ورجعتَ إلى ما كنا عليه. يعني: عبادة الأصنام ـ فارجع إليّ، وإلا فاذهب لا علاقة بيني وبينك فأنا بريء منك.

ثم لما رأى إبراهيم ﷺ شدة غيّه وضلاله، ورسوخ جهله وطغيانه ﴿قَالَ﴾ مسترجعًا إلى الله مودعًا عليه مسلمًا: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ أي: سلامي عليك يا أبي، أهجرك بإجازتك إلا أني ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ لينقذك من أوزار الشرك، ويوصلك إلى مرتبة توحيده شكرًا لأبوتك، ورعايةً لحضانتك، والتجئ نحو الحق، وألوذ به من شرِّك الذي هددتني به، ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم:47] مشفقًا رحيمًا يحفظني من شرّك ومن شرّ جميع من عاداني.

﴿وَ﴾ متى لم يُفِدْ لك نصحي، ولم ينفع لك تذكيري ووعظي ﴿أَعْتَزِلُكُمْ﴾

وأترككم على حالكم ﴿وَ﴾ أترك أيضًا ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ وتعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ وأتبرأ عنهم ﴿وَأَدْعُو رَبِّي﴾ الذي ربّاني بفضله بالإيمان، وأوصلني بلطفه إلى فضاء التوحيد والعرفان، وأعبد إياه وأطيعه في جميع أوقاتي وحالاتي ﴿عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي﴾ والتوجه نحو والتحنن إليه ﴿شَقِيًّا﴾ [مريم:48] خائبًا خاسرًا عن رحمته، ذا شقاوةٍ جالبةٍ لسخط الله وغضبه.

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ﴾ وبَعُدَ عنهم، واختار الغربةَ والفرارَ من بينهم ﴿وَ﴾ تركَ عبادة ﴿مَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ من الأوثان والأصنام ﴿وَهَبْنَا لَهُ﴾ من مقام جودنا وفضلنا ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ليؤانس بهم، ويدفع كربة الغربة بصحبتهما ﴿وَ﴾ لنجابة طينتهما وكرامة فطرتهما ﴿كُلاًّ﴾ منهما ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم:49] مثل أبيهما مهبطًا للوحي والإلهام مثله.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم﴾ أي: لإبراهيم وولديه ﴿مِّن﴾ سعة ﴿رَّحْمَتِنَا﴾ ووفور جودنا الأموالَ والأولادَ والجاهَ والثروةَ، إلى أن صاروا مرجع الأنام وحاكمهم في الأحكام إلى يوم القيامة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ﴾ أي: جعلنا ثناءهم ومدحهم العائد إليهم عن ألسنة البرايا ثناءَ صدقٍ وتحقيقٍ، لا خطابة تحنٍ كثناء سائر الملوك والجبابرة، لذلك صار ثناؤهم ﴿عَلِيًّا﴾ [مريم:50] مظهرًا لعلو رتبتهم وشأنهم إلى انقراض النشأة الأولى، كل ذلك ببركة دعاء إبراهيم عليه السلام، وإجابة الحق له؛ حيث قال في مناجاته مع ربه: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ [الشعراء:84].

﴿وَاذْكُرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ المنزل عليك أخاك ﴿مُوسَى﴾ الكليم وقصة انكشافه من الشجرة المباركة ﴿إِنَّهُ﴾ من كمال انكشافه وشهوده بوحدة الحق ﴿كَانَ مُخْلَصًا﴾[1] خُلّص للتوحيد، وصفا عن أكدار ناسوتة مطلقًا ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿كَانَ

(1) قال في التأويلات: ثم اعلم أن الإخلاص في العبودية مقام الأولياء، فلا يكون ولي إلا وهو ولي مخلص، ولا يكذبني إلا وهو ولي مخلص، ولا يكون كل مخلص نبيًا، ولا يكون رسول إلا وهو نبي، ولا يكون كل نبي رسولاً، والمخلِص بكسر اللام: من أخلص نفسه في العبودية بالتزكية عن أوصاف الإنسانية الحيوانية، والمخلَص بفتح اللام: من أخلصه الله بعد التزكية بالتحلية بصفات الروحانية الربانية كما قال النبي ﷺ: «مَن أخلص لله أربعين صباحًا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» أي: من أخلص نفسه بالتزكية في الله، ولله ظهرت، أي: أظهر الله بالتحلية ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، وقال تعالى: «الإخلاص سر بيني وبين عبدي لا يبعد

رسولاً﴾ مرسلاً إلى بني إسرائيل؛ للإرشاد والتكميل مؤيدًا بالكتاب والمعجزات ﴿نبيًا﴾ [مريم:51] أيضًا بالوحي والإلهام والرؤيا.

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣) وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤)﴾ [مريم: 52 – 64].

﴿وَ﴾ لكمال إخلاصه ومزيد اختصاصه بنا ﴿نَادَيْنَاهُ﴾ بعد المجاهدة الكثيرة والرياضات البليغة ﴿مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ﴾ أي: ذي اليُمْنِ والبركة وأنواع السعادة لموسى ﴿وَ﴾ بعدما انكشف بالنداء بما انكشف وشهد ما شهد ﴿قَرَّبْنَاهُ﴾ بنا إلى أن صار ﴿نَجِيًّا﴾ [مريم:52] مناجيًا بنا متكلمًا معنا؛ إذ كنا حينئذٍ سمعه وبصره وجميع قواه، فبنا يسمع، وبنا يبصر، وبنا يتكلم.

فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل»؛ أي: أنا الذي أتولى تحلية قلوب المخلصين بتجلي صفات جمالي وجلالي، وفي الحقيقة لا تكون العبودية مقبولة إلا من المخلصين كقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:5] ولإخلاص المخلصين مراتب: أدناها: أن تكون العبودية لله خالصًا، ولا تكون لغير الله فيها شركة. وأوسطها: أن يكون العبد مخلصًا في بذل الوجود لله وفي الله. وأعلى درجة: المخلصين أن يخلصهم الله من حبس وجودهم بأن يفنيهم عنهم ويبقيهم بجواره.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن﴾ كمال ﴿رَّحْمَتِنَا﴾ وفضلنا إياه تأييدًا له وتعضيدًا ﴿أَخَاهُ هَارُونَ﴾ ليؤيده ويقويه في تنفيذ أحكام النبوة والرسالة ﴿نَبِيًّا﴾ [مريم:53] ليكون أيضًا على عزيمةٍ صادقةٍ وقصدٍ خالصٍ في إجراء الأحكام الإلهية.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾أيضًا جدك ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ ذبيح الله الراضي بجميع ما جرى عليه من قضائه ﴿إِنَّهُ﴾ من كمال وثوقه واعتماده على الله وتفويضه الأمور كلها إليه ﴿كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ والعهد عند الله وافيًا لميثاقه، صابرًا على مصائبه وبلائه، شاكرًا لآلائه ونعمائه ﴿وَكَانَ﴾ أيضًا كأبيه وإخوته ﴿رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ [مريم:54] وإن لم ينزل عليه الشرع؛ إذ بعض أولاد إبراهيم ـ صلوات الرحمن عليه وعليهم ـ كانوا أنبياء مرسلين جارين على ملة أبيهم وشرعه.

﴿وَ﴾ من خصائله الحميدة أنه ﴿كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾ أولاً؛ لأنهم أولى بالإرشاد والتكميل وأحق من غيرهم ﴿بِالصَّلاةِ﴾ التي هي التوجه نحو الحق بجميع الجوارح والأركان، والتقرب نحوه عن ظهر القلب ومحض الجنان ﴿وَالزَّكَاةِ﴾ التي هي تصفية النية وتخلية الطوية عن الميل إلى مزخرفات الدنيا وحطامها الزائلة، ﴿وَكَانَ﴾ من كمال تنزهه عن العلائق والعوائق العائقة عن التوجه الخالص نحو الحق ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ الذي رباه على كمال الرضا والتسليم ﴿مَرْضِيًّا﴾ [مريم:55] لوفائه الوعد، واستقامته فيه، وصبره على ما جرى عليه من البلوى.

﴿وَاذْكُرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ أيضًا ﴿إِدْرِيسَ﴾ صاحب دراسة التوحيد والعرفان، وقالع أهوية النفس وأمانيها بشدائد الرياضات والمجاهدات في مسالك التصديق والإيقان ﴿إِنَّهُ﴾ من كمال رشده وحكمته ﴿كَانَ صِدِّيقًا﴾ مبالغًا في التصديق والتحقيق ﴿نَّبِيًّا﴾ [مريم:56] مبعوثًا إلى الناس كسائر الأنبياء للهداية والتكميل.

﴿وَ﴾ لعلو شأنه وسموّ برهانه وكمال تصفيته، وتزكيته عن لوازم البشرية ﴿رَفَعْنَاهُ﴾ تلطفًا إياه ﴿مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم:57] هو أعلى درجات المعرفة والتوحيد.

وقيل: إلى السماء الرابعة أو السادسة.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المذكورون من زكريا إلى إدريس كلهم أنبياء الله، وأُمناؤه في أرضه؛ لأنهم ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم﴾ بأنواع النعم الظاهرة والباطنة، واصطفاهم من بين البرية للهداية والتكميل، وهم ﴿مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ المنتشئين ﴿مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾

في السفينة حين ظهر الطوفان على وجه الأرض ﴿وَ﴾ بعضهم ﴿مِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَ﴾ ابنه يعقوب الملقب من عند الله ﴿إِسْرَائِيلَ وَ﴾ وكلّ منهم ﴿مِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ إلى توحيدنا ﴿وَاجْتَبَيْنَا﴾ من بين البرايا للتكميل والتشريع، ووضع الأحكام بين الأنام كلهم من كمال يقينهم وعرفانهم وتمكنهم في مقر التوحيد ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ﴾ ودلائل توحيده وتجريده ﴿خَرُّوا﴾ خرورَ تواضعٍ ورهبةٍ ﴿سُجَّدًا﴾ متذللين واضعين جباههم على تراب المذلة والهوان، راجين من سعة رحمته على مقتضى لطفه وجماله ﴿وَبُكِيًّا﴾ [مريم:58] باكين خائفين من خشية الله بمقتضى قهره وجلاله، فإن المؤمن لا بدَّ أن يكون في جميع حالاته بين الخوف والرجاء.

ثم لما ظهر على الأرض التي هي محل الشرور والفتن وأنواع الفسادات ما ظهر من أنواع المكروهات والمنكرات، وهم عند ظهورها واشتهارها بذلوا جهدهم في تنفيذ الأحكام الشرعية المنزلة على مقتضى زمان كلٍ منهم، فكملوا وأرشدوا مقدار جهدهم وطاقتهم.

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ واستعقبهم ﴿خَلْفٌ﴾ سوءٌ ـ بالسكون ـ لا خلَف جيد صدق ـ بالحركة ـ قد ﴿أَضَاعُوا﴾ وأبطلوا ﴿الصَّلاةَ﴾ المقربة نحو الحق مع أنها من أقوى أسباب الإيمان ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ النفسانية المبعدة عنه الجالبة لأنواع العذاب والنكال، وأباحوها لنفوسهم وأصروا على إباحتها ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ﴾ في النشأة الأولى ﴿غَيًّا﴾ [مريم:59] شرًا وخسرانًا أو عذابًا ونيرانًا يترتب على شهواتهم ولذاتهم الفانية.

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ ورجع عنها نادمًا ولم يرجع إليها أصلاً ﴿وَآمَنَ﴾ أي: صدق حرمتها ﴿وَ﴾ بعد التوبة والرجوع ﴿عَمِلَ صَالِحًا﴾ ليصلح ما أفسد بمتابعة الهوى ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ التائبون الآيبون النادمون عما صدر عنهم من متابعة الهوى بإغواء الشيطان وإغرائه ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ لسائر المؤمنين المطيعين ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم:60] أي: لا يُنقصون شيئًا من درجات المؤمنين الغير العاصين، إن كانت توبتهم على وجه الإخلاص والندامة الكاملة، بل لهم كسائر عباد الله.

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ﴾ تفضلاً عليهم وجزاءً لأعمالهم وإيمانهم ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: بلوح القضاء ومضي العلم يصلون إليها ويتمكنون فيها ﴿إِنَّهُ﴾ من كمال عطفه ورحمته لعباده ﴿كَانَ وَعْدُهُ﴾ الذي وعده إياهم ﴿مَأْتِيًّا﴾ [مريم:61] أي: حاصلاً بلا ريبٍ وترددٍ.

ومتى دخلوا في دار السلام ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ من أحدٍ ﴿لَغْوًا﴾ فضولاً من الكلام ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ من كل جانبٍ تحيةً وتكريمًا وترحيبًا ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ﴾ الصوري والمعنوي معدًا مهيأ ﴿فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[1] [مريم:62] أي: مستوعبًا لجميع الأوقات؛ إذ أكلها دائم.

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ الموصوفة الموعودة ﴿الَّتِي نُورِثُ﴾ أي: نوطن ونمكن ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ فيها ﴿مَنْ كَانَ﴾ منهم ﴿تَقِيًّا﴾ [مريم:63] متصفًا بالتقوى حَذِرًا عن الهوى خائفًا.

﴿وَ﴾ بعدما أبطأ الوحي على رسول الله حين سأله المشركون من قصة أصحاب الكهف وأمر الروح وقصة ذي القرنين، فوعد لهم الجواب ولم يستثنِ، وانقطع الوحي خمسة عشر يومًا ـ وقيل: أربعين ـ حتى عيّروه واستهزءوا معه؛ حيث قالوا: ودّعه ربه وقلاه.

ثم لما نزل جبريل عليه السلام استبطأ نزولَه وشكا، قال جبريل عليه السلام في جوابه: نحن معاشر الملائكة ﴿مَا نَتَنَزَّلُ﴾ ونوحي إلى أحدٍ ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وإنزاله وإرساله؛ إذ التصرف ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ أي: عندنا وفي علننا ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ أي: في سرنا واستعدادنا، وما غاب عنا وخفي علينا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ الطرفين المذكورين، وبالجملة: مستوعبٌ بنا، محيطٌ لجميع أحوالنا بلا فوت شيءٍ وغيبته عنه، بل الكل حاضرٌ عنده ﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿مَا كَانَ رَبُّكَ﴾ تعالى شأنه ﴿نَسِيًّا﴾ [مريم:64] حتى يُنسب إبطاء الوحي إلى نسيانه.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا

(1) إن الله سبحانه حثّ حبيبه على ذكر خليله -عليهما السلام- وما جرى عليه من أحكام الخلة من الوجد والحال والزفرة والغيرة وكسر أصنام الطبيعة، والخروج مما دون الحقيقة، وعن الصديقية في خلته، والصديق من تواتر أنوار المشاهدة، واليقين، وإحاطة نور العصمة عليه بالسرمدية.

﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ۗ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ [مريم: 65 – 76].

وكيف يتصور نسيانه؛ إذ هو ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ لا يعزب ويغيب عن علمه شيء منها لمحةً، وإذ تحققتَ ما تلونا عليك يا أكمل الرسل وتأملتَ في معناه حق التأمل والتدبر ﴿فَاعْبُدْهُ﴾[1] راجيًا منه العناية على العبادة وجزاء الخير ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ وتحمل لمتاعبها، واثبت عليها، ولا تستعجل بوحيٍ ما قصدتَ وأحببتَ نزوله، ولا تقنط أيضًا؛ إذ الكل بيده مرهونٌ بوقتٍ، ولا تضطرب من استهزاء الكفرة وسخريتهم، وكيف اضطربت ﴿هَلْ تَعْلَمُ﴾ وتسمع ﴿لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:65] مثلاً مسمىً بالإله المستحق للتوجه والعبودية لإنجاح المطلوب سواه حتى ترجع إليه، فلك العبادة والاصطبار وترك الاضطراب والاستعجال، وتفويض جميع الأمور إلى الكبير المتعال.

﴿وَ﴾ من غاية الجهل ونهاية الغفل عن ربوبيته ﴿يَقُولُ الإِنسَانُ﴾ المجبول على النسيان والكفران بنعم الله وإنكار قدرته على إعادة المعدوم: ﴿أَئِذَا مَا مِتُّ﴾ وصرتُ عظامًا ورفاتًا ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ﴾ من الأرض ﴿حَيًّا﴾ [مريم:66] سويًا مُعادًا؟! كلا وحاشا هذا محالٌ باطلٌ، وضلالٌ ظاهرٌ.

---

(1) قال الشيخ نجم الدين: يشير إلى أنه تعالى خالق ورب سماوات الأرواح وأرض الأجساد وما بينهما من النفوس والقلوب والأسرار، فاعبده بجسدك ونفسك وقلبك وسرك وروحك، فعبادة جسدك إياه بأركان الشريعة وهي: الائتمار بما أمرك الله به، والانتهاء عمّا نهاك الله عنه، وعبادة نفسك بآداب الطريقة وهي: ترك موافقات هواها، ولزوم مخالفة هواها، وعبادة القلب بالإعراض عن الدنيا وما فيها، والإقبال على الآخرة ومكارمها، وعبادة السر خلوة عن تعلقات الكونين اتصالاً بالله ومحبة له، وعبادة الروح ببذل الوجود لنيل الشهود.

﴿أَ﴾ ينكر المنكر المصرُّ على قدرتنا، ويصرُّ على الإنكار ﴿وَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ﴾ المكابر المعاند ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ﴾ وأبدعناه ﴿مِن قَبْلُ وَ﴾ الحالُ أنه ﴿لَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: 67] أي: مما يطلق عليه الشيء، ولا مسبوقٌ بشيء، فقدرنا على إيجاده وإظهاره من العدم الصرْف، ولِمَ لَمْ نقدر على إعادته بعد سبق أجزائه، والإعادةُ والإبداءُ وإن كانا عندنا على السواء، إلا أن الإعادة بالنسبة إلى فهمهم أسهل وأيسر من الإبداء والإبداع لا عن شيء.

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ الذي هو أعظم الأسماء الإلهية وأشملها وبعزته وجلاله ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أولئك الضالين ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ المضلين لهم معهم، منخرطين في سلسلتهم ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾ مقيدين مغلولين ﴿حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم:68] باركين على الركب، قائمين على أطراف الأصابع بلا تمكنٍ لهم واطمئنانٍ مثل الجاني الخائف عند الحاكم القاهر القادر على أنواع الانتقام.

﴿ثُمَّ﴾ بعد حشرهم وإحضارهم على النار ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ أي: ننتخبن ونخرجن ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي: فرقةٍ شاعت منهم موجبات العذاب والنكال ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ﴾ المفيض لهم أنواعَ الخيرات والبركات ﴿عِتِيًّا﴾ [مريم:69] جراءةً على العصيان له وعلى ترك أوامره وارتكاب نواهيه، ليطرح أولاً على مقر النار، ثم الأمثل فالأمثل إلى انطراح الكل فيها على تفاوت طبقاتهم ودرجاتهم في موجباتها قوةً وضعفًا.

﴿ثُمَّ﴾ بعد انتزاعها وانتخابنا ﴿لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى﴾ وأحق ﴿بِهَا﴾ أي: بدخول النار ﴿صِلِيًّا﴾ [مريم:70] أي: دخولاً وطرحًا أوليًا سابقًا على الكل، وهم الرؤساء الضالون المضلون؛ إذ يضاعف عذابهم لضلالهم وإضلالهم.

ثم قال سبحانه مخاطبًا لبني آدم بأجمعهم: لا تغتروا بدنياكم ولذاتها وشهواتها، ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿إِن مِّنكُمْ﴾ أي: ما منكم أيها المتلذذون بزخرفة الدنيا ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي: واردُ النار وواقعُها، ذاق كلُ منكم من عذابها مقدارَ ما يتلذذ من الدنيا.

أمَّا المؤمنون المطيعون المتقون الذين يقنعون في الدنيا بسدِّ جوعةٍ ولبس خشنٍ وكنٍ ضروري، فيمرون عليها وهي خامدةً عبرة لهم منها وشكرًا لنعمة النجاة عنها.

وأمَّا المؤمنون العاصون التائبون، فيذوقون من عذابها مقدار تلذذهم بالمعاصي، ثم يخرجون على مقتضى عدله سبحانه.

وأمَّا أصحاب الكبائر من المؤمنين الخارجين من الدنيا عليها بلا توبةٍ، وعموم

الكفرة والمشركين، فهم الواردون المقصورون عل الورود فيها إلا أن المؤمنين تلحقهم الشفاعة.

وأمّا الكفرة فهم الخالدون المخلدون لا نجاة لهم منها أصلاً.

ولا ترددوا أيها السامعون ولا تشكّوا في المذكور؛ إذ ﴿كَانَ﴾ ورودكم وعرض النار عليكم من جملة الأحكام المبرمة الإلهية التي وجب ﴿عَلَى رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل وجوبًا ﴿حَتْمًا مَقْضِيًا﴾ [مريم:71] محققًا بلا شبهةٍ وتخلفٍ أوجبها سبحانه على نفسه لِحِكَمٍ ومصالحَ خص سبحانه في سترها ولم يفش على أحدٍ.

﴿ثُمَّ﴾ بعد الورود والوصول ﴿نُنَجِّي﴾ ونخلص ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن محارمنا في النشأة الأولى اتقاءً من سخطنا وطلبًا لمرضاتنا ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى أوامرنا ونواهينا خالدين ﴿فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:72] لا يمكنهم الخروج والتجاوز عنها أصلاً، بل صاروا مزدحمين فيها مضيّقين معذّبين بأنواع العذاب أبد الآباد.

﴿وَ﴾ كيف لا يخلدون في النار، وهم من كمال غيّهم وضلالهم ونهاية غفلتهم وقسوتهم ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ في نشأة الاختبار ﴿آيَاتُنَا﴾ الدالّة على توحيدنا وكمالِ قدرتنا على الإنعام والانتقام مع كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحاتٍ في الإعجاز بلا ريبٍ وترددٍ ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعدما عجزوا عن معارضتها وأُفحموا عن المقابلة معها، متشبثين بما عندهم من المال والجاه والثروة والرئاسة، مفتخرين بها قائلين على سبيل التهكم ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ: الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: أنحن الأغنياء المتلذذون بأنواع اللذات المتمكنون بجميع المرادات والشهوات، أم أنتم أيها الفقراء الضعفاء المحتاجون بما تقتاتون في يومكم هذا؟! ﴿خَيْرٌ مَقَامًا﴾ أي: مرتبةً ومكانًا عند الله ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم:73] مجلسًا ومنزلاً عنده، ولولا أنا أفضل وأخير منكم عند الله، لما أعطانا ما أعطانا ولما منع عنكم ما منع.

ثم لما افتخروا وتفضلوا على المؤمنين بما عندهم من حطام الدنيا وزخرفتها، ردّ عليهم وهدّدهم على الوجه الأبلغ الأتم، فقال على سبيل العبرة: ﴿وَكَمْ﴾ أي: كثيرًا ﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ في الأزمنة الماضية ﴿مِنْ﴾ أهل ﴿قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ﴾ وأكثر من هؤلاء المفتخرين المعاندين ﴿أَثَاثًا﴾ أي: من جهة الأمتعة الدنيوية، وما يترتب عليها من الجاه والثروة والكبر والخيلاء ﴿وَ﴾ أحسن ﴿رِئْيًا﴾ [مريم:74] أي: زينةً وبهاءً.

ثم لما لم يتذكروا بالآيات والنذر، ولم يتفطنوا منها إلى توحيد الحق وصفاته،

ولم يشكروا نِعَمَه، بل أصروا واستكبروا بما عندهم من المزخرفات الفانية، فهلكوا واستؤصلوا ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة: ﴿مَن كَانَ﴾ منغمسًا منهمكًا ﴿فِي الضَّلالَةِ﴾ مجبولاً عليها ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ وليمهله ﴿مَدًّا﴾ مهلاً طويلاً، وليمتعهم تمتيعًا كثيرًا؛ أي: رغدًا واسعًا ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ على ألسنة الرسل والكتب ﴿إِمَّا الْعَذَابَ﴾ العاجل لهم في النشأة الأولى بأن غلب المسلمون عليهم، فقتلوهم وأسروهم، وضربوا الجزية عليهم مهانين صاغرين ﴿وَإِمَّا﴾ تأتيهم ﴿السَّاعَةَ﴾ بغتةً ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ إذًا بالعيان والمشاهدة ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ ومقامًا عند الله ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [مريم:75] أو أقلُّ ناصرًا ومعينًا.

﴿وَ﴾ بعدما صار مَآلُ الكفار وبالاً عليهم ومنالُهم نكالاً لهم ﴿يَزِيدُ اللهُ﴾ الهادي لعباده المؤمنين ﴿الَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ إلى زلال عرفانه وتوحيده ﴿هُدًى﴾ هدايةً ورشادًا باقيًا أزلاً وأبدًا بدل ما نقص عنهم من حطام الدنيا الفانية ومتاعها الزائلة الذاهبة ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ المقربة إلى الله، المستتبعة لأنواع الفضل والثواب ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ثَوَابًا﴾ عائدةً وفائدةً ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم:76] أي: منقلبًا ومآبًا؛ لأن مآل الأموال والجاه والثروة إلى الحسرة والخسران، ومآل العبادات إلى الجنة والغفران.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾ [مريم: 77 – 88].

ثم قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع للكافر المستكبر: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ أيها الرائي الطاغي الباغي ﴿الَّذِي كَفَرَ﴾ أنكر وأعرض واستكبر ﴿بِآيَاتِنَا﴾[1] الدالة على

(1) قال الشيخ نجم الدين: يشير إلى من كفر ستر الحق، وأنكر على أهل الصدق من أرباب الطلب

عظمة ذاتنا وكمال أوصافنا وأسمائنا ﴿وَقَالَ﴾ مقسمًا مبالغًا على سبيل الاستهزاء والسخرية: والله ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ وأعطين في النشأة الأخرى أيضًا إن فُرِضَ وجودُها ﴿مَالاً وَوَلَدًا﴾ [مريم:77] مثلما أعطيت في هذه النشأة، هذا من غاية اغتراره ونهاية ذهوله وغفلته واعتقاده كبرًا وخيلاء أنه حقيقٌ بهذه المرتبة حيثما كان.

فردَّ الله سبحانه عليه على أبلغ الوجوه وآكده بقوله: ﴿أَطَّلَعَ الغَيْبَ﴾ أي: أيدعي هذا الطاغي التائه في تيه الغفلة والجهل علم الغيب واطلاع السرائر ﴿أَمِ اتَّخَذَ﴾ وأخذ ﴿عِندَ الرَّحْمَنِ﴾ أي: من عنده على لسان نبيٍ من أنبيائه أو مَلَكٍ من ملائكته ﴿عَهْدًا﴾ [مريم:78] ليعطيه في الآخرة مالاً وولدًا؟! إذ لا معنى للجزم بهذه الدعوى وتأكيدها بالحلف إلا بأحدِ هذين الطرفين.

﴿كَلَّا﴾ وحاشا ليس لهذا الجاهل الكذاب لا ذاك ولا هذا، بل ﴿سَنَكْتُبُ﴾ ونأمر الحفظةَ أن يكتبوا ﴿مَا يَقُولُ﴾ هذا المسرف المغرور اغترارًا بماله وجاهه ﴿وَنَمُدُّ لَهُ﴾ ونزيد عليه يوم الجزاء ﴿مِنَ العَذَابِ مَدًّا ﴾ [مريم:79] أي: عذابًا فوق العذاب أضعافًا وآلافًا بكفره وإصراره واغتراره على كفره وعتوه على أهل الإيمان واستهزائه إياهم.

﴿وَ﴾ بعدما نهلكه ونميته ﴿نَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: نرث ما يقول ويفتخر به من الأموال والأولاد وغيرها، ونخلعها عنه ونجرده؛ بحيث لا يبقى معه شيٌ منها ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم العرض والجزاء ﴿فَرْدًا﴾ [مريم:80] صفرًا خاليًا بلا أهلٍ ولا مالٍ ولا إيمانٍ ولا عملٍ.

﴿وَ﴾ من غاية جهلهم بالله ونهاية غفلتهم عن حقِّ قدْره وقدْر توحيده واستقلاله واستيلائه ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً﴾ من تلقاء أنفسهم وعلى مقتضى أهويتهم الفاسدة ﴿لِيَكُونُوا﴾ أي: آلهتهم ﴿لَهُمْ عِزًّا ﴾ [مريم:81] أي: بسبب عزهم وتوقيرهم عند الله يشفعون لهم ويخففون عذابهم.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لهم عما اعتقدوا من الفوائد العائدة لهم من عبادة الأوثان والأصنام

وأصحاب الحقائق الذين أنعم الله عليهم بالكشوف والعلوم اللدنية، وهم يتكلمون بها، فالمنكر يعترض عليهم وعلى أقوالهم وأحوالهم، ويقول: إنكم أعرضتم عن الكسب، واعتمدتم على أموال الناس وصدقاتهم، واعتزلتم النساء، وحرمتم عن الأولاد والأموال وأنا أعبد الله، كما تعبدونه.

من الوصلة والشفاعة والتسبب للنجاة، بل ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ وينكرون أولئك المعبودون يومئذ ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: بعبادة الكفرة إياهم ﴿وَ﴾ كيف يشفعون لهم حينئذٍ، بل ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم:82] يضادون عليهم، ويعادون بل يريدون مقتهم وازدياد عذابهم.

ثم لما تعجب ﷺ من قسوة قلوب الكفرة، وشدة عمههم وسكرتهم في الغفلة، وعدم تفطنهم وتنبههم بحقية آيات التوحيد مع وضوحها وسطوعها، مع أنهم من زمرة العقلاء المجبولين على فطرة المعرفة والإيقان، سيما بعد ظهور الحق وعلو شأنه، وارتفاع قدره برسالته ﷺ، ونزول القرآن له، واختتام أمر البعثة والتشريع به ﷺ ، وهم بعد منكرون.

أشار سبحانه إلى سبب غيّهم وضلالهم وتماديهم فيها على وجهٍ يزيح تعجبه ﷺ فقال مخاطبًا له: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا أكمل الرسل ولم تتفطن ﴿أَنَّا﴾ بمقتضى اسمنا المذل ﴿أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ﴾ المضلين ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الذين أردنا إضلالهم وإذلالهم في سابق علمنا ولوح قضائنا وسلطناهم عليهم؛ بحيث ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾ أي: تهزهم وتحركهم وتغريهم بتسويلاتهم نحو المعاصي والآثام، وتوقعهم بأنواع الفتن والإجراء، وتحبب عليهم الشهوات واللذات النفسانية المستلزمة المستجلبة لأنواع العقوبات، المبعدة عن المثوبات والفوز بالمرادات ﴿أَزًّا﴾ [مريم:83] هزًا دائمًا؛ بحيث صارت قلوبهم المعدة بالفطرة الأصلية للمعرفة والتوحيد مطبوعةً مختومةً بغشاوةٍ عظيمةٍ وغطاءٍ كثيفٍ، لا يُرجى انجلاؤها أصلاً، لذلك لم يتفطنوا بظهور الحق ولوائح آياته ولوامع علاماته، مع كمال وضوحها وانجلائها وتشعشعها.

﴿فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما علمتَ حالهم بإهلاكنا إياهم وانتقامنا عنهم، ولا تيأس من إمهالنا وتأخيرنا إهلاكهم أن نهمل عن أخذهم وانتقامهم، بل ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ﴾ بإمهالنا إياهم أيام آجالهم وأوقاتها ﴿عَدًّا﴾ [مريم:84] متى وصل وقتها أخذناهم واستأصلناهم، بحيث أمِنت أنت ومن معك من المؤمنين من شرورهم وفسادهم.

اذكر يا أكمل الرسل﴿يَوْمَ﴾ الحسرة للكافرين؛ إذ ﴿نَحْشُرُ﴾ ونجمع فيه ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ أي: المؤمنين الذين يحفظون نفوسهم عن المنهيات والمحظورات الواردة في الكتب الإلهية المنزلة على الرسل المبينين لها ﴿إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم:85]

وافدين فرقةً بعد فرقةٍ؛ ليجازوا بالرحمة والمغفرة، ويستغرقوا بها جزاء إيمانهم وتقواهم، ويتفضلوا بالرضوان تفضلاً عليهم وزيادة كرامة لهم.

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ﴾ يومئذ سَوق البهائم المجرمة الجانية إلى السجن والحبس بالقهر والغضب التام ﴿إِلَى جَهَنَّمَ﴾ التي هي أسوأ الأماكن وأظلمها وأعمقها ﴿وِرْدًا﴾ [مريم:86] ورود البهائم إلى المجالس والأغوار بزجرٍ تامٍ من الضرب المؤلم والتصويب وغيرهما.

وهم في تلك الحالة حيارى مضطربين، لا تنفعهم أعمالهم ولا معبوداتهم الباطلة، ولا يشفعون لهم ولا ينقذونهم من النار كما زعموا.

وكيف يشفعون لهم معبوداتهم؛ إذ هم ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ لأنفسهم ليخففوا العذاب عنهم متى أرادوا، بل لا شفاعة لهم ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ﴾ وحصل له ﴿عِنْدَ الرَّحْمَنِ﴾ أي: من عنده ﴿عَهْدًا﴾ [مريم:87] إذنًا بالشفاعة لمن أراد سبحانه إنقاذه بشفاعة ذلك الشفيع كشفاعة بعض الأنبياء لعصاة أممهم، إن أذن لهم الرحمن المستعان.

﴿وَ﴾ كيف يحصل لهؤلاء الهالكين النجاة من نيران الحرمان، والخلاص من سعير الخذلان والخسران، مع جرمهم الذي هو أعظم الجرائم عند الله وأفحشها؛ حيث ﴿قَالُوا﴾ مفرطين في حق الله من غاية انهماكهم في الغفلة عنه وعن قدره ورتبته: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ﴾ المنزَّهُ عن وصمة الكثرة وشين النقصان، المقدسُ عن سمة الحدوث والإمكان ﴿وَلَدًا﴾[1] [مريم:88] هو أقوى أمارات الإمكان وعلامات الاستكمال والنقصان.

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾

(1) قال الشيخ نجم الدين: يشير إلى أن تجاسرهم وتعديهم في مثل هذا القول إنما كان من نتائج صفة الرحمانية إذ هم بها أقدموا على هذا القول؛ لأنه تعالى كان عالمًا سرهم بأحوالهم أنهم خلقوا على هذه السجية ولا بدّ بأن يصدر منهم هذه المقالة، فلولا صفة الرحمانية لما سامحت الألوهية بإيجادهم، فبالرحمانية خلقوا، وبالرحمانية قد نطقوا بالرحمانية.

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾

[مريم: 89 – 98]

والله أيها المفترون على الله ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ﴾ بإثبات الولد له سبحانه ﴿شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم:89] منكرًا عظيمًا، ومفترىً شنيعًا فظيعًا، إلى حيث ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ ويتشققن مع متانة قوائمها وشدة التئامها ﴿مِنْهُ﴾ أي: من سماع قولكم هذا ونسبتكم هذه، هولاً ورهبة من صولة قهر الله وسطوة غضبه ونزول عذابه ﴿وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَ﴾ كذا ﴿تَخِرُّ﴾ وتسقط ﴿الْجِبَالُ﴾ خرور خشيةٍ وهولٍ ﴿هَدًّا﴾ [مريم:90] أي: سقوطًا واصلاً إلى التفتت والتشتت والاندكاك بالمرة، بحيث اضمحلت رسومها مطلقًا.

كل ذلك من خوف سطوة صفاته الجلالية، ومقتضيات أسمائه القهرية، المنبعثة من الغيرة الإلهية، الناشئة منه سبحانه بواسطة ﴿أَن دَعَوْا﴾ وأثبتوا ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ المقدس المبرئ في ذاته عن لوازم الحدوث والإمكان ﴿وَلَدًا﴾ [مريم:91].

﴿وَمَا يَنبَغِي﴾ ويليق ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ المتجلي في كلّ آن وشأن، ولا يشغله شأن عن شأن ﴿أَن يَتَّخِذَ﴾ زوجةً ويتسبب بها ليظهر ﴿وَلَدًا﴾ [مريم:92] يستخلفه ويستظهر به ويستعين منه، تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

بل ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الملائكة المهيمين المستغرقين بمطالعة جمال الله، المستوحشين من سطوة جلاله ﴿وَالأَرْضِ﴾ أي: مَن في عالم الطبيعة المتوجهة نحو مبدعها طوعًا ﴿إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ﴾ الممهّدِ الممد لهم أظلال أسمائه الحسنى وأوصافه العظمى، المفيضِ عليهم من رشحات بحر وجوده، بمقتضى فضله وجوده ﴿عَبْدًا﴾ [مريم:93] متذللاً مقهورًا تحت تصرفه، مصروفًا حسب قدرته وإرادته، محاطًا تحت حيطة حضرة علمه ولوح قضائه.

إلى حيث ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ﴾ وفصلهم، لا يشذ شيءٌ من أحوالهم وأفعالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم، وجميع حالاتهم حتى اللمحة واللحظة والطرفة والخطرة من حيطة حضرة علمه وقبضة قدرته واختياره ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم:94]

أي: فردًا فردًا، وشخصًا شخصًا، مع جميع العوارض المتعلقة بكل فردٍ وشخصٍ، ما داموا في هذه النشأة، ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ﴾ أيضا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم:95] منفردًا مفروزًا عن الأنصار والأعوان وجميع الأصحاب والخلان.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ﴾ المنتخبين المنتجبين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وتوحيده، وأطاعوا لرسله المؤيَّدين من عنده وامتثلوا بجميع ما جاءوا به من الأوامر والنواهي المبيَّنة في الكتب الإلهية المنزَّلة عليهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من النوافل المقربة إلى الله طلبًا لرضاه وابتغاءً لوجهه ﴿سَيَجْعَلُ﴾ ويحدِث ﴿لَهُمُ الرَّحْمَنُ﴾ المتكفل لجزائهم وإثابتهم بمقتضى سعة رحمته وجوده ووفور لطفه ﴿وُدًّا﴾ [مريم:96] ومحبةً في قلوب جميع المؤمنين حتى يحبوهم، ويتحننوا نحوهم، بلا سبق الوسائل والأسباب العادية الموجبة لمودة البعض للبعض من الإنعام والإحسان وأنواع العطية والإكرام، مع محبة عموم عباد الله للبدلاء المنسلخين عن مقتضيات لوازم البشرية.

ثم قال سبحانه امتنانًا على حبيبه، وإشارةً إلى عظم رتبة القرآن الجامع لجميع المعارف والأحكام، بعدما بيَّن في هذه السورة من معظمات مهام الدين من العبر والتذكيرات والأخلاق والآداب: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ أي: القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ وسهلناه وأنزلناه على لغتك ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يحفظون نفوسهم عن مخالفة ما أُمروا به ونُهوا عنه ببشارةٍ عظيمةٍ عنايةً من الله إياهم وفضلاً، وهي تحققهم بمقام الرضا والفوز بشرف اللقاء ﴿وَتُنذِرَ بِهِ﴾ أي: بوعيداته وأنواع العذاب المذكورة فيه ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم:97] لدودًا لجوجًا، مفرطين في اللدد والعناد، مصرين على ما هم عليه من الفسق والفساد.

﴿وَ﴾ لا تبالِ يا أكمل الرسل بتماديهم في لددهم وعنادهم، ولا تحزن من عتوهم وفسادهم؛ إذ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: أهلكنا كثيرًا من أقوامٍ مضوا، كانوا متمادين أمثالهم في الغي والضلال، مصرين على المراء والجدال.

تأمل والتفت يا أكمل الرسل وتشعر ﴿هَلْ تُحِسُّ﴾ أي: وتشعز ﴿مِنْهُم﴾ من المهلكين ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ نجا، وبقي سالمًا من قبضة قدرتنا وسطوة قهرنا وغضبنا ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم:98] صوتًا خفيًا يُسمع من قبورهم ومدافنهم، بل صاروا كأن لم يكونوا أصلاً، وما ذلك وأمثاله علينا بعزيز.

رب اختم عواقب أمورنا بالخير والحسنى.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتدبر المتأمل في الأسماء الحسنى الإلهية، والمستكشفُ عن رموز صفاته الثبوتية والسببية والجمالية والجلالية، واللطفية والقهرية، وجميع الأوصاف المتقابلة والمتماثلة الإلهية، أن تتعمق وتتأمل في معنى اسم الرحمن الذي كرره سبحانه في هذه السورة مرارًا كثيرةً، وتدبَّر فيه كي تصل وتستكشف إلى أن مبدأ جميع ما ظهر وبطن، وكان ويكون، إنما هو هذا الاسم المشير إلى سعة رحمة الحق، ووفور جوده وفضله على مظاهره ومصنوعاته؛ إذ به استوى سبحانه على عروش جميع الكوائن والفواسد، وبه ظهر ما ظهر من كتم العدم.

وبالجملة: ما من موجودٍ محققٍ محسوسٍ أو مقدرٍ مخطورٍ، إلا وهو في حيطة هذا الاسم وتحت تربيته وتصرفه، بحيث لو انقطع إمداده عن العالم طرفةً لم يبقَ للعالم ظهور ووجود أصلاً.

ومتى تحققتَ بهذا الاسم العظيم، وتيقنت شموله وإحاطته لجميع المظاهر شمول عطفٍ ولطفٍ، فزتَ بحقيقة قوله سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:93].

جعلنا الله ممن تحقق بمعاني أسمائه الحسنى، واستكشف عن سرائر صفاته الأسنى، بفضله وطَوله، وسعة رحمته وجوده.

سورة طه

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة طه

لا يخفى على ذوي البصائر المستكشفين عن مراتب الوجود بفيضان الكشف والشهود، بلا ملاحظة الرسوم والحدود مثل أصحاب القيود أن للوجود البحت الخالص عن جميع الاعتبارات باعتبار ظهوره في مظاهر الإعدام مراتب كثيرة تقبل بسببها الإضافات الغير المحصورة، فله باعتبار ظهوره في كل مرتبةٍ من المراتب الكلية والجزئية أسماءُ كليةُ ومظاهر جزئيةُ تظهر في كلٍّ منها بواسطة اسمٍ خاصٍ من الأسماء.

وأعلى المراتب التي هي مصدر جميعها ومآل الكل إليها، ومصيرها المرتبة التي طُويت دونها المراتب، وقصُرت عن دركها العقول، وكلَّتْ عن وصفها الألسن، وأُرتِجَتْ[1] دونها طرق الوصول، واضمحلتْ هناك السِّمات والعلامات، وبطلُلت العبارات والاعتبارات، وارتفعت الجهات والإشارات.

وتلك المرتبة هي المرتبة الأحدية الصمدية التي لا يمكن فيها تمكن الكثرة؛ لأن الكثرة إنما تنشأ من الإضافة، والإضافةُ إنما تتُصور بين اثنين فصاعدًا ولا اثنينية هناك أصلاً.

وهذه هي المرتبة المحمدية التي انتهت إلى المراتب كلها عروجًا، كما ظهرت منها ظهورًا في بدء الأمر؛ لذلك أشار سبحانه في أول هذه السورة إلى مرتبته ﷺ إرشادًا لعباده وامتنانًا لهم؛ ليكون قِبلةً لكل طالب سالكٍ إلى جنابه، وراغبٍ ناسكٍ إلى بابه، وفي آخرها أيضًا؛ ليُشعر بأن مرتبته ﷺ بداية المراتب ونهايتها؛ إذ هناك اتحد قوسي الوجوب والإمكان، والغيب والشهادة.

ولما كانت مرتبته ﷺ مبدأ الكل ومنتهاه، كانت بمقتضى الرحمة العامة طالبةً لهداية الكل ورجوعه إليها؛ لذلك ناداه سبحانه على وجهٍ يُشعر بطلبه هدايتهم إلى

---

(1) أَرْتَجْتُ الْبَابَ إِرْتَاجًا: أَغْلَقْتُهُ إِغْلَاقًا وَثِيقًا، وَمِنْهُ قِيلَ: أُرْتِجَ عَلَى الْقَارِئِ إِذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْقِرَاءَةِ كَأَنَّهُ مُنِعَ مِنْهَا. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (3/349).

مرتبته؛ حيث قال ﷻ مخاطبًا له ﷺ، بعد ما تيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي بجميع أسمائه وصفاته المترتبةِ عليها جميع مراتب الوجود في المرتبة الجامعة المحمدية، التي منها ظهور الكل، وإليها رجوعه ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ بإظهار الكل منها في النشأة الأولى ﴿الرَّحِيمِ﴾ بإعادتها إليها في النشأة الأخرى.

﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ [طه: 1 – 12].

﴿طه﴾[1] [طه:1] يا طالب الهداية العامة على كافة البرايا.

---

(1) قال روزبهان: أن حروف المعجم صناديق أسرار الحق مع حبيبه ولا يطلع عليها بالحقيقة أحد غيره وكل لسان عبر عنها بقدر ما فتح في قلبه من قلبه من علوم السرّية الإلهية وما قال فيه أهل الرسوم والحقائق يكفي لمسترشدي طرق الحقائق، وما وقع بغير تكلف بالبديهة لهذا العارف أن الله سبحانه أخبر عن مقدم حبيبه من العدم إلى القدم بروحه فالطاء طواف روحه وطوف سره في صحاري هويته قبل القبل حين خرج روحه من نور الغيب وطار في هواء الهوية لطلب الذات السرمدي ومشاهدة الصفات الأزلية حتى وصل بالحق إلى الحق، وطار في دائرة هوية الغيب فوجد الحق بالحق وعلم من الحق بالحق ما في الحق فصار مقدسًا بقدس الحق مطهرًا بطهارة الصنفة، وهو بذاته تعالى جعله معرفًا لخلقه صفاته وذاته هاديًا يهدي به عباده إليه بنعت المحبة والأسوة، كأنه قال يا طواف قفار الهوية في غيب الأزل ويا مطهرًا من الأكوان والمحدثان، يا هاديًا بنوري خلقي إليّ ما وطئ أحد على بساط هويتي أفضل منك، طويت لك تحت أقدام همتك صحارى الأزليات والأبديات حتى بلغ سرك سر هويتي بهوائي تهوى وتلطفت بلطفي هوى نجم همتك بعد ارتفاعها بي في هواء وحدانيتي على بساط ملكي وملكوتي فطاب بطيب وصالي يا طه، لأجل ذلك قسمت به بقولي: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [النجم:1] طوبى لمن اهتدى بهديك وطاب عيش من هوى طريقتك يا بدار أفق سماوات القدم ويا غواص قاموس الكرم طاشت العقول في إدراك مقاماتك، وهامت القلوب في أودية محبتك، وطارت الأرواح من حقائق إشاراتك. قال الواسطي: هو مستخرج من الطاهر الهادي أي: أنت طاهر بنا هادي

﴿مَا أَنزَلْنَا﴾ من مقام إرشادنا وتكميلنا ﴿عَلَيْكَ﴾ أيها المتوجهُ إلى السعادة الأبدية، المعرضُ عن الشقاوة ﴿الْقُرْآنَ﴾ الفرقانَ بين الهداية والضلالة، والسعادة والشقاوة ﴿لِتَشْقَى﴾ [طه:2] أي: لتكون شقيًا بنزوله بعدما كنت سعيدًا قبله كما توهمه الكفار.

بل ما أنزلناه ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ للسعادة العظمى لك ولمن تبعك، لا لكل أحدٍ منهم بل ﴿لِّمَن يَخْشَى﴾ [طه:3] من إنذاراته وتخويفاته، وامتثل بأوامره، واجتنب عن نواهيه؛ إذ أنزل القرآن عليك من عموم رحمتنا على كافة الخلق.

لذلك نزلناه ﴿تَنزِيلاً مِّمَّنْ﴾ أي: من اسمنا الذي بواسطته ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ أي: أوجدنا العالم السفلي ﴿وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ [طه:4] أي: العالم العلوي، وذلك الاسم هو ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الذي ظهر واستقر بالرحمة العامة ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: على عروش الذرائر، بحيث لا يخرج عن حيطة علمه ذرةٌ من الذرات، بل ﴿اسْتَوَى﴾[1] [طه:5]

إلينا.

وقال محمد بن عيسى الهاشمي: طوى عن سر محمد ﷺ الأكوان بما فيها وهدى إلى الاشتغال بمكونها.

وقال محمد بن علي الترمذي: طوبى لمن اهتدى بك وجعلك السبيل إلينا. وقال الأستاذ: «الطاء» إشارة إلى طهارة قلبه عن غيره، و«الهاء» إشارة إلى اهتداء قلبه إلى الله.

(1) قال المحقق روزبهان: يشير إلى أن عرشه جلال قدمه وأزلية ذاته وصفاته استوى بنفسه في علم العلم وغيب الغيب وهذا الاستواء قديم وهذا خبر عن تجبره وتكبره بنفسه في نفسه حين لا حين ولا حيث ولا أين ولا غير، وهكذا جميع الإحايين قبل الأكوان وبعد الأكوان وفي الأكوان إذا لأكوان والحدثان قاصرة عن حمل ذرة من كبرياء عظمته والأزمان مضمحلة عن حصر صفاته وأزليته وديموميته، وأيضًا إن الله سبحانه لما أراد إيجاد الكون خلق بظهور نور قدرته عالمًا وسماه العرش من نور شعشعاني وجعله موضع نور العقل البسيط وجعل العقل البسيط موضع فعله الذي يصدر من القدرة ومن ذلك الفعل عالم طلوع أنوار القدم عليه فإذا تجلى بذاته لصفاته ومن صفاته لفعله، ومن فعله للعقل البسيط ومن عقل البسيط لعالم العرش فصار كل ذرة من العرش مرآة يتجلى الحق منها للعالم والعالمين فتدر قطرات ديم الفعل من فيض أنوار الصفة والذات من عالم العرش إلى العالم والعالمين على النظام والتسرمد واتسام صبح الأزلية من إشراق شمس الألوهية على عالم العرش بهذه المثابة، وانتشر بر كنها في الأكوان والحدثان وهذا تحصيل علوم سر الاستواء، ويا عاقل أين العرش، وإن كان ألف ألف عرش من سطوات كبريائه التي لو برزت ذرة منها بنعت القهر في العالم لفنيت كلها قبل أن يرتد إليك طرفك فهو

على جميعها.

مستو بغير علة اعوجاج الحدثية بوصف قهر القدم على كل مخلوق والكل تحت قهر جبروته وإن كان عالم العرش أعظم ميادين تجلي استوائه هو خاص بتجلي الاستواء، والاستواء صفة خاصة لله منزه عن إدراك الأوهام ومقاييس العقول تعالى الله عن مماسة الحدثان وملاصقة الأكوان. وسئل مالك بن أنس: كيف الاستواء؟ قال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. وقال فارس: ليس على الكون من الله أثر ولا من الكون على الله أثر.

وقال ابن عطاء: الاستواء إظهار المقدرة لا مكان الذات فإذا جاوزنا من هذه المقالة فجرم العرش أعظم من كل جرم ولكن إذا استولى عليه قهر الربوبية كاد أن يذوب من صولته فأمسكه يد اللطف لتكون رفارف أرواح القدسية وبساتين عقول الملكوتية فسكن بلطف الله من الاضطراب من قهر الله، ثم صرف الحق عنه تلك الصولة لما علم ضعفه عن وارد الألوهية فطلب في ملكه وسلطانه عرشًا معنويًا روحانيًا ملكوتيًا رحمانيًا جبروتيًا، وذلك قلب العارف الصادق الذي خلقه الله من نور بهي صدر من تجلى صفة بهائه، وذلك عرش المعنى الذي من وسعه ببسط نور الأزلية فيه على مثابة من قدرة الحق أن لو كان العرش ما تحته يقع فيه يكون أقل من خردلة في فلاة، وذلك مشرق طلوع شمس الذات وقمر الصفات، فإذا غلب سلطانها عليه ظهر ضعفه تحت أثقال الألوهية فيبرز نور اللطف في قضائه فيبسطه بسطًا لا نهاية له ويصير مبسوطًا يبسط التجلي حتى يكون مستقيمًا متمكنًا في رؤية تجلي الحق فإذا صارت أنوار التجلي عليه بنعت الاستدامة ظهر علم سر الاستواء منه، وحاشا أن القلب حامل الذات والصفات هو بجلاله متنزه عن الورود على الحدثان لكن هو طور التجلي يحمل أثقال تجلي الحق بالحق لا بنفسه.

انظر إلى قول النبي ﷺ كيف قال حكاية عن الله ﷻ: «لم يسعني السماوات والأرض ويسعني قلب عبدي المؤمن». ويا عاقل كيف يحمله الحدث، وهو منزه عن الحلول الله، الله هو منزه أيضًا أن يكون هو محل الحوادث للقلب يحمله به؛ لأنه هو بذاته حامل القلب بالوصف والصفة.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء» هو مع الكل بالعلم والكل معه بالعلم والقدرة وهو منزه قائم بذاته تعالى الله عن كل وهم وخاطر.

وقال ابن عطاء: استوى لكل شيء؛ فليس شيء أقرب إليه من شيء. وقال بعضهم: استوى له السماوات والأرض وما فيهن بشرط العبودية. قال الأستاذ: عرشه في السماء معلوم وعرشه في الأرض قلوب أهل التوحيد فعرش السماء مطاف الملائكة، وعرش الأرض مطاف اللطائف، فأما عرش السماء، فالرحمن عليه استوى، وعرش القلوب؛ فالرحمن عليه استولى، وعرش السماء قبلة دعاء الخلق وعرش الأرض محل نظر الحق فشتان بين عرش وبين عرش، ثم مع هذه الآية وعقيبها جمع الله سبحانه علومه القديمة المحيطة بالحدثان من فوق العرش إلى ما في تحت الثرى.

إذ ﴿لَهُ﴾ الاستيلاءُ والإحاطةُ التامةُ على ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَ﴾ على ﴿مَا﴾ ظهر﴿فِي الأَرْضِ﴾ من الكائنات والفاسدات ﴿وَ﴾ كذا على ﴿مَا﴾ ظهر ﴿بَيْنَهُمَا﴾ من الأمور الكائنة فيها ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَا﴾ هو كائنٌ وسيكون ﴿تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه:6].

هذا باعتبار ظهوره واستيلائه على الآفاق الخارجة عنك ﴿وَ﴾ أما ظهوره واستيلاؤه على نفسك، فإنه يستولي على ذاتك وأفعالك وأقوالك؛ بحيث ﴿إِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ﴾ القولَ بالجهر منك، الذي تعلمه أنت أيضًا وغيرك، بل ﴿السِّرَّ﴾ الذي لا يعلمه غيرك ﴿وَأَخْفَى﴾ [طه:7] من السرِ الذي لا تعلمه أنت أيضًا من مقتضيات استعدادك قبل الخطور ببالك.

وإذا كان الحق محيطًا ومستوليًا على عروش ما ظهر وما بطن، فلا يكون الموجود الثابت إلا ﴿اللهُ﴾ أي: مسمى هذا الاسم الجامع جميع مراتب العالم بحيث لا يخرج عن حيطته شيء أصلاً؛ إذ ﴿لَا إِلَهَ﴾ أي: لا موجودَ ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أي: هذا المسمى الذي لا تعدد فيه أصلاً، فيكون أحدًا صمدًا فردًا وترًا، لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا.

غايةُ ما في الباب أن ﴿لَهُ﴾ أي: لهذا المسمى ﴿الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه:8] الكليةُ التي جزئياتها لا تُعدُّ ولا تُحصى، وباختلاف الأسماء، اختلفت الظهورات والتجليات عن المسمى.

وكما نبهناك يا أكملَ الرسل على ظهوراتنا في الكائنات مجملاً، نبُهناك عليها مفصلاً ﴿وَ﴾ ذلك أنه ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ أي: قد ثبت وتحقق عندك الكليم ﴿حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه:9] أي: قصةُ انكشافه من النار التي احتاج إليها هو وأهله في الليلة الشاتية المظلمة، وقت ﴿إِذْ رَأَى نَارًا﴾ مطلوبةً لدفع البرودة، ولوجدان الطريق في الظلمة ﴿فَقَالَ لأَهْلِهِ﴾ المحتاجين إليها في تلك الليلة: ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي﴾ اوانس عندها مع إنسانٍ استخبره عن الطريق، وحين رجوعي إليكم ﴿آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ تصطلون به ﴿أَوْ﴾ أتخذ منها سراجًا ﴿أَجِدُ عَلَى النَّارِ﴾ أي: مع السراج المسرجة منها ﴿هُدًى﴾ [طه:10] طريقًا موصلاً إلى مطلوبنا.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ مسرعًا؛ ليرجع إليهم دفعةً ﴿نُودِيَ﴾ من جانب الشجرة الموقدة ليقبل إليها فينكشف منها ﴿يَا مُوسَى﴾ [طه:11] المتحير في بيداء الطلب: اطلبني من هذه الشجرة الموقدة، ولا تستبعد ظهوري فيها حتى أنكشف لك منها.

﴿إِنِّي﴾ وإن ظهرتُ على هذه الصورة المطلوبة لك هذا ﴿أَنَا رَبُّكَ﴾ أي: مطلوبك الحقيقي الذي ربيتك بأنواع اللطف والكرم، وابتليتك بأنواع البلاء في طريق المجاهدة؛ لتتوجه إليَّ فتعرفني، فالآن ارتفعت الحجب والقيود، وتحققتَ بمقام الكشف والشهود ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾[1] فاسترح عن الطلب بعد وجدان الربِّ، وتمكّن في مقعد الصدق ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ عن رذائل الأغيار ﴿طُوًى﴾ [طه:12] أي: طويت التوجُّه إلى الغير، ولم يبقَ لك احتياج إلى الاستكمال.

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [طه: 13 – 37]

﴿وَ﴾ بعد وصولك إلى مقام الكشف والشهود ﴿أَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ أي: اصطفيتك من المكاشفين من أرباب الولاية للتكميل والرسالة على الناس الناسين التوجه إلى بحر الحقيقة، فعليك التوجه إلى الإهداء، والتجنب عن الميل إلى الهوى ﴿فَاسْتَمِعْ﴾ أي: اقتصر في تكميلك ورسالتك ﴿لِمَا يُوحَىٰ﴾ [طه:13] إليك من مقام عظيم جودنا، ولا

(1) كما يفعل بحضرات الملوك أدباً، ولتنالك بركتها ولتكون مهيأً للإقامة غير ملتفت إلى ما وراءك من الأهل والولد، ولهذا قال أهل العبارة : النعل يدل على الولد. نظم الدرر (5/ 238).

تلتفت إلى الأهواء الفاسدة، حتى لا تضل أنت، ولا تضلهم عن السبيل، فبلِّغ إلى الناس نيابة عني: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾ الواحد الأحد المحيط بجميع مراتب الأسماء ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ أي: لا جامع لجميع المراتب ﴿إِلَّا أَنَا﴾ الجامعُ لجميعها، المستحق للإطاعة والانقياد ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ أنت حق عبادتي؛ أي: أحسن الأدب معي، وتخلّق بأخلاقي ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أي: دوام الميل بجميع الأعضاء والجوارح ﴿لِذِكْرِي﴾[1] [طه:14] أي: توجه نحوي بجميع أعضائك وجوارحك لتذكرَني بها وتشكرَني بجميعها، حتى أنكشف لك من كلٍ منها بحيث كنتُ سمعك وبصرك ويدك ورجلك، إلى غير ذلك من جوارحك حتى قامت قيامتُك الكبرى، وقمتَ بين يدي المولى، وتمكنتَ في جنة المأوى، عند سدرة المنتهى، التي يرتقي وينتهي إليها عروجك في الصعود والارتقاء.

ثم قال سبحانه تعليمًا لعباده، وحثًا لهم على طلب الانكشاف التام: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ﴾ أي: ساعة الانكشاف التام الذي لم يبقَ معه الطلب كانكشافك يا موسى ﴿آتِيَةٌ﴾ حاصلةٌ لكل أحدٍ من الناس دائمًا في كل آنٍ، لكن ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي: أخفي ظهورها لهم ﴿لِتُجْزَىٰ﴾ أي: لتتمكن ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ بمرتبةٍ من المراتب الإلهية ﴿بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:15] أي: بسبب ما تجتهد فيه، وتكتسب من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي الجارية على ألسنة الرسل؛ لئلا يبطل سر التكليف والتشريع.

وإذا كان الأمر كذلك ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ أي: فلا يصرفنك عن الأمر بالانكشاف التام إعراضُ ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ تقليدًا، حتى يطلبها تحقيقًا، بل أنكرَها وأعرضَ عنها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ المضلةُ في تيه الغفلة والحرمان ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ [طه:16] فتهلك بداء الجهل والخذلان.

وإذ اخترناك للرسالة العامة، وهبنا لك شاهدًا أصدق على دعواك الرسالة؛ لذلك سألناك أولاً بقولنا ﴿وَمَا تِلْكَ﴾ الخشبةُ التي حملتَها ﴿بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾[2] [طه:17]

---

(1) إقامتها من غير ملاحظة مجريها ومنشيها تورث الإعجاب، وإذا قام العبد صلاته على نعت الشهود، والتحقق بأن مجريها غيره كانت الصلاة لهذا فتح باب المواصلة والوقوف في محل النجوى والتحقق بخصائص القرب والزلفى.

(2) وأيةُ نعمةٍ أو مأربٍ أو منفعةٍ تكون أعظمَ مِنْ أنْ تقولَ لي : وما تلك؟ ويقال قال الحقُّ - بعد ما عدّد موسى وجوه الآياتِ وصنوفَ انتفاعِه بها - ولَكَ يا موسى فيها أشياءُ أخرى أنت غافلٌ عنها وهي انقلابُها حيةً ، وفي ذلك لك معجزةٌ وبرهانٌ صِدْقٍ .

المستكشفُ على حقائق الأشياء؛ يعني: هل تعرف فوائدها وما تترتب عليها، وما تؤول هي عليها، أم لا؟.

﴿قَالَ﴾ موسى على مقتضى علمه بها: ﴿هِيَ﴾ أي: هذه الخشبة ﴿عَصَايَ﴾ أستعينُ بها في بعض الأمور، وإذا عييتُ وتعبتُ ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَ﴾ إذا احتجت إلى هشِّ الورق، وإسقاطه من الشجر لرعي الغنم ﴿أَهُشُّ﴾ وأسقط ﴿بِهَا﴾ ليكون علفًا ﴿عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا﴾ غير ذلك ﴿مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه:18] من الاستظلال، ودفع الهوام، ومقاتلة العدو إلى غير ذلك.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ [طه:19] حتى تشهد آيتنا الكبرى ﴿فَأَلْقَاهَا﴾ امتثالاً للأمر الإلهي ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه:20] تمشي علي بطنها كسائر الحيات، فخاف موسى منها، وتضيق صدره من قلة رسوخه وعدم تمرنه بابتلاءات الله واختباراته؛ لأنه كان في أوائل حاله.

﴿قَالَ﴾ سبحانه بعدما ظهرت أمارات الوجل منه: ﴿خُذْهَا﴾ هي عصاك يا موسى ﴿وَلاَ تَخَفْ﴾ من صورتها الحادثة، فإنا من كمال قدرتنا ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا﴾ وصورتها ﴿الأُولَى﴾ [طه:21] التي هي في يدك، استعنتَ بها في بعض الأمور، وإنما بدلنا صورتها لتتنبه على أن لنا القدرة على إحياء الجمادات التي هي أبعد بمراحل عن إهداء الضالين من الأحياء.

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ ذات شعاعٍ محيّرٍ للعقول والأبصار ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي: من غير حجاب يسترها وينقص من نورها؛ لتكون ﴿آيَةً أُخْرَى﴾ [طه:22] لك أجلى من الآية السابقة.

وإنما أريناك الآيات قبل إرسالك إلى من أرسلناك ﴿لِنُرِيَكَ﴾ أولاً ﴿مِنْ آيَاتِنَا الكُبْرَى﴾ [طه:23] فيطمئن بها قلبك، ويقوى ظهرك بإمدادنا لك في رسالتك، وتأييدنا إياك فيها.

فإذا اطمئن قلبك وقوي ظهرك ﴿اذْهَبْ﴾ أيها الهادي بإهدائنا وتوفيقنا نيابةً عنا

ويقال جميعُ ما عَدَّدَ من المنافع في العصا كان من قِبَلِ الله، فكيف له أن ينسبها ويضيفها إلى نفسه. تفسير القشيري (4/ 493).

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ الضال المستغرق في بحر العتو والعناد ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه:24] أي: ظهر علينا مستكبرًا بقوله للضعفة: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات:24] فبلّغ إنذاراتنا وتخويفاتنا، وزد عليها الدلائل العقلية والنقلية والكشفية؛ لعله يتنبه بها، وينزجر بسببها عما عليه من العتو والعناد.

وبعدما سمع موسى خطاب الله إياه ﴿قَالَ﴾ مشمِّرَ الذيل إلى الذهاب طالبًا التوفيق من رب الأرباب: ﴿رَبِّ﴾ يا من ربَّاني بأنواع اللطف والكرم، وأعطاني الآيتين الكريمتين العظيمتين؛ لتكونا شاهدين على صدقي في دعواي ﴿اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه:25] أي: وسِّع قلبي؛ بحيث لا يخطر ببالي خوفُ من العدو أصلاً.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَسِّرْ﴾ وسهِّل ﴿لِي أَمْرِي﴾ [طه:26] هذا؛ بحيث لا أضطربُ في تبليغه، ولا أستوحشُ من جاه فرعون وشوكته.

﴿وَ﴾ إذا شرعْت لأداء الرسالة ﴿احْلُلْ﴾ وارفع لكنةً عارضةً من مهابة العدو، سيما هذا الطاغي ﴿عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ [طه:27] كي ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[1] [طه:28] وغرضي منها.

﴿وَ﴾ إذا أوقعتني لأداء رسالتك يا ربي ﴿اجْعَل لِّي وَزِيرًا﴾ ظهيرًا، يصدِّقني في أمري، ويعينني عليه، ولا تجعل ظهيري من الأجانب؛ لقلة شفقتهم عليَّ، وعطفهم بي، بل اجعله ﴿مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه:29] وأقربائي أولى، وهو ﴿هَارُونَ﴾ إذ هو ﴿أَخِي﴾ [طه:30] الأكبر بمنزلة الأب في الشفقة، وإذا جعلتَ هارون وزيري ﴿اشْدُدْ بِهِ﴾ أي: أقوِّ

(1) أي: لساني لسان الحدث، ويدله بلسان «قدوسي سبوحي صمداني رباني» حتى أطيق أن أتكلم به معك كما تتكلم معي، وإذا كان لساني لسانك أكون قادرًا بأن أخبر عنك وصفك كما هو، ولو أخبرهم عنك بلساني كيف أخبرهم، والعبارة عنك بغير لساني القدم مستحيلة.
وقال الحسين: لما أزال الحق عنه التوقف وجاء إلى الله بالله ولم تبق عليه باقية بما يمتنع أقيم مقام المواجهة، وأطلق مصطنيه لسانه نظر إلى أليق الأحوال به فسأل مليكه شرح صدره ليتسع مقام المواجهة والمخاطبة. ثم نظر إلى أليق الأحوال به فإذا هو تيسر أمره فنال ذلك على التمام ليترقى به حاله إلى أرفع المقام وهو المجيء إلى الله بالله بأن من وصل إليه لا يعترض عليه عارضة بحال، ثم نظر إلى أليق الأحوال به فسأل حل العقدة من لسانه ليكون إذ ذاك مالكًا لنطقه وبيانه؛ فلما تمت له هذه الأحوال صلح للمجيء إلى الله وكان أمن وفي المواقيت حقها غابت عنه الأحوال ولم يرها وذهب عن غيبه وظهوره وما عداهما إلا كان للحق منه ومعه حتى يحقق.

وأحكم بسببه يا معيني ومغيثي ﴿أَزْرِي﴾ [طه:31] أي: ظهري ﴿وَ﴾ لا يتحقق تقويته على حقيقته إلا بعد اشتراك معي في أداء الرسالة ﴿أَشْرِكْهُ﴾ يا ربي ﴿فِي أَمْرِي﴾ [طه: 32] ورسالتي، بأن تنكشف عليه كما انكشفت لي؛ ليكون من المكاشفين، الموقنين بوحدانيتك يا ربي، الممتثلين بأوامرك، المجتنبين عن نواهيك.

وإنما سألتك يا ربي الإعانة بأخي ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ﴾ ونقدسَ ذاتَك عما لا يليق بشأنك تقديسًا ﴿كَثِيرًا﴾ [طه:33].

﴿وَنَذْكُرَكَ﴾ ونناجيك بأسمائك الحسنى وصفاتك العظمى ذكرًا ﴿كَثِيرًا﴾ [طه: 34].

وكيف لا نسبحك ونَذْكُرك ﴿إِنَّكَ﴾ بذاتك وأوصافك وأسماءك ﴿كُنتَ﴾ محيطًا ﴿بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه:35] بجميع أحوالنا.

﴿قَالَ﴾ تعالى رفقًا له وامتنانًا عليه؛ لرجوعه إليه بالكلية: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ أي: قد حصل لك جميع مطالبك؛ لتوجهك علينا، ورجوعك إلينا ﴿يَا مُوسَى﴾ [طه: 36].

كيف ﴿وَلَقَدْ﴾ أنعمنا عليك حين لا ترقّبِ لك ولا شعورَ بأن ﴿مَنَنَّا عَلَيْكَ﴾ من وفور رحمتنا وشفقتنا لك ﴿مَرَّةً أُخْرَى﴾ [طه:37].

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾

إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾﴾ [طه: 38 – 51].

وقت ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا﴾ وألهمنا ﴿إِلَى﴾ قلب ﴿أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ [طه:38] وما يُلهم عند نزول البلاء لنجاة الأحياء وخلاصهم عن ورطة الهلاك، وذلك حين إحاطة شَرَطة فرعون المأمورين بقتل أبناء بني إسرائيل على بيت أمك؛ ليقتلوك ظلمًا، فاضطربت أمك، وآيست من حياتك.

فألهمناها حينئذٍ: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ﴾ واطرحيه ﴿فِي التَّابُوتِ﴾ المصنوع من الخشب فاتَّخذتْ تابوتًا ووضعتْك فيها، ثم ألهمناها ثانيًا إذا وضعتِ فيه، توكلي على خالقه وحافظه وفوضي أمره إليه ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ يعني: النيل، ولا تخافي من غرقة ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ ألبتة؛ إذ من عادة الماء إلقاءُ ما فيه إلى جانبه، فإذا قرب من الساحل ورآه الناس ﴿يَأْخُذْهُ﴾ ويأمر بأخذه ﴿عَدُوٌّ لِّي﴾ يعني: فرعون المفرط بدعوى الإلهية لنفسه ﴿وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ يعني: الوليد، أو هو من أبناء بني إسرائيل، وهو عدوٌ لهم بل هو سبب عداوة جميعهم في الحقيقة.

﴿وَ﴾ بعدما أمر عدوك بأخذك والتقاطك من البحر ﴿أَلْقَيْتُ﴾ من كمال قدرتي ووفور حولي وقوتي في نفس فرعون وزوجته آسية ـ رضي الله عنها ـ وأهل بيته ﴿عَلَيْكَ﴾ أي: على حفظِك وحضانتِك يا موسى ﴿مَحَبَّةً﴾ في قلوبهم مع شدة عداوتهم معك، وكانت تلك المحبة صادرةُ ﴿مِّنِّي﴾ فظاهرهم حفظًا لك وإظهارًا لكمال قدرتي بأن أربيك في يد عدوك؛ لتكون سببًا لهلاكه ﴿وَ﴾ إنما ألقيتُ في قلوبهم المحبة مني ﴿لِتُصْنَعَ﴾ ولتربى أنت وإن كنت بيدَي العدو ظاهرًا ﴿عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:39] أي: أعيان أوصافي وأسمائي؛ إذ الكل مظاهر ذاتي وأوصافي وأسمائي.

ومع إلقاء كمال المحبة والمودة مني في قلوبهم لحفظك وحضانتك، راعيتُ جانب أمك ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾ مريم حين طلبوا لك مرضعةً بعدما أخرجوك من البحر ﴿فَتَقُولُ﴾ لهم على سبيل الوساطة والدلالة: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ﴾ ويرضعه مع أنهم أحضروا كثيرًا من مرضعات البلد عندك لم تمص أنت ثديهن؛ إذ حرمنا عليك المراضع إنجازًا لما وعدنا على أمك، فقبلوا منها قولها، فطلبوا أمك، فأرضعتك فاستطابوا وأجروها لإرضاعك.

وبالجملة: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ﴾ امتنانًا لك بأن تحفظ أمك، ولأمك أيضا ﴿كَيْ

﴿تَقَرَّ﴾ وتنوّر ﴿عَيْنُهَا﴾[1] بمشاهدتك بعدما ذهب نور عينها بمفارقتك.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تَحْزَنَ﴾ يا موسى في حالٍ من الأحوال، فأنا رقيبك من جميع ما يضرك ويؤذيك، ومعينك وناصرك على جميع ما أمرتك ﴿وَ﴾ اذكر أيضًا امتنانًا عليك وتذكر أيضًا وقت إذ ﴿قَتَلْتَ نَفْسًا﴾ أي: شخصًا من آل فرعون، فهمُّوا بقتلك قصاصًا، وخفتَ منهم ومن العقوبة الأخروية أيضًا؛ لأنك قتلت نفسًا بلا رخصةٍ شرعيةٍ، وتحزنتَ لشناعة فعلك وخوف عدوك حزنًا شديدًا ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ وأزلنا حزنك الأخرويَ بقبول توبتك ورجوعك عن فعلك نادمًا مخلصًا، والدنيويَ بإخراجك عن ديارهم وإبعادك عنهم.

﴿وَفَتَنَّاكَ﴾ وابتليناك أيضًا بعدما أخرجناك من بينهم ﴿فُتُونًا﴾ أي: ابتلاءً واختبارًا كثيرًا من الجوع والعطش وضلال الطريق ووحشة الغربة وكربة الوحدة وضيق الصدر والكآبة وتحمل مشاق السفر ومتاعبه، حتى تستعد لقبول الإرشاد والتكميل.

ثم بعدما اختبرناك بأمثال هذه الشدائد، أوصلناك وهديناك إلى مَدْيَن للاسترشاد والاستكمال ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ﴾ أي: ثمانيَ أو عشرَ سنين ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ عند نبينا

---

(1) قال الله سبحانه: ﴿فَرَجَعْنَاكَ﴾ [طه:40] يا موسى: ﴿إِلَى أُمِّكَ﴾ [طه:40] أي: إلى التراب الذي حقيقته المسكنة، والسكون، والسكوت، وكذلك رددناك يا موسيّ القلب إلى أصلك الذي هو الروح، وشأنه الفناء في المعرفة، والانقطاع عن تعلُّقات الذات والصفة، وقوله ﷻ: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، قرى العين هنا إشارة إلى قرار الذات، فإن الأصل لا يستقر إلا بجذب الفرع إليه، وكذا الفرع لا يزال يبكي إلى أن يدخل تحت ذيل الأصل، فالكل قالبًا وقلبًا ينجذب إلى ما يشاكله.

وفيه إشارة إلى أن الإقبار المفهوم من قوله تعالى: فأقبره رمز إلى دخول الفرع في الأصل، وحصول الجمع بعد الفرق، وأي لذّة أعظم منها، فلا تخف من التراب، وسره الذي هو الفناء، فإن انضمامك إليه قرير عين لك، وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ تأسيس في صورة التأكيد، فإن قرار العين إشارة إلى سكون القالب، وعدم الحزن إشارة إلى راحة الروح، فالحزن من صفات الروح؛ وهو من المقامات العالية في الحقيقة، وعليه جرى الأنبياء والأولياء، فإن قلت: فإذا كان الحزن من المقامات العالية، فما معنى نفيه؟ قلت: إن الإنسان الكامل محزون وغير محزون، أمّا عدم حزنه: فلأنه لم يفت عنه شيء من المقامات؛ بل قد وصل إلى ذُروة الحالات والكمالات، وأمّا الحزن: فلأنه من أحكام البشرية، والروح في ذلك تابع للقالب، فإن القالب له حجابية في الجمل، وإن تلطف فوق الغاية؛ ولذا ترى أكمل الناس في كل عصر محترقًا أشدُّ الاحتراق مع أنه في عين الوصل لا يزال يشرب من كأس الجمع العذاب البارد. مرآة الحقائق للشيخ حقي (1/275) بتحقيقنا.

وخليفتنا الكامل المكمل . وهو شعيب ﷺ . لتسترشد منه، وتستكمل من شرف صحبته، وتتخلق بأخلاقه ﴿ثُمَّ﴾ بعد لُبثِك فيهم مدةً، واستكمالك من الرشد الكامل ﴿جِئْتَ عَلَى﴾ وطنك المألوف علَى ﴿قَدَرٍ﴾ أي: مقدارٍ عظيم من الكشف والشهود وفوق ما يحصل بالكسب والاجتهاد بل من لدنا ﴿يَا مُوسَى﴾ [طه:40] تفضلاً وإحسانًا.

وكيف لا يكون كذلك ﴿وَ﴾ قد ﴿اصْطَنَعْتُكَ﴾ أي: اجتبيتك وانتخبتك من بين المكاشفين ﴿لِنَفْسِي﴾ [طه:41] لتكون خليفتي ونائبي ومولي أمري وحامل أسراري.

وإذا اخترتك للرسالة: ﴿اذْهَبْ أَنتَ﴾ أصالةً ﴿وَأَخُوكَ﴾ تبعًا لك ﴿بِآيَاتِي﴾ ومعجزاتي الدالة على تصديقي لكما وتقويتي لرسالتكما ﴿وَلاَ تَنِيَا﴾ أي: لا تفترا أو لا تضعفا ﴿فِي﴾ تبليغ ﴿ذِكْرِي﴾ [طه:42] المشتمل على الأوامر والنواهي اغترارًا وخوفًا.

بل ﴿اذْهَبَا﴾ بأمرنا مسرعين ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ المبالغ في التجبر والتكبر مِنْ غير مبالاة والتفاتٍ بعظمته وشوكته ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه:43] علينا، ولا عبرة بعظمة الطغاة.

وإذا ذهبتما إليه: ﴿فَقُولا لَهُ﴾ تلطفًا ورفقًا كما هو دأب المرسلين ﴿قَوْلاً لَّيِّنًا﴾ رجاء أن يلين قلبه عن صلابة الفساد، وبعد الأداء على وجه التليين والتلطف ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ الفطرة الأصلية التي فطر الناس عليها، فصدقكما وآمن بدينكما ﴿أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:44] من نزول العذاب بدعائكما.

﴿قَالا﴾ خوفًا من فرعون وأعوانه على مقتضى بشريتهما ملتجئين إلينا: ﴿رَبَّنَا﴾ وإن ربيتنا بحولك وقوتك وأيدتَنا بآياتك ﴿إِنَّنَا﴾ من ضعف بشريتنا ﴿نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ بالعقوبة والقتل ﴿أَوْ أَن يَطْغَى﴾ [طه:45] لك بما لا يليق بجنابك.

﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿لَا تَخَافَا﴾ من إفراطه وطغيانه ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ عند أدائكما الرسالة ﴿أَسْمَعُ﴾ أقواله ﴿وَأَرَى﴾ [طه:46] أفعاله، فإذا أفرط عليكما أقدر على منعه وزجره.

﴿فَأْتِيَاهُ﴾ مجترئين عليه من غير مبالاةٍ بعظمته وشوكته ﴿فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾ الذي رباك بالعزة وأنواعِ الكرامة، وأبقاك بها إمهالاً لك إلى أن تتكبر عليه باستكبارك على عباده، وإذا ظهر كبرك الآن أرسَلْنَا إليك أيها المتكبر المتجبر؛ لترسل معنا خواص عباده الذين عندك وتحت قهرك وغلبتك إنجاءً لهم من استكبارك وطغيانك عليهم.

ومتى سمعت ما بلغناك بإذن الله ووحيه ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ المستوحشين عنك بظلمك وقهرك؛ لينجوا من استيلائك واستعلائك عليهم ﴿وَ﴾ إذ أرسلنا الله لإنجائهم وتخليصهم من عذابك ﴿لَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ بعد أدائنا الرسالة إليك لأنا ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ﴾ ساطعةٍ ومعجزةٍ باهرةٍ ظاهرةٍ إنها ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ الذي هو رب العالمين.

إن تأملتَ فيها حق التأملِ والتدبر تركتَ العتو والعناد، وآمنتَ بتوحيده ﴿وَالسَّلَامُ﴾ أي: الأمن والسلامة من الله ﴿عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه:47] وتأملَ الآيات الكبرى وتركَ الهوى، ومن اتبع الهوىِ فقد ضل وغوى، واستحق عذاب الآخرة والأولى.

واعلموا أيها الهالكون في تيه الغفلة والضلال ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا﴾ من عندنا ربنا ﴿أَنَّ الْعَذَابَ﴾ الإلهي نازلُ ﴿عَلَى﴾ كل ﴿مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه:48] أي: كذّب الحق وأعرض عن أوامره ونواهيه، فلما رأى فرعون جرأتهما وسمع قولهما ﴿قَالَ﴾ لهما تهكمًا واستهزاء: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ الذي رباكما وأرسلكما لإنجاء بني إسرائيل من عذابي، مع أني لم أعرف لك ربًا ربَّاك غيري ﴿يَا مُوسَى﴾ [طه:49] المقتدى في أمر الرسالة.

﴿قَالَ﴾ له موسى على وجه التنبيه رجاء أن ينتبه: ﴿رَبُّنَا الَّذِي﴾ أظهر الأشياء من العدم ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ أي: مرتبته في النشأة الأولى ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:50] الكلَّ بالرجوع إليه والانقياد له في النشأة الأخرى؛ إذ منه الابتداء وإليه الانتهاء.

﴿قَالَ﴾ فرعون: إذا كان الكل من عند ربك ويعلمك أحواله ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه:51] أي: ما أحوال الأمم الماضية، هل هم مهتدون بمتابعة مثلك أم هم ضالون بمتابعة الهوى مثلي على زعمك؟!.

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا

بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه: 52 – 64].

﴿قَالَ﴾ موسى: لا أعرف حالهم من الهداية والضلالة؛ إذ ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ لا يوحي إليَّ من أحوالهم شيئًا بل أحوالهُم ثابتةُ عنده سبحانه ﴿فِي كِتَابٍ﴾ هو حضرة علمه الأزلي على التفصيل؛ بحيث ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾ أي: لا يغيب عن أحوالهم شيءٌ من علمه سبحانه ﴿وَلَا يَنسَى﴾ [طه:52] ربي شيئًا من معلوماته؛ إذ علمه حضوريٌ بالنسبة إلى جميع الأشياء، والعلمُ الحضوريُّ لا يجري فيه الغيب والنسيان.

ثم قال موسى دفعًا للاثنينية الناشئة من الإضافة: ربنا هو ربكم ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا﴾ مكانًا تستقرون فيه وتستريحون ﴿وَسَلَكَ﴾ أي: قدَّر ﴿لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ مختلفةً بعضها جبلاً ترتحلون إليه في الصيف، وبعضها سهلاً ترجعون إليه في الشتاء، حتى يكمل استراحتكم فيها، ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَنزَلَ﴾ لكم لتكميل استراحتكم أيضًا ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: عالم الأسباب ﴿مَاءً﴾ لإحياء الأرض الميتة ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ أي: أنشأنا وأنبتنا ﴿بِهِ﴾ أي: بسبب الماء فيها ﴿أَزْوَاجًا﴾ وأصنافًا ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه:53] مختلفةٍ؛ ليكون مفرّجًا لغمومكم مقويًا لنفوسكم.

وإذا احتجتم إلى الغذاء ﴿كُلُوا﴾ منها؛ حيث شئتم رغدًا ﴿وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ التي تستريحون بسببها من أكلها وحملها وركوبها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الجَعْل والإنزال والإخراج ﴿لآيَاتٍ﴾ دلائلَ واضحاتٍ على قدرتنا واختيارنا ﴿لأُوْلِي النُّهَى﴾[1] [طه:54] الناهين

---

(1) أي: إن في ذلك التقدير رسالات ودلالات لذوي البصائر أنها خلقت لأجلهم؛ لأنهم كانوا أهل المعرفة، وخلقت المخلوقات فجاء ﷺ لخلق المعارف كما قال في الحديث الرباني: «كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف»، وفيه معنى آخر وهو: إن في ذلك الذي مرَّ

عقولهم عن إسناد الأمور إلى الأسباب بل يسندونها إلى مُسَبِّبها أولاً وبالذات.

وإذا تأملتم في بدائع مصنوعاتنا وغرائب مخترعاتنا على وجه الأرض جزمتم أنا ﴿مِنْهَا﴾ أي: من الأرض ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ وأوجدناكم بقدرتنا واختيارنا إيجاد النبات منها وقت الربيع ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أيضًا بالآجال المقدرة لانقضاء حياتكم، إفناء النبات في أيام الخريف ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ للحشر والعرض في يوم الجزاء ﴿تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: 55].

﴿وَ﴾ مع أمرنا لموسى وأخيه المرسلَين إليه بتليين القول، والتنبيه بدلائل الآفاق والأنفس ﴿لَقَدْ أَرَيْنَاهُ﴾ تحقيقًا وتأكيدًا؛ لئلا يبقى معنا جداله، حين أخذنا بظلمه في وقت الجزاء، مع علمنا بأنه من الهالكين في بيداء البُعد والعناد ﴿آيَاتِنَا﴾ الدالة على صدق موسى المرسَل ﴿كُلَّهَا﴾ متعاقبة مترادفة، وهي: العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم والسنين والطمس ﴿فَكَذَّبَ﴾ بجميعها ﴿وَأَبَى﴾ [طه: 56] فامتنع عن تصديق شيءٍ منها، بل نسب الكل إلى السحر والشعبذة.

﴿قَالَ﴾ اغترارًا بعلو شأنه ورفعة مكانه، مستفهمًا على وجه التهكم والإنكار: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ متمنيًا لرئاستنا مع غاية حقارتك وضعفك ﴿لِتُخْرِجَنَا﴾ مع كمال عظمتنا وقوتنا ﴿مِنْ أَرْضِنَا﴾ التي استقررنا عليها زمانًا طويلاً ﴿بِسِحْرِكَ﴾ الذي تعلمت من شياطين الأمة في بلاد الغربة ﴿يَا مُوسَى﴾ [طه:57] المتمني محالاً، ولولا خشيتي من اشتهار عجزي من دلائلك وأباطيلك لقتلك ألبتة فالزم مكانك.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ﴾ من أنواع السحر كامل من سحرك لا من نوعٍ آخر بل من ﴿مِثْلِهِ﴾ أي: مثل سحرك كاملُ منه، قُمْ من عندي وتأمل في أمرك؛ إن شئتَ تُبْ من هذياناتك وفضولك وارجع إليّ بالاستغفار حتى أغفر زلتك، وإن شئتَ ﴿فَاجْعَلْ﴾ أي: عيِّن وقتًا من الأوقات؛ ليكون ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾ ثم عين ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ [طه:58] أي: مسوى لا حائلَ فيه بحيث يرى كل أحد ما يجري بيننا حتى تفتضح على رءوس الأشهاد.

ذكره ومن السماوات والأرض وما بينهما لآيات بأن مظهر صفات لطف الحق ومظهر صفات قهره، فإنهم يشاهدون فيه جمال لطفه وجلال قهره ستر الله سترًا بستر وإضمارًا بإضماره.

﴿قَالَ﴾ موسى: إن معي ربي سيقويني لا أخاف من معارضتك بالسحر وتعيين موعد إتيانك، بل ﴿مَوْعِدُكُمْ﴾ للمعارضة مع المعجزة ﴿يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ أي: يوم العيد؟ إذ يجتمع فيه الأقاصي والأداني ﴿وَ﴾ لا يكون وقت تفرقهم إلى بيوتهم ﴿أَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه:59] أي: في وقت الضحوة المعدة لإظهار الزينة، ليظهر كل منهم على صاحبه زينةً؛ ليكون إعجازي لك أبعد من أن يرتاب فيه أحد.

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ﴾ وانصرف عن مكالمة موسى استكبارًا ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أي: أمر بجميع سَحَرةِ مملكته ليُرِيَ القاصرين أن ما جاء به موسى من جنس السحر ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ [طه:60] الموعد المعين مع ملئه وسَحَرَتِه.

وبعدما حضروا الموعد ﴿قَالَ لَهُم﴾ أي: للسحرة ﴿مُوسَى﴾ على مقتضى شفقة النبوة أو بإلقاء الله إياه بطريق الإلهام كلامًا خاليًا عن الميل إلى الخصومة إمحاضًا للنصح: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أي: ويلٌ لكم أيها العقلاء التاركون طريقَ العقل بمتابعة هذا الطاغي ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ بأن أفعاله مما يعارَض بالسحر والشعوذة؛ لأن ما جئتُ به من الآيات مما آتاني الله من فضله، وإن افتريتم على الله ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ أي: يهلككم ويستأصلكم ﴿بِعَذَابٍ﴾ نازلٍ من قهره ﴿وَقَدْ﴾ تحقق عندكم أيها العقلاء أنه ﴿خَابَ﴾ خيبةً أبديةً ﴿مَنِ افْتَرَى﴾ [طه:61] على الله بما لا يليق بذاته من إبطال قدرته أو دعوى المعارضة معه.

فإذا سمع السحرة من موسى قوله هذا، وتأملوا فيه تأملاً صادقًا، وجدوه صادرًا عن محض الحكمة والفطانة، فلذلك تأثروا من قوله تأثرًا عظيمًا ﴿فَتَنَازَعُوا﴾ وتشاوروا ﴿أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ بأن أمثال هذا الكلام لا يصدر إلا من المؤيِّد من عند الله، المستظهِر به سبحانه، ما يشبه كلام السحرة المعارضين، فمآل كل منهم في نفسه إلى تصديقه ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ [طه:62] أي: مناجاتهم في أنفسهم من فرعون وملئه، فتمكن فرعون وملئه في معرض المعارضة وقابلوا السحرة لممانعتهما.

﴿قَالُوا﴾ أي: فرعون وأشرافهم للسحرة تقويةً لهم في أمرهم: ﴿إِنْ هَذَانِ﴾ الرجلان الحقيران ﴿لَسَاحِرَانِ﴾ يدّعيان الرسالة من ربهما الموهوم ترويجًا لسحرهما، وبعد الترويج ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ المألوفة ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ أي: بمجرد سحرهما لا من أمرٍ سماويٍ كما زعما، وبعد إخراجكم من أرضكم يريدان الاستقرار والاستيلاء على عموم ملك العمالقة ﴿وَيَذْهَبَا﴾ بعد التقرر والتمكن ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ

﴿الْمُثْلَى﴾ [طه:63] أي: عادتكم العظمى ومرتبتكم العليا.

وبالجملة: يريدان أن يجعلا أمرنا وأمر بني إسرائيل بالعكس؛ ليكون لهم الكبرياء ولنا المذلة والهوان، بعكس ما كان من سالف الزمان.

وإذا سمعتم نُبَذًا من مقاصدهما ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أي: هيئوا جميع أسباب سحركم؛ بحيث لا تحتاجون لدى الحاجة إلى شيءٍ من أدواته ﴿ثُمَّ ائْتُوا﴾ عليها ﴿صَفًّا﴾ أي: صافِّين مجتمعين بمقابلتهما؛ لأنه أدخلُ في المهابة ﴿وَ﴾ اعلموا أنه ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ﴾ أي: فازَ ووصلَ بأنواع العطاء والمواهب ﴿مَنِ اسْتَعْلَى﴾ [طه:64] وغلبَ عليهما.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى (٧٦)﴾ [طه: 65 – 76].

ثم لما أتى السحرة صافين إلى المجلس على الوجه الذي أمروا ﴿قَالُوا﴾ من فرط عتوهم واستيلائهم: ﴿يَا مُوسَى﴾ نادوه استحقارًا واستذلالاً ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ﴾ أولاً ما تلقيتَ وجئتَ به في مقابلتنا ﴿وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه:65] ما تلقينا في مقابلتك، فالأمران عندنا سيَّان؛ لأننا عصبة ومعنا جميع هذه الخلائق، وأنت ضعيف ليس معك إلا أخوك.

﴿قَالَ﴾ موسى: لا تضعفوني أيها الحمقى إن معي ربي سيقويني إن شاء، ويغلبني على جميع من في الأرض ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾ أنتم أولاً أيها المغرورين فألقوا ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ التي يسحرون بها ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى موسى ﴿مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه:66] بذاتها.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى﴾ [طه:67] أي: أضمر في نفسه خوفًا من غلبتهم عليه.

ثم لما عَلِمنا من موسى خوفه ﴿قُلْنَا﴾ له تشريحًا لصدره وإزالةً لخوفه: ﴿لَا تَخَفْ﴾ أيها المرشد من عندنا من تمثالاتهم الغير المطابقة للواقع ﴿إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى﴾ [طه:68] أي: الغالب عليهم بعد إلقائك ﴿وَ﴾ بعدما أطمأن قلبك بوحينا لك هذا ﴿أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ يعني: عصاك بالجراءة التامة والقدرة الغالبة بلا جبنٍ وتزلزلٍ ﴿تَلْقَفْ﴾ أي: تبلع وتلتقم ﴿مَا صَنَعُوا﴾ لمعارضتك ﴿إِنَّمَا﴾ التماثيل التي ﴿صَنَعُوا﴾ ليس لها اعتبارٌ بل ما هي إلا ﴿كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ وحيلةُ ماكرٍ ﴿وَلاَ يُفْلِحُ﴾ ويَغلِبُ ﴿السَّاحِرُ﴾ بحيَله وسحره ﴿حَيْثُ أَتَى﴾ [طه:69] أي: في أي مكان أتى به، سواءً كان عند معاونيه أو في مكانٍ آخر.

فألقى موسى عصاه امتثالاً لأمر ربه، فصار ثعبانًا فابتلع حبالهم جميعًا مجتمعين ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ﴾ مجتمعين ﴿سُجَّدًا﴾ متذللين نادمين من معارضتهم ﴿قَالُوا﴾ بلسانهم موافقًا لقلوبهم: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه:70] بأن له القدرة والاختيار لا يعارَض فعله أصلاً، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿قَالَ﴾ لهم فرعون على سبيل التقريع والتوبيخ بعدما سمع إيمانهم، وتذللهم عند موسى: ﴿آمَنتُمْ لَهُ﴾ وسلّمتم سحرَه بلا استئذان مني، بل ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ بتسليمه فظهر عندي ﴿إِنَّهُ﴾ أي: موسى ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾ أي: معلمكم ومقتداكم ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ في خلوتكم معه، فاتفقتم معه حتى تخرجوني من ملكي، فواعزتي وجلالي وعظم شأني لأنتقمن منكم انتقامًا شديدًا ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم﴾ أولاً ﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾ أي: متبادلين ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ حتى يعتبر منكم من كان في قلبه بغضي وعداوتي، وإن آمنتم خوفًا من شدة عذاب ربه ودوامه ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه:71] وأدومُ عقابًا، أنا، أم رب موسى؟!.

﴿قَالُوا﴾ بعدما كوشفوا بما كوشفوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ ونرجحك يا فرعون ﴿عَلَى مَا

جَاءَنَا﴾ وانكشف علينا من الحق الصريح سيَّما بعد ظهور المرجحات ﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحات الدالة على إيثاره وترجيحه، مع أنه لا بينة لك سوى ما جئنا به من السحر من قبلك وهو يبطله.

﴿وَ﴾ بالجملة: كوشفنا الآن بأنه سبحانه هو ﴿الَّذِي فَطَرَنَا﴾ وأوجدنا من كتم العدم بكمال الاستقلال والاختيار فله التصرف فينا ولا نبال بتخويفك وتهديدك يا فرعون الطاغي، وبالجملة: ﴿فَاقْضِ﴾ أي: امض علينا ﴿مَا أَنْتَ﴾ عليه ﴿قَاضٍ﴾ راضٍ من القطع والصلب وغير ذلك؛ لأنك ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه:72] أي: ما تقضي وتحكم أنت أي حكمٍ تحببت، ما هي إلا في هذه الحياة الفانية المستعارة؛ إذ حكومتك مقصورة عليها، والدنيا وعذابها فانيةٌ حقيرةٌ، والآخرة وعقابها باقيةٌ عظيمةٌ.

لذلك ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا﴾ الذي ربانا بأنواع النعم، فكفرنا له وأشركناك مع تعاليه عن الشريك والكفء والنظير، فالآن ظهر الحق وارتفع الحجب، فرجعنا إليه واستغفرنا منه من ذنوبنا ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَ﴾خصوصًا ﴿مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ بمعارضة المعجزة ﴿وَ﴾ بعد رجوعنا إليه تحقق عندنا أنه؛ أي: ﴿اللَّهُ خَيْرٌ﴾ منك ومن كل ما سواه ﴿وَأَبْقَى﴾ [طه:73] أي: بعد فناء الكل.

وقد تحقق عندنا أيضًا ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ﴾ القادر على الانتقام والإنعام ﴿مُجْرِمًا﴾ مشركًا طاغيًا ﴿فَإِنَّ﴾ أي: حقّ وثبتَ ﴿لَهُ جَهَنَّمَ﴾ التي هي دار البعد والخذلان أبدًا ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ حتى يستريح ﴿وَلاَ يَحْيَى﴾ [طه:74] أيضًا حياةً يستفيد بها.

وثانيًا إنه ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا﴾ موقنًا بذاته وصفاته وأفعاله، ومع ذلك ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ بمقتضى أوامره ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ المؤمنون الصالحون ﴿لَهُمُ﴾ لا لغيرهم من الصالحين ﴿الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ [طه:75] القريبة إلى الدرجة العليا التي انتهت إليها جميع الدرجات، وهي ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والحقائق لأولي البصائر والأبصار الناظرين بعيون الاعتبار المستغرقين بمطالعة جمال الله بلا مزاحمة الأغيار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ بلا ملاحظة زمانٍ ومقدارٍ ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾ [طه:76] من ذمائم الأخلاق ورذائل الأطوار.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ

وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾﴾ [طه: 77 - 87].

وكيف لا يكون للتزكية هذه الآثار! ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا﴾ من عندنا ﴿إِلَى مُوسَى﴾ المختار بعدما هذّبنا ظاهره عن ذمائم الأخلاق ورذائل الأطوار، وحلّينا باطنه بأنواع المكاشفات والأسرار، إنجاءً له ولقومه من يد الكفار حين عزم عليه فرعون الغدّار ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي: سِر ليلاً معهم على صورة الفِرار، فمتى أُخبروا بذلك، اتبعوا أثرك بمقتضى الاغترار، ومتى أردفك العدو وقربوا أن يدركوا، ومنعك البحر من العبور، قلنا لك: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ﴾ بعصاك المعين في الأمور البحرَ؛ ليكون لك معجزةً وظهر لهم ﴿طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ جافًا لا وحلَ فيها؛ لئلا يخافوا من الغرق ومن ورائك العدو، وأنت أيضًا ﴿لَا تَخَافُ دَرَكًا﴾ أي: أن يدركك فرعون ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ [طه:77] أن يغرقك البحر، فضربَ البحرَ بأمر ربه بعدما سار بإذنه، فسلك فيه مسلك قومه خلفه، فعبروا، فوصل فرعون وملؤه الأرض، فرأوا عبورهم من الطريق اليابس.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾[1] بلا تراخٍ فدخلوا اغترارًا بيبسه ﴿فَغَشِيَهُم﴾ أي:

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن موسى القلب كلما توجه إلى بحر الروحانية يتبعه فرعون النفس مع جنود صفاته الذميمة النفسانية، كما أن النفس كلما توجهت بالخذلان إلى مراتع الحيوانية السفلية يتبعها القلب مع جنوده، وهي الصفات الحميدة الروحانية، فلمّا دخل موسى القلب وجنوده في بحر الروحانية، وبلغوا ساحل البحر وهو سرادقات العزة وحظائر القدس، ودخل فرعون النفس وجنوده في بحر الروحانية.

غطَّاهم وسترهم ﴿مِّنَ الْيَمِّ﴾ أي: البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:78] أي: غشاوةً عظيمة بحيث يكون البحر كما كان، فهدى موسى قومه فأنجيناهم امتنانًا عليه وعليهم ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ باتباعهم بني إسرائيل على الفور ﴿وَمَا هَدَى﴾ [طه:79] وأرشد لهم طريق المخلص، فأغرقناهم متبوعًا وتابعًا زاجرًا عليه وعليهم.

ثم بعد إنجائنا بني إسرائيل من عدوهم وإهلاك عدوهم بالمرة، وإيراثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، نبهنا عليهم التوجه والرجوع إلينا بتعديد نعمنا التي أنعمناهم؛ ليواظبوا على شكرها أداءً لحقِّ شيء منها، حتى يكونوا من الشاكرين المزيدين لنعمنا إياهم.

لذلك ناديناهم ليقبلوا إلينا، ويعلموا أن الكل من عندنا: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ المنظورين بنظر الرحمة والشفقة ﴿قَدْ أَنجَيْنَاكُم﴾ أولاً بقدرتنا ﴿مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ الغالب القاهر عليكم ﴿وَ﴾ أنجيناكم ثانيًا عن جرائم تقصيراتكم بامتثال الأوامر الوجوبية حال ﴿وَاعَدْنَاكُمْ﴾ نزول التوراة بصعودكم ﴿جَانِبَ الطُّورِ﴾ لا جميع جوانبه بل جانبه ﴿الأَيْمَنَ﴾ ذا اليُمن والكرامة؛ ليشير إلى العفو عن التقصير ﴿وَ﴾ أنجيناكم ثالثًا عن شدائد التيه من جوعه وعطشه وحرِّه وبرده بأن ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾ الزنجبين ﴿وَالسَّلْوَى﴾ [طه:80] السماني.

وأمرناكم بالأكل منهما مباحًا بأن قلنا: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ بعد تحملكم شدائد الابتلاء واشكروا لنعمنا لنزيدهم ﴿وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ﴾ أي: لا تضلوا بإسناد النعم إياكم إليكم لا إلينا، مثل فرعون وقومه، وإن كنتم مثلهم في كفرانها ﴿فَيَحِلَّ﴾ أي: فينزل ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ ألبتة مثل حلولهم ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ [طه:81] سقط عن درجة الاعتبار والتقرب.

﴿وَ﴾ إن ابتليتم بحلول الغضب لا تيأسوا عن نزول الرحمة بعد التوبة؛ إذ ﴿إِنِّي﴾ بعد رجوعكم إليّ بالإخلاص ﴿لَغَفَّارٌ﴾ ستارٌ ﴿لِّمَن تَابَ﴾ عما جرى عليه ﴿وَآمَنَ﴾ بعد التوبة تأكيدًا للإيمان السابق ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ بعد ذلك نادمًا على ما مضى من العصيان ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه:82] بالإخلاص والعمل الصالح إلى درجات القرب واليقين.

ولما كان موسى حريصًا على إهداء قومه لشفقته عليهم، تسارع إلى تصفيتهم، واختار منهم سبعين رجلاً من خيارهم حتى يذهبوا معه إلى الطور ليأخذوا التوراة،

أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾[طه: 88 – 98].

وبعدما قذف الكل حليهم فيها، أدخل السامري يده فيها ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾ منها ﴿عِجْلاً﴾ أي: صورة عجل أوجده الله تعالى من تلك الحلي المقذوفة، ولم يكن من ذوي الحس والحركة بل ﴿جَسَدًا﴾ وهيكلاً ﴿لَّهُ خُوَارٌ﴾ يصوّت صوتَ البقرة ﴿فَقَالُوا﴾ السامري أصالة والباقي تبعًا: ﴿هَذَا﴾ الجسد الذي خار خورة ﴿إِلَهُكُمْ﴾ الذي أوجدكم من العدم ﴿وَإِلَهُ مُوسَى﴾ المتردد في بيداء طلبه، أنزله في هذه الحفرة من قبل ﴿فَنَسِيَ﴾ [طه:88] منزله وسعى في طلبه سعيًا بليغًا، فرقى الطور لهذا الطلب.

﴿أَ﴾ هم خرجوا عن طور العقل في اعتقاد إلهية الجماد، بل عن الحس أيضًا ﴿فَلاَ يَرَوْنَ﴾ ولا يتفكرون في شأن هذا الجماد ﴿أَلاَّ يَرْجِعُ﴾ أي: أنه لا يرد ﴿إِلَيْهِمْ قَوْلاً﴾ جوابًا عن سؤالهم ﴿وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا﴾ لو لم يؤمنوا به ﴿وَلاَ نَفْعًا﴾ [طه:89] لو آمنوا به.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل رجوع موسى إليهم نيابة عنه إصلاحًا لحالهم، بعدما أفسدوا على أنفسهم ما أمرهم موسى من الأصلح بحالهم: ﴿يَا قَوْمِ﴾ المائلين عن طريق الحق بسبب هذه الصورة ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾ أي: ما هذا إلا ابتلاءٌ لهم من ربكم؛ ليختبر سبحانه رسوخكم وتمكنكم على التوحيد، أعرِضوا عن الشرك بالله وتوجهوا إليه ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ لكم بإرسال أخي إليكم رسولاً وإنجائكم من عدوكم، وأنا نائب عن أخي استخلفني عليكم ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ لتتبعوا الحق، ولا تميلوا إلى الباطل ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه:90] واقبلوا قولي وإرشادي لكم حتى يصلح حالكم.

﴿قَالُوا﴾: لأنك وإن كنت نائبًا عن أخيك، لكن لا تعرف الرب ولا تكلمتَ معه،

بل يعرفه ويتكلم معه موسى ﴿لَن نَّبْرَحَ﴾ ونزال ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على الجسد ﴿عَاكِفِينَ﴾ مقيمين حوله متوجهين له متضرعين عنده ﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه:91].

ثم لما رجع موسى من ميقاته ومناجاته مع ربه إلى قومه، ووجدهم ضالين منحرفين عن مسلك السداد، صار غضبانًا عليهم أسفًا بضلالهم.

﴿قَالَ﴾ من شدة غيظه لأخيه مناديًا باسمه على سبيل الاستحقار مع أنه أكبر منه ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ﴾ أي: أي شيء منعك عن القتال معهم وقت ﴿إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ [طه:92] عن طريق الحق وتوحيده، بعبادة العجل.

وما لحقك ﴿أَلاَّ تَتَّبِعَنِ﴾ في مقاتلة المشركين بعدما أوصيتك به مرارًا، وقد أقمتك فيهم لإصلاح حالهم ﴿أَ﴾ كفرت وضللت أنت أيضًا ﴿فَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه:93] فأخذ من كمال غيظه وغضبه بشعر أخيه ولحيته يجره.

﴿قَالَ﴾ له حينئذ هارون قولاً يحرك مقتضى الأخوة، وينبه على قبول العذر: ﴿يَا بْنَؤُمَّ﴾ نسبه إلى الأم استعطافًا: احذر عن الغضب وتوجه إليَّ واسمع عذري ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي﴾ ما لم تسمع عذري، لم أترك قتالهم ﴿إِنِّي﴾ وإن كنت لا أقدر على قتالهم لكثرتهم ﴿خَشِيتُ﴾ مع ذلك إن قاتلت معهم ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: جعلتهم فرقًا متخالفة متقابلة ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ﴾ ولم تحفظ ﴿قَوْلِي﴾ [طه:94] لك: اخلفني في قومي، وأصلح بينهم حتى أرجع.

فلما سمع موسى عذره، ندم على فعله، فرجع إلى معاتبة من يضلهم و﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ﴾ أي: أي شيء هو أعظم مقصودك من هذه التفرقة والإضلال ﴿يَا سَامِرِيُّ﴾ [طه:95] المضل.

﴿قَالَ﴾: مقصودي الرئاسة عليهم بشيء يميزني عنهم من الخوارق؛ إذ ﴿بَصُرْتُ بِمَا﴾ أي: بشيء ﴿لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أصلاً، وذلك أني رأيت جبريل راكبًا على فرس الحياة، ما وضع قدمه على شيء إلا حيي ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾[1] أي: من

(1) إن الله سبحانه أراد بقوم من بني إسرائيل فتنة المحبة فأوقعهم في بحر المخائيل حتى عبدوا العجل؛ لأنه تعالى ربما أجرى طوفان عزة جلال ربوبيته فأغرق فيه قومًا، وذلك من كمال فرط محبته إظهار جماله وجلاله ومن كمال ذلك المعنى لا يبالي أن يُري جلال ربوبيته للعوام فخلق طباع عبدة العجل رقيقة مائلة إلى حسن فعله من حركات سره في ضميم إرادتهم إلى طلب ما ألقي من نور وجهه إلى الغيب ومن الغيب إلى الأفعال، وذلك جذب عجيب علته محبة الله

تراب وطئها حافر فرس الرسول الذي هو جبريل، وكنت أحفظها إلى أن أذابوا حليهم ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ فيه، فسرى الحياة منها إلى الصورة المتخذة من الحلي فخار، فأمرتهم باتخاذها إلهًا ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ﴾ وزينت ﴿لِي نَفْسِي﴾ [طه:96] حتى أكون متبوعًا لهم، ومقتدى بينهم.

﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿فَاذْهَبْ﴾ من عندي وتنح عن مرآي ﴿فَإِنَّ لَكَ﴾ أي: حقَّ وثبت لك ﴿فِي الْحَيَاةِ﴾ أي: في حين حياتك ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ لك ولا إدراك، يعني: أنك في حال حياتك من زمرة الأموات الفاقدين للحواس والإدراك وجميع المشاعر، لاعتقادك بحياة هذا الجماد، وأخذته إلهًا، وأضللتَ بسبب هذا جمعًا عظيمًا من الناس ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ أي: ثبتَ وتهيأ لك في الآخرة ﴿مَوْعِدًا﴾ من الجحيم ﴿لَّن تُخْلَفَهُ﴾ أي: لن تنتقل عنه أصلاً؛ إذ لا توبة لك منها حتى تتجاوز عنه، فتعين كذلك فيه أبد الآباد ﴿وَ﴾ إذا عرفتَ حالك في دنياك وأخراك ﴿انظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ﴾ وعلى عبادته ﴿عَاكِفًا﴾ مقيمًا عازمًا ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ﴾ بالنار، وإن كان إلهًا، لم تحرقه النار، ثم بعد الإحراق وبعد صيرورته رمادًا ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ﴾ وننشرنه ﴿فِي الْيَمِّ﴾ أي: في البحر ﴿نَسْفًا﴾ [طه:97] نشرًا؛ بحيث لم يبقَ من أجزائه في البر شيء.

فأحرقها ونسفها وتوجه إلى بني إسرائيل، فقال: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ﴾ المستجمع جميع أوصاف الكمال هو ﴿الَّذِي لَا إِلَٰهَ﴾ أي: لا موجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وما سواه عدمٌ، ولو تعقل فلا يخرج عن حضرة علمه شيء؛ لأنه ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ في الذهن والخارج ﴿عِلْمًا﴾ [طه:97].

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلما أوحينا إلى موسى لإهداء قومه وإهلاك عدوه، وأوحينا إليك يا أكمل الرسل قصص السابقين؛ ليعتبر من هلاك عدوهم من عاداك، ويفرح من

شوق المشتاقين وحب المحبين فتجلى من قدسه وجلاله وجماله لفعل الخاص، ومن فعله الخاص لفعله العام، وتجلى من فعله العالم فبرز منه روح القدس فأثر به الحياة القدسية في كل من عُكِس عليه نوره فوزد على تراب فقبض السامري من أثر فرسه قبضة؛ لأنه سمع من موسى تأثير القدسيين في أشباح الأكوان فنثر على العجل الذهبي فجعل الحق سبحانه لها إكسيرًا من نور فعله فأنور العجل بنور فعله، وجعله حياله خوار فتحركت سر تلك الفطرة المختبئة في قلوبهم فطلبوا المعدن ولم يعرفوا طريقه فوجدوا سكون محبتهم في رؤية العجل الذي ملبوس بنور الفعل فغلطوا وعبدوه من غاية حبه. [العرائس].

إهداء صديقهم مَن صدّقك وآمن بك؛ إذ ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ قصصهم مع كونك خالي الذهن ﴿مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ بمدة مديدة ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ امتنانًا لك ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ بلا واسطة معلم ومرشد ﴿ذِكْرًا﴾ [طه:99] كلامًا جامعًا يذكرك جميع ما في الكتب السالفة من الحقائق والأحكام والقصص على الوجه الأتم الأبلغ.

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي: عن القرآن بعد نزوله، وتشبث بغيره من الكتب المنسوخة ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ [طه:100] أي: إثمًا ثقيلاً لأخذه بالمنسوخ وترك الناسخ.

بحيث يكون ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ فيها؛ أي: فيما يترتب عليه في يوم الجزاء من العذاب الأبدي ﴿وَسَاءَ لَهُمْ﴾ أي: لحامليهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المخففة للحمل لأرباب العناية ﴿حِمْلاً﴾ [طه:101] ثقيلاً يوقعهم إلى النار.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ لإخراج ما بالقوة إلى الفعل ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ﴾ المشركين﴿يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه:102] زرق العيون سود الوجوه، وهما كنايتان عن الحسد والنفاق اللذين هم عليهما في دار الدنيا.

وإذا ظهر لهم قبائحهم الكامنة فيهم في الدنيا ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يتكلمون خيفة فيما بينهم هكذا، هذه القبائح التي ظهرت علينا من أوصافنا التي كنا عليها في دار الدنيا زمانًا قليلاً، فبعضهم يقول للبعض: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما مكثتم في الدنيا ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه:103] من الليالي، وبعضهم يقلل من ذلك، وبعضهم يقلل منه أيضًا، وهم يخفون أحوالهم لئلا يطلع عليها أحد.

وكيف يخفون عنا؛ إذ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ بمقتضى حضرة علمنا ﴿بِمَا﴾ جميع ﴿مَا يَقُولُونَ﴾ من الأقوال المتعارضة، ولا تذكر إلا ما هو أقرب للصواب ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي: أميلهم وأقربهم إلى الصواب ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه:104] واستصغارهم مدة الدنيا، إنما هو من طول يوم الجزاء.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ في ذلك اليوم أهي على قرارها وقوامها حتى يؤوى إليها أم لا؟ ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه:105] أي: يسحقها سحقًا كليًا كأنه خرج من المناخل الدقيقة، ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: يترك الأرض بعد نسف الجبال ﴿قَاعًا﴾ سطحًا مستويًا ﴿صَفْصَفًا﴾ [طه:106] ملساء.

بحيث: ﴿لَا تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا﴾ [طه:107] نتوًا وربوة لاستوائه.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: وقت نفخ الصور لاجتماع الناس إلى المحشر ﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ الذي هو إسرافيل؛ أي: يجتمعون عنده كل واحد منهم بطريق ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ لاستواء الأرض، وعدم المانع من العقبات والأغوار ﴿وَ﴾ في ذلك اليوم ﴿خَشَعَتِ الأَصْوَاتُ﴾ أي: خفضت وخفيت أصواتهم وقت الدعاء ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ من شدة أهوال ذلك اليوم؛ بحيث إذا أصغيت إلى سماع أقوالهم ﴿فَلاَ تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[1] [طه:108] ذِكرًا خفيًا.

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ أي: شفاعة كل أحد من الناجين كل واحد من العاصين ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ بالشفاعة لبعض العصاة من أرباب العناية في ذلك اليوم ﴿وَ﴾ مع إذنه سبحانه له ﴿رَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ [طه:109] أي: تعلق رضاه سبحانه الشفيع وقت الشفاعة.

وإنما أذن ورضي سبحانه بالشفاعة للبعض؛ لأنه سبحانه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: يحيط علمه بجميع أحوالهم من العصيان والطاعة، وبأن أي عصيان يزول بالشفاعة، وأي عاصٍ يستحقها ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه:110] بدقائق معلوماته وأفعاله وآثاره.

﴿وَ﴾ في ذلك اليوم ﴿عَنَتِ الْوُجُوهُ﴾ أي: هلكت وجوه الأشياء؛ أي: ظهورها وبقي الوجه الذي هو ﴿لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ المنزه عن الظهور والبطون، المقدس عن الحركة والسكون ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ وخسر خسرانًا مبينًا في ذلك اليوم ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه:111] شركًا بالله الواحد القهار.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ في الدنيا ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ موقن بوحدانية الله ﴿فَلاَ يَخَافُ﴾ في ذلك اليوم ﴿ظُلْمًا﴾ بأن يحبط أعماله الصالحة بالكلية، ولم يجز بها ﴿وَلاَ هَضْمًا﴾ [طه:112] بأن ينقص من جزاء عمله الصالح.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل إحاطة علمنا بجميع الأشياء ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ أي: هذا الكتاب

(1) (وخشعت الأصوات) أي ارتخت وخفيت وخفضت لخشوع أهلها (للرحمن) أي الذي عمت نعمه ، فيرجى كرمه ، ويخشى نقمه (فلا) أي فيتسبب عن رخاوتها أنك (تسمع إلا همساً) أخفى ما يكون من الأصوات ، وقيل : أخفى شيء من أصوات الأقدام. نظم الدرر (269/5).

المحيط بجميع ما في العالم؛ إذ لا رطب ولا يابس إلا فيه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: كلامًا عربيّ الأسلوب ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ أي: كثر تصرفنا فيه من الإنذارات والتخويفات ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ رجاء أن يتوجهوا إلى توحيدنا ويجتنبوا عن شركنا ﴿أَوْ يُحْدِثُ﴾ ويجدد وعيد القرآن ﴿لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه:113] من أحوال الماضين، وعقاب الله عليهم من الغرق والمسخ والكسف والخسف لعلهم يتذكرون.

وإن قالوا على سبيل المكابرة عتوًا وعنادًا: لربك حاجة إلى إيماننا وتقوانا، وإلا لِمَ يرجوا إيماننا؟ قل لهم يا أكمل الرسل: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ أي: تنزه وتقدس ﴿الْمَلِكُ﴾ المستولي المطلق ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت الدائم أزلاً وأبدًا عما يقول الظالمون المشركون من إثبات الاحتياج له بمجرد الرخاء العائد نفعه إياهم أيضًا.

﴿وَ﴾ إذا كان ظنهم هذا ﴿لَا تَعْجَلْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِالْقُرْآنِ﴾ أي: بأدائه وتبليغه لهم وقراءته عليهم ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي: من قبل أن يفرغ جبرائيل عليه السلام من وحيه وتبليغه، بل أصبر حتى يفرغ من الوحي، ثم تأمل في مرموزاته وإشاراته الخفية بقدر استعدادك ﴿وَ﴾ بعد التأمل والتدبر ﴿قُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114] بما فيه من نفائس المعلومات وعجائب المعارف والحقائق.

ثم بعد ذلك اقرأ عليهم، ونبههم بما فيه من قدر عقولهم ﴿وَ﴾ لا تنس نهينا عن الاستعجال بأداء القرآن قبل تمام الوحي مثل نسيان أبيك آدم عليه السلام عهده معنا، فإنا ﴿لَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى﴾ أبيك ﴿آدَمَ مِن قَبْلُ﴾ بقولنا نهيًا له ولامرأته: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:35] ﴿فَنَسِيَ﴾ عهدنا هذا لتغرير الشيطان له ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه:115] رأيًا صائبًا في حفظ العهد حتى يوطن نفسه على مقتضى النهي.

﴿وَ﴾ اذكر لنقض عهده وقصور رأيه وقت ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ أي: تذللوا له تكريمًا وتعظيمًا؛ لأنه أفضل منكم وأجمع لتجليات أوصافنا ﴿فَسَجَدُوا﴾ ووقعوا متذللين له على الأرض تكريمًا له، وامتثالاً لأمر ربهم ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ من بينهم ﴿أَبَى﴾ [طه:116] وامتنع عن سجوده لاستكباره وعتوه.

وإذ استكبر إبليس عن تعظيمه نبهنا عليه عداوته ﴿فَقُلْنَا﴾ له: ﴿يَا آدَمُ﴾ المكرم بسجود الملائكة ﴿إِنَّ هَذَا﴾ المشار إليه بالإشارة القريبة الممتنع عن سجودك وتعظيمك ﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ يريد إفسادكما فاحذرا عن مصاحبته وتغريره، ولا تتكلما معه ﴿فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ﴾ إلى دار الابتلاء ﴿فَتَشْقَى﴾ [طه:117] أنت يا

آدم على الخصوص، أي: تتعب وتعيى بسبب كسب المعيشة؛ لأن معيشتك حينئذٍ من كد يمينك.

ولا تعب لك في الجنة، بل ﴿إِنَّ لَكَ﴾ أي: حق وثبت لك أيضًا ﴿أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى﴾ [طه:118] أي: في الجنة لسعة طعام الجنة وثيابها.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا﴾ لأن العطش إنما هو من فرط الحرارة ولا حرارة فيها ﴿وَ﴾ كيف يكون فيها حرارة؛ إذ أهلها له ﴿لَا تَضْحَى﴾ [طه:119] ولا يبرز منه الظل إلى الشمس من جهة البرودة؛ لأن أهلها لا يؤذون بالحرارة والبرودة.

فلما عاش فيها زمانًا مستريحًا بلا تعب ولا عناء أظهر إبليس عداوته، وأخذ يوسوس له ولزوجته ليخرجهما منها؛ لأنهما ما داما في الحنة، لم يقدر على إضلالهما ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ أي: ألقى وسوسته في نفسه و﴿قَالَ يَا آدَمُ﴾ على وجه النصيحة: هنيئًا لك عيشك في الجنة بلا تعب ومحنة ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ إن أكلتَ منها يخلدك أبدًا فيها ﴿وَ﴾ أهديك على ﴿مُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه:120] أي: لا يخلق ولا يعتق، بل يتجدد دائمًا بتجدد الأمثال، بلا انتقالٍ وزوالٍ.

وإذ وسوس إليهما سمعا قوله وقبلا وسوسته فنسيا عهد ربهما ﴿فَأَكَلا مِنْهَا﴾ حتى شبعا وأراد أن يتبرزا ويتغوطا، ثم لما ارتكبا المنهي، وظهر منهما ما هو منافٍ لطهارة الجنة ونظافتها، أمر سبحانه بإخراجهما منها، فنزع أولاً عنهما لباسهما، أي: لباس الطهارة والنجاة الفطرية والتقوى الجبلية ﴿فَبَدَتْ﴾ ظهرت بعد نزع اللباس ﴿لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ عوراتهما، فاضطرا على التستر والتغطي ﴿وَطَفِقَا﴾ أي: شرعا ﴿يَخْصِفَانِ﴾ ويلزقان ﴿عَلَيْهِمَا﴾ أي: على عورتهما ﴿مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أي: من أوراق بعض أشجارها، قيل: هي ورق التين.

﴿وَ﴾ إذا كان حالهما كذلك قالت الملائكة: ﴿عَصَى آدَمُ﴾ المكرَم المسجود له ﴿رَبَّهُ﴾ الذي رباه بتناول ما يصلحه منها عن تناول ما يضره، بأن أعرض عن النهي، وبادر إلى ارتكاب المنهي بغرور الشيطان المغوي المضل ﴿فَغَوَى﴾ [طه:121] بإغوائه، وضل عن مراده الأصلي بتغرير العدو؛ لأن العدو إنما يلقى عدوه عكس مطلوبه.

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ بعدما ألهمه الإنابة والرجوع إليه، فاعترف بذنبه، ورجع إلى ربه تائبًا بقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:23] ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي: قَبِل سبحانه

توبته ﴿وَهَدَى﴾ [طه:122] أي: هداه إلى مقصده الأصلي، وقبلته الحقيقية، إلا أنه سبحانه لا يُبطل حِكمةَ حُكمه السابق المترتب على النهي، وهو قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:35] الخارجين عن مقتضى الحدود الإلهية.

لذلك ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا﴾ أي: انزلا من الجنة التي هي دار الأمن والسرور إلى الدنيا التي هي دار التفرقة والغرور ﴿جَمِيعًا﴾ أصلاً وفرعًا، صديقًا وعدوًا، وبعد هبوطكم إليها ﴿بَعْضُكُمْ﴾ يا بني آدم ﴿لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ في أمور معاشكم، والشيطان عدو لكم في أمور معادكم، فتبقى هذه العداوة بينكم ما دمتم فيها، ومع أمرنا لكم بالهبوط والخروج منها إليها، لا نترككم هناك ضالّين محرومين مطرودين ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ بواسطة الرسل والكتب المنزلة عليهم فاتبعوا هداي ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ عزيمة وقصدًا صحيحًا ﴿فَلاَ يَضِلُّ﴾ في النشأة الأولى لاتصافه بصفاتنا ﴿وَلاَ يَشْقَى﴾ [طه:123] في النشأة الأخرى لفنائه فينا وبقائه ببقائنا.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي: كتابي الجاري على ألسنة رسلي الهادين عن الضلال ﴿فَإِنَّ لَهُ﴾ أي: ثَبَتَ له وحقَّ ما دام في دار الدنيا ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ ضيقًا يضيق قلبه؛ بحيث لا يسع فيه غير التفكر في أمر المعاش ﴿وَ﴾ إذا انتقل منها ﴿نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الكبرى ﴿أَعْمَى﴾ [طه:124] أي: يصور إعراضه عن الحق في الدنيا على صورة العمى في الآخرة.

حيث ﴿قَالَ﴾ تحسرًا وتحزنًا: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى﴾ في الآخرة ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه:125] في الدنيا.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا

نَسْئَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [طه: 126 - 135].

﴿قَالَ﴾ سبحانه توبيخًا عليه وتقريعًا: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك فعلتَ بنا حين ﴿أَتَتْكَ﴾ بلسان الأنبياء ﴿آيَاتُنَا﴾ لهدايتك وإصلاح حالك ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ ونبذتَها وراء ظهرك فكانت نسبتُك إليها كنسبة الأعمى إلى الأشياء المحسوسة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كالمنبوذ وراء الظهر ﴿الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:126] أنت في جهنم البعد والحرمان.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل نسيان من أعرض في العذاب ﴿نَجْزِي﴾ ونترك منسيًا في جهنم﴿مَنْ أَسْرَفَ﴾ وأفرط في الإعراض عن الله ورسله بمتابعة العقل واعتباراته ومضى عليها زمانًا ﴿وَلَمْ يُؤْمِن﴾ أي: لم يُذعن ولم يُوقن ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ النازلة على أنبيائه ورسله، ولم ينتبه لمرموزاتها ومكنوناتها ﴿وَ﴾ الله وإن احتمل الشدائد، وارتكب المتاعب في تحصيل تلك الاعتبارات ﴿لَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ في شأنه لاشتغاله بغير الله وإعراضه عن آياته ﴿أَشَدُّ﴾ من شدائد ذلك التحصيل ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:127] وأدوم وباله من النخوة المترتبة عليها.

﴿أَ﴾ ينكر القريشي بآياتنا ويصر على إنكارها، ولم يذكر عذابنا لمنكري آياتنا ﴿فَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ ولم يرشدهم ولم يذكّرهم إهلاكنا الأمم السالفة بسبب إنكار الآيات وتكذيب الرسل؛ إذ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ أي: أهلكنا كثيرًا من أهل القرون الماضية حين ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ أمثالهم أصحاء سالمين فجاءهم بأسنا بياتا أو نهارا، فجعلناهم هالكين فانين، كأن لم يكونوا موجودين أصلاً لإعراضهم عنّا وتكذيبهم آياتنا ورسلنا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإهلاك ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائلَ ظاهرةٍ على قدرتنا على الانتقام على المعرضين المكذِّبين لكتبنا ورسلنا، لكن لا تحصل تلك الدلائل إلا ﴿لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه:128] أصحاب العقول المتهية مقتضى عقولهم إلى الشهود.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل في حق أمتك بدعائك لهم، وهو ارتفاع العذاب عنهم في دار الدنيا من المسخ والكسف، وغير ذلك من أهلكنا به الأمم الماضية ﴿لَكَانَ﴾ عذاب المنافقين اليوم ﴿لِزَامًا﴾ أي: لزامًا حتمًا لازمًا مبرمًا لظهور

أسبابه منهم ﴿وَ﴾ لكن قُدِّر له ﴿أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [طه:129] وهو يوم الجزاء.

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ إلى حلول الأجل المسمى، ولا يضيق صدرك من قولهم: إنكَ لا تقدرُ على إتيان العذاب بمقتضى دعواك، لذلك تخوفنا بالقيامة الموهومة، فلو كنتَ رسولاً مثل سائر الرسل لفعلتَ بنا ما فعلوا بأممهم ﴿وَ﴾ إذا سمعت أقوالهم الخشنةَ أغرضْ عنهم، ولا تلتفت إليهم، ولا تشغل إلى المعارضة معهم.

بل ﴿سَبِّحْ﴾ ونزه ربك عما يقولون من إنكار يوم الجزاء تسبيحًا مقرونًا ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ شكرًا لنعمائه وآلائه الواصلة إليك، وداوم عليه ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ بعد انتباهك من منام غفلتك، وقبل اشتغالك في أمور معاشك ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[1] بعد فراغك عن كسب المعاش، وقبل استراحك بالمنام ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ المعدِّ للاستراحة إن أيقظتَ فيها ﴿فَسَبِّحْ وَ﴾ سبح أيضًا ﴿أَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ إذا فرغتَ عن الاشتغال ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه:130] عن الله في جميع الأوقات، ويرضى الله فيها.

﴿وَ﴾ عليك الاعتزال من أبناء الدنيا وعدم الالتفات إلى لذاتهم بمتاعها ومزخرفاتها؛ بحيث ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ حال كونك متحسرًا متمنيًا مثله ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ المنافقين المشركين ﴿أَزْوَاجًا﴾ أصنافًا من كل شيء؛ لأن منه أعطينا ﴿مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: زينتها وزخرفتها ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ نجربهم، ونختبرهم كيف يعيشون بوجودها في الدنيا، هل يتكبرون ويفتخرون بسببها على الفقراء ويمشون على وجه الأرض خيلاء أم لا؟.

﴿وَ﴾ إذا نبهناك عن متاع الدنيا استرزق منا عما في خزائننا من المكاشفات

---

(1) أي: إذا كنت متعرضًا لمشاهدة جلالنا؛ فاذكر آلاءنا ونعماءنا عليك مما عرفك خزائن جود الألوهية وعلوم الربوبية، ونزه بذكرك صفاتنا حتى تكون مقدسًا بذكرنا عن رؤية غيرنا، فإذا تقدست بنا عن أوصافك تطلع عليك شمس جمالنا، وينكشف لك أنوار وصالنا، فإذا حان أن تغيب عنك حالك ففر بنعت القدس والطهارة عن لذة حالك إلينا حتى تبقى عليك آثار أنوار شمس عزتنا، وإذا كنت غائبًا بشريعتنا في آناء ليل الامتحان قف على باب ربوبيتنا بنعت التنزيه والتفريد، واذكر شمائل منتنا عليك نزيد عليك كشف الصمدانية وبروز أنوار الوحدانية، لعلك تصل إلى مقام المحمود من حيث دنو الدنو الذي لا يبقى بيني وبينك بين ولا بون ولا غير ولا حجاب، ترضى برؤيتي عن رؤية كل خلق ثم حذره عن النظر إلى زينة الكون بنظر الاستحسان؛ لئلا يشتغل بشيء دونه لحظه؛ [العرائس].

والمشاهدات بدل تلك اللذات الفانية؛ إذ ﴿رِزْقُ رَبِّكَ﴾ الذي رزقك بها؛ ليكون لك الكشف والشهود والتمكن في المقام المحمود ﴿خَيْرٌ﴾ لك من مزخرفات الدنيا ومموهاتها لأنها فانيةٌ زائلةٌ لا ثباتَ لها ﴿وَ﴾ هو ﴿أَبْقَى﴾ [طه:131] لك لبقائه مع استعدادك إلى ما شاء الله.

﴿وَ﴾ إذا رزقت ما رزقت تفضلاً من ربك، فعليك أن تأمر من يلازمك ويؤانسك من أهل الطلب بالميل إلى ما رزقك الله؛ ليكون لهم نصيبٌ مما تفضل الله به عليك من الرزق المعنوي لذلك أمرناك بقولنا: ﴿أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ﴾[1] الشاغلة جميع قوامهم عن التوجه إلى غيرنا؛ ليكون منبهًا عليهم على ما في استعدادهم ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: تحمَّل على متاعب تبليغها، ولا تقصِّر خوفًا من انتقاص رزقك؛ لأنا ﴿لَا نَسْأَلُكَ﴾ أي: لا نسأل منهم ﴿رِزْقًا﴾ وجُعلاً لأجلك منهم حتى يشقَّ عليهم، بل ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإياهم من مقام جودنا ونوالِ إفضالنا من غير أن ينقص من خزائننا شيءٌ.

ونبِّههم أيضًا على العواقب الحميدة المترتبة على الصلاة، وجنِّبهم عن شواغلها ﴿وَ﴾ قل لهم: ﴿الْعَاقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلتَّقْوَى﴾ [طه:132] أي: المتصفين بالتقوى؛ أي: الراضين عن الله بما يرضى لهم ويأمرهم، المجتنبين عما لا يرضى منه سبحانه.

ولما سمعوا كشفك وشهودك ورزقك الأوفى من عند ربك، وإرشادك على من آمن بك، أصروا على الإنكار ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا﴾ هذا المدعي للكشف والشهود ﴿بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ مقترحةً لم نصدّق ولم نقرّ برسالته، قل لهم يا أكمل الرسل: ﴿أَ﴾ ينكرون إتيان الآيات المقترحة على الأمم الماضية ﴿وَلَمْ تَأْتِهِم﴾ في هذا الكتاب المعجز المذكر لهم ﴿بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [طه:133] من إتيان الآيات المقترحة على الأنبياء الماضين، ومع ذلك لم يؤمنوا بهم أممهم، بل كانوا يكذبونهم ويصرون على ما كانوا عليه من الكفر والضلال، فهؤلاء أيضًا أمثالهم.

﴿وَ﴾ قل لهم يا أكمل الرسل أيضًا قولنا هذا ﴿لَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ﴾ نازل من عندنا لإصرارهم وعنادهم ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل إرسالك إليهم ﴿لَقَالُوا﴾ حين نزول

---

(1) قال الحرالي: ويصح أن يراد بها الدعاء ، فمن صبر عن الدنايا وعلى المكاره وأنهى صبره إلى الصوم فأزال عنه كدورات حب الدنيا وأضاف إلى ذلك الصلاة استنار قلبه بأنواع المعارف، فإذا ضم إلى ذلك الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى بلغ نهاية البر . نظم الدرر (1/85).

العذاب مثلما قالت تلك الأمم الهالكة عند نزوله: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا﴾ هلا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ من عندك ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ الدالة على توحيدك ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بهذا الإذلال ﴿وَنَخْزَى﴾ [طه:134] بهذا الخزي والوبال.

وإن عاندوا معك بعد سماع هذه الدلائل الواضحة والتنبيهات اللائحة، أعرض عن مكالمتهم ومناصحتهم، و﴿قُلْ﴾ لهم كلامًا يشعر باليأس عن إيمانهم وإصلاحهم ﴿كُلٌّ﴾ منا ومنكم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ منتظرٌ لهلاك الآخر بسبب الشقاوة والإعراض عن الحق ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أو انتظروا أنتم لهلاكنا بشقائنا، فإنا منتظرون أيضًا بهلاككم بالشرك والطغيان، وإذا كُشفَ الغطاء، وظَهرَ يوم الحشر والجزاء ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ المستقيم المتمكن الغير المعوج المتلون، أنحن أم أنتم ﴿وَمَنِ اهْتَدَى﴾ [طه:135] منَّا من تيه الضلال إلى فضاء الوصال؟!.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي الطالب لسلوك طريق الحق بالاستقامة التامة، والتشبث عليه بلا اعوجاج وتزلزلٍ؛ لتهتدي بسلوكه إلى زلال الوحدة الذاتية التي هي ينبوع بحر الوجود ومنشأ جميع الموجود أن تقتفي أثر نبيك ﷺ في جميع أفعاله وأعماله، وتتخلق بأخلاقه، وتتصف بأوصافه حسبما أمكنك وقدر ما يسر لك.

ولا تُهمل دقيقةً من دقائق الشرع الشريف بل لك أن تتبع به ﷺ في جميع ما جاء به من قِبَل ربه، وأنشأه من عند نفسه بلا تفحصٍ وتفتيشٍ عن سرائره، حتى ينكشف لك بعد الوصول إلى مرتبتك التي كلفك الحق إليها وجبلك لأجلها، فحينئذٍ ظهر لك جميع ما أوصاك به نبيك ﷺ ورمز إليه، وصرتَ من أهل المعرفة والإيقان إن شاء ربك، ووفقك عليه.

وفقنا يا ربنا بفضلك وجودك إلى معارج عنايتك ومقر توحيدك يا ذا الجود العظيم.

سورة الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الأنبياء عليهم السلام

لا يخفى على المتمكنين في مقر التوحيد، الواصلين إلى مرتبة الفناء في الوحدة الذاتية أن سر الهبوطات والتنزلات المنتشئة من وحدة الذات حسب اقتضاء الأسماء والصفات الإلهية، إنما هو لاكتساب المعارف والحقائق وللاتصاف بالكمالات اللائقة؛ ليحصل لهم الترقي والتدرج متصاعدةً إلى ما منه البداية وإليه النهاية، فلا بدّ في النشأة الأخرى من انتقاء ما حصل في النشأة الأولى؛ ليعود كلُ من المكلفين إلى مبدئه على الوجه الذي بدأ منه.

لذلك وضع سبحانه يوم العرض والجزاء لانتقاء أعمال عباده وتفاوت طبقاتهم ودرجاتهم فيها، ووضع أيضًا لهذه المحكمة جميعَ ما وضع في يوم الجزاء من العرض، والحساب، والصراط، والميزان، وكتب الأعمال، والجنة والنار وغيرها حتى يتحقق كل من المكلفين بمقتضى ما اكتسب على مقتضى العدل الإلهي والقسط الحقيقي الذي هو صراط الله الأقسط الأقوم.

ثم لما كان كثيرٌ من المنهمكين في الغفلة والضلال، منكرين عليها، مكذبين لها، أنزل سبحانه هذه السورة على حبيبه تبشيرًا ووعدًا للمؤمنين الموقنين، ووعيدًا وتهديدًا للمنافقين المكذبين، فقال متيمنًا باسمه الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر في النشأة الأولى والأخرى على العدل القويم ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعمومه عباده بالدعوة إلى دار السلام وجنة النعيم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواص عباده بالفوز إلى شرف اللقاء وأنواع التعظيم والتكريم.

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي

ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ الأنبياء: [1 ـ 6].

﴿اقْتَرَبَ﴾ أي: دنا وقرب ﴿لِلنَّاسِ﴾ الناسين عهود ربهم التي عهدوا بها معه سبحانه وقت ظهور فطرتهم الأصلية من حَمْلِ أمانة المعارف، والحقائق وقبول أعباء الإيمان، والتوحيد، ومشاق الأعمال، والتكاليف المقربة لهم إليه ﴿حِسَابُهُمْ﴾ أي: قَرُبَ وقت حسابهم، وانتقاد أفعالهم وأعمالهم الصالحة المقبولة عند ربهم من الفاسدة المردودة دونه ﴿وَهُمْ﴾ مغمورون مستغرقون ﴿فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:1] عن ربهم، وعن حسابه إياهم، بل أكثرهم معرضون عنه بحيث لا يلتفتون نحوه أصلاً، بل ينكرون وجوده فكيف حسابه وعذابه؟.

لذلك ﴿مَا يَأْتِيهِم﴾ وينزل عليهم ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾ وعظةٍ تنبههم عن سِنَةِ الغفلة، وتوقظهم عن رقدة النسيان صادرٌ ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ بوحيٍ ﴿مُّحْدَثٍ﴾ مجددٍ وحسب تجددات البواعث والدواعي الموجبة للإنزال على مقتضى الأزمان والأعصار ﴿إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ﴾ أي: الذكر المحدَث ﴿وَهُمْ﴾ حينئذ من غاية عمههم وسكرتهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء:2] به ويستهزئون مع من أنزل إليه.

﴿لاهِيَةً﴾ معه ذاهلةً ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ عن التأمل فيه، والتفكر في معناه والتدرب في رموزه وإشاراته ﴿وَ﴾ هم وإن أغفلوا نفوسهم وقلوبهم عنه لفرط عتوّهم واستكبارهم، لكن تفطنوا بحقيته من كمال إعجازه ومتانته، لكونهم من أرباب البلاغة والفصاحة والذكاء والفطانة، لكنهم ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ أي: بالغوا في إخفاء ما يتناجوا به في نفوسهم من حقية القرآن وإعجازه؛ إذ هم ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بارتكاب الكفر، والمعاصي، وأنواع الضلال عنادًا ومكابرة، وقصدوا أيضًا إضلال ضعفاء الأنام حيث قالوا لهم على سبيل الإنكار: ﴿هَلْ هَذَا﴾ أي: ما هذا الشخص الحقير الذي ادّعى الرسالة والنبوة والوحي والإنزال من جانب السماء ﴿إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وهو من بني نوعكم لا ميزة له عليكم، والرسول المرسل من جانب السماء لا يكون إلا ملكًا ﴿أَ﴾ تميلون نحوه وتزعمونه صادقًا بواسطة خوارقَ صدرت عنه على سبيل السحر والشعبذة مدعيًا أنه معجز مع أنه ليس كذلك ﴿فَتَأْتُونَ﴾ وتحضرون ﴿السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء:3] آلاته وأدواته، وتعلمون عيانًا أنه سحرٌ مفترىً، هل تصدقونه أم لا؟ وهذا

تسجيلٌ وتنصيصٌ منهم على كذب الرسول، وإغراءٌ وتضليلٌ على ضعفاء الأنام، وحثٌ لهم على تكذيبه وإنكار ما أتى به.

﴿قَالَ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم، والرد عليهم: ﴿رَبِّي﴾ الذي ربّاني بأنواع الكرامات والمعجزات ﴿يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ أي: جنس الأقوال والأفعال والأحوال الكائنة ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أي: عالم الأرواح ﴿وَالأَرْضِ﴾ أي: عالم الطبيعة والأشباح ﴿وَ﴾ كيف لا يعلم ويعزب عن علمه شيء؛ إذ ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ المقصور على السمع بحيث لا يسمع سواه ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الأنبياء:4] المستقلُّ بالعلم لا عالم إلا هو.

ثم أعرضوا وانصرفوا عن قولهم بسحرية القرآن؛ لاشتماله على البلاغة والمتانة وأنواع الخواص، والمزايا الممدوحة عندهم إلى ما هو الأدنى والأنزل منه، ﴿بَلْ قَالُوا﴾: ما هو إلا ﴿أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ أي: من تخليطات القوة المتخيلة وتمويهاتها التي رآها في المنام، ثم سطّرها، وسمّاه كلامًا نازلاً من السماء موحى إليه من عند الله ﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾ واختلقه واخترعه من تلقاء نفسه، ونَسَبه إلى الوحي ترويجًا له بلا رؤيته في المنام ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ فصيحٌ تكلم بكلام كاذبٍ مُخيّلٍ نظمه على وجهٍ يعجب الأسماع، وبالجملة ما هو نبيٌ ولا كلامه الذي أتى به وحيٌ نازلٌ من الله كما ادعاه مثل كلام سائر الرسل، وإلا ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ﴾ مقترحةٍ أو غيرها تُلجئنا إلى تصديقه والإيمان به ﴿كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء:5] أي: مثلما أُرسل بها الأنبياء الماضون: كالعصا، واليد البيضاء، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وغير ذلك من الآيات الواقعة من الرسل الماضين.

ثم لما تقاولوا بما تقاولوا، واهتم رسول الله ﷺ أيضًا أن ينزل عليه مثلما أنزل على أولئك الرسل نزلت: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم﴾ رسلنا الذين جاءوا بالآيات المقترحة ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: أهلها من القرى التي أرسلوا إليهم لذلك ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ واستأصلناها، ولو تأتي أنت أيضًا بمقترحاتهم، لما آمنوا لك مثلما لم يؤمنوا لهم ﴿أَ﴾ تزعم يا أكمل الرسل أنهم لو أتيت لهم ما اقترحوا ﴿فَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:6] بك، كلا وحاشا، إنهم من شدة شكيمتهم وغلظ حجابهم وقسوتهم لا يؤمنون بك أصلاً، وغاية الأمر أنه لو أتيت إياهم بمقترحهم لم يقبلوا منك ألبتة، ولم يؤمنوا لك فاستحقوا الإهلاك والاستئصال حينئذٍ، وقد مضى أمرنا ونفذ حكمنا على ألّا نستأصل قومك في النشأة الأولى، لذلك لم ننزل عليك ما اقترحوا منك.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾ الأنبياء: [7 ـ 11].

﴿وَ﴾ إن أنكروا رسالتك يا أكمل الرسل معلِّلين بأنك بشرٌ مثلهم، والبشر لا يكون رسولاً، قل لهم نيابة عنَّا: ﴿مَا أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ﴾ رسولاً على أمةٍ من الأمم الماضية ﴿إِلَّا﴾ أرسلنا ﴿رِجَالٗا﴾ منهم لا نساءً، كاملاً في الرجولية والعقل، بالغًا نهاية الرشد والتكميل ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ مثلما أوحينا إليك؛ ليرشدوا الناس إلى توحيدنا، ويوقظوهم من منام الغفلة، ويهدوهم إلى الصلاح، والفوز بالفلاح، وإن أنكروا هذا قل لهم: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ﴾ أيها المنكرون ﴿أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ أي: العلم والخبرة من أحباركم وقسيسيكم من المشتغلين لحفظ التوراة والإنجيل وسائر الكتب الإلهية ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنبياء:7] أيها الجاهلون المكابرون.

﴿وَ﴾ إن أنكروا رسالتك معللين بأنك تأكل وتشرب مثلهم، والرسول لا بدَّ ألَّا يأكل ولا يشرب مثل سائر الناس، قل لهم أيضًا نيابةً عنَّا: ﴿مَا جَعَلۡنَٰهُمۡ﴾ أي: الرسل الماضين ﴿جَسَدٗا﴾ أي: أجرامًا وأصنامًا ﴿لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾[1] بدل ما يتخلل من

---

(1) قال نجم الدين: يشير إلى أن الأنبياء والأولياء خلقوا محتاجين إلى الطعام بخلاف الملائكة، وذلك لا يقدح في النبوة والولاية، بل هو من لوازم أحوالهم وتوابع كمالهم، فإن لهم فيه فوائد جمة:

* منها: إن الطعام للروح الحيواني الذي هو مركب الروح الإنساني كالدهن للسراج، وهو منبع جميع الصفات النفسانية الشهوانية، وهي مركب الشوق والمحبة التي بها يقطع السالك الصادق المسالك البعاد، ويَعْبُر المحب العاشق مهالك الفراق للوصول إلى كعبة الوصال.

* ومنها: إن أكل الطعام من نتائج الهوى، وهي ميل النفس إلى مشتهياتها والسير إلى الله تعالى بحسب نهي النفس عن الهوى لقوله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات:40] ولهذا قال المشايخ: لولا الهوى ما سلك أحد طريقًا إلى الله تعالى.

* ومنها: إن من علم الأسماء التي علم الله آدم منوط بأكل الطعام مثل: علم ذوق المذوقات، وعلم التلذذ بالمشتهيات، وعلم لذة الشهوة، وعلم لذة الجوع والعطش، وعلم الشبع والرِّي،

أجزائهم، ولا يشربون الشراب المحلِّل لغذائهم؛ إذ هم أجسام ممكنة محدَثة، محتاجةُ إلى التغذي، قابلةُ للنمو والذبول، مشرفةُ إلى الفناء والانهدام مثل أجسام سائر الأنام ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء:8] دائمين مستمرين بلا ورود موتٍ عليهم، وتحليلٍ لتركيبهم، بل هم هلكى في قبضة قدرتنا وجنب وجودنا وحياتنا.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما كذَّبهم المكذبون المنكرون ﴿صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ وأوفينا لهم الوعود المعهودة الذي وعدناهم من إهلاك عدوهم وإنجائهم من بينهم سالمين ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ﴾ على الوجه الذي عهدنا معهم ﴿وَمَن نَّشَاءُ﴾ من أتباعهم الذين سبقت رحمتنا عليهم في حضرة علمنا ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء:9] المصرين على البغي والعناد، المنهمكين في الجور والفساد.

ثم قال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ يا معشر قريش ﴿كِتَابًا﴾ جامعًا لما في الكتب السالفة مع أنه ذُكِرَ ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ وشرفُكم، ونجابةُ عرقِكم، وطينتِكم، وكمالُ دينِكم، ونبيِّكم، وظهوره على الأديان ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:10][1] كلها، وتستعملون عقولكم بما فيه فتدركون مزيةَ كتابكم، ورسولكم على سائر الكتب والرسل، وبشرف دينكم على سائر الأديان.

ولا تبالوا أيها المترفون بترفهكم وتنعمكم، ولا تغتروا بإمهالنا إياكم، ولا تؤمِّنوا عن فكرنا وإنزال عذابنا ونكالنا.

﴿وَ﴾ اعلموا أنَّا ﴿كَمْ قَصَمْنَا﴾ أي: قهرنا كثيرًا ﴿مِن﴾ أهل ﴿قَرْيَةٍ﴾ وكسرنا ظهورهم، وبعدناهم عن أماكنهم التي يترفهون فيها؛ لأنها ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ خارجةً عن مقتضى الأوامر والنواهي المنزلة منَّا على رسلنا أمثالكم، وبعدما أخرجناها وأهلكناها ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ وبدلنا أهلها ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء:11] منقادين لحكمنا مطيعين لأمرنا.

وعلم هضم الطعام قله، وعلم الصحة والمرض، وعلم الداء والدواء وأمثاله، والعلوم التي تتعلق به كعلوم الطب بأجمعها، والعلوم التي هي من توابعها كمعرفة الأدوية والحشائش وخواصها وطبائعها وغيرها، اقتصرنا على هذا القدر من الفوائد الجمة.

(1) أي: طوال الدهر بالخير إن أطعتم، والشر إن عصيتم ، وبه شرفكم على سائر الأمم بشرف ما فيه من مكارم الأخلاق التي كنتم تتفاخرون بها وبشرف نبيكم الذي تقولون عليه الأباطيل، وتكثرون فيه القال والقيل. نظم الدرر (5 /290).

﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ الأنبياء: [12 ـ 18].

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا﴾ وأدركوا ﴿بَأْسَنَا﴾ بعد تعلق إرادتنا بانتقامهم، ورأوا مقدمات عذابنا وبطشنا ﴿إِذَا هُم﴾ مع شدة شكيمتهم ووفور قوتهم وقدرتهم ﴿مِّنْهَا﴾ أي: من قراهم ﴿يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء:12] ويهربون سريعًا ركضَ الخيل من الأسد.

ثم قيل لهم على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿لاَ تَرْكُضُوا﴾ أيها المترفهون المتنعمون، إلى أين تمشون عن منتزهاتكم ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا﴾ أي: إلى أوطانكم وقراكم التي ﴿أُتْرِفْتُمْ﴾ ومُتِّعتُم ﴿فِيهِ وَ﴾ اسكنوا في ﴿مَسَاكِنِكُمْ﴾ التي كنتم فيها طول دهركم، لم تتركونها وتخرجون عنها؟ ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:13] عن سبب الخروج والجلاء منها.

ثم لما ضاق عليهم أنواع العذاب ولحقت بهم وأدركتهم، ولم ينفعهم الفرار والتحرز ﴿قَالُوا﴾ متأسفين متحسرين: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ وهلاكنا تعالى ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:14] متجاوزين مخرجين عن مقتضى العدل الإلهي؛ لذلك لَحِقَنا ما لَحِقَنا.

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ﴾ الكلمة المذكورة؛ يعني: يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ أي: دعاؤهم، ونداؤهم جارية على ألسنتهم على وجه الخضوع والخشوع والتذلل التام والانكسار المفرط؛ لأنهم قصدوا بها النجاة والخلاص، إذ هم اعترفوا بذنوبهم في ضمنها، وندموا عن فعلهم بتكرارها، ومع ذلك لم ينفعهم؛ لمضيّ وقت التوبة والندامة ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء:15] أي: صارت أجسامهم مثل: المحصود الخامد من النبات، كأنه ما شمّ رائحةً من الحياة في وقتٍ من الأوقات.

﴿وَ﴾ كيف لا نأخذهم بظلمهم ولا نجعلهم محصودًا خامدًا جامدًا؛ إذ ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ﴾ المزينة بزينة الكواكب، كل منها مقدّر لأمور لا يعرف تعديده وإحصاءه غيرنا ﴿وَالأَرْضَ﴾ المزينة بزينة المعادن والنبات، والحيوان، والأشجار، والأنهار،

وأنواع الفواكه، والأثمار، كل منها مشتمل على حِكَمٍ ومصالحَ لا يسعه إلا حضرة علمنا ﴿وَمَا﴾ يحصل ﴿بَيْنَهُمَا﴾ من امتزاج آثارهما وأفعالهما من العجائب والغرائب التي تَدهش منها العقول، وتكلّ في وصفها الألسنة، وتتحسر الصدور ﴿لاعِبِينَ﴾ [الأنبياء:16] أي: ما جعلناهما عبثًا باطلاً بلا سرائرَ ودَّعنا فيها، وبدائعَ أضمرنا في خلقها وظهورها، إذ الحكيم لا يفعل فعلاً إلا وقد أودع فيه من المصالح والحكم ما لا يُعدُّ ولا يُحصى.

فكيف يليق بجنابنا، وينبغي لشأننا أن يتصف أفعالنا المتقنة وآثارنا المحكمة باللهو واللعب، وتدبيراتنا بالعبث الخالي عن الحكمة والمصلحة؟ مع أنا ﴿لَوْ أَرَدْنَا﴾ أي: قدَّرنا وفرضنا ما استحال علينا ﴿أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ ولعبًا باطلاً خاليًا عن الفائدة، مخلاً لكمال عزتنا وحكمتنا وعلو شأننا وعظمتنا ﴿لاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: من قِبَلنا، ومن جملة أفعالنا وآثارنا الصادرة وقدرتنا الكاملة وإرادتنا الخالصة، كلا وحاشا ﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:17] أي: ما كنا مرتكبين العبث الخالي عن الفائدة سيما مع استكمال كمال قدرتنا ووفور علمنا على أنواع الحكم والمصالح.

﴿بَلْ نَقْذِفُ﴾ أي: بل اللائق المستحسن منّا، المناسب بعلو شأننا أن نضمحل ونُبطل ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي هو شمس وجودنا، ولمعان آثار فضلنا وجودنا ﴿عَلَى الْبَاطِلِ﴾ الذي هو الظلُّ الزائغُ الآفلُ، والعدمُ العاطلُ الزائلُ ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ أي: يَمحقه ويُسقط عنه اسم الوجود المستعار، ويُلحقه إلى ما هو عليه من العدم بلا عبرةٍ واعتبارٍ؛ ليظهر عند المعتبرين أن ﴿مَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت:64] ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر:39] ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر:2]، فكيف لا يمحقه، ولا يلحقه بالعدم ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ في نفسه وفي حد ذاته ﴿زَاهِقٌ﴾ هالكٌ زائلٌ ما شمَّ رائحة الوجود ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ﴾ والهلكة أيها الواصفون والجاهلون بقدر الله ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:18] ذاته من الأمور التي لا تليق بجنابنا من ارتكاب العبث، وإسناد اللهو واللعب بذاته تعالى، وإشراك هذه الأظلال الهالكة معه في الوجود، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا.

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ

هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ الأنبياء: [19 – 24].

﴿وَ﴾ كيف تشركون أيها المشركون معه أظلاله وعبيده؛ إذ ﴿لَهُ﴾ تعالى إيجادًا وإبداعًا وإظهارًا وتصرفًا ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأرواح المجردة عن الأبدان ﴿وَ﴾ من في ﴿الأَرْضِ﴾ أي: الأرواحُ المتعلقة بها ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَنْ عِندَهُ﴾ من الأرواح التي لا نزولَ لهم ولا عروجَ، كلهم متذللون ﴿لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ وإطاعته ﴿وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء:19] ولا يعْيَون عن إقامتها وإتيانها.

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: ينزهون الله في جميع أوقاتهم عما لا يليق بجنابه ﴿لاَ يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:20] ولا يظهرون الضعف والعناء، بل أقاموها وواظبوا عليها طائعين متذللين خاشعين خاضعين.

وكيف لا يعبدون الله ولا يسبحونه وهم موحدون مخلصون؟ لا المشركون المعاندون الذين اتخذوا آلهةَ من السماء كعبدة الكواكب ﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ بل اتخذوا ﴿آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ﴾ هو أفحش من ذلك كعبدة الأوثان والأصنام اتخذوها آلهة وعبدوها كعبادة الله، وادَّعوا ضمنًا أن آلهتهم التي نحتوها بأيديهم أو صاغوها من حُلِيّهم ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ [الأنبياء:21] أي: يُخرجون الموتى من قبورهم؛ لأنهم آلهةُ وعبدوها كعبادة الله، والإله لا بدَّ وأن يقدر على جميع المقدورات والمرادات ومن جملتها النشر، بَل من أجلِّها، فلا بدَّ لهم أن ينشروا فكيف يثبتون أولئك المشركون تعددَ الآلهة مع أنه ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا﴾ أي: في السماء والأرض ﴿آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ﴾ أي: غير الله الواحد القهار للأغيار مطلقًا ﴿لَفَسَدَتَا﴾ واختل نظامها، ولم يبقا على الهيئة المخصوصة المشاهدة ألبتة، إذ المفهوم من الإله هو المستقل في التصرف والآثار بالإرادة والاختيار، فكلُّ من الآلهة المتعددة متصفٌ بجميع أوصاف الألوهية بالاستقلال، فلا يمكن اتفاقهم على أمرٍ من الأمور ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد المستقلِ في الألوهية والربوبية بلا شريكٍ له في ملكه، بل في الوجود والتحقق ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ أي: عروش جميع المظاهر المستولي عليها، إذ لا ظهور لها إلا منه ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:22] من اتخاذ الولد والشريك والصاحبة والنظير، لتوحيده في

الوجود واستقلاله في التصرف.

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ إذ لا معقِّبَ لحكمه ولا رادَّ لقضائه ﴿وَهُمْ﴾ أي: الشركاء الباطلة ﴿يُسْأَلُونَ﴾[الأنبياء:23] [1] عما صدر عنهم، فكيف تليق لهم الألوهية والشركة معه سبحانه وتعالى شأنه عما يصف الواصفون، وجلَّ جلال قدسه عما نَسَبَ إليه الجاحدون والمكابرون.

ومع علو شأنه ووضوح برهانه وظهور وحدة ذاته واستقلاله في ألوهيته وربوبيته، ترددوا فيه، وفي توحيده ﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ أي: بل قد أخذوا ﴿مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ شركاء له سبحانه لا واحدًا، بل متعددًا وعبدوها كعبادته سبحانه ظلمًا وزورًا وجهلاً وعنادًا ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل إلزامًا لهم وتبكيتًا: ﴿هَاتُوا﴾ أيها المشركون المثبتون لله الواحد الأحد الصمد شريكًا ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾ على وجود آلهةٍ سواه عقلاً أو نقلاً إن كنتم من ذوي الألباب وأهل العقد والرشاد، ولا سبيلَ لكم إلى الدليل العقلي، إذ برهان التمانع قطعَ عرق الشركة بالمرة، ولا إلى النقل، إذ جميع الكتب الإلهية متطابقةٌ في توحيد الحق، ونفي الشرك عنه سبحانه إذ ﴿هَذَا﴾ الكتاب الجامع لجميع ما في الكتب السالفة المنزلة عليّ ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ أي: عظة وتذكير يذكر من معي من المؤمنين من أصحابي ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ من أمم الأنبياء الماضيين لو صدقوه وقبلوا ما فيه، لكنهم لا يصدقونه ليهديهم إلى الحق ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ جاهلون ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ ولا يعرفون الحق الصريح الظاهر في الآفاق بلا سترةٍ وحجابٍ ﴿فَهُم﴾ لغلظ حجبهم وكثافة غشاوتهم ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:24] عن الحق منكرون له، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى

(1) قطع لسان الحدثان بمقراض هيبة الرحمن عن الانبساط في وقت كشوف عظمة الجبروت وشهود جلال الملكوت يفعل الخبير ما يشاء، وليس لهم هناك لهجة سؤال، ولا لهم حجة مَقال إذ لا وسمة على فعاله وعزة كماله، وهم معاتبون عما فعلوا؛ لأن أفعالهم وقعت ناقصة عن سنن نظام سنة الأزلية بمشيئة القدمية. [العرائس].

﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ٢٨﴾ الأنبياء: [25 ـ 28].

ثم قال سبحانه كلامًا جليًا مثبتًا للتوحيد خاليًا عن سمة التقليد: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ من مقام جودنا وفضلنا ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ يا أكمل الرسل من الرسل ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ من الرسل الماضين ﴿إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ﴾ أولاً ﴿أَنَّهُ لاَ إِلَهَ﴾ يُعبَد بالحق ويستحق للعبادة والإطاعة ﴿إِلاَّ أَنَاْ﴾ المتفرد برداء العظمة والكبرياء، المنفرد بكمال الجلال، ودوام البقاء ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:25] أيها الأظلال الهالكة والعكوس المضمحلة الباطلة، وتذللوا نحوي خاضعين خاشعين، إذ لا مرجع لكم غيري.

وادّعوا الشركة ﴿وَقَالُوا﴾ مستدلين عليها: نحن نجد في التوراة والإنجيل أنه ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ﴾ الملائكةَ وعزيرًا وعيسى ﴿وَلَدًا﴾ والولد شريكُ لأبيه، إذ هو سرُّه ﴿سُبْحَانَهُ﴾ وتعالى عن أمثال هذه الهذيانات الباطلة ﴿بَلْ﴾ هم ﴿عِبَادٌ﴾ لله ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:26] محبوبون لديه.

لذلك ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي: لا يبادرون إلى القول قبل قوله سبحانه، ولا يبدلون، ولا يغيرون قوله وحكمه، كما هو دأب العبيد مع المولى ﴿وَ﴾ كيف يسبقونه بالقول ﴿هُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:27] جميعَ ما عملوا من خيرٍ وشرٍ والمأمور لا يكون شريكًا للآمر.

وكيف لا يعملون بأمره إذ هو ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري منهم ومن أحوالهم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ما هو حاضرٌ عندهم، معلومٌ دونهم من أحوالهم وأفعالهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما هو غائبٌ عنهم ومجهولُ لديهم ﴿وَ﴾ إن خرجوا عن مقتضى أمره سبحانه ﴿لاَ يَشْفَعُونَ﴾ أي: لا تقبل شفاعتهم لغيرهم، أو لا يُشفع لهم عند الله بعدما خرجوا عن مقتضى حكمه ﴿إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ سبحانه، ورضي بشفاعة من يشفع لهم وأذن ﴿وَ﴾ كيف يشفع عنده سبحانه بغير إذنه ورضاه؟ إذ ﴿هُم﴾ أي: الشفعاء ﴿مِّنْ﴾ كمال ﴿خَشْيَتِهِ﴾ سبحانه ومن غاية سطوته وهيبته وقهره ﴿مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:28] خائفون مرعوبون وَجِلون.

﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا

وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: 29 ـ 35].

﴿وَ﴾ متى كان حال الشفعاء وخشيتهم على هذا المنوال ﴿مَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ﴾ مستحقٌ للعبادة، مستقلٌ في الألوهية ﴿مِّن دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿فَذَلِكَ﴾ أي: بمجرد قولهم هذا، وإن كان غير مطابق لاعتقادهم ﴿نَجْزِيهِ﴾ ونصليه ﴿جَهَنَّمَ﴾ البعد والحرمان ونيران الخيبة والخسران ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:29] الخارجين عن مقتضى توحيدنا، المسيئين الأدب معنا.

﴿أَ﴾ ينكرون وحدتنا، ويثبتون لنا شريكًا من مصنوعاتنا، وينسبون بنا ولدًا ظلمًا وزورًا ﴿وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بنا بأمثال هذه الخرافات الباطنة، ولم يعلموا كمال قدرتنا ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات ﴿وَالأَرْضَ﴾ أي: عالم الطبيعة والعكوس والأظلال قد ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ أي: كان كلُ منهما مرتقًا متضمنًا بلا تعددٍ وتكثرٍ.

أمّا الأسماء والصفات فمندمجةٌ مندرجةٌ في الذات بلا هبوطٍ وتنزلٍ وظهور أثرٍ.

وأمّا الطبيعة العدمية قد كانت ساكنةً في زاوية العدم بلا امتداد ظل الوجود عليها، ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ بالتجليات الحبية المنتشئة من الأسماء الذاتية والصفات الكمالية الفعلية، المقتضية للظهور والانجلاء لحكم، ومصالح قد استأثرنا بها، وبالقبول والتأثر من أشعة التجليات ﴿وَ﴾ إن أردتم أن تنكشف لكم كيفية انتشاء الأشياء الكثيرة من الذات الواحدة المتصفة بالصفات والأسماء المتماثلة والمتقابلة، فانظروا كيف ﴿جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ الواحد بالذات، المشتمل على الأوصاف الكثيرة بحسب الآثار الصادرة منه ﴿كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي: خلقنا، وصيّرنا كل شيء له إحساسٌ وتغذيةٌ وتنميةٌ وازديادٌ وانتقاص من الماء؛ إذ هو أقوى أسباب التبدلات والتشكلات، وأقبل إلى قبول التصرفات والامتزاجات ﴿أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:30] ويصدقون بهذا، مع أنه من أجلى البديهيات، وأظهر المحسوسات.

ثم أخذ سبحانه في تعداد نعمه على خلّص عباده امتنانًا عليهم وتنبيهًا لهم كي يتفطنوا منها بوحدة ذاته، وكمال قدرته وبسطته فقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ التي هي الكرة الحقيقية، المائلة بالطبع إلى التدور والانقلاب ﴿رَوَاسِيَ﴾ شامخاتٍ مخافة ﴿أَن تَمِيدَ﴾ تتحرك وتضطرب وتضر ﴿بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في تلك الرواسي ﴿فِجَاجًا﴾ شقوقًا وأدويةً لتكون ﴿سُبُلًا﴾ ومسالكَ متسعةً وطرقًا واسعةً عنايةً منَّا إياهم ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء:31] من تلك الطرق إلى ما يرومون من الأماكن البعيدة والبلدان النائية، فيتجرون ويتبعون منها مطالبهم ومصالحهم.

﴿وَ﴾ أيضًا قد ﴿جَعَلْنَا السَّمَاءَ﴾ المرفوع فوقهم ﴿سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ لهم فيها أوقات مزارعهم ومتاجرهم، وسائر مصالحهم في البر والبحر، إذ هي من أقوى أسباب معاشهم ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا﴾ الدالة على وحدة مبدعها وكمال قدرة مخترعها وموجدها ﴿مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:32] منصرفون منكرون، لا يتفكرون فيها كي تصلوا إلى زلال توحيدنا، وإلى كمال قدرتنا وإرادتنا.

﴿وَ﴾ كيف لا يتفكرون في خلق السماوات، ولا يتدبرون في الآيات الدالة على وحدة صانعها وبالجملة كيف ينكرون أولئك المنكرون المسرفون وجود موجدها مع أنه سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وقدر لهم ﴿اللَّيْلَ﴾ سببًا ووقتًا لاستراحتهم ورقودهم ﴿وَالنَّهَارَ﴾ لمعاشهم واكتسابهم ﴿وَ﴾ جعل ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ سببين لإنضاج ما يتقوتون ويتفكهون و﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر وسائر السيارات ﴿فِي فَلَكٍ﴾ من الأفلاك السبعة ﴿يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:33] يسيرون ويدورون بسرعة تامة دائمًا بلا قرار وسكونٍ؛ لتدبير مصالحهم، وإصلاح معايشهم، وهم لا يعلمون، ولا يشكرون.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ يعني: إن النصارى ادعوا خلود عيسى وبقاءه بلا طريان موت عليه دائمًا كما كان الآن، وكذا خلود جميع من لحق بالملائكة من البشر، ردَّ الله عليهم على أبلغ وجه وآكده حيث قال: ما جعلنا وقدرنا لبشر من بني نوعك يا أكمل الرسل الخلد والبقاء السرمدي، لا من الذين مضوا قبلك، ولا من الذين يأتون بعدك، إذ هم بشر محدث مركب، وكل مركب محدث لا بدّ أن ينهدم امتزاجه وتنحل أجزاؤه ومزاجه، ولو كان فرد من أفراد المحدث البشر قديمًا لكنت أنت يا أكمل الرسل ألبتة ﴿أَ﴾ تزعم وتردد يا أكمل الرسل ﴿فَإِن مِّتَّ﴾ وعدمت عن الدنيا ﴿فَهُمُ﴾ الذين ادعى الجاهلون خلودهم ﴿الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء:34]

المقصورون على الخلود فيها بلا لحوق عدمٍ عليهم، كلا وحاشا لا يكون الأمر كذلك.

بل ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ ذات أجواء وتركيب خيرة كانت أو شريرة، طويلة مدة عمرها، أو قصيرة، باقية في أهل الأرض، أو ملحقةً بالملأ الأعلى ﴿ذَائِقَةُ﴾ كأس ﴿الْمَوْتِ﴾[1] المدركة مرارتها، والمحتملة أهوال السكرات وأفزاعها، لا ينجو من الموت أحد، وإن علت رتبته وارتفعت مكانته، بل كلكم هلكى في حين ظهوركم ووجودكم المعاد المستعاد ﴿وَ﴾ إنما ﴿نَبْلُوكُم﴾ ونختبركم في وجودكم هذا، ونشأتكم هذه ﴿بِالشَّرِّ﴾ الغير المرتضى عندنا ﴿وَالْخَيْرِ﴾ المرضي، ليكون ابتلاؤنا إياكم ﴿فِتْنَةً﴾ لكم واختبارًا منّا إياكم لحكمة ومصلحة لنا فيها ﴿وَ﴾ بعدما اختبرناكم وابتليناكم في النشأة الأولى ﴿إِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا؛ إذ لا غير في الوجود ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:35] في النشأة الأخرى رجوع الظل إلى ذي الظل، والعكوس إلى الصور، فنجازيكم بها، ونعامل بكم على مقتضى اختبارنا وابتلائنا إياكم في النشأة الأولى.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن من الحكمة البالغة والنعمة السابغة أنه جمع في طينة الإنسان ما أفرد به الملائكة بروح نوراني علوي باق أبدي، وأفرد الحيوانات بروح حيواني سفلي فانٍ، فأفرد الإنسان بتركيب الروحين فيه فانٍ حيواني وباقٍ ملكي، فالحكمة في ذلك: إن الروح الملكي غير متعد، وإنما بقاؤه بالتسبيح والتقديس وهو بمثابة النفس للحيوان، ولهذا ليس للملك الترقي من مقامه والروح الحيواني قابل للترقي؛ لأنه متغذ، فجعل الله الإنسان مركبًا من الروحين؛ لينقطع روحه الملكي بطبع روحه الحيواني المتغذي، وقبول الفناء الذي يعبر عنه بالموت؛ ليصير مترقيًا كالحيوان، وينطبع روحه الحيواني بطبع روحي الملكي؛ ليصير مسبحًا ومقدسًا كالملك باقيًا بعد المفارقة بخلاف الحيوانات؛ ولكن من اختصاص الروح الحيواني في التغذي: أن يجعل الغذاء جنس المتغذي، ويلونه بلونه، وصفته الروح الإنساني أن يكون متلونًا بلون الغذاء ومتصفًا بصفته؛ وذلك لأن غذاء الروح الحيواني الطعام والشراب، وهي من الجماد والنبات والحيوان المذبوح المطبوخ فيهما الرطوبة واليبوسة والحرارة والبرودة مركوزة بالطبع، والروح الحيواني غالب عليها ومتصرف فيها بالطبع فيجعلها من جنس المتغذي، وغذاء الروح الإنساني ذكر الله وطاعته، والشوق والمحبة إلى لقائه الكريم، وفيه النور والجذبة الإلهية وهي غالبًا على الروح؛ فالروح يتجوهر بجوهرها، وفي الجوهرة بجوهر النور الرباني نوع من الفناء عن وجوده والبقاء بنور ربه، فهو بمثابة ميت ذاق الموت، ثم أحيي بنور ربه، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:122] فهذا الموت الذي استحق به الروح الإحياء بنور الله إنما استقاه من النفس الحيوانية التي هي ذائقة الموت.

ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾ الأنبياء: [36 ـ 41].

ثم قال سبحانه امتنانًا لحبيبه ﷺ: ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حين اشتغالك بقراءة القرآن أو بتذكير الأصحاب وعظة أولي الألباب، المشمرين نحو الحق أذيال همِّهم، المستفيدين المسترشدين منك قصارى مقاصدهم هي التوحيد الإلهي ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ أي: ما يتخذونك حين التفاتهم نحوك ﴿إِلاَّ هُزُوًا﴾ أي: محل استهزاء وسخرية قائلين حين بعضهم لبعض مستحقرين شأنك: ﴿أَهَذَا﴾ الرجل الحقير الفقير الملحق بالأرذال والضعفاء ﴿الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ بالسوء، وينكر على شفعائكم ويسيء الأدب مع غاية حقارتهم وضعفهم، وهم من غاية عمههم وسكرتهم، ونهاية غيهم وغفلتهم ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ المنزّه عن شوب الشك وريب التردد ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء:36] منكرون وجوده وتحققه مع كمال ظهوره واستحقاقه بالألوهية والربوبية بالأصالة بخلاف معبوداتهم الباطلة الزائغة؛ إذ هم مقهورون تحت قدرته، مجبورون جنب إرادته واختياره، لا قدرة لهم من أنفسهم أصلاً، فهم بالاستهزاء أحق، وبالاستهانة والسخرية أحرى وأليق.

ثم لما استعجل المنهمكون في بحر الضلال والإنكار، التائهون في تيه العتو والاستكبار نزولَ العذاب وقيام الساعة وجميع الوعيدات الواردة فيها على سبيل الاستهزاء والتهكم، ردَّ الله عليهم إنكارهم واستعجالهم بأبلغ وجه فقال: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ﴾ أي: هذا النوع من الحيوان ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾ يعني: من غاية استعجاله في الخير والشر كأنه مصنوع منه، قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنًا: إلى متى تستعجلون أيها المسرفون المغرورون ﴿سَأُرِيكُمْ﴾ عن قريب في هذه النشأة ﴿آيَاتِي﴾ أي: بعضها من نقماتي التي هي من مقدمات عذاب الآخرة، قيل هي وقعة بدر، إذ المستعجلون هم

قريش، وسيأتي عذاب الساعة، وعذابها بعدها ﴿فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء:37] أيها الضالون المسرفون.

﴿وَ﴾ بعدما سمعوا من الرسول وأصحابه ما سمعوا ﴿يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ﴾ الموعود، والوقت المعهود، عينوا لنا وقت نزول العذاب وقيام الساعة ﴿إِن كُنتُم صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء:38] في دعواكم.

ثم قال سبحانه تفظيعًا لهم وتهويلاً عليهم: ﴿لَوْ يَعْلَمُ﴾ ويطلع ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كيفية ما استعجلوا من العذاب وكميته ﴿حِينَ لاَ يَكُفُّونَ﴾ أي: حين نزل عليهم حتمًا، ولا يمكنهم حينئذٍ أن يدفعوا ﴿عَن وَجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ﴾ لأنهم محاطون بها، مغمورون فيها بحيث لا يسع لهم دفعها بأنفسهم ﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء:39] من الغير.

إذ كل نفس رهينةُ بما كسبت؛ يعني: لو علموا فظاعتها وهولها، لما استعجلوا، لكنهم لا يعلمون لذلك استعجلوا اغترارًا واستكبارًا.

﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ العذاب والساعة حين تأتيهم ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ودفعة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي: تحيرهم وتدهشهم وقت ظهورها، فصاروا حينئذ حيارى سكارى مدهوشين ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾ ردها إذ لا راد لقضاء الله ولا معقب لحكمه، سيما بعد نزوله ﴿رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء:40] ويمهلون حينئذ أن استمهلوا.

﴿وَ﴾ لا تبال بهم يا أكمل الرسل، ولا تحزن عن استهزائهم وسخريتهم؛ إذ ﴿لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ كثير مضوا ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ استهزءوا معهم أممهم مثل ما استهزءوا معك قريش ﴿فَحَاقَ﴾ وأحاط بالآخرة ﴿بِالَّذِينَ﴾ أي: بالمستهزئين الذين ﴿سَخِرُوا مِنْهُم﴾ أي: من الرسل وبالَ ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنبياء:41] ويستسخرون، وبأضعاف ما لحق لهؤلاء المعاندين المكابرين فلا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يستهزئون.

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم

بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ الأنبياء: [42 . 46].

وإن أنكروا إلمام العذاب وإنزاله عليهم ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل نيابة عنّا: ﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾ ويتحفظكم ﴿بِاللَّيْلِ﴾ وقت فراغكم ومنامكم ﴿وَالنَّهَارِ﴾[1] وقت شغلكم وترددكم ﴿مِنَ﴾ نزول العذاب عذاب ﴿الرَّحْمَنِ﴾ القادر على أنواع القهر والانتقام بمقتضى جلاله، لو لم يرحم عليكم بمقتضى لطفه وجماله، لكن يرحم عليكم، فلم يعذبكم رجاء أن تنتبهوا وتواظبوا على شكر نعمه، وأداء حقوق كرمه ﴿بَلْ هُمْ﴾ من شدة غفلتهم وسكرتهم ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّهِم﴾ الذي يحفظهم عن أنواع المكروهات والمؤذيات ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:42] لا يتوجهون نحوه ولا يلازمون عبادته ولا يداومون شكره.

﴿أَمْ﴾ يزعمون أولئك المصرون المسرفون أن يدفعوا عذابنا النازل لهم بقوة نفوسهم ﴿لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم﴾ أي: تمنع عنهم العذاب مع أنهم ﴿مِّن دُونِنَا﴾ شركاء لنا في الألوهية والربوبية كما زعموا، وتشفع لهم عندنا، كلا وحاشا أن يسع لآلهتهم هذا؛ إذ ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾ أولئك التماثيل الهلكى ﴿نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ لا يقدرون لدفع ما لحقهم ونزل عليهم من المكروهات فكيف عن غيرهم؟ ﴿وَلاَ هُم﴾ أي: آلهتهم ﴿مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء:43] ويقربون حتى يشفعوا لهم، ويدفعوا عذابنا عنهم بواسطة قربتهم وصحبتهم معنا، وإن خيلوا أن إمهالنا إياهم وآباءهم متنعمين مترفهين طول أعمارهم أمارة عدم أخذنا إياهم وانتقامنا منهم، إنما هو خيال باطل، ووهم زائغ زائل مما سولت لهم أنفسهم بتغرير إبليس عليهم.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ﴾ المسرفين المعاندين ﴿وَآبَاءَهُمْ﴾ الضالين المستكبرين ﴿حَتَّى

---

[1] قال في التأويلات: أي: نهار نور روحانيتهم من سطوات قهر الجلال الذي الرحمانية من صفاته، كما أن الرحمية من صفات الجمال بأن يبعث عليهم عذابًا في ظاهرهم أو باطنهم بأن يكلهم إلى ظلمة ليل بشريتهم وهي الجهل؛ ليبقوا بالجهل في أسفل سافلين النفس النفسانية إلى الأبد، أو يكلهم بالخذلان إلى نهار نور الروحانية، وهو العقل ليبقوا، فما حجب المعقولات كالفلاسفة، فإن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة وهي حجب البشرية والرحمانية، فالمحجوبون بحجب البشرية أرجى خلاصًا من المحجوبين بحجب الروحانية؛ لأنهم مقرون بجهالتهم وهؤلاء معذورون بمقالتهم وهم من الأخسرين.

طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ فارتكبوا أنواع المعاصي والآثام مدة حياتهم فظنوا أنهم مصونون عن الأخذ والانتقام، ونزول العذاب والنكال ﴿أَ﴾ يتوهمون من إمهالنا إياهم هذا الموهوم ﴿فَلَا يَرَوْنَ أَنَّا﴾ من مقام قهرنا وانتقامنا إياهم ﴿نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أي: نبعث ونغلب جنود المسلمين على أرض الكفرة بحيث ﴿نَنقُصُهَا﴾ ونخربها مبتدئين ﴿مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ إلى أن وصل إلى أقاصيها ﴿أَ﴾ يزعمون ويتوهمون بعد أخذنا في تخريبه أطراف بلادهم وتنقيصها ﴿فَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء:44] على جنودنا وجنود أنبيائنا ورسلنا، ما هو إلا زعم فاسد، فإن ادعوا أنا وآباؤنا دائمًا مستمرًا في كنف حفظ الله وجوار صونه من أعمارنا، فمن أين تخوفنا وتنذرنا أنت من إنزال الله العذاب علينا بغتة مع أنه لم يعهد لنا ولا لآبائنا منه تعالى أمثال هذا.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم: ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُم﴾ أي: ما أنذركم وأخوفكم من تلقاء نفسي بل ﴿بِالْوَحْيِ﴾ المنزل عليّ من عند الله، المشتمل على إنذاركم وتخويفكم.

ثم قال سبحانه توبيخًا عليهم وتقريعًا: ﴿وَ﴾ كيف يرشدكم ويهديكم الرسول المنزل إليكم، المؤيد بالآيات والمعجزات أيها المقصورون على الصمم الحقيقي والإعراض الفطري الجبلي إذ ﴿لَا يَسْمَعُ﴾ الرسولُ ﴿الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ والذكرَ المتضمنَ لأنواع الهداية والرشاد، ولا يسع له إسماعكم ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء:45] أي: إلا وقت قابليتكم والتفاتكم إلى الإنذار والتخويف، وأنتم من شدة صممكم وقسوتكم خارجون عن قابلية الإنذار والإرشاد والوعد والوعيد.

﴿وَ﴾ اللهِ يا أكمل الرسل ﴿لَئِن مَّسَّتْهُمْ﴾ وظهرت عليهم ﴿نَفْحَةٌ﴾ واحدة مني ورائحة قليلة ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ نازلة على سبيل المقدمة والأنموذج ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ مصرخين صائحين متضرعين معترفين بذنوبهم قائلين: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ وهلاكنا تعالى ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:46] خارجين عن حدود الله مستوجبين للمقت والهلاك، أدركنا فقد حان حينك وقرب أوانك.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ الأنبياء: [47 ـ 50].

﴿وَ﴾ بمجرد اعترافهم بظلمهم لا نأخذهم ولا نعذبهم حينئذٍ بل ﴿نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾[1] العدل المسوى المستقيم بحيث لا عوج ولا انحراف لها إلى جانبٍ أصلاً، المعدة ﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لنوزن فيها أعمال العباد صالحها وفاسدها، ثم نجازيهم على مقتضى ما ظهر منها ﴿فَلاَ تُظْلَمُ﴾ وتنقص ﴿نَفْسٌ شَيْئًا﴾ من جزائها، ولا تزداد عليها أيضًا سواء كان خيرًا أو شرًا، ثوابًا أو عقابًا على مقتضى عدلنا القويم وصراطنا المستقيم ﴿وَإِن كَانَ﴾ العمل والظلم وزنه ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ كائنة ﴿مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ مع أنها لا اعتداد لها، وجازينا صاحبها عليها تتميمًا لعدلنا، وتوفيةً لحقوق عبادنا ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:47] أي: كفى حسابنا لحقوق عبادنا أو لا يعزب عن حيطة حضرة علمنا شيء منها وإن قلَّ وحقر.

ثم قال سبحانه على سبيل التذكير والعظة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ من تمام فضلنا وجودنا

---

(1) قال البقلي: إن الله موازين عدله القديم لا تتغير بتغير الحدثان ولا برسوم الزمان والمكان، وكل ميزان له موضع ومقام فمنها للعاشقين، ومنها للعارفين منهما للمحبين، ومنها للمشتاقين، ومنها للمستأنسين، ومنها للخاضعين، ومنها للأواهين من غلبة قهر المواجيد، ومنها للواجدين، ومنها للعالمين، ومنها للباكين عليه منه فيزن بها معالي هممهم ومقادير محنهم في زمان هجرانه وأوان امتحانه فيبقيهم بجلال قدره ما لا يحصى عدده من قرب مشاهدته وحسن وصاله فيفتح لهم خزائن وجود الأزل، وله ميزان للعارفين يزن أنفاسهم به يضع نفسًا من أنفاسهم المعجونة بنفس صبح روح الأزل في كفه، ويضع جميع الجنان في أخرى، فيرجح ما فيه نفس العارف بحيث لا يبقى في جنبه الحدثان؛ لأنه خرج من غيب الرحمن منورًا بنوره.

قال القاسم: الأعمال والموازين شتى، والعدل ميزان الله في الأرض؛ فمن وزن أعماله بميزان العدل؛ فهو من العابدين، ومن وزن حركاته بميزان الله في الأرض، فمن وزن أعماله بميزان العدل؛ فهو من العابدين، ومن وزن حركاته بميزان العدل؛ فهو من المحبين، ومن وزن خطراته وأنفاسه بميزان العدل؛ فهو من العارفين.

وميزان العدل في الدنيا ثلاثة: ميزان للنفس والروح، وميزان للقلب والعقل، وميزان للمعرفة والسر؛ فميزان النفس والروح الأمر والنهي، وكفتاه الوعد والوعيد، وميزان القلب والعقل الإيمان والتوحيد وكفتاه الثواب والعقاب وميزان المعرفة والسر الرضا والسخط، وكفتاه الهرب والطلب؛ فمن وزن أفعال النفس والروح بميزان الأمر والنهي بكفة الكتاب والسنة، ينال الدرجات في الجنان، ومن وزن حركات القلب والعقل بميزان الثواب والعقاب بكفة الوعد والوعيد أصاب الدرجات ونجا من جميع المشقات ومن وزن خطرات المعرفة والسر بميزان الرضا والسخط بكفة الهرب والطلب نجا من الذي هرب، ووصل إلى ما طلب فيصير عيشه في الدنيا على الهرب، وخروجه منها على الطلب وعاقبته إلى غاية الطرب؛ فمن أراد الوصول إلى المسبب فعليه بالهرب من السبب؛ فإن السبب حجاب كل طالب.

﴿مُوسَى وَ﴾ أخاه ﴿هَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ أي: التوراة الفارق بين الحق والباطل ﴿وَ﴾ لكمال فرقه وفضله صار ﴿ضِيَاءً﴾ يستضيء به عموم المؤمنين الموحدين من المِلِّيين التائهين في ظلمات الغفلات والجهالات وأنواع الضلالات ﴿وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء:48] منهم المتذكرين الوقوف بين يدي الله يوم العرض الأكبر.

وهم ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي: بضمائرهم وسرائرهم كما يخشون سنه سبحانه بظواهرهم وعلَنهم ﴿وَ﴾ مع ذلك الخوف المستوعب لجوانحهم وجوارحهم ﴿هُم مِّنَ السَّاعَةِ﴾ الموعودة إتيانها، المتحققة وقوعها وقيامها حقًا حتمًا محققًا ﴿مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:49] خائفون مرعوبون كأنها واقعة آتية.

﴿وَهَذَا﴾ القرآن الفرقان الجامع أيضًا ﴿ذِكْرٌ﴾ وتذكير لعموم الموحدين من أمة محمد ﷺ مبارك كثير الخير والبركة للموقنين المخلصين منهم، الواصلين إلى مرتبة الفناء في الله ﴿مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ من كمال فضلنا ولطفنا إلى محمد خاتم الرسالة، ومتمم مكارم الأخلاق، ومكمل دائرة الرسالة والنبوة عليه من الصلاة، والتحيات ما هو الأولى والأحرى ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُ﴾ ولكتابه ﴿مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء:50] أيها المسرفون المستكبرون؟!.

﴿ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنبياء: 51 – 57]

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ وأعطينا ﴿إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ أي: كمال عقله ورشاده إلى حيث أيقظناه عن سِنة الغفلة، فأخذ لطلب المعارف، والحقائق وسلوك طريق التوحيد، والتوجه نحو الحق ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل موسى وهارون ﴿وَكُنَّا بِهِ﴾ أي: بكمال استعداده وقابليته لحمل أعباء الرسالة والنبوة، وانكشافه بسرائر التوحيد ﴿عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:51] بحضرة علمنا في لوح قضائنا.

اذكر يا أكمل الرسل: ﴿إِذْ قَالَ﴾ جدك إبراهيم ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ حين جذبه الحق نحو جنابه وهداه إلى بابه، مستفهمًا على سبيل الإنكار والتقريع: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾

الباطلة والهياكل الزائغة الزائلة ﴿الَّتِي أَنتُمْ﴾ مع كونكم من زمرة العقلاء المجبولين لمصلحة التوحيد والعرفان ﴿لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء:52] عابدون متذللون، مع أنها جمادات لا شعور لها ولا حركة، فكيف المعرفة واليقين وعبادة الفاضل للمفضول المرذول في غاية السقوط عند ذوي النهي وأولي الألباب؟.

ولما تفرسوا منه الرشد التام ووجدوا قوله معقولاً محكمًا ﴿قَالُوا﴾ في جوابه: ما نعرف استحقاق هؤلاء التماثيل للعبادة والألوهية، ولا تنكشف بسرائرها، غير أنا ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ وأسلافنا ﴿لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:53] فنعبدهم كما عبدوها، مع أنهم كانوا من ذوي الفطنة والرشاد، فنعتقد أنهم انكشفوا بأسرارها، وما لنا شغلُ باستكشافها سوى أن نعبد بما يعبد أولئك الأسلاف.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم بعدما انكشف بالحق وظهر عنده ضلالهم وضلال آبائهم: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ﴾ أيها الحمقى المنهمكون في بحر الغفلة والغرور ﴿وَآبَاؤُكُمْ﴾ أي: تابعكم ومتبوعكم وأصلكم وفرعكم ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء:54] وغفلة عظيمة من الهداية وسلوك طريق الحق.

ثم لما سمعوا منه ما سمعوا من التضليل والتجهيل ﴿قَالُوا﴾ له: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ أيها المدّعي ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالجد الصريح الواضح المنكشف المبين ﴿أَمْ أَنتَ﴾ في تضليلك وتجهيلك إيانا ﴿مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ [الأنبياء:55] بنا المستهزئين معنا.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم: لا لعب ولا سخرية في أمور الدين سيما في معرفة الألوهية والربوبية، وبالجملة ما هذه التماثيل العاطلة أربابكم الذين أوجدوكم وأظهروكم من كتم العدم ﴿بَل رَّبُّكُمْ﴾ وموجدكم ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: موجد العلويات والسفليات، ومربيها واحدُ أحدُ فردُ وترُ، لا تعدد له، ولا اثنينية فيه، متصرِّف بالاستقلال في ملكه؛ إذ هو ﴿الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ وأبدعهن اختياره، وانفراده بلا سبق مادة ومدة ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ أي: على الأمور التي بينت لكم وأوضحها عندكم ﴿مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء:56] أي: من أرباب الشهود المتحققين بمرتبة الكشف واليقين الحقي، لا من أصحاب التقليد والتخمين.

﴿وَ﴾ بعدما جرى بينه وبينهم ما جرى، سفهوه واستهزؤوا معه، ونسبوه إلى الخبط والجنون، وانصرفوا عنه متعجبين إلى مجامعهم ومعابدهم التي اجتمعوا فيها لعبادة الأصنام، قال إبراهيم مقسمًا مؤكدًا بالغًا: ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ﴾ أي: لأحتالن وأمكرن؛

لأن أكسر ﴿أَصْنَامَكُم﴾ ومعبوداتكم أيها الجاهلون لتفضحوا أنتم وهؤلاء الأباطيل الزائغة ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا﴾ وتنصرفوا ﴿مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء:57] من مجمعكم ومعبدكم.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبياء: 58 – 68].

ثم لما ذهبوا إلى معبدهم دخل إبراهيم كنيستهم ومعبدهم التي فيها أصنامهم وأوثانهم ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ كلها ﴿جُذَاذًا﴾ قطعًا منكسرة وأجزاء متلاشية ﴿إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ يعني: لم يكسر الصنم الكبير من الأصنام فقط؛ ليكون سببًا لإلزامهم، وإفحامهم لدى الحاجة ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الصنم الكبير ﴿يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:58] أي: يراجعون له ويستفسرون منه عن كسر الأصنام؛ لأنهم اعتقدوه أعظم الآلهة، والإله لا بدّ أن يجيب لهم جميع حوائجهم وحاجاتهم.

ثم لما رجعوا من معبدهم ودخلوا إلى معابدهم وكنائسهم للعبادة والتقرب نحو الآلهة، وجدوها مجذوذة منكسرة متفرقة الأجزاء ﴿قَالُوا﴾ من فرط حزنهم وأسفهم مستبعدين مستحسرين: ﴿مَن فَعَلَ هَذَا﴾ الفعل الفظيع والأمر الفجيع ﴿بِآلِهَتِنَا﴾ ومعبوداتنا ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:59] الخارجين عن شعائر ديننا الجاحدين لآلهتهم.

﴿قَالُوا﴾ أي: السامعون منهم للسائلين: ﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾ نكّروه تحقيرًا له، وإهانة عليه ﴿يَذْكُرُهُمْ﴾ أي: الآلهة بالسوء دائمًا، ويعيب عليهم، وينكرهم ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء:60].

ثم لما انتشر الخبر واجتمعوا في المعبد مزدحمين متشاورين في انتقامه، واستقرار رأيهم عدمًا تمادى مشورتهم إلى أن ﴿قَالُوا﴾ متفقين: ﴿فَأْتُوا بِهِ﴾ أي: بإبراهيم ﴿عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ ورؤوس الملأ والأشهاد ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء:61] يحضرون ويجتمعون؛ يعني: جميع المعبودين لقتله وهلاكه، حتى ينال كل منهم نصيب حظه من نصر الآلهة.

ثم لما حضر نمرود واجتمع أشراف مملكته، وازدحم العوام والخواص، وأحضروه لينتقموا عنه ﴿قَالُوا﴾ أولاً له على سبيل التعيير والتقريع: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا﴾ الفعل الشنيع، والأمر القطيع الفجيع ﴿بِآلِهَتِنَا﴾ ومعبوداتنا ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء:62] المرذول المجهول.

﴿قَالَ﴾ في جوابهم على مقتضى اعتقادهم وزعمهم: أنا عبد مألوه مربوب، وهم آلهة معبودون، كيف أقدر أن أفعل بهم هذا ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ أي: هذا الصنم الغير المنكسر؛ لئلا يشاركوا معه في المعبودية والألوهية، وإن شككتم أنه فعل هذا هو أم أنا ﴿فَاسْأَلُوهُمْ﴾ أي: الآلهة ﴿إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء:63] يعني: إن اعتقدتم نطقهم وتكلمهم؛ لأنهم آلهة، ومن لوازم الألوهية: التكلم، والتنطق، بل أنتم تعتقدون أن هؤلاء خلقوا جميع أهل التكلم واللسان، فهم أولى وأحق بجواب سؤالكم هذا.

ولما سمعوا منه ما سمعوا ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ متأملين؛ أي: رجع كل منهم إلى وجدانه ونفسه متفكرًا متدبرًا ﴿فَقَالُوا﴾ أي: كل منهم في سره ونجواه: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها الجاهلون الغافلون عن قدر الألوهية والربوبية ﴿أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنبياء:64] المقصورون على الخروج عن مقتضى العقل الفطري والرشد الجبلي، ما هذه إلا تماثيلٌ مصنوعةٌ لكم منحوتة بأيديكم، من أين توجدكم وتخلقكم، بل أنتم موجدوها ومخترعوها.

﴿ثُمَّ﴾ لما تفرسوا بخطئهم وتفطنوا بحقية إبراهيم وصدقة في مقاله، أزعجتهم الغيرة البشرية والحمية الجاهلية إلى المراء والمجادلة معه لذلك ﴿نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ يعني: بعدما علموا أعلى الأمر وأسفله، وفرقوا بين الحق والباطل، أرادوا أن يقلبوا الأمر وعكسوه عنادًا ومكابرة وقالوا مكابرة: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ أيها المجادل المفتون ﴿مَا هَؤُلَاءِ﴾ الآلهة ﴿يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء:65] إذ هم جمادات لا حس لهم ولا شعور، كيف يتيسر لهم التكلم والتنطق.

وبعدما اعترفوا بجمادية آلهتهم وعدم قابليتهم للنطق، والتنطق، والتكلم ﴿قَالَ﴾ إبراهيم موبخًا عليهم ومقرعًا: ﴿أَ﴾ ما تستحيون وتخجلون أيها الضالون المكابرون ﴿فَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد المتوحد بالألوهية والربوبية، المستقل بجميع التصرفات الواقعة في عالم الغيب والشهادة ﴿مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَيَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء: 66] أي: أصنامًا وأوثانًا، لا يرجى منهم النفع والضر.

ثم لما قال على سبيل الضجر والإكراه عن أمرهم، والتأسف على ضيق عقلهم المفاض لهم من ربهم لمصلحة المعرفة والإيمان: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾ أي: قبحًا لكم أيها المطرودون المردودون عن زمرة العقلاء ﴿وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ المستقل للنفع والضرر، وجلب أنواع الخيرات، ودفع أصناف المضرات ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:67] أيها المتخذون لله شركاء، ولا تستعملون عقولكم الموهبة لكم لكسب المعارف والحقائق؛ لتتفطنوا إلى سرائر التوحيد الخالي عن شوب التخمين وشين التقليد ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40].

ثم لما سمعوا منه التعيير والتشنيع ثارت نار حميتهم واشتد غيظ غيرتهم ﴿قَالُوا﴾ بعدما شاوروا كثيرًا في وجه إهلاكه وانتقامه: ﴿حَرِّقُوهُ﴾ إذ لا عذاب أقرع وأهول منه ﴿وَانصُرُوا﴾ بحرقة ﴿آلِهَتَكُمْ﴾ لأن التعذيب بالنار مخصوص بالإله، كما قال «لاَ يُعَذِّبُ بِالنَّارِ غَيْرُ خَالِقِهَا»[1] ولما كان تعذيبهم إياه لأجل آلهتهم، لذلك اختاروا تعذيبه بالنار ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[2] [الأنبياء:68] ناصرين آلهتكم بأخذ انتقامهم عنه.

---

(1) رواه البيهقي في «السنن» (179/2) رقم 18525 بنحوه.

(2) قال في التأويلات: إشارة إلى أن الله تعالى إذا أراد أن يكمل العبد من عباده المخلصين يفديه خلقًا عظيمًا، كما أنه تعالى إذا أراد استكمال حوت في البحر يفديه كثيرًا من الحيتان الصغار، فلمّا أراد تخليص إبريزة الخلة من غش البشرية جعل نمرود وقومه مثلةً لإبراهيم ﷺ حتى أجمعوا بعد أن علموا أنهم ظالمون، فوضعوه في المنجنيق ورموه إلى النار، فانقطع رجاءه عن الخليقة بالكلية متوجهًا إلى الله مسلمًا نفسه إليه حتى أن جبريل ﷺ أدركه في الهوى فامتحنه بقوله: هل لك من حاجة ما كان فيه بقية من الوجود ما تعلق به الحاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا، فقال له جبريل: ربك امتحانًا له خفي سره عن جبريل غيره، فقال: حسبي من سؤال علمه بحال، وما أظهر عليه حاله، فأدركته العناية الأزلية بقوله تعالى على كافة الخلق، بل على جميع الأشياء.

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنبياء: 69 – 75].

ثم لما حفروا البئر، وبنوا الحفرة، وجمعوا الحطب، وأوقدوا النار، علقوا المنجنيق ووضعوه فيه ورموه إليها ﴿قُلْنَا﴾ حينئذ حافظين لخليلنا له، مخاطبين للنار: ﴿يَا نَارُ﴾ المجبولة المطبوعة بالحرق والحرارة ﴿كُونِي بَرْدًا﴾ واتركي الحرق والحرارة ﴿وَ﴾ لا تضري لخليلنا بالبرودة أيضًا، بل صِيري ﴿سَلامًا﴾ أي: ذات سلام وسلامة ﴿عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:69] ولا تضري له.

﴿وَ﴾ بعدما علموا وأبصروا أن النار لا تضره، بل صارت له روحًا وريحانًا، أُفحموا وألزموا وكيف لا يفحمون ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ ومكرًا لينتقموا عنه، ويبطلوا دعواه التوحيد، فعاد عليهم الإلزام والإبطال، فغلبوا هنالك ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء:70] فيما قصدوا له وانقلبوا عن مجمعهم خاسرين خائبين خسرانًا مبينًا وخيبة عظيمة.

﴿وَ﴾ بعدما فعلوا مع خليلنا إبراهيم ما فعلوا ﴿نَجَّيْنَاهُ﴾ من مقام جودنا ولطفنا ﴿وَ﴾ صاحبناه مع ابن أخيه ﴿لُوطًا﴾ وبعثناهما عنايةً منَّا إياهما ﴿إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ وصيرناها كثير الخير والبركة وذات الأمن واليُمن والأمان والإيمان ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:71] أي: لجميع من ينزل ويؤول إليها من أهل الدين والدنيا، وهي الشام التي هي منازل الأنبياء والأولياء، ومقر السعداء والصلحاء، ومهبط الوحي الإلهي، لذلك ما بعث نبي إلا فيها وفي حواليها.

قيل: نزل إبراهيم عليه السلام بعدما جلا من وطنه بـ«فلسطين» من الشام، ولوط بـ«السدوم» وبينهما مسيرة يوم وليلة.

﴿وَ﴾ بعدما مكناه في الأرض المقدسة ﴿وَهَبْنَا لَهُ﴾ من رحمتنا تفريجًا لقلبه من كربة الغربة، وتشريحًا لصدره، وتقريرًا لعينيه: وَلَدَيه ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يزول حزنه بهما، وهبنا له إسحاق إجابة لدعائه بقوله: ﴿هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات:100] وإنما أعطيناه يعقوب ﴿نَافِلَةً﴾ منَّا إياه، وزيادة فضل وعطية تكريمًا له وامتنانًا عليه ﴿وَكُلًّا﴾ من ولديه ﴿جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ [الأنبياء:72] للنبوة والرسالة وقبول سرائر التوحيد، وأسرار الألوهية والربوبية في قلوبهم.

﴿وَ﴾ لصلاحيتهم واستعدادهم لقبول الخيرات ﴿جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ وقدوة هادين مهديين ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس ﴿بِأَمْرِنَا﴾ ووحينا إلى زلال توحيدنا ﴿وَ﴾ بعدما جعلناهم قدوة هادين ﴿أَوْحَيْنَا﴾ وألهمنا تتميمًا لإهدائهم وإرشادهم ﴿إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ والإتيان بالأعمال الصالحات، وعموم الطاعات والمبرات، لتكون لهم وسيلة مقربة لهم إلى توحيدنا ﴿وَ﴾ أوحينا خاصة ﴿إِقَامَ الصَّلَاةِ﴾ المتضمنة لتوجههم نحو الحق بجميع القوى والحركات والأركان والجوارح ﴿وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ المصفية لقلوبهم عما سوى الحق ﴿وَ﴾ هم بمقتضى أمرنا ووحينا إياهم ﴿كَانُوا لَنَا﴾ خاصة بلا رؤيتهم الوسائل، والأسباب العادية في البين ﴿عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:73] متذللين متواضعين مخلصين بظواهرهم وبواطنهم وجميع أعمالهم وحركاتهم.

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ﴾ من مقام فضلنا وجودنا ﴿حُكْمًا﴾ وقطعًا للخصومات، وفصلاً للخطوب والمهمات ﴿وَعِلْمًا﴾ بسرائر الأمور ورموزها وإشاراتها الدالة على وحدة الصانع الحكيم، وسرّ سريان هويتها الذاتية على صفائح ما ظهر وما بطن ﴿وَ﴾ من كمال لطفنا معه ﴿نَجَّيْنَاهُ مِنَ﴾ فتنة ﴿الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت﴾ أهلها ﴿تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ أي: الفعلة الشنيعة والديدنة الخسيسة الخبيثة المذمومة المسقطة للمروءة عقلاً وشرعًا، وعرفًا وعادة، وهي التعري بين أظهر الناس، واللواط، والضراط على الملأ، وبالجملة ﴿إِنَّهُمْ﴾ من غاية قسوتهم وغفلتهم ﴿كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء:74] مغمورين بين أنواع الفسق، منغمسين في أصناف المعاصي والآثام.

﴿وَ﴾ بعدما انتقمنا عنهم وأهلكناهم بأشد العذاب ﴿أَدْخَلْنَاهُ﴾ ومن معه ممن سبقت لهم منَّا الحسنى ﴿فِي رَحْمَتِنَا﴾ وكنف حفظنا وجوارنا ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء:75] لعبادتنا المقبولين في حضرتنا.

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾[الأنبياء: 76 – 81].

﴿وَ﴾ نجينا أيضًا من كمال لطفنا وجودنا ﴿نُوحًا﴾ وقت ﴿إِذْ نَادَى﴾ ودعا متوجهًا إلينا متضرعًا ﴿مِن قَبْلُ﴾ حين كذَّبه قومه واستهزؤوا معه، وضربوه ضربًا مؤلمًا بقوله: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح:26] ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دعاءه وأنجحنا مطلوبه ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ﴾ [الأنبياء:76] الذي هو الطوفان.

﴿وَ﴾ حين اضطروه وأشرفوا على الهلاك ناجانا فزعًا فجيعا بقوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر:10] ﴿وَ﴾ لذلك ﴿نَصَرْنَاهُ﴾ وجعلناه منتصرًا ناجيًا ﴿مِنَ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على عظمة ذاتنا وكمال أسمائنا وصفاتنا، وذلك أنه دعاهم إلى الإيمان والتوحيد، وهداهم إلى صراط مستقيم، وهم امتنعوا عن القبول ﴿إِنَّهُمْ﴾ من شدة شكيمتهم وغلظ غيظهم مع أهل الحق ﴿كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾ كأنهم مغمورون فيه متخذون منه ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾ لذلك ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء:77] تطهيرًا للأرض من فسادهم، وقلعًا لعرق غيّهم وعنادهم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل في كتابك قصة ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ وقت ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحَرْثِ﴾ أي: زرع القوم ﴿إِذْ نَفَشَتْ﴾ ودخلت ﴿فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ﴾ الآخر ليلاً، فأكلته وأهلكته، فتنازعا ورفعا الأمر إليهما، واستحكما منهما فحكم داود بالغنم على صاحب الزرع، بناء على أن صاحب الغنم لا بدَّ له أن يضبط غنمه ليلاً؛ لئلاً يخسر ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ﴾ أي: لحكم داود إياهم؛ أي: لأصحاب الزرع بالغنم ﴿شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: 78] مطلعين اطلاع شهود وحضور.

وبعدما حكم داود ما حكم، وكان ابنه سليمان حاضرًا عنده سامعًا لحكمه ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ أي: ألهمنا الحكومة الحقّة والفتوى في هذه القضية ﴿سُلَيْمَانَ﴾ وهو ابن إحدى عشرة سنة، فقال: الأرفق أن يدفع الغنم إلى أصحاب الحرث؛ لينتفعوا من ألبانها وأصوافها، والحرث إلى صاحب الغنم ليقوم بسقيها وحفظها ورعايتها، حتى يعود إلى الذي كان، ثم يترادان ويتدافعان، فقال داود لسليمان: القضاء ما قضيت، فرجع عن حكمه، وحَكَم بحكم ابنه ﴿وَ﴾ إن كان ﴿كُلًّا﴾ منهما ﴿آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: رشدًا صوريًا ومعنويًا بمقتضى قابليتها واستعدادهما ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ﴾ تفضلاً منّا عليه وتكريمًا ﴿الْجِبَالَ﴾ إلى حيث ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ ويقدسن الله عما لا يليق بجنابه معه حين اشتغل بتسبيح الله وتقديسه ازديادًا لثوابه ورفعًا لدرجته ﴿وَ﴾ كذا ﴿الطَّيْرَ﴾ أي: الطيور معه حين اشتغاله بتكبير الله وتنزيهه ﴿وَكُنَّا﴾ وبأمثاله ﴿فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:79] لأنبيائنا وأوليائنا، ومن يتوجه نحونا من عبادنا، فلا تتعجبوا من أمثال هذا، ولا تستبعدوا عن قدرتنا أمثال إبداعها.

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿عَلَّمْنَاهُ﴾ من مقام جودنا إياه ﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ أي: الدرْوع، وما يلبس للدفع حين الحراب والقتل، فكانت الدروع صفائح تخلقها داود، وسردها بإلهام الله إياه وتعليمه، إنما علمناه تخليقها وسردها ﴿لِتُحْصِنَكُمْ﴾ وتحفظكم ﴿مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي: من جراحات السهام والسنان، إذ هو أدفع لآثارها من الصفائح، وأخف منها ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ﴾ أيها المنعمون المتنعمون ﴿شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء:80] لوفور نعمنا إياكم.

﴿وَ﴾ كذا سخرنا ﴿لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ حال كونها ﴿عَاصِفَةً﴾ سريعة السير والحركة، آبية عن التسخير، سخرنا له حيث ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ وحكمه سريعة ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا﴾ أي: كثرنا الخير ﴿فِيهَا﴾ لساكنيها، وكذا لجميع من يأوي إليها، وهي أرض الشام فكان يسير مع جنوده متمكنين على بساط كان فرسخًا في فرسخ، منسوج من الإبريسم عملته الجن له حيث شاء، ثم يعود من يومه إلى منزله ﴿وَ﴾ لا تستبعدوا منّا أمثال هذا؛ إذ ﴿كُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ تعلق إرادتنا بإيجاده ﴿عَالِمِينَ﴾[1]

(1) قال نجم الدين: يُشير إلى أن كمالية الإنسان إذا بلغ مبلغ الرجال البالغين من الأنبياء والأولياء، سخّر الله بحسب مقامه السفليات والعلويات من الملك والملكوت، فسخر لسليمان ﷺ الريح والجن والشياطين والطير والحيوانات والمعادن والنبات من العلويات الشمس حين ردت لأجل صلاته، كما سخر لداود الجبال والطير والحديد والأحجار التي قتل بها جالوت وهزم

[الأنبياء:81] بأسباب وجوده وظهوره، فنوجده على الوجه الذي نريده ونُجريه على مقتضى حكمتنا وقدرتنا.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: 82 - 88].

﴿وَ﴾ كذا سخرنا لسليمان ﴿مِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾ البحار، ويخرجون منها نفائس الجواهر تتميمًا وتوفيرًا بخزانته ﴿وَيَعْمَلُونَ﴾ أيضًا ﴿عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ﴾ الغوص من بناء الأبنية الرفيعة، والقصور المنيعة، واختراع الصنائع البديعة الغريبة والهياكل البديعة والتشكيلات العجيبة ﴿وَكُنَّا لَهُمْ﴾ من قبل سليمان ﴿حَافِظِينَ﴾ [الأنبياء:82] مشغلين مشرفين إياهم، لا يمكنهم أن يفسدوا في أعمالهم وأشغالهم

عسكرهم، فسخر لكل نبي شيئا آخر من أجناس العلويات والسفليات، وسخر لنبينا ﷺ من جميع أجناسها.

* فمن السفليات ما قال ﷺ: «زويت لي الأرض مسجدًا وترابها طهورًا»، وقال ﷺ: «أوتيت مفاتيح خزائن الأرض»، وكان الماء ينبع من بين أصابعه.

وقال ﷺ: «نُصرت بالصبا وأهلكت عاد بالزبور» وكانت الأشجار تسجد له، وتسلم عليه، وتسجد له، وتنقلع بإشارته عن مكانها وترجع، والحيوانات كانت تتكلم معه، وتشهد بنبوته، وقال ﷺ: «أسلم شيطاني على يدي» وغيره من السفليات.

* وأمّا العلويات: فقد انشق القمر بإشارة وسخر له البراق وجبريل والرفرف، وعبر عن السماوات السبع والعرش والكرسي والجنة والنار إلى أن بلغ مقام قاب قوسين، أو أدنى، فما بقي شيء من الموجودات إلا وقد سخر له.

ويزيغوها على مقتضى أهويتهم وطباعهم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل أخاك ﴿أَيُّوبَ﴾ الذي ابتلاه الله بأنواع المحن والبلاء، فصبر عليها فازداد ألمه، واشتد الأمر عليه واضطر إلى التضرع والتفزع، وبثِّ الشكوى إلى الله، اذكر ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ مشتكيًا إليه، مناجيًا له، متضرعًا إياه قائلاً: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ يا رب، وتنحَوا عني أقاربي وذوو أرحامي وجميع رحمائي ﴿وَأَنْتَ﴾ تبقى عليّ رحيمًا مشفقًا؛ لأنك ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء:83] فأدركني بلطفك؛ إذ لا طاقة لي ولا صبر بعد اليوم، وقد بلغ الجهد غايته.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دعاءه ﴿فَكَشَفْنَا﴾ عنه ﴿مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ مؤلم مزعج ﴿وَ﴾ بعدما شفيناه وأزلنا عنه مرضه ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ﴾ وأحيينا الذين هلكوا بسقوط البيت عليهم، وأمواله التي تلفت بالحوادث والنوائب ﴿وَ﴾ زدناها امتنانًا له وتفضلاً عليه ﴿مِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ إياه وزيادة إنعامٍ وإحسان منّا عليه ﴿وَ﴾ ليكون ما فضلنا به وأعطيناه ﴿ذِكْرَىٰ﴾ تذكرة وحثًا ﴿لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:84] الذين صبروا على مشاق التكاليف، ومتاعب الطاعات والعبادات؛ ليفوزوا بأفضل المثوبات، وأعظم الكرامات.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل جدك ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ ذا الصبر والرضا بما جرى عليه من القضايا ﴿وَإِدْرِيسَ﴾ صاحب دراسة الحكمة المتقنة وأنواع المعارف والحقائق ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ المتكفل بعبادة الله في جميع أوقاته وحالاته، حيث لا يشغله شيء عن التوجه نحو الحق، قيل: هو إلياس، وقيل: زكريا، وقيل يوشع بن نون، وقيل: نبيٌ آخر مسمى به؛ لأنه يتكفل صيام أيام حياته ﴿كُلٌّ﴾ من هؤلاء السعداء المقبولين عند الله المقبولين ﴿مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء:85] لقضاء الله، ونزول بلائه، كما أنهم كانوا شاكرين لآلائه ونعمائه.

﴿وَ﴾ لذلك ﴿أَدْخَلْنَاهُمْ فِي﴾ سعة ﴿رَحْمَتِنَا﴾ امتنانًا عليهم ﴿إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء:86] المصلحين أعمالهم وأقوالهم وعقائدهم وأحوالهم، الواصلين إلى درجة القرب واليقين. ﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل أخاك ﴿ذَا النُّونِ﴾ صاحب الحوت، وهو يونس بن متى، واذكر قصته وقت ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ على قومه من أعمالهم حين وعظهم، فلم يتعظوا، فشق عليه الأمر، فغضب عليهم، فلم يكظم غيظه، فخرج من بينهم تفريجًا لغضبه، وتوسيعًا لصدره ﴿فَظَنَّ﴾ بخروجه من بينهم ﴿أَن لَّن نَّقْدِرَ﴾ ونضيّق ﴿عَلَيْهِ﴾ ولا يمكننا حبسه وتضييقه وتغميمه في مكان آخر

فهرب، ولقي البحر فركب على السفينة فسكنت الريح، فقال البحّارون: إن ها هنا عبدًا آبقًا، فاقترعوا، فخرجت القرعة باسمه فألقى نفسه في البحر، فالتقمه الحوت ﴿فَنَادَى﴾ وناجى ضريعًا فجيعًا مغمورًا ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ التي تراكمت عليه؛ إذ هو في بطن الحوت وكان الليل مظلمًا ﴿أَن﴾ أي: أنه ﴿لاَّ إِلَهَ﴾ يعبد بالحق، ويستحق للعبادة استحقاقًا ذاتيًا ووصفيًا ﴿إِلاَّ أَنتَ﴾ يا من خضعتْ لك الرقاب، وانتكستْ دون سرادقات جلالك أعناق أولي النهى والألباب ﴿سُبْحَانَكَ﴾ ربي أنزهك عن جميع ما لا يليق بجنابك، ولا يليق لشأنك ﴿إِنِّي﴾ بواسطة خروجي عن قومي بغير إذنك ووحيك، مع أنك أرسلتني إليهم، وبعثتني بين أظهرهم نبيًا ذا دعوة وهداية ﴿كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:87] الخارجين عن مقتضى حكمك وأمرك، لذلك ضيقتَ الأمر عليّ يا ربي، وحبستني ولا مخلص لي من هذا المضيق إلا عفوك وكرمك.

وبعدما تاب إلينا، وتوجه نحونا مخلصًا متضرعًا، واستخلص منا مضطربًا مضطرًا ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ وأجبنا دعاءه فأخرجناه من بطن الحوت ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ العظيم والكرب الكبير ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي﴾ عموم ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:88] المخلصين الذين أخلصوا في إنابتهم ورجوعهم نحونا من كروبهم وأحزانهم.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: 89 – 91].

﴿وَ﴾ اذكر أيضًا أخاك ﴿زَكَرِيَّا﴾ الذي بلغ من الهرم والكهولة إلى حيث آيس ممن استخلفه من نطفته، وقنط عمن يقوم مقام من نسله، فشكا إلى الله وقت ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ متمنيًا متحسرًا آيسًا: ﴿رَبِّ﴾ يا من ربّاني بأنواع الكرم إلى أن كبرتُ وأشرفتْ أركان جسمي إلى الانهدام، وأجزاء جسدي إلى الانحلال والانخرام ﴿لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ مقطوع الفرع، منسي الذكر بلا ولدٍ يخلفني ويرث عني، ويحيي اسمي ﴿وَ﴾ إن جرى حكمك على هذا، أو مضى قضاؤك على ذا، فلا أبالي به؛ إذ ﴿أَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾

[الأنبياء:89] وأكرم المستخلفين.

وبعدما تضرع وتمنى ما تمنى ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ عناية منا إياه وفضلاً ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ من كمال جودنا ﴿يَحْيَى﴾ المحيي لاسمه ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ بل نفسه أيضًا بعدما أفسدهما الدهر، وأخرجهما من قابلية الولادة والإيلاد، وصيرنا زوجته شابة ولودًا بعدما كانت عجوزًا عقيمًا؛ إظهارًا لكمال قدرتنا ووفور حولنا وقوتنا، وإنما فعلنا بالأنبياء المذكورين ما فعلنا بهم من كمال اللطف والكرم، ومحض الفضل والإحسان ﴿إِنَّهُمْ﴾ من كمال توجههم وتحننهم نحونا ﴿كَانُوا﴾ في جميع أوقاتهم وحالاتهم ﴿يُسَارِعُونَ﴾ ويبادرون ﴿فِي الْخَيْرَاتِ﴾ ويسابقون إلى الطاعات المقبولة عندنا ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَدْعُونَنَا﴾ في مناجاتهم بنا، وفي خلواتهم معنا ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ راغبين إلينا، راجين عفونا وغفراننا وراهبين عنا، خائفين منا صولة سطوة قهرنا وغضبنا ﴿وَ﴾ بالجملة هم ﴿كَانُوا﴾ دائمًا ﴿لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:90] خاضعين متذللين مخبتين، ولذلك نالوا من الله بسبب خصائلهم هذه ما نالوا من جزيل العطاء، والفوز بشرف اللقاء، والبقاء بعد الفناء.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل أختك العفيفة ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من الحلال والحرام، وصبرت على العزوبة بلا ميل منها، ولا دغدغة إلى الشهوة تقربًا إلى الله بتحمل المشاق والمتاعب في طريق توحيده، وبعدما بالغت في الحصن والحفظ، وبلغت في العفة كمالها وغايتها ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ أي: أمرنا حامل روحنا؛ يعني: جبرائيل عليه السلام بأن ينفخ في جيبها ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ فنفخ فسرى إلى جوفها، فحبلت بعيسى عليه السلام وبعد وضع حملها ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ أي: مريم ﴿وَابْنَهَا﴾ عيسى ﴿آيَةً﴾ أي: كل منهما آية عجيبة غريبة دالة على كمال قدرتنا وحكمتنا، خارقة للعادة، وهي إيجاد الولد بلا أب، وإيلاد المرأة بلا لمس زوج، فصار هذا كرامة وإرهاصًا لمريم، ومعجزةً لعيسى - عليهما الصلاة والسلام - وعبرة ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:91] من حسن حالهما ورفعة رتبتها وعلو شأنهما.

﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا

يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنبياء: 92 – 100].

ثم قال سبحانه مخاطبًا لجماهير الأنبياء والرسل وأممهم: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ الملة التي هي ملة الإسلام، وطريق التوحيد والفرقان ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ أي: قدوتكم وقبلتكم وقصارى أمركم، والحكمة في جبلتكم وخلقكم ما كانت إلا ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لا تعدد فيها أصلاً ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ الواحد الأحد الصمد الفرد ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:92] أيها الأظلال المنعكسة من أسمائي وأوصافي، وتوجهوا نحوي بغاية التذلل والخضوع، ونهاية الانكسار والخشوع.

﴿وَ﴾ بعدما كانوا أمة واحدة لا اختلاف فيهم أصلاً ﴿تَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم﴾ أي: أمر دينهم قطعًا، وتحزبوا أحزابًا فوقع النزاع ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فاختلفوا اختلافًا كثيرًا على سبيل المراء والمجادلة، ولا تبال بهم وباختلافهم وتحزبهم؛ إذ ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ [الأنبياء: 93] رجوع الأمواج إلى البحر.

وبعدما اختلفوا وتعددوا: ﴿فَمَن يَعْمَلْ﴾ منهم ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المرضية لنا المقبولة عندنا ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ موقن بتوحيدنا، مصدق لرسلنا وكتبنا ﴿فَلَا كُفْرَانَ﴾ ولا تضييع منّا ﴿لِسَعْيِهِۦ﴾ الذي سعى في طريقنا طلبًا لمرضاتنا، بل ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء:94] حافظون حارسون ما صدر عنه من الخيرات الموجبة للمثوبات، ورفع الدرجات، فنعطيه ما استحق له من الثواب بلا فوت شيء منها.

﴿وَ﴾ حفظنا وحراستنا ﴿حَرَٰمٌ﴾ ممنوع منّا محرم ﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ أي: أهلها قهرًا وغضبًا منّا إياهم بسبب ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:95] ولا يتوجهون إلينا، ولا يؤمنون بتوحيدنا ولا يصدقون بكتبنا ورسلنا، بل يكذبون وينكرون، وهكذا تتمادى جرمتنا، ومنعنا إياهم إلى أن ظهرت أشراط الساعة ولاحت أماراتها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ﴾ وفتقت ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ سدهما الذي شدّ بينهما وبين

سائر الناس ﴿وَهُم﴾ بعد فتح السد، ورفع المانع من غاية عدوانهم مع الناس، وحرصهم على تخريب البلاد ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ أي: تلال وجبال ﴿يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: 96] يسرعون إلى الناس كالذباب الجوّع.

﴿وَ﴾ بعدما ﴿اقْتَرَبَ﴾ ودنا ﴿الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ والموعود المحقق الذي هو فتح السد وخروجهما من أشراطه وعلاماته، وقامت القيامة ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ أي: الشأن والقصة حين أنها ﴿شَاخِصَةٌ﴾ حائرة مدهوشة مضطربة ﴿أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في النشأة الأولى بالله، وكذبوا بهذا اليوم، فيقولون حينئذ متحسرين خائبين: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ وهلاكنا تعال فالآن وقت حلولك ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ﴾ عظيمة ﴿مِّنْ﴾ مجيء ﴿هَٰذَا﴾ اليوم في نشأتنا الأولى ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:97] خارجين عن مقتضى الحكم الإلهي، منكرين لهذا اليوم بعدما أخبره بوقوعه الرسلُ ونطق به الكتب.

ثم خاطب سبحانه الكافرين الذين أشركوا بالله مع أنه سبحانه لم ينزل عليه سلطانًا خطابا عامًا شاملاً للعابدين ومعبوداتهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون الجاهلون بقدر الله وعلو شأنه ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأظلال والتماثيل التي اتخذتموها آلهة، وادعيتم استحقاقها للعبادة والإطاعة أنتم وهم كلكم ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: حطبها ووقودها ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء:98] ورودَ الأنعام للماء.

﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً﴾ كما زعمتم واعتقدتم ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾ لأنهم ينقذونكم منها ألبتة، ولا هم آلهةُ لكنهم يردون النار، جميعًا عابدًا ومعبودًا، فظهر أنهم ما كانوا آلهةً، بل عبادُ أمثالكم ﴿وَكُلٌّ﴾ منكم ومنهم ﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء:99] مخلدون معذبون دائمًا.

﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ أي: لأهل النار في النار ﴿زَفِيرٌ﴾ تنفيس شديد، وأنين طويل ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ من شدة الأهوال والأفزاع ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء:100].

ثم لما نزلت هذه الآية اعترض ابن الزِّبعري بأن عزيرًا وعيسى والملائكة من المعبودين، فهم أيضًا في النار، مع أنهم من الأنبياء والمَلَك، وهم محفوظون منها على زعمكم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ

وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: 101 – 105].

نزل بعده: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم﴾ عنايةُ ﴿مِّنَّا﴾ الخصلة ﴿الْحُسْنَى﴾[1] والمنزلة الأسنى والدرجة العليا، والجنة المأوى ﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المخصوصون بمزيد لطفنا وجودنا ﴿عَنْهَا﴾ أي: عن النار ﴿مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:101] لسبق رحمتنا إياهم وعفونا عنهم.

بحيث: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ﴾ من غاية البعد منها ﴿حَسِيسَهَا﴾ أي: صوتها على وجه الخفاء كدويّ النحل، مع أن أهلها يُصرخون فيها، ويَفزعون في غاية الشدة، ولا تصل لغاية بعدهم عنها ﴿وَ﴾ كيف يسمعون حسيس النار ﴿هُمْ﴾ متنعمون مترفهون ﴿فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾ من اللذات الروحانية، والمشتهيات النفسانية عنايةً من الله إياهم ﴿خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء:102] دائمون مستمرون بلا طريان ضدٍ وعروض منافر.

وكيف يسمعون ويحزنون أولئك الآمنون من حسيس النار مع أنهم من فرط

---

(1) قوله تعالى: (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) أخبرنا عمر بن أحمد بن عمر الاوردي قال: أخبرنا عبد الله بن محمد نصير الرازي قال: أخبرنا محمد بن أيوب قال: أخبرنا علي بن المدينى قال: أخبرنا يحيى بن نوح قال: أخبرنا أبو بكر عياش، عن عاصم قال: أخبرني أبو رزين، عن يحيى، عن ابن عباس قال: آية لا يسألني الناس عنها، لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها، أو جهلوها فلا يسألون عنها ؟ قال: وماهي ؟ قال: لما نزلت – إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون – شق على قريش، فقالوا: أيشتم آلهتنا ؟ فجاء ابن الزبعرى فقال: مالكم ؟ قالوا يشتم آلهتنا، قال فما قال ؟ قالوا قال: – إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون – قال: ادعوه لي فلما دعى النبي ﷺ قال: يا محمد هذا شئ لآلهتنا خاصة أو لكل من عبد من دون الله ؟ قال: بل لكل من عبده من دون الله، فقال ابن الزبعرى: خصمت ورب هذه البنية، يعني الكعبة، ألست تزعم أن الملائكة عباد صالحون وأن عيسى عبد صالح، وهذه بنو مليح يعبدون الملائكة، وهذه النصارى يعبدون عيسى عليه السلام، وهذه اليهود يعبدون عزيرا، قال: فصاح أهل مكة، فأنزل الله تعالى – إن الذين سبقت لهم منا الحسنى – الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام – أولئك عنها مبعدون –. «أسباب النزول» (1/ 206).

فرحهم وسرورهم ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ وهو النفخة الأخيرة في الصور، مع أنها في نهاية الهول والفظاعة، وإذا لم يشوشهم تلك الهائلة فكيف بالحسيس ﴿وَ﴾ بعد دخولهم في الجنة الموعودة ﴿تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ مرحبين مهنئين قائلين: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:103] في نشأتكم الأولى أيها المؤمنون الآمنون، وأنتم فيها تؤمنون بها، فالآن نلتم بما آمنتم، وفزتم بما أملتم.

اذكر يا أكمل الرسل: ﴿يَوْمَ نَطْوِي﴾ ونلف ﴿السَّمَاءَ﴾ المبسوطة المنشورة ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي: طيًا مثل طي الصحيفة الحافظة الحارسة للمكتوب فيها؛ يعني: نلفها لفًا بعد نشرها بحيث لا يبقى لها اسم ولا رسم، إذ طي الصحيفة كنايةٌ عن نسيان الشيء وإعدامها وعدم التذكر، وبالجملة ﴿كَمَا بَدَأْنَا﴾ وأبدعنا ﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ وإيجاد من العدم بلا سبق مادة ومدة ﴿نُّعِيدُهُ﴾ عليه كذلك، بحيث صار كأن لم يكن موجودًا أصلاً، وكان إعدامه ﴿وَعْدًا﴾ منّا لازمًا ﴿عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:104] الموعود المعهود ألبتة إنجازًا لوعدنا.

﴿وَ﴾ كيف لا نفنيه ولا نعدمه ﴿لَقَدْ كَتَبْنَا﴾ وأثبتنا ﴿فِي الزَّبُورِ﴾ وفي جميع الكتب المنزلة منّا ﴿مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أي: بعد الحضور والثبوت في حضرة علمنا ولوح قضائنا: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾ أي: أرض الجنة المعدّة لأهل الولاء والمحبة، ومستقر أرباب العناية؛ إذ لكل نفس من النفوس البشرية أرضٌ معدة من فضاء الجنة، وإنما وصلوا إليها بالإيمان والأعمال الصالحة المقربة إلى الحق، فمتى لم يتصفوا بالإيمان والمعارف والتوحيد لم يصلوا إليها، وإذا لم يصلوا إليها بكفرهم وعنادهم وظلمهم ﴿يَرِثُهَا﴾ من الكفار أماكنهم المعدة لهم فيها ﴿عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:105] المقبولون عندنا، المتصفون بشعائر التوحيد والإيمان، والعارفون بمعالم الدين ومسالك العرفان، المرضيون الراضون بجميع ما جرى عليهم من قضائنا.

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ

حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنبياء: 106 – 112].

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ أي: ما ذكر في القرآن من المواعظ والتذكيرات والرموز والإشارات ﴿لَبَلَاغًا﴾ وتبليغًا بليغًا إلى أقصى مراتب التوحيد ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: 106] عارفين بمسالك اليقين وأماراته.

﴿وَ﴾ كما كان هذا الكتاب هاديًا لجميع البرايا إلى أعلى معارج التوحيد لذلك ﴿مَا أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا أكمل الرسل المستخلف منا، المتخلق بأخلاقنا، المظهر لتوحيدنا الذاتي ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ أي: ذا رحمة شاملة وعطف عام ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:107] إذ لا بعثة بعدك، ولا دين بعد دينك، بل أنت مكمل دائرة النبوة والرسالة، ودينك ناسخ جميع الأديان، فلا بدّ لجميع أهل الملل والنحل أن يتدينوا بدينك كي يصلوا إلى ما جبلهم الحق لأجله، وهو التوحيد والعرفان.

وبعدما صرت خاتم النبوة والرسالة وصار دينك ناسخًا لجميع الأديان ﴿قُلْ﴾ لقاطبة الأنام على سبيل الدعوة العامة والتبليغ التام: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ من ربي ما جعلني مبعوثًا إلى عموم عباده ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ﴾ أيها الواصلون إلى مرتبة التكليف ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أحدٌ صمد لا يقبل التعدد، ولا يعرضه نقصان، ولا يشغله شأن عن شأن، بل ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:29] ﴿فَهَلْ أَنتُم﴾ أيها العابدون ﴿مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء:108] منقادون له، مسلّمون توحيده، مخلصون في إطاعته وانقياده.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن التوحيد بعد تبليغك إياهم قصارى أمرهم في دينهم ﴿فَقُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾ وأعلمتكم بإذن الله وأهديكم بمقتضى وحيه ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: على طريق سوي، وصراط مستقيم موصل إلى توحيد الحق ومعرفته، وإن انحرفتم عن جادة التوحيد وانصرفتم عن مسالكه، استوجبتم المقت والعذاب ألبتة ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ﴾ أي: ما أدري وأعلم ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ﴾ نزول ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:109] من العذاب والنكال.

وبعدما تحقق نزوله وتقرر وقوعه بإخبار الله به لا تغتروا بإمهاله إياكم عن غفلته منكم تعالى عن ذلك، كيف يعرض له سبحانه الغفلة والذهول؟ ﴿إِنَّهُۥ﴾ بعلمه الحضوري ﴿يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ﴾ منكم ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ﴾ أيضا منكم ﴿مَا تَكْتُمُونَ﴾

[الأنبياء:110] [1] وتخفون في نفوسكم من خواطركم.

﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ أي: وما أعلم أيضًا ﴿لَعَلَّهُ﴾ أي: لعل إمهاله إياكم وتأخيره العذاب عنكم ﴿فِتْنَةٌ﴾ واختبار ﴿لَكُمْ﴾ هل تتفطنون إلى توحيده أو لا؟ بعد ورود أنواع المنبهات عليه، والروادع، والزواجر البليغة عما ينافيه ويخالفه ﴿وَ﴾ ما أدري أيضًا لعل إمهاله لكم ﴿مَتَاعٌ﴾ وتمتيع لكم ﴿إِلَى حِينٍ﴾ [الأنبياء:111] لتزدادوا فيه إثمًا ومعصية كثيرة تستجلبوا بها أعظم العقوبات وتستحقوا أشد العذاب.

ثم لما تمادى النزاع بين أهل مكة ورسوله الله ﷺ وتكثرت الوقائع والحادثات، أمر سبحانه حبيبه ﷺ بالاستعانة منه سبحانه والتفويض إليه بقوله: ﴿قَالَ﴾ يا أكمل الرسل بعدما أصروا على إنكارك ملتجئًا إلينا مناجيًا: ﴿رَبِّ﴾ يا من ربّاني بكرامة الرسالة والتبليغ والإرشاد والتشريع ﴿احْكُم بِالْحَقِّ﴾ الصريح الصحيح عندك بيني وبين هؤلاء المعاندين، وأنت تعلم أنهم لا ينزجرون إلا بنزول العذاب الموعود عليهم، أنزل بمقتضى قهرك عليهم ما ينزجرون به من العذاب ﴿وَرَبُّنَا﴾ وإن كان هو ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء حتى الكافر الشقي النافي له، لكنه ﴿الْمُسْتَعَانُ﴾ والمعين المنان والناصر الديّان لأهل المعرفة والإيمان ﴿عَلَى﴾ إزالة ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 112] الله به مما لا يليق بشأنه وجنابه.

وبالجملة أولئك المشركون هم الهالكون في تيه الجحود والطغيان، المنهمكون في بحر الغفلة والضلال والكفران.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب القاصد لاقتصاد الأحوال واعتدال الأقوال والأفعال أن تستعين بالله ما صدر عنك، وجرى عليك، وتسنده إلى الله سبحانه بلا رؤية الوسائل

(1) قال البقلي: يعلم شكاية العارفين منه إليه بألفاظ مجهولة من مقام الأنس، ويعلم ما في ضمائرهم من حقائق إشارات الحقيقة من أوصاف القدس، يسليهم بهذا الخطاب أي: لا تجزعوا، لحان وقت الوصال، وكشف الجمال؛ فكيف يخفى عليه، وهو بمحبته أزعجهم إلى الحرية والانبساط. قال الحسين: كيف يخفى على الحق من الخلق خافية، وهو الذي أودع الهياكل أوصافها من الخير والشر والنفع والضر؟! فما يكتمونه أظهر عنده مما يبدونه وما يبدونه مثل ما يكتمونه جلّ الحق أن يخفي عليه خافية من عباده مُحال، والله أعلم.

والبين، وتتخذه وكيلاً على مقتضى أمره سبحانه ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل:9] وتفوض جميع أمورك في جميع شؤونك وأطوارك إليه سبحانه؛ إذ هي له أصالة، وإن صدر عنك صورة؛ إذ لا وجود لك في ذاتك، فكيف ما يترتب عليه من الأفعال والآثار المرتبة عليه، فلك أن تميت نفسك عما حداك إليه أمّارة نفسك وشيطان وهمك وخيالك؛ إذ هو مضلك ومغو ك عما يعينك وينبغي لك، ويغريك إلى ما لا يعينك ويرديك.

فلك أن تميز بين تسويلات الهوى، و النفس المائلة عن المولى وبين آيات الهدى وعلامات التقى الموصلة إلى الدرجة العليا والفوز بشرف اللقيا.

وإن شئت أن تخلص نفسك من جنود الهوى وعساكر الغفلات من الأوهام والخيالات فاعتزل عن أظهر الناس، وأعرض عن ملئهم، واحذر عن مخالطتهم ومصاحبتهم، واتخذ لنفسك خلوة تنجيك عن جميع ما يغويك ويؤذيك؛ إذ المرء إنما يذوق حلاوة الوحدة ولذة التوحيد في العزلة والفرار عن الخلطة، سيما في هذا الزمان الذي غلب فيه النفاق، وكثر الخلاف والشقاق.

ربنا هب لنا من لدنك جذبة عن لذات الدنيا ومشتهياتها، وأنسًا بك تخلصنا عن مؤانسة غيرك، إنك على ما تشاء قدير، وبإنجاح آمال المؤملين جدير.

سورة الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الحج

لا يخفى على المشمرين أذيال هممهم للتوجه إلى كعبة الذات، والوقوف عند عرفات الأسماء والصفات، والطواف حول جميع الأركان والمقامات الجامعة لجميع الأبعاد والجهات أن الحج الحقيقي والطواف المعنوي الأصلي إنما هو بالانخلاع عن لوازم الصور الجسمانية ومقتضيات الهياكل الهيولانية بالموت الإرادي، والفناء الاختياري المنبعث عن الشوق المفرط نحو الحق، المنزه عن تراكم الإضافات المؤدية إلى التعدد والكثرات.

ولهذا وضع سبحانه للسالكين القاصدين نحو قبلة الذات مقصدًا مخصوصًا، وعين لهم وجهة معينة، وأمرهم بالتوجه إليها والوقوف عندها والطواف حولها من كل فج عميق، ومرمى سحيق، ألا وهي أودية الإمكان، أو بوادي التعينات، متزودين بزاد التقوى، راكبين على مطايا التوفيق، متقربين إلى الله بذبح كبائش أمّارتهم بالسوء، لابسين لباس الموتى الاضطراري، منسلخين عن لوازم الحياة الصورية، معطلين جميع القوى والحركات عن مقتضاها، محرمين على نفوسهم جميع المشتهيات النفسانية الناشئة من الشهوية والغضبية، بحيث ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة:197].

ثم أمرهم بوقوف العرفات المعرفة لهم بسرائر الأسماء والصفات، ليتأتى لهم ألذ الطواف حول الذات؛ إذ لا سبيل إليها إلا من طرق الأسماء والصفات.

ثم لما كان الطواف الحقيقي مسبوقًا برفع جميع التعينات، ونفي مطلق الإضافات والكثرات، ولا يتم هذا على الوجه الأتم الأكمل في النشأة الأخرى والطامة الكبرى حذرهم سبحانه عنها ليتهيئوا لها، ويتزودوا بزادٍ يناسبها فقال مناديًا لهم على التذكير متيمنًا باسمه العلي الكبير:

﴿بِسْمِ اللهِ﴾المدبر لأمور عباده بأحسن التدبير ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم يحفظهم عن الخطر، ويعطيهم الخير الكثير ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم ييسهل عليهم كل عسير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤﴾ [الحج: 1 – 4]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الناسون للعهود والمواثيق ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ الذي ربّاكم بأنواع الكرامات وجلائلِ النعم، واجتنبوا عما نهاكم عنه من المكاره والمعاصي، ولا تغتروا بإمهاله إياكم في نشأتكم هذه، واحذروا عن بطشه في النشأة الأخرى وقيام الساعة ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ المعدة لانقهار النظام المشاهد، وانحلال أجزاء العالم المحسوس ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:1] وأمر فظيع هائل فجيع، بحيث تضعضعت السماوات من هيبتها، واندكت الأرضون من شدة صولتها.

اذكر أيها الرائي: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ أي: تلك الزلزلة الشديدة المهيبة بحيث ﴿تَذْهَلُ﴾ أي: تدهش وتغفل من غاية دهشتها ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ مشفقة متحننة ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي: ولدها الرضيع مع كمال محبتها ومودتها ﴿وَتَضَعُ﴾ عند حدوثها من شدة هولها وفزعها ﴿كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ﴾ وحبلٍ ﴿حَمْلَهَا﴾ وجنينها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿النَّاسَ﴾ أي: جميع الأنام عند حدوثها ﴿سُكَارَى﴾ حيارى مدهوشين، زائلين عقولهم من شدة الهول ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾ حقيقة ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ﴾ النازل إياهم في تلك الحالة ﴿شَدِيدٌ﴾ [الحج:2] [1] مدهش محير لعقولهم وأبصارهم،

---

(1) وصف أهل شهود سطوات العظمة والكبرياء بالوله والهيمان والسكر والهيجان بقوله: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ يولهون في رؤية العظمة وجلال الهيبة، ويهيمون في أودية أنوار الكبرياء والسلطنة. قال جعفر: أسكرهم ما شاهدوا من بساط العز وبُساط الجبروت وسرادق الكبرياء حتى ألجأ النبيين إلى أن قالوا: نفسي نفسي. وقال الأستاذ: فمنهم من سكره سكر الشراب، ومنهم من سكره سكر المحاب، وشتان بين سكر وسكر، سكرهم سكر أهل الغفلة، وسكرهم سكر أهل الوصلة، وإن سألتني من سكر أصحاب الوقائع في كواشف القدوسية، وبروز أنوار السبوحية في مشاهد القيمة فسكر الأعداء من رؤية القهريات، وسكر

وجميع قواهم ومشاعرهم.

﴿وَ﴾ كيف لا يكون لله المنتقم الجبار ذي القدرة الكاملة والغيرة التامة العذاب والنكال في النشأة الأخرى لمن يسيء الأدب معه، وينسب إليه سبحانه ما لا يليق بجنابه وينكر يوم البعث الجزاء مع ورود الآيات العظام في شأنه ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ المجبولين على المراء والمجادلة ﴿مَن يُجَادِلُ﴾ ويخاصم داعي الله ورسوله سيما ﴿فِي﴾ حق ﴿اللَّهِ﴾ ويبالغ فيها حيث ينفي ذاته سبحانه وصفاته الذاتية الكاملة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: دليل عقلي يتشبث به أو نقلي يستند إليه بل إنما هو عن جهل وعناد ﴿وَ﴾ مستنده ومتشبثه أنه ﴿يَتَّبِعُ﴾ في دعواه وجداله هذا ﴿كُلَّ شَيْطَانٍ﴾ مضل مغوٍ ﴿مَّرِيدٍ﴾ [الحج:3] عالٍ متمرد في الشرارة والفساد بين العباد.

ولذلك ﴿كُتِبَ﴾ ونص ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: الشيطان المَرِيد المردود ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي: الشيطان، واتخذه وليًا من دون الله واقتدى له واقتفى أثره ﴿فَأَنَّهُ﴾ أي: الشيطان بإغوائه وإغرائه ﴿يُضِلُّهُ﴾ ويصرفه عن سواء السبيل الذي هو طريق الإيمان والتوحيد ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ على مقتضى تلبيسه وتغريره ﴿إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج:4] بئس المولى وبئس النصير.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ

الموافقين من رؤية بدائع الأفعال، وسكر المريدين من لمعات الأنوار، وسكر المحبين من كشوف الأسرار، وسكر المشتاقين من ظهور سنا الصفات، وسكر العاشقين من مكاشفة الذات، وسكر المقربين من الهيبة والجلال، وسكر العارفين من الدخول في جِجال الوصال، وسكر الموحدين من استغراقهم في بحار الأولية، وسكر الأنبياء والمرسلين من اطلاعهم على أسرار سر الأزلية، فبعض السكارى واله في العظمة، وبعض السكارى تائه في العزة، وبعض السكارى غائب في الجمال، وبعض السكارى فانٍ في الجمال، وبعض السكارى صاح في البقاء، وبعض السكارى مضمحل في الكبرياء، وبعض السكارى سكره من حلاوة الخطاب، وبعض السكارى سكره من الانبساط، وبعض السكارى سكره من العتاب، وبعض السكارى سكره من كشف النقاب، وبعض السكارى سكره من رؤية القدم في مرآة الالتباس. وبعض السكارى سكره من وقوعه في صرف شهود الأزل، فهؤلاء السكارى في منازلهم، سكرهم مقادير مواردهم في شهود القرب، وقرب القرب؛ فمن كان سكره بغيره فهو غير سكران إنما هو مخبط حاله من رؤية الأحوال، ومن كان سكره به فسكره من شراب الوصال، فسكري هناك من سكري هاهنا به لا بما منه شرابي من رؤية صرف كنه القدم وغيري من العباد والزهّاد سكرهم من مشارب الكرم.

ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: 5 – 7].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المنهمكون في الغفلة والنسيان المنغمسون بلوازم الحدوث والإمكان، المفضية إلى أنواع العصيان والطغيان ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ شك وتردد ﴿مِّنَ﴾ أمر ﴿الْبَعْثِ﴾ وإمكان وقوعه، ومن قدرتنا إلى إعادة المعدوم بلا سبق الهيولى والزمان، حتى يزول ريبكم، ويرتفع شككم ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم﴾ وقدرنا وجودكم أولاً ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ جماد، لا مناسبة بينكم وبينه أصلاً، إذ هو أصل النطفة ومادة المنيّ، إذ المنيّ إنما يحصل من الأغذية المتكونة من التراب ﴿ثُمَّ﴾ قدرناكم ثانيًا ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ مصبوبة في الأرحام حاصلة في أجزاء الغذاء ﴿ثُمَّ﴾ صورناكم ﴿مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أي: دم منعقد من المنيّ المصبوب في الرحم ﴿ثُمَّ﴾ عيّنا أركان أجسامكم ﴿مِن مُّضْغَةٍ﴾ أي: لحم متكون من الدم المنعقد ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ كاملة الخلقة سوية الأجزاء بلا عيب ولا نقصان، قابلة الفطرة للمعرفة والهداية والرشد التام ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ ناقصة الخلقة معيوبة الأجزاء، منحطة عن درجة الكمال كل تلك التبديلات والتغييرات منّا دليل على كمال قدرتنا وإرادتنا ووثوق حكمنا وتدبيراتنا إنما أظهرناها ﴿لِّنُبَيِّنَ﴾ ونظهر ﴿لَكُمْ﴾ كمال قدرتنا المتعلقة على جميع المقدورات المتحققة، والمقدرة على السوية بلا فتور وقصور.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿نُقِرُّ﴾ ونثبت الولد ﴿فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ ونريد ثبوته ذكرًا أو أنثى، مبدِّلين مغيرين من صورة إلى أخرى مرارًا كثيرة ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ سميناه وعيناه في حضرة علمنا لتسويته وتعديله ﴿ثُمَّ﴾ بعدما سويناه وعدلنا أركان جسمه على الوجه الذي تقتضيه حكمتنا، ونفخنا فيه من روحنا؛ إذ نفخُنا الروح فيه علة غائية لإيجاده وإظهاره ﴿نُخْرِجُكُمْ﴾ أي: كلا منكم من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلًا﴾ محتاجًا إلى الرضاعة والحضانة ﴿ثُمَّ﴾ نربيكم بأنواع التربية والتغذية، ونقوي مزاجكم ومشاعركم

على التدريج ﴿لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ أي: كمال رشدكم وقوتكم الجسمانية، وتثمروا من المعارف والحقائق ما جبلتم لأجلها إن وفقوا من قبلنا ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى﴾ بعدما بلغ أشده ورشده أو قبل بلوغه ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وهو سن الكهولة والهرم المستلزم للخرافة ونقصان العقل وضعف القوى والآلات ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ﴾ متعلق منه بمعلوم مخصوص ﴿شَيْئًا﴾ من أمارات ذلك المعلوم وصار عنده كأنه لم يلتفت إليه قط لغلبة الغفلة والنسيان عليه وسقوط الحفظ والإدراك عنه، كل ذلك إنما هو لإظهار قدرتنا الكاملة، وإرادتنا التامة الشاملة ﴿وَ﴾ لا تتعجب من كمال قدرتنا، ومتانة صنعتنا، وحكمتنا أمثال هذا، أما ﴿تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿الْأَرْضَ﴾ الممهدة المبسوطة كيف كانت ﴿هَامِدَةً﴾ يابسة متينة جامدة بعيدة عن الرطوبة والخضرة كالرماد ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا﴾ وقت تعلق قدرتنا وإرادتنا بإحيائها ونضارتها ﴿عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ المشتمل على خاصة الحياة ﴿اهْتَزَّتْ﴾ وتحركت اهتزازًا شوقيًا ﴿وَرَبَتْ﴾ وارتفعت من حضيض الخمود والجمود طالبًا الخروج إلى فضاء الهواء والعروج إلى غاية ما أعد له من الكمال ﴿وَ﴾ بعد حركتها وارتفاعها متشوقة ﴿أَنبَتَتْ﴾ وأظهرت بإقدارنا إياها ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ نوع وصنف مما يخرج من الأرض ﴿بَهِيجٍ﴾ [الحج:5] رائق عجيب، وهذا من أوضح الدلائل والبراهين عند ذوي النهى واليقين على البعث، وإعادة المعدوم، وجميع المعتقدات الأخروية.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من إيجاد المقدورات التي تستبعدها العقول السخيفة والأحلام الردية الضعيفة ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ الثابت المحقق المقصور على الحقية والثبوت لا متحقق في الوجود سواه، ولا معبود يُعبد بالحق إلا هو ﴿وَأَنَّهُ﴾ سبحانه بخصوصه المقتدر هو الحي القيوم المحيي ﴿يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ بالإرادة والاختيار ﴿وَأَنَّهُ﴾ بذاته وأسمائه وصفاته هو القادر بالاستقلال ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل تحت قدرته وحيطة حضرة علمه وإرادته بالاستقلال ﴿قَدِيرٌ﴾ [الحج: 6] بلا فتور وقصور ولا تزلزل وعثور.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ﴾ الموعودة المعهودة من عنده ﴿آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ إذ هي من جملة مقدورات الله التي قدر وجودها في لوح قضائه وحضرة عمله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ المتصرف بالاستقلال والاختيار ﴿يَبْعَثُ﴾ يوم الحشر ﴿مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج:7] من النفوس الخيرة والشريرة، ثم يحاسبهم ويجازيهم على مقتضى حسابه، إن خيرًا فخير

وإن شرًا فشر.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [الحج: 8 – 13].

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ المجبولين على الكفر والنسيان ﴿مَن يُجَادِلُ﴾ ويكابر ﴿فِي﴾ أوامر ﴿اللَّهِ﴾ وينكر مقدوراته الماضية والآتية مع أنه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: دليل عقلي مسبوق بترتيب المعلومات اليقينية أو الظنية ﴿وَلاَ هُدًى﴾ أي: حدس، وكشف ملهم من عند الله ملقى في روعة ﴿وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج:8] دليل نقلي منسوب إلى الوحي، والإلهام بنور قلب من صدّق به، وأخذ بما فيه إيمانًا واحتسابًا، ومع أنه ليس له سند عقلي ولا نقلي ولا كشفي وشهودي، مُعرِض عن الدلائل والشواهد مع وضوحها وظهورها صارفًا عنان عزمه عن التأمل فيها.

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ يعني: لاويًا عنقه ومولّيًا جنبه عنها كبرًا وخيلاء على أصحاب الدلائل والبراهين وأرباب الكشف والشهود عتوًا وعنادًا، إنما فعل ما فعل من عدم الالتفات والتوجه نحو أهل الحق ﴿لِيُضِلَّ﴾ بفعله هذا ضعفاء الأنام ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذي بيّنه الأنبياء وأوضحه الرسل بوحيه وإلهامه إليهم، وإنزال الكتب، والصحف عليهم ﴿لَهُ﴾ أي: لهذا المستكبر العاتي بسبب ضلاله وإضلاله ﴿فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ هوان وهون وطرد ولعن ونهب وأسر ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بعد انقراض النشأة الأولى ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج:9] المحرق الذي هو عذاب النار الذي لا عذاب أشد منها.

وحين تعذيب الموكلين عليه إياه بالنار، أمرناهم أن يقولوا له على سبيل المثال التقريع والتوبيخ زجرًا عليه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي لحقك ونزل عليك من العذاب المخلد ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ وكسبت ﴿يَدَاكَ﴾ في النشأة الأولى، وعلى مقدار ما اقترفته من المعاصي والآثام بلا زيادة عليها عدلاً منّا ﴿وَ﴾ اعلم أيها المسرف المبالغ في اقتراف الجرائم

المستوجبة للعذاب ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المتصف بالعدل القويم ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج: 10] يعني: ليس بمبالغٍ في جزاء الانتقام عنه مقدار الجرائم والآثام مثل مبالغته في جزاء الإنعام والإحسان تفضلاً وامتنانًا.

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ المجبولين على نسيان المنعم، وكفران نعمه ﴿مَن يَعْبُدُ اللهَ﴾ المنزه المستغنِ عن إيمانه وعبادته ﴿عَلَى حَرْفٍ﴾[1] أي: شاكًا منتظرًا على طرف بلا جزم منه فيه، وطمأنينة كالذي يتمكن يوم الوغى على طرف الجيش مترددًا منتظرًا، إن أحس الظفر قرّ في مكانه وتمكن، وإلا فرّ، كذلك هذا المؤمن المتزلزل ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ﴾ بعدما آمن وأسلم ﴿خَيْرٌ﴾ أي: شيء يسُرُّه وينشطه ﴿اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ وتمكن لأجله متفائلاً بالإيمان والإسلام ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ﴾ بعد اختياره الإيمانَ والإسلام ﴿فِتْنَةٌ﴾ أي: بليةُ ومصيبةُ تُمِلُه ﴿انقَلَبَ﴾ ورجع ﴿عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي: وجْهته وجِهَته التي تركها من الكفر متطيرًا متشائمًا بالإيمان والإسلام وبالجملة ﴿خَسِرَ﴾ ذلك المتزلزل المتذبذب ﴿الدُّنْيَا﴾ بأنواع البليات والمصيبات ﴿وَالآخِرَةَ﴾ بالحرمان عن درجات الجنان والخلود في دركات النيران بأنواع الخسران ﴿ذَلِكَ﴾ الخسران المستوعب للنشأتين ﴿هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج:11] العظيم، لا خسران أعظم منه وأفحش، وكيف لا يخسر ذلك المردود المطرود.

﴿يَدْعُو﴾ ويعبد ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ المتصف بجميع أوصاف الكمال المستحق للعبادة والإطاعة استحقاقًا ذاتيًا ووصفيًا ﴿مَا لاَ يَضُرُّهُ﴾ أي: شيئًا، إن عصاه ولم يؤمن

---

(1) قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ قال المفسرون، نزلت في أعراب كانوا يقدمون على رسول الله ﷺ المدينة مهاجرين من باديتهم، وكان أحدهم إذا قدم المدينة فإن صح بها ونتجت فرسه مهرا حسنا وولدت امرأته غلاما وكثر ماله وماشيته آمن به واطمأن، وقال: ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيرا، وإن أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية وأجهضت رماكه وذهب ماله وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شرا، فينقلب عن دينه، فأنزل الله تعالى ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ الآية. وروى عطية عن أبي سعيد الخدري قال: أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده وتشاءم بالاسلام، فأتى النبي ﷺ فقال: أقلني، فقال: إن الاسلام لا يقال، فقال: إني لم أصب في ديني هذا خيرا، أذهب بصري ومالي وولدي، فقال: يا يهودي إن الاسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والفضة والذهب، قال: ونزلت ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ «أسباب النزول» (206/1).

به لا يتأتى منه الضرر والانتقام ﴿وَمَا لاَ يَنفَعُهُ﴾ أي: إن أطاعه وعبده حق عبادته، لا يتأتى منه أن يثيبه ويغفر له ويحسن إليه ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الإطاعة والانقياد لشيء لا يرجى منه النفع والضر ﴿هُوَ الضَّلالُ البَعِيدُ﴾ [الحج:12] عن الهداية والتوحيد بمراحل خارجة عن الحصر والتعديد.

بل ﴿يَدْعُو﴾ ذلك الضال الغوي ﴿لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ﴾ بسبب اتخاذه شريكًا معه في استحقاق العبادة جهلاً وعنادًا، مع أنه الواحد الأحد الصمد المستقل بالألوهية والربوبية، ودخولُ المشرك في النار محقق، مقطوعٌ به، فيكون ضره أقرب ﴿مِن نَّفْعِهِ﴾ الذي توهمه أن يشفع لأجله عند الله، والشفاعةُ عنده إنما هي بإذنه سبحانه أيضًا فثبت ألا نفع له، والله ﴿لَبِئْسَ المَوْلَى﴾ المعين الناصر الشفيع الأصنام والأوثان الخسيسة ﴿وَلَبِئْسَ العَشِيرُ﴾ [الحج:13] أي: الكفار الذين يعبدونهم ويوالونهم ويتخذونهم أربابًا يطمعون منهم الشفاعة عند الله، مع أن ترك المحقق المجزوم، وأخذ المعدوم الموهوم ما هو إلا كفر باطل وزيغ عاطل زائل.

ربنا اهدنا بفضلك إلى سواء السبيل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: 14 – 18].

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته من تعقيب الوعيد بالوعد: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ الهادي لعباده إلى دار السلام ﴿يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: سبقوا بالإيمان بالله، وتصديق رسله وكتبه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي أمرهم سبحانه في كتبه وأجراهم على

ألسنة رسله بالإتيان والامتثال بها، واجتنبوا عن النواهي التي نهاهم سبحانه عنها ﴿جَنَّاتٍ﴾ منتزهات من العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: المعارف والحقائق الجزئية المتجددة بتجددات الأمثال، وهي الرموز والإشارات التي يتفطن بها العارف من ظواهر المظاهر المرتبطة بالشؤون والتجليات الإلهية وبالجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الموفق لخواص عباده ﴿يَفْعَلُ﴾ معهم ﴿مَا يُرِيدُ﴾ [الحج:14] من الصلاح والفوز بالنجاح، والتحقق بمقام الرضا وشرف اللقاء.

ثم لما اعتقد المشركون ومن في قلبه عداوة راسخة مع رسول الله ﷺ، وشكيمةُ شديدة، وغيظُ مفرط ألَّا نصرَ ولا إعانة له من عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة كما زعمه ردَّ الله عليهم نصرًا له وترويجًا لقوله، فقال: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ﴾ ولن يعين رسوله ﷺ لا ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ ولا في ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بل ما ادعاه من نصر الله إياه في الدنيا والآخرة، إنما هو لإثبات دعواه وترويج مدعاه، وإلا فلا نصر له ولا ناصر، يقال للمنكر: إن شئت إزالة غيظك وحسدك عنه ﷺ ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أي: بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: نحوها وارتفع معلقًا بالحبل إلى أن يتباعد من الأرض مسافة بعيدة ﴿ثُمَّ﴾ يقال له بعدما ارتفع من الأرض: ﴿لْيَقْطَعْ﴾ الحبل وانفصل عنه، فقطع فوقع ﴿فَلْيَنظُرْ﴾ بعدما وقع ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ مكره وحيلته ﴿مَا يَغِيظُ﴾ [الحج:15] أي: غيظه برسول الله تعالى ﷺ.

وبالجملة ما يزول إنكار المنكرين، وغيظ المشركين مع رسول الله ﷺ إلا بهذه الحيلة والكيد.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلما نصرناه ﷺ في وقائع كثيرة ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ أيضًا لتأييده ونصره ﴿آيَاتٍ﴾ أي: دلائل ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات دالة على صدقه في دعواه النبوة والرسالة والتشريع العام والإرشاد التام ﴿وَ﴾ أنزلناه أيضًا على سبيل العظة والتعليم ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ الهادي للعباد، الموفق لهم إلى سبيل الرشاد ﴿يَهْدِي﴾ بعدما بينتَ لهم طريق الهداية والسداد بوحي الله إياك يا أكمل الرسل ﴿مَن يُرِيدُ﴾ [الحج:16] ويتعلق إرادته ومشيئته سبحانه لهدايته ورشاده، ومن يتعلق بضلاله أضله.

وبالجملة ما عليك إلا البلاغ، وعلى الله الهداية والرشاد، فلا تتعب نفسك في هداية من أحببت، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:56]، بل أمر الهداية والضلال إنما هو مفوض إلى الكبير المتعال.

لذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ الهادي للناس إلى توحيد الذات، والصفات، والأفعال جميعًا ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم الذين آمنوا بموسى عليه السلام الهادي لأمته إلى توحيد الصفات ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ الذين يدَّعون الاطلاع على سرائر الكواكب والأجرام العلوية ﴿وَالنَّصَارَى﴾ وهم الذين يصدقون بعيسى عليه السلام الهادي لأمته إلى توحيد الأفعال ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ الذين يدَّعون التمييز بين فاعل الخير وفاعل الشر ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ بالله المنزه عن الشريك، كلٌ من هؤلاء المذكورين يدعي الحقية لنفسه، والباطل لغيره ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لسرائرهم وضمائرهم ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين من هو المحق منهم والمبطل ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وكيف لا يميز ويفصل سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي في الآفاق والأنفس ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج:17] أي: حاضرٌ مع كل شيء رقيب عليه، غير مغيب عنه أصلاً.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ولم تعلم ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المظهر لجميع المظاهر ﴿يَسْجُدُ﴾ أي: يذلل ويخضع ﴿لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ من العلويات ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من السفليات وخصوصًا معظمات الأجرام العلوية وهي ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾ ومعظمات الأجسام من السفليات ﴿وَ﴾ هي ﴿الْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَ﴾ يسجد له أيضًا طوعًا ﴿كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ المجبولين على فطرة التوحيد، المخلوقين على استعداد الإيمان، وقابلية المعرفة والإيقان ﴿وَكَثِيرٌ﴾ منهم لانحرافهم عن الفطرة الأصلية بتقليد آبائهم ومعلميهم الذين يضلونهم عن سواء السبيل لذلك ﴿حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ وثبت له العقاب في لوح القضاء وحضرة العلم ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ﴾ وأسقط رتبته وحط درجته ﴿فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ معلٍّ رافع ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على استعدادات عباده وقابلياتهم ﴿يَفْعَلُ﴾ معهم ﴿مَا يَشَاءُ﴾ [الحج:18] على مقتضى علمه وخبرته.

ثم لما تطاول نزاع اليهود مع المؤمنين وتمادى جدالهم وخصومتهم حيث قال اليهود: نحن أحق بالله منكم لتقدم ديننا، وشرف نبينا، وفضل كتابنا، وقال المؤمنون: نحن أحق منكم؛ لأن ديننا ناسخ جميع الأديان، ونبينا خاتم دائرة النبوة والرسالة، ومتمم مكارم الأخلاق، وكتابنا الجامع لما في الكتب السالفة الناسخة لبعض أحكامها أفضل من سائر الكتب، ونحن أيضًا لا ننكر نبيًا من الأنبياء، وكتابًا من الكتب، وأنتم أنكرتم عيسى عليه السلام ودينه وكتابه وديننا ونبينا وكتابنا، مع أنه مذكورٌ في كتابكم، وأنتم تعلمون حقيته وتنكرونه عنادًا.

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحج: 19 – 25].

أوردَ سبحانه في كتابه قصتهما وحكم بينهما فقال سبحانه: ﴿هَٰذَانِ﴾ الفوجان، يعني: المؤمنين واليهود ﴿خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾[1] مع وحدة ذاته وشمول تربيته وألوهيته لجميع البرايا ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله المتوحد بذاته وأثبتوا له شريكًا، وفرقوا بين كتبه ورسله بالإقرار والإنكار، والتصديق والتكذيب ﴿قُطِّعَتْ﴾ أي: أعدت وهيئت ﴿لَهُمْ ثِيَابٌ﴾ وملابس متخذة ﴿مِّن نَّارٍ﴾ شبهها بالثياب لإحاطتها وشمولها ومع ذلك ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج:19] الماء الحار البالغ نهاية الحرارة.

---

(1) قوله تعالى: (هذان خصمان اختصموا في ربهم) الآية. روى الواحدي عن قيس بن عبادة قال: سمعت أبا ذر يقول: أقسم بالله لنزلت - هذان خصمان اختصموا في ربهم - في هؤلاء الستة حمزة وعبيدة وعلي بن أبي طالب وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة، رواه البخاري عن حجاج بن منهال، عن هشيم بن هاشم أخبرنا أبو بكر الحارث قال: أخبرنا أبو الشيخ الحافظ قال: أخبرنا محمد ابن سليمان قال: أخبرنا هلال بن بشر قال: أخبرنا، يوسف بن يعقوب قال: أخبرنا سليم التيمي عن أبي مجلز، عن قيس بن عباد، عن علي قال: فينا نزلت هذه الآية وفي مبارزتنا يوم بدر - هذان خصمان اختصموا - إلى قوله - الحريق - قال ابن عباس: هم أهل الكتاب قالوا للمؤمنين: نحن أولى بالله منكم وأقدم منكم كتابا ونبيا (ونبينا) قبل نبيكم، وقال المؤمنون، نحن أحق بالله، آمنا بمحمد عليه الصلاة والسلام وآمنا بنبيكم وبما أنزل من كتاب، فأنتم تعرفون نبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا، وكانت هذه خصومتهم، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية، وهذا قول قتادة. «أسباب النزول» (1/208، 209).

بحيث ﴿يُصْهَرُ﴾ ويذاب ﴿بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ من الشحوم وغيرها ﴿وَ﴾ كذا يذاب به ﴿الْجُلُودُ﴾ [الحج:20].

﴿وَلَهُم﴾ أي: لردهم ودفعهم زجرًا وقهرًا ﴿مَقَامِعُ﴾ سياط مصنوعة ﴿مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج:21] بيد مَن وكل عليه من الزبانية ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ وَهَمّ وكآبة، عرض لهم من شدة العذاب، فطلبوا الخروج تخفيفًا، وترويحًا حين التقطهم اللهب إلى الطرف الأعلى منها ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ زجرًا ضاربين عليهم بالمقامع ﴿وَ﴾ قائلين لهم ﴿ذُوقُوا﴾ أيها المصرون على الكفر والعناد، المسرفون المفسدون بأنواع الفجور والفساد ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج:22] المحرق أكبادكم بدل ما تبردونها بالسحت والرشى.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتجلي على أهل الإيمان بالتجليات الحبّية الجمالية ﴿يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله مخلصين ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقبولة عنده المقربة إليه ﴿جَنَّاتٍ﴾ وحدائق ذات بهجة ترويحًا لهم وتفريحًا، وانشراحًا لصدورهم، وتفريجًا لغمومهم حيث ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ المُذهِبة للهموم الفارجة للكروب ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ تذهيبًا وتزيينًا لظواهرهم من عكوس بواطنهم ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ متخذة ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ بها يرصع أساورهم ﴿وَلِبَاسُهُمْ﴾ دائمًا ﴿فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج:23] تليينًا لبشرتهم وتكميلاً لترفههم وتنعمهم.

﴿وَ﴾لا يقتصر عليهم فيها على تزيين الظاهر وتفريح الباطن، بل ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ليتصفوا بالصدق والتصديق، ويداوموا على شكر الله بقولهم: الحمد لله الذي صدقنا وعده، وبقولهم: الحمد لله الذي هدانا لهذا، ﴿وَ﴾ بعدما تصفوا بالصدق والعدالة في الأقوال والأفعال ﴿هُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج:24] الذي هو التوحيد المسقط للإضافات مطلقًا، سمي به لاستحقاقه الحمد لذاته.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيد الله وأعرضوا عن شعائر دينه ﴿وَ﴾ مع ذلك هم ﴿يَصُدُّونَ﴾ ويصرفون الناس أيضًا ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ ومعالم الهدى واليقين لا في وقت دون وقت بل دائمًا مستمرًا ﴿وَ﴾ خصوصًا عن ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الذي منه الصد والمنع مطلقًا؛ لأنه ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ﴾ قبلة ﴿لِلنَّاسِ﴾ كافة، وفرضنا عليهم الطواف حولها من استطاع منهم إليها سبيلاً، ولهذا ما صارت مكة ومن حولها ملكًا لأحد، بل صار الكل فيها ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ﴾ المقيم ﴿فِيهِ وَالْبَادِ﴾ المسافر الوارد عليه

﴿وَمَن يُرِدْ﴾ ويقصد سوءًا بالنسبة إليه من صدود وغيره مع أنه مقيم ﴿فِيهِ﴾ وصدر ذلك عنه ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ وميل مقرون ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي: عن قصد وعمد لا عن خطأ وسهوٍ ونسيان ﴿نُذِقْهُ﴾ بمجرد قصده الذي لم ينته إلى الفعل والصدور ﴿مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:25] مؤلم فجيع.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [الحج: 26 – 30].

﴿وَ﴾ كيف لا نذيقه من عذابنا الأليم، إذ بناء بيتنا هذا على الطهارة الكاملة من جميع الآثام، اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ بَوَّأْنَا﴾ أي: بيّنا وعيّنا ﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾ حين شرفناه بأمرنا المتعلق ببناء بيتنا هذا ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي: الكعبة بعدما اندرست وسقطت بالطوفان، وصارت سوى لا علامة لها أصلاً، فأعلمنا له بريحٍ أرسلناها مع إبراهيم فكنست الريحُ حولها فبناه على بنائه الذي بناه آدم عليه السلام، وأوصينا ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ من مظاهري وأظلالي في الوجود معي ﴿وَ﴾ بعدما نزّهت ذاتي عن الشريك والنظير ﴿طَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ هذا الممثّل من بيتي الذي في صدرك عن جميع المعاصي والآثام والمؤذيات والقاذورات، وأنواع الخبائث والمكروهات، إذ جعلناه قبلة ومقصدًا ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ القاصدين بطوافهم حول البيت التحقق عند كعبة الذات والوقوف على عرفات الأسماء والصفات ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ المواظبين بالتوجه الدائمي، والميل الشوقي الحقيقي الحبي بجميع الأركان والجوارح نحو الذات الأحدية، المنقطعين عن جميع العلائق والإضافات ﴿وَالرُّكَّعِ﴾ الراكعين الذين قُصمت ظهور هوياتهم عن حمل أعباء

العبودية ﴿السُّجُودِ﴾ [الحج:26] أي: الساجدين المتذللين الخاضعين الواضعين جباه أنانيتهم على تراب المذلة والانكسار لدى الملك الجبار القهار لسمت السوى والأغيار.

﴿وَ﴾ بعدما أوصيناه بما أوصيناه قلنا آمرًا إياه: ﴿أَذِّن﴾ وأعلم إعلامًا عامًا ﴿فِي﴾ حق عموم ﴿النَّاسِ﴾ وبشرهم ﴿بِالْحَجِّ﴾ أي: أعلم الداني والقاصي منهم بوجوب الحج عليهم، لزمهم أن ﴿يَأْتُوكَ﴾ ويزوروا بيتك ويطوفوا حولها آتين ﴿رِجَالًا﴾ مشاة إن كانوا من الأداني ﴿وَ﴾ ركبانًا ﴿عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ بعيرٍ مهزول أهزله وأتعبه بُعد المسافة؛ إذ ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ طريق ﴿عَمِيقٍ﴾ [الحج:27] غائر بعيد إن كانوا من الأقاصي، وإنما أمرناهم بالحج وفرضناه عليهم ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ أي: أمكنة ينفعهم الحضور فيها والوقوف بها منافع النشأة الأخرى، ونسّهل عليهم سلوك طريق التوحيد بالفناء والإفناء، والانقطاع عن حطام الدنيا، والتعري عن لباس البأس والعناء، والتخلص عن مقتضيات القوى، والتحلي بلباس التقوى، والتشمر نحو جناب المولى، والتجرد عن موانع الوصول إلى دار البقاء من الأموال والأبناء ﴿وَيَذْكُرُوا﴾ فيها ﴿اسْمَ اللَّهِ﴾ المشتمل لجميع الأوصاف والأسماء، المحيط بجميع الأشياء إحاطة الشمس على جميع الأظلال والأضواء بلا تركيبٍ وانقسام إلى أبعاض وأجزاء سيما ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ عينها الله المتعزز برداء العظمة والكبرياء للتوجه والدعاء، وهي عُشر ذي الحجة، وقيل: أيام النحر ﴿عَلَى﴾ ذبح ﴿مَا رَزَقَهُم﴾ الله وأباحهم ﴿مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ مما ملكت أيمانهم، متقربين بها إلى الله هَدْيَة أو أُضحية ﴿فَكُلُوا﴾ مما ذبحتم ﴿مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج:28] الذين شملهم بؤس الفقر وإحاطته شدة الفاقة.

﴿ثُمَّ﴾ بعد ذبح الهدايا والضحايا ﴿لْيَقْضُوا﴾ وليزيلوا ﴿تَفَثَهُمْ﴾ أي: أوساخهم العارضة لهم من رين الإمكان، وطغيان الهويات، ومقتضى الأنانيات ﴿وَ﴾ بعد تطهير أوساخ الإمكان ﴿لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ التي نذورها في قطع بوادي تعيناتهم، ومهاوي هوياتهم من ذبح بقرة أمّارتهم المضِلّة عن سواء السبيل ﴿وَ﴾ بعدما طهروا من الأوساخ ووافوا بالنذور ﴿لْيَطَّوَّفُوا﴾ منخلعين عن خِلَع ناسوتهم، متجردين عن ثياب بشريتهم ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:29][1] والركن الوثيق الأزلي الأبدي، الذي لا يلحقه انصرام،

(1) أفاد سيدنا البيطار في هذه الآية المباركة بقوله: وارد: البيت العتيق لكل مؤمن وصدِّيق.
بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:29]: اعلم - رحمك

الله . أن بيت الله عين ساكن؛ لأن الله هو وجود كل شيء أحد لا يتجزأ، وحقيقة مطلقة يندرج بها كل صورة في الوجود، فليس لله محل يسكنه؛ إذ ليس مع وجوده شيء آخر يحل فيه أو يتحد فيه أو يمتزج فيه، بل هو الله الواحد الأحد من جميع الوجوه كما قال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:3]، فأين البيت وأين الساكن؟ بل البيت عين الساكن والساكن عين البيت، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:115]. غاية الأمر أن الوجوه الإلهية منها العالي ومنها الأعلى، ومنها الكريم ومنها الأكرم، ومنها الرحيم ومنها الأرحم، ومنها القريب ومنها الأقرب، ومنها العظيم ومنها الأعظم، ولما كان هذا البيت أول بيت لله تعالى، أي: أول صورة إلهية شهادية تجلى الله بها من حضرة ذاته الغيبية المطلقة سمي عتيقًا، أي: قديمًا، لا يعلم له أولية فهو مجلي اسم الله القديم، ولهذا كانت تربة الجسم المحمدي ﷺ من هذا البيت، الذي هو وجه الله القديم، وقد طافت به الأمم السابقة على أبينا آدم الأقرب إلينا بأربعين ألف عام أو أكثر، وطافت به الملائكة قبل الجنس الإنساني، فحاز رتبة الأولية في مظاهر الحق بالنسبة لبيوته، كما قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:96]، فهو شهادة الله كما أن باطنه غيب الله. ألا ترى أن النبي ﷺ صافح الحجر الأسود منه، ووصفه بالسواد من السيادة وقال: «إنه يمين الله في الأرض» ليت شعري هل تقول بأن يمين الله حادث؟ حاشا وكلا، وحيث كان الحجر يمين الله فالكعبة صورة الحق المقدسة، ووجهه الأعلى فهو مجلى﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11]، فلذا كان البيت عتيقًا، ولما كانت قبلتنا التي نسجد إليها نبهنا النبي ﷺ بأنها وجه الله الأعلى حيث نهانا أن نبصق في قبلتنا فقال: «إن الله في قبلة أحدكم». خشية اعتقاد المحجوبين أنها بمثابة الأصنام التي قال المشركون في حقهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:3]، فنبهنا النبي ﷺ أن الله أقرب إلينا من أن يتقرب إليه !. إذ لا ظاهر في الوجود إلا وجهه؟ فهل في الوجود غيره حتى يقرب إليه؟! ولهذا أنزل على محمد ﷺ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:1]، فالكعبة المشرفة هي اسم الرب الأعلى فكان ﷺ يشاهدها مجلى مقدسا ذاتيًا تطوف به كافة أسماء الله وصفاته، ولما كنا مظاهر أسماء الله وصفاته أمرنا الله بالطواف بها فقال: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج:29]، بمعنى أنه معتق عن طاف به من رق حجاب الغيرية، ومدخل له الأمان الذاتية، وبمعنى أنه معتَق بفتح التاء من رق الأسماء والصفات، لأن الكعبة المشرفة هي عين تجلي الذات، ولما كان الأمر كذلك أمرنا بالطواف سبعة أشواط؛ تنبيهًا على صفات الله السبعة الأئمة التي لها التقدم على جميع الأسماء والصفات؛ لنشاهدها هي المجلى الذاتي الساري بنا وبكل شيء في الوجود. ولقد كنت أراقبها أشاهد سريانها في قلبي، وأنها تخاطبني مني حين التفت عنها خطاب العتاب، وتقول: أما تستحي مني، تلتفت عني وأنت تشاهدني، فكأنما تقول لي: هل بعد مشاهدة الذات تلتفت إلى مشاهدة الصور المتفرقة؟ فلا تخرج من العين إلى الأين، بل أن

الصور وإن كانت هي العين فأنا العين وإنسان العين.

أما علمت أن حجة الله على عبدة الأوثان في قوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد:33]، فلو سمُّوهم لم يسمُّوهم بأسمائه كما فعل رسول الله ﷺ فقال: «إن الله في قبلة أحدكم» فلم يشاهد عين قبلته إلا الله.

ولما كان هذا التجلي الذاتي المحمدي لا يقوى عليه إلا ورثته المقربون خاطب الضعفاء بمرتبة الإحسان؛ فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنه تراه».

ألا ترى أن الوارث المحمدي الكامل الخاتم الأولياء المحمديين أستاذنا في العلم بالله الشيخ الأكبر محمد بن علي بن العربي محيي الدين لم يقيدها بصورة الحجر والطين بل كان يراها في صورة امرأة إشارة أنها الذات التي هي أم الأسماء والصفات فهي أم الوجود بأسره، وأولادها منها وعينها، فقال ﷺ:

رأيت شخصًا بشخصي في قد سجدا يا قبلتي خاطبيني في سجودي لقد

إني عجبت لمثلي كيف ما عبدا لاهوته حل ناسوتي فقدسه

والمخلص من هذا العجب أن الصورة الإنسانية لها الحركة الحسيَّة، فلو كانت في المرتبة المعبودية؛ لفاتها المرتبة العابدية، فكانت العابدة من جهة الصورة، والمعبودة من جهة الحقيقة؛ ولهذا السر نهى ﷺ من قال له: مرني أن أسجد لك عن السجود له وقال: «لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها». وقد كنت شطرت هذين البيتين وشرحتهما، فلا اعتمد على ما سلف، ولكني الآن أقول ما يجريه الله على لساني ويفيضه على جناني فأقول: إن الشيخ الأكبر لما كان مقامه نقطة الذات وتجليها بصور الأسماء والصفات فكان يشهد أعلى عليين عين صورة أسفل سافلين، خاطب قبلته وما خاطب إلا الله؛ لأنه طلب الخطاب في السجود، والسجود لا يكون إلا على الأرض، ورسوله الله ﷺ قال: «لو دليتم بحبل لهبط على الله». فقد سمى الأرض باسمه الأعظم، فانقلب أسفل سافلين - الذي هو حقيقة الأجسام - أعلى عليين الذي هو نور الأرواح وأصلها وحقيقتها، فعلمنا أن المشهد الحاتمي عين المشهد المحمدي وراثة منه ﷺ فكان خاتم الأولياء مرآة لخاتم الرسل والأنبياء ﷺ في مشهده الذاتي الأحدى المطلق، الذي تتدرج أمواج الصور في بحر وجوده المحيط، كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:39]، فذاته تعالى هي الأم، وكل صورة في الوجود هي الكتاب. وقوله ﷺ: رأيت شخصًا بشخصي في قد سجدا معناه أن الأنوار الذاتية اللاهوتية تتشكل وتمتزج بالصور الجسمية، فتتجلى بالتصور والتشكل حتى تتحد ذاته وتكون عينه ويكون هو إياها، ولاسيما إذا كانت اللطيفة الإلهية ذاتية، وهذا مشهد البيعة الإلهية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ﴾ [الفتح:10].

فقوله ﷺ: يا قبلتي خاطبيني، هو تجلي الله في مرتبة المعبودية، وقوله: (رأيت شخصًا بشخصي في قد سجدا) هو تجلي الله في المرتبة العابدية، فالعابد عين المعبود وذلك معنى قولهم: عبادة

ولا يعرضه انقراض وانخرام، فالأمر ذلك لمن أراد سلوك طريق الفناء، والحج الحقيقي، والطواف المعنوي.

﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: ومن يحافظ على حرمة ما حرمه الله في أوقات الحج ولم يهتك حرمتها ليجبرها بدم ﴿فَهُوَ﴾ أي: الحفظ بلا هتك حرمة ﴿خَيْرٌ لَّهُ﴾ مقبول ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ من هتكها وجبرها بدم ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿أُحِلَّتْ لَكُمُ﴾ في دينكم ﴿الأَنْعَامُ﴾ كلها بأنواعها وأصنافها، وشرب ألبانها، والانتفاع بأشعارها وأوبارها والتقرب بها إلى الله في أوقات الحج ﴿إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ في كتابكم تحريمه بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة:3] ومتى عرفتم ما أحل الله لكم ﴿فَاجْتَنِبُوا﴾ أيها الموحدون ﴿الرِّجْسَ﴾ والقذر الذي هو ﴿مِنَ الأَوْثَانِ﴾ أي: من قبلها، إذ هي شرك منافٍ للتوحيد والشرك من أخبث الخبائث ﴿وَاجْتَنِبُوا﴾ أيضًا ﴿قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج:30] والبهتان، إذ هو ظلمٌ والظلم مقرونٌ بالكفر، والشركُ معدودٌ من

العارف تشريف لا تكليف؛ لأن العابد في العارف هو الله العابد لنفسه في نفسه، وهذه حضرة سقط فيها التكليف، ومعنى سقوطه أن العارف لا يشهد اثنين، فليس الحق غيره حتى يكلفه بل هو القائم لجميع أحكام الربوبية، كما أنه القائم بجميع تجليات العبودية، فالعارف بالله أعظم الناس تمكنًا في القيام بالأوامر المشروعة، والتنزه عن المخالفات القبيحة؛ لأنه متخلق باسم الله الطاهر القدوس، وخارج عمن قال الله في حقهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:28]، فأين المشركون من مشهد ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:1]. ولقد رأيت من الجهلة السفلة من يزعم أن العارف لا يجب عليه صلاة ولا صوم، بل إن صلاته وصومه مجاراة للمحجوبين، فجعل هذا الجاهل العارف بمنزلة المنافقين الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ يصلون ويصومون حقنًا لدمائهم وخشية على أموالهم، فأين هؤلاء السفلة الأوغاد الذين خرجوا من ربقة دين الإسلام فضلاً عن المعرفة التي يدعوها من قوله ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة» فالمنافقون يقومون فيها وهم لها كارهون، والعارفون بالله يقومون فيها وهم بالله قائمون.

قال ﷺ: «أرحنا بها يا بلال» ولم يقل: أرحنا منها، بل راحته بصلاته لا منها، ويحتمل قوله: «أرحنا» من الرَّوح بفتح الراء، أي: أشممنا منها الرائحة الطيبة التي هي الأنفاس الإلهية والنفحات الربانية، ولذلك قام ﷺ حتى تورمت قدماه عن حب وعشق وصدق لا عن مجاراة للخلق، فان الله أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ • قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل:1،2]، مع أنه مشاهد للحي القيوم القائم بكل شيء فنعوذ بالله من تبدل الصلاح بالفساد، ومن التكليف والزندقة والإلحاد، وعلى الله قصد السبيل.

عداده مسقطٌ للمروءة والعدالة اللازمة لأهل الإيمان والتوحيد.

﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: 31 – 37].

يعني: اجتنبوا عن الشرك والمعاصي المنافية للتوحيد، وكونوا ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ مخلصين له غير مائلين عن دينه ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ شيئًا من مظاهره ومصنوعاته ﴿وَ﴾ اعلموا أيها العقلاء الموحدون أن ﴿مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ الواحد الأحد المنزه عن الشريك مطلقًا سواء كان شركه خفيًا أو جليًا ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾ وسقط ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: أوج الإيمان وأعلى درجة التوحيد والعرفان ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾ أي: إذا سقط أخذه ﴿الطَّيْرُ﴾ فجأة في الهواء، فيرميه في حضيض غائر بعيد عن العمران ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ حين سقوطه منها فتطرحه ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:31] بعيد، ووادٍ عميق.

وبالجملة من يشرك بالله ـ العياذ به منه ـ فقد وقع في هاوية الضلال بحيث لا يرجى نجاته منها أصلاً، الحكم والأمر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور لمن أشرك بالله، ونسي الأدب معه، ولم يعرف حق قدره ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ المأمورة في أداء الحج، ويوقرها حق توقيرها وتعظيمها ﴿فَإِنَّهَا﴾ أي: تعظيمها وتحسينها ناشئة ﴿مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج:32] الناظرة إلى الله بنور الحق في جميع حالاتها.

﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون الناسكون بمناسك الحج ﴿فِيهَا﴾ أي: في الهدايا والضحايا ﴿مَنَافِعُ﴾ درها وصوفها وشعرها وظهرها ونسلها ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: إلى حلول وقتٍ عيّنه سبحانه لذبحها ﴿ثُمَّ﴾ بعدما قرب وقتها، وحان حينها ﴿مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:33] أي: محل ذبحها عند البيت العتيق؛ أي: جميع الحرم حواليه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: مذبحًا معينًا يتقربون فيه إلينا، ويهدون نحونا بهدايا وقرابين وإنما أعطيناهم ذلك ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ عند التذكية والذبح ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُم﴾ مما ملكت أيمانهم ﴿مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ قيدنا لهم؛ لأن الخيل والحمير لا يليق بالقربان والهدي، وبعدما علمتم أن لكل أمة مذبحًا معينًا ومنسكًا مخصوصًا يتقربون فيها إلينا ﴿فَإِلَٰهُكُمْ﴾ أي: فاعلموا أن إلهكم ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أحد صمد فردٌ وترٌ لا تعدد فيه ولا شركة ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ وتوجهوا إن كنتم مسلِّمين أموركم إليه ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا أكمل الرسل من بين المؤمنين المسلمين بالمثوبة العظمى، والدرجة العليا، والفوز بشرف اللقيا ﴿الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج:34] المطيعين الخاضعين المتواضعين الذين خَبَت، وخمدت نار شهواتهم من بأس الله وخشيته.

وهم ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ القادر المقتدر بالإنعام والانتقام ﴿وَجِلَتْ﴾ وخشيت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ خوفًا من قهره وغضبه، وصولة صفات جلاله وسطوة سلطنته وكبريائه ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ من المصيبات والبليات التي جرى حكم الله عليه في سابق قضائه ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ المفروضة بأوقاتها مع شرائطها، وأركانها، وآدابها تقربًا إليه، وتوجهًا نحوه بكمال الخضوع، والخشوع، والتذلل، والانكسار ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ واستخلفناهم عليه، ونسبناه إليهم ﴿يُنفِقُونَ﴾ [الحج:35] على الوجه الذي أمرناهم به، أي: على المصارف المذكورة في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة:60] . متقربين بها إلى الله

﴿وَ﴾ جعلنا خير الهدايا والضحايا ﴿الْبُدْنَ﴾ جمع: بادن كبذلُ جمع باذل، وهي: الإبل خاصةً سميت بها؛ لعظم بدنها وجسامتها، وغلاء ثمنها، وعظم وقعها في نفوس الناس لذلك ﴿جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ وأعلام دينه ومعالم بيته ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ كثير، وأجر جزيل، وثواب عظيم عند الله إن ذبحتموها، وإذا أردتم ذبحها ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ عند تذكيتها قائلين: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، اللهم

منك، وما لنا إلا امتثال ما أمرتنا به، والسرّ عندك ولديك، والحكمة دونك، واذبحوها ﴿صَوَآفَّ﴾ أي: صافة قوائمها مشدودة محكمة، ثم تطعنون في لباتها ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ﴾ وسقطت ﴿جُنُوبُهَا﴾ على الأرض وخرجت روحها من الجسد ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ إن شئتم ﴿وَأَطْعِمُوا﴾ أيضًا ﴿الْقَانِعَ﴾ وهو الفقير يقنع بما يُعطى، ولا يبادر إلى السؤال والإلحاح ﴿وَ﴾ أطعموا أيضًا ﴿الْمُعْتَرَّ﴾ وهو الذي يبادر إلى السؤال قبل الإعطاء، ويبالغ فيه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: على الوجه المذكور ﴿سَخَّرْنَاهَا﴾ وذللناها؛ أي: البُدن ﴿لَكُمْ﴾ مع أنها في كمال القوة والجسامة، وأنتم في غاية الضعف، كي تتفطنوا من تسخيرها وتذليلها عليكم إلى تذليل أمّارتكم المسلطة عليكم، فذبحتموها في طريق الحق مشدودة قوائم قواها عن مقتضاها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج:36] نعمة الإقدار والتوفيق عليها، وتعطون بدلها من لدنه سبحانه: ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

واعلموا أيها المتقربون إلى الله بالهدايا والضحايا: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ﴾ أي: لن يصيب ويصل إليه سبحانه ﴿لُحُومُهَا﴾ المتصدق بها، إذ هو منزه عنها وعن الانتفاع بها ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لَا﴾ يصل إليه سبحانه ﴿دِمَاؤُهَا﴾ المهراقة ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ﴾ ويصل منها إليه سبحانه ﴿التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ أي: التحرز والاجتناب عن محارمه ومنهياته والامتثال بأوامره والإتيان بمأموراته، وبالجملة يقربكم إليه سبحانه امتثال الأوامر واجتناب النواهي، لا اللحوم والدماء.

ثم كرره سبحانه تأكيدًا أو مبالغة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ أي: الهدايا والضحايا ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ المتعزز بالعظمة والكبرياء، المستقل بالمجد والبهاء حق تكبيره، وتعظموه حق تعظيمه وتوقيره ﴿عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ وأرشدكم إلى الإيمان والتوحيد ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج:37] منهم، وهم الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، ويحسنون الأدب معه، كأنهم ينظرون إليه سبحانه.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ

﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الحج: 38 – 43].

ثم لما خشي المؤمنون على معاداة المشركين، وخافوا عن مخاصمتهم، وغيظهم إذا خرجوا نحو مكة للزيارة والطواف قاتَلوا معهم، وأكَبُّوا عليهم وعلى أموالهم، وأسَروا أولادهم، أزال الله سبحانه عنهم الرعب وأسقط عنهم الخشية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتكفل لأمور عباده، الحفيظ عليهم عما يؤذيهم ﴿يُدَافِعُ﴾ كيد الكفرة العداة البغاة الطغاة ﴿عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وصدقوا بشعائر دينه، وقصدوا إقامتها على أمره ووحيه، كيف لا يدفع سبحانه مع كمال قدرته خيانةَ من خان بأحبائه وأصدقائه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المنتقم لأعدائه ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ مبالغ في الخيانة سيما مع أوليائه وأحبائه ﴿كَفُورٍ﴾ [الحج:38] مبالغ في كفران نعمه، حيث صرفها في غير محله مثل: هدي الكفرة، وذبحهم لأصنامهم وأوثانهم.

ثم لما اشتد إضرار الكفرة بالمسلمين وامتد أذاهم عليهم ظلمًا وعدوانًا، أراد المؤمنون أن يقاتلوا ويشاجروا معهم، منعهم رسول الله ﷺ عن القتال والحراب بإذن الله ووحيه سبعينَ مرة لنزول سبعين آية في المنع عنه، وقال ﷺ في كل مرة: اصبروا حتى يأمر الله.

ثم لما شق على المسلمين ظلمهم وضررهم وصاروا مهانين صاغرين مع قدرتهم على مقاتلتهم ومدافعتهم ﴿أُذِنَ﴾ ورُخِّص من جانب الله على لسان رسوله ﷺ ﴿لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾[1] أي: يريدون القتال معهم بعدما تحملوا كثيرًا من أذاهم وظلمهم، فنزلت هذه الآية للرخصة بعدما نزلت سبعون آية بعدمها، لذلك قيل نسخت هذه الآية نيفًا وسبعين، وإنما رخصهم سبحانه بها ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ أي: بسبب أنهم صاروا

(1) قوله تعالى: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) الآية. قال المفسرون: كان مشركوا أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فلا يزالون يجيئون من مضروب ومشجوج، فشكوهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول لهم: اصبروا فإني لم أومر بالقتال حتى هاجر رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال ابن عباس: لما أخرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر رضي الله عنه: إنا لله لنهكن، فأنزل الله تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون﴾ الآية، قال أبو بكر فعرفت أنه سيكون قتال. «أسباب النزول» (208/1).

مظلومين صاغرين عن أذى الكفار والمشركين ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر ﴿عَلَىٰ نَصْرِهِمْ﴾ أي: نصر الأولياء على الأعداء ﴿لَقَدِيرٌ﴾ [الحج:39] لينصرهم ويغلبهم عليهم، وإن كانوا أكثر منهم، وكيف لا ينتقم سبحانه عن أعدائه لأجل أوليائه؟.

إذ هم ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم﴾ ظلمًا وعدوانًا ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ورخصة شرعية موجبة للإخراج والإجلاء ﴿إِلَّا أَن يَقُولُوا﴾ أي: لا موجب لإخراجهم سوى قولهم هذا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد المنزه عن الشريك والولد ﴿وَ﴾ كيف لا يدفع سبحانه شر الكفرة عن أوليائه الموحدين؛ إذ ﴿لَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: بتسليط أهل الإيمان على المشركين المعاندين ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ وخربت باستيلاء الأعداء على الأولياء ﴿صَوَامِعُ﴾ للرهابنة ﴿وَبِيَعٌ﴾ للنصارى ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ هي كنائس اليهود ﴿وَمَسَاجِدُ﴾ للمسلمين، إنما عد كل واحد منها ﴿يُذْكَرُ فِيهَا﴾ أي: في كل واحدة منها ﴿اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي: حينًا كثيرًا، وذكرًا كثيرًا ﴿وَ﴾ الله ﴿لَيَنصُرَنَّ اللَّهُ﴾ المتكفل بعباده ﴿مَن يَنصُرُهُ﴾ ويعين دينه ونبيه ويصدق كتابه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لما في صدور عباده من الإخلاص ﴿لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:40] غالب قادر على الإنعام والانتقام لأوليائه من أعدائه، كما سلط ضعفاء أهل الإيمان على صناديد العرب والعجم من الأكاسرة والقياصرة، وشاع دينهم بين الأنام إلى يوم القيامة.

وكيف لا ينصرهم سبحانه، إذ هم: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ﴾ وقدرناهم وجعلنا لهم التصرف والاستيلاء ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ المعدة للطاعات والعبادات ﴿أَقَامُوا﴾ وأداموا ﴿الصَّلَاةَ﴾ والميل إلينا بجميع جوارحهم وأركانهم ميلاً مقرونًا بأنواع الخضوع، والخشوع، والاستكانة، والانكسار، تطهيرًا لنفوسهم عن العتو والاستكبار، وتقريبًا لهم إلينا على وجه المذلة والافتقار ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿آتَوُا الزَّكَاةَ﴾ المصفية لبواطنهم عن الميل إلى زخرفة الدنيا الغدارة ﴿وَأَمَرُوا﴾ على من دونهم ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ المستحسن عقلاً وشرعًا ﴿وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ المستقبح شرعًا وعرفًا على الوجه المبين لهم من ألسنة رسلهم وكتبهم المنزلة عليهم من الله ﴿وَلِلَّهِ﴾ المدبر لأحوال عباده ﴿عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج:41] أي: مرجع جميع الأمور الجارية فيما بينهم، المتعلق بتهذيب ظواهرهم، وموانع بواطنهم عن موانع الوصول إلى مرتبة التوحيد.

ثم لما تغمم رسول الله ﷺ وتحزن من تكذيب قومه إياه ﷺ، ونسبتهم له ما لا يليق بشأنه، أراد سبحانه أن يسلّي حبيبه ﷺ ويزيل عنه همّه فقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ قومك يا أكمل الرسل لا تبال بهم وبتكذيبهم ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل أمتك ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ أخاك نوحًا عليه السلام ﴿وَعَادٌ﴾ أخاك هودًا عليه السلام ﴿وَثَمُودُ﴾ [الحج:42] أخاك صالحًا عليه السلام.

﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ﴾ جدك الخليل أبا الأنبياء - عليه وعليهم السلام - ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ [الحج:43] أخاك لوطًا عليه السلام.

﴿ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحج: 44 - 50].

﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ أخاك شعيبًا عليه السلام ﴿وَ﴾ لا سيما ﴿كُذِّبَ مُوسَى﴾ يعني: كذّب بنو إسرائيل أخاك موسى الكليم عليه السلام مرارًا متعددة، مع أن آياته ومعجزاته من أظهر الآيات وأبهر المعجزات ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ وأمهلت ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ المكذبين المعاندين المستكبرين ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بأنواع العذاب والنكال إلى أن أهلكتهم واستأصلتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج:44] إياهم وإنكاري عليهم بعد إمهالي بأن النعمة عليهم نقمة، والمنحةَ محنة، واللذة ألمًا، والفرح ترحًا، والقصورَ قبورًا.

ولا تتعجب يا أكمل الرسل من كمال قدرتنا وبسطتنا أمثال هذا ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: أهلكنا كثيرًا من أهل قرية بأنواع العذاب والعقاب ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ﴾ أي: أهلها خارجة عن مقتضى حدود الله فهي الآن من ظلم أهلها ﴿خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي: ساقطة جدرانها على سقوفها من غاية انهدامها وانتكاسها ﴿وَ﴾ كم ﴿بِئْرٍ﴾ معينة ﴿مُّعَطَّلَةٍ﴾ لا يستقى منها لهلاك أهلها ﴿وَ﴾ كم ﴿قَصْرٍ﴾ عالٍ ﴿مَّشِيدٍ﴾ [الحج:45] محكم أركانه وبنيانه، مجصص أساسه وجدرانه، خالٍ عن ساكنيها، غير مسكون فيها.

﴿أَ﴾ ينكرون هذه المذكورات ﴿فَلَمْ يَسِيرُوا﴾ ويسافروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ المعدة

للعبرة والاستبصار ﴿فَتَكُونَ﴾ وتحصل ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ﴾ ويعتبرون ﴿بِهَا﴾ من الوقائع الواقعة فيها للأمم الهالكة ﴿أَوْ﴾ تحصل لهم ﴿آذَانٌ﴾ وقوة استماع ﴿يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أخبارهم وآثارهم، وكيفية إهلاكهم واستئصالهم ﴿فَإِنَّهَا﴾ أي: شأن قصصهم ووقائعهم أنها ﴿لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ﴾ منها؛ لأن الأبصار تشاهد آثارهم وأطلالهم ﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:46] إذ لم يعتبروا منها ولم يستبصروا ولم ينظروا إليها نظر المعتبر المتأمل والمستبصر الخبير، والجملة من لم يعتبر بما جرى على الأمم الهالكة من الوقائع الهائلة، فهم عميٌ قلوبهم وإن كانت أعينهم صحيحة.

وبعدما استبطأ الكفار نزول العذاب الموعود وقالوا: ﴿مَتَى هَذَا الوَعْدُ﴾ [يونس: 48] نزل: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِالْعَذَابِ﴾ الموعود على لسانك ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللهُ﴾ الصادق في ﴿وَعْدَهُ﴾ الذي وعده وإن كان بعد حين، سينزل ألبتة ﴿وَإِنَّ يَوْمًا﴾ من أيام العذاب ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: 47] في الدنيا في الشدة والعناء، فلا تستعجلوه يا هؤلاء الحمقى!.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: من أهلها ﴿أَمْلَيْتُ﴾ وأمهلت ﴿لَهَا﴾ وأخَّرت عنها عذابها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أهلها مستحقة للعذاب أمثالكم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب الشديد بعدما كمل وازداد أهلها موجباته ﴿وَ﴾ لا مخلص لهم منه؛ إذ ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: 48] أي: مرجع الكل إليّ ومنقلبهم عندي، ولا مقصد لهم غيري، وإن لم يعرفوا.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل كلامًا خاليًا عن وصمة الكذب صادرًا عن محض الحكمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المجبولون على الغفلة والنسيان ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ مرسلٌ من عند الله ﴿مُّبِينٌ﴾ [الحج:49] مظهرٌ لكم موانعكم وعوائقكم عن طريق الحق وطريقٍ مستقيم.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ منكم بالله وصدّقوا رسله وكتبه ﴿وَ﴾ مع الإيمان والتصديق ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة لهم على ألسنة رسلهم وكتبهم المقبولة المرضية عند ربهم ﴿لَهُم﴾ بواسطة إيمانهم وعملهم ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ ستر وعفو لما مضى من الذنوب، وجرى عليه من المعاصي ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الحج:50] من الصوري والمعنوي في الجنة جزاءً لإيمانهم وصالح أعمالهم.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن

قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾[الحج: 51 – 55].

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا﴾ وبذلوا وسعهم وجهدهم ﴿فِي﴾ إبطال ﴿آيَاتِنَا﴾ وردّها وتكذيبها، ومع ذلك صاروا ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ مسابقين ومبادرين إلى رد الممتثلين المصدقين بها وإنكارهم ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الأشقياء المردودون هم ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحج:51] وملازموها لا نجاة لهم منها أصلاً.

ثم لما رأى رسول الله ﷺ إصرار قومه على الكفر وشدة عنادهم وشكيمتهم عليه وعلى دينه، تمنى أن يأتيه الله ما يقاربهم ويحببهم معه، ويزيل غيظه عن قلوبهم ويلينها، فأنزل الله سبحانه سورة: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ [النجم:1] فقرأها فرحًا وسرورًا كي يسمعوا، ويميلوا إلى طريق الحق، فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ [النجم:19-20] توجهت قريش نحوه، والتفتوا إليه على وجهٍ يشعرهم التلقي والقبول، فيلهي تلقيهم الرسول ﷺ فغفل عن قلبه وشغل، ألقى الشيطان على لسانه في أثناء كلامه على مقتضى مناه ومتمناه، وأسمعهم الآية هكذا: تلك الغرانيق العلى منهم شفاعة ترتجى، ففرحت بذلك قريش، فلم يعلم النبي ﷺ ما صدر عنه لاستغراقه في أمنيته، فوجدهم مائلين نحوه، محسنين له، وازداد تحسينهم ومحبتهم له إلى أن سجدوا في آخر السورة المؤمنون والمشركون جميعًا، فسرّ هذا رسول الله ﷺ وسرّت قريش منه، ومن كلامه ﷺ حيث قالوا: إن محمدًا قد ذكر شفعاءنا بالخير.

فجاء جبريل عليه السلام فأخبر بما صدر عنه من تخليط الوحي بغير الوحي، فاغتم رسول الله ﷺ أشد اغتمام، وخاف خوفًا شديدًا من غيرة الله وقهره.

فأنزل الله سبحانه تسلية لرسوله ﷺ وإزالة لخوفه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾[1] يا أكمل الرسل ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ ذي وحي وشرع وكتاب ﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ ذي وحي ومنام أو إلهام، له شرع وكتاب أو شرعه بُعث لترويج شرع غيره من الأنبياء والرسل وكتبهم ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ وطلبت شيئًا أحب وقوعها من تلقاء نفسه بلا ورود وحي عليه وتمنى من الله أن ينزل عليه من الآيات مناسبًا لما أمِلَه وأحبه ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ من تسويلاته وتغريراته ﴿فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾[2] ومبتغاه فيلهيه عن نفسه ويخلط بالوحي من تسويلاته، ثم بعدما تنبه

---

(1) قوله تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي) قال المفسرون: لما رأى رسول الله ﷺ تولي قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به، تمنى في نفسه أن يأتيه من الله تعالى ما يقارب به بينه وبين قومه، وذلك لحرصه على إيمانهم، فجلس ذات يوم في ناد من أندية قريش كثير أهله، وأحب يومئذ أن لا يأتيه من الله تعالى شئ ينفر عنه، وتمنى ذلك، فأنزل الله تعالى سورة - والنجم إذا هوى - فقرأها رسول الله ﷺ حتى بلغ - أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى - ألقى الشيطان على لسانه لما كان يحدث به نفسه وتمناه، تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجي، فلما سمعت قريش ذلك فرحوا، ومضى رسول الله ﷺ في قراءته فقرأ السورة كلها، وسجد في آخر السورة فسجد المسلمون بسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين، فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد إلا الوليد بن المغيرة وأبا أحيحة سعيد بن العاص، فإنهما أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها إلى جبهتهما وسجدا عليهما، لانهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود، وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا وقالوا: قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، وقالوا: قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق لكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، فإن جعل لها محمدا نصيبا فنحن معه، فلما أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام فقال: ماذا صنعت تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله سبحانه وتعالى، وقلت ما لم أقل لك، فحزن رسول الله ﷺ حزنا شديدا وخاف من الله خوفا كبيرا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقالت قريش: ندم محمد عليه الصلاة والسلام على ما ذكر من منزلة آلهتنا عند الله فازدادوا شرا إلى ما كانوا عليه، أخبرنا أبو بكر الحارثي قال: أخبرنا أبو بكر بن حيان قال: أخبرنا أبو يحيى الرازي قال: أخبرنا سهل العسكري قال: أخبرنا يحيى عن عثمان بن الاسود، عن سعيد ابن جبير قال: قرأ رسول الله ﷺ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى - فألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى وشفاعتهن ترتجى، ففرح بذلك المشركون وقالوا: قد ذكر آلهتنا، فجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ وقال: اعرض علي كلام الله، فلما عرض عليه فقال: أما هذا فلم آتك به هذا من الشيطان، فأنزل الله تعالى - وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته«أسباب النزول» (208/1).

(2) قال البقلي: وهذا الملعون لم يخل أحد من شره حتى نبينا ﷺ فربما يعترضه ويؤذيه، وذلك أنه ﷺ كنز الله في الأرض، والملعون السارق يحوم حول ذلك الكنز؛ ليسرق منه شيئًا، ألا ترى كيف حكى الله سبحانه وتعالى مما ألقاه في صلاته، قال: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾. قال الحسين بن

وتذكر ورجع إلى الله متندمًا تائبًا آيبًا ﴿فَيَنسَخُ اللهُ﴾ المؤيدُ لأنبيائه الحفيظُ عليهم ﴿مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ ويزيله ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أزال ونسخ سبحانه ما خلط الشيطان وأدخله في خلال الوحي من تلبُساته ﴿يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ﴾ المنزلة من عنده، ويخبر بها، ويفصلها إحكامًا تامًا وإتقانًا محكمًا ﴿وَاللهُ﴾ المدبر لأحوال عباده واستعداداتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما أنزل عليهم بما يناسب استعدادهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [الحج:52] في إنزاله وتدبير مصالحهم.

فإن توهم أن الله قادرٌ على محافظة أنبيائه ورسله، سيما نبينا ﷺ من إلقاء الشيطان وتغريره وتخليطه إياهم أول مرة، فلِمَ لَمْ يحفظهم من إلقائه حتى لا يصدر عنهم ما صدر ثم نُسخ؟ قِيل: إنما لم يحفظهم سبحانه أول مرة ﴿لِيَجْعَلَ﴾ سبحانه ﴿مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ في أثناء الوحي ﴿فِتْنَةً﴾ وابتلاء ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ميلُ عن الحق وانحراف عن طريقه، هل يعرفون ويميزون كلام الحق من تسويلات الشياطين أم لا؟ ﴿وَ﴾ لا سيما المرضى ﴿الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ عن أن يسع فيها كلام الله، وهم المشركون الذين ختم الله على قلوبهم وعلى أبصارهم، وعلى سمعهم غشاوةُ عظيمة وغطاء غليظ، تعميهم عن آيات الله، وإدراك مقاصده وبالجملة إن الظالمين المتجاوزين عن مقتضى العقل والشرع لاتخاذهم الجمادات التي نحتوها بأيديهم شركاء لله شفعاء عنده ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ﴾ خلاف وجدال ﴿بَعِيدٍ﴾ [الحج:53] عن الحق بمراحل ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40].

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ اللدني من دون الله ووُفِّقوا من عنده لقبول أحكامه ﴿أَنَّهُ﴾ أي: القرآن وآياته المشتملة على الأوامر والنواهي، والأحكام والمعارف

على – رضي الله عنهما-: «نُبئت أن جبريل ﷺ أتى النبي ﷺ، وقال: إن عفريتًا من الجن يكيدك، فإذا آويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي». وقال أبو إمامة، قال رسول الله ﷺ: «وكل بالمؤمن مائة وستون ملكًا يذبون عنه ما لم يقدر عليه، من ذلك البصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذبون عن قصعة العسل الذباب في اليوم الصائف». وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل وجبل كلهم باسط يده فاغر فاه، وما لو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين، وهذا من كمال فضل الله حرس عبده بمعقباته من الملائكة المقربين من العوارض والحوادث كلما يلقي الشيطان إليه ألقى يريه الملك شيئًا من أحكام الآخرة، ويحدث معه بشيء من الخيرات ما يدفع به شر عدوه، وربما يقذف الحق نورًا من غيبه على قلبه يرى به مكائد العدو، فيحترز من شره. تقسيم الخواطر (ص68) بتحقيقنا.

والحقائق، أو إقداره سبحانه على الشيطان بإلقائه المذكور افتنانًا منه سبحانه وابتلاء ﴿الحَقُّ﴾ الثابت المحقق النازل ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي: بالله بإنزاله القرآن أو بإقداره على الشيطان أن يلقي على لسان أنبيائه اختبارًا لعباده ﴿فَتُخْبِتَ﴾ وتطمئن ﴿لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ ويزداد وثوقهم، وصاروا على خطر عظيم واحتياط بليغ ﴿وَإِنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأخلصوا بلا شوب شكٍ وترددٍ ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:54] مُوصل إلى توحيده بلا عوج وانحراف.

﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وانصرفوا عن مقتضيات آياته الكبرى لمرض صدورهم وعمى قلوبهم ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ أي: شكٍ وارتياب ﴿مِنْهُ﴾ أي: من القرآن، أو من ابتلاء الله إياهم بإلقاء الشيطان ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ أي: أشراطها وأماراتها ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة، وهم في ريبهم يترددون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج:55] هو عذاب يوم القيامة، وصفه بالعقم؛ لأنه لا يقبل فيه توبة، ولا إيمان، ولا شفاعة، كأنه عقيم لا يلد لهم خيرًا، ولا يثمر فيها عملهم ثوابًا، ولتوبتهم قبولاً، وكيف يقبل فيه منهم التوبة والاستغفار وينفعهم الإيمان؟.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: 56 – 62].

إذ ﴿المُلْكُ﴾ والتصرف ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: بعد انقضاء دار الابتلاء والاختبار ﴿لله﴾ المستقل بالألوهية والربوبية والتصرف مطلقًا، وإن كان في النشأة الأولى أيضًا كذلك،

إلا أنه سبحانه أقدرهم على الإطاعة والانقياد، كما أقدرهم على الإنكار والعناد لِحِكَم ومصالح؛ إذ هي دار الفتن والابتلاء والاختبار، وبعد انقضائها لا يقبل منهم جبرُ ما فوتوا على نفوسهم في تلك النشأة، بل ﴿يَحْكُمُ﴾ سبحانه بحكمه المبرم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ على مقتضى علم منهم، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله على وجه الإخلاص والإخبات ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المترتبة على الإيمان واليقين، هم في النشأة الأخرى ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الحج:56] دائمين فيها مقيمين، لا يتحولون إلى ما هو أدنى، بل يترقونه إلى الأعلى حتى يفوزوا بشرف اللقاء.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله فيها ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة على رسلنا لبيان توحيدنا ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الأشقياء المكذبون المردودون ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الحج: 57] لإهانتهم أنبياء الله ورسله، وما نزل عليهم من الآيات.

ثم قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ وتركوا مضيق الإمكان ساكنين ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ طالبين فضاءً به الوجوب والفناء فيه ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ على يد الغفلة الجهلة عن توحيد الله واستقلاله في الوجود ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ بالموت الاضطراري حتف أنوفهم بعدما خرجوا عن مقتضيات الحياة الصورية بالموت الإرادي ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ﴾ المنعم المفضل ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ حقيقًا من لدنه تفضلاً عليهم وامتنانًا، وكيف لا يرزقهم مع أنهم أولياؤه وهو رازق لأعدائه أيضًا؟ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي في الآفاق، المتكفل لأرزاق من عليها وما عليها ﴿لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الحج:58] ممن ينسب إليهم مجازًا، إذ مرجع الكل إليه، ومبدؤه منه وتوفيقهم بيده، وهم تحت ظله، وفعلهم حقيقةً منسوب إليه.

وبعدما رزقهم الله بالرزق المعنوي بدل ما جاهدوا في سبيله من تحمل المشاق والمتاعب في الانقطاع عن مألوفات بقعة الإمكان ومطبوعات نفوسهم وهوياتهم من اللذات والشهوات البهيمية.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم﴾ سبحانه بفضله وسعة جوده ﴿مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ﴾ أي: مسكنًا ومقامًا يرضون منه نفوسهم بدل ما يتركون من البقاع والديار والقصور المشيدة المرتفعة ألا وهي المكاشفات والمشاهدات الواردة عليهم من الاطلاع على سرائر الأسماء والصفات الإلهية، والواردات الغيبية من عالم اللاهوت ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿لَعَلِيمٌ﴾ بمصالحهم وما يستدعي استعداداتهم ﴿حَلِيمٌ﴾ [الحج:59] يفعل معهم ما يرضى به استعداداتهم ويسع له قابلياتهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر والشأن ذلك المذكور لمن هاجر إلى الله طالبًا لقياه، خالصًا لوجهه الكريم ﴿وَمَنْ عَاقَبَ﴾ ظالمه يومًا غلب عليه، وأراد أن ينتقم عنه ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ أي: بمقدار ظلمه بلا زيادة عليه ولا نقصان ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ أي: غلب الظالم على المظلوم المنتقم كرة أخرى، وأراد أن يظلم عليه ثانيًا ﴿لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ العزيز المنتقم في الكرّة الثانية أيضًا ما لم يتجاوز عن حد الانتقام، ولا ينظر سبحانه إلى اجترائه إلى الانتقام، ويتركه ما هو الأولى وهو العفو عند القدرة، وكظم الغيظ لدى الفرصة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لمقتضيات استعداد عباده ﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج:60] لما صدر عنهم من المبادرة إلى الانتقام لدى القدرة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ النصر على من ظَلم ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ أي: بسبب أن الله المستوي على القسط القويم ﴿يُولِجُ﴾ ويدخل ﴿اللَّيْلَ﴾ المظلم ﴿فِي النَّهَارِ﴾ المضيء ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ﴾ المضيء ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ المظلم على التدريج ليعتدلا ويعتدل من ظهر وما ظهر كرهما وتجددهما ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ المدبر لمصالح مظاهره بالحكمة المتقنة ﴿سَمِيعٌ﴾ يسمع ما هو من قبيل المسموعات من الوقائع التي أدركها السمع ﴿بَصِيرٌ﴾ [الحج:61] يبصر ما هو من قبيل المبصرات من الحوادث المدركة بالبصر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: سمعه للمسموعات وإبصاره للمبصرات ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي في الآفاق ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ المقصور على التحقق والثبوت بالاستحقاق الواجب وجوده بلا ارتياب الممتنع نظيره على الإطلاق ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ أيها المشركون ﴿مِن دُونِهِ﴾ من الآلهة الباطلة ﴿هُوَ الْبَاطِلُ﴾ المقصور على العدم والبطلان، لا وجود لهم فكيف ألوهيتهم، والإله لا بدّ وأن يكون واجب الوجود، ثم ما يترتب عليه من الأوصاف الذاتية والأسماء الإلهية فهم معزولون عن الوجود، فكيف عن لوازمها ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء، المتعزز بالمجد والبهاء، المتوحد بالقيومية والبقاء الأبدي ﴿هُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته المتعالي على أن يصفه ألسنة العقلاء، ويعرب عنه أفهام العرفاء ﴿الْكَبِيرُ﴾ [الحج:62] المتكبر في شأنه ﷻ عن أن يحيط به وبأوصافه وأسمائه شيء من مظاهره ومصنوعاته.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ

﴿ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦) لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) ﴾ [الحج: 63 - 70].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المتخصص بالآثار البديعة والصنائع العجيبة الغريبة ﴿أَنزَلَ﴾ بعد تصعيد الأبخرة والأدخنة وتركيبها وتراكبها ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: جانبها ﴿مَاءً﴾ مصفى على الأرض ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ بعدما كانت هامدة يابسة ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المدبر بالتدابير الباهرة ﴿لَطِيفٌ﴾ دقيق رقيق، علمه متعلق برقائق المعلومات ودقائقها ﴿خَبِيرٌ﴾ [الحج:63] لا يعزب عن خبرته شيء مما دق وغلظ.

وكيف يعزب عن حيطة علمه شيء من المعلومات؟ إذ ﴿لَهُ﴾ ملكًا وتصرفًا وإظهارًا وخلقًا ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات من الكوائن والفواسد ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: السفليات مثلها ﴿وَإِنَّ اللهَ﴾ المتجلي على عموم ما ظهر وبطن ﴿لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ بذاته عن جميع مظاهره وأظلاله ﴿الْحَمِيدُ﴾ [الحج:64] بآثار أوصافه وأسمائه.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المتكفل لأمور عباده كيف ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ ولترتيب معاشكم ﴿مَّا فِي الْأَرْضِ﴾؟ من الحيوانات التي تأكلون منها وتزرعون بها وتركبون عليها وتحملونها في البر ﴿وَ﴾ سخر لكم ﴿الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ وعلى مقتضى مشيئته وإرادته حيث سقتم وأجريتموها حسب مرامكم تتميمًا لأمور معاشكم ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ﴾ معلقًا على الهواء بلا عمدٍ كراهة ﴿أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ فيختل أمور معاشكم بوقوعها على الأرض، وإن كان لم يضركم؛ لأنها أجرام في غاية الخفة واللطافة، بل انسد من وقوعها إنزال المطر المقوي لإنبات الأقوات، إذ من شأنها الوقوع لولا إمساكه سبحانه إياها ﴿إِلاَّ﴾ أن تقع عليها ﴿بِإِذْنِهِ﴾ تعالى وتعلق مشيئته بوقوعها، وذلك يوم القيامة ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المدبر لمصالح عباده ﴿بِالنَّاسِ﴾ المجبولين على

الكفران والنسيان ﴿لَرَءُوفٌ﴾ مشفق عطوف ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الحج:65] لهم يعفو عنهم زلتهم، ويرزقهم من حيث لا يحتسب.

﴿وَ﴾ كيف لا يرحمكم ولا يرأف عليكم سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ في النشأة الأولى، وأظهركم من كتم العدم بلا سبق مادة ومدة ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ إظهارًا لقدرته وبسطته، ومقتضيات جلاله وقهره ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في النشأة الأخرى لتوفية الجزاء على ما أمركم به في النشأة الأولى ﴿إِنَّ الإِنسَانَ﴾ المركب من النسيان ﴿لَكَفُورٌ﴾ [الحج: 66] لأنواع نعم الله عليه.

ومن جملة إنعامنا عليه إنا ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿جَعَلْنَا﴾ أي: عيَّنا وهيأنا ﴿مَنسَكًا﴾ معينًا ومقصدًا مخصوصًا ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي: ينكسون ويتقربون فيه إلينا بالقرابين والهدايا ﴿فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي الأَمْرِ﴾ الذي كنت عليه من الذبح وغيره من الشعائر المتعلقة بأمور الدين، ومعالم الهدى واليقين ﴿وَادْعُ إِلَى﴾ توحيد ﴿رَبِّكَ﴾ حسبما أُمرت ﴿إِنَّكَ﴾ في دعوتك إلى الحق ﴿لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:67] أي: طريق واضح سويّ موصل إلى التوحيد الذاتي بلا عوج وانحراف.

﴿وَإِن جَادَلُوكَ﴾ في أمرك هذا ودعوتك هذه عنادًا ومكابرة، فلا تلتفت إليهم ولا تقابلهم ﴿فَقُلِ اللَّهُ﴾ المطلع لخفايا الأمور وسرائرها ﴿أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحج:68] بمقتضى أهوية نفوسكم، فيجازيكم على مقتضى علمه وخبرته.

وإن ألجأتموني إلى الخصومة فـ ﴿اللَّهُ﴾ المطلع لضمائر كلا الفريقين ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ وبيني ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج:69] معي من شعائر ديني وعلامة هدايتي ويقيني.

﴿أَ﴾ تنكر أيها المنكر إحاطة علم الله بجميع المعلومات ﴿لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي لجميع ما ظهر وبطن ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ من الأمور الكائنة والفاسدة فيها، لا يعزب عن علمه شيء، وكيف لا يعلمها سبحانه ﴿إِنَّ﴾ جميع ﴿ذَلِكَ﴾ مثبتٌ مسطورٌ ﴿فِي كِتَابٍ﴾ هو لوح قضائه وحضرة علمه، ولا تستبعد أمثال هذا عن جنابه ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الاطلاع على الوجه المذكور ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ المتصف بجميع أوصاف الكمال ﴿يَسِيرٌ﴾ [الحج:70].

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن

نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾[الحج: 71 – 74].

﴿وَ﴾ هم بسبب إنكارهم إحاطة علم الله ﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ المستحق للعبادة بالاستحقاق ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي: أصنامًا وأوثانًا، لم ينزل سبحانه على استحقاقهم العبادة برهانًا من عند الله ليكون لهم حجة دالة على مدّعاهم ﴿وَ﴾ أيضا يعبدون ﴿مَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: دليلُ عقلي دالُ على لياقتها واستحقاقها للعبادة والانقياد، بل يعبدونها ظلمًا وزورًا بلا مستند عقلي ونقلي ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ المتجاوزين عن مقتضى العقل والنقل ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ [الحج:71] ينصرهم ويستدفع عنهم عذاب الله، أو يستشفع لهم عنده سبحانه بتخفيفه عنهم.

﴿وَ﴾ من غاية ظلمهم وخروجهم عن حدود العقل والنقل ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ الدالة على توحيد ذاتنا وكمال أسمائنا وصفاتنا مع كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالات ﴿تَعْرِفُ﴾ وتبصر أيها الرائي ﴿فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بها ﴿الْمُنكَرَ﴾ أي: علامات الإنكار، وأمارات العتو والاستكبار، بحيث ترونهم من شدة شكيمتهم وغيظهم المفرط ﴿يَكَادُونَ﴾ ويقربون ﴿يَسْطُونَ﴾ يبطشون ويأخذون ﴿بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ هم: النبي ﷺ وأصحابه غيظًا عليهم، وعلى ما جرى على ألسنتهم ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل على سبيل التوبيخ والتقريع ﴿أَ﴾ تنقبضون وتضجرون عن استماع هذه الآيات العظام وتتشاءمون من سماعها ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ وأخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ الآيات، هي أشد غيظًا وأكثر تضجرًا منها الا وهي ﴿النَّارُ﴾ التي ﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بسبب كفرهم وضلالهم ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج:72] النار لأصحاب الضلال والإنكار.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الذين جبلوا على الغفلة والنسيان والجهل والطغيان عن عظمة

الله وحق قدره، لذلك أثبتُّم له أمثالاً وأشباهًا مع تعاليه وتنزهه في ذاته عنها، اسمعوا: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ في حق شركائكم ومعبوداتكم ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ سمع وتدبر وتأمل، ثم أنصفوا ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتعبدون أيها المدَّعون المكابرون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ القادر بجميع المقدورات بالعلم التام، والإدارة الكاملة، والحكمة المتقنة ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ بل لن يقدروا على خلق أحقر منها وأخس، لا كل واحد منهم فرادى، بل ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أي: لخلق الذباب وتظاهروا لإيجاده مجتمعين لن يقدروا أيضًا، وكيف خلْقُ الذباب وإظهاره؟ ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ﴾ ويأخذ منهم ﴿الذُّبَابُ﴾ الحقير الضعيف ﴿شَيْئًا﴾ من الآلهة الباطلة من حليهم وتزييناتهم ﴿لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ ولا يقدروا على أن يخرجوه من يده لعجزهم وعدم قدرتهم، فكيف تعبدون أيها الحمقى العابدون أولئك الهلكى العاجزين الساقطين؟! فظهر للمتأمل المتدبر أنه ﴿ضَعُفَ﴾ أي: انحط وسقط عن زمرة العقلاء ورتبتهم ﴿الطَّالِبُ﴾ العابد الجاهل ﴿وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:73] المعبود المجهول المنحط عن رتبة أحقر الأشياء وأخسها فكيف عن أعلاها؟! فكيف عن خالقها وموجدها؟! تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

كل ذلك بواسطة أنهم ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على جميع المقدورات والمرادات وما علموه ﴿حَقَّ قَدْرِهِ﴾ كما هو اللائق بشأنه، وما عرفوه حتى معرفته، لذلك ما وصفوه حق وصفه، ونسبوه إليه سبحانه ما لا يليق بجنابه جهلاً وعنادًا، وأثبتوا له شركاء عاجزين من أضعف الأشياء ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء ﴿لَقَوِيٌّ﴾ في ذاته لا حول ولا قوة إلا به ﴿عَزِيزٌ﴾ [الحج:74] غالبٌ في أمره وحكمه، متصرف مستقل في ملكه وملكوته، يفعل بالإدارة والاختيار، ويحكم ما يريد، لا راد لفعله، ولا معقب لحكمه.

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا

شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: 75 – 78].

ومن علو شأنه، وسمو برهانه، وكمال قوته، وعزته يُتوسل إليه، ويُتوصل نحوه بوسائل ووسائط اختارها الله واجتباها من بين بريته لإهداء التائهين في بيداء ألوهيته إلى زلال توحيده على مقتضى سنته، وجري حكمته، كما بيَّن في كتابه حيث قال: ﴿اللهُ﴾ العلي المتعال ذاته عن أن يكون شرعة كل وارد، أو يطلع على سرائر أسمائه وصفاته واحدُ بعد واحدٍ، بل ﴿يَصْطَفِي﴾ ويختار ﴿مِنَ المَلائِكَةِ﴾ المقربين عنده ﴿رُسُلاً﴾ يرسلهم إلى خواص البشر، وخُلَّص العباد ﴿وَ﴾ أيضًا يصطفي ويختار ﴿مِنَ﴾ خيار ﴿النَّاسِ﴾ رسلاً يرسلهم إلى عموم عباده بالنبوة والرسالة ليرشدوهم إلى توحيده سبحانه ويهدوهم إلى سواء طريقه ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لاستعدادات عباده ﴿سَمِيعٌ﴾ يسمع أقوالهم ومناجاتهم ويقضي حاجاتهم ﴿بَصِيرٌ﴾ [الحج:75] يبصر أعمالهم وأفعالهم ويجازيهم عليها، لأنه: ﴿يَعْلَمُ﴾ سبحانه بعلمه الحضوري ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ حالاً ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ماضيًا واستقبالاً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِلَى اللهِ﴾ الذي بدأ منه ما بدأ ﴿تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [الحج:76] الكائنة أزلاً وأبدًا، ظاهرًا وباطنًا، حالاً ومآلاً، دنيًا وآخرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله ورجوع الكل إليه أولاً وبالذات ﴿ارْكَعُوا﴾ نحوه خاضعين منكسرين ﴿وَاسْجُدُوا﴾ له متذللين متواضعين ﴿وَاعْبُدُوا﴾ بجميع أركانكم وجوارحكم ﴿رَبَّكُمْ﴾ الذي ربَّاكم بأنواع النعم كي تعرفوا ذاته حسب استعداداتكم، وتشكروا نعمه وحقوقَ كرمه مقدارَ وسعكم، وتعبدوه حق عبادته قدر طاقتكم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿وَافْعَلُوا الخَيْرَ﴾ على وجه أمرتم به طلبًا لمرضاته، واحذروا الشر خوفًا من سخطه وحلول غضبه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج:77] وتفوزون بما وُعدتم من الجنة المأوى وشرف اللقيا فيها.

وفقنا بفضلك وجودك على ما تحب منَّا وترضى.

﴿وَ﴾ بعدما سمعتم ما سمعتم من علو شأنه سبحانه، وكمال عظمته وكبريائه ﴿جَاهِدُوا فِي اللهِ﴾ واجتهدوا في سبيل توحيده ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أي: ابذلوا وسعكم وطاقتكم في سلوك طريق التوحيد، مرابطين قلوبكم إلى الله، باذلين مهجكم في الفناء فيه، وكيف لا تجاهدون وترابطون أيها المائلون إلى الله بالميل الحبي الشوقي مع أنه

﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿اجْتَبَاكُمْ﴾ واصطفاكم من بين البرايا لإدراك توحيده والاتصاف بعرفانه، وأرسل عليكم الرسل، وأنزل عليكم الكتب ليرشدوكم إليه، ويبينوا لكم طريق توحيده بوضع المناهج والشرائع الموصلة إليه، والأديان المثمرة له ﴿وَمَا جَعَلَ﴾ سبحانه ﴿عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ﴾ الموضوع فيكم ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ ضيق وعسر خارج عن وسعكم وطاقتكم، بل وسّع سبحانه عليكم أمر دينكم بأن جعل ملتكم ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ صلوات الرحمن عليه، إذ لا ضيق فيه ولا حرج.

أضاف أبوة إبراهيم إلى الأمة من أجداد الرسول ﷺ، والرسول أب لهم؛ إذ رسول كلِ أمة أبٌ بالنسبة إلى أمته، بل هو خير الآباء؛ لإرشادهم إلى طريق الحق، ولا معنى للأب إلا المرشد المربي.

وكما جعل سبحانه ملتكم ملة إبراهيم ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ في كتبه السالفة حيث قال سبحانه: من يؤمن ويصدق بمحمد خاتم النبوة والرسالة يصير مسلمًا ﴿وَفِي هَذَا﴾ الكتاب بيَّنَ التسمية على وجه التسليم فسماكم فيه أيضًا: مسلمين ضمنًا، وإنما سماكم مسلمين مسلِّمين منقادين ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ﴾ الذي هو أكمل الرسل وأفضل الأنبياء ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ شاهدًا على انقيادكم وتسليمكم في يوم الجزاء، فتكونوا أفضل الأمم وأشرف الفرق، وبواسطة كونكم أمته وزمرته وتحت لوائه ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى﴾ عموم ﴿النَّاسِ﴾ بتبليغ الرسالة إليهم وإظهار الدعوة لهم، وإذا كنتم خير أمة وأشرفَ طائفة ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ وأديموا الميل والتوجه نحو الحق بجميع الجوارح والأركان تقربًا إليه شوقًا وتحننًا ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المسقطة لميلكم إلى زخرفة الدنيا وحطامها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ في كل الأحوآل، واثقينَ بفضله وجوده، وفوضوا أموركم كلها إليه، متوكلين عليه ﴿هُوَ مَوْلاكُمْ﴾ أي: ناصركم ومعينكم ومولّي أموركم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى﴾ الولي المعين ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج:78] الناصر المعين، ذو القوة المتين، حسبنا الله ونعم الوكيل.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المجاهد في سبيل الله أعداءَ الله وموانعَ الوصول إلى توحيده أن تجاهد أولاً مع نفسك التي بين جنبيك، إذ هي من أعدى عدوك، وأشد صولة واستيلاء إلى مملكة باطنك وقلبك الذي هو مخيم سزادقات سلطان الوحدة، ومحل نزول قهرمان العزة، ومهبط الوحي الإلهي والوارد الغيبي، فلك أن تزيل صولتها،

وتشتت شملها، وتفرق جمعها التي هي جنودها وأعوانها من القوى الشهوانية والغضبية، وجميع الأوصاف البهيمية المتداعية إلى تخريب القلب، وتعمير النفس الأمّارة بالسوء، وتقويتها وتقويمها؛ إذ عداوتها ومنعها ذاتية حقيقية وبلا واسطة، وعداوةُ سائر الموانع بواسطتها.

وإياك إياك الإطاعة والانقياد إليها، فإنها تشغلك عن الحق، وتضلك عن سبيله وتغريك إلى الباطل وتقودك إلى طريقه.

فاعلم أيها المجاهد الطالب للغلبة على جنود النفس الأمارة أنه لا يمكن لك هذا إلا بالاعتزال عن إقطاع الشيطان ومهلكة النفس ومشتهياتها ومستلذاتها بالكلية، والتشمر نحو الحق بالعزيمة الخالصة عن الرياء والرعونات والانخلاع عن مقتضيات الأوصاف البشرية بالإدارة الصادقة، والتوجه نحو الوحدة الذاتية عن طريق الفناء بإسقاط الإضافات المشعرة لتوهم الكثرة.

وبالجملة لا يتم سلوك السالك في طريق التوحيد إلا بالفناء في الله، والبقاء ببقائه.

ربنا هب لنا من لدنك جذبة تنجينا عن مضائق هوياتنا، وتوصلنا إلى فضاء توحيدك بمنك وجودك.

سورة المؤمنون

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة المؤمنين

لا يخفى على المؤمنين المفلحين، العابرين بالدرجة العليا والمرتبة السنية من مراتب التوحيد المنتظرة لأرباب الولاء، الوالهين في سر سريان الوحدة الذاتية وكيفية امتدادها، وانبساطها على هياكل التعينات، وتماثيل الهويات العدمية، المنصبغة بصبغ الوجود الفائض من التجليات الذاتية والشؤون الصفاتية، المتشعشعة من الذات لإظهار الكمالات المندمجة فيها أنّ ترقى المؤمن الموقن بالتوحيد الذاتي من حضيض البشرية المتصنعة بالأوصاف الناسوتية، والتطورات الطبيعية إلى ذروة الشؤون الذاتية اللاهوتية المنعكسة من الأسماء الذاتية الإلهية، إنما هو بالميل المقارن بالخشوع والخضوع والتذلل التام والانكسار المفرط المسقط لِلَوازم الأنانية المبعدة عن الحق والإعراض عن فرطات الألحاظ والألفاظ والتطهر عن زخرفة الدنيا المانعة من الوصول، وكذا عن جميع الأوصاف البهيمية من الغضبية والشهوية إلا مقدار ما تقتضيه الحكمة الإلهية من الإبقاء والاستغناء، فمن تعدى وتجاوز عنه، فقد لحق ﴿بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ [الكهف:103-104].

وبالجملة لا بدّ للقاصد نحو الحق من الميل الخالص الدائم والتوجه التام نحوه مع الانخلاع عن لوازم ناسوته، متدرجًا في أفنائها إلى أن يفنى عن الفناء والإفناء أيضًا حتى يمكن له الوصول إلى فضاء اللاهوت وسعة حضرة الرحموت، حين انقطع السير وارتفع الغير، ولم يبق إلا خير في خير، ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:62].

لذلك أخبر سبحانه حبيبه ﷺ عن أحوال المؤمن الموقن وأوصافه وترقيه فيها، فقال متبركًا باسمه العلي الأعلى: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي أفاض على أرباب الإيمان بعد رسوخهم، وتمكنهم فيه كرامة التوحيد والعرفان من ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم يوفقهم على أنواع الطاعات، وأصناف الخيرات، والمبرات الموصلة إلى درجات الإحسان

﴿الرَّجِيمِ﴾ لهم ينجيهم عن دركات النيران، ويوصلهم إلى أعلى طبقات الجنان.

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)﴾ [المؤمنون: 1 – 11].

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ وفاز بمرتبة حق اليقين التي هي أعلى مراتب التوحيد، ومنتهى السلوك ومنقطع الطلب والعرفان ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:1][1] الراسخون في اليقين العلمي، الجازمون الثابتون فيه بلا تزلزلٍ وتلوينٍ.

﴿الَّذِينَ هُمْ﴾ من كمال رسوخهم وشدة تمكنهم وجزمهم ﴿فِي صَلَاتِهِمْ﴾ التي هي معراجهم للوصول إلى مرتبة الرضا والقبول ﴿خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:2][2] مخبتون

---

(1) قوله عز وجل: (قد أفلح المؤمنون) روى الواحدي عن عروة بن الزبير، عن عبد الرحمن ابن عبد القارى قال: سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: كان إذا أنزل الوحى على رسول الله ﷺ يسمع عند وجهه دوي كدوي النحل، فمكثنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا، ثم قال: لقد أنزلت علينا عشر آيات من أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ - قد أفلح المؤمنون - إلى عشر آيات، رواه الحاكم أبو عبد الله في صحيحه عن أبي بكر القطيعي، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه، عن عبد الرزاق، قوله عز وجل: (الذين هم في صلاتهم خاشعون) أخبرنا عبد الرحمن بن أحمد العطار قال: أخبرنا محمد بن عبد الله بن نعيم قال: حدثني أحمد بن يعقوب الثقفي قال: أخبرنا أبو شعيب الحراني قال: أخبرنا إسماعيل بن علية، عن أيوب، عن محمد ابن سيرين، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء، فنزل - الذين هم في صلاتهم خاشعون -. «أسباب النزول» (210/1).

(2) قال الورتجبي: هم المقيمون على شروط آداب الأمر مخافة أن يفوتهم بركة المناجاة. وقال بعضهم: لما طالعوا موارد الحق عليهم، ومطالعة الحق إياهم خشعت له ظواهرهم. وقال بعضهم: خشعت جوارحهم وهممهم عن التدنس بشيء من الأكوان لعلو هممهم لكبائرها وهمته الصغرى أجل من الدهر. قيل: المؤمن من يأمن قلبه من نفسه. وقال يوسف بن الحسين: =

متضرعون متحننون نحو الحق عن ظهر القلب، وجميع الجوارح والأركان بلا تلعثم وعثور. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ﴾ المشغل لهم عن التوجه نحو الحق ﴿مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:3] منصرفون إعراضهم وانصرافهم عما تستكرهه نفوسهم وقلوبهم.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ﴾ المطهرة لنفوسهم عن الميل نحو حطام الدنيا ومتاعها الفانية ﴿فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون:4] تمرينًا لنفوسهم على ترك الميل والالتفات إليها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ﴾ التي هي مواريث بهيميتهم، وأقوى قوائم بشريتهم ﴿حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون:5] ناكثون عن مقتضاها، راكنون عما أملها وتهويلها.

﴿إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من الإماء والسراري حفظًا لحكمة إبقاء النوع، ومصلحة التناسل ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون:6] على ذلك إن فعلوا بلا مبالغة مفرطة زائدة عن قدر الحاجة.

﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ وطلب التجاوز والتعدي عن قدر الحاجة من الحلائل المذكورة ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ البعداء الخارجون عن مقتضى الحد الإلهي، والحكمة المتقنة ﴿هُمُ العَادُونَ﴾ [المؤمنون:7] المقصورون على التجاوز والعدوان لا يرجى منهم الفلاح والفوز بالنجاح.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ﴾ من كمال عدالتهم وقسطهم الفطري واعتدال أوصافهم وأخلاقهم الصورية والمعنوية ﴿لأَمَانَاتِهِمْ﴾ التي ائتمنوا عليها ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ الذي عهدوا به سواء كانت الأمانة والعهد لله أو لسائر عباده ﴿رَاعُونَ﴾ [المؤمنون:8] قائمون بحفظها مواظبون لرعاية حقها بلا فوت شيء من حقوقها ورعايتها.

﴿وَ﴾ بالجملة المؤمنون المفلحون الفائزون بالعاقبة الحميدة التي هي مرتبة الكشف والشهود المعبر عند أرباب المحبة والولاء بالحق اليقين ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ﴾ المقربة لهم إلى ربهم، الفاصلة بين مرتبتي الناسوت واللاهوت ﴿يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون:9] أي: يداومون ويواظبون لأدائها بأوقاتها وبشرائطها وآدابها، مع ما ذكر من الأوصاف الجميلة المذكورة والأخلاق المرضية المشكورة، مخلصين فيها، مجتنبين عن الرياء والرعونة والعجب والسمعة.

كلك عورات وعلل، وليس يسترها إلا التقوى، وحفظ الحرمات، والتزام الشرائع كلها.

﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿هُمُ﴾ الأولياء ﴿الْوَارِثُونَ﴾[1] [المؤمنون: 10] عن الأنبياء والرسل وصفوة عباد الله وخيرتهم وهم: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ الذي هو التحقق بمقام الكشف والشهود باستحقاقهم الذاتي مع استرشادهم، واستفادتهم من الأنبياء والرسل الهادين المهديين المرشدين لهم إلى ما جبلوا لأجله لذلك ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:11] متمكنون متقربون، لا يتحولون ولا يتبدلون.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المؤمنون: 12 – 20].

﴿وَ﴾ كيف لا يرثون الفردوس ولا يخلدون فيها مع أنهم جبلوا لأجلها، سيما إذا كملوا سلوكهم وتمموا نسكها على الوجه الذي هداهم الأنبياء والرسل والأولياء الراشدون الذين هم خلفاء عن الرسل الكرام والأنبياء العظام. عليهم التحية والسلام. إذ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ﴾ أي: أظهرنا وقدّرنا جسم آدم وبنيه أولاً ﴿مِن سُلالَةٍ﴾ أي: زبدة وخلاصة منتخبة ﴿مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون:12][2] الذي هي مادة جميع الأجسام

---

(1) أي: الأحقاء بأن يُسَمَّوْا وارثين، دون غيرهم ممن ورث رغائب الأموال والذخائر وكرائمها، وقيل: إنهم يرثون من الكفار منازلهم في الجنة ، حيث فوّتوها على أنفسهم ، لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار. البحر المديد (4 /170).

(2) لما خلق الله سبحانه الكون والكائنات من العرش إلى الثرى، طبق العرش فوق الكرسي، وطبق الكرسي فوق السماوات السبع، وقد أحاط الكرسي بالسماوات، وركب بعضها بعضًا، ثم تجلى من قهر سلطان عظمته، وجلال قدمه بنعت الاستواء على العرش فزلزل العرش، ثم تزلزل

السفلية وأقوى عناصرها وهيولاها.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ وصيرناه؛ أي: ما انتخبنا من الطين ﴿نُطْفَةً﴾ بيضاء وقرزناها زمانًا ﴿فِي قَرَارٍ﴾ ومستقر ﴿مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون:13] حصين متين هي الرحم.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما مكناها في المقر المكين مدة ﴿خَلَقْنَا﴾ وصيرنا ﴿النُّطْفَةَ﴾ المقررة المتمكنة في الرحم ﴿عَلَقَةً﴾ أي: لحمًا متصلاً ملتصقًا أجزاؤها إلى حيث صارت قابلة للمضغ ﴿فَخَلَقْنَا﴾ بعد ذلك ﴿الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ المتلصقة المتصلة بعد انفصالها وتفريقهما التقديري ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ صلبةً خارجة عن قابلية المضغ والتليين، متقومة غير مائلة لتكون قوائم وأعمدة للجسم ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ﴾ الصلبة القابلة للكسر والانكسار ﴿لَحْمًا﴾ صونًا لها عما يضرها ويكسرها، فتم حينئذٍ تركيب صورته الجسمية

الكرسي، ثم تزلزلت السماوات، فعرقت السماوات من ثقل الكرسي، وعرق الكرسي من ثقل العرش، وعرق العرش من ثقل سطوة الاستواء؛ فجرى عرقها، وصار بحورًا؛ فدخلت البحور بين السماوات، وتلاطمت بعضها بعضًا من هيبة عزة القدم، وصولة الجلال التي نفذت أنوارها في جميع ذرات الكون؛ فكثرت تلاطمها حتى ألقت خوالص زبدها وروحها فوقها، فيبست تلك الزبدة التي هي حقائق عرق الوجود الذي صدر من نور الاستواء، وهو حامل بسر التجلي قد خلت البحور تحتها، وصارت كالزبدة اليابسة من كثرة حركة ممحاض الكون. ثم انسطحت وأظهرت حقائقها؛ فمضت عليها أيام الله التي معاهدها مرور أنوار تجلي الصفات والذات عليها؛ فلما رباها الحق بأفانين تجلي صفاته وذاته، قبض منها قبضة بقبضة جبروته، وطرحها فوق ملكوته، وتلك القبضة من خالص تلك الزبدة المعجونة لعقاقير أنوار الصفات؛ فمطر عليها وبل بحر الألوهية، وخمرها بأيدي العزة، وصورها بنقوش خاتم الملك، وألقاها في وادي القدرة بين فضاء الآزال والآباد حتى مضى أصباح مشارق شموس الذات، وأقمار الصفات، ثم كشف ستر الغيرة من وجه الروح التي خلقها قبل صورتها بألفي ألف عام، وكانت في حجال الأنس وبحار القدس أصدرها من مكامن غيوب العلوم، وهي أسرار الأولية مصورة بنقش صورتها فأدخلها فيها فصار الروح والصورة كاملة بكمال الذات والصفات. فلما صار آدم موضع ودائع أسرار الذات والصفات والقدم والبقاء وصفه حبيب الله صلوات الله عليهما بقوله: «خلق الله آدم على صورته»، وكان ﷺ معادن الأرواح القدسية والأشباح الأنسية؛ فإذا أراد سبحانه خلق ذريته حركه بقدرته، وألقى عليه سباتًا من عظمته، وأخرج حواء من ضلعه ثم حركهما بسر سره، وذلك السر شهوتهما التي أورث فيهما تجلي نعوت الجمال والجلال فوصل الشهوة بالشهوة، وانشقت بالنطفة الخالصة التي مصادرها ما ذكرنا من أسرار تجلي الاستواء، وأبقاها في مصدر الفعل، وقلبها في دهور التجلي وأيام التدلي وساعات كشف الملكوت والجبروت والملك والقدرة.

وقالب الطبيعية بجميع لوازمها ومتمماتها من العروق والعظام والأعصاب والغضاريف والشريانات وغيرها ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تم تركيبه وكمل مزاجه وتصويره على أبدع وجه وأعجبه، وصار حيوانًا حساسًا متحركًا بالإرادة كسائر الحيوانات ﴿أَنشَأْنَاهُ﴾ أي: أبدعناه واخترعنا فيه خاصة ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾ إبداعيًا مخصوصًا بهذا الجسم بين سائر الأجسام، وهو نفخنا فيه من روحنا ليتصف بأوصافنا ويتخلق بأخلاقنا ويستحق بخلافتنا ونيابتنا، ويليق لأن يصير مرآة لنا قابلة لانعكاس أظلال أسمائنا الحسنى وأوصافنا العليا ﴿فَتَبَارَكَ﴾ أي: تعالى وتعاظم ﴿اللَّهُ﴾ القادر المقتدر بالقدرة الكاملة على أمثال هذه التبدلات والتطورات التي تحيرت العقول عندها، وانحسرت الأفهام دونها، وهو في ذاته ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:14] [1] المقدرين تقديرًا وخلقًا، وأتمها إبداعًا واختراعًا لو فرض مقدرُ غيره، مع أنه محال عقلاً وعادة.

﴿ثُمَّ إِنَّكُم﴾ يا بني آدم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعدما أتم صوركم ومعناكم ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون:15] بالآجال المقدرة من عندنا لانقضاء حياتكم في النشأة الأولى.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعدة للعرض والجزاء ﴿تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:16] وتحشرون لانتقاد ما اكتسبتم في النشأة الأولى.

ثم أخذ سبحانه في تعداد نعمه على عباده تفضلاً عليهم وامتنانًا فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾ أي: جانب علوكم ﴿سَبْعَ﴾ سماوات ﴿طَرَائِقَ﴾ أي: متطارقة متطابقة بعضها فوق بعض، مشتملة على كواكب لا في السفليات من الأشياء المتعلقة لمعاشكم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا كُنَّا﴾ في حال من الأحوال السابقة واللاحقة ﴿عَنِ الْخَلْقِ﴾ أي: عن جميع المخلوقات المستندة إلينا، الظاهرة من امتداد أظلالنا ﴿غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون:17]

---

(1) قوله تعالى: (فتبارك الله أحسن الخالقين) روى الواحدي عن علي بن زيد بن جدعان، عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: وافقت ربي في أربع: قلت: يا رسول الله لو صلينا خلف المقام، فأنزل الله تعالى - واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى - وقلت: يا رسول الله لو اتخذت على نسائك حجابا فإنه يدخل عليك البر والفاجر، فأنزل الله تعالى - وإذا سألتموهن متاعا فسألوهن من وراء حجاب - وقلت لازواج النبي صلى الله عليه وسلم: لتنتهن أو ليبدلنه الله سبحانه أزواجا خيرا منكن، فأنزل الله تعالى - عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن - الآية، ونزلت - ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين - إلى قوله تعالى - ثم أنشأناه خلقا آخر - فقلت - فتبارك الله أحسن الخالقين. «أسباب النزول» (210/1).

ذاهلين عن حفظها وتفقدها.

﴿وَ﴾ من كمال جودنا ووفور رحمتنا إلى عموم عبادنا ﴿أَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ بعدما أصعدنا الأبخرة والأدخنة من الأرض، وركبناها تركيبًا أنيقًا عجيبًا إلى أن صارت سحبًا متراكمة متكاثفة، فتقاطر منها الماء بمجاورة الهواء ونفوذها، فأرسلنا إلى الأرض الجزر ﴿بِقَدَرٍ﴾ معلوم معتدل ﴿فَأَسْكَنَّاهُ﴾ وأدخلناه ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تجاويفها ومساماتها حتى تدخر فيها.

ثم جعلناه ينابيعَ تخرج منها مندرجة وتجري على قدر الحاجة تتميمًا لحوائج عبادنا وتيسيرًا لهم في معاشهم.

﴿وَإِنَّا﴾ بعدما أدخلناه في الأرض ﴿عَلَى ذَهَابٍ بِهِ﴾ أي: بالماء بالأغوار والتصعيد والتجفيف وغير ذلك من طرق الإذهاب ﴿لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون:18] كما أنا قادرون على إنزاله وإخراجه.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ﴾ أي: بالماء المدخّر ﴿جَنَّاتٍ﴾ وحدائق ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ هما معظم الفواكه وأصلها ﴿لَّكُمْ فِيهَا﴾ أي: في تلك الجنات أيضًا ﴿فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ متفرعة عليهما، ملتفة بهما من أنواع الفواكه على ما هو عادة الدهاقين في غرس الحدائق والبساتين ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون:19] تغذيًا وتقوتًا، إذ تزرعون في جناتكم من الحبوبات أيضًا.

﴿وَ﴾ لاسيما أنشأنا لكم بالماء ﴿شَجَرَةً﴾ مباركة ﴿تَخْرُجُ﴾ وتنشأ ﴿مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ هو جبل رفيع بين مصر وأيلة ﴿تَنبُتُ﴾ ثمرة ملتبسة ﴿بِالدُّهْنِ﴾ المضيء للسرج ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿صِبْغٍ﴾ أي: إدام ﴿لِّلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون:20] لأنهم يغمسون أخبازهم فيه تأدمًا.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ

أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون: 21 – 27].

﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أيها المتأملون في نعمنا، المعتبرون في أنعامنا ﴿فِي الأَنْعَامِ﴾ والدواب التي ينعمون بها من عندنا ﴿لَعِبْرَةً﴾ عظيمة إلى كمال قدرتنا وجلالة نعمتنا لو تعتبرون منها إذ ﴿نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ من الأخلاط والنبات لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين، مع أنه لا مناسبة بينهما ﴿وَلَكُمْ﴾ أيضًا ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأنعام ﴿مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ من ظهورها وأصوافها وأشعارها وأوبارها وغير ذلك ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون:21] من لحومها تقوية لمزاجكم وتقويمًا له.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على الأنعام في البر ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ في البحر ﴿تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون:22].

وبعدما عدّد سبحانه نعمه التي أنعم بها على بني آدم، شرع في توبيخ من يكفر بها ولم يؤد حق شكرها فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ من مقام لطفنا وجودنا ﴿نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ حين انحرفوا عن جادة الاعتدال وانصرفوا عن الاستقامة ﴿فَقَالَ﴾ على مقتضى وحينا إياه مناديًا إياه ليقلبوا إليه على مقتضى شفقة النبوة والرسالة وعطف الهدايا والإرشاد: ﴿يَا قَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه إمحاضًا للنصح وإظهارًا لكمال الإشفاق ﴿اعْبُدُوا اللهَ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:3-4] واعلموا أنه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ﴾ يعبد بالحق ويستحق بالعبادة ﴿غَيْرُهُ أَ﴾ تتخذون إلهًا سواه ﴿فَلاَ تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:23] وتحذرون عن بطشه وانتقامه بأنواع العذاب والنكال.

وبعدما ظهر بدعوى الرسالة وأظهر الدعوة على الوجه المذكور: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ﴾ أي: الأشراف ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ باتخاذ الأوثان والأصنام آلهة عبدوها كعبادة الله لضعفاء العوام ترويجًا لكفرهم وتحقيرًا لدعوته ﴿مَا هَذَا﴾ الرجل الحقير المدعي للرسالة والنبوة من الله ﴿إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ بل أضعفكم حالاً وأدناكم عقلاً ومالاً ﴿يُرِيدُ﴾ مع حقارته ودناءته ﴿أَن يَتَفَضَّلَ﴾ ويتفوق ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بهذه الدعوى الكاذبة والافتراء الباطل ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ إرسال رسولٍ ﴿لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾ إذ هم أولى وأليق

بالإرسال من عنده، ولهم مناسبةُ مع الله بخلاف من البشر، فإنهم لا مناسبةَ لهم معه سبحانه، مع أنّا ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: برسالة البشر من الله ﴿فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:24] أي: لم يعهد هذا في الزمان السابق أصلاً.

بل ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: ما هذا المدعي للرسالة من عند الله إلا رجلٌ عُرض له جنونٌ فاختل دماغه وذهب عقله؛ فيتخبطه الشيطان ويتفوه بأمثال هذه الهذيانات المستبعدة المستحيلة ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ﴾ وأهملوه وانتظروا في أمره، ولا تميلوا إليه ولا تلتفتوا نحوه﴿حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون:25] ليظهر لكم خبطه واختلاله، أو يفيق عما هو عليه ويعود على ما كان.

ثم لما سمع منهم نوح عليه السلام ما سمع من التجهيل والتسفيه أَيس منهم وقنط عن إيمانهم فـ ﴿قَالَ﴾ مشتكيًا إلى الله مستعينًا منه: ﴿رَبِّ﴾ يا من ربّاني بأنواع الكرم وأرسلني إلى هؤلاء الضالين عن سواء سبيلك لأرشدهم وأهديهم إلى توحيدك، فبلغتُ ما أُرسلتُ به إياهم، فلم يقبلوا مني فكذبوني وسفّهوني﴿انصُرْنِي﴾ بإهلاكهم وتعذيبهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون:26] أي: بدل تكذيبهم إياي وسببه.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ إنجازًا لما أوعدنا إياهم من العذاب والهلاك بعد تكذيبهم رسولنا وما جاء به من عندنا من الإيمان والتوحيد ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ أي: أعمال السفينة، ولا تخف عن فسادها بعدم تعلمك من أحدٍ بل اصنعها﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحفظنا إيَّاك نحفظك عن عروض الخطأ والفساد في صنعها﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي: بأمرنا وتعليمنا لك كيفية صنعها، ولا تبال بتسفيههم واستهزائهم معك ونسبتك إلى الخبط والجنون وأنواع الأذيات ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ الوجوبي المتعلق بإغراقهم واستئصالهم ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ المعينُ المعهودُ، فدلق ونبع الماء منه نبعةً ﴿فَاسْلُكْ﴾ وأدْخل على الفور﴿فِيهَا﴾ أي: في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: من نوع الحيوانات اثنين ذكرًا وأنثى؛ إبقاءً لجميع الأنواع في العالم﴿وَ﴾ اسلك أيضًا﴿أَهْلَكَ﴾ ومن ينتمي إليك قرابةً ودينًا﴿إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ والحكم منّا في لوح قضائنا بأنه من الهالكين﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من أهلك، أي: أَدْخِل جميع أهلك سوى من مضى قضاؤنا بغرقه وإهلاكه وهو ابنه كنعان ﴿وَ﴾ بعدما سبق قضاؤنا لإهلاك من كفر من أهلك﴿لاَ تُخَاطِبْنِي﴾ يا نوح، ولا تدعُ إليّ في حق من سبق الحكم مني بغرقه ولا تسع﴿فِي﴾ خلاص القوم﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ على أنفسهم بالعرض على عذابنا﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون:27] معدودون من عدد

الغرقى الهلكى، ولا أثر لدعائك لهم بعدما صار الأمر منّا مقضيًا والحكم مبرمًا.

﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [المؤمنون: 28 - 35].

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ﴾ يا نوح، وتمكنت ﴿وَمَن مَّعَكَ﴾ من المؤمنين ﴿عَلَى الْفُلْكِ﴾ وصرتم متمكنين متعززين عليها ﴿فَقُلِ﴾ شكرًا لما أنعمنا عليك من إنجاز النصرة المعهودة الموعودة وإهلاك الله وغير ذلك من النعم العظام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا﴾ من كمال جوده وسعة رحمته ﴿مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:28] الخارجين عن مقتضى العقل والشرع عتوًا وعنادًا.

﴿وَقُل﴾ أيضًا بعدما مكنت على سفينة النجاة: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي﴾ بفضلك ولطفك ﴿مُنزَلاً مُّبَارَكًا﴾[1] كثيرَ الخير والبركة ﴿وَأَنتَ﴾ من كمال جودك ﴿خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون:29] لو فرض مُنزِل غيرك مع أنه لا مُنزِلَ سواك، ولا وجود لغيرك؛ إذ لا

---

(1) وفيه إشارة إلى أن الدنيا من المنازل الرفيعة حيث استدعى لسان الروح النزول إليها، وكذا البدن الإنساني ذلك الروح الإضافي، وإن لم يكن حالاً فيه؛ بل متعلِقًا به تعلّق التدبير والتصرف؛ لكنه كان كالمنزل له، وإنما كان مباركًا؛ لأن الروح إنما يترقّى إلى الكمالات، ويضع القدم في المعراج، والمصاعد بإعانة البدن له بمزاولة الأعمال الصالحة، ولذلك كانت دوائرهم وبقاعهم من المنازل المباركة أيضًا، فمَن وفّقه الله تعالى للنزول فيها، والتردُّد إليها غُدوًّا ورواحًا؛ كان عبدًا مباركًا نافعًا للعالمين، فطوبى لمَن تشرّف بهذا الشرف العظيم، وويلٌ لمَن وقع في الذُّلِّ والعذاب الأليم بدخول دويرات المبتدعة، والفسقة الخارجة عن الصراط المستقيم. ومن المنازل العالية: القلب الإنساني؛ لأن الواردات الإلهية تنزل فيها، وله برزخية جميع الكمالات الإنسانية، ومَن دخله؛ كان آمنًا من برد الطبع، وحرّ الشهوة، سالمًا من آفات الشكوك والظنون، متصفًا بالصفات الإبراهيمية، والمحمّدية، وسائر الكُمّل الندر.

حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من قصة نوحٍ مع قومه ونجاته وإهلاكهم، وتعليم صنع السفينة عليه، وإخراج الماء من التنور المعهود، وإحاطته على وجه الأرض كلها، ونجاة من كان في سفينته وغير ذلك من الأمور البديعة ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائلَ واضحات علي كمال قدرتنا وإرادتنا واختبارنا في عموم أفعالنا على المعتبرين المتأملين في بدائع الأمور وغرائبه، الناظرين بعيون العبرة والاستبصار في حدوث هذه الوقائع الهائلة ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون:30] أي: أن الشأن والأمر أنّا بإحداث هذه الحوادث مع قوم نوح لمختبرون مجرِّبون عموم عبادنا؛ لننظر من يعتبر ويتعظ بها منهم، وما هي إلا تذكرة وتذكير منا إياهم.

﴿ثُمَّ﴾ بعد إهلاك قم نوح وإغراقهم ﴿أَنشَأْنَا﴾ وأظهرنا من ذرية مَن في سفينة نوح ﷺ ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ من بعد نوحٍ، ومَن معه في السفينة ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: 31] هم عادُ وثمودَ فانحرفوا أيضًا عن جادة التوحيد.

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا﴾ ناشئًا ﴿مِّنْهُمْ﴾ ابتلاءً لهم واختبارًا لمن اعتبر منهم، فقال على مقتضى وحينا وإلهامنا إياه: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد، المستقل بالألوهية والوجود، واعلموا أنه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ يُعبد له ويُرجع إليه ﴿غَيْرُهُ أَ﴾ تتخذون إلهًا غيره وتعبدون له ظلمًا وزورًا، وتتضرعون نحوه في الوقائع والخطوب ﴿فَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:32] عن غضبه، ولا تخافون عن قهره وانتقامه.

﴿وَ﴾ بعدما بلّغهم الرسول الموحي به ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ أي: الأشراف ﴿مِن﴾ قومه عتوًا واستكبارًا لضعفاء العوام، وهم ﴿قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله باتخاذ الأصنام آلهةً وأنكروا وحدة الإله ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ ويوم الجزاء وجميع المواعيد الموعودة فيها ﴿وَ﴾ مع كفرهم وشركهم، وإنكارهم بالنشأة الأخرى ﴿أَتْرَفْنَاهُمْ﴾ بوفور نعمنا إياهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إمهالاً لهم: ﴿مَا هَٰذَا﴾ المدّعي الكاذب ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لا مزيةَ له عليكم ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون:33].

﴿وَ﴾ الله ﴿لَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا﴾ فيما يأمركم من تلبيساته وتغريراته مع أنه ﴿مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ﴾ في إطاعتكم وانقيادكم لبني نوعكم ﴿إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون:34] خسرانًا عظيمًا لا خسرانٌ أعظمَ منه؛ إذ هو خسرانُ العقل والإدراك، وتذليلُ النفس العزيزة بمثله تغريرًا. ﴿أَ﴾ تسمعونه وتقبلون منه أيها المجبولون على الدربة والدراية ما

﴿يَعِدُكُم﴾ من الخرافات المستبعدة عن الإدراكات، وذلك ﴿أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ رفاتًا بحيث تفرقت أجزاؤكم إلى أن صارت هباءً وعدمًا صرفًا ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون:35] بعد هذا من التراب، معادون إلى ما كنتم عليه؟!.

﴿ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون: 36 – 44].

﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ أي: بَعُد بعدًا تامًا، واستحال استحالةً شديدةً ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون:36] من البعث بعد الموت والوجود بعد العدم والإعادة بعد الإماتة.

﴿إِنْ هِيَ﴾ أي: ما الحياة لنا أيها العقلاء ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ التي هي ﴿الدُّنْيَا﴾ إذ وجودنا وعدمنا مقصورٌ على ما هو فيها ﴿نَمُوتُ﴾ ونعدم بعد الوجود فيها ﴿وَنَحْيَا﴾ ونوجد بعد العدم أيضًا فيها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون:37] منشَرين أحياءً بعدما متنا فيها، كما نشاهد من سائر الأشياء؛ يعني: لا منزل لنا سوى الدنيا حياتنا فيها وموتنا فيها لا دارَ لنا غيرها.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو المدعى الكاذب ﴿إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ﴾ ونسب ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ومراءً عنه أنه أرسلني الله وأوصاني بكذا وكذا، وما هي إلا مخترعاتٌ اخترعها من تلقاء نفسه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون:38] بمجرد هذه الدعوى، وإن أثبتها أيضًا؛ إذ هو بشرٌ مثلنا ولا رسالةَ للبشر من الله إلى البشر.

وبعد يأسه من إيمانهم أخذ في الدعاء عليهم، مشتكيًا إلى الله؛ حيث ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون:39] أي: عذِّبهم بتكذيبهم إياي؛ إذ تكذيبي مستلزم لتكذيبك يا ربي.

﴿قَالَ﴾ سبحانه: اصبر ولا تستعجل في انتقامهم أنهم ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي: عن

زمانٍ قليلٍ ﴿لَّيُصۡبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون:40] عمّا فعلوا من التكذيب والإنكار.

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ الهائلة من جانب السماء بغتةً، قيل: صاح عليهم جبريل ﷺ صيحةً هائلة، بعدما تعلق إرادة الله بإهلاكهم ملتبسًا ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بالعذاب الثابت المحقق الواجب وقوعه ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ﴾ وصيرنا أجسادهم ﴿غُثَآءٗ﴾ أي: كالغثاء الذي يسيل به الماء، وهو الزبد والحشائش التي يذهب بها الماء ﴿فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون:41] أي: بعدما صاروا كذلك، قيل في حقهم: بَعُد بعدًا وطردًا للقوم الظالمين الخارجين عن مقتضى أوامر الله ونواهيه، النازلة منه سبحانه على ألسنة أنبيائه ورسله.

﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ وانقراضهم ﴿قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ [المؤمنون:42] يعني: قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم من الأمم الهالكة على الكفر والعناد بسبب تكذيب الرسل وكتبهم.

وبالجملة أهلكناهم؛ بحيث ﴿مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ أي: ما تستعجل وتستقدم أمةُ منهم أجلها الذي عيَّنا لإهلاكها، وقدرنا هلاكهم فيه ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ [المؤمنون:43] أيضًا: لا يسع لهم الاستقدام والاستئخار في المدة المقدرة المعينة لهلاكهم.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما انقرضوا ﴿أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا﴾ على المنحرفين عن جادة توحيدنا، المنصرفين عن مقتضى سنتنا ﴿تَتۡرَا﴾ متواترةً متتاليةً بلا تخلل فترةٍ بينهم، فصار الأمر بينهم ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا﴾ لإصلاح حالهم واعتدال خلافتهم وأعمالهم ﴿كَذَّبُوهُۖ﴾ وأنكروا له وظهروا عليه بالمقاتلة والمشاجرة، فأهلكناهم واستأصلناهم بسبب تكذيبهم وإنكارهم ﴿فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا﴾ بالهلاك؛ أي: أهلكناهم متتابعةً بعضهم بعد بعضٍ إلى أن طهرنا الأرض عن خبثهم وفسادهم ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾ أي: حكاياتٍ وقصصًا يُسمر بهم، ويَعتبر المعتبرون عما جرى عليهم، ويقولون في حقهم بعدما سمعوا قصصهم معتبرين: ﴿فَبُعۡدٗا﴾ أي: طردًا وحرمانًا ومقتًا وخذلانًا ﴿لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون:44] بتوحيد الله ولا يصدقون رسله، وجميعَ ما جاءوا به من عنده سبحانه من المعتقدات المتعلقة بالنشأتين.

﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ

﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: 45 – 51].

﴿ثُمَّ﴾ بعد انقراض أولئك الحمقى والهلكى ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ﴾ ليكون رداءًا له وظهيرًا مؤيدَين ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على كمال قدرتنا ومتانة صنعنا وحكمتنا؛ لتكون معجزةً خارقةً للعادة، صادرةً عنه، ملزمةً لمن يقابله ﴿وَ﴾ مع ذلك قويناهما بورود ﴿سُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [المؤمنون:45] أي: برهانٍ عقليٍ وحجةٍ واضحةٍ ساطعةٍ قاطعةٍ.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أشراف قومه، فبلّغا الموحى به إليهم، وأظهروا الدعوة عندهم ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن قبوله عنادًا وعتوًا ﴿وَ﴾ هم ﴿كَانُوا﴾ في أنفسهم ﴿قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون:46] متجبرين متكبرين.

وترقى أمر فرعون في الاستكبار إلى أن ادعى الربوبية والألوهية لنفسه ﴿فَقَالُوا﴾ بعدما سمعوا منهما ما سمعوا من الإيمان بالله، والدعوة إلى توحيده، والإتيان بالأعمال الصالحة، والامتثال بالأوامر والاجتناب عن النواهي المنزلة في التوراة متشاورين بينهم مستبعدين عن أمرهما منهمكين معهما مستهزئين: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ﴾ ونقبل منهما قولهما مع أنهما ﴿مِثْلِنَا﴾ في البشرية، ولا مزيةَ لهما علينا بالمال والكمال ﴿وَ﴾ لا بالنسب؛ إذ ﴿قَوْمُهُمَا﴾ الذين انتشأ منهم ﴿لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون:47] إلى الآن ونحن أربابهم مسلطون عليهم، فكيف نؤمن ونقاد لهما بلا شرفهما حسبًا ونسبًا؟!.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أشدَّ تكذيب وأنكروا عليهما، ونسبوا ما أتيا من الحجج والمعجزات إلى السحر والشعبذة، وظهروا عليهما ونسبوا ما أتيا من الحجج والمعجزات إلى السحر والشعبذة، وظهروا عليهما بأشد العداوة والخصومات ﴿فَكَانُوا﴾ بالآخرة بواسطة إنكارهم وتكذيبهم ﴿مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون:48] المستأصَلين بالإغراق في بحرِ قلزم أو النيل.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى﴾ من كمال جودنا ولطفنا معه ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: التوارة الجامعَ لإصلاح الظاهر والباطن ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي: قوم موسى ﴿يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون:49] به إلى مقر التوحيد.

﴿وَ﴾ بعد انقضاء زمن موسى وانقراض أعدائه ﴿جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ﴾ عيسى صلوات الرحمن عليه ﴿وَأُمَّهُ﴾ ـ رضي الله عنها ـ أي: كل واحدٍ منهما ﴿آيَةً﴾ دالةً على كمال قدرتنا وبدائع حكمتنا وغرائب صنعنا وقدرتنا، جعلنا لعيسى من الخوارق والمعجزات ما لا يخفى، ولمريم أيضًا من الكرامات والإرهاصات الخارقة للعادة منها: الحمل بلا مسيس زوج، وسقوطُ الثمرة من النخلة اليابسة لأجلها في محل الشتاء، وحضورُ أنواع الأطعمة والفواكه عندها حالَ كونها في المحراب والأبواب مغلقة عليه مع أنها ما تشبَّه بأطعمة الدنيا وفواكهها، وغيرُ ذلك من الإرهاصات الغريبة.

﴿وَ﴾ بعدما أخرجهما الجاهلون عن منزلهما ﴿آوَيْنَاهُمَا﴾ أي: أرجعناهما ﴿إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون:50] أي: إلى مكانٍ مرتفعٍ من الأرض، كثيرِ المأكل والمشارب يتنعم ويترفه ساكنوها فيها بلا ترددٍ واضطرابٍ في أمر المعاش، قيل: هي بيت المقدس أو دمشق.

ثم قال سبحانه مخاطبًا لقاطبة رسله وأنبيائه أصالةً، ولأممهم تبعًا مناديًا لهم إسقاطًا منهم الرهبانية والزهدَ المفرط المؤديَ إلى تخريب الجسد وضعفِ القوى المدركة والمحركة عن مقتضاها، وكذا جميع الآلات والجوارح المعمولة بها: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ يعني: نادى سبحانه كل واحد منهم في زمانه ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ التي أنتجنا لكم مقدارَ ما يسدُّ جوعتكم، ويعتدلُ به مزاجكم، وأطيبُ مطاعمكم كسبُ أيديكم ﴿وَ﴾ بعدما اعتدل مزاجكم وقويَ قواكم ﴿اعْمَلُوا﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ مقرِّبًا لكم إلينا، مصلِحًا لما في نفوسكم من مفاسد الأهوية الفاسدة وتسويلات الشياطين ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على وجه الإخلاص ﴿عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون:51] أجازيكم عليه، سواءً تزهدون وتترهبون أو لا.

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [المؤمنون: 52 – 63].

﴿وَ﴾ إذا علمتم أن مناط أمركم في عملكم المقرِبة إلى ربكم على وجه الإخلاص والخضوع، فعليكم بأجمعكم أن تداوموا وتلازموا عليها ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ الطريقة المعهودة المذكورة لكم من ربكم ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ أي: قدوتكم وقبلتكم، موصلةً إلى توحيد ربكم لذلك صارت ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لا تعددَ فيها ولا اختلافَ أصلاً، وإن كانت جهاتها مختلفةً متعددةً بحسب اختلاف الشرائع والأديان على مقتضى الأعصار والأزمان ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ الواحد الأحد الصمد الفرد الوتر، الذي لا أكون عرضةً للتعدد والكثرة أصلاً ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون:52] عن أخذي وبطشي ومقتضيات جلالي وقهري؛ إذ لا ملجأ لكم غيري.

ومع ذلك ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: دينهم الواحد وملتهم الواحدة ﴿زُبُرًا﴾ قِطعًا مختلفةً وأحزابًا متفاوتةً ومِلَلاً متخالفةً، يدعي كل منهم حقية دينه وملته، فصار ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ﴾ منهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الدين والملة ﴿فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:53][1] مسرورون معجَبون.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ بعدما تحزبوا وانحرفوا عن التوحيد وانصرفوا عن جادته، واتركهم على حالهم يعمهون ﴿فِى غَمْرَتِهِمْ﴾ أي: جهلهم وغوايتهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: 54] أي: حين انكشاف الغطاء عن بصائرهم والعماءِ عن أبصارهم فعاينوا العذاب، ولم يمكنهم ردّه والنجاة منه فيهلكوا صاغرين.

﴿أَيَحْسَبُونَ﴾ ويعتقدون أولئك الضالون المنهمكون في بحر الغفلة والضلال ﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ ونعطيهم إمدادًا لهم وإعانةً عليهم ﴿مِن مَّالٍ﴾ ملءٍ لنفوسهم ومشغلٍ

---

(1) واعلم أن الإلقاء من الله، ومن الملك، ومن الخضر، ومن المشايخ أمر واحد في المعنى؛ لأن الشيخ إذا كان خليفة الرسول في المعنى، والرسول خليفة الله في الحقيقة؛ فإلقاؤه عين إلقائه، ولا يلقى المحل إلا بقدره، اللّهم إلا أن يقال: إن نفخ خاتم الأولياء أقوى من نفخ المشايخ؛ لأنه ملك ملوك المشايخ؛ فهو أغنى منهم؛ كالسلطان فإنه أغنى من الوزير، وهو ممن دونه، ولا شك أن الأخذ من الأغنى لاسيما إذا علّق ذلك به؛ كان أنفع، وقد يجتمع الإلقاءات، فيلقى الشيخ في بداية الأمر، ثم خاتم الأولياء في وسط الحال، ثم الروح المطهّر النبوي في نهايته، ثم الله تعالى في نهاية النهايات.

لقلوبهم ﴿وَبَنِينَ﴾ [المؤمنون:55] يستعبدون نفوسهم ويسترقون أعناقهم.

﴿نُسَارِعُ﴾ ونبادرُ ﴿لَهُمْ فِي﴾ نيل ﴿الخَيْرَاتِ﴾ تفضلاً منا إياهم؛ لذلك يباهون ويفتخرون بها، ويتفوقون على من دونهم لأجلهما ﴿بَل﴾ هو استدراجُ منا إياهم، وإمهالُ لهم كي يحصّلوا أسباب أشد العذاب وأسوأ العقوبات، ويستحقوا بواسطتها أسفل دركات النيّران ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:56] الاستدراج من الكرامة، فحملوا عليها وبأهوائها، فسيعلمون مصيرهم ومنقلبهم إلى أين.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون:57] خائفون حذرون متحرزون.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ النازلةِ على رسله ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:58] يصدقون ويذعنون.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون:59] بل يستقلونه بالوجود ولا يثبتون لغيره وجودًا، ولا يسندون الحوادث إلى الأسباب العادية بل يسندون كلها إليه أولاً، وبالذات.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾ من الأعمال والصدقات ومطلق الحسنات ﴿وَقُلُوبُهُمْ﴾ في حال إتيانها ﴿وَجِلَةٌ﴾ خائفةُ مستوحشةُ بسبب ﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون:60] بهذه الأعمال والحسنات، هل يقبل منهم أو يرد عليهم، وهم دائمًا بين الخوف والرجاء خائفون عن قهره، راجون من لطفه.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المحسنون الأدب مع الله، المخلصون في أعمالهم ﴿يُسَارِعُونَ﴾ أي: يرغبون ويبادرون ﴿فِي الْخَيْرَاتِ﴾ وأنواع الطاعات والعبادات والحسنات، راجين أنواع الكرامات والمثوبات من الله ﴿وَهُمْ لَهَا﴾ أي: للحسنات وأنواع الخيرات والمبرّات دائمًا ﴿سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون:61] سارعون ساعون مبادرون.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المكلفون بأنواع التكاليف المصفية لظواهركم وبواطنكم ﴿لَا نُكَلِّفُ﴾ ولا نحمّل ﴿نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: مقدار وسعِها وطاقتِها على ما هو مقتضى استعداداتهم وقابلياتهم، وكيف نكلفهم بما لا طاقة لهم ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾ جامعٌ لجميع أحوالِ ما حدَث وكان، ويحدث ويكون، وهو لوحُ قضائنا وحضرةُ علمنا مع أنه ﴿يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ السويّ الثابت المطابق للواقع بلا إفراط وتفريط ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

[المؤمنون:62] بزيادة العذاب ونقصان الثواب، بل كل منهم مجزيٌ بمقتضى ما ثبت فيه.

والكفار من غاية انهماكهم في الغفلة والضلال ينكرون لكتابنا الجامع لجميع الكوائن والفواسد الناطق بالحق المطابق للواقع ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ التي جبلت وعاءً للإيمان والتصديق ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾ أي: غطاءٍ وغشاوةٍ ﴿مِنْ هَذَا﴾ الطريق الذي يترتب عليه الفلاح والفوز بالنجاح، وهو طريق التوحيد والتصديق ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ طالحةٌ على مقتضى أهويتهم الفاسدة وآرائهم الباطلة ﴿مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ الأمر الذي تعبدنا بها عبادنا على ألسنة رسلنا ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون:63] وإليها متوجهون دائمًا، وعن طريق الحق وسبيل التوحيد ناكبون منصرفون.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [المؤمنون: 64 – 71].

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ﴾ ومتنعميهم ﴿بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ [المؤمنون: 64] أي: يستغيثون ويستعينون؛ يعني: هم في الراحة والرضا عنا غافلون، وإذا أخذناهم بالبلاء والعناء، فأجاءوا إلى الاستغاثة والاستعانة منا، منصرفين إلينا، متضرعين نحونا.

لذلك يقال لهم طردًا وردًا: ﴿لَا تَجْأَرُوا﴾ أيها المسرفون ولا تستنصروا ﴿الْيَوْمَ﴾ منا حين نزول ﴿إِنَّكُمْ﴾ العذاب بسبب غفلتكم عنا، وإنكاركم علينا في يوم الراحة والرخاء ﴿مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ﴾ [المؤمنون:65] أصلاً، فاليوم لا ينفعكم دعاؤكم.

وكيف تستنصرون عني أمَا تستحيون مني؛ إذ ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي﴾ الدالةُ على عظمة ذاتي وعلوِّ شأني وشدةِ سلطتي وسطوتي ﴿تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ تليينًا لقلوبكم وإصلاحًا لعيوبكم ﴿فَكُنْتُمْ﴾ من شدة عتوكم واستكباركم ﴿عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾ [المؤمنون:66] وترجعون رجوع القهقرى، منصرفين عن سماعها.

حال كونكم ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أي: بالكتاب والآيات المندرجة فيه إلى حيث لا تذكرونه ﴿سَامِرًا﴾ أيضًا؛ أي: حاكيًا به في الليل على ما هو عادتكم وسنَّتكم المستمرة بينكم؛ إذ كنتم تسمرون حول البيت في خلال الليل، سيما بالأحاديث الحديثة الجديدة بل ﴿تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون:67] وتتركون السمرَ به مطلقًا، حتى لا تسمعوا ذكر الآيات والكتاب أصلاً، فكيف ما فيه من الأوامر والنواهي.

ومع استكباركم واستهزائكم بنا وبآياتنا وبرسلنا على أبلغ الوجوه وأشدها، تستنصرون منا وتستغيثون إلينا! ﴿أَ﴾ ينكر المشركون القرآن، ويستكبرون به عنادًا ومكابرة ﴿فَلَمْ يَدَّبَّرُوا﴾ ولم يتأملوا حق التأمل ﴿الْقَوْلَ﴾ أي: المقولَ والمسموعَ؛ ليظهر لهم إعجازه، ويتضح عندهم فصاحته وبلاغته الخارجة عن طور العقل وطوق البشر كي لا يبادروا إلى إنكاره وتكذيبه، بل يصدقوه ويؤمنوا له وبمن جاء به.

﴿أَمْ جَاءَهُم﴾ أي: بل يعلمون لو تأملوا أنه جاءهم من الله كتابٌ يخلصهم من العذاب الأخروي لو امتثلوا بما فيه مع أنه ﴿مَّا لَمْ يَأْتِ﴾ أي: كتابهم هذا شيءٌ لم يأت مثله ﴿آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:68] حتى يتأملوا فيه، ويؤمنوا له فيخلصوا من العذاب، فهؤلاء الحمقى الهلكى، المنهمكون في الغيِّ والضلال، يفوِّتون على أنفسهم الإيمان به والهداية بامتثال ما فيه، حتى يستحقوا الخلاص والنجاة.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ أي: بل لم يعرفوا من شدة شكيمتهم وبغضهم علوَّ شأن رسولهم، وسموَّ برهانه، وكمالَ عقله ورشده، واعتدال أخلاقه وأطواره، وإيفاءَه العهود والأمانات ﴿فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون:69] للجهل والعناد.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ وينسبون ﴿بِهِ جِنَّةٌ﴾ اختلالٌ وخبطٌ، ومن اختلاله وخبطه ظهر منه أمثال هذه البدائع التي استحدثها من تخيلاته ﴿بَلْ جَاءَهُم﴾ رسولهم بجميع ما جاءهم ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ الصدقِ المطابقِ للوحي الإلهي ﴿وَ﴾ لكن ﴿أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون:70] وكونُهم على الباطل مائلون، وإلى مشتهيات نفوسهم آيلون.

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ﴾ والوحي ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ الباطلةَ وآراءَهم الفاسدةَ ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ من ذوي الشعور والإدراك، المتوجهين نحو الحق طوعًا؛ من شؤم أعمالهم وسوء أفعالهم وقبح أخلاقهم وأطوارهم، لذلك ما آتيناهم وأوحيناه على رسولهم ما هو مشتهى نفوسهم ومقتضى أهوائهم ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ وتذكيرهم، يذكرُ ما هو الأصلح بحالهم والأليق بشأنهم من الأوامر والنواهي، والوعد

والوعيد، والإنذار والتبشير، والعبر والأمثال، والقصص والآثار ﴿فَهُمْ﴾ من غاية عمههم وسكرتهم ﴿عَن ذِكْرِهِم﴾ المصلح لحالهم، المنجي لنفوسهم من الوبال والنكال ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:71] منصرفون عنه عتوًا واستكبارًا.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (72) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (73) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (74) ۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (75) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (76) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (77) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (78) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (79) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (80)﴾ [المؤمنون: 72 – 80].

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ أي: أيظنون ويعتقدون أنك يا أكمل الرسل تطلب لأداء الرسالة وتبليغها عليهم ﴿خَرْجًا﴾ جُعلاً وإجراءً لذلك انصرفوا عنك وعن دينك وكتابك؟! ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ الذي ربَّاك بأنواع النعم الصوري والمعنوي، وأجره لك بأعظم المثوبات وأعلى الدرجات ﴿خَيْرٌ﴾ لك من جُعلهم ﴿وَ﴾ إن نسبوك إلى الفقر والفاقة قل ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المؤمنون:72] لو فُرض رازق سواه، مع أنه لا رازقَ إلا هو.

﴿وَ﴾ بالجملة: هم منحرفون في أنفسهم عن جادة التوحيد؛ بحيث لا يفيدهم هدايتك وإرشادك ﴿إِنَّكَ﴾ بوحي الله إياك ﴿لَتَدْعُوهُمْ﴾ وتهديهم.

﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون:73] سويّ لا عوجَ له أصلاً، وهو طريق التوحيد الذاتي.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يصدقون ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ التي فيها انتقاد الأعمال والأحوال والعرض على ذي العظمة والجلال ﴿عَنِ الصِّرَاطِ﴾ الذي هو سبب اعتدالهم وإخلاصهم فيها ﴿لَنَاكِبُونَ﴾ [المؤمنون:74] عادلون مائلون، لذلك لم يقبلوا منك ما جئتَ به من عند ربك؛ إذ خوف الآخرة من أقوى قوائم الإيمان.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ﴾ على مقتضى سعة رحمتنا وجودنا ﴿وَكَشَفْنَا﴾ وأنزلنا ﴿مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ مفرطٍ مزعج مثل القحط والوباء والزلزلة والعناد، وغير ذلك من الشدائد العاجلة ﴿لَّلَجُّوا﴾ وأصروا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ التي هم عليها من الكفر ولا شرك والعداوة مع أهل الإيمان ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون:75] يترددون ولا يتركون.

﴿وَ﴾ كيف لا يعمهون وقد جربناهم مرارًا، فإنا ﴿لَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾[1] أي: الجدب والقحط أو بالقتل يوم بدر ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا﴾ وما تذللوا وتواضعوا ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ من كمال عتوهم وعنادهم ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون:76][2] إليه استكبارًا بل هم على إصرارهم دائمًا كلما أخذناهم وكشفنا عنهم، أصروا وازدادوا على استكبارهم وإصرارهم، ولم يرجعوا إلينا مخلصين.

---

(1) قوله تعالى: (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم) الآية: روى الواحدي عن ابن عباس قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد ننشدك الله والرحم لقد أكلنا العلهز، يعني الوبر بالدم، فأنزل الله تعالى: - ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون - قال ابن عباس: لما أتى ثمامة بن أثال الحنفي إلى رسول الله ﷺ فأسلم وهو أسير فخلى سبيله، فلحق باليمامة فحال بين أهل مكة وبين الميرة من يمامة وأخذ الله تعالى قريشا بسني الجدب حتى أكلوا العلهز، فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: أنشدكم الله والرحم إنك تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين، قال: بلى، فقال: قد قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع، فأنزل الله تعالى هذه الآية. «أسباب النزول» (1/ 210.209).

(2) أفرد أرواحهم في مبادئ العهد بشهود نور جماله لها وخطابه معها، فلما وصلت الأشباح ابتلاها بحجاب النفوس والشياطين، ولم ترجع إلى طلب معادنها؛ فشكا الله سبحانه عنها، ومن حق معرفتها أنها تفنى براءة الحجاب والخطاب بالعتاب، وهذا وصف بعض العارفين الذين هاموا في أودية الكبرياء والعظمة، ولا يجدون لذة الوصال والجمال من صولة التوحيد؛ فوقعوا في بحار الأولية، وباشروا بالجرأة ما يوجب العتاب، فلم يلتفتوا إلى مراعاة الرجوع لاستكبارهم بمقاماتهم العظيمة، ولا يهتمون على فوائت حظوظ المشاهدة يا ليت لو علموا خفايا مكره لتضرعوا واستكانوا حتى يكشف ما وراء أحوالهم من عظائم غيوبات الصفات، وعجائب كشوف الذات، التي لو شاهدوها لذابوا ساعة بنعت الفناء في القدم، ولتاهوا ساعة بنعت البقاء مع السكر والصحو في الأبد. وافهم أن الله سبحانه وقع المريدين في موت الفوت؛ فجاهدوا أنفسهم بأنواع العبادات والرياضات، ولو استعاذوا به، واستعانوا لسهل عليهم طريق الرجوع إليه، فأين هم من التضرع والبكاء، وتعفير الوجوه بالتراب على فناء وحدانيته وجناب ديموميته؟ وبهذا وصل الواصلون إلى الله. قال سهل: ما أخلصوا لربهم في العبودية، ولا ذلوا له بالوحدانية. [العرائس].

﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا﴾ من البلاء والعناء ﴿ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وهو القحط المفرط؛ إذ هو من أصعب العقوبات وأسوئها ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [المؤمنون:77] متحسرون آيسون من كل خير، ومع ذلك لم يتوجهوا إلينا ولم يتضرعوا.

﴿وَ﴾ كيف لا تتوجهون ولا تتضرعون أيها الحمقى الهالكون في تيه العتو والفساد مع أنه سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي أَنشَأَ﴾ وأظهر ﴿لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾ من المشاعر التي تتحفظون بها نفوسكم عن الأعادي الخارجة عنكم ﴿وَالأَفْئِدَةَ﴾ أي: القلوب التي تحفظون بها صدروكم وسرائركم من الأعداء الداخلة من التخيلات الباطلة والتوهمات الزائغة والزائلة المزخرفة المموهة من الرياء والرعونات وأنواع التلبيسات والتدليسات مع أنكم ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون:78] أي: ما تشكرون لهذه النعم الجليلة إلا قليلاً منكم.

﴿وَ﴾ كيف لا تشكرون نعمه سبحانه مع أنه ﴿هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ أي: أوجدكم وأظهركم من كتم العدم في النشأة الأولى، وبث نسلكم ونسبكم ﴿فِي الأَرْضِ﴾ ترفهون فيها وتتنعمون. ورزقكم فيها من أنواع الطيبات ﴿وَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره؛ إذ لا وجود للغير ﴿تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون:79] وترجعون رجوع الأمواج إلى البحر.

﴿وَ﴾ كيف لا تحشرون إليه سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي﴾ ويظهر أشباحكم من العدم بامتداد أظلال أسمائه وصفاته وبسطها على مرايا انعدام الإعدام ﴿وَيُمِيتُ﴾ بانقهارها وقبض الأظلال عنها ﴿وَ﴾ من جملة قبضه وبسطه: إن ﴿لَهُ﴾ سبحانه وبمقتضى مشيئته وإرادته ﴿اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ طولاً وقصرًا، ضوءًا وظلمةً ﴿أَفَلا﴾ تتفكرون وتتأملون أيها المجبولون على التفكر والتدبر حتى ﴿تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون:80] وتدركون كيفية ظهور الحق وإظهاره مظاهر أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ

أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: 91 – 108].

وهؤلاء الضالون المضالون لا يتفكرون، ولا يعقلون مع وضوح الدلائل والشواهد ﴿بَلْ قَالُوا﴾ من الهذيانات الباطلة ﴿مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ﴾ [المؤمنون:81] من آبائهم وأسلافهم تقليدًا لهم؛ حيث ﴿قَالُوا﴾ مستنكرين مستبعدين على مواعيد الحق في النشأة الأخرى: ﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾ وانقرضنا عن الدنيا ﴿وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ بالية ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون:82] مخرجون من القبور أحياءً مثل ما كنا عليه قبل موتنا؟!.

كلا وحاشا لا حياة إلا هذه الحياة التي كنا عليها في دار الدنيا، مع أنا ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ﴾ على لسان من جاءنا بادعاء الرسالة والنبوة ﴿وَ﴾ قد وعد أيضًا ﴿آبَاؤُنَا هَذَا﴾ الموعود المخصوص على لسان من جاء بهم ﴿مِن قَبْلُ﴾ وهلم جرًا، مع أنا ولا هم لم نرَ من علامات صدقها وأمارات وقوعها شيئًا أصلاً.

وبالجملة ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: ما هذا الوعد الموعود والقول المعهود، وهو أنكم ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ:7] ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:83] أي: أباطيلهم وأكاذيبهم التي سطروها في دواوينهم وكتبهم على وجه السمرة والمخادعة لضعفاء الأنام.

وبعدما بالغوا في الإنكار على البعث والإعادة، وعدم قدرتنا عليها مع أنا قادرون على الإبداء والإنشاء لا عن شيء ﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا عليهم وتبكيتًا:

﴿لِمَنِ الأَرْضُ﴾ المفروشة تحتكم ﴿وَمَن فِيهَا﴾ من أنواع النباتات والحيوانات والمعادن، ومن المظهرُ لها من كتم العدم، ومَن المزينُ المنبتُ عليها من الأجناس المختلفة، أخبرونا موجدها ومخترعها ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:84] أي: من ذوي الشعور والإدراك.

﴿سَيَقُولُونَ﴾ في الجواب ألبتة: ﴿لِلَّهِ﴾ إذ لا يمكنهم الإنكار بالصريح المحقق المثبت ﴿قُلْ﴾ لهم بعدما اعترفوا بأن الأرض، ومن عليها لله سبحانه موبخًا عليهم ومقرعًا: ﴿أَ﴾ تنكرون أيها الجاهلون قدرة الله على إعادة المعدوم وحشر الأجساد ﴿فَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون:85] وتستحضرون قدرة الحق على إبداء هذه البدائع والعجائب المستحدثة على الأرض بلا سبق مادةٍ ومدةٍ، ومع ذلك تنكرون، ومن إعادة مَن عليها، سيما بعد سبق مادتها، مع أن هذا أهون من ذاك.

﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا إلزامًا وتبكيتًا: ﴿مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ﴾ الشداد المطبقات المزيّنات بالكواكب ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون:86] المحيط بالكل المسيِّر لها على وجه السرعة التامة والحركة الشديدة بلا تخللِ سكونٍ أصلاً.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ إذ لا يسع لهم الخروج عن مقتضى صريح العقل ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:87] وتحذرون عن قهر الله وغضبه، تنكرون له أهون مقدوراته ومراداته، مع أنكم اعترفتم بأشدها وأصعبها!.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما تأكدا إلزامهم وإفحامهم كلامًا جليًا شاملاً لجميع مقدورات الله ومراداته: ﴿مَنْ بِيَدِهِ﴾ وقبضةِ قدرته وحوله وقوته ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وملكُه يتصرف فيه حسب إرادته واختياره على سبيل الاستقلال ﴿وَ﴾ من ﴿هُوَ يُجِيرُ﴾ يغيث ويعين الملهوفَ المضطرَ إذا دعاه ﴿وَلاَ يُجَارُ﴾ ويُنصر ﴿عَلَيْهِ﴾ لأنه سبحانه يعلو ولا يُعلى عليه، أخبروني ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:88] أي: من ذوي الخبرة والشعور.

﴿سَيَقُولُونَ﴾ أيضًا بلا ترددٍ: ﴿لِلَّهِ﴾ اختصاصًا وملكًا، تصرفًا استقلالاً، اختيارًا وإرادةً ﴿قُلْ﴾ لهم بعدما أثبتوا له الغالبية، والقدرة التامة الكاملة، والفاعلية المطلقة بالإرادة والاختيار للفاعل المختار اختصاصًا واستقلالاً: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: 89] أي: من أين تُخدعون وتُلبسون للخروج عن مقتضى العقل والرشد في المقدور المخصوص والمراد المنظم المعين حتى تنكروا له، ولم تقلبوا وقوعه مع ورود الآيات

والدلائل القاطعة على وقوعه.

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم﴾ أي: كل ما آتيناهم من التوحيد، ولوازمه من الإيمان بالغيب، وجميع المأمورات والمنهيات الصادرة منا في كتبنا النازلة على رسلنا، وما ألهمنا وأوحينا إلى رسلنا إلا موافقًا كتابنا وحضرة علمنا ولوح قضائنا ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المصدِّق المطابق للواقع بلا توهم الباطل في شيء منها ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [المؤمنون: 90] في نسبة الكذب إليها وإليهم ألا لعنة الله على الكاذبين.

ومن جملة ما تنسبون إلى الله سبحانه افتراءً ومراءً: إثبات الولد له سبحانه مع أنه ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ﴾ الواحد الأحد الذي شأنه ووصفه أنه: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:3-4] ﴿مِن وَلَدٍ﴾ إذ هو من خواص الأجسام ولوازم الإمكان، وهو سبحانه منزهٌ عنهما.

﴿وَ﴾ من جملة أكاذيبهم الباطلة أيضًا: إثبات الشريك له سبحانه مع أنه ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صحَّ وجاز أن يكون ﴿مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ شريكًا له يُعبد بالحق مثله، ويستحق بالعبادة استحقاقًا ذاتيًا ووضعيًا كما هو شأنه سبحانه ﴿إِذًا﴾ أي: حين كان الإله الواجب الوجود المستحق للعبادة متعددًا كما زعم أولئك المبطلون ﴿لَّذَهَبَ﴾ وتميز ﴿كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ أوجد وأظهر، فيكون مُلْك كلٍ منهما ممتازًا عن الآخر، وإذا كان الإله متعددًا أو المملكة ممتازةً، لأمكن التغالب والتحارب ألبتة ﴿وَلَعَلَا﴾ أي: غلب وارتفع ﴿بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ هم بالقدرة والاستيلاء، فاحتل النظام المشاهد المحسوس، ولم يبقَ له انتظامُ وقيامُ ﴿سُبْحَانَ اللهِ﴾ وتعالى ذاته ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:91] به أولئك الجاهلون الغافلون عن علوِّ شأنه من إثبات الولد له والشريك مع تعاليه، وتنزهه في ذاته عنهما وعن أمثالهما.

وكيف يكون له ولد ومعه شريك، وهو بذاته ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ لا يعزب عن حيطة علمه شيء ﴿فَتَعَالَى﴾ سبحانه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون:92] أولئك المعاندون من أن يكون له ولدٌ يشبهه أو شريكُ يماثله، ويشترك معه في أخص أوصافه التي هي وجوب الوجود والعلم بالغيب والشهادة حضورًا.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل مستعيذًا بالله من شر ما سيلحق لأولئك المعاندين المبطلين: ﴿رَّبِّ﴾ يا من رباني بمزيد اللطف والإحسان ﴿إِمَّا تُرِيَنِّي﴾ أي: أن تحققَ وتقررَ عنك يا مولاي إراءتك إياي ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون:93] أولئك المسرفون

المشركون من أشد العذاب والنكال في العاجل والآجل؛ ليكون بسبب عبرتي وتذكيري من أحوالهم.

﴿رَبِّ فَلاَ تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:94] مقارنًا لهم معدودًا من عدادهم ملحقًا بي ما سيلحقهم من أنواع العذاب الصوري والمعنوي، الدنيوي والأخروي.

﴿وَ﴾ قال سبحانه: ﴿إِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون:95] يعني: إنا قادرون على أن نريك العذاب الموعود إياهم في هذه النشأة، لكنا نؤخرهم ونمهلهم رجاء أن يؤمن بعضهم، أو يحصل منهم المؤمنون من نسلهم وذرياتهم.

وإذا كنا نمهلهم ونؤخر عذابهم لحكم ومصالحَ ﴿ادْفَعْ﴾ أنت أيضًا يا أكمل الرسل ﴿بِالَّتِي﴾ أي: بالدلائل والشواهد التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ من المقاتلة والمشاجرة ﴿السَّيِّئَةَ﴾ التي هي ما هم عليها من الكفر والشرك، لعل دلائلك تلين قلوبهم وتصفيهم من المكابرة والعناد معك، إذ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ منك ﴿بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:96] أي: يصفونك به، وينسبون إليك مما لا يليق بجنابك، وثق بنا وتوكل في جميع حالاتك علينا، واتخذنا وكيلاً، وفوِّض أمر انتقامهم إلينا، فإنا نكفي عنك مؤنة شرورهم.

﴿وَقُل رَّبِّ﴾ يا من رباني بكنفك وجوارك ﴿أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ [المؤمنون:97] ووساوسه وأنواع تسويلاته وتلبيساته ﴿وَ﴾ لا سيما ﴿أَعُوذُ﴾ والوذ ﴿بِكَ﴾ يا ﴿رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون:98] عند توجهي نحوك، وتحنني إليك ومناجاتي معك، سيما في خلال صلاتي وعند تلاوتي وعرض حاجاتي.

والكافرون من غاية انهماكهم في الغفلة، مصرون على ما هم عليه من الشرك والكفر ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ وعاين من أمارات النشأة الأخرى، تنبه حينئذٍ بقبح صنائعه التي أتى بها في النشأة الأولى ﴿قَالَ﴾ حينئذٍ متضرعًا إلى الله نادمًا متمنيًا متحسرًا: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون:99] بفضلك وجودك إلى النشأة الأولى.

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ﴾ بعد رجوعي عملاً ﴿صَالِحًا﴾ مصلحًا ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ وأفسدتُ من أمور الإيمان والإطاعة والانقياد ﴿كَلاَّ﴾ ردعٌ له عن هذا السؤال والدعاء، ومنعٌ له عن إنجاح سؤله ﴿إِنَّهَا﴾ أي: طلب المراجعة ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ من غاية الحسرة والندامة على مافات عنه في الابتلاء ﴿وَ﴾ كيف يرجع إليها؛ إذ ﴿مِن وَرَائِهِم﴾ أي:

أمامهم وقدامهم ﴿بَرْزَخٌ﴾ أي: حجابٌ مانعٌ يمنعهم عن الرجوع ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:100] يعني: لا يمكنهم الرجوع إلى دار الدنيا والحياة فيها إلا الحياة في يوم البعث والجزاء.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لحشر الأموات ونشرها من قبورهم، فيخرجون منها حيارى سكارى تائهين هائمين ﴿فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ بل يفرُّ كل امرئٍ من أخيه وصاحبته وبنيه؛ إذ لكلٍ منهم شأن يغنيه ﴿وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون:101] أي: لا يسأل بعضُهم أحوالَ بعضٍ، بل كل نفسٍ منهم رهينةُ ما كسبت بلا التفاتٍ منه إلى غيره.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ورُجِّحت خيراته على شروره ومعاصيه ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ السعداء المقبولون ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون:102] الفائزون المقصورون على الفوز والفلاح ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:38].

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ورجحت سيئاته على حسناته ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ خسرانًا مبينًا إلى حيث هم؛ لانهماكهم في الشرور والسيئات ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ﴿خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:103] مخلدون دائمون لا نجاة لهم منها أصلاً من شدة اشتعال النار وتلهبها.

﴿تَلْفَحُ﴾ وتحرق ﴿وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا﴾ أي: في النار ﴿كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون:104] عابسون حيث تقلص شفاههم عن أسنانهم؛ بحيث تصل شفتهم العليا إلى وسط رأسهم والسفلى إلى سرتهم.

ومتى تضرعوا وتفزعوا، وبثُّوا الشكوى إلى الله قيل لهم من قِبل الحق: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي﴾ الدالةُ على عظمة ذاتي، وكمال قدرتي على الإنعام والانتقام ﴿تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ حين ابتليناكم في النشأة الأولى ﴿فَكُنتُم﴾ من غاية غفلتكم وضلالكم ﴿بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون:105] وتنكرون عنادًا واستكبارًا، فالآن لحقكم وعرض عليكم ما أنكرتم له وأعرضتم عنه.

وبعدما سمعوا من التوبيخ والتقريع ما سمعوا، ﴿قَالُوا﴾ متضرعين معترفين بما صدر عنهم من البغي والعناد: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربَّانا على فطرة السعادة والهداية ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ واستولت أمّارتنا، وصالت علينا أمانينا وأهويتنا ﴿وَكُنَّا﴾ بمتابعة تلك البغاة الغواة الضُّلاَّل ﴿قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون:106] منحرفين عن طريق الحق،

ناكبين عن صراطٍ مستقيم.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ بفضلك وجودك ﴿مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ بعدما خرجنا منها إلى ما كنا عليه قبلُ من الغفلة والغرور ﴿فَإِنَّا﴾ حينئذٍ ﴿ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون:107] لأنفسنا بالعرض على أنواع العذاب وأشد النكال.

﴿قَالَ﴾ سبحانه في جوابهم زجرًا وتبكيتًا: ﴿اخْسَئُوا﴾ واسكتوا ﴿فِيهَا﴾ أي: في النار مهانين صاغرين ﴿وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:108] معي، ولا تناجوا إليّ لدفع عذابكم وتخفيفه وإخراجكم من النار؛ إذ أنتم فيها خالدون.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: 109 – 118].

أما تستحيون أيها المسرفون تذكروا ما أنتم عليه ﴿إِنَّهُ﴾ أي: إن شأنكم وأمركم في دنياكم ﴿كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ﴾ خُلّص ﴿عِبَادِي يَقُولُونَ﴾ متضرعين متحننين نحونا راجين العفو والرحمة منا بقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾ كما ربيتنا بأنواع الكرم ﴿آمَنَّا﴾ وصدقناك بالربوبية والألوهية ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ذنوبنا واستر لنا عيوبنا ﴿وَارْحَمْنَا﴾ تفضلاً علينا وامتنانًا ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون:109] إذ رحمتك بنا لا تُعَلَّلُ بغرضٍ منك وعوضٍ منا.

ومتى سمعتم مناجاتهم هذه، ودعاءهم هذا ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًا﴾ وصرتم مستهزئين بأقوالهم وأعمالهم، متمادين في الهزء والسخرية، متوغلين في الغفلة والغرور ﴿حَتَّى أَنسَوْكُمْ﴾ جهلكم وغفلتكم ﴿ذِكْرِي﴾ والتوجه نحوي، والرجوع إليّ بل صرتم غافلين ذاهلين، محرومين عن كمال الإنسان، منحطين عن رتبة الخلافة،

مستحقين لأنواع السخرية والضحكة ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿كُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون:110] مع أنهم ساعون نحونا، سالكون في طريق توحيدنا، طالبون الوصول إلى ما هم جبلوا لأجله.

لذلك ﴿إِنِّي﴾ من كمال لطفي وإشفاقي معهم ﴿جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ﴾ أحسن الجزاء ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على أذاكم أيها الجاهلون في النشأة الأولى، وهم بسبب صبرهم وتمكنهم على أذاكم في دنياكم حفظًا لدينهم وإيمانهم ﴿أَنَّهُمْ﴾ القوم ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون:111] المقصورون على الفوز والفلاح إلى ما هو النجاة والنجاح، بـ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:38].

وبعدما صاروا مخلَّدين مؤبَّدين في النار، صاغرين مهانين فيها ﴿قَالَ﴾ قائلٌ من قِبَل الحق على سبيل التوبيخ والتقريع إظهارًا لقبح استبدالهم، واختيارهم الأدنئ بدل الأعلى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ أيها الضالون المسرفون ﴿فِي الأَرْضِ﴾ التي كنتم تستكبرون عليها خيلاءَ مغرورين ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ [المؤمنون:112] أي: كم مدةً وسنةً استقررتم عليها متفوهين؟!.

﴿قَالُوا﴾ مستقصرين مستحقرين: ﴿لَبِثْنَا﴾ عليها ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أي: بل بعض يوم بالنسبة إلى هذه الأيام الطوال التي كنا فيها مذنبين، بل نسينا نحن مدة ما كنا عليها لغاية قصرها ولا نقدر عليها ﴿فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ [المؤمنون:113] المعاصرين بنا من أهل القبول والسرور، والموكَّلين علينا من الملائكة، المستحضرين لأعمارنا وأعمالنا وجميع ما كنا عليها من الأحوال.

﴿قَالَ﴾ القائل المذكور في جوابهم تصديقًا لهم في مقالهم واستقلالهم: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما لبثتم فيها ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ قصيرًا في غاية القلة والقصر ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ﴾ أيها الضالون المسرفون ﴿كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:114] في أنفسكم طول مدة العذاب وعدم تناهيها، لما اخترتم لأنفسكم ما يستجلب عليكم العذاب ويوقعكم فيه، ومع جهلكم هذا لم تقبلوه من الأنبياء العارفين الهادين أيضًا، بل أنكرتم عليهم واستهزأتم مستكبرين مستنكرين.

﴿أَ﴾ تزعمون أيها الجاهلون المعاندون أن أفعالنا خاليةُ عن الحكمة والمصلحة ومقدوراتنا صدرت عنا حشوًا بلا طائلٍ ﴿فَحَسِبْتُمْ﴾ وظننتم بل جزمتم وأيقنتم ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ وأظهرناكم من كتم العدم ﴿عَبَثًا﴾ أي: عابثين ساعين فيها بلا طائلٍ مرتكبين

لها بلا حِكَمٍ ومصالحَ ﴿وَ﴾ أيضًا ظننتم أيها الغافلون الجاهلون ﴿أَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:115] للجزاء وتنقيد الأعمال وعرض الأحوال.

وكيف لا تُرجعون إلى ربكم أيها المجرمون، وكيف عن أعمالكم لا تُسألون أيها المسرفون ولا تحاسبون؟! ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ المحيط للكل حضورًا وشهودًا أن يتصف ذاته بالغفلة والذهول، وأوصافه بعدم الحيطة والشمول، وأفعاله بالعبث والفضول؛ إذ هو ﴿الْمَلِكُ﴾ المستحضِر لجميع مماليكه، لا يعزب عنه مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في السماء، وكيف يعزب ويغيب عنه شيء من الأشياء؛ إذ هو ﴿الْحَقُّ﴾[1] الثابت المحقق والقيوم المطلق المثبت، لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، وهو في شأنٍ لا يعرضه شأن، ولا يعتريه زمانٌ ومكانٌ بل الشئون كلها مندرجةٌ في علوّ شأنه؛ إذ ﴿لَا إِلَهَ﴾ في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ لأنه ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:116] المحيط لذرائر الكائنات، وهو الوجود العيني الظلي الكامن الفائض من حضرة القدوس على هياكل العكوس.

﴿وَ﴾ بعدما تحقق أن الكل في حيطة أوصافه وأسمائه، ومن أظلاله، وتحت لوائه ﴿مَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ﴾ المحيط للكل ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾ من الأظلال المحاطة والعكوس الساقطة مع أنه ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ﴾ يثبت به وجود إله آخر سواه، بعدما شمل سواه سبحانه الكل وأحاط ﴿بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ﴾ أي: حساب المدعي، وجزاء ما ادعى من الشرك ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ يجازيه على مقتضى علمه ﴿إِنَّهُ﴾ أي: إن الشأن والأمر عنده سبحانه إنه ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ ولا يفوز ﴿الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون:117] بكفرهم وشركهم إلى ما هو موجبٌ للفلاح والنجاح.

﴿وَ﴾ بعدما أثبت سبحانه الفلاحَ للمؤمنين الموحِّدين في أول السورة، ونفاه عن الكافرين المشركين في آخرها ﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل تعليمًا لكل من يقتدي بك ويقتفي أثرك، وتنبيهًا عليهم وتذكيرًا لهم: ﴿رَّبِّ﴾ يا من رباني بكنفك وجوارك

---

(1) قال روزبهان: لا يحتمله إلا الحق حجب الكون بالصفات والنعوت، ثم حجب النعوت بالحقيقة. وقال: الحق عجز الخلق أن يدركوه بإدراكهم، وإنما يدرك بإدراكه. قال ابن عطاء: تعالى أن يغيره الدهور أو يجري عليه قوادح الأمور، نفى الأشكال عن نفسه بتعاليه، ونفى الأضداد والنظراء عن نفسه بتمام ملكه عز وعلا. وقال الأستاذ: الحق بنعوت جلاله متوحد، وفي عز أزاله، وعلو أوصافه متفرد فذاته حق، وصفاته حق، وقوله صدق، ولا يتوجب لمخلوق عليه حق.

﴿اغْفِرْ﴾ واستر أنانيتي عن عين بصيرتي ﴿وَارْحَمْ﴾ عليّ بنفي هويتي وإفنائها في هويتك ﴿وَأَنتَ﴾ بذاتك وأسمائك وصفاتك ﴿خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون:118] الذين هم أيضًا من متقضيات أوصافك وعكوس أسمائك، والكل بك منك، ولا راحم سواك، ولا مربي غيرك.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي، المتحقق بمقام العبودية أن تلازم على هذه الكلمة التي أسمعَك الحق على لسان نبيك وتداومَ عليها، سيما في خلواتك وأعقاب صلواتك، عازمًا عليها، سامعًا لها سمعَ قبولٍ ورضا، حتى يترسخ في قلبك، وتتمرن فيه إلى حيث نطقت حالك بها بلا ترجمان من لسانك.

ومتى تحققتَ وتمكنتَ في هذه المرتبة أتممت مرتبة العبودية، فلك بعدما كملت عبوديتك الترقي منها بتوفيق الله، وجذبٍ من جانبه إلى مرتبة الفناء في الله والبقاء ببقائه.

وذلك لا يتم إلا باضمحلال هويتك، وتلاشي بشريتك وماهيتك إلى حيث سقطت عنك تعيناتك رأسًا، وفنيت تشخصاتك جملةً، وحينئذٍ فزتَ بما فزتَ، ووصلتَ بما وصلتَ، وليس وراء الله مرمى ولا منتهى.

سورة النور

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة النور

لا يخفى على من تنور قلبه بنور الكشف والشهود، واكتحلت عينه بمشاهدة آثار الجود على مظاهر الوجود أن انبساطَ نور الحق على ذرائر الأكوان، وفيضان أظلال وجوده على صفائح الأعيان إنما هو لإظهار الكمالات المندرجة في الذات الأحدية، باعتبار الأوصاف والأسماء الذاتية المندمجة فيها، حسب التجليات الحبية والتجددات الشوقية المنبعثة على المحبة الذاتية والموجبة للجلاء والانجلاء، وذلك لا يحصل إلا بالتنزلات إلى الشئون والتطورات المستلزمة للإضافات والكثرات؛ لتعين مراتب المحب والمحبوب والمحبة، والطالب والمطلوب والطلب، والسير والسلوك والصعود، والعروج والوصول والاتصال.

وبعد حصول التنزلات حدثت الإضافات والاختلافات، وتفاوتت الأعمال والأحوال، فظهرت الآراء والمذاهب، فبرزت الأهواء والمشارب، مما اقتضت الحكمة الإلهية وضعَ الحدود والآداب بين المظاهر المختلفة والآراء المتفاوتة؛ ليعتدل أمر الأنام، ولا يختل النظام، واستقامت السبل، وتميزت الطرق، وتفرقت السعادة من الشقاوة والهداية من الضلال.

لذلك أشار سبحانه إلى وضع الحدود أولاً بين الأنام، ومن أهمهما: حفظ التناسل والتناكح من السفاح المفضي إلى سدِّ باب المعرفة التي هي الحكمة والمصلحة من إظهار نوع الإنسان؛ إذ لهذا النوع مرتبة الخلافة والنيابة من الله الرحيم الرحمن.

فالخلطة والشركة في حصول هذا النوع منحلٌ بصرافة الوحدة الذاتية؛ إذ لا بدَّ من المناسبة بين المستخلف والمستخلف منه.

فقال سبحانه متيمنًا متبركًا باسمه الجامع لجميع الأسماء والأوصاف: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي أظهر نوع الإنسان لخلافته، وأنعم عليهم التخلق بأخلاقه والاتصاف بأوصافه ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم حيث أظهرهم بأحسن التقويم وأعدله ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم

بإصلاح مفاسدهم وتحسين مقابحهم؛ لئلا ينحطوا عن رتبة خلافته ونيابته.

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)﴾ [النور: 1 – 5].

هذه ﴿سُورَةٌ﴾ عظيمةٌ، وسِفرٌ جليلٌ، وآياتٌ كريمةٌ ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ من مقام جودنا، وفضلنا عليك يا أكمل الرسل تأييدًا لنبوتك ورسالتك، وترويجًا لدينك وملكتك ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾[1] أي: أوجبنا الأحكام التي ذُكرتْ فيها، وقدّرنا الحدود المقررةَ في ضمنها، ألزمناها على من تبعك من المؤمنين تهذيبًا لظواهرهم وبواطنهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ﴾ عظام دالة على وحدة ذاتنا، وكمال قدرتنا على الإنعام والانتقام مع كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالات ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور:1] وتتعظون، فتتركون ما يوجب مقتكم وهلاككم، وتتوجهون إلى ماجُبلتم لأجله.

ثم أخذ سبحانه بتطهير المؤمنين عن أفحش الفواحش وأقبح الآثام، فقال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾[2] أي: حكمهما وحدهما فيما فرضناها، وتلوناها عليكم أيها

(1) قال الشيخ روزبهان: أنزل الله القرآن من سماء القدم على سيد أهل الكرم، وجعله سرجًا أسرجها من نوار الذات في مشكاة الآيات لألباء الحقيقة، وأدلاء الطريقة لينوروا بأنوارها طرق المعارف، وسبل الكواشف، وأوجب ما فيها من أحكام العبودية على العباد، وأنزل في هذه السورة آيات دالة على أسرار القدوسية، وأنوار السبوحية بينات واضحات لأولي النهي من العارفين، وأهل الفطنة من الموقنين ليتعظ بمواعظها المريدون، ويقتبس أنوارها العارفون، ويدرك حقائقها الموحدون. قال سهل: جمعناها وبيناها حلالها وحرامها. وقال بعضهم: لو لم يكن من آيات هذه السورة إلا براءة الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله لكان كثيرًا؛ فكيف وقد جمعت من الأحكام والبراهين ما لم يجمعه غيرها؟.

(2) قوله عز وجل: (الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة) الآية.
قال المفسرون: قدم المهاجرون إلى المدينة وفيهم فقراء ليست لهم أموال، وبالمدينة نساء بغايا

المؤمنون الجَلد، قدَّم سبحانه الزانية؛ لأن وقوع الزنا في الأغلب من جانبهن، ومن غرض نفوسهن، وزينتهن على الرجال، وإذا سمعتم أيها الحكام الحدودَ والحُكمَ فيهما ﴿فَاجْلِدُوا﴾ بعدما ثبت الزنا بينهما، وهما غير محصنين؛ إذ حكم المحصن مطلقًا بالإجماع رجمُ كل منهما إن كانا محصنين، ورجم أحدهما إن كان الآخر غير محصن.

والمحصن هو: المسلم الحر العاقل البالغ الذي وقع منه الوقاع بنكاحٍ صحيح ﴿كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ أي: مائة ضربةٍ بسوطٍ مؤلمةٍ مجلدةٍ أشدَّ إيلامٍ بدل ضرباتٍ استلذَّ بها حال الوقاع.

وزاد الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ على جلد المائة تغريبَ العام؛ إذ هو أحوطُ وأدخلُ في الانزجار، لقوله ﷺ: «البِكْرُ بِالبِكْرِ جَلْدُ مِائة وَتَغْرِيبُ عَامٍ»[1].

﴿وَلاَ تَأْخُذْكُم﴾ أيها الحكام وقت إجرائكم الحدودَ والأحكامَ ﴿بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ رقةٌ ومرحمةٌ تضيّعون بها حكمة الحد؛ إذ لا رأفةَ ﴿فِي دِينِ اللهِ﴾ وتنفيذ أحكامه وحدودِه الموضوعة فيه ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيها الحكام المقيمون للأحكام والحدود ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾

مسافحات يكرين أنفسهن وهن يومئذ أخصب أهل المدينة، فرغب في كسبهن ناس من فقراء المهاجرين، فقالوا: لو أنا تزوجنا منهن فعشنا معهن إلى أن يغنينا الله تعالى عنهن، فاستأذنوا النبي ﷺ في ذلك، فنزلت هذه الآية وحرم فيها نكاح الزانية صيانة للمؤمنين عن ذلك.

وقال عكرمة: نزلت الآية في نساء بغايا متعالجات بمكة والمدينة وكن كثيرات ومنهن تسع صواحب رايات، لهن رايات كرايات البيطار يعرفونها: أم مهدون جارية السائب بن أبي السائب المخزومي، وأم غليظ جارية صفوان بن أمية، وحية القبطية جارية العاص بن وائل، ومرية جارية ابن مالك بن عميلة بن السباق، وجلالة جارية سهيل بن عمرو، وأم سويد جارية عمرو بن عثمان المخزومي، وشريفة جارية زمعة بن الاسود، وقرينة جارية هشام بن ربيعة، وفرتنا جارية هلال ابن أنس، وكانت بيوتهن تسمى في الجاهلية المواخير، لا يدخل عليهن ولا يأتيهنَّ إلا زان من أهل القبلة أو مشرك من أهل الاوثان، فأراد ناس من المسلمين نكاحهن، ليتخذوهن مأكلة، فأنزل الله هذه الآية، ونهى المؤمنين عن ذلك وحرمه عليهم، أخبرنا أبو صالح منصور بن عبد الوهاب البزاز قال: أخبرنا أبو عمرو بن حمدان قال: أخبرنا ابن الحسن بن عبد الجبار قال: أخبرنا إبراهيم بن عروة بن معتم، عن أبيه، عن الحضرمي، عن القاسم بن محمد، عن عبد الله بن عمر أن امرأة يقال لها أم مهدون كانت تسافح، وكانت تشترط للذي يتزوجها أن تكفيه النفقة، وأن رجلا من المسلمين أراد أن يتزوجها، فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية - الزانية لا ينكحها إلا زان - «أسباب النزول» (1/ 211، 212).

(1) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (8/222).

وبجميع ما جاء به من عنده من الأوامر والنواهي، وجميع الحدود الموضوعة من عنده ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الذي فيه تبلى السرائر وتكشف الضمائر، فلكم أن تقيموا حدود الله على الوجه الذي أُمرتم به؛ لئلا تؤاخذوا في يوم الجزاء.

﴿وَ﴾ بعدما قصدتم أيها الحكام إجراء الحد عليهما ﴿لْيَشْهَدْ﴾ أي: ليحضر وليبصر ﴿عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ﴾ أي: جمعٌ كثيرٌ ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:2] المعتبرين تفضيحًا لهما، وتشهيرًا لأمرهما؛ لينزجرا مما جرى عليهما مَن في قلبه ميلٌ إلى أمثال ما أَتَيَا به من الفعلة القبيحة والديدنة الشنيعة.

ثم أشار سبحانه إلى قبح مناكحتهما وشناعة ألفتهما، ومواصلتهما على وجه المبالغة في النهي والكراهة، فقال: ﴿الزَّانِي﴾ أي: الذي يرغب، ويميل إلى عورات المسلمين بلا رخصةٍ شرعيةٍ تعديًا عن حدود الله وهتكًا لستره ﴿لَا يَنكِحُ﴾ إن نكح ﴿إِلَّا زَانِيَةً﴾ مثله مناسبةً له ومشاكلةً إياه؛ إذ الجنسية علة التضام والألفة ﴿أَوْ مُشْرِكَةً﴾ هي أخسُّ وأخبثُ وأشدُّ قبحًا وشناعةً ﴿وَالزَّانِيَةُ﴾ الراغبة للأجانب، المائلةُ إليهم بلا طريقٍ شرعيٍ ﴿لَا يَنكِحُهَا﴾ أيضًا ﴿إِلَّا زَانٍ﴾ كذلك لكمال الملائمة والمشابهة ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾ هو أَخبثُ وأقبحُ ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾ الفعلُ القبيح، والخصلةُ الذميمةُ الشنيعة ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:3] الموقنين المخلصين من أرباب العزائم، ونهيٌ على أهل الرخص منهم نهيًا واصلاً إلى حد النفي والحرمة.

ثم قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ بالزنا ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ الحرائر العاقلات البالغات العفائف من المسلمات، سواءً كان الرامي أزواجُهن أو غيرهم، وحكمُ المحصنين أيضًا كذلك، وإنما خصهن بالذكر؛ لكثرة ورود الرمي في حقهن، وكون رميهن سببًا لنزول الآية الكريمة، ﴿ثُمَّ﴾ بعدما رَموا ﴿لَمْ يَأْتُوا﴾ لإثباته ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ ذوي عدلٍ وأمانة ومروءةٍ؛ بحيث لم يكونوا متجسسين عن أحوال الزانيين البغيين، ولا مستورين منتظرين لاطلاع ما يأتيان به من الفعلة الشنيعة، بل وقع نظرهم عليهما بغتة فرأوا قبح صنيعهما ـ العياذ بالله ـ كالميل في المكحلة.

فإن أتوا بأربعة شهداء على الوجه المذكور فقد أثبتوا الزنا، وإن لم يأتوا ﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾ أيها الحكام، الراميين القاذفين ﴿ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ لا كجلدة الزنا بل أخف منها كما هي أقل عددًا.

﴿وَ﴾ بعدما جلدتم أيها المقيمون لحدود الله ﴿لَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً﴾ أصلاً في

حالٍ من الأحوال ودعوىً من الدعاوي ﴿أَبَدًا﴾ إلى انقراض حياتهم ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون ﴿هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [النور:4] الخارجون عن مقتضى العقل والشرعِ، المسقطون للمروءة والعدالة، التاركون طريق الإنصاف والانتصاف، لا تُرجى نجاتهم من عذاب الله أصلاً.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ منهم ورجعوا ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الرمي والافتراءِ ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا على نفوسهم بالتوبة والندامة عن ظهر القلب ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿غَفُورٌ﴾ يعفو عنهم ويستر زلتهم ﴿رَحِيمٌ﴾ [النور:5] يرحمهم، ويقبل توبتهم إن أخلصوا فيها.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [النور: 6 - 10].

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾[1] بالزنا ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ﴾ حضراءُ عندهم

---

(1) قوله تعالى: (والذين يرمون أزواجهم) الآية، أخبرنا أبو عثمان سعيد ابن محمد بن المؤذن قال: أخبرنا محمد بن أحمد بن علي الحيرى قال: أخبرنا الحسن ابن سفيان قال: أخبرنا أبو بكر بن أبي شيبة قال: أخبرنا يزيد بن هارون قال: أخبرنا عباد بن منصور، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت - والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء - إلى قوله تعالى - الفاسقون - قال سعد بن عبادة وهو سيد الانصار: أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ: ألا تسمعون يا معشر الانصار إلى ما يقول سيدكم ؟ قالوا: يا رسول الله إنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرا وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها من شدة غيرته، فقال سعد: والله يا رسول الله إني لاعلم أنها حق وأنها من عند الله ولكن قد تعجبت أن لو وجدت لكاع قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء فو الله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته، فما لبثوا إلا يسيرا حتى جاء هلال بن أمية من أرضه عشيا فوجد عند أهله رجلا فرأى بعينه وسمع بأذنه فلم يهيجه حتى أصبح وغدا على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله فقال إني جئت أهلي عشيا فوجدت عندها رجلا فرأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه، فقال سعد بن عبادة: الآن يضرب رسول الله ﷺ -

﴿إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ أي: غير أنفسهم ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾ صارت وتقاوت ﴿أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ﴾ في إسقاط حدِّ القذف عنهم منزلةَ أربع شهاداتٍ مؤدياتٍ ﴿بِاللَّهِ﴾ متعلقات بهذا المدعى، وهي ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الزوج المدعي ﴿لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور:6] في دعوى الزنا بلا افتراءٍ منه ومراءٍ.

﴿وَالْخَامِسَةُ﴾ أي: بعدما أدى الأربعة أتى بالشهادة الخامسة لها، المؤكدة المقيدة بلعنة الله تغليظًا بأن قال هكذا: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ﴾ أي: طردَه وتبعيدَه عن ساحة عز حضوره وسعة رحمته ﴿إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النور:7] في هذه الدعوى.

وبعد أداء الشهادات الأربع المؤكد بالخامسة، فقد سقط عنه حد القذف، وثبت حد الزنا على المرأة، ووقع التفريق المؤبَّد بينهما بالفسخ أو بالطلاق على اختلاف الرأيين، ونفيُ الولد إن تعرض له فيه.

﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ أي: يُسقط عن المرأة حدَّ الزنا بعد ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ

هلال بن أميه ويبطل شهادته في المسلمين، فقال هلال: والله إني لارجو أن يجعل الله لي منها مخرجا، فقال هلال: يا رسول الله إني قد أرى ما قد اشتد عليك مما جئتك به، فوالله يعلم إني لصادق، فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه إذ نزل عليه الوحي، وكان إذا نزل عليه عرفوا ذلك في تربد جلده، فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي، فنزلت - والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم - الآيات كلها، فسرى عن رسول الله ﷺ فقال أبشر يا هلال، فقد جعل الله لك فرجا ومخرجا، فقال هلال: قد كنت أرجو ذاك من ربي، وذكر باقي الحديث أخبرنا محمد بن عبد الرحمن بن محمد الفقيه، قال: أخبرنا محمد بن محمد بن سنان المقرى قال: أخبرنا أحمد بن علي بن المثنى قال: أخبرنا أبو خيثمة قال: أخبرنا جرير عن الاعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: أنا ليلة الجمعة في المسجد إذ دخل رجل من الانصار فقال: لو أن رجلا وجد مع امرأته رجلا فإن تكلم جلدتموه، وإن قتل قتلتموه وإن سكت سكت على غيظ، والله لاسألن عنه رسول الله ﷺ فلما كان من الغد أتى رسول الله ﷺ فسأله فقال لو أن رجلا وجد مع امرأته رجلا تتكلم (فان تكلم) جلدتموه أو قتل قتلتموه، أو سكت سكت على غيظ فقال: اللهم افتح، وجعل يدعو، فنزلت آية اللعان - والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم - الآية. فابتلى به الرجل من بين الناس فجاء هو وامرأته إلى رسول الله ﷺ، فتلاعنا، فشهد الرجل أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، ثم لعن الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، فذهبت لتلتعن، فقال رسول الله ﷺ مه فلعنت، فلما أدبرت قال: لعلها أن تجئ به أسود جعدا، فجاءت به أسود جعدا رواه مسلم عن أبي خيثمة. «أسباب النزول» (211/1 - 212).

شَهَادَاتٍ﴾ مؤديات ﴿بِاللهِ﴾ متعلقات بقولها: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الزوج ﴿لَمِنَ الكَاذِبِينَ﴾ [النور:8] المفترين فيما رماني به وأنا بريئةٌ عنه، ﴿وَالْخَامِسَةَ﴾ أي: أكدت الأربعةَ بالخامسةِ أيضًا قائلة: ﴿أَنَّ غَضَبَ اللهِ﴾ وقهرَه وتبعيدَه عن سعة رحمته ﴿عَلَيْهَا إِن كَانَ﴾ زوجها ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور:9] في هذا الرمي الشنيع.

وبعدما أدتها على وجهها سقط الحد عنها، ووقع التفريق المؤبد، لقوله ﷺ: «المُتَلاعِنَان لَا يَجْتَمِعَان أَبَدًا»[1].

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ﴾ المطلعِ بجميع سرائر عباده ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المجترئون بالحلف الكاذب والشهادات الباطلة، وتحمُّل لعنة الله وغضبه ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: مرحمتُه وشفقتُه بالستر، والإخفاء عليكم لَفَضحكم، وأظهرَ شنعتكم ألبتة، ولكنه أمهلكم وستر عليكم رجاء أن تتوبوا عن هتك محارم الله، والخروج عن مقتضى حدوده ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المصلحَ لأحوالكم ﴿تَوَّابٌ﴾ لكم يوفقكم على التوبة ﴿حَكِيمٌ﴾ [النور:10] في جميع أفعاله، لا يعاجلكم بالعقوبة، كي تتنبهوا عن قبح صنيعكم، وترجعوا عن سوء فعالكم؛ لتفوزوا إلى ما جبلتم لأجله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النور: 11 – 18].

ثم أشار سبحانه إلى تطهير ذيل عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ عما رماها

(1) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (19/4) رقم 17371.

وافتراها أهل الزيغ والضلال جهلاً بحالها وعلوّ شأنها، وكمال عصمتِها وعِفّتها، فقال: ﴿إِنَّ﴾ المفسدين المسرفين ﴿الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ﴾[1] أي: بالكذب الصارف عن الحق

---

(1) قوله تعالى: (إن الذين جاءوا بالافك عصبة منكم) الآيات. روى الواحدي عن عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبيدالله بن عبد الله ابن عتبة، عن عائشة زوج النبي عليه الصلاة والسلام حين قال فيها أهل الافك ما قالوا، فبرأها الله تعالى منه، قال الزهري: وكلهم حدثني طائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض، وأتيت اقتصاصا ووعيت عن كل واحد الحديث الذي حدثني، وبعض حديثهم يصدق بعضا، ذكروا أن عائشة رضى الله عنها زوج النبي ﷺ قالت " كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، قالت عائشة رضى الله عنها فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ وذلك بعد ما نزلت آية الحجاب فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه مسيرنا حتى فرغ رسول الله ﷺ من غزوته وقفل ودنونا من المدينة أذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل ومشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع، فخرجت فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون، فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه، قالت عائشة وكانت النساء إذ ذاك خفافا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم إنما يأكلهن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعوا إلي فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي الذكواني قد عرس من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وقد كان يراني قبل أن يضرب علي الحجاب، استيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة وهلك من هلك في، وكان الذي تولى كبره منهم عبد الله بن أبي ابن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمتها شهرا والناس يفضون في قول أهل الافك، ولا أشعر بشئ من ذلك، ويريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: كيف تيكم، فذلك يحزنني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد مانقهت وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الاول في التنزه، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن عبد المطلب بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق رضى الله عنه وابنها مسطح بن أثاثة ابن عباد بن عبد المطلب، فأقبلت أنا وابنة أبي رهم قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئسما قلت أتسبين رجلا قد شهد بدرا ؟ قالت: أي

هنتاه أو لم تسمعي ما قال ؟ قلت: وماذا قال: ؟ فأخبرتني بقول أهل الافك، فازددت مرضا إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي ودخل علي رسول الله ﷺ ثم قال: كيف تيكم ؟ قلت تأذن لي أن آتي أبوي ؟ قالت: وأنا أريد حينئذ أن أتيقن الخبر من قبلهما فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئت أبوي فقلت: يا أماه ما يتحدث الناس ؟ قالت: يا بنية هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، قالت: فقلت سبحان الله، وقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، ودعا رسول الله ﷺ علي ابن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال: يا رسول الله هم أهلك وما نعلم إلا خيرا، وأما علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله تعالى عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: يا بريرة هل رأيت شيئا يريبك من عائشة ؟ قالت بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله، قالت: فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال وهو على المنبر: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي، فقام سعد بن معاذ الانصاري فقال: يا رسول الله أنا أعذرك منه، إن كان من الاوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قال: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن الحضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، إنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان من الاوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت علي امرأة من الانصار، فأذنت لها وجلست تبكي معي، قالت: فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني شئ، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: أما بعد يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه، قالت: قلما (فلما) قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لابي أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال، قال والله ما أدري ما أقول لرسول الله، فقلت لامي: أجيبي رسول الله، فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله، فقلت: وأنا جارية حديثة السن لاأقرأ كثيرا من القرآن: والله لقد عرفت أنكم سمعتم هذا وقد استقر في نفوسكم فصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني، والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا ما قال أبو يوسف - فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون - قالت: ثم تحولت

﴿عُصْبَةٌ﴾ أي: فرقةٌ وعصابةٌ معدودةٌ ﴿مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون المقذوفون مع أنهم ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ ولا تظنّوه أي: الإفكَ الذي جاءوا به ﴿شَرًّا لَّكُم﴾ ولحوقَ عارٍ عليكم ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: إفكُهم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وسببُ ثوابٍ عظيمٍ وأجر جزيلٍ، وظهور كرامةٍ، ونزول آياتٍ عظام في براءتكم وطهارتكم وتهويل شأنكم.

وصار ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم﴾ أي: من القاذفين المفتريين جزاء ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ والإفكِ الذي جاءوا به ظلمًا وزورًا ﴿وَ﴾ لا سيما الشخصَ ﴿ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ أي: معظم الآفكين، وهو الذي أخذ في إفشائه وإشاعته، وهو ابن أُبيّ ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:11] في الدنيا والآخرة؛ إذ هو مطرود بين المؤمنين، مشهورٌ بالنفاق، وله في الآخرة أشدُّ العذاب.

ثم وبّخ سبحانه على الآفكين وقرّعهم؛ حيث قال: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: الإفكَ أيها الآفكون لم تظنوا بالمقذوفين خيرًا كما ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَ﴾ لَمْ تقولوا كما ﴿قَالُوا﴾ أي: المؤمنون: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور:12] وكذبٌ عظيمٌ وفريةٌ بلا مريةٍ؛ إذ ساحة عصمتها وطهارة ذيلها ونجابة طينتها أجلُّ وأعلى من أن يُفترى عليها أمثال هذه المفتريات الباطلة.

واضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئي ببرأتي، ولكن والله ماكنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله تعالى في بأمر يتلى، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرئني الله تعالى بها، قالت: فو الله مارام رسول الله ﷺ منزله ولاخرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم، وأخذه ماكان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فلما سرى عن رسول الله ﷺ سرى عنه وهو يضحك، وكان أول كلمة تكلم بها أن قال: البشرى يا عائشة، أما والله لقد برأك الله، فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لاأقوم إليه ولا أحمد إلا الله سبحانه وتعالى هو الذي برأني، قالت: فأنزل الله سبحانه وتعالى - إن الذين جاءوا بالافك عصبة منكم - العشر الآيات، فلما أنزل الله تعالى هذه الآية في براءتي قال الصديق، وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره: والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله تعالى - ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى - إلى قوله - ألا تحبون أن يغفر الله لكم - فقال أبو بكر: والله إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كانت عليه وقال: لا أنزعها منه أبدا. رواه البخاري ومسلم كلاهما عن أبي الربيع الزهراني. «أسباب النزول» (1/214. 217).

عصمنا الله عما لا يرضى منه سبحانه ﴿لَوْلا جَاءُوا﴾ أي: الآفكون المسرفون وأتوا ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على إفكهم هذا ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ عدولاً لصدقوا فيما قالوا ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ الأربع العدول ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ الآفكون المفترون ﴿عِندَ اللهِ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿هُمُ الكَاذِبُونَ﴾ [النور:13] المقصورون على الكذب، يجازيهم سبحانه على مقتضى ما اقترفوا من الكذب والبهتان، سيما مع أهل البيت، أهل العصمة والكرامة.

﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الباهتون، المفترون بتوفيقكم على الإنابة والرجوع عن هذه الفرية العظيمة ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ الشاملة لكم ﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ وخضتم في إشاعته وإذاعته ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:14] عاجلاً وآجلاً.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ مع نهاية كراهته وسماجته ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ سائلاً بعضكم بعضًا متلقيًا على قبوله وسماعه ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ لا ظنٌ ولا يقينٌ بل جهلٌ وتخمينٌ، ﴿وَ﴾ مع عظم هذا الجرم عند الله ﴿تَحْسَبُونَهُ﴾ أيها الحمقى المسرفون ﴿هَيِّنًا﴾ سهلاً يسيرًا، لا يترتب عليه شيءٌ من العذاب والعقاب ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ﴾ أي: رمي تلك البريئة العفيفة ﴿عِندَ اللهِ﴾ المطلع لعفتها وعصمتها ﴿عَظِيمٌ﴾ [النور:15][1] فظيعٌ في غاية العظمة والفظاعة، مستجلبٌ لأنواع العذاب وأشد النكال، إذ الافتراء بآحاد الناس يوجب أشدَّ العذاب وأسوأ العقاب، فكيف بأفضلهم وأشرفهم!.

﴿وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أولاً أيها الآفكون المفترون ﴿قُلْتُم مَّا يَكُونُ﴾ أي: ما

(1) قال الشيخ روزبهان يا ليت لو يعلم المدعي الجاهل أن الكل مع شرائف أحوالهم، وفصاحة لسانهم في التوحيد، واطلاع قلوبهم على مراتب الحقيقة مندرجون تحت هذه الآية التي أخبرت عن غيرته بوصف جلاله وعزة عظمته بأنه ممتنعٌ بذاته عن مقالة كل واصف صفته، وكل عارف بقلبه نعته؛ إذ نعته ووصفه لا يدخلان تحت عبارة أهل الحدثان. قال الإمام الحسين في بعض مناجاته: إلهي أنزّهك عما يقول فيك أولياؤك وأعداؤك جميعًا. وقال عبد الله بن المبارك: ما أرى هذه الآية نزلت إلا فيمن اعتاد الدعاوى العظيمة، ويجترئ على ربه في الإخبار عن أحوال الأنبياء والأكابر، ولا يمنعه من ذلك هيبة ربه ولا حياؤه. وقال الترمذي: مَنْ تهاون بما يجري عليه من الدعاوي؛ فقد صغّر ما عظّم الله إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾.

يصح ويجوز ﴿لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ الفحش الباطل الكذب الصريح العاطل ﴿سُبْحَانَكَ﴾ نقدسك وننزهك من أن تمكِّن أحدًا يفعل، ويقول في حق حليلة حبيبك ﷺ أمثال هذا الافتراء؛ إذ ﴿هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:16] تبهتُ، وتحيرُ منه العقول، وتضطرب الأسماع، وتتقلقل القلوب.

﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ﴾ المصلح لمفاسدكم، ويبالغ في وعظكم وتذكيركم كراهة ﴿أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ ما دمتم حيًا ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور:17] بالله مصدقين لنبيه؛ إذ أمثال هذه الخرافات بالنسبة إلى أهل بيت النبوة من أمارات الكفر والتكذيب، وعلامات سوء الأدب مع الله ورسوله.

﴿وَ﴾ بعد صدور أمثال هذه الخرافات من أهل السرف والإفساد ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ﴾ المدبر ﴿لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على الصفح والإعراض عن أمثال هذه الافتراءات الهاتكة لأستار محارم الله، سيما مع أكرم عترة حبيبه ﴿وَاللَّهُ﴾ المصلح لأحوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائركم وخواطركم ﴿حَكِيمٌ﴾ [النور:18] في إزالة ما يضركم ويغويكم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (20) ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (21) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (22)﴾ [النور: 19 – 22].

ثم قال سبحانه تذكيرًا لعموم عباده: ﴿إِنَّ﴾ المفسدين المسرفين ﴿الَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ من خبث بواطنهم ﴿أَن تَشِيعَ﴾ تظهر وتنتشر ﴿الْفَاحِشَةُ﴾ الخصلة المذمومة عقلاً وشرعًا ﴿فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بين عموم المؤمنين ﴿لَهُمْ﴾ جزاءً لإشاعتهم وإذاعتهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلمٌ مفزعٌ ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بالجلد ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بالنار المحرق الملتهب ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لجميع ما جرى في الغيب والشهادة ﴿يَعْلَمُ﴾ قبحَ ما في الإشاعة

والإذاعة ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور:19] قبحها لذلك تحبون.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بفتح باب التوبة، والرجوع عن المعصية بالندامة الخالصة لفضحكم، وعذبكم بقبح صنعتكم وشنعة خصلتكم ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المراقب لجميع ما صدر عنكم ﴿رَءُوفٌ﴾ لكم يحفظكم عما يضركم ﴿رَحِيمٌ﴾ [النور:20] لكم يرحمكم، بعدما وفقتم على التوبة والندامة.

ولما كان أمثال هذه المعاصي والآثام بمتابعة الشيطان المضلِّ المغوي، نادى سبحانه عموم عباده المؤمنين، ونهاهم عن متابعته والاقتداء به والاقتفاء بأثره، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الصانع وصفاته، وبالنبوة والرسالة، والتشريع العام المفيد لاعتدال الأخلاق والأطوار بين عموم العباد، مقتضى إيمانكم مخالفة النفس والهوى اللتين هما من جنود الشيطان المضل المغوي عن طريق الحق ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ولا تقتفوا أثره في إشاعة الفاحشة واستحباب المعصية.

﴿وَمَن يَتَّبِعْ﴾ منكم أيها المؤمنون ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ المضل المغوي فقد ضلَّ وغوى ﴿فَإِنَّهُ﴾ أي: الشيطان ﴿يَأْمُرُ﴾ من يتابعه ويقتدي به ﴿بِالْفَحْشَاءِ﴾ المستقبح عقلاً وشرعًا ﴿وَالْمُنكَرِ﴾ المردود مروءة ونقلاً ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ المتكفل لإصلاح حالكم عليكم ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ الواسعة الشاملةُ لعموم عباده ﴿مَا زَكَى﴾ وطهر وخلص ﴿مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ متابعة الشيطان ﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم أحياء؛ إذ متابعته مطبوعةٌ لكم، مستحسنةٌ عندكم، مقبولةٌ لأنفسكم ﴿وَلَكِنَّ اللهَ﴾ المدبرَ لأمور عباده ﴿يُزَكِّي﴾ أي: يخلص ويطهر من غوائل الشيطان ووساوسه ﴿مَن يَشَاءُ﴾ رعايةً لحكمته، وضبطًا لمصلحته التي جَبل عباده عليها ﴿وَاللهُ﴾ المطّلعُ لما ظهرَ وبطنَ ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [النور:21] بقصدهم ونياتهم.

﴿وَ﴾ بعدما جاء من القاذفين الآفكين ما جاء، انصرف عنهم المؤمنون وأعرضوا عن إنفاقهم ورعايتهم، وحلفوا ألّا ينفقوا عليهم أصلاً، مع أن بعضهم في غاية الفاقة، ردَّ الله على المؤمنين، وحثهم على الإنفاق، وأمرهم بالإحسان بدل الإساءة، وقال: ﴿لَا يَأْتَلِ﴾ أي: لا يحلف ولا يقصر ﴿أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ في الدين ﴿وَ﴾ أولو ﴿السَّعَةِ﴾ في الرزق ﴿أَن يُؤْتُوا﴾ أي: من ألّا يؤتوا أو على ألّا يؤتوا ﴿أُولِي الْقُرْبَى﴾ أي: الفقراء الذين يتمون إليكم أيها المؤمنون بالقرابة ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ الفاقدين لقوت يومهم، ولا سيما الفقراء ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ الباذلين أرواحَهم في ترويج دينه؛ بسبب

أنهم خاضوا في معصية الإفك والافتراء، وجاءوا ببهتانٍ عظيمٍ، وأحبوا أن يشيعوه، ويتقولوا به ظلمًا وزورًا.

﴿وَ﴾ بعد نزول آيات البراءة، والتنزيه في شأن العفيفة ـ رضي الله تعالى عنها ـ ﴿لْيَعْفُوا﴾ أي: جملة المؤمنين عن ذنوب القاذفين بعدما تابوا وندموا، وقَبِل الله سبحانه منه توبتهم ﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾ وليعرضوا عن جريمتهم، ويصافحوا معهم، وليعطوا لهم ما أعطوهم قبل ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ أيها المقذوفون المطهرون البريئون ﴿أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ زلتكم وذنوبكم بسبب عفوكم عنهم، وصفحكم عما جاءوا به افتراءً ﴿وَاللَّهُ﴾ المنتقم المجازي لعباده ﴿غَفُورٌ﴾ لهم يغفر زلتهم وذنوبهم بسبب عفوهم جرائم إخوانهم ﴿رَحِيمٌ﴾ [النور:22] يرحمهم تفضلاً عليهم وامتنانًا.

رُوي أنه ﷺ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [النور: 23 – 27].

قرأها على أبي بكر ﷺ، فقال: بلى أحب، وأعاد إلى مسطح ـ هو أحد القاذفين الآفكين ـ وهو ابن خالته فقيرٌ ليس له شيء ينفقه على نفسه؛ لأنه ينفق عليه دائمًا.

ثم قال سبحانه تذكيرًا لعموم عباده، ونهيًا لهم عن الرمي بالزنا مطلقًا: ﴿إِنَّ﴾ المسرفين ﴿الَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ بالزنا ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ المتعففات، والمستحفظات لحدود الله ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ البريئات المنزهات عما رُموا به أولئك الغفلة الجهلة ظلمًا وزورًا ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ بالله، وبما جاء من عنده من الحدود والأحكام الجارية على ألسنة رسله، وبيوم الجزاء المعدّ للكشف والتفضيح ﴿لُعِنُوا﴾ وطُردوا عن روح الله وسعة رحمته؛ لقصدهم عرض العفائف، وهتك أستارهن، وطعنهم فيهن افتراءً ومراءً ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بإجراء الحد وأنواع الطرد والشتم، ورد شهادتهم مدة حياتهم ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بأنواع

العذاب والنكال.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَهُمْ﴾ بسبب قبح صنيعهم وسوء فعالهم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:23] لا عذاب أعظم منه؛ لعظم جرمهم وعصيانهم.

اذكر لهم يا أكمل الرسل توبيخًا لهم، وتذكيرًا لمن اعتبر منهم من المؤمنين ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ بإلهام الله وإعلامه ﴿أَلْسِنَتُهُمْ﴾ وتقر بما صدر عنها من الكذب والافتراء، ورمي المحصنات، وقذف العفائف عمدًا بلا علم لهم ولا شعور بحالهن ﴿وَأَيْدِيهِمْ﴾ لما اقترفوا من الأخذ والإعطاء لا على الوجه المشروع ﴿وَأَرْجُلُهُم﴾ بالسعي والتردد إلى ما لا يرضى منه سبحانه ولا رسوله ولا المؤمنون، وبالجملة: يقر كل من أعضائهم وجوارحهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور:24] ويكتسبون من المعاصي والآثام.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ﴾ المجازي لأعمالهم ﴿دِينَهُمُ﴾ وجزائهم ﴿الْحَقَّ﴾ أي: ما يستحقون من الجزاء بلا زيادة ونقصان عدلاً منه سبحانه ﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ يقينًا ﴿أَنَّ اللهَ﴾ القادر على الإنعام والانتقام ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ المقصور على التحقق والثبوت بالقسط والعدل ﴿الْمُبِينُ﴾ [النور:25] الظاهر ألوهيته وربوبيته على الوجه الأقسط الأعدل الأقوم، بلا ميلٍ منه وانحرافٍ عن جادة الاستقامة والعدل الحقيقي.

ومن جملة عدالته: رعاية المناسبات بين المظاهر والمربوبات، كما بينها سبحانه بقوله: ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾ من النساء المطعونات بأنواع الرذائل، المنحرفات عن جادة السلامة والطهارة ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ كذلك من الرجال؛ يعني: لا يتزوجهن غير الخبيثين بحكم المناسبة ﴿وَ﴾ كذا ﴿الْخَبِيثُونَ﴾ من الرجال ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾ من النساء، كلُ لنظيرتها بحكم المصلحة الإلهية.

﴿وَ﴾ كذا ﴿الطَّيِّبَاتُ﴾ الطاهرات العفائف المحصنات ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ أيضًا كذلك ﴿وَ﴾ كذا ﴿الطَّيِّبُونَ﴾ المستقيمون على جادة التوحيد والعدالة ﴿لِلطَّيِّبَاتِ﴾ أيضًا كذلك؛ إذ كلُ يميل بالطبع إلى شاكلته بالميل المعنوي الموضوع بالوضع الإلهي، ومتى ثبت هذا الحكم، وتبين هذه المناسبات بتبيين الله ﴿أُوْلَئِكَ﴾ العفائف المطهرون الطيبون ﴿مُبَرَّءُونَ﴾ منزهون ﴿مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أولئك الرماة المفترون والطغاة الخبيثون المنحرفون عن طريق الحق، الناكبون عن صراطٍ مستقيم، ولبراءتهم ونزاهتهم ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وعفوٌ من الله المطّلع لبراءتهم الشاهدِ عليها ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور:26] وهو

الرزق الصوري والمعنوي، الذي يتلذذون به الجنة عند كشف الغطاء ورفع الحجب.

اللهم ارزقنا بلطفك مِّن الرزق الكريم، واجعلنا بجودك من ورثة جنة النعيم.

ثم لما كان أمثال هذه الهذيانات الباطلة، والمفتريات العاطلة من نتائج الخلطة والاستئناس مع أصحاب الغفلة، وكشف الحجب، والأستار الواقعة بين ذوي القدور والاعتبار وأولي الخطر الكبار إلى من هو من السفلة الساقطين المنحطين من درجة أرباب الاستبصار.

أشار سبحانه إلى أن الاختلاط والاستئناس بين المؤمنين، لا بدَّ وأن يكون مسبوقًا بالاستئذان والاسترخاص، حتى لا يؤدي إلى أمثال هذه الخرافات، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم محافظة المحبة والإخلاص بينكم، ومن جملتها: إنها ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بيتًا من بيوت إخوانكم بغتةً بلا استئذانٍ من أهلها، بل لكم أن تصبروا ﴿حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ وتستأذنوا، وتطلبوا رخصة الدخول.

﴿وَ﴾ بعدما أذنتم ورخصتم ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ بأن تقولوا: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ! أَدْخُلُ أَمْ لَا؟ ثلاث مرات**» هكذا رُوي عن النبي ﷺ.

فإن أذنتم بالدخول، فادخلوه وإلا فارجعوا ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: الاستئذان والاستئناس ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من المبادرة إلى الدخول بغتةً، وإنما أنزل عليكم هذه الكريمة المتعلقة بالأخلاق ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور:27] وتتعظون بها، وتحفظون حدود المصاحبة والمؤاخاة بينكم، ولا تجاوزون عن مقتضى المروءة والعدالة.

﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النور: 28 – 30].

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا﴾ أي: في البيوت ﴿أَحَدًا﴾ تستأذنون منه ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ لئلا تُتهموا بأنواع التهمة بل اصبروا ﴿حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي: لا تدخلوا حتى تجدوا من يأذن لكم ﴿وَ﴾ بعدما وجدتم ﴿إِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا﴾ فالوقت لا يسع بالدخول ﴿فَارْجِعُوا﴾ على الفور بلا تفحص، وتفتيش عن أسبابه على وجه الإلحاح والاقتراح

كما يفعله جهلة الناس.

﴿هُوَ﴾ أي: الرجوع بلا تفتيش ﴿أَزْكَى لَكُمْ﴾ وأطهر لنفوسكم من الإلحاح ﴿وَاللَّهُ﴾ المدبر لمصالحكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وتأملون في نفوسكم ﴿عَلِيمٌ﴾ [النور:28] يجازيكم على مقتضى علمه وخبرته.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: ضيق ومنع ﴿أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ مع أن ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ تستأجرونها أو تستعيرونها للادخار والاستخزان، ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿يَعْلَمُ﴾ منكم ﴿مَا تُبْدُونَ﴾ وتظهرون ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [النور:29] وتخفون، يجازيكم على مقتضى علمه.

ثم أمر سبحانه لحبيبه ﷺ بتذكير عباده، وتهذيب أخلاقهم سيما في حفظ المحارم والحدود فقال: ﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين بحدود الله، الممتثلين بأوامره ﴿يَغُضُّوا﴾ وينقصوا ﴿مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ مطلقًا دائمًا حتى لا يقع نظرهم بغتةً إلى المحرمات، بل لهم أن يديموا النظر إلى الطريق الذي مشوا عليها، حتى يَسلَموا من شرور أمارتهم وصَولة جنود الشهوات عليهم.

﴿وَ﴾ قل لهم أيضًا: ﴿يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عن أمارات الزنا، وعلامات السفاح ومقدماته، ويتقوا عن مواضع التهم ومظانِّ الرمي والقذف مطلقًا ﴿ذَٰلِكَ﴾ الغضُّ والحفظُ ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ وأطهرُ لنفوسهم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الرقيبَ على جميع حالاتهم ﴿خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:30] من التفكر والترامز، وإجالة النظر، وتحريك سائر الأعضاء نحو ما يشتهون من المحرمات.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: 31]

﴿وَقُل﴾ أيضًا يا أكمل الرسل ﴿لِّلْمُؤْمِنَاتِ﴾ المقيمات لحدود الله، المتحفظات لمحارمه: ﴿يَغْضُضْنَ﴾ وينقصن ﴿مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ ويقصرن نظرهن إلى أزواجهن، ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ من الميل إلى المحارم، ولهن ألَّا يعرضن نفوسهن إلى غير أزواجهن، ﴿وَلاَ يُبْدِينَ﴾ ويظهرن ﴿زِينَتَهُنَّ﴾ لغيرهن ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[1] ما ظهر من الثياب التي يلبستونهن، ﴿وَ﴾ من غاية تسترهم وتحفظهم ﴿لْيَضْرِبْنَ﴾ ويسترن ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ ومقانعهن ﴿عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ أي: نحورهن وصدورهن مبالغةً في التستر والتحفظ.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي: التي يتزيَّن بها لازدياد الحسن ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي: لأزواجهن الزينةُ إنما هي لأجلهم ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ﴾ إذ هم الأولياء لهن ﴿أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ لحفظهم محارم أبنائهم ﴿أَوْ أَبْنَائِهِنَّ﴾ لأنهم أمناء على أمهاتهم ﴿أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ لأنهم حافظون حمية آبائهم ومحارمهم ﴿أَوْ إِخْوَانِهِنَّ﴾ لأنهم أحفظُ عليهن منهن؛ لخوف لحوق العار حميةً وغيرةً ﴿أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ﴾ إذ هم كآبائهم في محافظتهن ﴿أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ لأن نسبتهم إليهن كنسبتهم إلى أمهاتهم ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ أي: المسلمات مطلقًا؛ إذ لا يتصور منهن الضرر سوى السحاقة، والضرر والإيمان يمنع عنهما ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ إذ الاحتراز عنهم حرجٌ؛ لأنهم من أهل الخدمة ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ﴾ أي: الحاجة والشهوة ﴿مِنَ الرِّجَالِ﴾ الهرم الذين لا يبقى منهم الشهوة ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ لعدم بلوغهم وقت الحلم وثوران الشهوة.

﴿وَ﴾ أيضًا قل لهن: ﴿لَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ على عادة الجهال من التبختر والرقص ﴿لِيُعْلَمَ﴾ ويظهر ﴿مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَ﴾ بالجملة: ﴿تُوبُوا﴾ رجالاً ونساءً ﴿إِلَى اللهِ﴾ المبدئِ المبدعِ لكم من كتم العدم ﴿جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ بتوحيد الله، المصدقون

---

(1) فيه استشهاد على أن لا يجوز للعارفين أن يبدوا زينة حقائق معرفتهم، وما يكشف الله لهم من عالم الملكوت، وأنوار الذات والصفات، ولا المواجيد إلا ما ظهر منهم بالغلبات من الشهقات والزعقات والاصفرار والاحمرار، وما يجري على ألسنتهم بغير اختيارهم من كلمات الشطح والإشارات المشكلة، وهذه الأحوال أشرف زينة للعارفين. قال بعضهم: أزين ما تزين به العبد الطاعة، فإذا أظهرها فقد ذهبت زينتها. وقال بعضهم: الحكمة في هذه الآية لأهل المعرفة أنه من أظهر شيئًا من أفعاله إلا ما ظهر عليه من غير قصد له فيه، فقد سقط به عن رؤية الحق؛ لأن ما وقع عليه رؤية الخلق ساقط عن رؤية الحق. [العرائس].

لكتبه ورسله ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:31] وتفوزون بالفلاح والنجاح عند الملك التواب الفتاح.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤)﴾ [النور: 32 – 34].

ثم لما أشار سبحانه إلى محافظة الحدود والآداب والألفة والمصاحبة بين المؤمنين، ونهاهم عن أمارات السفاح ومقدمات الزنا مطلقًا؛ لئلا يجهل النسب وتختلط النُطف، وقدَّمها اهتمامًا بشأنها أراد أن يشير إلى النكاح الصوري المنبئ عن النكاح المعنوي، فقال: ﴿وَأَنكِحُوا﴾ أيها الأولياء السادات، المولون لأمور من في حفظكم وحضانتكم ﴿الأَيَامَى مِنكُمْ﴾ وهو جمعُ: أيم، هو العزب سواءً كان ذكرًا أم أنثى، بكرًا أو ثيبًا، ﴿وَ﴾ أنكحوا أيضًا ﴿الصَّالِحِينَ﴾ للنكاح والتزويج ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ فعليكم أيها الولاة تزويج الأيامى، ولا تبالوا بفقرهم وفاقتهم ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ عند النكاح ﴿يُغْنِهِمُ اللهُ﴾ المصلح لأحوالهم ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وسعة جوده ورحمته لعباده بعد النكاح، ﴿وَاللهُ﴾ المدبرُ لأمور عباده، المتكفلُ لأرزاقهم ﴿وَاسِعٌ﴾ يوسع عليهم من رزقه ﴿عَلِيمٌ﴾ [النور:32] برثاثة حالهم، مغنٍ علمُه بهم عن سؤالهم.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ أي: ليجتهد في العفة، وتسكين الشهوة للفقراء ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: أسبابه وصداقه، وليصبروا بمشاق العزوبة ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ﴾ المصلحُ لأحوالهم ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وسعة جوده، فيجدون ما يتزوجون به.

ثم أشار سبحانه إلى عتق الموالي، وتخليصهم من ربقة الرق وعروة العبودية طلبًا لمرضاة الله وعتقًا من عذابه، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾ أي: العبيد الذي يطلبون ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: الكتابة المتضمنة لعتقهم، وخلاصهم عن الرق بعدما أدوا المبلغ المعهود الذي يكاتب عليها، وهم ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أيها الموالي سواء كانوا عبيدًا

أو إماءً، قنًا أو مدبرًا أو مستولدة، يطلبون منكم أن تعتقوهم على مالٍ تكتسبون لهم؛ ليؤدوا إليكم منجمًا، ويعدما أدوا ما تكتبون لهم صاروا أحرارًا معتقين ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ واعتقوهم على جُعلٍ ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: علمتم وتفرستم فيهم بعدما فككتم رقابهم يكونوا صلحاء أمناء مؤمنين لا يُرجى منهم الشر والفساد ﴿وَ﴾ بعد عقدهم الكتابة ﴿آتُوهُم﴾ أيها المسلمون ﴿مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ من فضله تفكيكًا لرقابهم عن مذلة الرق وهوان العبودية.

ثم أشار سبحانه إلى حسن المعاشرة مع المماليك، ورعاية غبطتهم، ومحافظة الحدود بينهم؛ بحيث لا يُكرهونهم إلى ما لا يصلح لهم شرعًا وعادةً بل عقلاً ومروءةً، سيما إذا استحصنوا وتحفظوا، فقال على سبيل المبالغة في النهي: ﴿وَلاَ تُكْرِهُوا﴾ أيها السادة المسلمون ﴿فَتَيَاتِكُمْ﴾ أي: شوابّ جواريكم ﴿عَلَى الْبِغَاءِ﴾[1] أي: الزنا مطلقًا سيما ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ وتحفظًا عن البغي مع قلة عقلهن ورشدهن، فأنتم أحق بحفظهن وحصنهن مما لا يرتضيه العقل والشرع، ولا تنصرفوا أيها الولاة عن مقتضى العقل والشرع ﴿لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وتطلبوا متاعها الفاني وحطامها الدني الزائل ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾ سيما بعد نزول الزاجر ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المنتقمَ لعصاة عباده، سيما الظالم الخارج عن حدوده ﴿مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ﴾ أي: من بعد إكراههم لهن ﴿غَفُورٌ﴾ يغفر لهن ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النور:33] يرحمن عليهن إن كنّ مخلصات في التحصن، ويعاقب على المكرِهين أشد العقاب ويعذبهم أسوأ العذاب.

﴿وَ﴾ كيفَ لا يعاقبكم الله أيها المسرفون المصرون على الفسوق والعصيان ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا﴾ من مقام جودنا وفضلنا ﴿إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ واضحاتٍ فيها ما هو

---

(1) قوله تعالى: (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) الآية. روى الواحدي عن أبي سفيان عن جابر قال: كان عبد الله ابن أبي يقول لجارية له: اذهبي فابغينا شيئا، فأنزل الله عز وجل - ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء - إلى قوله - غفور رحيم - رواه مسلم عن أبي كريب، عن أبي معاوية. أخبرنا الحسن بن محمد الفارسي قال: أخبرنا محمد بن عبد الله بن حمدون قال: أخبرنا أحمد بن الحسن الحافظ قال: أخبرنا محمد بن يحيى قال: أخبرنا إسماعيل بن أبي أويس قال: أخبرنا مالك، عن ابن شهاب، عن عمر بن ثابت أن هذه الآية - ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء - نزلت في معاذة جارية عبد الله ابن أبي ابن سلول، وعن عمر بن ثابت قال: كانت معاذة جارية لعبد الله بن أبي وكانت مسلمة، وكان يستكرها على البغاء، فأنزل الله تعالى - ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء - إلى آخر الآية. أسباب النزول - (1/ 219، 221).

صلاحكم ونجاتكم، ﴿وَ﴾ أوضحناها لكم بأن أوردنا فيها ﴿مَثَلاً مِّنَ﴾ أحوال الظلمة ﴿الَّذِينَ خَلَوْا﴾ ومضوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ لتعتبروا مما جرى عليهم من سوء صنيعهم ﴿وَ﴾ ليكون قصصهم ﴿مَوْعِظَةً﴾ وتذكيرًا ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور:34] منكم المحترزين من بطشنا وانتقامنا، ومع ذلك لم تعتبروا ولم تنزجروا، فتستحقوا أشد العذاب وأسوأ العقاب مثلهم.

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور: 35 – 40].

وكيف لا تنزجرون عن قهر الله أيها الغافلون، ولا تخافون عن بطشه أيها الضالون، أما تستحيون منه سبحانه مع حضوره وشهوده في جميع الأماكن، وظهور نوره في عموم الآفاق والأنفس غيبًا وشهادة، ظاهرًا وباطنًا، أزلاً وأبدًا، أولاً وآخرًا، صورةً ومعنىً.

وكيف تتركون حدوده، وتخرجون عن مقتضى أوامره ونواهيه الموردة في كتبه المنزلة على رسله أيها الجاهلون المسرفون؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ المتجلي بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ﴿نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مظهرهما وموجدهما، وموجدُ ما ظهر

بينهما وفيهما وعليهما من كتم العدم، بلا سبق مادةٍ ومدةٍ بامتداد أظلال أسمائه وآثار صفاته عليهما ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أي: ظهور أنوار وجوده من هياكل الهويات وشباك العكوس والتعينات ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ وهي كوةٌ تُوضع فيه القناديل المسرجة، وهي مثال الأشكال والمظاهر والتعينات المنعكسة من أشعة الأسماء والصفات الإلهية المتشعشعة المتجلية بالتجليات الحبية على مقتضى الذات ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وهي مثال نور الوجود الإلهي، المضيء بنفسه وذاته، ومن كمال شروقه وبروقه ولمعانه تخطف الأبصار وتكمل المدارك والأنظار، لذلك احتجب ﴿الْمِصْبَاحُ﴾ المذكور أولاً ﴿فِي زُجَاجَةٍ﴾ صافيةٍ عن كدر التعينات ورين التعلقات، وهي مثال الأسماء والصفات المنبسطة أظلالها على صفائح الأكوان.

ومن كمال اللطافة والصفاء، هذه ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ في غاية الإضاءة والإنارة، يتلألأ ويتشعشع بصفاته الذاتية ولطافته الجبلية؛ لأنه ﴿يُوقَدُ﴾ ويسرج بدهن إلهي متخذ ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ كثيرة الخير والبركة لمن استظل تحتها، وهي شجرة الوجود الممتدة أظلالها على صفائح عموم ما ظهر وبطن من المظاهر والموجودات الغير المحصورة ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ كثيرة النفع والخير؛ إذ الوجود خيرٌ محض ونفعٌ صرفٌ لا شرَّ فيه ولا ضررَ أصلاً ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: معتدلةٌ في نفسها، خارجةٌ عن الجهات كلِّها غيرُ محاطةٍ بها.

ومن كمال صفائها ولطافتها ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ بإضاءتها الذاتية، وإشراقها العينية ﴿يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ هي التجلي الحبي الشوقي، والمحبة الخالصة والعشق الإلهي.

وبالجملة: نور الوجود الإلهي ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ لا يدركه، ولا يتميز، ولا يطلع عليه أحدٌ من مظاهره ومصنوعاته، بلا توفيقٍ منه سبحانه وجذبٍ من جانبه، بل ﴿يَهْدِي اللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى صفاء توحيده ﴿لِنُورِهِ﴾ أي: ضياءِ وجودِه وسعة رحمته وَجُوده ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده من جذبه الحق نحو جنابه، ووفَّقه الوصول إلى فناء بابه.

﴿وَ﴾ للتنبيه إلى هذا المقام والإشارة إلى هذا المرام، و﴿يَضْرِبُ اللَّهُ﴾ المطلع لاستعدادات عباده ﴿الْأَمْثَالَ﴾ المنبهة والأشباه المثيرة ﴿لِلنَّاسِ﴾ المجبولين على فطرة التوحيد لهم؛ لعلهم يتفطنون على ما جبلوا لأجله ويتنبهوا على مبدئهم ومَعادهم ﴿وَاللَّهُ﴾ المحيط بالآفاق والأنفس إحاطة حضورٍ وشهودٍ ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما جرى في

مملكة عموم المظاهر والمصنوعات ﴿عَلِيمٌ﴾ [النور:35] لا يغيب عن علمه شيء.

ولهذا التفطن والتذكر يتوجه المخلصون المنجذبون نحو الحق ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ معدةٍ للتوجه مع أنه ﴿أَذِنَ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ بناؤها وتُعظَّم غاية التعظيم، ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا﴾ أي: في تلك البيوت والمساجد ﴿اسْمُهُ﴾ الذي هو كلمة توحيده وتقدسيه، ولهذا ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ أي: لله طلبًا لمرضاته لا لغرضٍ دنيويٍ أو أخرويٍ ﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك البيوت المذكورة دائمًا ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور:36] أي: في جميع آناء الأيام والليالي.

﴿رِجَالٌ﴾ كمُل مخلصون منجذبون نحو الحق، مشمرون ذيل هممهم لسلوك طريق الفناء، منقطعون عن الدنيا وما فيها؛ بحيث ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ وتشغلهم ﴿تِجَارَةٌ﴾ وأرباح متعلقة بالأمور الدنيوية أو الأخروية ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ أيضًا كذلك ﴿عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ والتوجهِ نحو جنابه، والعكوفِ على بابه ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ ودوام الميل والمناجاة معه ﴿وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ أي: إنفاقُ ما في أيديهم خالصًا لطلب المرضاة، ومع ذلك ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ أي: عذابَ يوم القيامة، وما لحق فيها من النكال؛ إذ من شدة هولها ﴿تَتَقَلَّبُ﴾ أي: تتلقلق وتضطرب ﴿فِيهِ الْقُلُوبُ﴾ تدهش فيه ﴿وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور:37].

كل ذلك ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ المجازي لما صدر عنهم ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ بأحسن الجزاء ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ امتنانًا عليهم ﴿وَاللَّهُ﴾ المتفضل لخواص عباده ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ منهم من الرزق المعنوي الحقيقي ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور:38] أي: بلا مقابلةِ عملٍ منهم، ومعاوضة إحسانٍ من جانبهم، بل من محض الفضل والجود.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ستروا الحق، وأنكروا عليه، وأظهروا الباطل ظلمًا وزورًا، وروجوه عنادًا ومكابرةً لذلك صارت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ التي خيلوها صالحةً مستجلبةً لأنواع النفع في يوم الجزاء على عكس أعمال المؤمنين ﴿كَسَرَابٍ﴾ أي: كمثلِ سرابٍ يلمع ويبرق ﴿بِقِيعَةٍ﴾ أي: باديةٍ وصحراءٍ ﴿يَحْسَبُهُ﴾ ويظنه ﴿الظَّمْآنُ﴾ من بعيدٍ ﴿مَاءً﴾ مُسكنًا للعطش، مبرِّدًا للأكباد.

فلما رآه سارع إليه، وسعى نحوه سريعًا ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ﴾ بعد تعبٍ كثيرٍ وعناءٍ مفرطٍ مؤملاً الوصول إلى الماء ﴿لَمْ يَجِدْهُ﴾ ماءً بل لم يجد ﴿شَيْئًا﴾ آخرَ متأصلاً في الوجود سوى العكوس التي تتراءى كالماء في البريق واللمعان من تقلب الحدقة، وتشتت البال، واضطراب الحواس باستيلاء العطش المفرط وحرارة الأكباد، ﴿وَ﴾

بعدما آيس من نفع أعماله ﴿وَجَدَ اللَّهَ﴾ الرقيبَ عليه في جميع أحواله، محاسبًا إياه عما صدر عنه ﴿عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ على الوجه الأقسط الأعدل بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلعُ على جميع ما جرى على عباده في جميع شئونهم وتطوراتهم ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور:39] يحاسبهم، ويجازيهم على مقتضى علمه وخبرته، بلا فوت شيءٍ مما صدر عنهم عدلاً منه سبحانه.

﴿أَوْ﴾ مثل أعمال الكفرة في عدم النفع والخير ﴿كَظُلُمَاتٍ﴾ أي: كمثل أصحاب ظلمات الليل الواقعة لهم ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ أي: عميقٍ غائرٍ منسوبٍ إلى اللجّ، وهو معظم الماء ﴿يَغْشَاهُ﴾ أي: يغطي البحر ويعلو عليه ﴿مَوْجٌ﴾ هائلٌ ﴿مِّن فَوْقِهِ﴾ أي: فوق الموج الأول ﴿مَوْجٌ﴾ آخرُ أهولُ منه هكذا؛ أي: أمواجٌ متراكمةٌ مترادفةٌ بعضها فوق بعض على التوالي والتتالي مع أنه ﴿مِّن فَوْقِهِ﴾ أي: فوق الموج المظلم ﴿سَحَابٌ﴾ كثيفٌ أظلمُ منه.

وبالجملة: تلك الأمواج والسحب ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ متراكمة مترادفة ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ بحيث ﴿إِذَا أَخْرَجَ﴾ من وقع فيها ﴿يَدَهُ﴾ حذاء بصره اختبارًا لنظره ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ أي: لم يقرب أن يراها بالقوة فكيف بالفعل؟! هكذا أعمال الكفرة المتوغلين في بحر الغفلة والضلال، المغشّاة بالأمواج المتراكمة من الظلم والطغيان والغيّ والعدوان، من فوقه السحب الكثيفة والحجب الغليظة من الجهل بالله، والتعامي عن مطالعة آياته الدالة على توحيده واتصافه بالأوصاف الذاتية، وملاحظة آثاره البديعة وصنائعه العجيبة الغريبة.

وهم من غاية انهماكهم في ظلمات غفلاتهم وجهالاتهم، وكمال غيّهم وضلالهم: إذا أمعنوا نظرهم إلى مشاهدة ما في نفوسهم من غرائب صنع الله لم يقربوا أن يكونوا مترصدين للوقوف عليها، فكيف الشهود والاطلاع بها؟! ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى زلال توحيده ﴿لَهُ نُورًا﴾ من جذبةٍ وتوفيقٍ يهدي به التائهين إلى مقصد توحيده ﴿فَمَا لَهُ﴾ من نفسه وبمجرد كسبه وسعيه ﴿مِن نُّورٍ﴾ [النور: 40] يرشده إليه سبحانه، ويوصله إلى فضاء توحيده.

هب لنا منك نورًا نهتدي به إلى ما جُبلنا لأجله بفضلك وجودك يا ذا الطول العظيم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ

وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ [النور: 41 – 45].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم تعلم أيها المعتبر الرائي ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المتوحدَ برداء العظمة والكبرياء، المستقل بالوجود الحقيقي بكمال اللطف والجود ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ ويقدسه سبحانه عن جميع ما لا يليق بشأنه عن شوب النقص وسمات الحدوث والإمكان، جميعُ ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من المجبولين على المعرفة المتوجهين نحو المبدع طوعًا ﴿وَ﴾ جميع من في ﴿الْأَرْضِ﴾ أيضًا كذلك ﴿وَ﴾ كذا ﴿الطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ باسطاتٍ أجنحتهن في الجو ﴿كُلٌّ﴾ أي: كل واحدٍ من المسبحين السماويين والأرضيين والهوائيين ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ وأشعر ﴿صَلَاتَهُ﴾ وميله إلى ربه الذي أوجده وأظهره ﴿وَتَسْبِيحَهُ﴾ الذي سبّح ونزه به مبدعًا عما لا يليق بجنابه ﴿وَاللَّهُ﴾ المتجلي بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ﴿عَلِيمٌ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور:41] أي: بجميع ما صدر عنهم من التوجه والتسبيح، وإخلاصهم فيه.

وكيف لا يعلم سبحانه أفعال عباده ومملوكه، إذ ﴿وَلِلَّهِ﴾ المظهرِ المبدعِ ابتداءً ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ﴾ وجميع من فيها وما فيها ﴿وَالْأَرْضِ﴾ ومن عليها وما عليها، فله التصرف فيهما، وفيما بينهما بالاستقلال والاختيار بلا مزاحمة الأضداد والأغيار ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ لا إلى غيره من الأظلال الهالكة في بيداء الضلال ﴿الْمَصِيرُ﴾ [النور:42] أي: المرجع والمنتهى؛ إذ الكل منه بدأ وإليه يعود، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء كائنٌ وسيكون أزلاً وأبدًا عليمٌ خبيرٌ، يظهره ويعدمه حسب علمه وخبرته بإرادته واختياره.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المتكفلَ لأرزاق عباده كيف ﴿يُزْجِي﴾ ويسوق أجزاء الأبخرة والأدخنة إلى فوقٍ متفرقةً؛ ليجعله ﴿سَحَابًا﴾ هامرًا ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ﴾ ويركب

﴿بَيْنَهُ﴾ أي: بين أجزاء السحاب ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ متراكمًا متكاشفًا متصلاً؛ ليكوّن منه مياهً كثيرةً، ثم يُجعل له فتوقًا ومنافذَ ﴿فَتَرَى﴾ أيها الناظر المعتبر ﴿الْوَدْقَ﴾ أي: المطر المتقاطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ وفتوقه غايةً منه سبحانه لمن في حوزته فضلُه وجودُه ﴿وَ﴾ كذا ﴿يُنَزِّلُ مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ يعني: من قطعِ سحابٍ متراكمٍ في الجو على هيئة الجبال الرواسي ﴿مِن بَرَدٍ﴾ متكونٍ من الأبخرة والأدخنة الواصلة إلى الطبقة الزمهريرية من الهواء وصولاً تامًا، إلى حيث انجمدت انجمادًا صلبًا كالحجر من كمال البرودة، فيُنزل منها إظهارًا لقهره سبحانه، وتنبيهًا على صَولة سطوة صفاته الجلالية ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ سبحانه ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده ممن سبق القهرُ والغضبُ منه سبحانه بمقتضى جلاله سبحانه ﴿وَيَصْرِفُهُ﴾ أي: يصرف شره ﴿عَن مَّن يَشَاءُ﴾ من أهل العناية على مقتضى لطفه وجماله.

ومن أمارات غضب الله وقهره: إنه ﴿يَكَادُ﴾ ويقرب ﴿سَنَا بَرْقِهِ﴾ اللامع؛ أي: ضوئهِ الحاصلِ منه في كمال الظلمة حالة الاصطكاك ﴿يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾ [النور:43] الناظرة نحوه، ويختطفها بحدوث الضد من الضد فجأة، وذلك من الأسباب التافهة التامة لتفريق البصر.

وكيف لا يخطف الأبصار حين ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ﴾ المحوِّل للأحوال فيه ﴿اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ بغتةً بلا تراخٍ ومهلةٍ إظهارًا لكمال قدرته، واختياره واستقلاله بالتصرف في مظاهره ومصنوعاته ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التبديل والقلب وإحداث الضد من الضد بغتةً ﴿لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [النور:44] المنكشفين بوحدة الواجب وصفاته الذاتية التي هي منشأ جميع ما ظهر وبطن من الكوائن والفواسد بإرادته واختياره، المستدلين من آثار أوصافه وأسمائه بعلو شانه وسمو برهانه، المتيقنين بوحدة ذاته وتنزهه عن وصمة الكثرة والشركة مطلقًا.

﴿وَاللَّهُ﴾ المتوحد بذاته المتعزز بكمال أسمائه وصفاته ﴿خَلَقَ﴾ أي: أظهر وقدّر ﴿كُلَّ دَابَّةٍ﴾ تتحرك على الأرض ﴿مِّن مَّاءٍ﴾ وهو العنصر الأصلي لوجود الحيوانات؛ إذ هو مبدأ حركاتهم ومنشأ إحساساتهم وإدراكاتهم، لذلك خُصَّ بالذكر بين العناصر وإن كانت مركبةً من جميعها ﴿فَمِنْهُم﴾ أي: من الدواب، ذكرَ الضمير وجمعها جمع العقلاء على سبيل التغليب؛ لأن العقلاء منها ﴿مَّن يَمْشِي﴾ ويزحف ﴿عَلَى بَطْنِهِ﴾ بلا آلةِ المشي كالحية ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كالطير والإنسان ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي

عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كالنعم والوحش.

وبالجملة: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ﴾ المقتدر على الخلق والإيجاد ﴿مَا يَشَاءُ﴾ من الموجودات والمخلوقات إرادةً واختيارًا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتصف بصفات الكمال ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ داخلٍ في حيطة علمه ﴿قَدِيرٌ﴾ [النور:45] بإيجاده وإظهاره في فضاء العيان بلا فتور وقصورٍ.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: 46 – 52].

ثم قال سبحانه تحريكًا لحمية عباده، وتشديدًا لبنيان اعتقاداتهم بالله وتوحيده وأسمائه وصفاته: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا﴾ من مقام جودنا، ولطفنا إليكم أيها المحبوسون في مضيق الإمكان، المقيدون بسلاسل الكفران والعصيان ﴿آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ موضحاتٍ مفصلاتٍ لتوحيدنا وصفاتنا وقدرتنا على الإنعام والانتقام، لعلكم تتفطنون منها إلى علو شأننا وكمال سطوتنا وسلطاننا، مع أن أكثركم لا تتفطنون ولا تتنبهون؛ لانهماككم في بحر الغفلة والضلالة، ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿يَهْدِي﴾ بفضله ﴿مَن يَشَاءُ﴾ هدايته منهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور:46] موصلٍ إلى كعبة توحيده بلا عوج وانحراف.

﴿وَ﴾ من انحراف المنافقين، وانصرافهم عن طريق الحق، وميلهم إلى الباطل ﴿يَقُولُونَ﴾ بأفواههم خوفًا من حقن دمائهم وأموالهم: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ المتوحّد في ذاته ﴿وَبِالرَّسُولِ﴾ المرسَل من عنده لتبليغ دينه وآياته، ﴿وَأَطَعْنَا﴾ لحكم الله ورسوله سمعًا وطاعة ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى﴾ أي: يعرض وينصرف ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي: من المنافقين ﴿مِّن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الإقرار عن حكم الله ورسوله تكذيبًا لنفسه، وإظهارًا لما في قلبه من الكفر والنفاق ﴿وَ﴾ لذلك ﴿مَا أُولَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:47]

المتصفين بالإيمان والإذعان حقيقةً، وإن أقروا واعترفوا على طرف اللسان؛ لأن الإيمان من صفات القلبِ واللسانُ مترجمٌ له.

﴿وَ﴾ كيف كانوا مؤمنين أولئك المنافقون مع أنهم ﴿إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿وَرَسُولِهِ﴾ المستخلَف منه سبحانه النائبِ عنه بإذنه ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ ويقطع نزاعهم ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [النور:48] أي: فأجاءوا إلى الانصراف عن حكم الله وحكم رسوله بعدما دُعوا إلى رسوله إن كان الحكم عليهم.

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ﴾ والحكم ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الرسول ﴿مُذْعِنِينَ﴾ [النور:49] منقادين طائعين، وبالجملة: هم تابعون لمطلوبهم، وما هو مقصودهم، طالبون أن يصلوا إلى ما أَمِلوا في نفوسهم، بلا ميلٍ منهم إلى الحق وصراطه المستقيم وميزانه العدل القويم.

وما سبب ميلهم وإعراضهم؟! ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعرضهم عن قبول الإيمان، والميل إلى اليقين والعرفان ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ وترددوا في عدالة الله ورسوله ﴿أَمْ يَخَافُونَ﴾ من سوء ظنونهم ﴿أَن يَحِيفَ﴾ ويميل ﴿اللهُ﴾ المستوي على القسط والعدل ﴿عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ المتخلقُ بأخلاقه ظلمًا، بأن أجازوا الظلم على الله ورسوله ﴿بَلْ﴾ الحق أنه لا شك في عدالة الله ورسوله، ولا يُنسب الحيف والميل إليهما أصلاً، فتعين أنه ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء عن ساحة القبول ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور:50] المقصورون على الخروج عن حد الاعتدال، المائلون عن الصراط المستقيم لمرض قلوبهم وخبثِ طينتهم.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين على عكس المنافقين والمترددين ﴿إِذَا دُعُوا﴾ عند النزاع والمخاصمة ﴿إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ ويزيل شبههم ﴿أَن يَقُولُوا﴾ طائعين راغبين: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بلا مطلٍ وتسويفٍ، رضينا بما حكمنا الله ورسوله ﴿وَأُولَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ورسوله ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:51] الفائزون بالفلاح، المقصورون على الصلاح والنجاح، ولا يتحولون عنه بل يزادون عليه تفضلاً وامتنانًا.

﴿وَ﴾ كيف لا يزادون؛ إذ ﴿مَن يُطِعِ اللهَ﴾ حق إطاعته وينقاد ﴿وَرَسُولَهُ﴾ حق الانقياد والاتِّباع ﴿وَيَخْشَ اللهَ﴾ المنتقمَ فيما صدر عنه، ومضى عليه من الذنوب بعدما تاب وندم ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ عنه سبحانه فيما بقي من عمره ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المطيعون المنقادون بالله

ورسوله، الخاشعون المخبتون المتقون ﴿هُمُ﴾ المتقون ﴿الْفَائِزُونَ﴾ [النور:52] بالمثوبة العظمى والدرجة العليا عند الله ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62].

﴿آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف:10].

﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦)﴾ [النور: 53 – 56].

﴿وَ﴾ من خبائة بواطنهم أهل الشرك والشقاق، وشدة شكيمتهم ونفاقهم معك يا أكمل الرسل: ﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ ترويجًا لنفاقهم وتغريرًا للمؤمنين ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وغاية حلفهم، مبالغين فيها، مغلظين منكرين للامتناع عن حكم الرسول بقولهم، والله ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ يا أكمل الرسل؛ أي: المنافقين بالخروج عن الديار، والجلاء عن الوطن ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ عنها بلا مطلٍ وتسويف، ممتثلين أمرك، فيكف يتأتى منا الامتناع عن حكمك وما هو إلا من غاية تلبيسهم ونفاقهم.

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما تيقنتَ نفاقَهم بإلهامٍ منا إليك ووحي: ﴿لَا تُقْسِمُوا﴾ بالله أيها المسرفون المفرطون، ولا تبالغوا في الحلف الكاذب، فإن المطلوب منكم ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ مشهورةٌ بين الناس بلا إتيان مخالفةٍ منكم ظاهرًا، وأمّا أمر بواطنكم وقلوبكم فسُرُّه عند الله ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلعَ لسرائركم وضمائركم ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور:53] وتقصدون في نفوسكم، يجازيكم على مقتضى خبرته.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للناس على سبيل التبليغ العام، والرسالة المطلقة: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ المظهرَ لكم من كتم العدم، وانقادوا لجميع أوامره ونواهيه ﴿وَأَطِيعُوا

﴿الرَّسُولَ﴾ المبعوثَ إليكم، وصدِّقوه في جميع ما جاء به من عند ربكم ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ وانصرفوا بعدما بلغتَ رسالتك حق التبليغ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي: على سيدنا محمد ﷺ جزاء ﴿مَا حُمِّلَ﴾ من التبليغ وإظهارِ الدعوة وتبيينِ الرسالة، ﴿وَعَلَيْكُم﴾ أيها السامعون جزاء ﴿مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ من الامتثال والانقياد ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المتوجهون نحو الحق ﴿إِن تُطِيعُوهُ﴾ أي: الرّسولَ، وتصدقوا قوله، وتعملوا على مقتضى ما أُمرتم على لسانه ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى معرفة ربكم وتفوزوا بتوحيده، ﴿وَ﴾ إن لم تطيعوا له، وتهتدوا إلى ما جُبلتم لأجله ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ﴾ المأمور بالدعوة والتبليغ ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: 54] الظاهرُ الواضحُ؛ لئلا يشتبه عليكم أمر الدين، فإن امتثلتم بما سمعتم منه فزتم، وإن توليتم فعليكم الوزر والوبال.

واعلموا يقينًا أنه ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ المتفضلُ المحسنُ لعباده بأنواع الفضل والعطاء ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أيها الناس بتوحيد الله وصفاته، وإرسالِ الرسل، وإنزالهِ الكتبَ، والبعثِ بعد الموت، وجميعِ الأمور الأخروية ﴿وَ﴾ مع الإيمان والإذعان ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[1] المقبولةِ عند الله، المرضية له على مقتضى ما أوحاه على رسوله وأنزله في كتابه، وأقسم سبحانه بنفسه تأكيدًا لوعده ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ وليجعلنهم خلفاء ﴿فِي

---

(1) قوله تعالى: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات) الآية. روى الربيع بن أنس عن أبي العالية في هذه الآية قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين بعد ما أوحى الله إليه خائفا هو وأصحابه يدعون إلى الله سبحانه سرا وعلانية، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة وكانوا بها خائفين، يصبحون في السلاح ويمسون في السلاح، فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع فيه السلاح، فقال رسول الله ﷺ: لن تلبثوا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملا العظيم محبيا ليست فيهم حديدة، وأنزل الله تعالى - وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات - إلى آخر الآية، فأظهر الله تعالى نبيه على جزيرة العرب، فوضعوا السلاح وأمنوا ثم قبض الله تعالى نبيه فكانوا آمنين كذلك في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم حتى وقعوا فيما وقعوا فيه وكفروا النعمة، فأدخل الله عليهم الخوف وغيروا، فغير الله بهم.
وعن أبي بن كعب قال: لما قدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الانصار رمتهم العرب عن قوس واحد، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يصبحون إلا في لامتهم، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل، فأنزل الله تعالى لنبيه - وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات - إلى قوله - ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون - يعني بالنعمة. رواه الحاكم في صحيحه عن محمد بن صالح بن هانئ، عن أبي سعيد ابن ساذان، عن الدارمي. «أسباب النزول» (1/ 222.220).

الأرضِ﴾ التي استولى عليها الكفرة ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ﴾ آمنوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: بني إسرائيل استخلفهم على بلاد العمالقة والفراعنة وأرض الشام والفرس، ﴿وَ﴾ بعد استخلافهم ﴿لَيُمَكِّنَنَّ﴾ ويقررن ﴿لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ وهو دين الإسلام، المبني على صرافة التوحيد الذاتي المستلزم لتوحيد الصفات والأفعال.

وليشيعن ويذيعن دينهم هذا إلى جميع الأقطار والأنحاء ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ ويحولن حالهم ﴿مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ الناشئ من تمويهات متخيلتهم ووساوس متوهمتهم ﴿أَمْنًا﴾ نشأ من اليقين الحقي المثمرِ لكمال الاطمئنان والوقار، وبعدما حصل لهم مرتبة الفناء في ذاتي، حصل لهم البقاء ببقائي، فحينئذٍ ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ مخلصين حيث ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ من مظاهري ومصنوعاتي بتسويلات شياطين الخيالات والأوهام ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: ارتد ورجع ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد نفي الخواطر والأوهام المضلةِ عن سواء السبيل ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المردودون المطرودون عن ساحة عز الحضور والقبول ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور:55] الخاسرون المقصورون على الخروج والخسران عن مقتضى اليقين العلمي والعيني والحقي ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر:15].

﴿وَ﴾ بعدما جعلتم التوحيد الذاتي قبلة مقصدكم أيها المحمديون ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المثمرةَ المورثةَ لكم كمالَ الشوق والمحبةَ نحو الحق دائمًا ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المطهرةَ لنفوسكم عن الميل إلى ما سواه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ المرشدَ لكم إلى طريق التوحيد ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:56] وتفوزون بما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

حققنا بما أنت راضٍ عنا يا خير الناصرين.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ

﴿النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)﴾ [النور: 57 — 60].

ثم قال سبحانه تأييدًا لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ ولا تظنن يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأعرضوا عن توحيده هم صاروا بكفرهم وعنادهم ﴿مُعْجِزِينَ﴾ الله القادرَ المقتدرَ عن أخذهم وإهلاكهم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ التي هي مملكة الحق ومحل تصرفاته سبحانه، بل يأخذهم الله الرقيبُ عليهم بظلمهم وبغيهم، ويستأصلهم عن وجه الأرض في النشأة الأولى ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ في النشأة الأخرى ﴿وَ﴾ الله ﴿لَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [النور:57] مصيرهم ومرجعهم.

ثم أشار سبحانه إلى تتميم ما مضى من آداب الخلطة والمؤانسة بين المؤمنين، فقال مناديًا لهم على وجه العموم؛ ليقبلوا إلى امتثال ما نودوا فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من آداب المصاحبة والإخاء هذا ﴿لِيَسْتَأْذِنْكُمُ﴾ بالدخول على بيوتكم، ويسترخص منكم أيها المؤمنون خدمتكم ﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[1] سواءً كانوا عبيدًا أو إماءً، وأنتم رجالٌ أو نساءٌ، ذكرَ الضمير على سبيل التغليب ﴿وَ﴾ كذا الصبيان ﴿الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ أي: لم يبلغوا وقت الحلم، خُصَّ بالذكر؛ لكونه أقوى أسباب البلوغ إلى وقت التكليف ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ يعني: ليستأذنكم الخَدَمةُ والصبيانُ في ثلاث أوقات دخولهم:

أحدها: ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ إذ هو وقت الانخلاع، والتجرد عن ثياب النوم، والدخول فيه منهي.

﴿وَ﴾ ثانيها: ﴿حِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ للاستراحة والقيلولة.

﴿وَ﴾ ثالثها: ﴿مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ وقت التجرد عن الثياب للنوم، والأوقاتُ المذكورةُ ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ لا بدَّ من تحفظكم فيها عما يشوشكم، ويطلع على

(1) قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) الآية. قال ابن عباس: وجه رسول الله ﷺ غلاما من الانصار يقال له مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقت الظهيرة ليدعوه، فدخل فرأى عمر بحالة كره رؤيته ذلك، فقال يا رسول الله وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا في حال الاستئذان، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال مقاتل: نزلت في أسماء بنت مرثد كان لها غلام كبير، فدخل عليها في وقت كرهته، فأتت رسول الله ﷺ. «أسباب النزول» (1/ 222).

سركم ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ﴾ ضيقٌ ومنعُ ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أي: بعد الأوقات الثلاث لو دخلوا عليكم بلا إذن منكم؛ إذ هم خَدَمةٌ ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم﴾ ليخدموكم؛ إذ جُبلتم على أن يظاهر ﴿بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما ذكر ﴿يُبَيِّنُ اللهُ﴾ المدبِّر لمصالحكم ﴿لَكُمُ الآيَاتِ﴾ الدالةَ على آداب المصاحبة والمؤانسة، ﴿وَاللهُ﴾ المطلعُ لأحوال عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم ومفاسدهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [النور:58] في ضبطها وحفظها؛ بحيث لا يختل أمر النظام المتعارف.

﴿وَ﴾ كذا ﴿إِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الحُلُمَ﴾ وظهر منهم أمارات الميل والشهوة سواء كانوا ذكورًا أم إناث ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأحرار البالغين؛ إذ هم حينئذ دخلوا في حكمهم بعد الحلم ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ الدالةَ على آداب خلطتكم وحسن معاشرتكم ﴿وَاللهُ﴾ المصلحُ لأحوال عباده،﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم من المنكرات ﴿حَكِيمٌ﴾ [النور:59] في دفعها قبل وقوعها.

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ﴾ عجائز ﴿النِّسَاءِ اللاَّتِي﴾ قعدن عن الحيض والحبل وشهوة الوقاع مطلقًا إلى حيث ﴿لاَ يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ وزواجًا؛ لكبرهن وكهولتهن ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ أي: ذنبٌ وكراهةٌ ﴿أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي: الثياب الظاهرة التي يلبسنها فوق الأستار كالجلباب حال كونهن ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ﴾ أي: مظهراتٍ ﴿بِزِينَةٍ﴾ مشهيةٍ للرجال، مثيرة لشهواتهم؛ أي: الزينة التي مُنعن من إبدائها في كريمة: ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ..﴾ [النور:31] ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ عن الوضع ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ سواء كن عجائز أم شواب؛ لأن العفة أبعد من التهمة في كل الأحوال ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لسرائرهن ﴿سَمِيعٌ﴾ لمقالتهن مع الرجال ﴿عَلِيمٌ﴾ [النور:60] بنياتهن منها.

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾[النور: 61 – 62].

ثم لما كانت العرب يتحرّجون عن مصاحبة ذوي العاهات، والمؤاكلة معهم استقذارًا، وكانوا أيضًا يتحرّجون من البيوتات المذكورة تعظمًا واستكبارًا، بل يعدونه عارًا، ويستنكفون منه، ردَّ الله عليهم ونفى الحرج، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾[1] أن يأكل مع البصراء ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ أن يأكل مع السويّ السالم، ويجلس معه ﴿وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أن يأكل مع الأصحاء ﴿وَلَا﴾ حرجَ أيضًا ﴿عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ في أكلكم مطلقًا سواءً ﴿أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ﴾ وعند أهليكم ومحارمكم، سواءً كان من أكسابكم وأكساب أولادكم ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾ وأجدادكم؛ لأنهم مستخلِفون لكم ﴿أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ لأن بينكم وبينهن مناسبة الكلية والجزئية ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ﴾ لاشتراككم معهم في المنشأ ﴿أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ

---

(1) قوله تعالى: (ليس على الاعمى حرج) الآية. قال ابن عباس: لما أنزل الله تبارك وتعالى - لا تأكلوا أموالكم بينكم - تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعرج، وقالوا: الطعام أفضل الاموال - وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل، والاعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب، والمريض لا يستوفى الطعام، فأنزل الله هذه الآية. وقال سعيد بن جبير والضحاك: كان العرجان والعميان يتنزهون عن مؤاكلة الاصحاء، لان الناس يتقذرونهم ويكرهون مؤاكلتهم، وكان أهل المدينة لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا أعرج ولا مريض تقذرا، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال مجاهد: نزلت هذه الآية ترخيصا للمرضى والزمنى في الاكل من بيوت من سمى الله تعالى في هذه الآية، وذلك أن قوما من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا إذا لم يكن عندهم ما يطعمونهم ذهبوا بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم أو بعض من سمى الله تعالى في هذه الآية، وكان أهل الزمانة يتحرجون من أن يطعموا ذلك الطعام لانه أطعمهم غير مالكيه، ويقولون إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وعن سعيد ابن المسيب أنه كان يقول في هذه الآية: نزلت في أناس كانوا إذا خرجوا مع النبي ﷺ وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الاعمى والاعرج والمريض وعند أقاربهم، وكانوا يأمرونهم أن يأكلوا مما في بيوتهم إذا احتاجوا إلى ذلك، وكانوا يتقون أن يأكلوا منها ويقولون: نخشى أن لا تكون أنفسهم بذلك طيبة، فأنزل الله تعالى هذه الآية. «أسباب النزول» (223/1).

﴿أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ﴾ لاشتراك آبائكم معهم في المنشأ ﴿أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ﴾ لاشتراك أمهاتكم معهم في المنشأ.

﴿أَوْ﴾ بيوت ﴿مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾ يعني: بيوت عبيدكم التي أنتم أسبابُ لإنشائها سواءُ كانوا معتَقين أم لا، والتعبير عنهم بما: للتمليك والرّقية ﴿أَوْ﴾ بيوت ﴿صَدِيقِكُمْ﴾ بالمناسبة المعنوية التي هي أقوى من القرابة النّسبية الصورية، كل ذلك المذكور مسبوقٌ بالإذن والرضا والتبسط والنشاط من أصحاب البيوتات.

ثم أشار سبحانه إلى أدب المؤاكلة فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا﴾ مجتمعين في إناءٍ واحدٍ يأكل بعضكم سؤر بعض؛ إذ هو أدخل في التأليف والتحابب ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ متفرقين كلٌ في إناءٍ، وهذا أدخل في التزكية والنظافة ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ أي: كلُ منكم بيتًا من البيوتات التي رُخِّصتم بالأكل منها ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: فابدؤوا بالسلام على أهلها؛ لأنهم منكم دينًا وقرابةً، حتى صار سلامكم إياهم ﴿تَحِيَّةً﴾ وزيادة حياةٍ لهم ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ تفضلاً عليهم وإحسانًا ﴿مُبَارَكَةً﴾ كثيرةَ الخير والبركة النازلة من عنده على أهلها ﴿طَيِّبَةً﴾ خالصةً صافيةً عن كدر النفاق وأثر الخلاف والشقاق ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على آداب أثر الخلاف والشقاق ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور:61] رجاء أن تتفطنوا منها إلى أحوالكم في النشأة الأخرى، فتزوَّدوا فيها لأجلها.

ثم أشار سبحانه إلى محافظة الآداب مع رسول الله ﷺ، ورعاية حقوقه، وكمال الإطاعة والانقياد إليه فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الموحدون الكاملون، المنكشفون بسرائر التوحيد الذاتي هم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ الجامع لجميع الأسماء والصفات المنسوبة إلى الذات الأحدية ﴿وَرَسُولِهِ﴾ الجامع لجميع مراتب المظاهر والمصنوعات، لا يخرج عن حيطة مرتبته الجامعة الكاملة مرتبةٌ من المراتب أصلاً ﴿وَ﴾ بعدما عرفتم جمعيته ﴿إِذَا كَانُوا﴾ مجتمعين ﴿مَعَهُ﴾ ﷺ ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي: أمرٍ مشروطٍ حصولُه بالاجتماع والاقتحام كالزحف والجهاد والجُمَع والأعياد ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا﴾ ولم ينصرفوا من عنده ﷺ ﴿حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ بالانفضاض والانصراف، وإن كنتم مضطرين إلى الإياب والذهاب.

ثم كرر سبحانه أمر الاستئذان على وجه أبلغ تأكيدًا ومبالغةً، فقال مخاطبًا لحبيبه ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ في الذهاب والانصراف محافظة على الأدب ﴿أُولَٰئِكَ﴾ السعداء المستأذنون هم ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ حقًا ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ويراعون الأدب معهما من صفاء بواطنهم وخلوص طوياتهم ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ﴾ يا أكمل الرسل بعد اضطرارهم ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ وأمرهم المتعلق بمعاشهم ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾

أي: أنت مخير في إذنهم بعد اضطرارهم ﴿وَ﴾ بعدما أذنتَ لهم ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ﴾ من ذنبهم الذي اختاروا من أمر الدنيا على أمر العقبى، واستأذنوا له واهتموا لشأنه ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لاستعدادات عباده ﴿غَفُورٌ﴾ يغفر لهم أمثال هذه الفرطات الاضطرارية ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النور:62] مشفقٌ حينئذٍ عليهم بعدما ندموا في نفوسهم.

ومن جملة الآداب التي وجبت عليكم رعايتها ومحافظتها بالنسبة إلى رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ﴾ ونداءه ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بين أظهركم ﴿كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ بالاسم واللقب فقط بلا ضميمةٍ تدل على تعظيمه وتوقيره، بل قولوا له وقت ندائه: يا نبي الله، أو: يا خير خلق الله، أو: يا أكرم الخلق على الله، وأمثالها.

أو لا تجعلوا دعاءه ومناجاته مع الله، ورفع حاجاته ﷺ إليه سبحانه في الإجابة والقبول كدعاء بعضكم بعضًا، فإن قبل مرة ردَّ أخرى بل ردَّ مرارًا كثيرة، فإن دعاءه ﷺ لا يرد عند الله أصلاً، أولاً تقيسوا نداءه إليكم في الوقائع والأمور كدعاء بعضكم بعضًا، فإن تجيبوا مرة وتردوا أخرى، بل عليكم أن تبادروا لإجابة ندائه ﷺ سمعًا وطاعةً بلا مطلٍ وتسويفٍ، خافضين أصواتكم حين إجابته مسرعين إليها بالآلات والجوارح، ساعين إلى إنجاح سؤله ومطلوبه ﷺ.

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [النور: 63 – 64].

ثم أشار سبحانه إلى توبيخ المنافقين وتقريعهم حيث قال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ﴾ المطلع على سرائر عباده بمقتضى علمه الحضوري كيدَ المنافقين ﴿الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾ أي: يخرجون قليلاً قليلاً من جمعكم أيها المؤمنون ﴿لِوَاذًا﴾ أي: حال كونهم ملاوذين ملتجئين بغيرهم بأن يستر بعضهم خلف بعض، وحتى يخرج بلا إذنٍ ورخصةٍ منه ﷺ ﴿فَلْيَحْذَرِ﴾ أولئك الماكرون المخادعون ﴿الَّذِينَ يُخَالِفُونَ﴾ وينصرفون ﴿عَنْ أَمْرِهِ﴾ سبحانه وأمر رسوله ﷺ بلا رخصةٍ ﴿أَن تُصِيبَهُمْ﴾ في الدنيا ﴿فِتْنَةٌ﴾ أي: مصيبةٌ ومحنةٌ عظيمةٌ مثل القتل والنهب والأسر وأنواع البليات ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:63] لا عذاب أشدُّ منه.

وكيف تعرضون، وتنصرفون عن أمر الله وأمر رسوله أيها المسرفون المفرطون،

أما تستحيون من الله الرقيب عليكم، ﴿أَلَآ﴾ أي: تنبهوا أيها الجاهلون الغافلون بقدر الله، وحق ألوهيته واستقلاله وبسطته ﴿إِنَّ لِلَّهِ﴾ المظهِرِ الموجِدِ تصرفًا وملكًا مظاهرَ ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: العلويات والسفليات، وما بينهما ﴿قَدْ يَعْلَمُ﴾ سبحانه بعلمه الحضوري ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ في نشأتكم هذه.

﴿وَ﴾ يعلم أيضًا ما ستكونون عليه ﴿يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ في النشأة الأخرى المعدَّة للعرض والجزاء؛ إذ لا يعزب عن حيطة حضرة علمه شيء مما جرى في عالم الغيب والشهادة والنشأة الأولى والأخرى ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ ويخبرهم حينئذ ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ في النشأة الأولى على التفصيل بلا شذوذِ شيء منها، ثم يجازيهم عليها ﴿وَاللَّهُ﴾ المجازي لعموم عباده في يوم الجزاء ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ صدر عنهم في أولاهم وأخراهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [النور:64] محيطٌ بجميع أعمالهم وأفعالهم وشئونهم وحالاتهم، وجميعِ ما جرى عليهم، يجازيهم على مقتضى علمه، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

اصنع بنا يا مولانا ما أنت أهله يا ذا الفضل العظيم والجود العميم.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المستضيءُ، المقتبسُ من المشكاة الجامعة المصطفوية والمصباح اللامع النبوي . أرشدك الله إلى غاية ما أملك، ووفقك إلى كمال ما جبلك الحق لأجله . أن تحسن الأدب مع نبيك الهادي إلى طريق التوحيد الذاتي، وتحافظَ على ملازمة ما أوجبك الحق من حقوقه وآدابه ﷺ.

فلك أن تجعل رتبته ﷺ نصبَ عينيك، ولا تترك شيئًا من سنته المأثورة، وأخلاقه المشهورة، وشيمه المعروفة بين أهل الحق وأرباب المحبة من المنكشفين بعلو مرتبته ﷺ ورفعة قدره ومكانته، ولا تهمل شيئًا من الحدود والأحكام الموضوعة في دينه وشريعته، ولك أن تختار لنفسك من عزائم شرعه ودينه مهما أمكنك، ولا تميلَ إلى رخصتها؛ إذ الرخصة لعوام أهل الإيمان والعزائم لخواصهم، فلك الإخلاص في العمل، وعليك الاجتناب عن الرياء والسمعة وجميع الرعونات الواقعة في صدور الأعمال، سواءً كان عملك قليلاً أو كثيرًا عزائمَ أو رخصًا.

وإياك إياك الحذر عن مداخل الرياء والتلبيس، فإنها من شباك إبليس، يضل بها ضعفاء الأنام عن نهج الرشاد وسبيل الاستقامة والسداد.

عَصمنا الله من تغريرات الشياطين، وتسويلاتهم بفضله وجوده.

سورة الفرقان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الفرقان

لا يخفى على ذوي البصائر والألباب من المنقطعين نحو الحق، السائرين إليه، الفارقين بينه وبين الباطل من أظلاله الهالكة المعدومة في أنفسها، الظاهرة المرتبة في هياكل الموجودات وأشكالها أن إنزال هذا الكتاب الجامع لأحوال النشأتين، الحاوي لأطوار المنزلتين، إنما هو لتفرقة الحق عن الباطل وتمييز المحق من المبطل، لذلك سماه سبحانه فرقانًا فارقًا بين أهل الهداية والضلال، من المجبولين على فطرة التوحيد المخلوقين لمصلحة الإيمان والعرفان.

فمن امتثل بما أُمر فيه أمرًا ونهيًا، عظةً وتذكيرًا، إشارةً ورمزًا، حقيقةً ومعرفةً، خلقًا وأدبًا، مثلاً وعبرةً؛ فقد فاز بمرتبة المعرفة بعدما جذبه الحق لذاته، وكحّل عين بصيرته بكحل التوحيد، ورفع سبل الغيرية عنها، وسدل التعينات برمتها.

والاسترشاد من هذا الكتاب موقوف على الاتصاف بأوصاف من أُنزل إليه، والتخلق بأخلاقه، والتأدب بآدابه، وسلوك أثر سنته بلا فوت شيء منها وإهمال دقيقة من دقائقها، حتى تحصل المناسبة المعتبرة بين المرشد والمسترشد، ومادام لم تحصل لك المناسبة بينه وبين هذا الكتاب، لم ينزل على قلبه ما نزل من المعارف والحقائق، كما أخبر سبحانه عن تنزيله إياه ﷺ متيمنًا متبركًا باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي أنزل الكتاب على عباده؛ ليبين للناس أحوال مبدئهم ومعادهم، وينبه عليهم طريق التفرقة بين الحق والباطل والصلاح والفساد ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بإرسال الرسول المبين لهم ما هو الأصلح لحالهم من السداد والرشاد ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم إلى مرتبة التوحيد الذاتي بعد رفع الحجب بلا ميلٍ وإلحاد.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝٢ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ

﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝﴾ [الفرقان:1-3].

﴿تَبَارَكَ﴾ تعاظم وتعالى ذاته سبحانه من أن يحيط بمنافعه وكثرة خيراته وبركاته عقول مظاهره ومصنوعاته، حتى يعدوها بألسنتهم، ويعبروا عنها بأفواههم حالاً ومقالاً ﴿الَّذِي نَزَّلَ﴾ بمقتضى جوده الواسع وكرمه الكامل ﴿الْفُرْقَانَ﴾ الجامع لفوائد الكتب السالفة مع زوائد خلت عنها تلك الكتب تفضلاً وامتنانًا، ومزيد اهتمام ﴿عَلَى﴾ شأن ﴿عَبْدِهِ﴾ ﷺ بعدما هيأه لقبوله، وأعدّه لنزوله، ورباه أربعين سنة تتميمًا لأمر المناسبة المعنوية وتحصيلاتها، حتى يستحق ويستعد للإلهام والوحي، وإنما أنزل هذا ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: كافة المخلوقين على فطرة التكليف، وعامة المجبولين على استعداد المعرفة ﴿نَذِيرًا﴾[1] [الفرقان:1] ينذرهم ويحذرهم عما يضرهم، ويغويهم عن صراط

---

(1) قال الألوسي (14 /29): أي تعالى جل شأنه في ذاته وصفاته وأفعاله على أتم وجه وأبلغه كما يشعر به إسناد صيغة التفاعل إليه تعالى، وهذا الفعل لا يسند في الأغلب إلى غيره تعالى ومثله تعالى ولا يتصرف فلا يجيء منه مضارع ولا أمر ولا ولا في الأغلب أيضًا وإلا فقد قرأ أبي كما سيأتي إن شاء الله تعالى تباركت الأرض ومن حولها، وجاء كما في «الكشف» تباركت النخلة أي تعالت، وحكى الأصمعي أن أعرابيًا صعد رابية فقال لأصحابه : تباركت عليكم، وقال الخليل: معنى تبارك تمجد، وقال الضحاك: تعظم وهو قريب من قريب، وعن الحسن. والنخعي أن المعنى تزايد خيره وعطاؤه وتكاثر وهي إحدى روايتين عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، ثانيتهما أن المعنى لم يزل، ولا يزال وتحقيق ذلك أن تبارك من البركة وهي في الأصل مأخوذة من برك البعير وهو صدره ومنه برك البعير إذا ألقى بركه على الأرض واعتبر فيه معنى اللزوم، فقيل: براكاء الحرب وبروكاؤها للمكان الذي يلزمه الإبطال، وسمي محبس الماء بركة كسدرة، ثم أطلقت على ثبوت الخير الإلهي في الشيء ثبوت الماء في البركة، وقيل: لما فيه ذلك الخير مبارك ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو مبارك وفيه بركة؛ فمن اعتبر معنى اللزوم كابن عباس بناءً على الرواية الثانية عنه قال: المعنى لم يزل ولا يزال أو نحو ذلك، ومن اعتبر معنى التزايد انقسم إلى طائفتين فطائفة جعلوه باعتبار كمال الذات في نفسها ونقصان ما سواها ففسروا ذلك بالتعالي ونحوه، وطائفة جعلوه باعتبار كمال الفعل ففسروه بتزايد الخير وتكاثره ولا اعتبار للتغير المبني على اعتبار معنى اللزوم لقلة فائدة الكلام عليه وعدم مناسبة ذلك المعنى لما بعد، ومن هنا ردد الجمهور المعنى بين ما ذكرناه أولاً وما روي عن الحسن ومن معه؛ وترتيب وصفه تعالى بقوله سبحانه: (تبارك) بالمعنى الأول على إنزاله جل شأنه الفرقان لما أنه ناطق بعلو شأنه سبحانه وسمو صفاته وابتناء أفعاله على أساس الحكم والمصالح وخلوها عن شائبة الخلل بالكلية وترتيب ذلك بالمعنى الثاني عليه لما فيه من الخير الكثير؛ لأنه هداية ورحمة

الحق وطريق توحيده عناية منه سبحانه إياهم، ومرشدًا لهم إلى مبدئهم.

وكيف لا يرشدهم سبحانه وهو ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات المعبر عنها بالعلويات ﴿وَالأَرْضِ﴾ أي: الطبائع السفلية القابلة للانعكاس من العلويات، فلا يضر كثرة الأسماء والصفات، وحدوث العكوس والتعينات حسب الشئون والتجليات الآلهية وحدته الذاتية وانفراده الحقيقي ﴿وَ﴾ لهذا ﴿لَمْ يَتَّخِذْ﴾ سبحانه ﴿وَلَدًا﴾ حتى يتكثر ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ﴾ في وجوده وملكه حتى ينازع ويتضرر، بل له التصرف بالاستقلال والاختيار بلا مزاحمة العكوس والأظلال الهالكة في صرافة وحدته الذاتية وشمس ذاته ﴿فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ظهر حسب تجلياته على مقتضى أسمائه وصفاته.

وبعدما أظهر ما أظهر ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:2] بديعًا، ودبر أمره تدبيرًا محكمًا عجيبًا بأن وفق بعضهم لاختراع أنواع الصنائع والحرفة البديعة والإدراكات الكاملة والتدبيرات الغريبة المتعلقة بتمدنهم لمعاشهم، وجعل بعضهم آلة للبعض، وبعضهم مالكًا، وبعضهم مملوكًا، وأزواجًا وأصنافًا مؤتلفة، وفرقًا وأضرابًا مختلفة، وأنواعًا متفاوتة إلى ما شاء الله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:31] كل ذلك ليتعانوا ويتظاهروا، واختلطوا وامتزجوا إلى أن اعتدلوا وانتظموا، وصاروا مؤتمنين مؤتلفين مؤانسين، محتاجين كل منهم بمعاونة الآخر.

وإنما فعل سبحانه ما فعل؛ ليظهر كمالاته المندرجة في وحدة ذاته، ويظهر

للعالمين، وفيه ما ينتظم به أمر المعاش والمعاد وكلا المعنيين مناسب للمقام ورجح الأول بأنه أنسب به لمكان قوله تعالى: (لِيَكُونَ للعالمين نَذِيراً) فقد قال الطيبي في اختصاص النذير دون البشير سلوك طريقة براعة الاستهلال وازيذان بأن هذه السورة مشتملة على ذكر المعاندين المتخذين لله تعالى ولدًا وشريكًا، وهذا المعنى يؤيد تأويل تبارك بتزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله جل وعلا لإفادته صفة الجلال والهيبة وإيذانه من أول الأمر بتعاليه سبحانه عما يقول الظالمون علوّا كبيرًا وهو من الحسن بمكان، و(الفرقان) مصدر فرق الشيء من الشيء وعنه إذا فصله، ويقال أيضًا كما ذكره الراغب فرقت بين الشيئين إذا فصلت بينهما سواء كان ذلك بفصل يدركه البصر أو بفصل تدركه البصرة، والتفريق بمعناه إلا أنه يدل على التكثير دونه، وقيل: من الفرق في المعاني والتفريق في الأجسام والمراد به القرآن وإطلاقه عليه لفصله بين الحق والباطل بما فيه من البيان أو بين المحق والمبطل لما فيه من الإعجاز أو لكونه مفصولاً بعضه عن بعض في نفسه أو في الإنزال حيث لم ينزل دفعة كسائر الكتب.

سلطان الوحدة الذاتية بظهور ضده، وبعدما بلغ الكثرة غايتها انتهت إلى الوحدة أيضًا كما بدأت منها وانتشأت عنها، فحينئذٍ اتصل الأولُ بالآخر والظاهرُ بالباطن، واتحد الأزلُ والأبدُ، وارتفع الكثرة والعدد، ولم يبقَ إلا الله الواحد الأحد الصمد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:3-4].

﴿وَ﴾ كيف لا يقدر سبحانه أمر عباده بإنزال الكتب، وإرسال الرسل المرشدين لهم إلى توحيده بعدما تاهوا في بيداء الكثرة والضلال، مع أنهم ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿آلِهَةً﴾ يعبدونها كعبادته، مع أن آلهتهم الباطلة ﴿لاَ يَخْلُقُونَ﴾ ولا يوجدون ويظهرون ﴿شَيْئًا﴾ من المخلوقات حتى يستحقوا الألوهية والعبادة، مع أن من شأن الإله الخلق والإيجاد حتى يستحق للتوجه والرجوع إليه، بل ﴿وَهُمْ﴾ في أنفسهم ﴿يُخْلَقُونَ﴾ أي: مخلوقون مقدورون لا قادرون خالقون، بل ﴿وَ﴾ هم مرادون، والمخلوقات التي هي الجمادات؛ إذ ﴿لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ﴾ أيضا ﴿ضَرًّا﴾ أي: إماتة لأحدٍ ﴿وَلاَ نَفْعًا﴾ أي: جلب نفع إليها ﴿وَلاَ يَمْلِكُونَ﴾ أيضًا ﴿مَوْتًا﴾ أي: إماتة لأحد ﴿وَلاَ حَيَاةً﴾ أي: إحياءً له ﴿وَلاَ نُشُورًا﴾ [الفرقان:3] أي: بعثًا وحشرًا بعد الموت للجزاء، ومن كان وصفه هذا كيف تتأتى منه الألوهية والربوبية المقتضية للعبودية؟!.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان:4-8].

﴿وَ﴾ بعدما أنزلنا القرآن الفرقان على عبدنا؛ ليهدي التائهين في بيداء الغفلة والضلال ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأعرضوا عما جاء من عنده، ولتكميل الناقصين: ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: ما هذا الذي جاء به هذا المدعي ﴿إِلَّا إِفْكٌ﴾ كذب يصرف عن الحق ويلبس الباطل بصورته؛ لأنه ﴿افْتَرَاهُ﴾ أي: اختلقه عن عمدٍ، ونسبه إلى الوحي تغريرًا وترويجًا لأمره ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَعَانَهُ عَلَيْهِ﴾ ولقَّن له فحواه ﴿قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ وهم أحبار

اليهود، وبعدما سمع فحواه منهم، عبر عنه بلفظ فصيح، وأفرغه في قالب بليغ، فأتى به على الناس، ولقبه الفرقان المعجز، والقرآن البرهان المثبت المنزل عليه من ربه بطريق الوحي والإلهام؛ ترويجًا لمفترياته وتقريرًا للناس على قبولها ﴿فَقَدْ جَاءُوا﴾ أي: أولئك المسرفون المفرطون بجعل القرآن الفرقان المعجز - لفظًا ومعنى - إفكًا صرفًا وافتراءً محضًا ﴿ظُلْمًا﴾ خروجًا فاحشًا عن حد الاعتدال ﴿وَزُورًا﴾ [الفرقان:4] قولاً كذبًا، وبهتانًا ظاهرًا متجاوزًا عن الحد، مسقطًا للمروءة سقوطًا تامًا؛ إذ نسبة هذا الكتاب الذي ﴿لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:42] إلى أمثال هذه الخرافات التي جاءوا بها أولئك الجهلة بشأنه في غاية الظلم والزور ونهاية المراء والغرور.

﴿وَقَالُوا﴾ أيضًا في حق هذا الكتاب ما هو أفحش منه، وأبعد من شأنه بمراحل، وهو: إنه ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أكاذيب سطرها المتقدمون فيما مضى، وهو ﴿اكْتَتَبَهَا﴾ أي: استنسخها من حَبْر، وكتبها له كاتب، وبعدما أخذ سوداها ﴿فَهِيَ﴾ الأساطير المذكورة ﴿تُمْلَى﴾ وتُقرأ ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على محمد ﷺ ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان:5] أي: غداةً وعشيًا على سبيل التكرار ليحفظها؛ إذ هو أمي لا يقدر على أن يكرر من الكتاب، وبعدما حفظها، قرأها على الناس مدعيًا أنها موحى من عند الله، أنزلها عليه ملك سماوي اسمه جبرائيل، أو تُملى عليه على سبيل التعليم ليكتب لنفسه.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما سمعت مقالهم، وتفرست حالهم في العتو وأنواع الإنكار والفساد: ﴿أَنزَلَهُ﴾ أي: الفرقان عليَّ مع أني أمي كما اعترفتم، لا قدرة لي على الإملاء فكيف على الإنشاء العليم؟! ﴿الَّذِي يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿السِّرَّ﴾ المكنون والحكمة الكامنة ﴿فِي﴾ أشكال ﴿السَّمَوَاتِ وَ﴾ أقطار ﴿الأَرْضِ﴾ ولهذا أعجزكم بكلامه هذا عن آخركم مع أنكم من ذوي اللسن والفصاحة، وأعلى طبقات البلاغة والبراعة، فعجزتم عن معارضته؛ بحيث لم يتأتى لكم إتيان مثل آية قصيرة منه مع كمال تحديكم ووفور دواعيكم، ومع ذلك ما تستحيون أيها المسرفون المفرطون نسبتم إليه ما هو بريء عنه، بنسبتكم هذه استوجبتم العذاب والعقاب عاجلاً وآجلاً، إلا أنه سبحانه أمهلكم رجاء أن تتنبهوا بسوء صنيعكم هذا، فترجعوا إليه سبحانه تائبين نادمين، فيغفر لكم ما تقدم من ذنوبكم، ويرحمكم بقبول توبتكم ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه في ذاته ﴿كَانَ غَفُورًا﴾ للأوابين التوابين ﴿رَحِيمًا﴾ [الفرقان:6] للمتندمين المخلصين.

وبعدما أفرطوا في طعن الكتاب المنزل والقدح فيه، ولم يقصروا على طعنه وقدحه، بل أخذوا في طعن من أُنزل إليه حسب عداوتهم وشدة شكيمتهم وضغينتهم معه، ﴿وَقَالُوا﴾ مستهزئين متهكمين: ﴿مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ﴾ يدعي الرسالة والنبوة مع أنه لا يتميز عن العوام ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ كما نأكل ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ لضبط أمور معاشه كما نمشي، فما مزيته علينا وامتيازه عنا حتى يكون رسولاً؟ وإن كان صادقًا في دعوى نزول الملك إليه بالوحي ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ ظاهرًا بلا سترة حتى نراه ونعاين به، ونؤمن له بلا ترددٍ ﴿فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾[1] [الفرقان:7] أي: يكون الملك المنزل ردءًا له

---

(1) قال الشيخ الألوسي (328/5): وليس في الآية على هذا دليل على تفضيل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيما هو محل النزاع كما زعم الجبائي لأنها إنما وردت رداً على الكفار في قولهم (مَا لهذا الرسول) الخ وتكليفهم له عليهم الصلاة والسلام بنحو الرقي في السماء. ونحن لا ندعي تميز الأنبياء على الملائكة عليهم الصلاة والسلام في عدم الأكل مثلا والقدرة على الأفاعيل الخارقة كالرقي ونحوه ولا مساواتهم لهم في ذلك بل كون الملائكة متميزين عليهم عليهم الصلاة والسلام في ذلك مما أجمع عليه الموافق والمخالف ولا يوجب ذلك اتفاقاً على أن الملائكة أفضل منهم بالمعنى المتنازع فيه وإلا لكان كثير من الحيوانات أفضل من الإنسان ولا يدعي ذلك الاجماد، وهذا الجواب أظهر مما نقل عن القاضي زكريا من أن هذا القول منه وليس في الآية على هذا دليل على تفضيل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيما هو محل النزاع كما زعم الجبائي لأنها إنما وردت رداً على الكفار في قولهم (مَا لهذا الرسول) الخ وتكليفهم له عليهم الصلاة والسلام بنحو الرقي في السماء . ونحن لا ندعي تميز الأنبياء على الملائكة عليهم الصلاة والسلام في عدم الأكل مثلا والقدرة على الأفاعيل الخارقة كالرقي ونحوه ولا مساواتهم لهم في ذلك بل كون الملائكة متميزين عليهم عليهم الصلاة والسلام في ذلك مما أجمع عليه الموافق والمخالف ولا يوجب ذلك اتفاقاً على أن الملائكة أفضل منهم بالمعنى المتنازع فيه وإلا لكان كثير من الحيوانات أفضل من الإنسان ولا يدعي ذلك الاجماد، وهذا الجواب أظهر مما نقل عن القاضي زكريا من أن هذا القول منه ﷺ من باب التواضع وإظهار العبودية نظير قوله عليه الصلاة والسلام: « لا تفضلوني على ابن متى» في رأي بل هو ليس بشيء كما لا يخفى. وقيل: إن الأفضلية مبنية على زعم المخاطبين وهو من ضيق العطن، وقيل: حيث كان معنى الآية لا أدعي الألوهية ولا الملكية لا يكون فيها ترق من الأدنى إلى الأعلى بل هي حينئذ ظاهرة في التدلي، وبذلك تهدم قاعدة استدلال الزمخشري في قوله تعالى: (لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلاَ الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ) [النساء:172] على تفضيل الملك على البشر إذ لا يتصور الترقي من الألوهية إلى ما هو أعلا منها إذ لا أعلا ليترقى إليه. وتعقب بأنه لا هدم لها مع إعادة (لا أَقُولُ) الذي جعله أمراً مستقلاً كالإضراب إذ المعنى لا أدعي الألوهية بل ولا الملكية ، ولذا كرر (لا أَقُولُ). وقال بعضهم في التفرقة بين المقامين : إن

في إنذارنا وتبليغ الدعوة إلينا.

﴿أَوْ﴾ هلا ﴿يُلْقَى إِلَيْهِ﴾ من قبل ربه ﴿كَنزٌ﴾ فيستغني به عن الخلق، فنتبعه طمعًا للإحسان ﴿أَوْ﴾ هلا ﴿تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ﴾ موهوبة له من ربه فيها أنواع الثمرات والفواكه ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ رغدًا ويترفه بها أمدًا، وبالجملة: ما له هذا ولا ذاك ولا ذلك، فمن أين نصدق برسالته، وبأي شيء نعتقده نبيًا؟ ﴿وَ﴾ بعدما بالغوا في قدحه وإنكاره وأفرطوا في استهزائه وسوء الأدب معه ﷺ، وبالجملة: ﴿قَالَ الظَّالِمُونَ﴾ المنكرون المستكبرون على سبيل الذب، والإعراض لضعفاء الأنام عن متابعته ﷺ: لو صدقتم أيها الناس

مقام نفي الاستنكاف ينبغي فيه أن يكون المتأخر أعلا لئلا يلغو ذكره ، ومقام نفي الادعاء بالعكس فإن من لا يتجاسر على دعوى الملكية أولى أن لا يتجاسر على دعوى الألوهية الأشد استبعاداً ، نعم في كون المراد من الأول نفي دعوى الألوهية والتبري منها نظر وإلا لقيل لا أقول لكن إني إله كما قيل (وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ) وأيضاً في الكناية عن الألوهية بعندي خزائن الله ما لا يخفى من البشاعة، وإضافة الخزائن إليه تعالى منافية لها . ودفع المنافاة بأن دعوى الألوهية ليس دعوى أن يكون هو الله تعالى بل أن يكون شريكاً له عز اسمه في الألوهية فيه نظر لأن إضافة الخزائن إليه تعالى اختصاصية فتنافي الشركة اللهم إلا أن يكون خزائن مثل خزائن أو تنسب إليه وهو كما ترى. من باب التواضع وإظهار العبودية نظير قوله ﷺ «لا تفضلوني على ابن متى» في رأي بل هو ليس بشيء كما لا يخفى. وقيل: إن الأفضلية مبنية على زعم المخاطبين وهو من ضيق العطن، وقيل: حيث كان معنى الآية لا أدعي الألوهية ولا الملكية لا يكون فيها ترق من الأدنى إلى الأعلى بل هي حينئذ ظاهرة في التدلي، وبذلك تهدم قاعدة استدلال الزمخشري في قوله تعالى : (لَّن يَسْتَنكِفَ المسيح أَن يَكُونَ عَبْداً لله وَلاَ الملئكة المقربون) [النساء:172] على تفضيل الملك على البشر إذ لا يتصور الترقي من الألوهية إلى ما هو أعلا منها إذ لا أعلا ليترقى إليه . وتعقب بأنه لا هدم لها مع إعادة (لأَقُولَ) لذي جعله أمراً مستقلاً كالإضراب إذ المعنى لا أدعي الألوهية بل ولا الملكية، ولذا كرر (لا أَقُولَ). وقال بعضهم في التفرقة بين المقامين: إن مقام نفي الاستنكاف ينبغي فيه أن يكون المتأخر أعلا لئلا يلغو ذكره، ومقام نفي الادعاء بالعكس فإن من لا يتجاسر على دعوى الملكية أولى أن لا يتجاسر على دعوى الألوهية الأشد استبعاداً ، نعم في كون المراد من الأول نفي دعوى الألوهية والتبري منها نظر وإلا لقيل لا أقول لكن إني إله كما قيل (لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ) وأيضاً في الكناية عن الألوهية بعندي خزائن الله ما لا يخفى من البشاعة، وإضافة الخزائن إليه تعالى منافية لها. ودفع المنافاة بأن دعوى الألوهية ليس دعوى أن يكون هو الله تعالى بل أن يكون شريكاً له عز اسمه في الألوهية فيه نظر لأن إضافة الخزائن إليه تعالى اختصاصية فتنافي الشركة اللهم إلا أن يكون خزائن مثل خزائن أو تنسب إليه وهو كما ترى.

وآمنتم به مع أنكم سمعتم أنه لا مزية له عليكم، ولا امتياز بينه وبينكم ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما تتبعون حينئذ، وتؤمنون ﴿إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان:8] مجنونًا سُحِرَ له، فجُنَّ واختل عقله وكلَّ فهمه، لذلك تكلم بكلام المجانين، فعجز عن معارضته العقلاء؛ إذ العقل قاصر عن مموهات الوهم وتسويلات الخيال.

﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الفرقان:9-12].

﴿انظُرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾ هؤلاء الضُلّال بعدما عجزوا عن معارضتك، وتاهوا في كمال رشدك وهدايتك، وكيف توغلوا في الحيرة عن مدركاتك، حتى تشبثوا بأمثال هذه الخرافات والهذيانات البعيدة عن علو شأنك وسمو رتبتك وبرهانك، وبالجملة: ﴿فَضَلُّوا﴾ وتحيروا، وانحسرت عقولهم عن الوصول إلى كمال مدركاتك وأنواع هداياتك ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:9] إليها لتعاليها عن مداركهم وعقولهم، فنسبوك إلى ما لا يليق بجنابك عنادًا واستكبارًا.

﴿تَبَارَكَ﴾ وتعالى ربك ﴿الَّذِي﴾ رباك بأنواع الكرامات الخارقة للعادات الشاملة لأصناف السعادات المعدة لأرباب الشهود والمكاشفات، وبالمعجزات الباهرة الدالة على صدقك في جميع ما جئت به من قبل ربك من الآيات البينات، وأنواع الخيرات والبركات ﴿إِن شَاءَ﴾ ربك وتعلقت مشيئته وإرادته ﴿جَعَلَ لَكَ﴾ يا أكمل الرسل في النشأة الأولى أيضًا ﴿خَيْرًا﴾ وأحسن ﴿مِّن ذَلِكَ﴾ أي: مما قالوه وأملوه تهكمًا واستهزاءً، ولكن أخره إلى النشأة الأخرى؛ إذ هي خير وأبقى، والتنعم فيها ألذ وأولى؛ إذ هي مؤبدة مخلدة بلا انقطاع ولا انصرام.

ثم بيَّن سبحانه ما هيأ لحبيبه ﷺ فيها وأعد له من ﴿جَنَّاتٍ﴾ متنزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والحقائق المتجددة بتجددات التجليات الإلهية على مقتضى الكمالات الأسمائية والصفاتية ﴿وَيَجْعَل لَّكَ﴾ أيضًا فيها ﴿قُصُورًا﴾ [الفرقان:10] عاليات متعاليات عن مدارك ذوي الإدراكات مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهم من قصور نظرهم وعمى

بصرهم وقلوبهم في هذه النشأة لا يلتفتون إلى أمثال هذه الكرامات العليّة الأخروية.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ الموعودة المعهودة، وجميع ما يترتب عليها من المثوبات والدرجات العلية والدركات الهوية؛ إذ نظرهم مقصور على هذا الأرذل الأدنى ﴿وَ﴾ لهذا ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيأنا بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ﴾ وبالأمور الموعودة فيها ﴿سَعِيرًا﴾ [الفرقان:11] أي: نارًا مسعرة ملتهبة في غاية التلهب والاشتعال؛ بحيث ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يعني: إذا كانوا بمرأى العين منها مع أنهم بعيدون منها بمسافة طويلة ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ مع بُعدها ﴿تَغَيُّظًا﴾ أي: صوتًا كصوت المغتاظ من شدة تلهبها وغليانها ﴿وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:12] أيضًا كزفرة المغتاظ، والزفير في الأصل: ترديد النَّفَس حتى تنتفخ الضلوع؛ يعني: من شدة غيظها لهم تغلي وتلتهب تلهبًا شديدًا، وتردد نفسها ترديدًا بليغًا حتى يردوا فيها.

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الفرقان:13-17].

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿مَكَانًا﴾ أي: في مكان من أمكنتها صار ﴿ضَيِّقًا﴾ لهم تشدد العذاب عليهم؛ بحيث صار كل منهم من ضيق ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل والأغلال ﴿دَعَوْا﴾ وتمنوا من شدة حزنهم وكربهم ﴿هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان:13] هلاكًا وويلاً، قائلين صائحين: واثبوراه! واويلاه! تعال تعال! وهذا وقت حلولك ونزولك، ويقال لهم حينئذ: ﴿لاَ تَدْعُوا الْيَوْمَ﴾ أيها الجاهلون ﴿ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان:14] إذ أنواع العذاب تتجدد عليكم دائمًا، فاطلبوا الكل منها ثبورًا.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل موبخًا عليهم، ومعيرًا بعدما بيّنت لهم منقلبهم ومثواهم في الآخرة: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ السعير الذي سمعتم وصفه، أو المعنى: أذلك الجنة التي أمِلتم من جنات الدنيا ومنتزهاتها ﴿خَيْرٌ﴾ مرجعًا ومصيرًا ﴿أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ المؤبد المخلد

أهلها فيها بلا تبديل وتغيير ﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ بدخولها حتى ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً﴾ لأعمالهم الصالحة التي أتوا بها في النشأة الأولى، وصارت بدلاً من مستلذاتها الفانية ﴿وَمَصِيرًا﴾ [الفرقان:15] أي: مرجعًا ومنقلبًا لهم بعدما خرجوا من الدنيا، مع أن ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ من النعيم المقيم الدائم؛ لكونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ فيها لا يتحولون عنها أصلاً؟ لذلك ﴿كَانَ﴾ هذا الوعد ﴿عَلَى رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَعْدًا مَسْئُولاً﴾ [الفرقان:16] مطلوبًا للمؤمنين في دعواتهم ومناجاتهم، حيث قالوا في سؤالهم ودعائهم: ربنا آتنا ما وعدتنا على رسلك، إلى غير ذلك من الآيات والمناجاة المأثورة من الأنبياء والأولياء.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمتخذين آلهة سوانا، وحذِّرهم ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ ونبعثهم للعرض والجزاء ﴿وَ﴾ نحشر أيضًا ﴿مَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ الواحد الأحد الصمد؛ أي: آلهتهم الذين يعبدونهم كعبادة الله، كالملائكة وعزير وعيسى والجن والكواكب والأصنام، عبَّر سبحانه عن آلهتهم بـ(ما)، مع أن بعضهم عقلاء لعموم (ما)؛ أي: إنها تستعمل في عاقل وغيره، أو للتغليب، أو باعتبار ما يعتقدون ويتخذون آلهة من تلقاء نفوسهم، لا حقيقة لها سوى الاعتبار؛ لأنهم لا يرضون باتخاذهم، وبعدما حشر الآلهة ومتخذوهم مجتمعين ﴿فَيَقُولُ﴾ الله سبحانه مستفهمًا للآلهة على سبيل التوبيخ والتبكيت لمتخذيهم: ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان:17] عن عبادتي، ودعوتموهم إلى عبادة نفوسكم مدعين أنتم الشركة معي؟.

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفرقان:18-20].

﴿قَالُوا﴾ أي: الآلهة مبرئين نفوسهم عن هذه الجرأة والجريمة العظيمة، منزهين ذاته سبحانه عن وهم المشاركة والمماثلة والكفاءة مطلقًا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ ننزهك ونقدس

ذاتك يا ربنا عن توهم الشركة في ألوهيتك وربوبيتك، بل في وجودك وتحققك ﴿مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا﴾ ويصح منّا ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ فكيف يليق بنا أن ندعي الولاية لأنفسنا دونك والاشتراك معك، مع أنّا لا وجود لنا إلا منك، ولا رجوع لنا إلا إليك، وأنت يا ربنا تعلم منّا ما في ضمائرنا وأسرارنا واستعداداتنا ونياتنا في جميع شئوننا وقابلياتنا، وأنت تعلم أيضًا منا يا مولانا لا علم لنا باتخاذهم أولياء، ولا إضلال وتقرير من قَبلنا إياهم ﴿وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ﴾[1] أنت بمقتضى فضلك وجودك بأنواع النعم وأصناف الكرم ﴿وَ﴾ كذا متعت ﴿آبَاءَهُمْ﴾ كذلك، وأمهلتهم زمانًا مترفهين مستكبرين ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ أي: ذكر المنعِم، وغفلوا عن شكر نعمه، واتخذوا على مقتضى أهويتهم الفاسدة وآرائهم الباطلة أربابًا من دونك وعبدوها كعبادتك عتوًا واستكبارًا ﴿وَ﴾ بالجملة: هم ﴿كَانُوا﴾ مقدَّرين مثبتين في لوح قضائك ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان:18] هالكين في تيه الغفلة والضلال، من أصحاب الشقاوة الأزلية الأبدية لا يُرجى منهم السعادة أصلاً.

ثم قيل للمشركين من قِبل الحق: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ آلهتكم أيها الضالون ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ أنهم آلهتنا، أو بما يقولون هؤلاء وأضلونا، أو بقولكم: هؤلاء شفعاؤنا ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: فالآن ظهر ولاح أن آلهتكم وشفعاءكم لا يقدرون ﴿صَرْفًا﴾ من عذابنا شيئًا ﴿وَلَا﴾ يقدرون أيضًا ﴿نَصْرًا﴾ لكم؛ لتصرفوا عذابنا عن نفوسكم بمعاونتهم، ولا شفاعة عندنا؛ لتخفيف العذاب عنكم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أيها المشركون نفسه باتخاذ غيرنا إلهًا عنادًا ومكابرة، ولم يتب عن ذلك حتى خرج من الدنيا عليه ﴿نُذِقْهُ﴾ الأمر؛ أي: يوم الجزاء ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:19] لا عذاب أكبر منه.

ثم أشار سبحانه إلى تسلية حبيبه ﷺ عما عيره الجهلة المستهزئون معه بقولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ...﴾ [الفرقان:7] فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا

(1) قال الألوسي (14 /62): لا ينافي نسبة الإضلال إليه سبحانه على الحقيقة وأيضًا ما يؤدي إلى الضلال إذا كان منه تعالى وكان معلومًا له عز وجل أنهم يضلون به كان فيه ما في الإضلال بالحقيقة. فوجب على مذهبه أنه لا يجوز عليه سبحانه مع أنهم نسبوه إليه سبحانه، وعن قوله: ولو كان تعالى هو المضل على الحقيقة لكان الجواب العتيد أنت أضللتهم بأن هذا غير مستقيم؛ لأنه تعالى ما سألهم إلا عن أحد الأمرين وما ذكر لا يصلح جوابًا له بل هو جواب لمن قال: من أضلهم.

قَبْلَكَ﴾ رسولاً ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ كما تأكل أنت وسائر الناس ﴿وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ لحوائجهم كما تمشي أنت وغيرك.

وامتياز الرسل والأنبياء من العوام إنما يكون بأمورٍ معنوية لا اطلاع لأحد عليها سوى من اختارهم للرسالة والنبوة، وهم في ظواهر أحوالهم مشتركون مع بني نوعهم بل أسوأ حالاً منهم في ظواهرهم؛ لعدم التفاتهم إلى زخرفة الدنيا العائقة عن اللذة الأخروية، ولهذا ما من نبي ولا رسول إلا وقد عيرهم العوام بالفقر والفاقة إلا نادرًا منهم.

﴿وَ﴾ بالجملة: من سنتنا أنَّا ﴿جَعَلْنَا بَعْضَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي: بسبب ابتلائه ومحنة واختبار، من ذلك ابتلاء الفقراء بتشنيع الأغنياء، وتعيير النبيين والمرسلين باستهزاء المنكرين المستكبرين، والمرضى بالأصحاء، وذي العاهة بالسالم إلى غير ذلك، وإنما جعلناكم كذلك؛ لنختبر وتعلموا ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ أيها المصابون بما أصابكم من البلاء فتفوزون بجزيل العطاء وجميل اللقاء أم لا؟ ﴿وَ﴾ الحال أنه قد ﴿كَانَ رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل في سابق قضائه وحضرة علمه ﴿بَصِيرًا﴾ [الفرقان:20] لصبر من صبر، وشكر من شكر من أولي العزائم الصحيحة، ولمن لم يصبر ولم يشكر من ذوي الأحلام السخيفة والاختبار، إنما هو لإظهار الحجة الغالبة البالغة؛ إذ الإنسان مجبول على الجدال والكفران.

﴿ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفرقان: 21-26].

﴿وَ﴾ من جملة جدالهم وعنادهم: ﴿قَالَ﴾ الكافرون الجاحدون ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لا يؤملون لقيانا، ولا يخافون منّا لإنكارهم بنا وبوعدنا يوم الجزاء: لو كان محمد ﷺ رسولاً مؤيدًا من عند الله ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ المصدقون لرسالته؛ ليخبرونا بصدقه في دعواه ﴿أَوْ﴾ هلا ﴿نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ الذي يدعونا

إليه معاينة، فيخبرنا ربنا بصدق رسوله حتى نصدقه بلا تردد، وقال سبحانه في ردهم مقسمًا على سبيل التعجب والاستغراب: والله ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ أولئك المسرفون المفرطون بقولهم هذا مكابرة؛ حيث طلبوا من الله ما لا يسع لخُلّص عباده من ذوي النفوس القدسية ﴿وَعَتَوْا﴾ بإخطار هذا المطلب العظيم في خواطرهم، وإن صدر عنهم هذا تهكمًا واستهزاءً ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:21] فاستحقوا بذلك أكبر العذاب وأصعب النكال والوبال.

اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ أي: ملائكة العذاب مع أنه ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ ولا بشارة لهم برؤيتهم ﴿يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ بل إنما يجيئون إليهم؛ ليجروهم إلى جهنم صاغرين مهانين ﴿وَ﴾ بعدما يرونهم صائلين عليهم صولة الأسود ﴿يَقُولُونَ﴾ متحسرين خاسرين قولاً يقول به العرب عند هجوم البلاء ونزول العناء واليأس التام من الظفر بالمطلوب، وهو قولهم: هذا ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:22] وهو كنى عن قولهم: حُرمنا عن التبشير بالجنة حرمانًا مؤبدًا، أو صرنا مسجونين في النار سجنًا مخلدًا.

ثم قال سبحانه: ﴿وَ﴾ بعدما حرّمنا الجنة عليهم، وجعلنا مصيرهم النار ﴿قَدِمْنَا﴾ وعمدنا ﴿إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ إلى أصلح أعمالهم وأحسنها التي أتوا في النشأة الأولى؛ كقِرى الضيف وصلة الرحم وإعانة المهلوف وإغاثة المظلوم وغير ذلك من حسنات أعمالهم ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:23] أي: صيرناه كالغبار المنثور بالرياح بلا ترتب القبول والجزاء والثواب عليه؛ لفقدهم شرط القبول والإثابة وقت صدورها عنهم، وهو الإيمان والتوحيد، والتصديق بالرسل والكتب، والعمل بمقتضى الوحي، وهم كفار مكذبون مستكبرون، لذلك لم يقبل منهم أعمالهم.

وأما ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ المتصفون بالإيمان والتوحيد، وتصديق الكتب والرسل، الممتثلون بالأوامر والنواهي على مقتضى ما بلّغهم الرسل وبيّن لهم فهم ﴿يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ أي: من جهة مكان يستقرون عليه، ويتوطنون فيه ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: 24] يستريحون، ويستروحون فيه مع الحور والغلمان.

يومئذٍ يتلذذون أو هم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ [الفرقان:24] أي: يوم انقطاع السلوك، وانكشاف السُدل والأغطية المانعة من الشهود ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان:24] من جهة استقرارهم في مقر التوحيد، آمنين عن وساوس الأوهام والخيالات الباطلة ﴿وَأَحْسَنُ

مَقِيلاً﴾[1] [الفرقان:24] يستريحون فيه بلا مقتضيات القوى والآلات البشرية المنخلعين عن لوازم ناسوتهم مطلقًا، مشرفين بخلع من قبل اللاهوت وحضرة الرحموت.

﴿وَ﴾ ذلك ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ﴾ تتصفى، وتتجلى سماء الأسماء الإلهية المنكدرة المحتجبة ﴿بِالْغَمَامِ﴾ أي: بغيوم التعينات العدمية المنعكسة منها ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ﴾ المهيمين عند الذات الأحدية، وهي الأسماء والصفات التي استأثر الله به في غيبه بلا انعكاس وانبساط وامتداد ظل كسائر الأسماء الفعالة ﴿تَنزِيلاً﴾ [الفرقان:25] على صرافة تجردهم بلا تدنس وانغماس بغيوم التعينات والتعلقات.

حينئذٍ نودي من وراء سرادقات العز والجلال: ﴿الْمُلْكُ﴾ المطلق والاستيلاء التام والسلطنة الغالبة ﴿يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ الثابت اللائق، المثبت على ما ينبغي ويليق ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ المستوي على عروش ذرائر الأكوان بعموم الرحمة وشمول الفضل والامتنان، بلا تقدير مكيال وميزان من زمان أو مكان ﴿وَكَانَ﴾ ذلك اليوم والشأن ﴿يَوْمًا﴾ وشأنًا ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الساترين بغيوم هوياتهم الباطلة هوية الحق الظاهر في الآفاق والأنفس ﴿عَسِيرًا﴾ [الفرقان:26] في غاية العسر والشدة، وعلى الموحدين الواصلين إلى مرتبة الفناء، الفانين في الله، الباقين ببقائه يسيرًا في غاية اليسر والسهولة.

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ

---

(1) قال الشيخ الألوسي (107/6): إذ الجنة لا نوم فيها. وقال الليث: هي نومة نصف النهار، ودفع الاستدلال بأن ذلك مجاز، وإنما خص إنزال العذاب عليهم في هذين الوقتين لما أن نزول المكروه عند الغفلة والدعة أفظع وحكايته للسامعين أزجر وأردع عن الاغترار بأسباب الأمن والراحة، وفي التعبير في الحال الأولى بالمصدر وجعلها عين البيات، وفي الحال الثانية بالجملة الاسمية المفيدة في المشهور للثبوت مع تقديم المسند إليه المفيد للتقوى ما لا يخفى من المبالغة ، وكذا في وصف الكل بوصف البيات والقيلولة مع أن بعض المهلكين بمعزل منهما إيذان بكمال الأمن والغفلة ، وفي هذا ذم لهم بالغفلة عما هم بصدده، وإنما خولف بين العبارتين على ما قيل وبنيت الحال الثانية على تقوى الحكم والدلالة على قوة أمرهم فيما أسند إليهم لأن القيلولة أظهر في إرادة الدعة وخفض العيش فإنها من دأب المترفين والمتنعمين دون من اعتاد الكدح والتعب . وفيه إشارة إلى أنهم أرباب أشر وبطر.

جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١)﴾ [الفرقان:27-31].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن ظلمك وأساء الأدب معك، وأراد مقتك وطردك بغيًا عليك واستكبارًا ﴿يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ﴾ الجاحد الخارج عن مقتضى الأدب مع الله ورسوله ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ تحسرًا على تفريطه وإفراطه في العتو والاستكبار، والجحود والإنكار ﴿يَقُولُ﴾حينئذٍ متحسرًا متمنيًا: ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ﴾ الهادي إلى سواءِ السبيل ﴿سَبِيلاً﴾ [الفرقان:27] يوصلني إلى منهج الرشاد، وينجّيني عن هذا العذاب.

﴿يَا وَيْلَتَىٰ﴾ تعالي يا هلكتي، أسرعي ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا﴾ مضلاً ﴿خَلِيلاً﴾ [الفرقان:28] صديقًا أضلني عن خلة الرسول المرشد المنجي والله.

ذلك المغوي ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ أي: عن ذكر الله وذكر رسوله ومصاحبة المؤمنين ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ واختلط معي، وصار صديقي وخليلي، بل صار شيطانًا فوسوس عليّ، وأعرضني عن طريق الحق ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ﴾ المضلُّ المغوي سواء كان جنًّا أو إنسًا أو نفسًا ﴿لِلْإِنسَانِ﴾ المجبول على الغفلة والنسيان ﴿خَذُولاً﴾ [الفرقان:29] يخذله ويحرمه عن الجنان، ويسوقه إلى دركات النيران بأنواع الخيبة والحرمان، ونعوذ بك يا ذا الفضل والإحسان من شرِّ الشيطان.

﴿وَ﴾ بعدما طعنوا في القرآن طعنًا كثيرًا، ونبذوه وراء ظهورهم نبذًا يسيرًا بلا التفات لهم إليه وإلى ما فيه من الأوامر والنواهي ﴿قَالَ الرَّسُولُ﴾ مشتكيًا إلى الله مناجيًا: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي﴾ الذي بعثتني إليهم؛ لأهديهم وأرشدهم إلى توحيدك، وأبني لهم حدود ما أنزلت إليّ من الكتاب المعجز الجامع لجميع ما في الكتب السالفة، المشتمل على جميع المعارف والحقائق والحِكم، والأحكام المتعلقة بالتدين والتخلق في طريق توحيدك وتفريدك وتقديسك، مع أن هؤلاء الجهلة المسرفين ﴿اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ مع سطوع برهانه، وقواطع حججه وتبيانه ﴿مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:30] متروكًا لا يلتفتون إليه ولا يسترشدون منه، ولا يتوجهون نحوه، بل يقدحون فيه ويكذبون، وينسبون إليه ما لا يليق بشأنه.

﴿وَ﴾ بعدما بث ﷺ شكواه إلى ربه، وبسط فيها معه سبحانه ما بسط، قال سبحانه تسليةً له ﷺ، وإزالةً لشكواه: لا تبالِ بهم وبشأنهم، ولا تحزن من سوء فعالهم؛ إذ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما جعلنا لك يا أكمل الرسل أعداءً منكرين مكذبين ﴿جَعَلْنَا﴾ أيضًا

﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ من الأنبياء الماضين ﴿عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ المنكرين المكذبين لهم، ويسيئون الأدب معهم ويطعنون بكتبهم، ولا ينصرونهم ولا يروجون دينهم ولا يقبلون منهم قولهم، وليس هذا مخصوصًا بك وبدينك وكتابك ﴿وَ﴾ بالجملة: لا تحزن عليهم؛ إذ ﴿كَفَى بِرَبِّكَ﴾ أي: كفى ربك لك ﴿هَادِيًا﴾ يرشدك إلى مقصدك، ويغلبك على عدوك ﴿وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان:31] حسيبًا يكفيك مؤونة شرورهم وعداوتهم وإنكارهم.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الفرقان:32-36].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على سبيل الإنكار والتكذيب للقرآن والرسول على وجه الإعراض والاستهزاء: ﴿لَوْلا﴾ أي: هلّا ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ من عند ربه كالكتب الثلاثة على الأنبياء الماضين؛ يعني: إنهم استدلوا بنزوله منجمًا على أنه ليس من عند الله؛ إذ من سنته سبحانه إنزال الكتب من عنده سبحانه كالكتب السالفة، قال سبحانه تسليةً لحبيبه، وردًا للمنكرين: إنما أنزلناه ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: منجمًا متفرقًا ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ ونشيِّد ﴿بِهِ فُؤَادَكَ﴾ يا أكمل الرسل، ونمكنك على حفظه نجومًا؛ لأن حالك مخالف لحال موسى وداود وعيسى - صلوات الله عليهم - إذ هم من أهل الإملاء والإنشاء والكتب، وأنت أميّ؛ ولأن إنزاله عليك بحسب الوقائع والأغراض، والإنزال بحسب الوقائع والأغراض أدخل في التأييد ﴿وَ﴾ لهذه الحكمة والمصلحة ﴿رَتَّلْنَاهُ﴾ أي: تلوناه لك وقرأناه عليك ﴿تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان:32] شيئًا بعد شيء على التراخي والتدريج في عرض عشرين سنة أو ثلاث وعشرين.

﴿وَ﴾ أيضًا من جملة حِكمة إنزاله منجمًا: إنه ﴿لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ عجيب غريب يضربون لك جدلاً ومكابرةً في وقت من الأوقات، وحال من الحالات على تفاوت طبقاتهم ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: جئناك بالمثل الحق على طريق البرهان تأييدًا لك

وترويجًا لأمرك ودينك أوضح بيانًا مما جاءوا به ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:33] وتبيينًا.

وكيف يتأتى منهم المعارضة والمجادلة معك يا أكمل الرسل مع تأييدنا إياك في النشأة الأولى والأخرى، وهم في الدنيا مقهورون مغلوبون، وفي الآخرة ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ﴾ ويُسحبون ﴿عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان، وجحيم الطرد والحرمان، وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون عن شرف القبول ﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾ ومصيرًا ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:34] وأخطأ طريقًا، اهدنا بفضلك سواء سبيلك.

ثمّ أخذ سبحانه في تعداد المنكرين الخارجين على رسل الله، المكذِّبين لهم، المسيئين الأدب معهم، وما جرى عليهم بسوء صنيعهم من أنواع العقوبات والنكبات، فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة المشتملة على الأحكام؛ ليبين للأنام ما فيها من الأوامر والنواهي المصفية للنفوس المنغمسة بالمعاصي والآثام؛ ليستعدوا لقبول المعارف والحقائق المنتظرة لهم في استعداداتهم الفطرية وقابلياتهم الجِبلِّية ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ [الفرقان:35] ظهيرًا له يؤازره، ويعاون له في ترويج دينه وتبيين أحكام كتابه.

وبعدما أيدناهما بإنزال التوراة وإظهار المعجزات ﴿فَقُلْنَا﴾ لهما: ﴿اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا واستقلالنا بالتصرف في مظاهرنا ومصنوعاتنا إرادةً واختيارًا؛ يعني: فرعون وهامان ومن معهما من العصاة البغاة، الهالكين في تيه العتو والفساد وادعوهم إلى توحيدنا، وأظهروا الدعوة لهم فذهبا على مقتضى الأمر الوجوبي فدعوا فرعون لقومه إلى ما أُمرا، فأبوا عن القبول وكذبوهما، واستهزءوا معهما كبرًا وخيلاءً، فأخذناهم بتكذيبهم واستنكافهم ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان:36] أي: أهلكناهم إهلاكًا كليًا إلى حيث لم يبقَ منهم أحد على وجه الأرض.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا

هُـزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الفرقان:37-42].

﴿وَ﴾ كذا دمرنا ﴿قَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ أي: حين كذبوا نوحًا ومن مضى قبلهم من الأنبياء؛ إذ أمرهم نوح بتصديقهم والإيمان بهم فكذبوا بهم تبعًا؛ لذلك ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ بالطوفان ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أي: جعلنا إغراقنا إياهم بالمرة ﴿لِلنَّاسِ﴾ المعتبرين من أمثال هذه الوقائع ﴿آيَةً﴾ علامة وعبرة تعتبرون منها وتستوحشون، وتحسنون الأدب مع الله ورسوله خوفًا من بطشه وانتقامه ﴿وَ﴾ كيف لا يخافون من أخذنا وبطشنا؛ إذ ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيأنا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى حدودنا ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان:37] مؤلمًا أشد إيلام، وانتقمنا منهم أصعب انتقام؟!.

﴿وَ﴾ دمرنا أيضًا ﴿عَادًا وَثَمُودَ﴾ يعني: قوم هود وصالح على المكذبين بتكذيبهم إياهما، وإنكارهم على ما ظهرا عليه من الدعوة إلى طريق الحق ﴿وَ﴾ كذا دمرنا ﴿أَصْحَابَ الرَّسِّ﴾[1] أيضًا بتكذيبهم رسولهم.

قيل: كانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله سبحانه إليهم شعيبًا عليه السلام فكذبوه، وهم يسكنون حينئذٍ حول الرس، وهو البئر الغير المطوية فانهارت، فخسفت بهم وبدارهم.

وقيل: الرس قرية بفلج اليمامة، كان فيها بقايا ثمود، فبعث الله إليهم نبيًا فقتلوه فهلكوا.

وقيل: أصحاب الرس هي أصحاب الأخدود، وقيل: هو بئر بأنطاكية، قتلوا فيها حبيب النجار.

وقيل: هم أصحاب حنظلة بن صفوان النبي عليه السلام، ابتلاهم الله بطيرٍ عظيمٍ كان فيها من كل لونٍ، وسموها عنقاء؛ لطول عنقها، وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له: فتخ أو دمخ، وتنقض على صبيانهم فتخطفهم إذا أعوزها الصيد؛ فلذلك سميت مغربًا، فدعا

---

(1) عن ابن عباس هم قوم ثمود. ويبعده العطف لأنه يقتضي التغاير، وقال قتادة: هم أهل قرية من اليمامة يقال لها الرس والفلج قيل قتلوا نبيهم فهلكوا وهم بقية ثمود. وقوم صالح، وقال كعب. ومقاتل. والسدي: أهل بئر يقال له الرس بأنطاكية الشام قتلوا فيها صاحب يس وهو حبيب النجار. [تفسير الألوسي (14 /96)].

عليها حنظلة عليه السلام فأصابتها الصاعقة، ثمّ إنهم كذبوا حنظلة فقتلوه، فأُهلكوا لذلك.

وقيل: قوم قتلوا نبيهم، فرسُّوه؛ أي: دسوه في بئر.

﴿وَ﴾ بالجملة: دمرنا بواسطة تكذيب رسلنا ﴿قُرُونًا﴾ أُخر؛ أي: أهل قرون وأعصار، قيل: القرن أربعون سنة، وقيل: مائة وعشرون سنة ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأمم الهالكة ﴿كَثِيرًا﴾ [الفرقان:38] لا يُعلم عددها إلا الله.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كُلًّا﴾ من الأمم الهالكة المذكورة وغير المذكورة ﴿ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ أولاً من الذين هلكوا قبلهم بالتكذيب، وبيَّنا لهم الأحكام والشرائع الموضوعة على مقتضى حكمتنا ومصلحتنا، فكذبوهم ظلمًا وعدوانًا فأهلكناهم بتكذيبهم خيبةً وخسرانًا ﴿وَ﴾ بواسطة تلك الخصلة المذمومة المشتركة بينهم ﴿كُلًّا﴾ منهم ﴿تَبَّرْنَا﴾ وفتتنا أجزاءه ﴿تَتْبِيرًا﴾[1] [الفرقان:39] تفتيتًا وتشتيتًا إلى حيث لم يبقَ منهم أحد يخلفهم ويحيي اسمهم.

ثمّ أخذ سبحانه بتعيير قريش وتوبيخهم وقساوة قلوبهم، وشدة شكيمتهم مع رسول الله ﷺ، وكمال غيهم وغفلتهم عن الله، ونهاية عمههم وسكرتهم، وعتوهم واستكبارهم في أنفسهم إلى حيث لم يتأثروا ولم يتعظوا مما جرى على أمثالهم من العصاة والبغاة، المتمردين على الله ورسله، فقال سبحانه مؤكدًا بالقسم على سبيل التعجب من شدة قساوتهم: ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ أَتَوْا﴾ يعني: قريشًا كانوا يذهبون إلى الشام؛ للتجارة ويمرون في كل مرة ذهابًا وإيابًا ﴿عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ﴾ على أهلها ﴿مَطَرَ السَّوْءِ﴾ يعني: الحجارة؛ قهرًا من الله إياهم، وزجرًا لهم من سوء فعالهم وخروجهم من حدود الله وسوء الأدب مع الله ورسوله؛ يعني: لوطًا، والقرية سدوم معظم بلاد قوم لوط.

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ في مرات مرورهم؛ حتى يتذكروا ويتعظوا منها ﴿بَلْ كَانُوا﴾ يرونها في كل مرة؛ إذ هي على جنب الطريق، لكن بكفرهم بالله وكمال قدرته وعزته ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ أي: لا يأملون ﴿نُشُورًا﴾ [الفرقان:40] أي: يوم ينشرون فيه

(1) قال ابن أبي زمنين (1/ 480): أي وأهلكنا قرونا يعني أمما قال قتادة القرن سبعون سنة وكلا يعني من ذكر ممن مضى له ضربنا به الأمثال أي خوفناهم العذاب وكلا تبرنا أهلكنا تتبيرا إهلاكا بتكذيبهم رسلهم.

للجزاء، ولا يخافون مما سيجري عليهم فيه؛ لذلك لم يعتبروا ولم يتعظوا منها ومما جرى على أهلها.

﴿وَ﴾ من كمال استكبارهم وشدة غيظهم معك يا أكمل الرسل ﴿إِذَا رَأَوْكَ﴾ في المرأى ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ أي: ما يتخذونك، ولا يحدثون عنك وفي شأنك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: كلامًا مُشعرًا بالاستهانة والاستحقار والسخرية؛ حيث يقولون في كل مرة من مرات رؤيتهم بك متهكمين: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ﴾ لكم ﴿رَسُولًا﴾ [الفرقان:41] يرشدكم ويهديكم إلى توحيد ربه، ويقيم عليكم الحجج والبراهين؛ ليصرفكم عن آلهتكم وآلهة آبائكم وأسلافكم؟!.

ومن كمال جده وجهده في أمره ونهاية مبالغته في السعي والاجتهاد ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ أي: إنه قرُب؛ ليضلنا ويصرفنا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا﴾ أي: ثبتنا ومكّنا ووطنا نفوسنا ﴿عَلَيْهَا﴾ لصرفنا عن آلهتنا؛ أي: على عبادة آلهتنا، وأضلنا عن طريق عبادتهم؛ لسعيه التام وجده البليغ في ترويج دينه وإثبات دعواه، وكثرة إظهار ما يخيل له أنه حجج ومعجزات وكمال فصاحةٍ في تبيينها، وبالجملة: لولا صبرنا وثباتنا على ديننا لضللنا عن آلهتنا بإضلاله، قال سبحانه ردًا عليهم على سبيل التهديد والتوبيخ: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أولئك الحمقى الجاهلون ﴿حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ النازل عليهم ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:42] وأخطأ طريقًا، وأسوأ حالاً ومآلاً، أنتم أيها الجاهلون المصرون على الجهل والعناد، أم المؤمنون؟.

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الفرقان:43-46].

ثم قال سبحانه على التوبيخ لعامة المشركين المتخذين غير الله إلهًا، سواء كانوا مشركين بالشرك الجلي أو الخفي، المسندين الأفعال والحوادث الكائنة في عالم الكون والفساد إلى الأسباب والوسائل العادية على مقتضى هوية نفوسهم؛ وذلك لجهلهم بالله وغفلتهم عن إحاطة علمه وقدرته، وجميع أوصافه وأسمائه بجميع ما ظهر وبطن، وكان ويكون: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ أي: أخبرني يا أكمل الرسل إن كنت من أهل الخبرة والذكاء،

أتهدي وترشد إلى التوحيد ﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ أي: من اتخذ هواه ومشتهى قلبه إلهًا يعبده كعبادة الله، قدَّم المفعول الثاني؛ للغاية والاهتمام ﴿أَفَأَنتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان:43] حفيظًا تحفظه عن متابعة هواه ومقتضى طبعه، مع أنا جبلناه وأثبتناه في لوح قضائنا وحضرة علمنا أنه من الأشقياء المردودين؟!.

﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ وتظن من كمال حرصك وشفقتك على إيمان هؤلاء الهلكى ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: أكثر المشركين ﴿يَسْمَعُونَ﴾ كلمة التوحيد سمع قبول ورضاء ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ويفهمون معناه فهم عارف متدرب متدبر؟! إلا من سبقت له العناية الأزلية والتوفيق، بل ﴿إِنْ هُمْ﴾ أي: ما أكثرهم ﴿إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ يأكلون ويمشون، وعن السمع والشعور معزولون ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:44] من الأنعام؛ لأنهم مجبولون على المعرفة والتوحيد، والأنعام ليست كذلك، فهم أسوأ حالاً منها.

فكيف لا يكونون أضل سبيلاً من الأنعام؛ لأنهم مع استعدادهم وقابلياتهم لقبول فيضان أنوار التوحيد، ومعرفة كيفية سريان الوحدة الذاتية، وامتداد أظلالها على هياكل الموجودات والمظاهر، صاروا محرومين عنها وعن شهودها والاطلاع عليها، غافلين عن لذاتها، مع أنهم إنما جُبلوا؛ لأن يدركوها ويشاهدوا عليها، وينكشفوا بسرائرها، ومع ذلك لا يجتهدون في شأنها، بل لا يلتفتون أيضًا، مع أنه سبحانه أشار إليها وصرَّح بها في كتابه العزيز؛ إرشادًا لنبيه ﷺ وتنبيهًا على من تبعه من المؤمنين؛ ليتفطنوا منها إلى مبدئهم ومعادهم، ويتصفوا بكمال المعرفة والتوحيد.

فقال مخاطبًا لحبيبه ﷺ؛ إذ أمثال هذه الخطابات لا يسع في سمع غيره ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المسترشد البصير، والمستكشف الخبير ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: مربيك الذي رباك بأنواع الكمالات وأرفع الدرجات ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾[1] أي: كيف بسط أظلال أوصافه

---

(1)قال الشيخ الألوسي (2 /342): على ما يعرفه أهل الذوق من الآية وكان الاستعداد من إبراهيم وكذا من موسى عليهما السلام متوجهًا إلى ابتغاء تلك الطمأنينة كما أبانا عن أنفسهما بـ و(رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ) [الأعراف:143] وطمأنينة مقام الصديقية كانت للصديقين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم كما أبدى عن نفسه إمام الصديقين كرم الله تعالى وجهه بقوله: «لو كشف» الخ، وكان الاستعداد في صدِّيقي سائر الأنبياء متوجهًا إلى ابتغاء تلك الطمأنينة فثبتت الفضيلة لمحمد صلى الله عليه وسلم على سائر إخوانه من الأنبياء والصديقية على سائر الصديقين من أممهم، ولم يثبت لصديقيه لوجدانهم طمأنينتهم الفضيلة على الأنبياء عند فقدانهم طمأنينتهم؛

وأسمائه، وعكوس شئونه وتطوراته على مرايا الإعدام القابلة، فيتراءى؛ أي: حسب اقتضاء أسمائه الحسنى وصفاته العليا ما لا يتناهى من الصور العجيبة والهياكل الغريبة حتى يتوهم المحجوبون أنها موجودات حقيقية متأصلة الوجود، مستقلة في الآثار المترتبة عليها.

ثمّ افترقوا، فذهب قوم إلى أنها موجودات متأصلة مستقلة بأنفسها، مستغنية عن فاعل خارجي يؤثر فيها، وهم الدهريون الجاهلون، القائلون بأن الطبيعة تكفي في تكوّن الأشياء، وإذا وجدت الشرائط وارتفعت الموانع تكوّن الشيء ألبتة بلا احتياج إلى فاعل خارجي مؤثر في وجوده، ولم يتفطنوا أولئك الحمقى أن هذه الصور باقية على عدماتها الأصلية، ما شمت رائحة من الوجود سوى أن ظل الوجود انبسط عليها.

لأن ما فقدوه من الطمأنينة غير ما وجده الصديقون منها؛ لأنهم إنما يفقدون الطمأنينة اللائقة بمقام النبوة والصديقون لم يجدوا مثل تلك الطمأنينة وإنما وجدوا طمأنينة لائقة بمقام الصديقين ولو رضي النبيون بمثله لكان حاصلاً لهم، وأجل من ذلك بعدة مراتب، ولقد اعترف الصديق الأكبر رضي الله تعالى عنه بهذا التخلف حين بلغه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إني لأسهو فقال: يا ليتني كنت سهو محمد صلى الله عليه وسلم إذ علم أن ما يعده رسول الله صلى الله عليه وسلم من نفسه الكريمة سهوًا فوق أعلى يقظان الصديق إذ حسنات الأبرار سيآت المقربين وحسنات المقربين سيآت النبيين، وهذا أولى مما سبق، وبعض من المتصوفة كجهلة الشيعة التزموا ظاهر كل من الكلامين وزعموا أن أولياء هذه الأمة وصديقهم أعلى كعبًا من الأنبياء ولو نالوا مقام الصديقية محتجين بما روي عن الإمام الرباني سيدي وسندي عبد القادر الكيلاني قدس سره أنه قال: يا معشر الأنبياء الفرق بيننا وبينكم بالألقاب وأوتينا ما لم تؤتوه، وببعض عبارات للشيخ الأكبر قدس سره ينطق بذلك، وأنت تعلم أن التزام ذلك والقول به خرق لإجماع المسلمين ومصادم للأدلة القطعية على أفضلية الأنبياء على سائر الخلق أجمعين، ويوشك أن يكون القول به كفرًا بل قد قيل به، وما روي عن الشيخ عبد القادر قدس سره فمما لم يثبت نقله عنه في كتاب يعول عليه، وما يعزى إلى الشيخ الأكبر قدس سره فتعارضه عبارات له أخر، مثل قوله قدس سره وهو الذي تعلم ترجمته لنفسه وعده إياها من أكبر الصديقين بل خاتم الولاية الخاصة والمقام المحمدي: فتح لي قدر خرم إبرة من مقام النبوة تجلياً لا دخولاً فكدت أحترق، وبتقدير تسليم ما نقل عمن نقل والقول بعدم قوة المعارض لنا أن نقول: إن ذلك القول صدر عن القائل عند فنائه في الحقيقة المحمدية والذات الأحمدية فاللسان حينئذ لسانها والقول قولها ولم يصدر ذلك منه حين رؤية نفسه، والوقوف عند رتبته وهذا غير ما ذهب إليه الشيعة وبعيد عنه بمراحل، ولعل النوبة تفضي إلى تحقيقه بأتم من هذا إن شاء الله تعالى، فخزائن الفكر ولله الحمد مملوءة، ولكل مقام مقال.

وآخر إلى أنها موجودات حقيقية قديمات بأنواع لها صور ومواد قديمة محتاجة إلى فاعل خارجي مؤثر موجب بمقارنة الصور للمادة، وهذا مذهب جمهور الحكماء، وهؤلاء الهلكى القاصرون عن درك الحق أيضًا لم يتنبهوا ألّا قديم في الوجود إلا الله الواحد القهار للسوى والأغيار مطلقًا.

وآخر إلى أنها موجودات حقيقية أبدعها الله تعالى من العدم بمقتضى علمه وقدرته وإرادته واختياره بلا وجوب شيء عليه في إيجادها، وبلا سبق مادة ومدة عليها، وهذا مذهب جمهور المتكلمين، وهؤلاء أيضًا لم يتنبهوا أن العدم لا يقبل الوجود أصلاً، كما أن الوجود لا يقبل العدم أصلاً؛ إذ بينهما تضاد حقيقي لا يتصف أحدهما بالآخر مطلقًا.

ومنشأ توهم هؤلاء الفرق الثلاث اقتصار نظرهم على الصور المرئية ظاهرًا وغفلتهم عن ذي الصورة التي هي عكوس وأظلال وآثار له، ولو علموا ارتباط هذه الصور بذي الصورة، وكوشفوا بوحدة الوجود، وشهدوا ألّا موجود إلا الله الواحد القهار لجميع الأغيار لم يبقَ لهم شائبة شك في عدمية هذه الصور المرئية، كما لاشك لهم في عدمية الصور المرئية في المرايا والأظلال، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له نور.

﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ وأراد سبحانه عدم انبساط عكس وجوده وانبعاث العدم على صرافته، ولم يجعله مرآة لكمالات وجوده ولم يلتفت إليها، ولم ينحل عليها ﴿لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي: جعل ظل وجوده مقبوضًا غير مبسوط؛ لفني العالم دفعةً ألبتة ﴿ثُمَّ﴾ أوضحنا هذا المد والبسط بمثال واضح من جملة المحسوسات عنايةً منا لعبادنا بأن ﴿جَعَلْنَا الشَّمْسَ﴾ في إضاءتها وإشراقها، وانبساط نورها وشعاعها على ظلمة الليل المشابهة بالعدم ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على بسط الوجود على مرايا الأعدام ﴿دَلِيلًا﴾ [الفرقان: 45] مثالاً موضحًا واضحًا لكيفية امتداد أظلال الوجود وانعكاسها من العدم؛ وذلك أن الشمس إذا أخذت في الإشراق، وبسطت على النور والآفاق، استنار العالم بعدما كان مظلمًا، وإذا قبضت عاد على ظلمته الأصلية.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما بسطنا ظل وجودنا على هياكل المظاهر والموجودات ﴿قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا﴾ دفعًا لتوهم الشركة المنافية لصرافة التوحيد، وإن كان بحسب الظاهر؛ إذ لا موجود حقيقة إلا الله الواحد القهار ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان:46] سهلاً.

فإن قدرنا له التغير والتجدد على تعاقب الأمثال؛ ليدل على ألّا وجود لها لذاتها؛ إذ لو كان لها وجود من نفسها لم يطرأ عليها التغير والانتقال، فعلم من هذه التغيرات الواقعة في الأكوان ألّا وجود لها في الحقيقة، بل لا وجود حقيقةً إلا للواجب الذي هو نفس الوجود.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان:47-52].

ثمّ تنزل سبحانه عن خطاب حبيبه ﷺ في المعارف والحقائق المتعلقة بالوحدة الذاتية السارية في الأكوان، وكيفية ارتباط الأكوان عليها إلى مخاطبة العوام ومقتضى استعداداتهم وقابلياتهم فقال: وكيف تغفلون عن مبدعكم ومظهركم أيها الغافلون؟! ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ تسترون بظلمته عن أعين الناس؛ لئلا يطلع بعضكم على مقابح بعض ﴿وَ﴾ جعل ﴿النَّوْمَ﴾ فيه ﴿سُبَاتًا﴾ راحة للأبدان بعد قطع المشاغل وقضاء الأوطار المتعلقة بالنهار ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان:47] تنتشرون في أقطار الأرض؛ لطلب المعاش، كل ذلك بتقدير الله وتدبيره وإصلاحه لأمور عباده.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا﴾ مبشرًا ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ يبشركم بنزوله ﴿وَ﴾ بعد تبشيرنا إياكم بالرياح المبشرات ﴿أَنْزَلْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:48] متناهيًا في الطهارة، مبالغًا أقصى غاياتها.

﴿لِنُحْيِيَ بِهِ﴾ أي: بالماء ﴿بَلْدَةً مَيْتًا﴾ قفرًا يابسًا جامدًا بأنواع النباتات والخضروات ﴿وَنُسْقِيَهُ﴾ أي: بالماء ﴿مِمَّا خَلَقْنَا﴾ في البراري والبوادي ﴿أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾[1] [الفرقان:49] وهي جمع: إنسان، حذف نونه عوضًا منها الياء فأدغم، أو

(1) قال الشيخ الألوسي (14 /114): تخصيص هذا النوع بالذكر لأن أهل القرى والأمصار يقيمون

جمع: إنسي؛ لبعدهم عن المنابع والأنهار.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ﴾ أي: المطر ﴿بَيْنَهُمْ﴾ إنعامًا لهم وإصلاحًا لحالهم، وكررنا ذكره في هذا الكتاب، وكذا في الكتب السالفة ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ ويتفكروا في نعمنا وإنعامنا، ويواظبوا على شكرنا؛ ليزداد لهم، ومع ذلك ﴿فَأَبَى﴾ وامتنع ﴿أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ عن قبوله وما يزيدون ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان:50] أي: كفرانًا للنعم وإنكارًا لمنعها، حيث يقولون منكرًا على المنعم: مُطرنا بنوء كذا.

﴿وَ﴾ من شدة بغيهم وكفرانهم ﴿لَوْ شِئْنَا﴾ وتعلق مشيئتنا؛ لإنذار كل منهم بمنذر مخصوص ﴿لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ من القرى نبيًا ﴿نَذِيرًا﴾ [الفرقان:51] ينذرهم عما هم عليه من الكفران والطغيان، ولكن بعثناك يا أكمل الرسل إلى كافتهم وعامتهم تعظيمًا لشأنك وإجلالاً لك، فلك ألّا تعي من حمل أعباء رسالتنا وتبليغ ما أمرناك به، ولا تلتفت إلى مزخرفاتهم التي أرادوا أن يخدعوك بها.

﴿فَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ﴾ المصرين على الكفر والعناد مطلقًا ﴿وَ﴾ لا تتبع أهوائهم، بل ﴿جَاهِدْهُم بِهِ﴾ أي: بدينك هذا ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:52] حتى تقمع وتقلع دينهم الباطل، وتروج أمر دينك الحق ترويجًا بليغًا إلى حيث يظهر دينك على الأديان كلها ﴿وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾ [النساء:6].

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ

بقرب الأنهار والمنابع فيهم وبما لهم من الأنعام غنية عن سقي السماء وسائر الحيوانات تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب غالبًا، ومساق الآيات الكريمة كما هو للدلالة على عظم القدرة كذلك هو لتعداد أنواع النعمة فالأنعام حيث كانت قنية للإنسان وعامة منافعهم ومعايشهم منوطة بها قدم سقيها على سقيهم كما قدم عليها أحياء الأرض، فإنه سبب لحياتها وتعيشها فالتقديم من قبيل تقديم الأسباب على المسببات، وجوز أن يكون تقديم ما ذكر على سقي الأناسي؛ لأنهم إذا ظفروا بما يكون سقي أرضهم ومواشيهم لم يعدموا سقياهم، وحاصله أنه من باب تقديم ما هو الأهم والأصل في باب الامتنان، وذكر سقي الأناسي على هذا إرداف وتتميم للاستيعاب، ومن تبعيضية أو بيانية و(كَثِيراً) صفة للمتعاطفين لا على البدل.

أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الفرقان: 53-57].

﴿وَ﴾ قل لهم تنبيهًا عليهم: كيف تغفلون عن ربكم وعن دينه الموضوع فيكم إصلاحًا لحالكم؟! ﴿هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي: التوحيد والشرك كلاهما متجاورين متلاصقين، مع أنه ﴿هَٰذَا﴾ أي: التوحيد ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ سائغ شرابه للمتعطشين بزلاله ﴿وَهَٰذَا﴾ أي: الشرك والكفر ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: مالح في كمال الملوحة إلى حيث يقطع أمعاء شاربيه ﴿وَ﴾ من كمال لطف الله على عباده ﴿جَعَلَ﴾ سبحانه دين الإسلام والشريعة الموضوعة؛ للضبط ﴿بَيْنَهُمَا﴾ أي: بين التوحيد والشرك ﴿بَرْزَخًا﴾ مانعًا عن التصاقهما واتصالهما ﴿وَ﴾ جعله ﴿حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان:53] أي: حدًا محدودًا، مانعًا عن امتزاجهما واختلاطهما.

﴿وَ﴾ كيف تنكرون أيها المنكرون سريان وحدته الذاتية على صفائح مظاهره ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾ أي: أظهر وأوجد تنبيهًا لعباده على سر توحيده ﴿مِنَ الْمَاءِ﴾ أي: من نقطة النطفة ﴿بَشَرًا﴾ سويًا ذا أجزاء مختلفة طبعًا وشكلًا، صلابةً ولينًا، قوةً وضعفًا، رقةً وغلظًا، إلى غير ذلك من الصفات المتقابلة والأجزاء المتفاوتة التي عجزت عن تشريح جزءٍ من أجزاء شخص من أشخاص نوع الإنسان فحول الحكماء، مع وفور دواعيهم لكشفها إلى حيث تاهوا وتحيروا عن ضبط ما فيه من الامتزاجات والارتباطات، فكيف عن جميع أجزائه؟! وبعدما قدّره سبحانه، وسوّاه بكمال قدرته وقوته، ووفور حكمته قسّمه قسمين ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا﴾ أي: جعل قسمًا منه ذكرًا ذا نسب ونسل ينسب إليه من يخلفه من أولاده الحاصلة من نطفة.

﴿وَ﴾ جعل قسمًا آخر منه ﴿صِهْرًا﴾ أي: أنثى يصاهر بها؛ أي: يختلط ويمتزج الذكر معها؛ إبقاءً للنوع وتتميمًا لبقائه على سبيل التناسل والتوالد إلى ما شاء الله ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كَانَ رَبُّكَ﴾ الذي رباك يا أكمل الرسل على كمال الذكاء والفطنة في فهم سرائر توحيده، ورقائق تجلياته الجلالية والجمالية ﴿قَدِيرًا﴾ [الفرقان:54] على ما شاء وأراد بلا فتور وقصور.

﴿وَ﴾ مع كمال قدرته سبحانه، وعلو شأنه وسطوع برهانه ﴿يَعْبُدُونَ﴾ من خبث طينتهم وشدة قسوتهم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الحقيق بالعبودية ذاتًا ووصفًا واسمًا ﴿مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ يعني: أصنامًا وأوثانًا لا يُرجى نفعهم ولا ضرهم لا لأنفسهم ولا

لغيرهم وبالجملة: لا يملكون شيئًا من لوازم الألوهية والربوبية مطلقًا ﴿وَكَانَ الكَافِرُ﴾ الجاحد الجاهل بذات الله وكمال أسمائه وصفاته ﴿عَلَى رَبِّهِ﴾ الذي رباه بمقتضيات أوصافه وأسمائه ﴿ظَهِيرًا﴾ [الفرقان:55] يظهر عليه بالباطل ويظاهره، وينبذ الحق وراء ظهره ويخالفه، ولا يلتفت إليه عتوًا واستكبارًا.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[1] [الفرقان:56] إلى كافة البرايا وعامة العباد؛ لتبشرهم على ما ينفعهم، وتنذرهم عما يضرهم؛ يعني: تهديهم إلى المعرفة والتوحيد الذي هم جُبلوا لأجله، وتمنعهم عن المفاسد المنافية له ولطريقه.

وإن نسبوك يا أكمل الرسل إلى أخذ الجُعل والرشا؛ لإرشادك وإهدائك إياهم ﴿قُلْ﴾ لهم تبكيتًا وإلزامًا: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ﴾ وأطلب منكم ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغي إياكم ما أُوحي إلي من ربي، وإرشادي لكم بمقتضى الوحي الإلهي ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جُعل ومال آخذه منكم، وأجعله سببًا للجاه والثروة وأنواع المفاخرة والمباهاة بها، كما هو عادة الجهلة المتشيخين في هذا الزمان الذين هم من أعوان الشيطان، نسبوا أنفسهم إلى الصوفية المتشرعين تلبيسًا وتغريرًا، وأخذوا من ضعفاء العوام من حطام الدنيا بعدما أفسدوا عقائدهم بأنواع التلبيسات والتدليسات، وتحليل المحرمات وإباحة المحظورات واختزنوها.

ثمّ ادعوا بسببها الرئاسة والسيادة حتى مضوا عليها زمانًا، وكثر الأتباع والأحشام، وهيأوا الأعوان والأنصار بتلبيسهم هذا، ثمّ بعد ذلك بغوا على السلطان وقصدوا الخروج على أولي الأمر والطاعة، واشتغلوا بتخريب البلدان وإضرار أهل الإيمان، وقصدوا أموال الأنام وأعراضهم وسبي ذراريهم، ومع ذلك سموا أنفسهم أهل الحق والعدل، وأرباب المعرفة والإيمان، وأصحاب التحقيق واليقين، ألا ذلك هو الخسران المبين والطغيان العظيم. عصمنا الله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. بل ما أطلب بتبليغي هذا ﴿إِلَّا﴾ هداية ﴿مَن شَاءَ﴾ وأراد بتوفيق الله إياه ممن سبقت لهم العناية الأزلية ﴿أَن يَتَّخِذَ﴾ ويطلب ﴿إِلَى رَبِّهِ﴾ الذي رباه بأنواع الكرامات ﴿سَبِيلًا﴾ [الفرقان:57] يوصله إلى

---

(1) والمقصود أن هؤلاء الجهال الذين يقترحون عليك هذه المعجزات ويتمردون عن قبول دينك لا شيء عليك من كفرهم فإني ما أرسلتك إلا مبشراً للمطيعين ونذيراً للجاحدين فإن قبلوا الدين الحق انتفعوا به وإلا فليس عليك من كفرهم شيء. انظر [تفسير الرازي (10 /147)].

معرفته وتوحيده.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان: 58-62].

﴿وَ﴾ إن انصرفوا عنك وأعرضوا عن هدايتك وإرشادك، وقصدوا تعنتك وقتلك عدوانًا وظلمًا، فلا تبالِ يا أكمل الرسل بهم وبشأنهم ولا تحزن عن أمرهم، بل ﴿تَوَكَّلْ﴾ في مقابلتهم ومقاومتهم ﴿عَلَى الْحَيِّ﴾ القيوم ﴿الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أي: لا يعرضه الموت والفناء ﴿وَسَبِّحْ﴾ ربك ونزهه عما لا يليق بشأنه مقارنًا تسبيحك ﴿بِحَمْدِهِ﴾ على آلائه ونعمائه الفائضة عليك على التعاقب والتوالي، سيما على ما اصطفاك من بين البرايا، وأعطاك الرئاسة والسيادة على كافة الأنام، والرسالة على قاطبة الأمم، بلغ ما أنزل إليك ولا تفرح من إيمانهم، ولا تحزن على كفرهم وطغيانهم ﴿وَ﴾ اعلموا أنه ﴿كَفَى بِهِ﴾ أي: كفى الله سبحانه عالمًا ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِ﴾ ما ظهر منهم وما سيظهر، وما بطن في استعداداتهم، وكن في قابلياتهم ﴿خَبِيرًا﴾ [الفرقان: 58] مطلعًا بصيرًا على وجه الحضور والشهود لا يعزب عن حيطة حضرة علمه شيء منها، مجازيًا قديرًا، ومنتقمًا عزيزًا يجازيهم بقدرته على مقتضى اطلاعه وخبرته.

وكيف لا يعلم ويطلع سبحانه بجميع ما ظهر وبطن، وهو ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أبدعهما وأظهرهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من كتم العدم بلا سبق الهيولي والزمان ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: على عدد الجهات والأقطار المحفوفة بجميع الكوائن والفواسد ﴿ثُمَّ﴾ بعدما كمل ترتيبها على أبلغ نظام ﴿اسْتَوَى﴾ وتمكن وانبسط ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: على عروش جميع المظاهر بالاستيلاء التام والبسطة العامة ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الذي وسعت رحمته كل ما ظهر وبطن، غيبًا وشهادة.

﴿فَاسْأَلْ بِهِ﴾ أي: بما ذكر من خبرة الله وإحاطة علمه وقدرته وإظهاره ما ظهر

وبطن عينًا وشهادةً، وإحاطته واستيلائه على عروش الرحمن بالرحمة العامة ﴿خَبِيرًا﴾ [الفرقان:59] ذا خبرة يخبرك بصدقها من أرباب القلوب الواصلين إلى مرتبة الكشف وعموم الشهود ممن سبقت لهم العناية الأزلية، والجذبة الجالية الغالبة من قبل الحق، المفنية لهم عن أنانياتهم، المبقية لهم ببقاء الحق.

﴿وَ﴾ مع ظهور استيلاء الحق وانبساطه على عروش ذرائر الأكوان ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ على سبيل الإيقاظ عن نعاس النسيان، والتنبيه عن نومة الحرمان: ﴿اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ المظهر لكم من كتم العدم بسعة رحمته وجوده ﴿قَالُوا﴾ منكرين له مع كمال ظهوره مستفهمين على سبيل الاستغراب والاستبعاد: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ الذي تدعوننا إلى سجوده؟ أتوا بالسؤال بلفظة (ما) من كمال نكارته عندهم وشدة إنكارهم عليه، قائلين: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: لكل شيء تأمرنا بسجوده أنت من تلقاء نفسك ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان:60] أي: ما زاد دعوتك إياهم وإرشادك لهم إلا نفورًا عن الحق وطريق توحيده؛ لخبث طينتهم وشدة شكيمتهم، وكمال غيهم وقسوتهم.

وكيف تنفرون وتنصرفون هؤلاء الجاهلون الغافلون عن سجوده سبحانه، مع أنه ﴿تَبَارَكَ﴾ وتعالى عن شأنه، عن أن ينصرف عنه وينفر منه أحد من عباده، مع كثرة خيراته وبركاته عليهم؛ لأنه ﴿الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: العلويات ﴿بُرُوجًا﴾[1]

(1) قال الألوسي (130/14): الظاهر أنها البروج الإثنا عشر المعروفة. وأخرج ذلك الخطيب في كتاب النجوم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وهي في الأصل القصور العالية وأطلقت عليها على طريق التشبيه لكونها للكواكب كالمنازل الرفيعة لساكنيها ثم شاع فصار حقيقة فيها ، وعن الزجاج أن البرج كل مرتفع فلا حاجة إلى التشبيه أو النقل . واشتقاقه من التبرج بمعنى الظهور ، والذي يقتضيه مشرب أهل الحديث أنها في السماء الدنيا ولا مانع منه عقلاً لا سيما إذا قلنا بعظم ثخنها بحيث يسع الكواكب وما تقتضيه على ما ذكره أهل الهيئة وهي عندهم أقسام الفلك الأعظم المسمى على ما قيل بالعرش ولم يرد فيما أعلم إطلاق السماء عليه وإن كان صحيحاً لغة سميت بأسماء صور من الثوابت في الفلك الثامن وقعت في محاذاتها وقت اعتبار القسمة وتلك الصور متحركة بالحركة البطيئة كسائر الثواب، وقد قارب في هذه الأزمان أن تخرج كل صورة عما حاذته أولاً وابتداؤها عندهم من نقطة الاعتدال الربيعي وهي نقطة معينة من معدل النهار لا تتحرك بحركة الفلك الثامن ملاقية لنقطة أخرى من منقطة البروج تتحرك بحركته وإذا لم يتحرك مبدأ البروج بتلك الحركة لم يتحرك ما عداها، وقد جعل الله تعالى ثلاثة منها ربيعية وهي الحمل. والثور. والجوزاء وتسمى التوأمين أيضاً، وثلاثة صيفية وهي السرطان. والأسد والسنبلة وتسمى العذراء أيضاً وهذه الستة شمالية. وثلاثة خريفية وهي الميزان.

لتكون منازل للكواكب المدبرة للأمور الأرضية ﴿وَ﴾ بعدما هيأها سبحانه على أبلغ النظام ﴿جَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ أي: شمسًا دائرة من برج إلى برج ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: 61] منقلبًا من منزل إلى منزل من المنازل المذكورة؛ ليحصل من دورها وانقلابها الفصول الأربعة المصلِحة لأحوال ما في السفليات من المواليد الثلاثة.

﴿وَ﴾ كيف تغفلون عن الصانع الحكيم أيها الضالون ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ متعاقبة متجددة، فخلف أحدهما الآخر؛ ليكون مرصدًا وميقاتًا ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ ويتذكر آلاء الله المتوالية المتتالية عليه، الفائضة من عنده على تعاقب الأوقات والساعات ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:62] أي: أراد أن يشكر على نعمائه الواصلة إليه في خلالهما.

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا

والعقرب. والقوس ويسمى الرامي أيضاً ، وثلاثة شتوية وهي الجدي. والدلو. ويسمى الدالي وساكب الماء أيضاً. والحوت تسمى السمكتين وهذه الستة جنوبية، ولحلول الشمس في كل من الأثني عشر يختلف الزمان حرارة وبرودة الليل والنهار طولاً وقصراً وبذلك يظهر بحكم جري العادة في عالم الكون والفساد آثار جليلة من نضج الثمار وإدراك الزروع ونحو ذلك مما لا يخفى، ولعل ذلك هو وجه البركة في جعلها. وأما ما يزعمه أهل الأحكام من الآثار إذا كان شيء منها طالعاً وقت الولادة أو شروع في عمل من الأعمال أو وقت حلول الشمس نقطة الحمل الذي هو مبدأ السنة الشمسية في المشهور فهو محض ظن ورجم بالغيب وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في ذلك مفصلاً ، ولهم في تقسيمها إلى مذكر ومؤنث وليلي ونهاري وحار وبارد وسعد ونحس إلى غير ذلك كلام طويل ولعلنا نذكر شيئاً منه بعد أن شاء الله تعالى، ومن أراده مستوفى فليرجع إلى كتبهم ، ثم الظاهر أن البروج المجعولة مما لا دخل للاعتبار فيها، والمذكور في كلام أهل الهيئة أنها حاصلة من اعتبار فرض ست دوائر معلومة قاطعة للعالم فيكون للاعتبار دخل فيها وإن لم تكن في ذلك كأنياب الأغوال لوجود مبدأ الانتزاع فيها فإن كان الأمر على هذا الطرز عند أهل الشرع بأن يعتبر تقسيم ما هي فيه إلى اثنتي عشرة قطعة وتسمى كل قطعة برجًا، فالظاهر أن المراد بجعله تعالى إياها جعل ما يتم به ذلك الاعتبار ويتحقق به أمر التفاوت والاختلاف بين تلك البروج، وفيه من الخير الكثير ما فيه ، وقيل: إن في الآية إيماء إلى أن اعتبار التقسيم كان عن وحي ، والمشهور أن من اعتبر ذلك أولاً هرمس وهو على ما قيل ادريس عليه السلام فتأمل.

﴿اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان:63-67].

﴿وَ﴾ المتذكرون لآلاء الله، المواظبون لأداء حقوقها حسب طاقتهم، هم ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ الواصلون إلى مرتبة الرضوان، الفائزون بلقاء الرحمن، وهم ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى﴾ وجه ﴿الأَرْضِ﴾ التي هي محل أنواع الفسادات ﴿هَوْنًا﴾ هينين لينين بلا منازعة وجدال مع أحد من بني نوعهم، وسوء خصال معهم من كبر وخيلاء ﴿وَ﴾ هم من كمال سكينتهم ووقارهم، وتلطفهم مع عباد الله ﴿إِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ﴾ بعلو شأنهم ورفعة مكانهم بما يكرهون من الشتم والوقاحة والاستهزاء.

﴿قَالُوا﴾ من سلامة نفوسهم وطيب قلوبهم: ﴿سَلامًا﴾ [الفرقان:63] أي: تسليمًا عليهم بلا تغير وتأثر من قولهم، وتركًا لانتقامهم ومخاصمتهم، توطينًا لنفوسهم على التسليم والرضا بجريان القضاء والحلم وكظم الغيظ، هذا حالهم وشغلهم بين الناس في النهار.

﴿وَ﴾ شغلهم في الليل، هم ﴿الَّذِينَ يَبِيتُونَ﴾ ويدخلون في الليل بائتين، صاروا في خلاله ﴿لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا﴾ ساجدين، واضعين جباههم على تراب المذلة؛ طلبًا لمرضاة الله بلا شوب السمعة والرياء، والعجب والهوى؛ لكونهم خالين في خلاله مع الله بلا وقوف أحد عليهم ﴿وَقِيَامًا﴾ [الفرقان:64] قائمين بين يدي الله تواضعًا وخدمةً ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ في مناجاتهم مع الله في خلواتهم: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع الكرامات ﴿اصْرِفْ عَنَّا﴾ بفضلك وجودك ﴿عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ المعد لعصاة عبادك ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان:65] حتمًا لازمًا لنا، لولا فضلك بنا وإحسانك علينا، فإنهم مع كمال توجههم وتحننهم نحو الحق على وجه الإخلاص ورسوخهم في الأعمال الصالحة الخالصة بلا فوت شيء من لوازمها خائفون، وجلون عن بطشه سبحانه وانتقامه؛ لأنهم لا يتكئون ولا يتكلون إلى أعمالهم وطاعاتهم، ولا يثقون بها.

بل ما يعتمدون ويتكلمون إلا بفضل الله وسعة رحمته وجوده قائلين، مستعيذين من النار: ﴿إِنَّهَا﴾ أي: جهنم البعد والحرمان ﴿سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا﴾ يستقر أحد فيها ساعةً وآنًا ﴿وَ﴾ كيف أن تجعل لنا يا مولانا ﴿مُقَامًا﴾ [الفرقان:66] نقيم فيها زمانًا.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا﴾ مما رزقهم الله من الأطايب على الفقراء والمساكين ﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾ في الإنفاق إلى أن وصل حد التبذير المذموم عقلاً وشرعًا ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ في الإمساك والمنع إلى أن وصل حد التقتير المحرَّم، المكروه شرعًا ومروءة، بل ﴿وَكَانَ﴾ إنفاقهم ﴿بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:67] وسطًا عدلاً بين طرفي الإفراط والتفريط المذمومين، الساقطين عن درجة الاعتبار عند الله وعند الناس، المسقطين للنفس عن الاعتدال الحقيقي المقبول عند الله وعند عموم عباده.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان:68-71].

﴿وَ﴾ بالجملة: هم الموحدون ﴿الَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد، المستقل بالألوهية والربوبية ﴿إِلَهاً آخَرَ﴾ يستحق للعبودية مثله ﴿وَ﴾ من جملة خصائلهم الحميدة: إنهم ﴿لَا يَقْتُلُونَ﴾ بحال من الأحوال ﴿النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله وأحكامه قتلها؛ إذ كل نفس من النفوس البشرية إنما وضعت وبنيت بيتًا لله، مهبطًا معه ولوحيه وإلهامه، محلاً لحلول سلطان وحدته الذاتية ومجلى لظهور أسمائه الحسنى وصفاته العليا العظمى الكاملة، فلا يصح هدم بيته وتخريب بنائه ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالرخصة الشرعية الموضوعة بوضع الله سبحانه حدًا وقصاصًا.

﴿وَ﴾ من جملة أخلاقهم الحميدة: إنهم ﴿لَا يَزْنُونَ﴾ عدوانًا وعدولاً عن مقتضى الحد الشرعي والوضع الإلهي في حفظ النسب عن اختلاط النطف؛ إذ هي من أخس المحرمات وأفحش المحظورات؛ لذلك عقَّبه سبحانه بالوعيد الهائل، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي: الزنا التي هي الفعلة الشنيعة، والديدنة القبيحة المتناهية في القبح والشناعة المستكرهة عند الطباع السليمة، المسقطة للمروءة والعدالة ﴿يَلْقَ﴾ يوم الجزاء ﴿أَثَامًا﴾ [الفرقان:68] أي: جزاء مسمى بالأثام مبالغةً وتأكيدًا، كأن اسم الإثم موضوع له حقيقةً وهي جامع لجميع ما يطلق عليه اسم الإثم ادعاءً لذلك.

﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لا ضعفًا مرة، بل أضعافًا كثيرةً، ومع ذلك التضعيف والتشديد ﴿وَيَخْلُدْ﴾ ويدوم ﴿فِيهِ﴾ أي: في العذاب ﴿مُهَانًا﴾ [الفرقان:69] صاغرًا ذليلاً بالنسبة إلى جميع أهل النار؛ إذ الزنا من أقبح الجرائم عند الله وأفحشها؛ إذ لا جُرم عنده سبحانه أعظم من هتك محارمه، أعاذنا الله من ذلك.

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عما جرى عليه من سوء القضاء، ورجع إلى الله نادمًا عن فعله خائبًا خاسرًا، مستحييًا من الله، خائفًا عن بطشه، مكذبًا لنفسه، معيرًا عليها، متأوهًا متحسرًا عما صدر عنه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿آمَنَ﴾ بتوحيد الله، وأكّد توبته بتجديد الإيمان المقارن بالإخلاص الصائن للمؤمنين عن ارتكاب المحظورات المنافية للإيمان، وبالجملة: جدد إيمانه معتقدًا أنه حين صدر عنه لم يكن مؤمنًا ﴿وَ﴾ مع التوبة وتجديد الإيمان ﴿عَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا﴾ منبئًا عن إخلاصه في إيمانه وتوبته، مشعرًا على يقينه ومعرفته.

﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ السعداء التائبون الآيبون المقبولون، هم الذين ﴿يُبَدِّلُ اللهُ﴾ الحكيم المصلح لأحوال عباده بعدما وفقهم على التوبة الخالصة والإنابة الصحيحة الوثيقة ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ التي أتوا بها قبل التوبة ﴿حَسَنَاتٍ﴾ بعدها، بأن يمحو سبحانه بفضله معاصيهم المثبتة في صحائف أعمالهم قبل إنابتهم، ويثبت بدلها حسنات بعدها ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المطلع لسرائر عباده وإخلاصهم ﴿غَفُورًا﴾ لهم، متجاوزًا عن ذنوبهم وإن عظمت بعدما جاءوا بالتوبة الخالصة ﴿رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:70] يقبل توبتهم ويعفو زلتهم.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن تَابَ﴾ ورجع إلى الله نادمًا عما مضى عليه من المعاصي ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ تلافيًا لما فات من الطاعات والحسنات، جابرًا لما انكسر من قوائم إيمانه وأعماله بالمفاسد والآثام ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ﴾ ويرجع ﴿إِلَى اللهِ﴾ المتفضل المحسن الكريم الرحيم ﴿مَتَابًا﴾ [الفرقان:71] أي: توبة مقبولة عند الله، مرضية دونه.

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ

مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧)﴾ [الفرقان:72-77].

﴿وَ﴾ المؤمنون المقبولون المبرورون عند الله، هم ﴿الَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: الشهادة الباطلة المسقطة للعدالة والمروءة أصلاً ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿إِذَا مَرُّوا﴾ فجأة بلا سبق ترقب منهم وتجسس ﴿بِاللَّغْوِ﴾ مطلقًا؛ أي: ما يجب أن يلغو ويطرح من المكروهات والمحظورات والمستقبحات، سواء كان قوليًا أو فعليًا ﴿مَرُّوا﴾ عليها ﴿كِرَامًا﴾ [الفرقان:72] أي: مكرِّمين أنفسهم عن الوقوف عليه، مستغفرين مَن الله لمن ابتلاه الله به غاضين أبصارهم عن تدقيق النظر نحوه وتكرير المشاهدة إليه، والمبالغة في المطارحة والمطالعة فيه، وبالجملة: مروا باللغو على وجه التلطف والرفق والتليين؛ بحيث يستحيي من رفعته ولطفه المبتلون به؛ لعل الله يتوب عليهم بكرامة كرمه، إلى حيث لا يحومون حول ذلك اللغو بعد ذلك أصلاً.

﴿وَ﴾ هم ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا﴾ ووعظوا ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الدالة على توحيده واستقلاله في ألوهيته وربوبيته ﴿لَمْ يَخِرُّوا﴾ ولم يسقطوا ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على الآيات ﴿صُمًّا﴾ أصمين غافلين عما فيها من الأوامر والنواهي، والعبر والأمثال، والرموز والإشارات ﴿وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان:73] أعمياء عن مطالعة آثار أوصاف صفاته الجلالية والجمالية فيها بل يخرون ويتذللون عند سماعها، واعين حافظين بما فيها من المواعظ والتذكيرات المتعلقة لأحوالهم في النشأتين، مطالعين منها آثار الأوصاف والأسماء الإلهية، ناظرين عليها بنظر الاعتبار والاستبصار.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ داعين مناجين متضرعين، قائلين: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على فطرة التوحيد والإيقان ﴿هَبْ لَنَا﴾ بفضلك، وسعة لطفك وجودك من في حوزتنا وجوارنا ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أي: اجعلهم بحيث تقر وتتنور عيوننا برؤيتهم من كمال صلاحهم وسدادهم، ممتثلين بأوامرك، مجتنبين عن نواهيك ﴿وَ﴾ بعدما وهبتنا يا مولانا ولأهلينا ما تقر به عيوننا من الاتقاء عن محارمك والامتثال بأوامرك، و﴿اجْعَلْنَا﴾ بلطفك ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ المحترزين الحذرين عن محارمك ومنهياتك ﴿إِمَامًا﴾ [الفرقان:74] مقتدى بهم، نرشدهم إلى طريق توحيدك.

وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله، المذكورة أوصافهم من قوله

سبحانه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ...﴾ [الفرقان:63] إلى هنا، هم الذين ﴿يُجْزَوْنَ﴾ من عند ربهم تفضلاً عليهم وامتنانًا ﴿الْغُرْفَةَ﴾[1] وهي أعلى درجات الجنان ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: بسبب ما صبروا على مشاق الطاعات ومتاعب الرياضات، والتحمل على قطع التعلقات وترك المألوفات، والذب عن جملة المشتهيات والمستلذات ﴿وَ﴾ بعدما استقروا عليها ﴿يُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً﴾ وترحيبًا من الملائكة من جميع الجوانب ﴿وَسَلامًا﴾ [الفرقان:75] أي: سلامة عن جميع الآفات.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة لا يتحولون عنها ولا يتبدلون، بل دائمون فيها مقيمون؛ لذلك ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا﴾ مستقرون فيها ومتمكنون عليها ﴿وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: 76] يقيمون ويتوطنون فيها.

ثمّ لمّا دعا رسول الله ﷺ عموم المشركين إلى الإيمان والتوحيد، وأمرهم بالإطاعة والانقياد على ما أمرهم الله، ونهاهم عما نهاهم سبحانه على مقتضى الوحي الإلهي والكتاب المنزل من عنده كذبوه، وأنكروا له قائلين: نحن لا نؤمن بك ولا بكتابك ولا بربك الذي ادّعيت الرسالة عنه، ولا نطيع بما أُمرنا ونُهينا عنه، وبالجملة: لا نقبل منك جميع ما جئت به من قِبَل ربك، ونسبته إليه افتراءً ومراءً.

ردَّ الله عليهم قولهم هذا على أبلغ وجه وآكده مخاطبًا لحبيبه ﷺ، آمرًا له بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم بعدما انصرفوا عن دعوتك، والإيمان بك وبربك والعمل بكتابك: ﴿مَا يَعْبَأُ﴾ أي: ما يبالي ويعتد بكم وبإيمانكم وكفركم ﴿بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾ أي: إطاعتكم وعبادتكم إياه وانقيادكم له ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بي وبربي، وأنكرتم بجميع ما جئتُ

(1) الغرفة ربما كان المقصود بها الجنة، أو المكان الخاص في الجنة، كما أن الغرفة أكرم من البهو فيما اعتاد الناس في البيوت في هذه الأرض، عندما يستقبلون الأضياف، وأولئك الكرام الذين سبقت صفاتهم وسماتهم، يستقبلون في الغرفة بالتحية والسلام، جزاء ما صبروا على تلك الصفات والسمات، وهو تعبير ذو دلالة، فهذه العزائم تحتاج إلى الصبر على شهوات النفس، ومغريات الحياة، ودوافع السقوط، والاستقامة جهد لا يقدر عليه إلا بالصبر، الصبر الذي يستحق أن يذكره الله في هذا الفرقان، وفي مقابل جهنم التي يتضرعون إلى ربهم أن يصرفها عنهم لأنها ساءت مستقراً ومقاماً، يجزيهم الله الجنة (خالدين فيها . حسنت مستقراً ومقاماً) فلا مخرج لهم إلا أن يشاء الله، وهم فيها على خير حال من الاستقرار والمقام، والآن وقد صور عباد الرحمن، تلك الخلاصة الصافية للبشرية، يختم السورة بهوان البشرية على الله لولا هؤلاء الذين يتطلعون إلى السماء، فأما المكذبون فالعذاب حتم عليهم لزام.

به من عنده سبحانه عنادًا ومكابرةً، الزموا مكانكم فتربصوا، وانتظروا لجزاء تكذيبكم وإنكاركم ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان:77] أي: سيكون جزاء تكذيبكم حتمًا لازمًا عليكم غير منقطعٍ عنكم أبدًا، بل يكبكم في النار خالدين صاغرين، ويعذبكم فيها مهانين ذليلين، نعوذ بك منك يا ذا القوة المتين.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي اللازم لتهذيب الأخلاق عن الرذائل، وتطهير الصفات عن الذمائم، والأطوار عن القبائح، والأسرار عن الميل إلى السوى والأغيار من الأمور المنافية المكدرة لصفاء مشرب التوحيد، أن تتأمل وتتعمق في مرموزات الآيات العظام المذكورة في هذه السورة، سيما في الآيات التي وصَف بها سبحانه خلَّص عباده المتحققين لمرتبة العبودية، المنكشفين بسعة اسمه الرحمن، المظهر لمظاهر الأكوان شهادةً وغيبًا، وتتدبر في إشاراتها حق التدبر والتفكر إلى أن يترسخ في قلبك معانيها رسوخًا تامًا، وينتقش في صحيفة سرك وخاطرك فحاويها انتقاشًا كاملاً، إلى أن تصير من جملة وجدانيتك وذوقك.

وبعدما صرت ذا وجدان وحالٍ بها، وذقت حلاوتها فزت بغرفات جنة الرضا والتسليم، فحينئذٍ يترشح في صدرك رشحات بحر الوحدة الذاتية، واستنشقت من نفحات النفسات الرحمانية المهبة من فناء الحضرة الأحدية المصفية من التعينات الهيولانية والتعلقات الطبيعية، فلك ألَّا تنظر ولا تلتفت بعد ذلك إلى مقتضيات علائق ناسوتك مطلقًا، وتجمع همك نحو لوازم لاهوتك، لعل الله ينقذك بفضله عن أغلال أنانيتك وسلاسل بشريتك بمنِّه وجوده.

سورة الشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الشعراء

لا يخفى على من تحقق بمقام الرضاء والتسليم، وفوض أمره إلى الحكيم العليم، وانكشف له ألّا فاعل للأفعال إلا هو، ولا موجود في الوجود سواه، ولا متصرف بالاستقلال والاختيار غيره، إن ما جرى في فضاء الوجود غيبًا وشهادة، أزلاً وأبدًا إنما هو مستند إليه سبحانه، وأثر من آثار أوصافه وأسمائه بلا شركة ومظاهرة من أحد سواه، ومتى تحقق عنده هذه الأمور، واتضح لديه هذا المذكور فله أن يترك التصرف مطلقًا بحيث لا يحزن عن فقد شيء ولا يفرح عن وجده، وحينئذٍ ارتفع عنه الإرادة والكراهة والوجدان والفقدان، والربح والسرور والخذلان، بل صار راضيًا بجميع ما جرى عليه من القضاء.

لذلك خاطب سبحانه حبيبه ﷺ وعاتبه بما لاح عليه من أمارات المحبة والإرادة بإيمان من يدعوهم إلى التوحيد من الكفرة المعاندين، وعلامات الحزن والكراهة من إصرارهم وتعنتهم على ما هم عليه من الكفر والشقاق، فقال متيمنًا باسمه الأعلى تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المصلح المدبر لمفاسد عباده على مقتضى إرادته واختياره ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بإفاضته الوجود، وليتنبهوا بربوبيته ويواظبوا على إطاعته وعبوديته ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم إلى فضاء توحيده بعدما أخلصوا التوجه نحوه، وأتوا بالأعمال الصالحة طلبًا لمرضاته.

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾ [الشعراء:1-9].

﴿طسم﴾[1] [الشعراء:1] يا طالب السعادة والسيادة المؤبدة المخلدة، ويا طاهر الطينة والطوية من أدناس الطبيعة البشرية، ويا سالم السر والسريرة من العلائق الناسوتية البشرية، ويا ماحي آثار الرذائل المكدرة لصفاء شراب التوحيد.

﴿تِلْكَ﴾ الآيات العظام المذكورة في هذه السورة ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: من جملة آيات القرآن ﴿الْمُبِينِ﴾ [الشعراء:2] المبين المظهر لدلائل التوحيد، الموضح للبينات والبراهين القاطعة الدالة على حقية دينك، إنما أنزلناها يا أكمل الرسل تأييدًا لأمرك وتعظيمًا لشأنك، فلك أن تبلغها على قاطبة الأنام وعامة المكلفين على الوجه الذي تُلي وأُوحي إليك بلا التفاتٍ منك إلى إيمانهم وكفرهم، وتصديقهم وتكذيبهم، بل ما عليك إلا البلاغ وعلينا الحساب.

إلا أنك من فرط محبتك لإيمانهم بك وبدينك وكتابك ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ﴾ هالك قاتل ﴿نَفْسَكَ﴾ تحسرًا وتحزنًا ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:3] أي: لأجل ألا يكونوا مصدقين لك ولدينك وكتابك، مع أنَّا لا نريد إيمانهم وهدايتهم، بل مضى في قضائنا وثبت في حضرة علمنا كفرهم وضلالهم، وما يبدل القول لدينا، ولا يغير حكمنا.

بل ﴿إِن﴾ أي: إن تعلق إرادتنا ومشيئتنا لإيمانهم ﴿نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ ملجئة لهم إلى الإيمان والتصديق ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾ أي: صارت حين نزول الآية الملجئة أعناقهم التي هي أسباب كبرهم وخيلائهم من كمال الإطاعة والانقياد ﴿لَهَا﴾ أي: للآية الملجئة النازلة ﴿خَاضِعِينَ﴾[2] [الشعراء:4] منكوسين منكسرين منخفضين،

---

(1) قال الجنيد : الطاء طرب التائبين في ميدان الرحمة . والسين سرور العارفين في ميدان الوصلة . والميم مقام المحبين في ميدان القربة ، وقيل : الطاء طهارة القدم من الحدثان والسين سناء صفاته تعالى التي تكشف في مرايا البرهان . والميم مجده سبحانه الذي ظهر بوصف البهاء في قلوب أهل العرفان . وقيل : الطاء طهارة قلب نبيه صلى الله عليه وسلم عن تعلقات الكونين . والسين سيادته صلى الله عليه وسلم على الأنبياء والمرسلين عليهم السلام . والميم مشاهدته عليه الصلاة والسلام جمال رب العالمين ، وقيل : الطاء شجرة طوبى والسين سدرة المنتهى والميم محمد صلى الله عليه وسلم. [تفسير الألوسي (14 /402)].

(2) قال الشيخ الألوسي (161/14): أي منقادين وهو خبر عن الأعناق وقد اكتسبت التذكير وصفة العقلاء من المضاف إليه فأخبر عنها لذلك بجمع من يعقل كما نقله أبو حيان عن بعض أجلة علماء العربية. واختصاص جواز مثل ذلك الشعر كما حكاه السيرافي عن النحويين مما لم يرتضه المحققون ومنهم أبو العباس وهو ممن خرج الآية على ذلك ، وجوزأن يكون ذلك لما

بحيث لا يتأتى لهم الإعراض عنها والتكذيب بها أصلاً.

﴿وَ﴾ متى لم تتعلق مشيئتنا لم يؤمنوا، بل ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ أي: عظةٍ وتذكيرٍ نازلٍ ﴿مِّنَ﴾ قِبَل ﴿الرَّحْمَنِ﴾ تفضلاً عليهم ﴿مُحْدَثٍ﴾ مستبدعٍ على مقتضى الأعصار والأزمان؛ لإصلاح نفوس أهلها من المفاسد والضلال ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ﴾ أي: عن الذكر المحدث ﴿مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء:5] منصرفين؛ لعدم تعلق مشيئتنا بقبولهم، بل إنما أرسلناك يا أكمل الرسل إليهم، وأمرنا بدعوتهم وتبليغهم؛ ليتعظ ويتذكر منهم ممن

أنها وصفت بفعل لا يكون إلا مقصوداً للعاقل وهو الخضوع كما في قوله تعالى: (رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) [يوسف: 4] وأن يكون الكلام على حذف مضاف وقد روعي بعد حذفه أي أصحاب أعناقهم ، ولا يخفى أن هذا التقدير ركيك مع الإضافة إلى ضميرهم ، وقال الزمخشري : أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع لأنه يتراءى قبل التأمل لظهور الخضوع في العنق بنحو الانحناء أنه هو الخاضع دون صاحبه وترك الجمع بعد الأقحام على ما كان عليه قبل . وقال الكسائي: إن خاضعين حال للضمير المجرور لا للأعناق. وتعقبه أبو البقاء فقال: هو بعيد في التحقيق لأن (خاضعين) يكون جارياً على غير فاعل (ظَلَّتْ) فيفتقر إلى إبراز ضمير الفاعل فكان يجب أن يكون خاضعين هم فافهم، وقال ابن عباس. ومجاهد. وابن زيد. والأخفش: الأعناق الجماعات يقال : جاءني عنق من الناس أي جماعة ، والمعنى ظلت جماعاتهم أي جملتهم. وقيل : المراد بها الرؤساء والمقدمون مجازاً كما يقال لهم : رؤس وصدور فيثبت الحكم لغيرهم بالطريق الأولى ، وظاهر كلامهم أن إطلاق العنق على الجماعة مطلقاً رؤساء أم لا حقيقة وذكر الطيبي عن الأساس أن من المجاز أتاني عنق من الناس للجماعة المتقدمة وجاؤا رسلاً رسلاً وعنقاً عنقاً والكلام يأخذ بعضه بأعناق بعض ثم قال : يفهم من تقابل رسلاً رسلاً لقوله : عنقاً عنقاً أن في إطلاق الأعناق على الجماعات اعتبار الهيئة المجتمعة فيكون المعنى فظلوا خاضعين مجتمعين على الخضوع متفقين عليه لا يخرج أحد منهم عنه. وقرأ عيسى. وابن أبي عبلة (خاضعة) وهي ظاهرة على جميع الأقوال في الأعناق بيد أنه إذا أريد بها ما هو جمع العنق بمعنى الجارحة كان الإسناد إليها مجازياً و(مَا لَهَا) في القراءتين صلة ظلتم أو الوصف والتقديم للفاصلة أو نحو ذلك لا للحصر، وظلت عطف على تنزل ولا بد من تأويل أحد الفعلين بما هو من نوع الآخر لأنه وإن صح عطف الماضي على المضارع إلا أنه هنا غير مناسب فإنه لا يترتب الماضي على المستقبل بالفاء التعقيبية أو السببية ولا يعقل ذلك والمعقول عكسه، وبتأويل أحد الفعلين يدفع ذلك لكن اختار بعضهم تأويل ظلت بتظل وكأن العدول عنه إليه ليؤذن الماضي بسرعة الانفعال وأن نزول الآية لقوة سلطانه وسرعة ترتب ما ذكر عليه كأنه كان واقعاً قبله ، وبعضهم تأويل ننزل بأنزلنا ، ولعل وضعه موضعه لاستحضار صورة إنزال تلك الآية العظيمة الملجئة إلى الايمان وحصول خضوع رقابهم عند ذلك في ذهن السامع ليتعجب مه فتأمل.

سبقت له العناية الأزلية من خلّص عبادنا، وتعلقت إرادتنا بهدايتهم ورشدهم في أصل فطرتهم واستعدادهم، وبعدما بلغت إليهم الذكر والعظة المهذِّبة لقلوبهم عن رين الكفر والشرك العارض لهم من قبل آبائهم وأسلافهم سمعوا سمع قبولٍ ورضاء؛ إذ كل ميسر، موفق لما خلق له.

وأمّا المجبولون على فطرة الشقاوة، المطبوعون على قلوبهم بغشاوة الغفلة والضلال ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ بها حين سمعوها، ولم يقتصروا على تكذيبها فقط، بل استهزؤوا بها وبك يا أكمل الرسل عتوًا واستكبارًا، فلا تلتفت إليهم ولا تبالِ بهم وبإيمانهم ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ عن قريب ﴿أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الشعراء:6] فظهر حينئذٍ أحق حقيق بأن يُنقاد ويتبع، أم هو باطل يجب تكذيبه والانصراف عنه؟!.

وكيف ينكرون بآياتنا الدالة على كمال قدرتنا وحكمتنا، أولئك المعرضون عنادًا ومكابرةً؟! ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ولم ينظروا ويتفكروا حتى يعتبروا، مع أنهم من أهل النظر والاعتبار ﴿إِلَى﴾ عجائب ﴿الْأَرْضِ﴾ اليابسة الجامدة ﴿كَمْ أَنْبَتْنَا﴾ من كمال قدرتنا ووفور حكمتنا ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ أجناس كثيرة من النباتات والحيوانات والمعادن وغير ذلك مما لا اطلاع لهم عليه؛ إذ ما يعلم جنود ربك إلا هو، ﴿كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:7] كلها ذوي الكرامات والبركات، والمنافع والخيرات.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في إنبات كل من أنواع النبات، وإخراج كل من أصناف الحيوانات، وأجناس المعادن منها ﴿لَآيَةً﴾ بينة واضحة، قاطعة دالة على أن منبتها ومخرجها متصف بجميع أوصاف الكمال، ونعوت الجمال والجلال، فاعل بالاختيار والاستقلال بلا مزاحمة الأشباه والأمثال ﴿وَ﴾ هي وإن كانت في غاية الوضوح والجلاء، لكن ﴿مَا كَانَ﴾ وثبت ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: أكثر الناس ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:8] موفقين على الإيمان والتوحيد في علم الله ولوح قضائه؛ لذلك لم يؤمنوا بالآيات العظام، ولم يستدلوا منها إلى وجود الصانع الحكيم العلام القدوس السلام، المنزَّه ذاته عن طريان التقضي والانصرام.

﴿وَ﴾ إن كذبوك يا أكمل الرسل بما جئت من الآيات العظام، وعاندوا معك لا تبالِ لهم ولا تحزن ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك بأنواع الكرامات ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب المقتدر على البطش والانتقام ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:9] الحليم الذي لا يعجِّل بالعذاب وإن استوجبوا، بل يمهلهم زمانًا؛ لعلهم يتنبهون على ما فرطوا من سوء المعاملة مع الله

ورسوله وآياته فيتوبوا نادمين ضارعين خاشعين.

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الشعراء:10-19].

ثمّ أشار سبحانه إلى تعداد المكذبين الضالين عن طريق الحق، التائهين في تيه الغفلة والغرور فقال: ﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمنصرفين عنك وعن آياتك عنادًا قصة أخيك موسى الكليم - صلوات الرحمن عليه - مع فرعون وملئه، وقت ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ﴾ عبده ﴿مُوسَىٰ﴾ وأوحى إليه بعدما ظهر الفساد في الأرض من استيلاء فرعون وملئه على بني إسرائيل واستعبادهم، وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم ظلمًا.

حين قال له سبحانه: ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء:10] أي: لك الإتيان بالدعوة والرسالة يا موسى على القوم الظالمين، الخارجين عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة بين العباد؛ للإنصاف والانتصاف؛ يعني: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ الطاغي الباغي الذي بغى على عباد الله بأنواع الجور والفساد، فقل لهم أولاً بعدما ذهبت إليهم على سبيل التنبيه: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:11] ويحذرون عن قهر الله، أيها المسرفون المكابرون، والمتجاوزون عن مقتضى العقل والنقل.

وبعدما ناداه سبحانه ما ناداه ﴿قَالَ﴾ موسى ملتجئًا إلى الله، مناجيًا له: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع اللطف والكرم ﴿إِنِّي﴾ من غاية ضعفي وانفرادي ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [الشعراء:12] ولا يقبلون دعوتي ولا يلتفتون إلي.

﴿وَ﴾ بذلك ﴿يَضِيقُ صَدْرِي﴾ ويكلُّ خاطري عن تبليغ ما أمرتني به ﴿وَ﴾ بعد ضيق صدري وكلِّ خاطري ﴿لَا يَنطَلِقُ﴾ ولا يجري ﴿لِسَانِي﴾ على تبينها وتفهمها، مع أن في لساني لكنة جِبلّية، وبالجملة: أنا وحدي لا أطيق بحمل أعباء الرسالة وتبليغها، واجعل لي يا ربي ظهيرًا يعينني، وأخي أولى بالمظاهرة والمعاونة ﴿فَأَرْسِلْ﴾ بمقتضى

فضلك وجودك حامل وحيك ﴿إِلَىٰ هَارُونَ﴾ [الشعراء:13] أخي، وأمره أن يشركه في أمري؛ حتى نذهب إلى فرعون ونبلغ رسالتك إياه.

﴿وَ﴾ لاسيما ﴿لَهُمْ﴾ أي: لقوم فرعون ﴿عَلَيَّ ذَنبٌ﴾ عظيم، وهو قتلي فيما مضى قبطيًا منهم ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء:14] بقصاصه.

﴿قَالَ﴾ سبحانه في جوابه على سبيل الردع: ﴿كَلَّا﴾ أي: ارتدع يا موسى عن الخوف منهم بعدما أيدناك واصطفيناك للرسالة، ولا تبالِ بهم وبكثرتهم؛ إذ لا يسع لهم أن يقتلوك، وإن أردت أن تشرك أخاك معك في أمركَ هذا فتشركه، فأرسل سبحانه جبرائيل عليه السلام إلى هارون بالوحي وأشركه مع أخيه، وأمرهما بتبليغ الرسالة إلى فرعون بقوله: ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على عظمة ذاتنا وكمال صفاتنا، وبلغا ما أُمرتما بتبليغه بلا خوف منهم ومبالاةٍ لهم ﴿إِنَّا﴾ حاضرون ﴿مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:15] ما جرى بينكم حافظون لكما عما قصدوا من المقت والأذاء.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ مجترئين بلا مبالاة له ﴿فَقُولَا﴾ له بلا دهشة وخوف من سطوته واستيلائه: ﴿إِنَّا﴾ أي: كل واحد منا ﴿رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:16] إليك أيها الطاغي نبلغك من عنده سبحانه.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا﴾ قومنا ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:17] أي: خلِّ سبيلهم؛ حتى يذهبوا بنا إلى أرض الشام سالمين عن ظلمك وجورك.

﴿قَالَ﴾ في جوابهما مخاطبًا لموسى؛ إذ هو أصل في الرسالة، معاتبًا عليه، متهكمًا موبخًا: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ زمانًا يا موسى حين كنت ﴿وَلِيدًا﴾ لا متعهد لك سوانا ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا﴾ بعدما كبرت إلى حيث مضى ﴿مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء:18].

قيل: لبث فيهم ثلاثين، ثمّ خرج إلى مدين عشر سنين، ثمّ عاد عليهم إلى التوحيد ثلاثين سنة، ثمّ بقي بعد غرقهم خمسين سنة.

﴿وَ﴾ بعدما ربيناك بأنواع التربية والكرامة ﴿فَعَلْتَ﴾ من سوء صنيعك ﴿فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ بأن قتلت نفسًا بلا جريمة صدرت منها موجبة لقتلها، فقتلها ظلمًا وعدوانًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء:19] لنعمنا كفرانًا سقط به لياقتك للرسالة والهداية، فالآن جئت تدعي الرسالة والإرشاد إلى الهداية.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا

وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء:20-28].

﴿قَالَ﴾ موسى في جوابه معترفًا بما صدر عنه في أوان جهله وغفلته: ﴿فَعَلْتُهَا﴾ أي: الفعلة المذكورة المذمومة ﴿إِذًا﴾ أي: حينئذٍ ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء:20] في تلك الحالة، الجاهلين بعواقب الأمور، الغافلين بما يترتب عليه من الأوزار.

وبعد فراري منكم؛ لأجلها وصلت إلى خدمة مرشد رشيد يرشدني ويربيني بأنواع الكرامات ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي﴾ من أثر صحبته وحسن تربيته ﴿حُكْمًا﴾ أي: حكمة متقنة كاملة ﴿وَجَعَلَنِي﴾ بفضله ﴿مِنَ﴾ جملة ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:21] فأرسلني إليكم؛ لأدعوكم إلى توحيده.

ثمّ شرع موسى في جواب ما منَّ عليه فرعون من حقوق النعمة والتربية فقال: ﴿وَتِلْكَ﴾ النعمة التي عددت ﴿نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾[1] ليست تبرعًا؛ حتى أكون ممنونًا بها، بل ما هي إلّا ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ زمانًا قومي ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:22] بل لها صاغرين مهانين مظلومين بأنواع الظلم والهوان، فما أنا ممنون منك حقيقة، بل منهم؛ لأنهم

---

(1) اختلف الناس في معنى هذا الكلام، فقال السدي والطبري والفراء: هذا الكلام من موسى ﷺ على جهة الإقرار بالنعمة، كأنه يقول: نعم! وتربيتك نعمة علي من حيث عبدت غيري وتركتني، ولكن لا يدفع ذلك رسالتي، وقيل: هو من موسى ﷺ على جهة الإنكار، أي أتمن علي بأن ربيتني وليدًا وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم؟ ! أي ليست بنعمة؟ لأن الواجب كان ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومي، فكيف تذكر إحسانك إلي على الخصوص؟ ! قال معناه قتادة وغيره، وقيل: فيه تقدير استفهام، أي أو تلك نعمة؟ قاله الأخفش والفراء أيضًا وأنكره النحاس وغيره، قال النحاس: وهذا لا يجوز لأن ألف الاستفهام تحدث معنى، وحذفها محال إلا أن يكون في الكلام «أم»، ولا أعلم بين النحويين اختلافًا في هذا إلا شيئًا قاله الفراء، قال: يجوز ألف الاستفهام في أفعال الشك، وحكي ترى زيدًا منطلقًا؟ بمعنى أترى، وكان علي بن سليمان يقول في هذا: إنما أخذه من ألفاظ العامة، قال الثعلبي: قال الفراء ومن قال إنها إنكار قال معناه أو تلك نعمة؟ على طريق الاستفهام، كقوله: (هذا ربي) (فهم الخالدون).

متسببون لتربيتك وحضانتك بي.

وبعدما جرى بينهم ما جرى ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ مستكبرًا، مستفهمًا على سبيل الاستبعاد والإنكار: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:23] أي: ما هو؟ وما ماهيته وحقيقته؟ ولأي شيء تدعونا إليه؟ عبّر عنه سبحانه بـ(ما) من غاية إنكاره واستحقاره.

﴿قَالَ﴾ موسى في جوابه منبهًا له على ظهوره سبحانه في الآفاق: هو ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: موجدهما ومظهرهما من كتم العدم ﴿وَمَا﴾ حدث ﴿بَيْنَهُمَا﴾ من الكوائن والفواسد ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:24] أي: من ذوي الإيقان والعرفان بحقائق المحدثات المبدعة من كتم العدم بلا سبق مادة وزمان، بل بامتداد أظلال الأسماء والصفات الإلهية على مرايا الإعدام بمقتضى التجليات الحبية المنتشئة من الذات الأحدية وإلّا فلا يمكن تعريفه بإيراد الأجناس والفصول؛ إذ هو سبحانه منزه عن الاشتراك والامتياز؛ إذ هو الواحد من كل الوجوه، المستقل بوجوب الوجود والتحقق مع امتناع غيره مطلقًا، لا يمكن أن يقومه جنس، ويميزه فصل حتى يركب له حدٌّ أو رسم.

وبعدما سمع من موسى ما سمع ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ﴾ من ملئه وأشرافه متهكمًا بجوابه: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:25] جوابه أيها العقلاء، سألته عن حقيقته وذاته فأجاب بعد أفعاله وآثاره المترتبة على أوصافه وأسمائه التي هي من عوارض ذاته.

وبعدما سمع موسى تشنيعهم واستبعادهم، أراد أن يزيد أيضًا على تنبيههم فأجاب بظهوره سبحانه في الأنفس رجاء أن يتنبهوا، حيث ﴿قَالَ﴾: هو سبحانه ﴿رَبُّكُمْ﴾ مظهركم، ومربيكم بأنواع التربية والكرامة ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:26] الأقدمين.

وبعدما سمع فرعون كلامه ثانيًا ﴿قَالَ﴾ جازمًا عازمًا: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ﴾ سماه رسولاً تهكمًا واستهزاءً ﴿الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ﴾ لإرشادكم وإصلاحكم ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:27] لا يتكلم بالمقابلة، بل يتفوه كيفما اتفق بلا تأمل وتدرب، سألته عن شيء وأجاب بأشياء لا أسأله.

وبعدما لم يتنبهوا بالتنبيهات المذكورة، بل ازدادوا إنكارًا فوق إنكار إلى حيث نسبوه إلى الخبط والجنون ﴿قَالَ﴾ موسى كلامًا جمليًا كليًا، مشتملاً على جميع الأمور

المنبهة: هو سبحانه ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: مشرق الشمس ومديرها كل يوم بمدار مخصوص، ومغيبها كذلك تتميمًا وتدبيرًا لمصالح عباده وجميع حوائجهم المتعلقة لمعاشهم على الوجه الأحكم الأبلغ، الأعدل بلا فوت شيء منها ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء:28] وتطرحون عقولكم إلى التأمل والنظر في عجائب مصنوعاته وغرائب مخترعاته، وكيفية تدبيراته في إبدائه وإنشائه، وإبقائه وإفنائه، وفي جميع الأمور المتعلقة بألوهيته وربوبيته.

إن اجتهدتم حق السعي والجهد في شأنه لاهتديتم إلى وحدة ذاته، ووجوب وجوده واستقلاله في التصرف في مظاهره ومصنوعاته، فحينئذٍ لم يبقَ لكم شائبة شكٍ فيه سبحانه حتى تحتاجوا إلى السؤال والكشف عن جنابه.

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء: 29-40].

وبعدما جهلهم موسى وشدد عليهم، وسفههم ﴿قَالَ﴾ فرعون مستكبرًا مستعليًا مهددًا: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ﴾ وعبدت يا موسى ﴿إِلَٰهًا غَيْرِي﴾ على مقتضى زعمك ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:29] المعهودين عندك أنهم لا مخلص لهم عن سجني حتى يموتوا فيه، فإنه كان يطرح المخالفين في هوة عميقة يموتون فيها.

وبعدما سمع موسى تهديده وعتوه ﴿قَالَ﴾ مستفهمًا على سبيل التعجيز والغلبة: ﴿أَ﴾ تفعل ما هددتني به ﴿وَلَوْ جِئْتُكَ﴾ أيها الطاغي المتجبر ﴿بِشَيْءٍ﴾ أي: بمعجزةٍ ﴿مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:30] ظاهر الدلالة على صدقي في دعواي.

﴿قَالَ﴾ فرعون مستحييًا عن الناس، مستبعدًا نفسه عن العجز: ﴿فَأْتِ بِهِ﴾ أي: بالذي ادعيت من المعجزة ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء:31] في الدعوى.

﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾ على الفور ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء:32] ظاهر ثعبانيته، عظيم بحيث لا يُشتبه على أحدٍ أمره.

﴿وَ﴾ بعدما ألقى عصاه ﴿نَزَعَ يَدَهُ﴾ أي: أخرجها من جيبه؛ ليثبت مدعاه بشاهدين ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ﴾ محيرة مفرقة للأبصار من غاية شعاعها ولمعانها ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء:33] إليها، مدهشة لقلوبهم إلى حيث تاهوا وتحيروا من تشعشعها.

فلما رآها فرعون ﴿قَالَ﴾ بعدما أوجس في نفسه خيفة ﴿لِلْمَلَإِ﴾ الذين يجلسون ﴿حَوْلَهُ﴾ مستغربًا من أمره، مستعجبًا: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المدعي ﴿لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء:34] ماهر في علم السحر، بالغ نهايته.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ المألوفة ﴿بِسِحْرِهِ﴾ هذا وكمال فيه ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء:35] في أمره أيها الأشراف.

انظر أيها المتأمل الناظر إلى كمال قدرة الله وسطوع حججه الغالبة البالغة، كيف تأثر منها فرعون المتكبر المتجبر الطاغي، مع كمال عتوه واستعلائه، إلى حيث اضطر إلى المشورة مع الناس في أمر موسى ودفعه، مع أنه ادّعى الألوهية لنفسه.

وبعدما سمع الأشراف قوله ﴿قَالُوا﴾ له: مقتضى شأنك وجلالك ألّا تتسارع إلى قتلهما؛ لئلا تُنسب إلى العجز والإلزام منهما ومن حجتهما، بل ﴿أَرْجِهْ﴾ واحبس موسى ﴿وَأَخَاهُ﴾ هارون، وأخِّر قتلهما زمانًا ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ﴾ شرطة ﴿حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء:36] جامعين.

حتى ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ مبالغ في السحر ﴿عَلِيمٍ﴾ [الشعراء:37] فائق منه، بالغ نهايته.

فبعث شرطة إلى الأقطار بعدما وكّل عليهما وكلاء يحبسونهما ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ﴾ المهرة في هذا الفن ﴿لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[1] [الشعراء:38] أي: لوقت عُيّن لجمعهم في يوم الزينة، وهو وقت الضحى.

---

(1) قال الشيخ الألوسي(14 /200): لما وقت به من ساعات يوم معين وهو وقت الضحى من يوم الزينة على أن الميقات من صفات الزمان، وفي الكشاف هو ما وقت به أي حدد من زمان أو مكان ومنه مواقيت الإحرام.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ﴾ أي: نودي عليهم في الطرق والسلك: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:39] لموعد يوم معلوم؛ حتى تشاهدوا حال موسى وهارون وغلبة السحرة عليهما، وإبطال ما أتيا به من السحر.

﴿لَعَلَّنَا﴾ بأجمعنا ﴿نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء:40] إياهما.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشعراء:41-51].

فخرج فرعون إلى الموعد واجتمع الناس فيه، وأحضروا موسى وهارون ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ الموعد ﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ﴾ طالبين الجُعل منه: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء:41] المبطلين ما جاء به من السحر.

﴿قَالَ﴾ لهم فرعون: ﴿نَعَمْ﴾ إن غلبتم أنتم لكم من الأجر ما أَملتم وطلبتم ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء:42] إليّ، المصاحبين معي، فلكم الترقي والزيادة في الإنعام والإحسان في كل حين وأوان.

وبعدما رضوا بما وُعدوا جاءوا بمقابلة موسى، واشتغلوا بمعارضته ﴿قَالَ لَهُم﴾ أي: للسحرة ﴿مُّوسَىٰ﴾ على سبيل الجراءة وعدم المبالاة بسحرهم: ﴿أَلْقُوا﴾ أيها الطغاة البغاة، المتعارضون بأكاذيب السحرة والشعبذة مع آيات الله ومعجزاته عنادًا ومكابرةً ﴿مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [الشعراء:43] من الأباطيل.

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ التي احتالوا فيها بأنواع الحيل ﴿وَقَالُوا﴾ حين إلقائها مقسمًا: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ وسطوته وجلاله ﴿إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء:44] المقصورون علي الغلبة على موسى وأخيه.

ولمّا رأى موسى من أباطيلهم ما رأى ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ﴾ بإلهام الله إياه ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ ثعبان مبين ﴿تَلْقَفُ﴾ أي: تبتلع وتلتقم جميع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء:45] أي: يحتالون فيه، ويخيّلونه حيات تسعى بتمويهاتهم وتزويراتهم.

وبعدما شاهد السحرة من عصا موسى ما شاهدوا من الأمر العظيم المعجز الذي لا يتأتى بالسحر مثله تيقنوا أنها ما هي سحر وشعبذة، بل أمر سماوي إلهي، لا يُكتنه لميته وكيفيته.

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ﴾ على الفور ﴿سَاجِدِينَ﴾ [الشعراء:46] متذللين، واضعين جباههم على تراب المذلة استحياءً من مقابلة أباطيلهم معه.

﴿قَالُوا﴾ حين سقطوا صائحين: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء:47].

﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الشعراء:48] وصدقنا إنهما رسولان من عنده سبحانه على الحق، وأذعنّا ألّا معبود يُعبد بالحق، ويستحق للعبادة سواه، ولا إله غيره.

وبعدما رأى فرعون منهم ما رأى ﴿قَالَ﴾ مهددًا متوعدًا إياهم: ﴿آمَنتُمْ لَهُ﴾ أي: صدقتم موسى بغتةً، وآمنتم لإلهه ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ بتصديقه، فقد لاح ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ﴾ ومعلمكم ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ اتفقتم معه في الخلوة؛ لتفضحونا على رءوس الملأ ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أيها المفسدون أنّا أقدر على الانتقام والتعذيب أم رب موسى؟! ﴿لأُقَطِّعَنَّ﴾ أولاً ﴿أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ﴾ متبادلتين ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ بعد ذلك على رءوس الأشهاد ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء:49] بجمعكم هذا؛ ليعتبر من حالكم من في قلبه خلافنا ونفاقنا.

وبعدما سمعوا تهديده ووعيده ﴿قَالُوا﴾ منقطعين نحو الحق، متشوقين بلقياه: ﴿لا ضَيْرَ﴾ أي: لا ضرر يلحق بنا من قتلك وإهلاكك إيانا أيها الطاغي ﴿إِنَّا﴾ بالموت الصوري والهلاك المجازي ﴿إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:50] صائرون راجعون بعد ارتفاع أنانيتنا الباطلة عن البين، وهويتنا الباطلة عن العين.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ بعدما خرجنا عن أنانيتنا هذا ﴿أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ التي صدرت عنا في زمان جهلنا وغفلتنا ﴿أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:51] أي: لأن كنا أول المؤمنين الموقنين بتوحيده اليوم.

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ

حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء:52-62].

﴿وَ﴾ بعدما أقام موسى فيهم زمانًا، ويدعوهم إلى التوحيد دائمًا وما زادوا إلَّا عتوًا وعنادًا، وأدى عتوهم إلى أن قصدوا مقته وهلاكه، وقتل من معه من المؤمنين؛ لذلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾ بعدما هموا العزم لهلاكه، وقلنا له: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي: سِرْ ليلاً يا موسى مع من تبعك من عبادي ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء:52] يتبعكم ويعقبكم فرعون وجنوده.

فأسرى موسى مع المؤمنين، فاطلع فرعون وقومه على إسرائهم ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ شرطة ﴿فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء:53] لجنودهم؛ ليتبعوهم.

وأمر الشرطة أن قالوا للجيش ترغيبًا لهم وتحريكًا لحميتهم: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ﴾ الفارين ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ أي: طائفة وجماعة ﴿قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء:54] بالنسبة إلينا، مع أنهم ستمائة وسبعون ألفًا، وقوم فرعون من كثرتهم لا يعد ولا يحصى.

﴿وَ﴾ لنا أن نتبعهم ونستأصلهم ﴿إِنَّهُمْ﴾ قوم عدو ﴿لَنَا لَغَائِظُونَ﴾[1] [الشعراء:55] بنا، يفعلون أفعالاً تغيظنا وتحرك غيظنا، فلنا أن نقلع عرقهم عن وجه الأرض.

﴿وَإِنَّا﴾ وإن كنا أقوياء أشداء على الأعداء ﴿لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ [الشعراء:56] دائمًا عن كيدهم ومكرهم، وإفسادهم بأنواع الفسادات من قطع الطريق والالتجاء بالأعداء والمظاهرة معهم، ولا بدَّ لذوي الحزم والعزم من الضبط والاحتياط في عموم الأحوال.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُم﴾ بعدما تعلق إرادتنا بإهلاكهم وإغراقهم بهذه الدواعي والبواعث المهيجة لنفوسهم إلى الخروج والاقتفاء أثر الأعداء ﴿مِّن جَنَّاتٍ﴾ منتزهات بهية فيها

(1) قال الألوسي (14 /218): لفاعلون ما يغيظنا من مخالفة أمرنا والخروج بغير إذننا مع ما عندهم من أموالنا المستعارة، فقد روى أن الله تعالى أمرهم أن يستعيروا الحلي من القبط فاستعاروه وخرجوا به، وتقديم (لَنَا) للحصر والفاصلة واللام للتقوية أو تنزيل المتعدي منزلة اللازم.

فواكه شهية ﴿وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء:57] أي: منابع تجري منها في جناتهم الأنهار خلالها؛ ليزيد صفاء ونضارة وبهاء.

﴿وَكُنُوزٍ﴾ من الذهب والفضة مدفونة وغير مدفونة ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: 58] هو المنازل الحسنة والقصور المرتفعة الموضوعة فيها الأرائك والسرور والبسط المفروشة من الحرير وغيرها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: أخرجناهم إخراجًا كذلك بإحداث بواعث الخروج في نفوسهم وإزعاجهم إلى أن يخرجوا مضطرين ﴿وَ﴾ بعدما ما أخرجناهم عمّا أخرجناهم ﴿أَوْرَثْنَاهَا﴾ أي: ما سمعت من المذكورات جميعها ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:59] إنعامًا لهم وامتنانًا عليهم بما صبروا بظلمهم وأنواع أذياتهم.

وبعدما اجتمع الجيش من أطراف المدائن، وازدحموا على باب فرعون خرجوا خلفهم مسرعين ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء:60] أي: وقت طلوع الشمس من المشرق.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ أي: تقاربا إلى أن رأى كل من الجمعين صاحبه ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ﴾ مشتكين إليه، ميئوسين من الحياة بعدما رأوا من خلفهم جيشًا لا يُعدّ ولا يُحصى، وعن أمامهم البحر الذي لا يمكن العبور عنه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: 61] ملحقون، يلحقنا العدو الآن وبعد فناؤنا في البحر.

﴿قَالَ﴾ موسى ؛ردعًا لهم وإزالةً لرعبهم: ﴿كَلَّا﴾ أي: ارتدعوا عن هذا القول ولا تخافوا عن إدراكهم ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:62] ويلهمني إلى طريق النجاة والخلاص؛ إذ وعدني اليوم بالخلاص، فإن وعده حتم لا يخلف.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا

كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الشعراء:63-74].

فصبر إلى أن قرب العدو، ووصل موسى على شاطئ البحر مضطرًا مضطربًا ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ بأن قلنا له: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضربه على الفور ﴿فَانفَلَقَ﴾ البحر، وافترق فرقًا وقُطع قطعًا كثيرة ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ بعد انفلاقه وانقطاعه ﴿كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:63] أي: كالجبل الراسي المرتفع نحو السماء، الثابت في مقره بلا حركة وذهاب، وانفرج بين الفلق فرجًا وسيعة فدخل على الفور موسى وقومه في الشعوب والفرج، كل سبط بشعب.

﴿وَ﴾ بعدما دخلوا في شعاب البحر المنغلق ﴿أَزْلَفْنَا﴾ وقربنا ﴿ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء:64] أي: فرعون وقومه، وهم أيضًا وصلوا على شاطئ البحر فرأوهم في شعابه على العبور، فاقتحموا أثرهم مطمعين النجاة مثلهم.

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء:65] بأن حفظنا البحر على انغلاقه إلى أن عبروا سالمين من تلك الفرج.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء:66] أي: فرعون وقومه جميعًا بعدما دخلوا في تلك الفرج بإطباق البحر، وإفناء انفلاقه وافتراقه، واتصاله على الوجه الذي كان عليه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإنجاء والإغراق ﴿لَآيَةً﴾ دالة على كمال قدرة الله، ومتانة حكمته بالنسبة إلى ذوي البصائر والاعتبار، المشمرين ذيل العناية والاهتمام نحو التفكر والتدبر في آثار أوصاف الفاعل المختار ﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثر الناس المجبولين على فطرة الاستدلال والاعتبار ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:67] بالله وتوحيده وأسمائه حتى يتأملوا في آثار صفاته؛ ليستدلوا على ذاته.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره، القادر المقتدر على إجراء أحكامه وإنفاذ قضائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:68] لخُلَّص عباده الموفَّقين من عنده للوصول إلى مبدئهم ومعادهم.

﴿وَاتْلُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على مكذبي قريش ومعانديهم ﴿نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الشعراء:69] أي: قصة جدك الخليل ـ صلوات الرحمن عليه ـ مع قومه.

وقت ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ سائلاً لهم عن حقيقة ما يعبدون من الآلهة؛ ليريهم أن الأصنام لا تستحق العبادة والانقياد: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء:70] ولأي شيء

تنقادون وتطيعون؟!.

﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾[1] [الشعراء:71] أي: يدوم عكوفنا إياها وإطاعتنا لها.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ ويجيبون دعوتكم ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ [الشعراء:72] إليها في السراء والضراء؟! ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ ويثيبونكم؛ جزاءً لطاعتكم وعبادتكم ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء:73] لكم إن أعرضتم وانصرفتم عن عبادتهم؟!.

﴿قَالُوا﴾ مستغربين عن مسئولاته؛ يعني: نحن لا نرجو منهم أمثال هذه الصفات؛ إذ هم جمادات لا تتأتى منهم أفعال ذوي الحياة والشعور ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ وأسلافنا ﴿كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:74] أي: يعبدون لها، ويعكفون عليها خاشعين متذللين ونحن على أثرهم نعبدهم ونتذلل لهم؛ تقليدًا لآبائنا.

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء:75-91].

---

(1) قال الألوسي (14 /242): لم يقتصروا على الجواب الكافي بأن يقولوا أصنامًا كما في قوله تعالى: (مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا) إلى غير ذلك بل أطنبوا فيه بإظهار الفعل وعطف دوام عكوفهم على أصنامهم مع أنه لم يسأل عنه قصدًا إلى إبراز ما في نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بذلك، وهو على ما في «الكشف» من الأسلوب الأحمق، والمراد بالظلول الدوام كما في قولهم: لو ظل الظلم هلك الناس. وتكون ظل على هذا تامة. وقد قال بمجيئها كذلك ابن مالك وأنكره بعض النحاة، وقيل: فعل الشيء نهارًا فقد كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل فتكون ظل على هذا ناقصة دالة على ثبوت خبرها لاسمها في النهار.

﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم على سبيل النصيحة والتذكير: ﴿أَفَرَأَيْتُم﴾ وعلمتم أن ﴿مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء:75] من دون الله؟!.

﴿أَنتُمْ﴾ في مدة أعماركم ﴿وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء:76] فيما مضى عليهم من الزمان لا يليق بالألوهية، ولا يستحق للإطاعة والانقياد؛ إذ الإله المستحق بالعبودية لا بدَّ وأن يتصف بالصفات الكاملة، وأن يكون له نفع وضر، وثواب وعقاب؛ حتى يُعبد له، وهؤلاء معطلون عن أوصاف الألوهية مطلقًا.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي: الآلهة الباطلة ﴿عَدُوٌّ لِّي﴾ نسب عداوتهم لنفسه أولاً إمحاضًا للنصح؛ إذ التوجه إليهم والتذلل نحوهم يجلب عذاب الله ونكاله، فهم وعبادتهم من أسباب غضب الله وقهره، فلكم ألَّا تتوجهوا نحوهم، ولا تعبدوا غير الله سبحانه إلهًا، كما أني ما أتوجه وأعبد ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:77] إذ هو المستحق للعبودية والألوهية ذاتًا ووصفًا.

وكيف لا وهو ﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾ أي: أوجدني وأظهرني من كتم العدم ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء:78] إلى توحيده واستقلاله في الوجود والتصرف؟!.

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي﴾ إن افتقرت إلى الغذاء ﴿وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء:79] حين احتياجي إلى الماء.

﴿وَ﴾ كذا ﴿إِذَا مَرِضْتُ﴾ من اختلاف الأمزجة وتداخل الأغذية ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:80] باعتدالها واستقامتها.

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي﴾ حين حلول أجلي، وانقضاء مدة حياتي في النشأة الأولى ﴿ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء:81] في النشأة الأخرى؛ للعرض والجزاء.

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ﴾ وأرجو من سعة رحمته وجوده ﴿أَن يَغْفِرَ لِي﴾ ويمحو عني جميع ﴿خَطِيئَتِي﴾ التي صدرت عني في دار الاختبار، ويعفو زلتي فيها ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء:82] والجزاء.

﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بلطفك، وهداني إلى توحيدك ﴿هَبْ لِي حُكْمًا﴾ يقينًا علميًا وعينيًا؛ حتى أستحق أن تفيض عليَّ اليقين الحقي الذي صرت به مستحقًا لمرتبة الخلة والخلافة ﴿وَأَلْحِقْنِي﴾ بعدما وهبت لي من حِكمك وأحكامك ومعارفك ما قدرت لي ﴿بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء:83] المرضيين عندك، المقبولين في حضرتك.

﴿وَاجْعَل لِّي﴾ بفضلك وجودك ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ أي: لسانًا يتكلم بالصدق في حِكمك وأحكامك، ومعارفك وحقائقك، وجميع أوامرك ونواهيك، بحيث يدوم أثر صدقي في أقوالي وأفعالي وأحوالي، وفي جميع أطواري وأخلاقي ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء:84] أي: اللاحقين من عبادك؛ لذلك ما من دين من الأديان إلّا وله ـ صلوات الرحمن عليه وسلامه ـ فيه أقوال وأفعال وأخلاق منسوبة إليه، مسلمة منه، معمولة بمتابعته.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اجْعَلْنِي﴾ بسعة رحمتك، ووفور إحسانك وعطيتك ﴿مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء:85] أي: من الذين يرثون من فضلك وجودك مرتبة الرضا والتسليم؛ إذ لا نعمة أجلّ منها، وأتم عند المنقطعين نحوك والمتشوقين بلقياك.

﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي﴾ واعفُ عن زلته وذنوبه إن سبقت عنايتك له في سابق قضائك وحضرة علمك ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء:86] التائهين في تيه الغفلة والغرور.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تُخْزِنِي﴾ ولا تُخجلني من فعل نفسي وأبي يا رب ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء:87] أي: الأموات، ويحشرون من قبورهم نحو العرصات؛ لعرض الأحوال وجزاء الأعمال، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

وأي يومٍ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ﴾ فيه ﴿مَالٌ﴾ حتى يفديه صاحبه ويخلص من العذاب، أو يخفف العذاب لأجله ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء:88] يظاهرون لآبائهم وينقذونهم من عذاب الله؟!.

وذلك يوم لا مخلّص فيه لأحدٍ من عذاب الله من ذوي المعاصي والآثام ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ﴾ المطلع لسرائر العباد وضمائرهم ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:89] خالٍ عن الميل إلى الهوى ومزخرفات الدنيا، خالصٍ عن رعونات العُجب والرياء، مخلص في التوجه نحو المولى بلا طلب الثواب منه والجزاء؛ بل لمحض الرضاء والامتثال بما أمره ونهى راضيًا في كل الأحوال بما جرى عليه من نفوذ القضاء.

﴿وَ﴾ في تلك الحالة التي أتوا كذلك ﴿أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ أي: قَرُبت ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء:90] الذين يتقون ويحذرون عن محارم الله؛ استحياءً منه وطلبًا لمرضاته، بحيث يرونها ويسرعون إليها تشوقًا وتحننًا، ويتفطنون أنهم يدخلون فيها خالدين مؤبدين.

﴿وَ﴾ كذا ﴿بُرِّزَتِ﴾ وأُظهرت ﴿الْجَحِيمُ﴾ المسعر ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء:91] الذين يضلون عن طريق الحق في النشأة الأولى بالميل إلى الهوى وإلى مستلذات الدنيا والإعراض عن إرشاد الأنبياء والأولياء، والمصاحبة مع أهل الولاء والآراء والأهواء الباطلة المضلة عن صراط الله الأعدل الأقوم، واتخاذ الآلهة الباطلة على مقتضى أهويتهم الفاسدة.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [الشعراء: 92- 104].

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ حين ظهرت الجحيم عليهم، ويتفطنون أنهم مسوقون إليها صاغرين مهانين: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء:92] أي: أين الآلهة الباطلة التي عبدتم لها.

﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ المتوحد بالألوهية والربوبية، معتقدين أنها شفعاؤكم ينقذونكم من عذاب الله ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ اليوم بأن يدفعوا عنكم العذاب ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء:93] فيدفعون العذاب عن أنفسهم؟!.

وبعدما جرى عليهم ما جرى من التقريع والتوبيخ ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾[1] أي: أُدخلوا

---

(1) أي: ألقوا في الجحيم على وجوههم مرة بعد أخرى إلى أن يستقروا في قعرها فالكبكبة تكرير الكب وهو مما ضوعف فيه الفاء كما قال الزجاج. وجمهور البصريين، وذهب الكوفيون إلى أن الثالث بدل من مثل الثاني فاصل كبكب عندهم كبب فأبدل من الباء الثانية كاف وضمير الجمع لما يعبدون من دون الله وهم الأصنام وأكد بالضمير المنفصل أعني (هُمْ) وكلا الضميرين للعقلاء واستعملا في الأصنام تهكمًا أو بناء على إعطائها الفهم والنطق أي كبكب فيها الأصنام (والغاوون) الذين عبدوها، والتعبير عنهم بهذا العنوان دون العابدون للتسجيل عليهم بوصف الغواية ، وفي تأخير ذكرهم عن ذكر آلهتهم رمز إلى أنهم يؤخرون في الكبكبة عنها ليشاهدوا سوء حالهم فينقطع رجاؤهم قبل دخول الجحيم. [تفسير الألوسي (14 /267)].

في النار قسرًا وقهرًا ﴿هُمْ﴾ أي: الآلهة المضلة المغوية ﴿وَالْغَاوُونَ﴾ [الشعراء:94] أي: العبدة الضالون.

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ مصاحبون معهم، ملازمون من القوى البهيمية الشهوية والغضبية التي هي من أعونة النفوس الأمّارة ﴿أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء:95] إذ كل منهم سبب تام لإضلالهم.

وبعدما دخلوا في النار صاغرين مهانين ﴿قَالُوا﴾ أي: الداخلون في النار تابعًا ومتبوعًا ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ أي: في النار ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ [الشعراء:96] أي: يتخاصم بعضهم بعضًا.

حيث قال العابدون لمعبوداتهم مقسمين مغلظين تحسرًا وتحزنًا: ﴿تَاللهِ إِن﴾ أي: إنه ﴿كُنَّا﴾ باتخاذكم آلهة من دون الله عبدناكم كعبادته ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: 97] ظاهر لا يشتبه على ذي مسكة ضلالته.

وكيف لا يكون ضلالاً ظاهرًا ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم﴾ مع كونكم من أدنى الأشياء وأرذلها بل نرجحكم ونفضلكم ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:98] الذي هو أحد صمد، فرد وتر ليس كمثله شيء، وليس له كفؤ، ولا ضلال أبين من هذا وأعظم.

﴿وَمَا أَضَلَّنَا﴾ وأوقعنا في هذا الضلال المبين ﴿إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء:99] الذين اقتدينا بهم من رؤسائنا، وتقليدات آبائنا الذين مضوا قبلنا على هذا.

﴿فَمَا لَنَا﴾ بعدما وقعنا في النار صاغرين ﴿مِن شَافِعِينَ﴾ [الشعراء:100] يشفعون لنا؛ لينقذونا منها.

﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:101] أي: ذي قرابة وصداقة تكفي صداقة وحمايته؛ لإنقاذنا ونجاتنا، إنما قالوا ما قالوا تحسرًا وتحزنًا.

وبعدما قنطوا عن الشفاعة والحماية تمنوا الرجعة والإعادة، وقالوا: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رجعة وعودة إلى الدنيا مرة بعد مرة أخرى ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 102] بالله، الموحدين له لا نشرك به شيئًا من مظاهره ومصنوعاته.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر من نبأ إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة دالة على توحيد الحق، وعلو شأنه وسمو برهانه عظةً وتذكيرًا للمتذكرين المعتبرين من أخلاقه - صلوات الرحمن عليه - وأطواره، وكمال علمه في دعوته، وإنصافه في

محاورته، وإرخائه العنان إلى من قصد مجادلته ومعارضته، وإظهاره الحق على أبلغ وجه وآكده، عاريًا عن جميع الرعونات والخلافات الواقعة بين أرباب المناظرات وأصحاب المجادلات ﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثر الناس ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:103] بتوحيد الله وخلة خليله، وصفوة أخلاقه وحسن خصاله.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على انتقام من خرج من رق عبوديته ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:104] لمن وفق عليها وجبل لأجلها.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الشعراء:105-113].

ثمّ قال سبحانه مخبرًا عن المكذبين: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: 105] لأن تكذيب نوح والإنكار على إرساله يستلزم تكذيب مطلق الإرسال، فيستلزم تكذيبه جميع الرسل الذين مضوا قبله، بل من سيأتي بعده من الرسل؛ لاتحاد المرسل والمرسل به.

وذلك وقت ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ حين ظهرت عليهم أمارات الكفر والفسوق، والخروج عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة على العدالة المعنوية، والقسط الحقيقي: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:106] وتحذرون عن محارم الله أيها المكلفون المسرفون.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من قبل الحق ﴿أَمِينٌ﴾ [الشعراء:107] بينكم، أرشدكم إلى ما يعنيكم وينفعكم، وأجنبكم عمّا يضركم ولا يعنيكم، بل يؤذيكم ويغويكم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على أنواع الانتقام ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:108] في جميع ما جئت به من قبل ربي.

﴿وَ﴾ اعلموا أني ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ﴾ وأطلب منكم ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على إرشادي وتكميلي وإصلاحي لكم ما أفسدتم على أنفسكم من الأخلاق والأعمال ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جعل ومال كما يسأل المتشيخة - خذلهم الله - من مريديهم ومحبيهم، بل ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾

أي: ما أجري ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:109] فإنه سبحانه أرسلني إليكم، وأمرني بتبليغ ما أُوحي إليّ إليكم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ حق تقاته، واحذروا من بطشه وانتقامه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: 110] في جميع ما جئت به من عنده من الأوامر والنواهي المصلحة لمفاسد أحوالكم؛ حتى تستقيموا وتعتدلوا في النشأة الأولى، وتفوزوا بما وعد لكم ربكم في النشأة الأخرى.

﴿قَالُوا﴾ في جوابه مستكبرين مستهزئين: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ ونتبعك نحن مع شرفنا وثروتنا ﴿وَ﴾ قد ﴿اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾[1] [الشعراء:111] منا، الأقلون مالاً، الأنزلون جاهًا ورتبةً.

ومن هذا ظهر أن مناط الأمر عندهم على الحطام الدنيوية والمفاخرة بها، وإظهار الجاه والثروة بسببها، ومتابعتهم إنما هي لحصولها لا لأغراض دينية ومصلحة أخروية مصفية لبواطنهم عن العلائق المادية، والشواغل الهيولانية العائقة عن الوصول إلى مقر التوحيد.

لذلك ﴿قَالَ﴾ نوح مشتكيًا إلى الله، مفوضًا: ﴿وَمَا عِلْمِي﴾ وإدراكي محيطًا ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:112] ويأملون في نفوسهم من أي غرض وسبب يؤمنون بي ويمتثلون بأمري؛ إذ ما لي اطلاع على ضمائرهم وسرائرهم، بل بظواهرهم.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ أي: ما حسابهم المتعلق ببواطنهم وأسرارهم ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّي﴾ المطلع لخفايا الأمور ومغيباتها ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء:113] وتدركون ما أبث لكم من الكلام لفهمتم ما هو الحق منه، ولكنكم أنتم قوم تجهلون؛ لذلك تقولون ما لا تعلمون وتفهمون.

---

(1) الاستفهام للإنكار أي كيف نتبعك ونؤمن لك، والحال أن قد اتبعك الأرذلون؟ وهم جمع أرذل، وجمع التكسير أرذال، والأنثى: رذلى، وهم الأقلون جاهًا ومالاً، والرذالة الخسة والذلة، استرذلوهم لقلة أموالهم وجاههم، أو لاتضاع أنسابهم، وقيل: كانوا من أهل الصناعات الخسيسة، وقد تقدم تفسير هذه الآيات في هود، وقرأ ابن مسعود، والضحاك، ويعقوب الحضرمي: «وأتباعك الأرذلون» قال النحاس: وهي قراءة حسنة، لأن هذه الواو تتبعها الأسماء كثيرًا، وأتباع جمع تابع. [فتح القدير (5 /320)].

﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الشعراء: 114-122].

﴿وَ﴾ إذا سمعتم مقالتي هذه فاعلموا أني ﴿مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 114] ونافيهم من عندي؛ بسبب ميلكم إلي واستدعائكم طردهم، وتوفيقكم الإيمان بي على تبعيدهم.

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ من قبل الحق ﴿مُّبِينٌ﴾ [الشعراء:115] ظاهر الحجج، واضح البينات والمعجزات بالنسبة إلى عموم المكلفين سواء كانوا فقراء أو أغنياء؛ إذ الإيمان والتوحيد، والتدين والإخلاص إنما هي من أفعال القلوب، لا مدخل للأمور الخارجية فيها التي هي الغناء والثروة، والفقر والرذالة، فمن وفقه الحق على التوحيد، وسبقت له العناية في سابق القضاء، فهو مؤمن سواء كان غنيًا أو فقيرًا، ومن سبق عليه الغضب الإلهي، وكتب في لوح القضاء من الأشقياء، فهو كافر نافٍ للصانع، مشرك سواء كان غنيًا أو فقيرًا.

وبعدما سمعوا منه ما سمعوا من عدم مبالاته بهم وثباتهم، وعدم رعاية جانبهم وغبطتهم ﴿قَالُوا﴾ من فرط عتوهم واستكبارهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ﴾ عن دعوتك وادعائك هذا، أو لم تترك هذياناتك التي جئت بها من تلقاء نفسك افتراءً ومراءً ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ بإصرارك عليها ﴿مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء:116] المقتولين بالحجارة زجرًا وقهرًا، فارجع إلى حالك، وتب من هذياناتك؛ حتى لا نقتلك بأقبح الوجوه.

وبعدما قنط نوح عن إيمانهم، وآيس من توحيدهم وعرفانهم ﴿قَالَ﴾ مشتكيًا إلى الله، ملتجئًا نحوه: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع الكرامة، ووفقني على الهداية والتوحيد ﴿إِنَّ قَوْمِي﴾ الذي بعثتني إليهم؛ لأهديهم إلى دينك وطريق توحيدك ﴿كَذَّبُونِ﴾ [الشعراء:117] بجميع ما جئت به من عندك تكذيبًا شديدًا، وسفهوني تسفيهًا بليغًا، بل قصدوا مقتي وقتلي بأشد العذاب وأقبح العقاب.

وبالجملة: ما بقي بيني وبينهم ائتلاف وارتباط ﴿فَافْتَحْ﴾ واحكم يا ربي بمقتضى عدلك ﴿بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ حكمًا مبرمًا، منجزًا لوعدك الذي وعدتني به بعدما كذبوني وأنزل عليهم العذاب الموعود من عندك ﴿وَ﴾ بعد إنزال العذاب عليهم ﴿نَجِّنِي﴾ منه بلطفك ﴿وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:118] المصدقين بدينك ونبيك، الممتثلين بأوامرك، المجتنبين عن نواهيك بفضلك وطولك.

وبعد إفراطهم وإصرارهم المتجاوز عن الحد في الإعراض عن الله، والانصراف عن دينه وتكذيب نبيه، وإيذائه إياه من آمن له من المؤمنين، أنزل الله عليهم الطوفان الموعود ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ أي: نوحًا ﴿وَمَن مَّعَهُ﴾ من متابعيه ومصدقيه بأن أدخلناهم ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء:119] المملوء منهم، ومن كل شيء زوجين اثنين.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي: بعد إنجائنا، وإدخالنا نوحًا ومن معه في الفلك ﴿الْبَاقِينَ﴾ [الشعراء:120] من قومه إلى حيث لم يبقَ منهم أحد على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإنجاء والإغراق ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة دالة على كمال قدرتنا وسطوتنا وعلو شأننا وبسطتنا ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثر الناس ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:121] بوحدة وجودنا، وكمال قدرتنا وعزتنا، ومتانة حكمنا وحكمتنا.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي وفقك يا أكمل الرسل على الإيمان والتوحيد، وكشف لك سر سريان وحدته الذاتية على هياكل المظاهر ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القاهر في نفسه، بحيث لم يكن أحد في فضاء الوجود سواه ولا إله معه، ليس كمثله شيء، وهو السميع العليم ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:122] لخلَّص عباده ممن جذبته العناية الأزلية نحو بابه، ويسر له الوصول إلى جنابه، ربِّ اجعلنا من المنجذبين إليك، المنكشفين بوحدة ذاتك.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء:123-135].

ثمّ قال سبحانه مخبرًا عن أحوال المكذبين أيضًا: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:123] جمعه على الوجه الذي ذُكر في تكذيب نوح، وإنما أنث باعتبار القبيلة وعاد اسم أبيهم.

وقت ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ حين رأى منهم ما هو من أمارات الكفر والفسوق عن مقتضى الاستقامة الموضوعة بينهم بوضع إلهي: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: 124] من بأس الله أيها المفرطون المسرفون، ولا تحذرون عن قهره وانتقامه أيها الجاهلون.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء:125] مرسل إليكم من عنده؛ لأبلغكم ما أُرسلت به من قبل الحق من الأوامر والنواهي المصلحة لأحوالكم، المبعدة عن غضب الله إياكم وقهره.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ الغالب القادر على أنواع الانتقامات ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:126] فيما أمرت لكم بوحي الله وإلهامه من الأمور المهذبة لأخلاقكم.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:127].

ومن جملة تربيته: إرسال الرسل على المنحرفين عن سبيل الاستقامة من المنصرفين عن طريق توحيده ﴿أَتَبْنُونَ﴾ وتعمرون أيها المسرفون المستكبرون ﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾ تلال مرتفعة من الأرض ﴿آيَةً﴾ تستدلون بها في سلوككم نحو مقاصدكم ومناهجكم، مع أن النجوم الزاهرات؛ إنما خُلقت لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، وأنتم بوضعكم هذه الآيات والعلامات ﴿تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء:128] وترتكبون فعلاً لا فائدة لكم فيها أصلاً.

﴿وَ﴾ أيضًا من جملة كبركم وخيلائكم: إنكم ﴿تَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي: منابع الماء والقوانيت، أو قصورًا عاليات وأبنية شامخات مجصصة مشيدة ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء:129] وتؤملون الخلود في دار الابتلاء والغرور؛ لذلك تحكمون بناءكم وتشيدونها.

﴿وَ﴾ من كمال استكباركم وتجبركم ﴿إِذَا بَطَشْتُمْ﴾ وأخذتم أحدًا بجريمة

صدرت عنه ﴿بَطَشْتُم جَبَّارِينَ﴾[1] [الشعراء:130] متجبرين متكبرين، خارجين عن مقتضى الحد الإلهي؛ الموضوع للتأديب والتعزير.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ المنتقم الغيور ألَّا يأخذكم على أمثال هذا الاجتراء على عباده والظلم عليها ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:131] في نصحي وتذكيري؛ لتنجوا من سخط الله وغضبه.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اتَّقُوا﴾ القادر العليم الحكيم ﴿الَّذِي أَمَدَّكُم﴾ ونصركم ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء:132] من أنواع النعم، وأصناف الكرم الفائضة عليكم.

ثم فصَّل بعضًا منها تنصيصًا عليهم، فقال: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ﴾ تستمدون بها أكلاً وحملاً وركوبًا ﴿وَبَنِينَ﴾ [الشعراء:133] تظاهرون بهم وتفاخرون.

﴿وَجَنَّاتٍ﴾ منتزهات ملتفة بأنواع الأشجار والكروم ﴿وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء:134] جاريات تجري بين جناتكم منها أنهار المياه.

﴿إِنِّي﴾ من كمال عطفي ومرحمتي ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ من كمال تعنتكم واستكباركم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:135] أي: نزول عذاب الله وأنواع عقوباته فيه.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الشعراء:136-145].

ولمَّا سمعوا منه ما سمعوا من التذكير والنصيحة على طريق المبالغة ﴿قَالُوا﴾ من كمال استكبارهم واستنكافهم، وشدة إنكارهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ يا هود ﴿أَوَعَظْتَ﴾ بما وعظت ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء:136] المذكرين، نحن ما نسمع منك

---

(1) قال الشيخ ابن عجيبة في البحر المديد (343/4): مسلطين ، قاسية قلوبكم، بلا رأفة ولا رقة ولا قصد تأديب، ولا نظراً للعواقب. والجبار الذي يضرب أو يقتل على الغضب.

خرافاتك ولا نمتثل بها، ولا نترك لأجلها وأجلك أخلاق أسلافنا التي كانوا عليها.

﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: ما كنا عليه من الأخلاق ما هي ﴿إِلَّا خُلُقُ﴾ آبائنا ﴿الأَوَّلِينَ﴾[1] [الشعراء:137] وعادتهم المستمرة، وسنتهم السنية المأثورة لنا منهم.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا نَحْنُ﴾ ولا أسلافنا الذين مضوا عليها ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: 138] بعد انقراضنا عن هذه النشأة؛ إذ لا إعادة ولا رجوع لنا، ولا نشور من قبورنا بعدما متنا وكنا ترابًا وعظامًا بالية.

وبالجملة: لم يقبلوا منه دعوته، ولم يصدقوا قوله ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ تكذيبًا شديدًا، وصاروا بسبب تكذيبهم إياه، وإنكارهم عليه مستحقين لقهرنا وغضبنا ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ من كمال غيرتنا، واستأصلناهم بمقتضى قدرتنا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإهلاك والاستئصال ﴿لآيَةً﴾ دالة على استقلالنا واستيلائنا بالسلطنة القاهرة على مظاهرنا ومربوباتنا ﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:139] بنا وبأسمائنا، وأوصافنا الكاملة الشاملة آثارها لعموم المظاهر والمصنوعات.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَهُوَ العَزِيزُ﴾ الغالب المستقل بالتصرف في آثار أسمائه وأوصافه بلا مشاركة له في الوجود والإيجاد ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:140] بتجلياته اللطيفية الجمالية في إظهار الكائنات المشاهدة في الآفاق والأنفس حسب إمداده وإعانته.

---

(1) أظهروا قلة اكترائهم بكلامه، واستخفافهم بما أورده فإن قيل لو قال أوعظت أم لم تعظ كان أخصر والمعنى واحد جوابه: ليس المعنى بواحد وبينهما فرق؛ لأن المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلاً من أهله ومباشرته، فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك أم لم تعظ، ثم احتجوا على قلة اكترائهم بكلامه بقولهم: ﴿إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الأولين﴾ فمن قرأ «خَلْقُ الأولين» بالفتح فمعناه أن ما جئت به اختلاق الأولين، وتخرصهم كما قالوا (أساطير الأولين) أو ما خلقنا هذا إلا خلق القرون الخالية نحيا كحياتهم ونموت كمماتهم ولا بعث ولا حساب، ومن قرأ «خُلُقُ» بضمتين وبواحدة، فمعناه ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم كانوا به يدينون ونحن بهم مقتدون أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلا عادة لم يزل عليها الناس في قديم الدهر، أو ما هذا الذي جئت به من الكذب إلا عادة الأولين كانوا يلفقون مثله ويسطرونه، ثم قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أظهروا بذلك تقوية نفوسهم فيما تمسكوا به من إنكار المعاد، فعند هذا بين الله تعالى أنه أهلكهم، وقد سبق شرح كيفية الهلاك في سائر السور، والله أعلم. [تفسير الرازي (11/ 495)].

ثمّ قال سبحانه مخبرًا عن المكذبين المهلكين أيضًا: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:141].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ﴾ المصلح لأحوالهم حين لاح عليهم علامات الإعراض عن الله، والانحراف عن جادة توحيده: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:142] عن قهر الله، فتخرجون عن حدوده.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء:143] أنبهكم على ما يصلح حالكم، وأجنّبكم عمّا يفسدكم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ المنتقم الغيور، واحذروا من قهره وصولة غضبه وجلاله ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:144] فيما أنصح لكم وأذكركم به.

﴿وَ﴾ اعلموا أني ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تذكيري ﴿مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:145] وهو سبحانه اختارني للبعثة والرسالة، واصطفاني لحمل وحيه، فأرجو من فضله وسعة جوده أن يفيض عليّ من معارفه وحقائقه إلى حيث اضمحل هويتي الباطلة في هوية الحق، وتلاشى تعيناتي بالفناء فيه.

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)﴾ [الشعراء:146-159].

﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ وتبقون ﴿فِي مَا﴾ أي: في أنواع النعم، وأصناف الإحسان والكرم، وتستمرون ﴿هَاهُنَا﴾ أي: في هذه النشأة كذلك ﴿آمِنِينَ﴾ [الشعراء:146] بلا فترة انتقال وتحويل، مترفهين ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ أي: حدائق وبساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء:147] جاريات فيها ﴿وَزُرُوعٍ﴾ كثيرة في أطرافها ﴿وَ﴾ لاسيما ﴿نَخْلٍ﴾ لطيف ﴿طَلْعُهَا

﴿هَضِيمٌ﴾ [الشعراء:148] إذ هو ينكسر وينهضم بسهولة، ويستحيل دمًا بسرعة.

﴿وَ﴾ من كمال بطركم، ونهاية حرصكم وأملكم ﴿تَنْحِتُونَ﴾ أي: تثقبون وتنقبون ﴿مِنَ الْجِبَالِ﴾ المتحجرة ﴿بُيُوتًا﴾ ومخازن تدخرون وتخزنون أمتعتكم فيها؛ صونًا لها عن أنواع الحادثات بطرين ﴿فَارِهِينَ﴾ [الشعراء:149] متنعمين.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ المحول للأحوال؛ حتى لا يبدل يسركم إلى العسر، وتنعيمكم إلى التنقيم ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:150] في نصحي وتذكيري.

﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء:151] في الإغراء على المعاصي والتغرير فيها؛ إذ هم ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بأنواع الفسادات، ومن جملتها: إفسادكم وإغراؤكم إلى ما يضركم ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء:152] مفاسد أحد.

وبعدما سمعوا من صالح ما سمعوا من النصيحة والإرشاد، وأنواع الإصلاح والسداد ﴿قَالُوا﴾ من فرط تعنتهم وعنادهم، وكمال توغلهم في بحر الغفلة والغرور: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ﴾ يا صالح ﴿مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء:153] المختلين المخبطين عقولهم بالسحر.

لذلك تتخيل أنك رسول مرسل من قبل الحق هادٍ إلى طريقه، مع أنك ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ بلا رجحان لك علينا، ولم يعهد إرسال البشر إلى البشر، وبعدما عيروه وشنعوا عليه قصدوا تعجيزه، فأمروه بإتيان البرهان على صدقه، فقالوا متهكمين: ﴿فَأْتِ﴾ يا صالح ﴿بِآيَةٍ﴾ معجزة دالة على صدقك في دعواك ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء:154].

﴿قَالَ﴾ صالح: معجزتي الدالة على حقية دعوتي ورسالتي ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ﴾ مخرجة من الصخرة بإخراج الله بعدما اقترحتموني بإخراجها، فدعوت الله القادر المقتدر على اختراع الأمور المستبدعة، وأتضرع نحوه فقبل دعائي، فأخرجها بقدرته على الوجه الذي اقترحتم، فاعلموا أيها المنهمكون في بحر الغفلة والغرور أنه ﴿لَهَا﴾ أي: للناقة ﴿شِرْبٌ﴾ أي: معين لشربها من بتركم بتعيين الله إياها ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء:155] معين.

فعليكم ألَّا تتجاوزوا من شربكم إلى شربها، ولا تضروا بها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا

بِسُوءٍ﴾[1] من ضرب وعقر، وظمأ وجوع، فإنكم أن تمسوها بسوء ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ وينزل عليكم ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:156] وصف به؛ لعظم ما فيه من العذاب.

ثمّ لمّا أوصاهم بحفظها وحضانتها، وبالغ في شأنها لم يقبلوا منه، ولم يبالوا بقوله فاجتمعوا على عقرها متفقين ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ بعدما اتفق الكل ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ بعدما عقروها ﴿نَادِمِينَ﴾ [الشعراء:157] خائفين من نزول العذاب، لا تائبين آيبين عمّا فعلوا من ترك المأمور وارتكاب المنهي.

وبعدما استحقوا العذاب بصنيعهم هذا ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ الموعود المعهود من قبل الحق فنزل عليهم، فأهلكهم بالمرة إلى حيث لم يبق منهم أحد على وجه الأرض ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الابتلاء والإنزال والإهلاك ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة مثبتة لكمال قدرة الله وقهره على مقتضى صفاته الجلالية ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:158] بقهره وجلاله.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القاهر على أعدائه بمقتضى غضبه وجلاله ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:159] المشفق على أوليائه حسب اقتضاء لطفه وجماله.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾

---

(1) قال الألوسي (6 /237): نهى عن المس الذي هو مقدمة الإصابة بالشر الشامل لأنواع الأذى مبالغة في الزجر فهو كقوله تعالى: (وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ) والجار والمجرور متعلق بالفعل، والتنكير للتعميم أي لا تتعرضوا لها بشيء مما يسوؤها أصلاً كالطرد والعقر وغير ذلك. وقيل: الجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع حالاً من فاعل الفعل. والمعنى لا تمسوها مع قصد السوء بها فضلاً عن الإصابة فهو كقوله تعالى: (لاَ تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنتُم سكارى). (فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) منصوب في جواب النهي. والمعنى لا تجمعوا بين المس وأخذ العذاب إياكم. والأخير وإن لم يكن من صنيعهم حقيقة لكن لتعاطيهم أسبابه كأنه من صنيعهم.

ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)﴾ [الشعراء:160-175].

ثمّ قال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ﴾ أيضًا ﴿قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:160] مثل ما كذب السابقون.

وذلك وقت ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ حين شاعت بينهم الفعلة القبيحة الذميمة، والديدنة الشنيعة إلى حيث يبآهون بها ولا يخفونها ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: 161] من غضب الله أيها المسرفون المفرطون، اتقوا الله الغالب الغيور، واحذروا من سخطه.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من قبله ﴿أَمِينٌ﴾ [الشعراء:162] يؤمنكم عن مكر الله، وإلمام غضبه وعذابه.

﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ حق تقاته ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:163] في جميع ما جئت لكم من عنده.

﴿وَ﴾ اعلموا أني ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغي ونصحي ﴿مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:164] فإنه المتكفل لأجور عباده على مقتضى أعمالهم ونياتهم فيها.

﴿أَتَأْتُونَ﴾ وتجامعون أيها المفسدون المفرطون ﴿الذُّكْرَانَ﴾ أي: الذكور والأمارد وتختصون بهذه القبيحة الشنيعة، مع أنه ما سبق مثلها ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:165] من الذين مضوا من بني نوعكم.

﴿وَ﴾ تبالغون لها، حيث ﴿تَذَرُونَ﴾ وتتركون ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ لإتيانكم وحرثكم ﴿مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ أي: نسائكم؛ ليترتب عليها حكمة التناسل وإبقاء النوع ﴿بَلْ أَنتُمْ﴾ بسوء صنيعكم وقبح فعلتكم هذه ﴿قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:166] مجاوزون عن حدود الله ومقتضى حكمته.

وبعدما سمعوا منه تشنيعه على أبلغ وجه وأشنعه ﴿قَالُوا﴾ من شدة شكيمتهم وضغينتهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ﴾ ولم تنزجر عن تشنيعنا وتقبيح فعلنا، ونهينا عنه ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ بجراءتك علينا ﴿مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء:167] من قريتنا على أشنع وجه وأسوئه.

وبعدما سمع لوط ﷺ منهم ما سمع من الغلظة والتشدد في التهديد: ﴿قَالَ﴾

مستوحشًا منهم، مستنكرًا عليهم: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم﴾ هذا ﴿مِّنَ الْقَالِينَ﴾ [الشعراء:168] المبغضين غاية البغض إلى حيث أكره مساكنكم مطلقًا، وأريد الخروج من بينكم، ولا أبالي من تهديدكم عليّ بالإخراج.

ثمّ توجه نحو الحق وناجى معه مبغضًا عليهم، مشتكيًا إلى ربه بقوله: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع الطهارة والنظافة الصورية والمعنوية ﴿نَجِّنِي﴾ بفضلك وجودك ﴿وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:169] أي: من العذاب الموعود النازل عليهم بشؤم عملهم هذا.

فأنزلنا العذاب عليهم بعدما استحقوا لإنزاله ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾ أي: لوطًا ﴿وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء:170] من إصابة العذاب المنزل على قومه.

﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ وهي امرأته بقيت ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ [الشعراء:171] الهالكين بميلها إليهم ومحبتها لهم.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا﴾ وأهلكنا ﴿الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء:172].

﴿وَ﴾ ذلك بأن ﴿أَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ لم يعهد مثله؛ لأنه حجارة هالكة لكل من أصاب ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء:173] مطرهم هذا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإمطار والإهلاك ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة، دالة على علو شأننا وسطوع حجتنا وبرهاننا ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:174] بآياتنا العظام؛ لذلك لحقهم ما لحقهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء المتفرد بالوجود والبقاء، لا موجد سواه، ولا إله إلا هو ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:175] المتجلي بالتجليات الحبية؛ لإظهار ما في الوجود من الأعيان والأكوان.

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّـ

أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ [الشعراء:176-191].

ثمّ قال سبحانه: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ المُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:176].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ حين رأى منهم أمارات الميل والانحراف عن القسطاس المستقيم، الموضوع من عند العزيز العليم، المنبئ عن الاعتدال المعنوي: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:177] وتحذرون عن بطش الله إياها، المتجاوزون عن حدوده.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من عنده ﴿أَمِينٌ﴾ [الشعراء:178] موصل لكم أمانته.

﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:179] فيما أرسلت به.

﴿وَ﴾ لا تخافوا عن أخذ الجعل والرشا؛ إذ ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء:180] يعطيني جزاء إرشادي وإبلاغي، ويوصلني إلى منتهى أملي ومرادي.

وعليكم أيها المكلفون المنحرفون عن جادة العدالة الإلهية إيفاء الكيل ﴿أَوْفُوا الكَيْلَ﴾ إيفاءً تامًا كاملاً ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ بتنقيصه وتطفيفه ﴿مِنَ المُخْسِرِينَ﴾ [الشعراء:181] الناقصين حقوق عباد الله؛ حتى لا يخسركم رحمته.

﴿وَزِنُوا﴾ وقت وزنكم لغيركم من عباد الله ﴿بِالْقِسْطَاسِ﴾ والميزان ﴿المُسْتَقِيمِ﴾[1] [الشعراء:182] العدل السوي بحيث لا يميل إلى جانب أصلاً.

﴿وَ﴾ عليكم أيضًا أن ﴿لَا تَبْخَسُوا﴾ ولا تنقصوا ﴿النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تكسروا سلعهم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ﴾ أي: لا تمشوا عليها بالظلم ﴿مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء:183] بأنواع الفساد.

(1) قال الشيخ الألوسي (11/ 32): إشارة لهم أن يعرضوا أعمال المريدين القلبية والقالبية على الشريعة فهي القسطاس المستقيم وكفتاها الحظر والإباح.

﴿وَ﴾ كيف تفسدون فيها، وتظلمون من عليها ﴿اتَّقُوا﴾ القادر المقتدر ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وأظهركم من كتم العدم ﴿وَ﴾ كذا خلق ﴿الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:184] وذوي الخلقة من المتقدمين من أسلافكم وغيرهم أيضًا.

وبعدما سمعوا منه ما سمعوا من الحكم والتذكيرات ﴿قَالُوا﴾ متهكمين مستهزئين: ﴿إِنَّمَا أَنتَ﴾ يا شعيب ﴿مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء:185] الذين ضاعت عقولهم بالسحر والافتتان.

﴿وَ﴾ كيف تكون أنت من المرسلين ﴿مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ ومن أين يتيسر لبشر أن يكون مرسلاً من رب العالمين ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ﴾ في دعواك الرسالة ﴿لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء:186] المفترين؟!.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ قطعًا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ من بعض إقطاعها تهلكنا بها ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء:187] في أمرك هذا ورسالتك.

وبعدما آيس شعيب عليه السلام عن أيمانهم ﴿قَالَ﴾ لهم مشتكيًا إلى الله: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:188] من أنواع الفسادات، وبمقدار ما تستحقون عليها من الجزاء والعذاب.

وبالجملة: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ تكذيبًا شديدًا، وأنكروا عليه إنكارًا بليغًا، ولم يقبلوا قوله واستحقوا العذاب ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ على الوجه الذي اقترحوا منه، شدد الله عليهم بالحرّ؛ حيث اضطروا إلى الاستظلال، وذلك يوم غلت المياه في الأنهار، وظلتهم السحابة بغتةً فازدحموا تحتها مستظلين، فأمطر الله عليهم نارًا فاحترقوا بالمرة ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:189] لعظم جرمهم وعذابهم فيه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الأخذ والإنزال والإظلال ﴿لَآيَةً﴾ دالة على كمال قهرنا إياهم وزجرنا وانتقامنا عنهم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:190] بقهرنا وغضبنا ومقتضيات أوصافنا الجلالية.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على عموم المرادات والمقدورات من الثواب والعقاب، والإنعام والانتقام ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:191] على من وفقهم إلى مقتضى ما رضي عنهم، ويسر لهم الامتثال بما أمرهم ونهاهم.

هذا آخر القصص السبع المذكورة؛ لتسلية رسول الله ﷺ من أن المكذبين للرسل

مأخوذون بأنواع العذاب، مستهلكون بأصناف النكال، إنما ذكر سبحانه؛ ليعتبر منها المعتبرون من المؤمنين، ويتفطن المكذبون ما سيلحقهم من العذاب لو أصروا على ما هم عليه من التكذيب.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ (١٩٥) وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ (١٩٧) وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ (١٩٩) كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ (٢٠٤)﴾ [الشعراء:192-204].

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء:192] كالكتب السالفة.

﴿نَزَلَ بِهِ﴾ بالتخفيف ﴿الرُّوحُ الأَمِينُ﴾[1] [الشعراء:193] كما نزل سائر الكتب، وهو جبرائيل عليه السلام - سُمي به؛ لأمانته على الوحي الإلهي بأن أوصله إلى من أنزل إليه بلا تغيير وتبديل أصلاً - نزل به على قلبك يا أكمل الرسل؛ لتكون أنت أيضًا كسائر الرسل من المنذرين؛ لتنذر أهل الغفلة والغرور من قومك، كما أنذروا.

لذلك أنزله سبحانه ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:195] ظاهر الدلالة وواضح الفحوى، مناسبًا بلغة من أُرسلت إليهم، ولو أنزله على لغة العجم كالكتب السالفة لقالت العرب: ما نفهم معناه، ولا نعرف مقتضاه.

---

(1) قال الألوسي (10 /92): هذه الآية دليل على أن النبوة عطائية كما هو المذهب الحق، ويرد بها أيضًا على بعض المتصوفة القائلين بأنه لا حاجة للخلق إلى إرسال الرسل عليهم السلام قالوا: الرسل سوى الله تعالى وكل ما سواه سبحانه حجاب عنه جل شأنه فالرسل حجاب عنه تعالى وكل ما هو حجاب لا حاجة للخلق إليه فالرسل لا حاجة إليهم، وهذا جهل ظاهر، ولعمري أنه زندقة وإلحاد، وفساده مثل كونه زندقة في الظهور، ويكفي في ذلك منع الكبرى القائلة بأن كل ما سواه سبحانه الخ فإن الرسل وسيلة إلى الله تعالى والوصول إليه عز وجل لا حجاب، وهل يقبل ذو عقل أن نائب السلطان في بلاده حجاب عنه؟ وهب هذا القائل أمكنه الوصول إليه سبحانه بلا واسطة بقوة الرياضة والاستعداد والقابلية فالسواد الأعظم الذين لا يمكنهم ما أمكنه كيف يصنعون.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: إنزال القرآن عليك يا أكمل الرسل عربيًا ﴿لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:196] أي: مثبتًا مزبورًا في كتبهم مع نعتك أيضًا وحليتك، وجميع أوصافك.

﴿أَ﴾ تنكرون صدق القرآن وصحة نزوله من عند الله على محمد ﷺ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ﴾ ولم تثبت عندهم ﴿آيَةً﴾ تدل على صدقه وحقيته، وصحة نزوله من عند الله، وهي ﴿أَن﴾ أي: إنه ﴿يَعْلَمَهُ﴾ ويعرفه ﴿عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:197] وأحبارهم، يخبرون به ويقرؤون في كتبهم اسمه، واسم من أُنزل إليه ونعته وحليته.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ﴾ أي: القرآن ﴿عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ [الشعراء:198] ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم﴾ بلسانهم وعلى لغتهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:199] حينئذٍ، معللين بأنا لا نفهم معناه، ولا نعرف فحواه، فكيف عملنا به وامتثلنا بما فيه؟.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما قررنا القرآن وأدخلناه في قلوب المؤمنين ﴿سَلَكْنَاهُ﴾ وأدخلناه أيضًا ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الشعراء:200] إلا أن المؤمنين آمنوا به وامتثلوا بما فيه؛ لصفاء طينتهم.

والمجرمون ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ عنادًا ومكابرةً، لخبث طينتهم ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الشعراء:201] المؤلم الملجيء لهم إلى الإيمان في وقت لا ينفعهم إيمانهم.

﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ العذاب الموعود لهم حينئذٍ من قبل الحق ﴿بَغْتَةً﴾ بلا تقديم مقدمة، وسبق مادة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء:202] نزوله.

﴿فَيَقُولُوا﴾ بعدما نزل عليهم، ووقعوا فيه متحسرين متمنين: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ [الشعراء:203] ممهلون زمانًا؛ حتى نتدارك ما فوتنا على نفوسنا من الإيمان بالله وتصديق كتبه ورسله.

قيل لهم حينئذٍ من قبل الحق: ﴿أَ﴾ تستمهلون وتستنظرون أيها المضرون المسرفون ﴿فَبِعَذَابِنَا﴾ هذا ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الشعراء:204] فيما مضى مستهزئين متهكمين، قائلين لرسلنا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا...﴾ [الأحقاف:22]، و﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً...﴾ [الأنفال:32]، و﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا...﴾ [الشعراء:187] وأمثال ذلك، وحين نزل عليكم العذاب الموعود تستنظرون؟!.

﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا

﴿كَانُوا يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝٢٠٨ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٢٠٩ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ۝٢١٣ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢١٦﴾ [الشعراء:205-216].

﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ وعلمت أيها الرائي الخبير ﴿إِن﴾ أمهلناهم في الدنيا زمانًا طويلاً بأن ﴿مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ [الشعراء:205] فيها تمتيعًا بليغًا، ورفهناهم ترفيهًا بديعًا.

﴿ثُمَّ جَاءَهُم﴾ ونزل عليهم بعد زمان طويل ﴿مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الشعراء:206] من العذاب.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ أي: لم يدفع طول مكثهم فيها شيئًا من العذاب، ولم يخفف عذابهم ﴿مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء:207] أي: تمتيعهم زمانًا طويلاً، فإذن لا فرق بين إمهالهم وبين تعجيل العذاب عليهم.

﴿وَ﴾ من سنتنا المستمرة وعادتنا القديمة ﴿مَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ من القرى القديمة الهالكة ﴿إِلَّا﴾ أرسلنا أولاً ﴿لَهَا﴾ أنبياءً ورسلاً، هم ﴿مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء:208] مخوفون عمّا هم عليه من الأمور المستجلبة للعذاب، المستوجبة له.

وإنما أرسلنا إليهم وأنذرناهم عمّا أنذرناهم أولاً؛ ليكون ﴿ذِكْرَىٰ﴾ أي: تذكرة وعظة منها إياهم؛ حتى لا ينسبوننا إلى الظلم، ولا يجادلوا معنا وقت حلول العذاب ﴿وَ﴾ ظهر عندهم أنّا ﴿مَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الشعراء:209] بتعذيبهم بأنواع العذاب.

﴿وَ﴾ بعدما نسب المشركون المكابرون تنزيل القرآن المعجز إلى الشياطين، وطعنوا فيه بأنه من جملة ما تلقي الشياطين إلى الكهنة، رد الله عليهم بقوله: ﴿مَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ أي: بالقرآن الفرقان، المعجز لفظًا ومعنى، المبني على الهداية المحصنة ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء:210] الضالون المضلون؛ إذ لا يتأتى منهم الهداية أصلاً.

﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ﴾ الإتيان بالهداية والرشاد ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء:211] ويقدرون عليها؛ إذ الهداية إنما هي من طيب النفس وطهارة الفطرة، وأمّا استماعهم وسماعهم من الملائكة أيضًا لا يتأتى منهم، ولا يمكنهم.

﴿إِنَّهُمْ﴾ من رداءة فطرتهم وخباثة جبلتهم ﴿عَنِ السَّمْعِ﴾ لكلام الملائكة ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء:212] لأن الاستماع منهم مشروط بالمناسب لهم في التجرد عن العلائق، وصفاء الفطرة عن أكدار الطبيعة، وقبول الفيض عند هبوب نسمات النفسات الرحمانية، والتعرض والاشتياق منها على الدوام.

وظاهر أن نفوسهم الخبيثة ليست بهذه المثابة، والقرآن والفرقان محتوٍ على حقائق ومعارف، ومكاشفات ومشاهدات لا يمكن صدورها إلا ممن هو منبع جميع الكمالات ومنشأ عموم الخيرات، والمطلع بجميع السرائر والخفيات، والقادر المقتدر على جميع المرادات والمقدورات، فكيف يليق بكمال القرآن أن ينسب إلى الشيطان؟! تعالى شأن القرآن عمَّا ينسب الظالمون علوًا كبيرًا.

ثمَّ أشار سبحانه إلى تحريك سلسلة أشواق المحبين، وتهييج إخلاص الموحدين المخلصين، المنقطعين نحو الحق، الساعين بإفناء هويتهم الباطلة في طريق توحيده، الباذلين مهجهم في مسلك الفناء؛ ليفوزوا بشرف اللقاء والبقاء.

فقال مخاطبًا لحبيبه ﷺ، ناهيًا له عن التوجه والالتفات نحو الغير مطلقًا: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ﴾ الأحد الفرد الصمد، المستقل بالألوهية والربوبية ﴿إِلَٰهًا آخَرَ﴾[1] من مظاهره ومصنوعاته؛ إذ الكل في حيطة أوصافه وأسمائه لا وجود لها لذاتها، بل إنما هي عكوس وأظلال للأسماء والصفات الإلهية ﴿فَتَكُونَ﴾ أنت بجمعيتك وكمالك لو دعوت، واتخذت إلهًا آخر صرت ﴿مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء:213] بأنواع التعذيبات الصورية والمعنوية والعقلية والحسية، الجسمانية والروحانية.

إنما خاطب سبحانه حبيبه ﷺ بهذا الخطاب الهائل، عاتبه بهذا العتاب الهائب؛ ليتنبه المؤمنون، ويتفطنوا بكمال غيرة الله المتفرد المتوحد، القهار للأغيار مطلقًا.

﴿وَ﴾ بعدما ظهر عندك يا أكمل الرسل غوائل الشرك، ولاح دونك ما يترتب عليه من القهر الإلهي وغضبه ﴿أَنذِرْ عَشِيرَتَكَ﴾ أي: قرابتك، سيما ﴿الْأَقْرَبِينَ﴾

---

(1) قال الألوسي (14 /371): خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم مع استحالة صدور المنهي عنه عليه الصلاة والسلام تهييجاً وحثاً لازدياد الإخلاص فهو كناية عن أخلص في التوحيد حتى لا ترى معه عز وجل سواه. وفيه لطف لسائر المكلفين ببيان أن الإشراك من القبح والسوء بحيث ينهى عنه من لم يمكن صدوره عنه فكيف بمن عداه. وكأن الفاء فصيحة أي إذا علمت ما ذكر فلا تدع مع الله إلهاً آخر.

[الشعراء:214] منهم، واهتم بشأنهم أشد اهتمام؛ حتى تنقذهم من الشرك المستجلب لأنواع العذاب والغضب من قبل الحق.

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ وآمن لك منهم؛ أي: لين جانبك نحوهم، وابسط مؤانستك معهم ومصاحبتك معهم إياهم؛ حتى صار كلهم ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:215] الموحدين، الناجين من عذاب الله وسخطه.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ بعدما قد لنت لهم وأنست معهم، ولم يقبلوا منك دعوتك وإنذارك ﴿فَقُلْ﴾ متبرئًا منهم، مستنزهًا نفسك عن أعمالهم: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:216] أي: منكم ومن عملكم الذين تعملونه مصرين مستكبرين.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾[الشعراء:217-227].

﴿وَ﴾ إن عادوك وعاندوا معك إلى أن قصدوا مقتك ﴿تَوَكَّلْ﴾ في دفعهم وكفاية مؤنتهم ﴿عَلَى الْعَزِيزِ﴾ الغالب لقهر الأعداء، الغالب على غضبهم وانتقامهم بأنواع البلاء ﴿الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء:217] على الأولياء، ينصرهم على أعدائهم، ويدفع عنهم شرورهم.

وكيف لا يرحمك يا أكمل الرسل، ولا يكفيك مؤونة أعدائك ﴿الَّذِي يَرَاكَ﴾ أي: القيوم القادر الذي يشاهدك ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ [الشعراء:218] من منامك خلال الليل طلبًا لمرضاته، ورفعًا لحاجاتك نحوه؟!.

﴿وَ﴾ يشاهد أيضًا ﴿تَقَلُّبَكَ﴾ وترددك جوف الليل في تفقد أحوال المؤمنين ﴿فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء:219] المتذللين نحو الحق، واضعين جباههم على تراب المذلة والانكسار شوقًا إليه وتحننًا نحوه من إفراط المودة، واشتعال نار العشق والمحبة

الإلهية المطفئة لنيران الأهوية الفاسدة والآراء الباطلة.

وكيف لا يتذللون إليه ولا يتحننون نحوه ﴿إِنَّهُ﴾ بذاته ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمناجاتهم وعرض حاجاتهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء:220] بمقاصدهم وأغراضهم، وخلوص نياتهم وإخلاصهم في أعمالهم.

وبعدما ردَّ سبحانه قول من قال: إن القرآن منزل من قبل الشياطين لا من الملائكة وأثبت أن إنزاله منه سبحانه، وإيصاله من الروح الأمين على الرسول الأمين؛ إذ المناسبة بينهما مرعية، والمشاكلة مثبتة، أراد أن يشير سبحانه إلى أن تنزيل الشياطين وتسويلاتهم إنما هو لأوليائهم الذين كملت نسبتهم إليهم، وصحت مناسبتهم معهم.

فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ وأخبركم أيها المسرفون المترددون في أمر القرآن وإعجازه وإنزاله من قبل الحق القادحون فيه بنسبته إلى تنزيل الشيطان، أو إلى الشعر الذي هو من جملة وساوسه وتخيلاته، مع أنه مشتمل على معارف وحقائق، ورموزات وشهودات لا يسع الإتيان بها والتعبير عنها إلا لمن هو علام الغيوب، مطلع على سرائر أرباب الكشف والشهود، أخبركم ﴿عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء:221] للإضلال والوسوسة، والتحريف عن طريق الحق، والتغرير بالأباطيل؟.

﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ مبالغ في الإفك والافتراء ﴿أَثِيمٍ﴾[1] [الشعراء:222] مغمور في الإثم والعصيان، وأنواع الفسوق والطغيان.

ليتحقق مناسبته مع الشياطين الذين ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ للملائكة، ويصغون منهم بعض المغيبات لا على وجهها؛ غرضهم من الإصغاء الإفساد والرد لا الإصلاح والقبول ﴿وَ﴾ لذلك ﴿أَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء:223] فيما يسمعون ويلقون؛ إذ هم يحرفونه ويزيفون ترويجًا لما هم عليه من الفساد والإفساد، وتغريرًا لأوليائهم بأنواع التغريرات.

---

(1) قال الألوسي (14 /382): أي كثير الإفك وهو الكذب (أَثِيمٍ) كثير الإثم، و(كُلِّ) للتكثير وجوز أن تكون للإحاطة ولا بعد في تنزلها على كل كامل في الإفك والإثم كالكهنة نحو شق بن رهم بن نذير. وسطيح بن ربيعة بن عدى. والمراد بواسطة التخصيص في مرعاة البيان أو السياق أو مفهوم لمخالفة عند القائل به قصر تنزلهم على كل من اتصف بما ذكر من الصفات وتخصيص له بهم لا يتخطاهم إلى غيرهم وحيث كانت ساحة رسول الله صلى الله عليه وسلم منزهة عن أن يحوم حولها شائبة شيء من تلك الأوصاف اتضح استحالة تنزلهم عليه عليه الصلاة والسلام.

﴿وَ﴾ من جملة أولياء الشياطين المنتسبون إليهم بالنسبة الكاملة الكاذبة: ﴿الشُّعَرَاءُ﴾ المذبذبون بين الأنام بأكاذيب الكلام وأباطيله؛ لذلك ﴿يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ﴾ [الشعراء:224] الضالون من جنود الشياطين، المستتبعون لهم؛ لترويج أباطيلهم الزائفة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ﴾ ومن تابعهم من الغواة ﴿فِي كُلِّ وَادٍ﴾ من أودية الضلال والطغيان ﴿يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء:225] يترددون حيارى تائهين بلا ثبات ولا قرار، مترددين في معاشهم ومعادهم.

﴿وَأَنَّهُمْ﴾ من غاية غفلتهم وسكرتهم في أمور معاشهم ﴿يَقُولُونَ﴾ بأفواههم، ويخبرون بألسنتهم تلقفًا ﴿مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:226] من الأخلاق والحكم والمواعظ، والرموز والإشارات التي تصدر عنهم هفوة، وهم لا يمتثلون بها أصلاً.

﴿إِلَّا﴾ الشعراء ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾[1] بتوحيد الله، واتصفوا بالحكمة المعتدلة المودعة في قلوبهم، الظاهر أثرها من ألسنتهم، ومضوا على مقتضى الاعتدال المعنوي الذي جبلهم الحق عليه بلا تلعثم منهم، وتزلزل عن مقتضى فطرتهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الأعمال المصلحة لمفاسدهم، المهذبة لأخلاقهم وأطوارهم ﴿وَذَكَرُوا اللهَ﴾ المستوي على صراط العدالة والاستقامة في أشعارهم وقصائدهم ﴿كَثِيرًا﴾ في عموم أوقاتهم وحالاتهم؛ بل أكثر أشعارهم إنما هي لإثبات توحيد الحق ومعارفه وحقائقه ورموز أرباب الكشف والعرفان، والتذكيرات المتعلقة بترك

---

(1) قال الشيخ البقلي: أي: الذين شاهدوا الله بنعت الإيقان والعرفان، وأصلحوا سرائرهم بتقديسها عما دون الله في قربة الله، وذكروا الله كثيرًا أي: سافروا بقلوبهم وأرواحهم وعقولهم في ميادين الآزال والآباد على مراكب الأسرار والأنوار بغير طريان الغفلة وهجوم الفترة، وبفهم الذكر الكثير فناء الذاكر في المذكور بعد أن ينكشف له لوائح أنوار الأزلية والأبدية؛ فهذا غاية المجهود من الذاكرين، وفيه نكتة عجيبة أن الله سبحانه وصفهم بالذكر الكثير، وما أخبر أنهم ذاكرون بالحقيقة؛ لأن حقائق الذكر لا يقع للحدثان في قدم الرحمن؛ لأن الذكر الحقيقي إحاطة ذكر الذاكر بالمذكور، وهو مستحيل في حق الأزل؛ لذلك قال الواسطي: من ذكره افترى، وانتصارهم بعد أن ظلموا انتصارهم من نفوسهم الأمّارة حين جهلوا حقوق الله بالمجاهدات الكثيرة والرياضات. قال الجنيد: الذكر الكثير هو دوام المراقبة في جميع الأحوال، وطرد الغفلة عن القلب. وقال أبو يزيد: الذكر الكثير ليس بالعدد، ولكنه بالحضور دون العاهة والغفلة. قال النصر آبادي: حقيقة الذاكر أن يغيب الذاكر عن ذكره بمشاهدة المذكور ثم تغيب مشاهدته في مشاهدته حتى شاهد حقًا.

المألوفات، وقطع التعلقات المنافية لصفاء مشرب التوحيد.

وبعض أشعارهم متعلق بردع أهل الأهواء والآراء، وهتك محارمهم وأعراضهم وتعداد مقابحهم ورذائلهم ﴿وَ﴾ ذلك بأنهم ﴿انتَصَرُوا﴾ بأشعارهم هذه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ من أيدي الجهلة، وألسنة الكفرة المتعنتين المستكبرين على أرباب المحبة والولاء من المنقطعين نحو الحق، السالكين في سبيل توحيده.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ على أهل الحق، وآذوهم بالسنان واللسان وأنواع القدح والطغيان، ونسبوهم إلى الإلحاد والفساد، ورموهم بأنواع الفسوق والفساد مع أنهم على صرافة التوحيد متمكنون، ومن أمارات الكثرة والتقليد متنزهون، وسيعلم أولئك الرامون المفرطون المسرفون ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ﴾ أي: مرجع ومآب ﴿يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:227] ويرجعون، أيدخلون إلى حضرة النيران والخذلان منكوسين، أم إلى روضة الرضا مسرورين؟.

ألا أن أولياء الله ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:274].

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المراقب لاعتدال الأطوار والأخلاق والأعمال، وجميع الشئون والأحوال المتعلقة بنشأتي الدنيا والعقبى، أن تراجع ذوقك ووجدانك في جميع ما جرى عليك من الأحوال، وتتأمل فيها حق التأمل إلى أن تطلع بمبدئه ومنشئه، ثمّ تتفكر في صدوره، هل هو على مقتضى الاعتدال والقسط الإلهي، أم على مقتضى الهوى الغالب الذي هو من جنود الأمّارة المستمدة من إغواء الشيطان وإغرائه؟.

فإن وجدته على مقتضى القسط الإلهي والعدل الجبلي، فطوبى لك، وإن وجدته على مقتضى الهوى فعليك أن تعالجها، وتلازم في إصلاحها واستقامتها بالرياضات القالعة لعرق الأماني، والمرادات المتعلقة بمستلذات الدنيا الفانية، وتواظب على أشق الطاعات وأتعب العبادات من صيام الأيام، ومشي الأقدام، وانقطاع صحبة الأنام، والاعتزال بين الجبال والآجام، والعكوف في الخلوات، والاشتغال بالميل والصلوات المقربة نحو الحق؛ حتى تعتدل أوصافك وأخلاقك، وتستقيم أفعالك وأحوالك، فحينئذٍ انكشف لك باب التوحيد، وانغلق عليك مداخل الرياء والسمعة والعُجب، وأنواع الكدورات اللاحقة من الخلطة والمؤانسة مع الناس، والمصاحبة معهم المكدرة لصفاء شرب التوحيد.

واعلم يا أخي أن أرباب المحبة الكاملة والولاء التام، هم الذين يبذلون مهجهم في سلوك سبيل الفناء بلا التفات منهم إلى أحد من الناس، لا خيرًا ولا شرًا، ولا نفعًا ولا ضرًا، بل هم من كمال حيرتهم واستغراقهم في مطالعة جمال الله وجلاله لا يلتفتون إلى نفوسهم، فكيف إلى غيرهم؟!.

ولا يتيسر لك هذا إلا بتوفيق إلهي وجذب من جانبه، وبمتابعة حبيبه ﷺ في أطواره وأخلاقه وجميع سننه وآثاره، وبملازمة خدمة مرشد كامل، منبه نبيه، يوقظك من منام غفلتك، ويرشدك إلى منتهى مقصدك وقبلتك.

ربِّ هب لي من لدنك حكمةً وحكمًا، وألحقني بالصالحين.

تم الجزء الثاني من تفسير القرآن الشريف لحضرة سلطان الأولياء على الإطلاق سيدي وسندي السيد الشيخ أبي محمد عبد القادر الجيلاني الشهير الذي ارتفع قدره وسما ذكره، ﷺ وأرضاه.

سورة النمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة النمل

لا يخفى على أرباب الهداية الكاملة من الراسخين في مقر العز والتمكين، الواصلين إلى سر الوحدة الذاتية بمقتضى اليقين الحقي، مندرجين من مرتبتي العلم والعين إلهامًا بعدما سبقت لهم العناية الأزلية والجذبة الإلهية، والبشارة المتضمنة لأنواع الرموز والإشارة من قبل الحق الحقيق بالحقيقة أن من اهتدى إلى التوحيد الذاتي، وتمكن على تلك المرتبة بلا طريان تزلزل وتلوين، لا بدَّ أن يقيم ويديم صلواته وميله نحو الذات الأحدية، مهذبًا ظاهره وباطنه عن الميل والالتفات إلى ما سواه من المزخرفات الفانية الملهية عن الفناء فيه والبقاء ببقائه.

وأيضًا لا بدَّ له أن يميت نفسه بالموت الإرادي عن مقتضيات أوصافه البشرية، وقواه الناسوتية المبعدة عن التقرب لكنف اللاهوت، وجوار حضرة الرحموت الذي لا ينام ولا يموت.

وبالجملة: لا بدَّ له الانخلاع عن خلع التعينات العدمية المقتضية بالتعدد والكثرة مطلقًا؛ حتى يتصف بالطهارة الحقيقية، والطيب المعنوي والسعادة السنية، والسيادة السرمدية، وبذلك خاطب حبيبه ﷺ بعدما تيمن باسمه العلي الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا على ما ظهر وبطن من الأشياء ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعموم عباده بالرزق الأوفى ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم بالمثوبة العظمى والدرجة العليا، والترقي من أرض الطبيعة إلى سموات الصفات والأسماء، واللحوق بالملأ الأعلى والوصول إلى سدرة المنتهى.

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ

﴿الْأَخْسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل:1-6].

﴿طس﴾ يا طالب السيادة السرمدية، والسعادة السنية الأزلية الأبدية ﴿تِلْكَ﴾ الآيات المتلوة عليك تعظيمًا لشأنك، وتتميمًا لبرهانك ﴿آيَاتُ الْقُرآنِ﴾ أي: بعض آيات القرآن المبين، المبيّن لدلائل التوحيد وبينات الفرقان، والفارق بين الباطل والحق من الأحكام ﴿وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل:1] من منتخب لوح القضاء، وحضرة العلم الإلهي المحيط بجميع ما لمع عليه برق تجلياته الحبيبة.

إنما أُنزلت إليك يا أكمل الرسل من عنده سبحانه؛ لتكون ﴿هُدًى﴾ هاديًا لك إلى مقام تمكنك من التوحيد الذاتي ﴿وَ﴾ لتكون ﴿بُشْرَى﴾ بأنواع السعادات، ونيل أصناف الخيرات والبركات، ورفع الدرجات وأنواع المثوبات ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:2] التابعين لك في شأنك ودينك إن اطمأنت قلوبهم بالإيمان؛ أي: اليقين العلمي المستجلب لليقين العيني والحقي.

والمطمئنون هم ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ المكتوبة المفروضة لهم من قِبَل الحق في الأوقات المخصوصة، ويؤدونها على الوجه الذي وصل إليه من صاحب الشرع الشريف بلا تخفيف ولا تسريف؛ ليتقربوا بها نحو الحق، وزاد يقينهم وتصديقهم بسببها ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المصفية لقلوبهم عن الميل إلى ما سوى الحق من الزخرفة الفانية؛ ليتمرنوا بسببها على إسقاط الإضافات العائقة عن الوصول إلى وحدة الذات.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُمْ﴾ في جميع شئونهم وحالاتهم ﴿بِالآخِرَةِ﴾ المعدَّة لجزاء الأعمال وتنقيد الأفعال ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل:3] علمًا وعينًا؛ لأن أرباب الخبرة والبصائر المنكشفين بتعاقب النشأتين يرون في النشأة الأولى ما سيلحقهم في الأخرى؛ لذلك يترددون في الأولى للأخرى، ويزرعون فيها ما يحصدون فيها.

ثمّ قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة في كتابه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يصدقون ﴿بِالآخِرَةِ﴾ عنادًا ومكابرةً ﴿زَيَّنَّا﴾ وحسنًا ﴿لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾[1] القبيحة

(1) قال في التأويلات: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ الدنيوية وحركاتهم النفسانية الحيوانية في أعين نفوسهم فعميت عيون قلوبهم عن رؤية الآخرة ونعيمها؛ لأن عمى القلوب مودعة في بصارة النفوس وعمى النفوس مودعة في بصيرة القلوب، فصمت آذان قلوبهم حين عميت عيون قلوبهم فلم يسمعوا دعوة الأنبياء بسمع القبول، فلم يؤمنوا وذلك لأن لصورة الإنسان آلة للبصر دون آلة

الفاسدة الدنيوية، وأمهلنا لهم علينا زمانًا؛ ليستحقوا أشد العذاب وأسوأ العقاب ﴿فَهُمْ﴾ بواسطة إمهالنا إياهم في سكرتهم وغفلتهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [النمل:4] يترددون ويتحيرون بطرين بما لهم من الترفة والتنعم.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ الأشقياء البعداء عن عز الحضور، هم ﴿الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ في النشأة الأولى ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل:5] المقصورون على الخسران والخذلان، لا يُرجى لهم نيل مثوبة ورفع درجة، وتخفيف عذاب وقبول شفاعة، ولا خسران أعظم من ذلك؛ لذلك أصاب يوم بدر ما أصاب، وسيصيب لهم في الآخرة بأضعافه وآلافه.

ثمّ قال سبحانه مخاطبًا لحبيبه تفضلاً عليه، وامتنانًا له في إنزال القرآن إليه ووحيه عليه: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ لنجابة طينتك وطهارة فطرتك ﴿لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ ويؤتى بك، وينزل إليك ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ مبالغ في الإحكام والإتقان ﴿عَلِيمٍ﴾ [النمل: 6] باستعدادات الأنام، وقابلياتهم التي بها تتفاوت طبقاتهم فضلاً وكرامةً.

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل:7-14].

السمع فيحتمل أن تحتل آلة البصير فلا يرى بها شيئًا، ويكون آلة السمع بحالها فيسمع بها ولكن معنى الإنسان ملكوتي لا يحتاج إلى آلة البصر والسمع؛ لأنه بالصفة التي يبصر أيضًا يسمع وبها يتكلم وبها يعقل وبها يفقه، وإن أثبت الله له آلات السمع والبصر والفقه والعقل كما أثبت للصورة، ولكن أثبت لفهم الكلام.

ثمَّ أخذ سبحانه بتعداد أرباب الطبقات والكرامات حثًا لحبيبه ﷺ بالتوجه نحوه والتحنن إليه، والمواظبة على شكر نعمه، فبدأ بموسى - صلوات الرحمن عليه وسلامه - فقال مخاطبًا لحبيبه ﷺ: اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ قَالَ﴾ أخوك ﴿مُوسَى﴾ الكليم - صلوات الرحمن عليه - ﴿لِأَهْلِهِ﴾ وزوجته ابنة شعيب عليه السلام حين سار معها من مدين إلى مصر، وهي حاملة، والليلة شاتية مظلمة، وهم ضالون عن الطريق فجاءها الطلق، واضطر موسى في أمرها، فرأى شعلة نار من بعيد، فقال لأهله: اثبتوا مكانكم.

﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم﴾ ذا الساعة ﴿مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ من الطريق، يخبر به من عندها؛ إذ النار قلما تخلو عن ناس موقدين لها ﴿أَوْ آتِيكُم﴾ إن لم أجد عندها أحدًا ﴿بِشِهَابٍ﴾ أي: جمر ذي ﴿قَبَسٍ﴾ أي: مقبوسة مشتعلة منها ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل:7] وتستدفئون من البرد، وتستضيئون منها للطريق.

فاستقروا في مكانهم، فذهب موسى ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ أي: النار، ووصل عندها ﴿نُودِيَ﴾ من وراء سرادقات العز والجلال تكريمًا لموسى، وتعظيمًا له، وتنبيهًا عليه من أن مرجع جميع مقاصدك وحوائجك هو الحق، فاطلبه حتى تجد عنده جميع مقاصدك ﴿أَن بُورِكَ﴾ أي: الشأن، إنه أكثر عليك خيرك وبركاتك يا موسى ﴿مَن فِي النَّارِ وَمَنْ﴾ ظهر ﴿حَوْلَهَا﴾ إذ هو محيط بجميع الأماكن، ظاهر منها، غير متمكن فيها؛ أي: من ظهر فيها ولاح عليها.

﴿وَ﴾ بعدما تحققت بشهود الحق مع جميع الأماكن والأشياء، نزهه عن الحلول فيها والإتحاد بها، فقل: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ المنزه عن الأماكن كلها، المتجلي في جميعها؛ لكونه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل:8] يربيها بدوام التجلي، وامتداد الأظلال والعكوس الفائضة منه سبحانه عليها.

ثمَّ لمَّا قلق موسى واستوحش عن هذا النداء، وقرب إلى أن صار مغشيًا عليه من شدة هوله ودهشته، وكمال ولهه وحيرته، نودي ثانيًا باسمه استئناسًا له، وإزالةً لاستيحاشه: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ﴾ أي: إن من ناداك في النار، وظهر على صورتها ﴿أَنَا اللَّهُ﴾ المحيط بجميع المظاهر والأكوان إحاطةَ البحر للأمواج والأزباد، والشمس للأضواء والأظلال ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر، المقتدر لقهر السوى والأغيار ﴿الْحَكِيمُ﴾ [النمل: 9] المتقن في الأفعال والآثار الصادرة الظاهرة مني على أبدع ارتباط وأبلغ انتظام.

﴿وَ﴾ بعدما أزال وحشته، وأذهب ولهه ودهشته بالمؤانسة والمواساة، قال له

آمرًا: ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ التي أخذتها بيدك على الأرض؛ لترى من عجائب صنعتنا وغرائب حكمتنا ما ترى؛ حتى تتنبه من تبدل صورتها وسيرتها إلى سر سريان وحدتنا الذاتية في المظاهر كلها، فألقاها على الفور فإذا هي حية تسعى ﴿فَلَمَّا رَآهَا﴾ موسى؛ أي: العصا ﴿تَهْتَزُّ﴾ وتتحرك ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ أي: حية صغيرة سريعة السير ﴿وَلَّى﴾ وانصرف منها موسى ﴿مُدْبِرًا﴾ خائفًا هاتيًا، قلقًا حائرًا من أمرها.

﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لم يرجع إليها ليأخذها؛ هيبةً وخوفًا، قلنا منادين؛ ليقبل: ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ﴾ من عصاك، وستعود إلى سيرتها الأصلية ﴿إِنِّي﴾ من كمال مرحمتي وإشفاقي على خلَّص عبادي ﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ﴾ أحد من أوليائي، سيما ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:10] منهم، المختارون للرسالة والتشريع العام.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ من المرسلين بارتكاب ذنب صدر منه، لا عن عمد ﴿ثُمَّ بَدَّلَ﴾ وتدارك ذنبه ﴿حُسْنًا﴾ بالتوبة والندامة ﴿بَعْدَ سُوءٍ﴾ صدر منه ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ﴾ لهم أغفر لهم، وأعفو عن زلتهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النمل:11] أرحمهم وأقبل توبتهم بعدما صدرت عن خلوص طويتهم.

﴿وَ﴾ بعدما رأى موسى من عجائب العصا ما رأى قال له سبحانه ثانيًا آمرًا: ﴿أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ يا موسى ﴿تَخْرُجْ﴾ في الفور منه، فأدخلها فيه فأخرجها، تراها ﴿بَيْضَاءَ﴾ محيرة للعقول والأبصار، مع أن بياضها ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ مرض عرض لها من برص وغيرها، ثمَّ قيل له من قِبَل الحق: هي؛ أي: اليد البيضاء آية ومعجزة جديدة دالة على نبوتك ورسالتك، موهوبة لك من عندنا، معدودة ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ عظام لك، وهي: العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجذب.

ثمَّ بعدما شهدت من يدك وعصاك ما شهدت يكفيك شهادتهما على صدقك في دعواك الرسالة، مع أن لك معجزات كثيرة سواهما، اذهب مرسلاً من عندي ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ وبلغهم إنذاري وتخويفي، ونزول عذابي عليهم؛ من سوء صنيعهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل:12] خارجين عن مقتضى الحدود الموضوعة فيهم من عندنا وبوضعنا.

فذهب موسى بإذن الله ووحيه إلى فرعون وأظهر الدعوة عنده، وأقام البينة عليها ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ﴾ أي: ظهرت على فرعون وقومه ﴿آيَاتُنَا﴾ الدالة على كمال قدرتنا

وحكمتنا، وصدق من أرسلنا إليهم؛ لإرشادهم وتكميلهم، مع كونها ﴿مُبْصِرَةً﴾ موضحة، مبيّنة لهم صِدْق موسى في دعوى الرسالة، ظاهرة لائحة في نفسها أنها معجزة، ما هي من جنس السحر والشعبذة ﴿قَالُوا﴾ من فرط عتوهم وعنادهم: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل:13] ظاهر، إنه مجعول بمكر وحيل.

﴿وَ﴾ من كمال استنكافهم واستكبارهم ﴿جَحَدُوا بِهَا﴾ وأنكروا لها، ولم يلتفتوا إليها ظاهرًا ﴿وَ﴾ الحال أنها قد ﴿اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ إنها معجزة خارقة للعادة صدرت عن أمر إلهي، لا عن مكر وخديعة فظلموا أنفسهم بتكذيب ما تستقر في أنفسهم صدقًا وكونه معجزة ﴿ظُلْمًا﴾ صريحًا، وعدوانًا عن الحق، وميلاً إلى الباطل حسدًا وعنادًا.

﴿وَ﴾ استكبروا على موسى، وأنكروا جميع ما جاء به من عند ربه ﴿عُلُوًّا﴾ وعتوًا ﴿فَانظُرْ﴾ أيها المعتبر الناظر ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:14] المستكبرين الذين يكذبون ما يعلمون يقينًا حقيته في نفوسهم، وينسبونه بأفواههم إلى السحر والشعبذة عنادًا ومكابرةً، انظر عاقبتهم، كيف غرقوا واستؤصلوا إلى حيث لم يبقَ منهم أحد يخلفهم ويحيي اسمهم؟!.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل:15-19].

﴿وَ﴾ من سعة جودنا، وعموم فيضنا وفضلنا ﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾ وأعطينا ﴿دَاوُدَ وَ﴾ ابنه ﴿سُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾[1] متعلقًا بالحكم والأحكام، وعموم تدبيرات الأنام، وضبط أحوالهم -

(1) قال الشيخ روزبهان: افهم أن العلم علمان علم البيان وعلم العيان، علم البيان ما يكون بالوسائط الشرعية، وعلم العيان مستفاد من الكشوفات الغيبية؛ فما ذكر الله سبحانه فيما أعطاهما، فهو من

وأوضاعهم المتداولة بينهم من الإنصاف والانتصاف، وإقامة الحدود، وسد الثغور وغيرها من الأمور المتعلقة بضبط المملكة.

﴿وَقَالَا﴾ بعدما أرادا أن يشكرا الله، ويؤديا حقوق نعمه الجليلة، ومنحه الفائضة الجزيلة: ﴿الْحَمْدُ﴾ والمنة، والثناء التام الناشئ من عموم الألسنة، وجميع الجوارح الممنونة من نعمه، المغمورة بموائد لطفه وكرمه ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستحق لعموم المحامد والأثنية الصادرة من ذرائر الأكوان طوعًا ﴿الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:15] له، الموحدين بذاته، المصدقين لأنبيائه ورسله وكتبه، وخصصنا من بينهم بمزيد الكرامة المتعلقة برئاسة الدارين، وسيادة النشأتين، وحكومة الثقلين، والحكمة المتقنة المتعلقة بمرتبتي الناسوت واللاهوت، وحضرة الرحموت والجبروت.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ يعني: بعدما انقرض داوود استخلف عنه سليمان عليه السلام، وورث من نبوته وحكمته وحكومته، وسخر له جميع ما سخر لداوود مع زيادات خلا عنه أبوه عليه السلام، وهو تسخير الجن والريح ومنطق الطير، فإنها ما تيسر لأبيه ﴿وَ﴾ بعدما تمكن سليمان عليه السلام على مقر الحكومة والنبوة ﴿قَالَ﴾ يومًا للملأ الجالسين حوله تنويهًا وتشهيرًا لنعم الله على نفسه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا﴾ بلسان الوحي وترجمانه ﴿مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا﴾ من فضل الله علينا ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: كثير من الأشياء ما لم يؤت مثله

العلمين البياني والعياني، فالعلم البياني معروف بين العموم، والعلم العياني مشهور بين الخصوص لم يطلع عليه إلا ولي أو نبي؛ لأنه صدر من الحق لأهله، شهوده من المحبين والعارفين والموحدين والصديقين والأنبياء والمرسلين، ومن ذلك العلم علم اللدني، والعلم اللدني حقائقه علم المجهول، وعلم المجهول ما يكون صورته بخلاف علم الظاهر مثل صنيع الخضر عند موسى -عليهما السلام- من قتل الغلام وغيره، وهو حلم الأفعال وبطون حقائق المقدرات والأمور الغيبية، وما يتعلق بالملك والملكوت الذي هو المرتبة الأولى من علوم المعارف، والحكم المرتبة الثانية علوم الأسماء والنعوت والصفات مثل ما علمه الله آدم بقوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، والمرتبة الثالثة العلم بالذات: وهو علم الأسرار وهذه العلوم يجمعها قسمان قسم مستفاد من الخطاب والإلهام والكلام، وقسم يتعلق بكشف الذات والصفات والأفعال، وما أشرنا إلى هذه، وهو صورتها وحقائقها ذوقي كشفي لا يطلع عليها إلا من شاهد الحق بالحق، ويستغرق في بحارها، وعرف أنها غير محصورة للعقول؛ لأنها صفات قديمة لا نهاية لها؛ فلما عظم شأنها حمدا الله بما نالا منه من الله.

أحدٌ من العالمين ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الإعطاء والتخصيص والتفضل ﴿لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل:16] الظاهر اللائح فضله على كل أحد، والملك العظيم الذي لم يؤتَ أحدٌ من الأنبياء.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل يوم ﴿حُشِرَ﴾ وجمع ﴿لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾ وكان معسكره مسيرة مائة فرسخ، خمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحش، تمشي كلُّ طائفة منهم مع بني نوعه صافين مستوين، وإن تسابق بعضهم على بعض ﴿فَهُمْ﴾ حينئذٍ ﴿يُوزَعُونَ﴾ [النمل:17] ويحبسون؛ حتى يتلاحقوا ويتساوى صفوفهم، وكان سليمان ﷺ يأمر الريح فترفعه فوق رءوسهم مشرفًا عليهم، فتسير معه رخاءً.

ومن كمال فضل الله عليه أنه ما تكلم أحد منهم بكلام إلا حملته الريح وألقته في سمعه، فبينا هو يسير مع عسكره هكذا رآه، وجنده حراث، فقال مستغربًا: والله لقد أوتي آل داوود ملكًا عظيمًا، فمشى سليمان ﷺ إليه، فقال له: إنما مشيت إليك؛ لأوصيك ألَّا تتمنى ما لا تقدر عليه، ثمَّ قال: والله لتسبيحة واحدة يتقبلها الله خير مِمَّا أوتي آل داوود.

وكان ﷺ مع جنوده على الوجه الذي ذكر ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ هو وادٍ بالشام كثير النمل؛ لذلك سميت به ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ بعدما رأت سواد العسكر، وأشعرت بعبورهم على الوادي مناديةً لإخوانها، صائحة عليهم، صارخة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾ الضعيف النحيف ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ مسرعين متحرزين، ولا تقفوا في الصحراء حتى ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ ولا يطأنكم ﴿سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ بحوافر خيولهم ﴿وَهُمْ﴾ وإن كانوا من أرباب البر والتقوى، محترزين عن أمثال هذا الظلم الصريح إلَّا أنهم ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:18] بكم؛ لصغركم وحقارتكم فيطئونكم بلا شعور وإدراك.

وبعدما سمع سليمان ﷺ من النملة ما سمع ﴿فَتَبَسَّمَ﴾ تبسمًا ظاهرًا إلى أن صار ﴿ضَاحِكًا﴾ متعجبًا ﴿مِّن قَوْلِهَا﴾ المشتمل على أنواع التدابير والخيرات من حسن المعاشرة مع الجيران، وآداب المصاحبة مع الإخوان، والتحذير عن مظان المهالك والمتالف قبل الوقوع فيها وغير ذلك.

﴿وَ﴾ بعدما اطلع سليمان على قولها وغرضها توجه نحو الحق عاذًا على نفسه

جلائل نعم الله وآلائه، حيث ﴿قَالَ﴾ حينئذٍ مناجيًا إليه سبحانه: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع الخيرات والكرامات التي ما أعطاها أحدًا من خلقه ﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ ووفقني على أن أؤدي حقوقها على الوجه الذي ينبغي ويليق بشأنك وشأنها، ولا يتأتى مني هذا إلا بتوفيقك وتيسيرك، وفقني على إتمامها وتكميلها.

﴿وَ﴾ يسر علي ﴿أَنْ أَعْمَلَ﴾ في مدة حياتي عملاً ﴿صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي: مقبولاً عندك، مرضيًا لك ﴿وَ﴾ بعدما توفيتني ﴿أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾ وسعة فضلك وجودك ﴿فِي﴾ زمرة ﴿عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل:19] المرضيين عندك، المقبولين دونك، وعدني من عدادهم، واحشرني من زمرتهم، إنك على ما تشاء قدير، وبرجاء المؤملين جدير.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝٢١ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝٢٤ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝٢٥ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ۝٢٦﴾ [النمل:20-26].

ثم لمّا سار سليمان - صلوات الرحمن عليه وسلامه - في بعض أسفاره، وكان الهدهد دائمًا رائده، وبريد عسكره ودليلهم يدلهم على الماء عند الاحتياج؛ إذ هو عالم به إلى حيث تعرفه تحت الأرض وتعين موضعه، وكان يأمر سليمان عفاريت الجن ليحفروها ويخرجوا منها الماء لدى الحاجة.

فاحتاج سليمان عليه السلام يومًا من الأيام إلى الماء، ولم يكن الهدهد حاضرًا عنده فغضب عليه ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ وتعرفه مفصلاً؛ حتى يجده بينهم فلم يوجد ﴿فَقَالَ﴾ مغاضبًا عليه: ﴿مَا لِيَ﴾ أي: أي شيء عرض علي حتى صرت ﴿لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ بين الطيور، أهو حاضر عندي، مستور علي فلم أره ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [النمل:20]

المتخلفين عن خدمتي ورفاقتي؟.

فوالله لو وجدته ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾[1] إلى حيث آمر بنتف ريشه وحبسه في حر الشمس مع ضده في محبس ضيق ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ حدًا؛ ليعتبر منه سائر الخَدَمَة ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي﴾ وليقيمنّ على الإثبات عذره ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:21] حجة واضحة ظاهرة الدلالة، مقبولة من ذوي الأعذار عند أولي الأبصار والاعتبار.

﴿فَمَكَثَ﴾ الهدهد بعد تفقد سليمان وتهديده زمانًا ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ مديد متطاول، ثمّ حضر عنده بلا تراخٍ طويل ﴿فَقَالَ﴾ معتذرًا لغيبته ومكثه: إنما مكثت وغبت عن خدمتك؛ لأني ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أنت يا سيدي؛ يعني: تعلق إدراكي بمعلوم لم يتعلق به قبل لا علمي ولا علمك، ولا علم أحد من جنودك ﴿وَ﴾ بعد وقوفي واطلاعي به ﴿جِئْتُكَ مِن﴾ بلاد قبيلة ﴿سَبَإٍ﴾ من نواحي المغرب، وبمن ملك عليها ﴿بِنَبَإٍ﴾ وخبر ﴿يَقِينٍ﴾ [النمل:22] مطابق للواقع.

قال سليمان مبتهجًا، مزيلاً لغيظه وغضبه، مستكشفًا عنه: وما الخبر؟ قال الهدهد: ﴿إِنِّي﴾ بعدما وصلت إلى ديارهم بأقصر مدة ﴿وَجَدتُّ﴾ وصادفت ﴿امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ اسمها بلقيس بنت شراحيل، من نسل يعرب بن قحطان، وأمها جنية؛ لأنه ما كان يرى التزوج من الإنس، ولم يكن له ولد غيرها؛ لذلك ورثت منه الملك فملكت ﴿وَ﴾ من كمال عظمتها وشوكتها ﴿أُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ نفائسه وعجائبه ما لا يُعد ولا

---

(1) لأعذبنه بالصبر على دوام المراقبة والرعاية والغيبة في بحر النكرة في المعرفة ليفنى، ثم يفنى عن الفناء أو أذبحته بسيف المحبة أو بسيف العشق، أو ليأتيني من الغيب بسواطع أنور أسرار الأزل، وعلى صورة الظاهر نكتتها أن سليمان أحب الهدهد؛ لأنه رأى ذلك الهدهد في مكان العشق، ورأى عليه آثار العشق؛ فاستأنس به، وكان للهدهد خاصية أنه عرف مواقيت صلاته، ورأى الماء بين الطين والحجر، وكان يدل الجن على الماء لوضوئه وطهارته حيث نزل، وكان بين هدهد سليمان، وهدهد بلقيس عشق، فغاب عن سليمان عند نزوله، وتلاقيا الهدهدان؛ فلما تفقده علم أنه عند معشوقه، فغار عليه إذ اشتغل بغيره من خدمته فطلبه، وأمر العقاب أن يأتي به فطار العقاب، ورأى هدهد سليمان عند هدهد بلد سبأ، فأتى به على سليمان ؛ فقال: لأعذبنه عذابًا شديدًا، أي: لأحبسنه في موقع فراقه عن معشوقه، فلما جاء إليه الهدهد تحير في شأنه إيش يقول: فعلم أن سليمان في مقام أنس الله وعشقه، ويحب أن يستأنس بمستحسن فاحتال بأن يذكر عند سليمان ما رأى من حسن بلقيس وعظيم شأنها ليكون ذلك طريقًا له إلى قرب محبوبه، فلما مهد ذلك مع نفسه تعظم في شأنه، واجترأ من حيث جرأة العشيق. [العرائس].

يُحصى ﴿وَلَهَا﴾ من جملة البدائع ﴿عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:23] من جميع عروش أرباب الولاية والملك.

قيل: كان ثمانين ذراعًا في ثمانين، وارتفاعه ثلاثين أو ثمانين أيضًا، وهو متخذ من الذهب والفضة، مكلل بالدر والزمرد، والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر، وكانت قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر وزمرد، وعليه سبعة بيوتات على كل بيت باب مغلق.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ ويعبدونها ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ المستحق للتذلل والعبادة ﴿وَ﴾ من غاية جهلهم بالله، وغفلتهم عن كمال أوصافه وأسمائه الحسنى ﴿زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ هذه وعبادتهم للشمس ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ وصرفهم بتزيينه وتغريره ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ السوي، الموصل إلى توحيد الحق الحقيقي بالعبودية والتذلل ﴿فَهُمْ﴾ بسبب تضليل الشيطان وتغريره، ورسوخهم على ما زُين لهم ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:24] إلى التوحيد بمقتضى فطرتهم الأصلية وجبلتهم الحقيقية.

فلا بدَّ لهم من مرشد كامل، وهادٍ مشفق يهديهم إلى سواء السبيل، مع أنهم من زمرة العقلاء المميِّزين بين الهداية والضلالة، ولكنهم بانهماكهم في الغفلة والغرور، زيَّن لهم الشيطان عبادة الشمس التي هي من جملة مظاهر الحق، مقتصرين العبادة عليها؛ لقصور نظرهم، ولو نبههم منبه نبيه على توحيد الله واستقلاله سبحانه في جميع مظاهره، لعل الله يوقظهم من منام الغفلة.

بأن قال لهم مناديًا إياهم: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ يعني: تنبهوا أيها الفاقدون قبلة سجودكم وجهة معبودكم، أيها القوم الضالون المنصرفون عن المسجود الحقيقي والمعبود المعنوي، بل اسجدوا وتذللوا ﴿لِلَّهِ﴾ المتجلي في الأكوان، المنزه عن الحلول في الجهات والمكان، المقدس عن تتابع الساعات وتعاقب الأزمان، بل له شأن لا يشغله شأن ولا يجري عليه زمان ومكان ﴿الَّذِي يُخْرِجُ﴾ بمقتضى علمه المحيط، وقدرته الكاملة الشاملة ﴿الْخَبْءَ﴾ أي: الخفي المطوي المكنون ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: سموات الأسماء الإلهية، وأوصافه الذاتية الفاعلة، وأرض الطبيعة القابلة لقبول الانعكاس من الأسماء والأوصاف ﴿وَيَعْلَمُ﴾ سبحانه بعلمه الحضوري ﴿مَا تُخْفُونَ﴾ في سرائركم وضمائركم، بل بخفياتكم التي لا اطلاع لكم عليها أصلاً بمقتضى قابلياتهم واستعداداتهم ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:25] من أفعالهم وأحوالهم.

وكيف لا يظهر المكنون من الأمور، ولا يعلم خفيات الصدور ﴿اللَّهُ﴾ الواحد

الأحد الصمد، الحي القيوم الذي ﴿لَا إِلَهَ﴾ أي: لا موجود في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل:26] المحيط بجميع ما لمع عليه برق تجلياته المتشعشعة المتجددة المترتبة على أسمائه الذاتية الكاملة، المستدعية للظهور والبروز بإظهار ما كمن من الكمالات، المندمجة في الذات الأحدية إلى فضاء الوجود.

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) ﴾ [النمل: 27-35].

وبعدما سمع سليمان عليه السلام منه ما سمع ﴿قَالَ﴾ ممهلاً عليه: ﴿سَنَنظُرُ﴾ ونصبر إلى أن يظهر ﴿أَصَدَقْتَ﴾ فيما أخبرت به ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[1] [النمل:27] المزورين زورت هذا؛ لتخلص من العذاب؟.

ثمّ أراد سليمان ـ صلوات الرحمن عليه وسلامه ـ أن يرسل رسولاً إلى بلقيس فكتب كتابًا هكذا: «بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فلا تعلوا علي وأتوني مسلمين» ثمّ طبعه بالمسك وختمه بخاتمه، ثمّ قال للهدهد: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ بحيث لم يتفطنوا بك وبأمرك ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾ وانصرف ﴿عَنْهُمْ﴾ وكن متواريًا في قربهم ﴿فَانظُرْ﴾ وتأمل ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل:28] أي: ماذا يرجع ويرد بعضهم بعضًا من الكلام في المشاورة والمكالمة؟ فأخذ الهدهد الكتاب، وأتى

(1) قال نجم الدين كبرى: في هذا دلالة على أن خبر الواحد لا يوجب العلم، فيجب التوثيق فيه على حد التجويز، وفيه دليل على أنه لا يطرح بل يجب أن يتعرف هل هو صدق أو كذب، ولما عرف سليمان هذا العذر عذر الهدهد فترك عقوبته، فكذلك سبيل الوالي يجب أن يمنعه عدله من الحيف على رعيته، ويقبل عذر من وجده في صورة المجرمين إذا صدق في اعتقاده.

بلقيس وهي نائمة في قصرها، فألقاه على نحرها، فلما استيقظت رأت الخاتم في نحرها، فرعدت وخضعت خوفًا، ثمّ جلست مع أشراف قومها وتشاورت معهم في أمر الكتاب.

حيث ﴿قَالَتْ﴾ منادية مستفتية منهم: ﴿يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ﴾ اليوم ﴿كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل:29] وصفته بالكرامة؛ لأنها نائمة في قصرها والأبواب مغلقة عليها، فرأت في صدرها هذا بلا إحضار محضر، كأنهم قالوا: ممن؟ وما مضمونه؟.

قالت: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الكتاب مرسل ﴿مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ﴾ أي: مضمونه: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل:30].

﴿أَلَّا تَعْلُوا﴾ أي: عليكم ألا تترفعوا ولا تتكبروا ﴿عَلَيَّ﴾ ولا تبالوا ببسطكم وشوكتكم ﴿وَ﴾ لا يليق بشأنكم الإتيان على وجه الخضوع بلا كبر وخيلاء، وإذا انحصر أمركم على الإتيان ﴿أْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[1] [النمل:31] منقادين لأمر الله، مطيعين لحكمه وحكم رسوله بلا ممانعة وإباء.

ثمّ لمّا قرأت مضمون الكتاب عليهم، وشرحت لهم فحواه ﴿قَالَتْ﴾ خائفة

---

(1) عرفت أنه كلام الله، ولا يشبه كلام الخلق، وقالت: كتاب كريم؛ فانبسطت من باء ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ إشارة بدء القدم والبقاء اللذين هما أصل جميع الصفات القديمة القائمة بذات الحق سبحانه من عرفه بالقدم والبقاء فقد عرفه بجميع الذات والصفات، وتلك المعرفة لا تكون إلا لمن شاهد مشاهدة الأزل والأبد، وعرفت من السين إشارة سنا الحق وأسراره، ومن الميم ملكه ومحبته، وإشارة الهيمنة المشاهدة المحيطة بكل ذرة من العرش إلى الثرى من حروف الله إشارة عين الذات الواحد الفرد من الألف، ومن اللامين الجلال والجمال، ومن إلهام الهوية، وغيوبات الغيب، ووجدت في الكلمة وجوب العبودية للربوبية ليصل برحمة الرحمانية العامة في الدنيا والآخرة ورحمة الرحيمية الخاصة في الآخرة لأهل الخصوص، وعلمت أنها بجميعها مقام الاتصاف من اتصف بها سهل عنده بتلفظها مراد أراده من معنى الإجابة القدرة بالأشياء بالآيات والكرامات.

قال الواسطي في قوله: ﴿كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾: مختوم مزين بزينته، وقيل: كرامة الكتاب ابتداؤه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وقيل: كرامته عنوانه. وقال الحسين في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾: قولك منك بمنزلة «كن» منه، وإذا أحسنت أن تقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ تحققت الأشياء بقولك: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ كما تحقق بقوله: «كن»، وقيل في قوله: ﴿كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾: لأن الرسول كان طيرًا، فعلمت أن من يكون الطير مسخرة له [فهو] عظيم الشأن. [العرائس].

مضطربة، منادية لهم ثانيًا تأكيدًا للتأمل والتدبر في هذا الأمر الهائل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي﴾ أي: أجيبوا عليّ وأشيروا إليّ ﴿فِي أَمْرِي﴾ هذا، واختاروا ما هو الأحوط، واستفتوا طريقًا ورأيًا، أختار ذلك قطعًا، وآمر بها حكمًا؛ إذ ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ أمضي عليه وأجزم به ﴿حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل:32] له وتستصوبونه، بل الأمر مفوض إليكم، فاستصوبوا ما أقر رأيكم عليه؛ حتى أمضي على مقتضاه.

وبعدما فوضت أمرها إليهم استعطافًا واستظهارًا ﴿قَالُوا﴾ مستعلين مستكبرين على مقتضى أصحاب القدرة والقوة، وأرباب الجاه والثروة: ﴿نَحْنُ﴾ قوم ﴿أُولُوا قُوَّةٍ﴾ وقدرةٍ تامةٍ عَددًا وعُددًا ﴿وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قد انتشر صيتنا في الآفاق بالشدة والشجاعة وأنواع الجراءة والاستيلاء، والصولة على الأعداء، فنحن هكذا ولا خوف لنا منهم ﴿وَالْأَمْرُ﴾ بعد ذلك ﴿إِلَيْكِ﴾ ونحن عبيدك ﴿فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل:33] من القتال والصلح، نعمل على وفق ما أمرتنا به.

﴿قَالَتْ﴾ في جوابهم بعدما تأملت، وتعمقت في أمرها ورأيها: نعم، إن لنا كثرة وشجاعة منتشرة في أقطار الأرض بأسها وهيبتها، إلّا أن الحرب خداع، والقتال سجال لا تدرى عاقبتهما، ولا اعتماد على الكثرة والجراءة بعدما نفذ القضاء على الهزيمة، ومن المقدمات المسلمة ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ﴾ وأرباب القدرة والاستيلاء ﴿إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ عنوةً وقهرًا ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ بأن غيروا لها أوضاعها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ بالغلبة والاستيلاء ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل:34] هؤلاء لو دخلوا على بلادنا هذه.

﴿وَ﴾ ما يليق لنا اليوم، ولا يصلح بحالنا مقارعة باب المقاتلة والمصالحة أيضًا، بل ﴿إِنِّي مُرْسِلَةٌ﴾ رسلاً ﴿إِلَيْهِم﴾ أولاً مصحوبة ﴿بِهَدِيَّةٍ﴾ كثيرة لائقة بعظم شأنهم لأختبرهم ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ منتظرة بعد ذلك ﴿بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:35] أي: بأي شيء يرجعون من عندهم بعد تجسسهم من أحوالهم وأطوارهم ومعاشهم مع رسلنا؛ حتى أعمل على ما يقتضى ما يرجعون، هذا من كمال عقلها ورزانتها في تدبيرات المملكة وصيانتها آداب السلطنة والإمارة وضبط المملكة.

ورُوي أنها أرسلت منذر بن عمرو في وفد، وأرسلت معه غلمان على زي الجواري، وجواري على زي الغلمان، وحقة فيها درة عذراء لا ثقب فيها، وجزعة معوجة الثقب، وقالت: إن كان نبيًا بيّن الغلمان والجواري، وثقب الدرة ثقبًا مستويًا، وسلك في الجزعة خيطًا، ومعها أموال عظام من لبنات الذهب والفضة، والعود والعنبر

والكافور والمسك، وأجناس الجواهر والنفائس من كل شيء، فلما وصلوا معسكره رأوا عظمة ما شاهدوا مثلها ولا سمعوا من أحد.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)﴾ [النمل: 36-40].

﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ الرسل ﴿سُلَيْمَانَ﴾ وحضروا عنده نظر إليهم بوجه حسن طلق، وتكلم معهم لينًا حزينًا مخبرًا عن أحوال ملكتهم ومملكتهم، ثمّ قال: ما أمركم ومصلحتكم؟ فأعطوا كتاب بلقيس فنظر فيه، فإذا هي فصلت فيه جميع ممتحناتها، قال سليمان ﷺ: أين الحقة؟ فجيء بها فقال: إن فيها درة ثمينة غير مثقوبة، وجزعة معوجة الثقب، فأمر سليمان الأرضة فأخذت شعرة، فدخلت في الدرة حتى خرجت من الجانب الآخر، وأمر دودة أخرى حتى دخلت في الجزعة المعوجة الثقب بخيط حتى خرجت من الجانب الآخر، وميّز بين الجواري والغلمان بأن أمرهم بغسل وجوههم وأيديهم، فكانت الجارية تأخذ الماء بإحدى يديها وتصب في الأخرى، ثم تضرب وجهها، والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه.

ثمّ أتوا ببقايا الهدايا المرسلة فأبى سليمان عنها، وردّ كله إليهم مهددًا عليهم حيث ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ﴾ وتزيدونني ﴿بِمَالٍ﴾ يميل إليها أبناء الدنيا المحرومين عن اللذات الأخروية ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ﴾ المنعم المفضل عليّ من الأمور الأخروية من النبوة والرسالة، وتسخير الثقلين والرياح والطيور والوحوش، وجميع من في الجو وعلى وجه الأرض ﴿خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾ من حطام الدنيا ومن مزخرفاتها الفانية، فما لنا ميل والتفات إليها ﴿بَلْ أَنْتُمْ﴾ وأمثالكم من أبناء الدنيا ﴿بِهَدِيَّتِكُمْ﴾ هذه ﴿تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: 36] أي: تميلون وتسرون بها؛ لفخركم بأمثال هذه الزخارف؛ لقصور نظركم عليها

وغفلتكم عن الأمور الأخروية.

﴿ارْجِعْ﴾ أيها الرسول ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى ملكتك ومن معها من الجنود، وقل لهم: مطلوبي منهم الإيمان بالله المتوحد بالألوهية والربوبية، والانقياد إليه والإطاعة لأحكامه فلهم الإتيان إليّ مؤمنين مسلمين منقادين وإلا ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ﴾ من الإنس والجن وأصناف الوحوش والطيور، وأنواع الهوام والحشرات بالغة من الكثرة إلى حد ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا يسع لهم مقابلتها من بعيد، فكيف ممانعتها ومقاتلتها؟! ﴿وَ﴾ بعدما لم يسع لهم المقابلة ﴿لَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا﴾ أي: من بلادهم ﴿أَذِلَّةً﴾ ضعفاء ذليلين بأيدينا ﴿وَهُمْ﴾ حينئذٍ ﴿صَاغِرُونَ﴾ [النمل:37] مهانون أُسراء بأيدي هؤلاء العفاريت.

ثمَّ لمَّا رجع رسلها مع ما أهدت من الهدايا على وجهها قالت بلقيس: قد عرفت أنه ليس بملك، بل نبي من الأنبياء مؤيد بأمر سماوي، وما لنا طاقة مقاومة ومقابلة معه سوى المصالحة والإطاعة بأمره والحضور عنده.

ثمَّ أرسلت بلقيس إليه ـ صلوات الرحمن عليه ـ ثانيًا: إني قادمة إليك عن قريب فهيأت أسبابه حتى تخرج، وجعلت سريرها داخل سبعة أبواب في قصرها، وقصرها داخل سبعة قصور، وأغلقت على الأبواب كلها، وجعلت عليها حرسًا متعددة، وارتحلت إلى سليمان، فلما دنت إليه رأى سليمان حين كان على سريره جمًا غفيرًا من السواد مسيرة فرسخ فسأل عنهم، فقالوا: بلقيس أتت بجنودها مطيعين مسلمين.

﴿قَالَ﴾ سليمان لمن حوله منّ الجن والإنس: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي﴾ ويحضروا عندي ﴿مُسْلِمِينَ﴾[1] [النمل:38] مؤمنين؛ إذ بعدما أتوا لا يجوز إتيان عرشها إلا بإذنها؛ إذ لا يصح نقل مال المسلم إلا بإذنه.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ أي: خبيث مارد ﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ اسمه ذكوان أو صخرًا: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي: مجلسك الذي تجلس عليه أنت للحكومة؛ إذ من دأبه

(1) يشير إلى أن سليمان ﷺ كان واقفًا على أن في أمته من هو من أهل الكرامة، فأراد أن يظهر كرامتهم ليعلم أن في أمم الأنبياء عليهم السلام يكون أهل الكرامات فلا تنكروا من كرامات الأولياء كما أنكرت المعتزلة، فإن أدنى مصيدة الإنكار حرمان المنكر عن درجة الكرامات كحرمان أهل البدع والأهواء عنها، ولا يظن جاهل أن سليمان ﷺ لم يكن قادرًا على الإتيان بعرضها ولم يكن له هذه الكرامات، فإنه أمرهم بذلك لإظهار أهل الكرامات من أمته، ولأن كرامات الأولياء من جملة معجزات الأنبياء، فإنها دالة على صدق نبوته وحقيقة دينهم أيضًا. [التأويلات].

الجلوس إلى وقت الزوال؛ يعني: آتيك به قبل إتيانها ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ﴾ أي: على حمل عرشها ﴿لَقَوِيٌّ﴾ أحمله بلا تزلزل أركانه وقوائمه ﴿أَمِينٌ﴾ [النمل:39] لا أتصرف منه شيئًا من زينته وجواهره، فاستبطأ ﷺ إتيانه، وطلب أسرع من ذلك.

﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ﴾ فائض له ﴿مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أي: من حضرة العلم الإلهي المعبر بالقضاء واللوح المحفوظ، وعالم الأسماء والأعيان الثابتة، به يقدر على إحضار شيء وإعدامه دفعة، وكان هو وزيره آصف بن برخية، قد انكشف عليه خواص الأسماء الإلهية ففعل بها ما فعل: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي: قبل أن تعيد وتطبق أجفانك حين نظرك، وهذا كناية عن كمال السرعة والعجلة، فأتى به طرفة عين ﴿فَلَمَّا رَآهُ﴾ أي: سليمان العرش ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ قبل إتيان بلقيس ﴿قَالَ﴾ سليمان ﷺ متوجهًا إلى ربه، مذكرًا نعمه الفائضة على نفسه، مجددًا الشكر إياها: ﴿هَذَا﴾ أي: حضور العرش العظيم الثقيل في غاية الثقل والعظمة في آنٍ واحدٍ، مع أنه كان في مسافة بعيدة ﴿مِن﴾ جملة ﴿فَضْلِ رَبِّي﴾ عليَّ، ومن عداد جلائل إنعامه وأفضاله إليَّ.

إنما تفضل سبحانه عليَّ بهذا ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾ ويختبرني ﴿أَأَشْكُرُ﴾ بمواظبة شكر نعمه المتواترة عليَّ، بحيث أعجز عن أداء حق شكره، وأعترف بالعجز والقصور عن إحاطة نعمه، فكيف عن أداء حقوقها؟! ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ لنعمه، ولا أقيم بمقام الشكر عليها، وإن كانت الإقامة والتوفيق عليها أيضًا من جملة نعمه وفضله وكرمه، ولا عائدة من شكرنا إليه سبحانه؛ إذ هو منزه عنها؟! بل ﴿وَمَن شَكَرَ﴾ على نعم الحق، وصرفها على مقتضى ما جبلها الحق لأجله ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ﴾ الشاكر ﴿لِنَفْسِهِ﴾ لازدياد النعم عليها بمزيد الشكر ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ فإنما يكفر لنفسه بانتقاص النعم عليها ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ في ذاته عن جميع العوائد ﴿كَرِيمٌ﴾ [النمل:40] جواد لا يعلل فعله بالأغراض وإنعامه بالأعواض.

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿41﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿42﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿43﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي

﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل:41-44].

ثمّ لمّا دنت بلقيس مع من معها من أشراف قومها بالدخول على سليمان ﷺ والعرش عنده ﴿قَالَ﴾ لمن حوله: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ حين جلست؛ أي: غيّروا بعض أوضاعه وزينته ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِي﴾ وتتعقل أنه هو ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:41] لاستحالة أن يكون هذا هو عادةً؟ إنما قصد به ﷺ اختبار عقلها ورشدها واستعدادها للإيمان بالمغيبات والمستبعدات الخارقة للعادات، فغير عرشها على الفور، وقد بنى سليمان صرحًا ممردًا من قوارير ووضع سريره فيها، وهي على الماء، ومن غاية صفائها لا يتميز عن الماء، وفي الماء حيوانات مائية المولد من الحوت والضفدع وغيرها.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ بلقيس، وهو في ذلك الصرح على السرير ﴿قِيلَ﴾ لها أولاً: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ﴾ بعدما أمعنت نظرها نحو العرش: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أتت بكلمة التشبيه، وقد تحقق عندها أنه هو؛ صيانةً لنفسها عن الكذب ﴿وَ﴾ بعدما تفرست منه التصديق لقولها بادرت إلى تصديق نبوته، فقالت: لا حاجة لا إلى اختبارك بأمثال هذه المعجزات حتى نؤمن لك؛ إذ ﴿أُوتِينَا﴾ المتعلق منّا بصدقك وتصديق نبوتك ﴿الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ أي: قبل ظهور هذه المعجزة الخارقة للعادة بأمور اختبرناك بها ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:42] منقادين لك، مسلمين نبوتك وتأييدك من قبل الحق.

﴿وَ﴾ من فضل الله إياها أنه ﴿صَدَّهَا﴾ وصرفها بعدما ظهر عندها نبوة سليمان ﷺ ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: صرفها الحق عن عبادة الشمس؛ إذ عبدتها تقليدًا لأسلافها ﴿إِنَّهَا كَانَتْ﴾ منتشئة ﴿مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل:43] جاحدين لله، عابدين للشمس.

ثمّ ﴿قِيلَ﴾ أي: قال سليمان ﷺ آمرًا ﴿لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ فبادرت إلى الإجابة ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ أي: القصر ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ فيها أنواع الحيوانات المائية ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ أي: رجليها؛ لتدخل فيها، فلما رأى سليمان ساقيها، وقد أُخبر أن ساقيها لا كساق الإنسان؛ لذلك احتال بناء قصر القوارير؛ حتى يظهر عنده هل هو مطابق للواقع أم لا؟ فلما رآها أحسن ساقًا قدمًا، لكن على ساقيها شعر صرف وجهه عنها مستغفرًا، ثمّ ﴿قَالَ﴾ لها: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ أي: بنيان مملس مصنوع ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ أي: من زجاج فأرخت ذيلها فدخلت، وبعدما رأت اللجة ظنت أنه يستغرقها بها عمدًا، فلما

ظهر عندها خلافه ﴿قَالَتْ﴾ مستغفرة عن سوء ظنها إياه: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بهذا الظن الفاسد عن نبي الله ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد، المستقل بالألوهية والربوبية؛ لكونه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل:44] لا رب له سواه، ولا إله إلا هو.

وقد اختُلف في تزوجها، والأصح أنه تزوجها، ثمّ انقرض هي وسليمان ومن عليها جميعها؛ إذ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:29] و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:26-27].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل:45-47].

﴿وَ﴾ من وفور جودنا وإحساننا ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ﴾ حين لاح عليهم أمارات العدوان، وعلامات الفسوق والعصيان ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: بأن اعبدوه حق عبادته، وتذللوا نحوه ولا تتكبروا عليه بالخروج عن مقتضى أوامره وحدوده ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل:45] أي: بعدما أظهر عليهم الدعوة فاجئوا على الافتراق؛ حيث آمن له البعض، وصدقه وأعرض عنه البعض الآخر فكذبه، فاختصما.

﴿قَالَ﴾ صالح للمعرضين المكذبين: ﴿يَا قَوْمِ﴾ شأنكم الحذر والإعراض من عذاب الله ونكاله، وعن موجبات قهره وأسباب غضبه ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ الموجبة لأنواع العذاب والقهر الإلهي ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ المستجلبة لعموم الخيرات ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلّا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ العفو الغفور؛ لكفركم وذنبكم الذي صدر عنكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل:46] قبل نزول عذابه عليكم؛ إذ حين نزول العذاب لا ينفع توبتكم واستغفاركم.

وبعدما ظهر عليهم أمارات قهر الله وغضبه إياهم، ووقع الجدب بينهم ﴿قَالُوا﴾ مغاضبين على صالح: ﴿اطَّيَّرْنَا﴾ أي: تطيرنا وتشاءمنا ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ من المصدقين لك، المتدينين بدينك؛ إذ تواترت علينا المصيبات مذ ظهرتم بدينكم هذا، ووقعت الوقائع الهائلة بشؤمكم وحدوث دينكم، وبعدما سمع منهم صالح ما سمع آيس عن

إيمانهم وصلاحهم ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ﴾ أي: سببكم الذي جاء منه شركم وخيركم ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ وفي لوح قضائه وحضرة علمه، كتب عليكم الخير والشر حسب ما صدر عنكم من الأعمال الصالحة والطالحة، ولا معنى لتطيركم وتشاؤمكم بنا ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل:47] وتُختبرون بتفاقم المحن، وتلاطم أمواج الفتن؛ كي تستغفروا وتندموا عما أنتم عليه من الكفر، وتستأصلوا من الكفر والعصيان، وتستأصلوا بنزول عذاب الله، وبعدما سمعوا منه كلامه هذا قصدوا مقته وإهلاكه.

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النمل:48-53].

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي: تسعة رجال اتفقوا إلى حيث صاروا رهطًا واحدًا متفقين على قهره وقتله، والرهط جمع لا واحد له، يُطلق على ما دون العشرة، وكان شأنهم مقصورًا على الإفساد والفساد ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بأنواع الفسادات ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[1] [النمل:48] أصلاً في حال من الأحوال.

وبعدما ظهر عليهم أمارات العذاب الإلهي، وتحقق عندهم نزوله قصدوا إهلاك صالح ومن معه قبل إهلاكهم، حيث ﴿قَالُوا﴾ في ما بينهم: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ بأنْ حلف

(1) قال في التأويلات: أرض القلب بإفساد الاستعداد الفطري الذي فطر الناس عليها لقبول الفيض الإلهي بلا واسطة وهو مخصوص بالقلب بين سائر المخلوقات، كما قال في حديث رباني: «لا يسعني أرضي ولا سمائي وإنما يسعني قلب عبدي المؤمن» ﴿وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾ أي: ليس في النفس ومفاتنها المتولدة من العناصر والماديات بما داخلها من آفات الحواس صلاحية قبول الفيض الإلهي إلا بانعكاس أنواره من مرآة القلب عليها فتطمئن بها فيتلون بلون القلب المنور بنور الفيض، وإلى هذا المعنى أشار بقوله: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:29-30].

كل منكم عند صاحبه ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ ونهلكنّه قبل إلمام العذاب علينا ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ عند طلب ثأره مبالغين في الإنكار: ﴿مَا شَهِدْنَا﴾ في مدة عمرنا ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ أي: المكان الذي أُهلك فيه صالح، فكيف قتلنا إياه؟! ﴿وَ﴾ نؤكد قولنا هذا بالقسم أيضًا عند وليه، ونقسم ﴿إِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل:49] في قولنا هذا، وما لنا علم بإهلاكه.

﴿وَمَكَرُوا﴾ واحتالوا؛ لمقت نبينا ﴿مَكْرًا﴾ بليغًا ﴿وَمَكَرْنَا﴾ أيضًا؛ لهلاكهم واستئصالهم ﴿مَكْرًا﴾ أبلغ من مكرهم، بأن أمرنا للملائكة حين يمم أولئك المفسدون الماكرون؛ لقتل صالح، وأخذوا يطلبونه أن يرجمهم بالحجارة، ويصيح عليهم بالصيحة الهائلة عند الرجم، ففعلوا معهم كذلك ﴿وَهُمْ﴾ حينئذٍ من شدة هولهم وفزعهم ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:50] الصائح والرماة، فهلكوا بالمرة بلا وصول إلى من مكروا لأجله.

﴿فَانظُرْ﴾ أيها الناظر المعتبر ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ واصلة إليهم لاحقة بهم وبالجملة: ﴿أَنَّا﴾ من مقام قهرنا وجلالنا ﴿دَمَّرْنَاهُمْ﴾ وأهلكنا؛ أي: التسعة المتقاسمين ﴿وَقَوْمَهُمْ﴾ أيضًا ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [النمل:51] إلى حيث لم يبقَ منهم أحد يخلفهم.

﴿فَتِلْكَ﴾ الأطلال الخربة والرسوم المندرسة ﴿بُيُوتُهُمْ﴾ ومساكنهم التي شيدوها وحصنوها بأنواع التشييدات والمترصفات والتجصيصات، انظرْ كيف صارت ﴿خَاوِيَةً﴾ ساقطة جدرانها على سقوفها منعكسة، كل ذلك ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ وبشؤم ما خرجوا على مقتضى الحدود الإلهية عتوًا واستكبارًا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المكر والإهلاك ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:52] دالة على كمال قدرتنا على انتقام من خرج عن ربقة انقيادنا وطاعتنا.

﴿وَ﴾ بعدما أهلكناهم صاغرين ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيدنا، وصدقوا رسلنا سالمين غانمين ﴿وَ﴾ هم من كمال إخلاصهم وخشيتهم ﴿كَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل:53] ويحذرون من قهرنا وغضبنا، ولا يسيئون الأدب معنا ومع رسلنا.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ

يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ [النمل:54-59].

﴿وَ﴾ من مقتضيات حكمتنا المتقنة أرسلنا ﴿لُوطًا﴾ إلى قومه خرجوا عن مقتضى حدودنا تاركين حدود حكمة التناسل والتوالد وبقاء النوع، مبتلين بما هو مذموم عقلاً وشرعًا، وعرفًا وعادة، ومروءة وطبعًا، اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ مستفهمًا منهم على سبيل الإنكار والتوبيخ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ والفعلة القبيحة الشنيعة ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل:54] وتشاهدون قبحها وشناعتها وقت ما فعلتم وأتيتم.

﴿أَئِنَّكُمْ﴾ أيها المسرفون المستعبدون للشهوة ﴿لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ الذين هم مثلكم في الرجولية ﴿شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ مع أن الحكمة الإلهية تقتضي إتيانهن للتناسل وبقاء النوع كسائر أنواع الحيوان، وهؤلاء مع جهلهم لا يخرجون عن مقتضى الحكمة. وأنتم أيها الحمقى مع أنكم مجبولون على العقل الفطري المميز بين المحاسن من الأخلاق والأطوار وخسيستها، تخرجون عن مقتضاها ﴿بَلْ أَنتُمْ﴾ بفعلتكم هذه ﴿قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل:55] منسلخون عن مقتضى العقل والإدراك المميز للإنسان عن سائر الحيوان، بل أسوأ حالاً من الحيوانات العجم؛ إذ لا يتأتى منها أمثال هذا إلا من الحمار الأرذل الأنزل، انظروا ما هو شريككم في فعلتكم هذا أيها الحمقى المسرفون المفرطون.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ بعدما سمعوا منه أنواع التشنيعات والتقريعات ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ من فرط انهماكهم في الغي والضلال، ونهاية عمههم وسكرتهم في رق شهواتهم ولذاتهم البهيمية متشاورين بينهم، متعاونين: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:56] عن أفعالنا ويتنزهون، ولا مناسبة بيننا وبينهم، فلهم أن يخرجوا من بيننا؛ حتى لا يتلوثوا بأفعالنا، إنما قالوا هكذا تهكمًا واستهزاءً.

ثم لمّا استحقوا نزول العذاب والإهلاك، وحان حلول البوار عليهم ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ أي: أخرجنا لوطًا من بينهم ﴿وَ﴾ أمرناه أن يخرج ﴿أَهْلَهُ﴾ أيضًا عناية منّا إياهم ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ المائلة عليهم الراضية بفعلهم؛ لأنها منهم، لذلك ﴿قَدَّرْنَاهَا﴾ في سابق قضائنا

﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[1] [النمل:57] الهالكين المصابين.

﴿وَ﴾ بعدما أخرجنا لوطًا وأهله من بينهم ﴿أَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي: مطر، وهو مطر الحجارة المهلكة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [النمل:58] مطرهم الذي أمطروا به، بحيث لم يبقَ منهم ومن مساكنهم ومواشيهم شيء أصلاً.

وبعدما قصَّ سبحانه لحبيبه ﷺ قصص بعض أرباب الطبقات من الأنبياء والرسل المختصين بأنواع الفضائل والكرامات الموهبة من عنده سبحانه إياهم تفضلاً عليهم وامتنانًا، أمره سبحانه بأن بادِر إلى تجديد الشكر والثناء عليه سبحانه بما أولاهم من النعم العظام، وأعطاهم من الفواضل الجسام إيفاءً لحقوق المؤاخاة، والاتحاد الحقيقي الواقع بين الأنبياء والرسل الكرام بعد رفع الإضافات وخلع التعينات.

وقال سبحانه: ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل بعدما تلونا عليك بعض فضائل إخوانك تحميدًا علينا من قبلهم، وتسليمًا منَّا إياهم: ﴿الْحَمْدُ﴾ والثناء الكامل اللائق ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد، الحقيق بجميع المحامد والأثنية الصادرة عن ألسنة عموم من رش عليهم رشحات بحر وجوده، وامتد عليهم أظلال أسمائه وصفاته بمقتضى وجوده ﴿وَسَلَامٌ﴾ منه سبحانه ورحمة نازلة على التواتر والتوالي ﴿عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ واختارهم من بين البرايا التائهين في بيداء الغفلة والضلال، وتكميل الناقصين المنحطين عن رتبة الخلافة والنيابة بميلهم إلى قاذورات الدنيا العائقة عن الوصول إلى دار الخلافة التي هي التوحيد المسقط لتوهم الإضافات مطلقًا.

قل يا أكمل الرسل بعدما ظهر الحق مستفهمًا، مقرعًا للمشركين المتخذين غير الله إلهًا جهلاً وعنادًا: ﴿آللَّهُ﴾ الواحد الأحد، القادر المقتدر، المدبر لمصالح عباده، الموصل لهم بعد تصفية ظواهرهم وبواطنهم إلى ما جُبلوا لأجله من معرفة مبدئه ومعاده ﴿خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:59] له عنادًا ومكابرةً من الأظلال الهالكة في

(1) وفي قوله تعالى: ﴿قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [النمل:57]. أي: المرآة التي هي صورة الدنيا إجمالاً، كما أن آدم إجمال العالم؛ لكن لمَّا كانت الشهوات والزين من الأمور السالفة الدنيّة؛ قيل للمرأة: صورة الدنيا بإضافة الصورة إلى الدنيا، ولمَّا كانت المعالم والشواهد من الأمور العالية الشريفة؛ قيل أن آدم صورة العالم؛ لأن أصل العالم علم، ثم أدخل ألف الإشباع؛ وهو علم لوجود الله تعالى على أن العالم أعم من الدنيا؛ لأن الدنيا؛ إنما هي عالم الكون والفساد الذي مبدؤه مقعر السماء السابعة، ومنتهاه نهاية الأرضين.

أنفسها، المجبورة تحت قهر الله وقدرته الكاملة.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣)﴾ [النمل:60-63].

ثمّ قرع عليه سبحانه من التقريعات والتوبيخات ما قرع تتميمًا لردعهم، وتكميلاً لزجرهم فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأسباب العادية ﴿وَالأَرْضَ﴾ أي: عالم الطبيعة القابلة لقبول فيضان آثار الفواعل العلوية ﴿وَ﴾ من ﴿أَنزَلَ لَكُم مِّنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً﴾ محييًا أموات الأراضي اليابسة بالطبع ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ﴾ أي: بالماء بعدما أنزلناه من جانب السماء ﴿حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ وبهاء ونضارة وصفاء ﴿مَّا كَانَ﴾ أي: ما صح وأمكن ﴿لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ بل ولا شجرة واحدة من جملة أشجارها، لولا إمداد الله وإنباته إياها ﴿أَإِلَهٌ﴾ أي: تدعون وتدّعون إلهًا آخر ﴿مَّعَ اللهِ﴾ المدبر لمصالحكم بالاستقلال والإرادة والاختيار ﴿بَلْ هُمْ﴾ أي: المتخذون غير الله إلهًا ﴿قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل:60] عن الحق الصريح الذي هو التوحيد إلى الباطل الذي هو الشرك في ألوهيته، وإثبات الغير معه في الوجود، وادعاء استحقاق العبادة إياه عنادًا ومكابرةً.

﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: مقرًا تستقرون عليها وتعيشون فيها، مع أن طبع الماء يقتضي الإحاطة بجميع جوانبها؛ بحيث لا يبدو من كرة الأرض شيئًا خارجًا منه ﴿وَ﴾ بعد إبداء بعضها من الماء عنايةً منه سبحانه إياكم ﴿جَعَلَ خِلالَهَا﴾ أي: أوساط الأرض البادية ﴿أَنْهَارًا﴾ جارية؛ تتميمًا لأمور معاشكم عليها ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: الأرض رواسي؛ أي: جبالاً شامخات، وسير فيها معادن الفلزات، ومنابع المياه ومراتع الحيوانات تتميمًا وتكميلاً لمصالحكم ومعايشكم.

﴿وَجَعَلَ﴾ من كمال لطفه ومرحمته ﴿بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾ العذب والمالح ﴿حَاجِزًا

﴿أَإِلَٰهٌ﴾ مانعًا؛ لئلا يختلط ويختل نظام معاشكم عليها؛ أي: أتدعون أيها الجاهلون ﴿مَّعَ اللَّهِ﴾ المتوحد المتفرد في ذاته، المستقل في تصرفاته الواقعة في مملكته؟! ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ لانهماكهم في الغفلة والجهل عن الله وحق قدره وقدر ألوهيته ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:61] شيئًا من آداب عبوديته؛ لذلك ينسبون إليه سبحانه ما لا يليق بشأنه جهلاً ومكابرةً.

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾ القلق والحائر في أمره بلا رشد منه إلى مخرجه ومخلصه ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ دعوة مؤمل ضريع سواه سبحانه ﴿وَ﴾ من ﴿يَكْشِفُ السُّوءَ﴾ المتفاقم على ذوي الأحزان والملمات ﴿وَ﴾ من ﴿يَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ من الأسلاف الذين مضوا عليها ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد تدعون أيها الجاهلون المسرفون المكابرون، ومن نهاية جهلكم وغفلتكم عن ألوهية الحق، وغاية غيكم وضلالكم عن توحيده ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:62] أي: قليلاً منكم تتذكرون آلاء الله ونعمائه المتواطئة المترادفة عليكم.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ ويرشدكم أيها الحمقى ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بالنجوم الزاهرات ﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ المبشرات لتكون ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: بشارة بالمطر المحيي لأموات الأراضي بأنواع النباتات، والحيوانات المبقية لأصناف المخلوقات ﴿أَإِلَٰهٌ﴾ قادر على أمثال هذه الأفعال المتقنة والآثار المحكمة ﴿مَّعَ اللَّهِ﴾ المستقل بالقدرة الكاملة والحكمة الباهرة، والرحمة العامة الشاملة تدعون وتعبدون ﴿تَعَالَى اللَّهُ﴾ المنزه في ذاته عن مشابهته للأمثال، ومشاركته مع غيره في الآثار والأفعال، سيما ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:63] له أولئك المشركون المسرفون.

﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل:64-66].

﴿أَمَّن يَبْدَأُ﴾ ويظهر ﴿الْخَلْقَ﴾ أي: عموم المخلوقات والمكونات من كتم العدم بعدما لم يكن شيئًا مذكورًا برش نوره عليها، ومدّ ظله إليها بمقتضى لطفه وجماله ﴿ثُمَّ﴾ بعد إظهاره وإيجاده من ﴿يُعِيدُهُ﴾ ويبعثه بعد إعدامه وإماتته بمقتضى قهره

وجلاله ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم﴾ ويقوم مزاجكم بأنواع الأغذية الحاصلة ﴿مِّنَ﴾ أسباب ﴿السَّمَاءِ﴾ قوابل ﴿وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾ القادر المقتدر على إنشاء البدائع، وإبداء الغرائب والعجائب المكنونة في التراب؛ لتكون غذاء لمن عليها من الحيوانات تثبتون وتشركون أيها الحمقى المسرفون، المشركون المكابرون، فإن أصروا على شركهم وكفرهم بعدما سمعوا قوارع الدلائل القاطعة، والشواهد الساطعة ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا عليهم وتبكيتًا: ﴿هَاتُوا﴾ أيها الحمقى ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾ على دعواكم ألوهية معبوداتكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:64] في هذه الدعوى.

وبعدما تم إلزامك عليهم، وتبكيتك إياهم ﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل كلامًا ناشئًا عن محض التوحيد، خاليًا عن وصمة الكثرة مطلقًا: ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات ﴿وَ﴾ من ظهر في ﴿الأَرْضِ﴾ أي: السفليات من المظاهر المجبولة فيهما على فطرة الشعور والإدراك ﴿الْغَيْبَ﴾ الذي غاب عن مداركهم وعقولهم وحواسهم ﴿إِلَّا اللهُ﴾[1] المنزه عن الأماكن والأزمان، بل الكل في حيطة أسمائه وأوصافه، والمبرأ عن الاشتراك في جنس وعن الامتياز بفصل، فإنه واحد لا يشارك معه شيء عنه بشيء، بل وحدته لا كسائر الوحدات، ولا علمه كسائر العلوم، وكذا جميع صفاته وأسمائه، فإنه سبحانه يعلم بعلمه الحضوري جميع ما ظهر وبطن، وغاب وشهد بلا تفاوتٍ، بل الكل في ساحة عز حضوره على السواء بلا اختلافٍ من الخفاء والجلاء.

﴿وَ﴾ إن اجتهد أولئك الصالحون من أهل السموات والأرضين ﴿مَا يَشْعُرُونَ﴾

---

(1) يشير إلى أن للغيب مراتب غيب هو غيب أهل الأرض في الأرض وفي السماء، وللإنسان إمكان تحصيل علمه وهو على نوعين:

أحدهما: ما غاب عنك في أرض الصورة وسمائها ففي الأرض مثل غيبة شخص عنك أو غيبة أمر من الأمور وذلك إمكان إحضار الشخص والاطلاع على الأمر الغائب.

وثانيهما: ما غاب عنك في أرض المعنى وهي أرض النفس، فإن فيها مخبئات من الأوصاف والأخلاق ما هو غائب عنك على الأمر الغائب، وفي السماء مثل علم النجوم والهيئة ومالك إمكان تحصيله بالتعلم، وإن كان غائبًا عنك كيفية وكمية ولك إمكان الوقوف عليها بطريق المجاهدة والرياضة والذكر والفكر وسماء المعنى وهي سماء القلب، فإن فيها مخبئات من العلوم والحكم والمعاني ما هو غائب عنك ولك إمكان الوصول إليه بالسير على مقامات النفس والسلوك في مقامات القلب غيب هو غيب أهل الأرض في الأرض والسماء أيضًا، وليس للإنسان إمكان الوصول إليه إلا بأداة الحق تعالى. [التأويلات].

ويدركون ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:65] أي: متى يبعثون، وفي أي آن يحشرون من قبور تعييناتهم، وأجداث هوياتهم؛ للوقوف بين يدي الله؟ وإن وصلوا بعدما اجتهدوا بتوفيق الله وتيسيره، إن وقوفهم بين يديه للعرض والجزاء كائن لا محالة، لكنهم ما وصلوا إلى مرتبة يسع لهم تعيين وقت الحشر والنشر؛ إذ يعتبر وقت البعث من جملة الغيوب التي استأثر الله بها، ولم يطلع أحدًا من الأنبياء وأوليائه عليها.

﴿بَلِ ادَّارَكَ﴾ أي: بلغ وتدارك، ووصل ﴿عِلْمُهُمْ﴾ أي: علم العلماء وأرباب الشعور والإدراك بعدما كوشفوا بإلهام الله وجذب من جانبه، و﴿فِي﴾ تحقق النشأة ﴿الآخِرَةِ﴾ وما فيها من المعتقدات المحققة من الحشر والنشر، والصراط والسؤال، والجنة والنار، والثواب والعقاب، وجميع الأمور التي نطقت بها ألسنة الكتب والرسل ﴿بَلْ هُمْ﴾ أي: بل أكثر الناس ﴿فِي شَكٍّ﴾ وتردد ﴿مِّنْهَا﴾ أي: من الآخرة ومن الأمور الكائنة فيها ﴿بَلْ هُم﴾ أي: بل أكثرهم ﴿مِّنْهَا﴾ ومن الأمور الموعودة فيها ﴿عَمُونَ﴾ [النمل:66] غافلون منكرون، لا يعتقدون ولا يقبلون، بل ينكرونها أشد إنكار، ويكذبونها أبلغ تكذيب.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ [النمل:67-75].

﴿وَ﴾ من شدة إنكارهم وتكذيبهم ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وبجميع ما وعد سبحانه في يوم العرض والجزاء، على سبيل الاستبعاد والاستنكار مستفهمين مستهزئين: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا﴾ أيضًا كذلك ﴿أَئِنَّا﴾ وهم ﴿لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل:67] من قبورنا أحياءً على الوجه الذي كنا عليه في مدة حياتنا قبل طريان الموت علينا، كلا وحاشا؛ إذ هو من جملة الأمور المستحيلة التي تأبى العقول عن قبولها.

ولا منشأ له سوى أنَّا ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾ أي: البعث والحشر ﴿نَحْنُ﴾ اليوم على هذا المدعي للرسالة والنبوة ﴿وَ﴾ وعد ﴿آبَاؤُنَا﴾ أيضًا ﴿مِن قَبْلُ﴾ على ألسنة المدعين الآخرين الذين مضوا، وكان أسلافهم أيضًا كذلك على ألسنة أسلاف آخرين مدعين وهكذا، وبالجملة: ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ أي: ما هذا الوعد بالبعث والجزاء ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النمل:68] أي: أكاذيبهم الموروثة لأخلافهم اللاحقين المتأخرين عنهم، وبالجملة: هذا ديدنة قديمة، وعادة مستمرة بقيت بين الأنام من قديم الأيام؛ لتخويف العوام بلا وقوع ولا إمكان وقوع أيضًا.

ثمَّ لمَّا بالغ أولئك الهالكون في تيه الضلال في تكذيب يوم الجزاء، وأصروا على ما هم عليه من الكفر والإنكار من متابعة الأهواء والآراء ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل كلامًا خاليًا عن وصمة المجادلة والمراء، وما درأ عن محض العبرة والحكمة والاستبصار آمرًا لهم على سبيل الاعتبار: ﴿سِيرُوا﴾ أيها المنكرون المكابرون ليوم العرض والجزاء ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ التي هي محل العبرة ونزول الاستبصار ﴿فَانظُرُوا﴾ معتبرين متأملين ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل:69] المكذبين كمال قدرة الله القادر المقتدر على كل ما أراد وشاء بلا فتور ولا قصور.

ولا ينتهي قدرته دون مراد ومقدور، بل له إعادته كما له إبراؤه من جميع أجزائه ولوازمه وعوارضه من الزمان والمكان، والحركات والسكنات، وجميع الأطوار والأحوال الطارئة عليها من مبدأ حدوثها إلى منتهى حياتها؛ إذ جميع ما جرى عليه وصدر عنه حاضر عنده سبحانه، غير مغيب عنه بلا انقضاء في حضرة علمه، وإمضاء من لوح قضائه؛ إذ عنده سبحانه لا زمان ولا مكان؛ حتى يتصور الانقراض والانقضاء، واستبعاد هذه المسألة إنما يجيء من العقول السخيفة، والأحلام الضعيفة المحبوسة؛ لمضيق الزمان والمكان المتحصنة بحصون الجهات والأبعاد المقيدة بسلاسل الأيام وأغلال الليالي.

ومن انكشف له بصر بصيرته، وارتفع عنه سبل السدل وحول التحويل، ومدد التغير والتبديل، واكتحل عين عبرته بكحل الكشف والشهود، اضمحل دونه الزمان والمكان والجهات والأقطار، وجميع ما يوهم الانقضاء والانصرام، والتجدد والاستمرار ولم يبقَ في عين عبرته وشهوده سوى الله الواحد القهار لجميع الأغيار، فسمع عنه وأبصر به وأظهر عليه، وفني فيه وبقي لديه ورجع إليه، وبدأ منه وعاد عليه

قائلاً لسان حاله ومقاله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:156]، ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:53] برحمتك وجودك يا أرحم الراحمين.

﴿وَ﴾ بعدما هدد سبحانه مكذبي وعده ووعيده بما هدد، وأقرعهم بما قرع أراد سبحانه أن يسلي حبيبه ﷺ بما لحق له من أذى المنكرين المكذبين بقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إن كذبوك وأعرضوا عنك يا أكمل الرسل ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ وسآمة ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل:70] أي: من مكرهم وحيلهم، فإن الله يكفيك مؤنة شرورهم، وكن في نفسك يا أكمل الرسل واسع الصدر، طلق الوجه، مسرور القلب، فإن الله ناصرك ومعينك في كل الأحوال، يحفظك عن شرورهم ومكرهم وسيغلبك عليهم، ويظهر دينك على الأديان كلها في أقطار الأرض وأنحائها، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء:6].

﴿وَ﴾ من شدة شكيمتهم، وكمال إنكارهم وضغينتهم ﴿يَقُولُونَ﴾ متهكمين: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ والعذاب الموعود؟ وفي أي آنٍ يظهر؟ وأي زمان يقوم؟ عينوا لنا وقته أيها المدعون ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:71] في دعواكم وقوعه ونزوله.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما اقترحوا عليك وألحوا: ﴿عَسَى﴾ أي: دنا وقرب ﴿أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ أي: تبعكم ولحقكم، واللام للتوكيد ﴿بَعْضُ﴾ العذاب ﴿الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل:72] نزوله وحلوله فلحقهم، وهو عذاب يوم بدر.

﴿وَ﴾ سيلحقهم عن قريب كلها أيضًا، لكن من سنته سبحانه إمهال عباده زمانًا؛ رجاء أن يتنبهوا، ويتوبوا عما أصروا عليه ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيم ورحمة واسعة شاملة ﴿عَلَى﴾ جميع ﴿النَّاسِ﴾ الناسين سوابق عهودهم مع الله المدبر لأحوالهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾[1] [النمل:73] نعمة الإمهال؛ حتى يخلصوا من نقمته وعذابه؛ لذلك لحقهم ما لحقهم من العذاب.

---

(1) لأنهم لا يميزون بين محنهم وصحتهم وعزيز من يعرف الفرق بين ما هو نعمة من الله وفضل له أو محنة ونقمة، وإذا تقاصر على العبد عما فيه صلاحه وعسى أن يحب شيئًا ويظنه خيرًا وبلاؤه فيه، وعسى أن يكون شيء آخر بالضد ورب شيء يظنه العبد نعمة يشكره عليها ويستديمه وهي محنة له يجب صبره عنها ويجب شكر الله على صرفها عنه ويعكس هذا كم من شيء يظنه الإنسان بخلاف ما هو فيه. [التأويلات].

ومن جملة كفرانهم بنعم الحق: إنهم أرادوا أن يخدعوا مع الله ورسوله، ولا يشكروا لنعمة الإرسال والإرشاد، بل ينكروا عليها في نفوسهم، ويظهروا على الناس أنهم مؤمنون مع أنهم ليسوا كذلك؛ وقصدوا بذلك التلبيس والخداع، ولا ينفع لهم هذا.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَيَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا تُكِنُّ﴾ وتخفي ﴿صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل:74] ويظهرونه من إيمان وكفر، وفساد وصلاح، وعهد ونقض؛ إذ لا يخفى عليه سبحانه شيء من أحوال عباده، وما جرى عليهم في ظواهرهم وبواطنهم.

﴿وَ﴾ كيف يخفى عليه شيء من أحوالهم؛ إذ ﴿مَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي﴾ طي ﴿السَّمَاءِ﴾ و﴿وَالْأَرْضِ﴾ حتى النقير والقطمير، وما يعقل ويحس به، ويعبر عنه ويومئ إليه، ويرمز نحوه إلى ما شاء الله ﴿إِلَّا﴾ مثبت محفوظ ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل:75] هو لوح القضاء وحضرة العلم الإلهي الذي فصل فيه جميع ما كان ويكون أزلاً وأبدًا؛ بحيث لا يشذ عن حيطته ما من شأنه أن يعلم ويحس به.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [النمل:76-80].

ومما يدل عليه، وعلى حيطة حضرة علمه الكتب الإلهية النازلة من عنده سبحانه المنتخبة من حضرة علمه ولوح قضائه، سيما القرآن ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ من كمال جمعيته وإحاطته ﴿يَقُصُّ﴾ أي: يظهر ويبين ﴿عَلَى﴾ علماء ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ﴾ الأمور والشأن ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1] [النمل:76] من الأمور المتعلقة لدينهم وملتهم.

---

(1) قال نجم الدين كبرى: يشير إلى أنه تعالى أودع في القرآن حقائق ومعاني كثيرة لا توجد في غيره من الكتب المنزلة ما يحتاج إليه السالك في سلوكه للوصول إلى الحضرة، وبيان ما اختلفت فيه الأمم الماضية من كيفية السلوك وشرح المقامات وكشف المعارف، وذلك لأن كل كتاب كان مشتملاً على شرح مقامات ذلك النبي وبيان كمال مرتبته ونهاية قربه، فلما لم يكن لنبي من

﴿وَإِنَّهُ﴾ في نفسه ﴿لَهُدًى﴾ هادٍ موصل إلى طريق التوحيد ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ نازلة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:77] الموحدين المحمديين من قبل الحق؛ ليهديهم إلى وحدة ذاته ويوصلهم إلى غاية ما جبلوا لأجله من المعرفة والتوحيد.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ أي: بين المختلفين من بني إسرائيل ﴿بِحُكْمِهِ﴾ المستنبط من حكمته المتقنة ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب في أحكامه المبرمة ﴿الْعَلِيمُ﴾ [النمل:78] في حكمته المتقنة المتفرعة على عدالته الحقيقية.

وإن كذبوك يا أكمل الرسل وكتابك، وجادلوا معك مراءً ومكابرةً ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ المتكفل لحفظك وحضانتك ﴿إِنَّكَ﴾ في أمر دينك وكتابك ورسالتك وهدايتك، وفي جميع ما جئت به من قِبَل ربك ﴿عَلَى الْحَقِّ﴾ والصدق الذي لا يأتيه الباطل والكذب من بين يديه ولا من خلفه ﴿الْمُبِينِ﴾ [النمل:79] الظاهر حقيته عند ذوي البصائر وأولي الألباب المستكشفين عن لبِّ الأمور، المعرضين عن قشورها، فإن أعرضوا عنك ولم يقبلوا إرشادك وهدايتك لا تبالِ بهم وبإعراضهم وانصرافهم؛ إذ هم أموات عند التحقيق لا حياة لهم حقيقة.

﴿إِنَّكَ﴾ وإن بالغت واجتهدت في إرشادك وهدايتك ﴿لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾[1] ما

الأنبياء عليهم السلام مقام في القرب مثل مقام نبينا ﷺ ما أودع الله تعالى في كتبهم ما أودع في كتابه من الحقائق والمعاني.

(1) قلت: لنا في هذه الآية وقفة لمن اعترض على سماع الأموات وحياتهم في قبورهم.
فمن الأدلة القاطعة في حياة روح الولي بعد الانتقال نذكر: أولًا: من القرآن الكريم:
﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ [آل عمران: 169].
معنى حياتهم: أن أرواحهم في حواصل طير تأكل من ثمار الجنة، وتشرب من أنهارها. قال مجاهد: يرزقون من ثمر الجنة. انظر: تفسير القشيري (433/4)، وزاد المسير لابن الجوزي (1/452).

وقال الشيخ إسماعيل حقي – رحمه الله-: وفيه تأكيد لكونهم أحياء وتحقيق لمعنى حياتهم. تفسير روح البيان (2 /340). وقال الشيخ ابن عجيبة: لأن الله تعالى جعل أرواحهم في حواصل طير خضر، يسرحون في الجنة حيث شاءوا عند ربهم بالكرامة والزلفى، يُرزقون من ثمار الجنة ونعيمها، فحالهم حال الأحياء في التمتع بأرزاق الجنة. وقال أيضًا: شهداء الملكوت – وهم العارفون – أعظم قدرًا من شهداء السيوف. وقال أيضًا: الإشارة: إن يمسسكم يا معشر الفقراء قرح؛ كحبس أو ضرب أو سجن أو خرج أو جلاء، فقد مس العموم مثل ذلك، غير أنكم

تسيرون به إلى الله تعالى لمعرفتكم فيه، وهم لا سير لهم لعدم معرفتهم، أو إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم المتقدمين من أهل الخصوصية مثل ما أصابكم، ففيهم أسوة لكم، وهذه عادة الله في أوليائه، يديل عليهم حتى يتطهروا ويتخلصوا، ثم يُديل لهم، وإنما أديل عليهم حتى يتطهروا ويتخلصوا، ثم يُديل لهم، وإنما أديل عليهم أولًا ليتطهروا من البقايا وتكمل فيهم المزايا، وليعلم الصادق في الطلب من الكاذب، فإنّ محبة الله مقرونة بالبلاء، وليتخذ منهم شهداء إن ماتوا على ذلك، كالحلاج وغيره، أو يتخذ منهم شهداء الملكوت إن صبرا حتى ظفروا بالشهود . ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَآءُ ﴾ [آل عمران: 168]. قال الشيخ حقي أي: كالاحياء في الحكم لا ينقطع ثواب أعمالهم لأنهم قتلوا لنصرة دين الله فما دام الدين ظاهرًا في الدنيا وأحد يقاتل في سبيل الله فلهم ثواب ذلك لانهم سنوا هذه السنة. وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:154]. كيف حالهم في حياتهم وفيه رمز إلى أنها ليست مما يشعر به بالمشاعر الظاهرة من الحياة الجسمانية وإنما هى أمر روحاني لا يدرك بالعقل بل بالوحي.

وفي الآية دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما يحس به من البدن تبقى بعد الموت دراكة وعليه الجمهور. وقال العز بن عبد السلام- رحمه الله-: هم أحياء في البرزخ، وأما في الجنة فإن حالهم معلومة لجميع المؤمنين. تفسير ابن عبد السلام (330/1). قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:64].فثبت بهذا الدليل أن لكل ذرة من ذرات الموجودات لسانًا ملكوتيًا ناطقًا بالتسبيح والحمد تنزيهًا لصانعه وبارئه، وحمدًا له على ما أولاه من نعمه، وبهذا اللسان نطق الحصى في يد النبى ﷺ وبهذا تنطق الأرض يوم القيامة كما قال ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة:4] وبهذا اللسان تشهد أجزاء الإنسان وأبعاضه يوم القيامة فافهم جدًا واغتنم. وقال الشيخ إسماعيل: ملكوت هو عالم الأرواح فلكل شيء روح منه بحسب استعداده لقابلية الروح فخلق الإنسان في أحسن تقويم لقابلية الروح الأعظم، فلهذا صار كاملهم أفضل المخلوقات وأكرمها فهو يعلم خصوصية صلاته وتسبيحه على قدر حظه من عالم الملكوت بل على قدر حظه من عالم الربوبية وهو منفرد به عما دونه والملك يعلم صلاته وتسبيحه على قدر حظه من عالم الملكوت والحيوانات والجمادات تعلم صلاتها وتسبيحها بملكوتها بلا شعور منها بالصورة.

قوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر:42]. أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني في «الأوسط» وأبو الشيخ في «العظمة» والضياء في «المختارة» عن ابن عباس في قوله: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر:42]. الدر المنثور (455/8). وقال الشيخ حقي: يلتقي أرواح الأحياء وأرواح الأموات في المنام فيتساءلون بينهم ما شاء الله تعالى، ثم يمسك الله أرواح الأموات، ويرسل

أرواح الأحياء إلى أجسادها ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ لا يغلط بشيء من ذلك، فذلك قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس:27]. ففي التفسير أن حبيبًا النجار قال هذا بعد موته.

قال الكواشي: تمنى أن يعلم قومه أنَّ الله قد غفر له، وأكرمه، ليرغب قومه في اتباع الرسل، فيسلموا، فنصح قومه حيًا وميتًا. تفسير «روح البيان» (445/16)، و«البحر المديد» (201/5).

وقوله تعالى: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ [النازعات:2]. قسَم بمعنى طريق العطف، والنشط جذب الشئ من مقره برفق ولين ونصب نشطا على المصدرية اقسم الله بطوآئف الملائكة التى تنشط أرواح المؤمنين أي: تخرجها من أبدانهم برفق ولين كما تنشط الدلو من البئر يقال: نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وكما تنشط الشعرة من السمن، وكما تنسل القطرة من السقاء وهم ملك الموت وأعوانه من ملائكة الرحمة ونفس المؤمن وإن كانت تجذب من اطراف البنان ورؤس الأصابع أيضًا لكن لا يحس بالألم كما يحس به الكافر، وأيضًا نفس المؤمن ليس لها شدة تعلق بالبدن كنفس الكافر لكونها منجذبة إلى عالم القدس، وإنما يشتد الأمر على أنه لا لتعلق دون أهل التجرد خصوصًا إذا كان ممن مات بالاختيار قبل الموت، وأيضًا حين يجلبونها يدعونها أحيانًا حتى تستريح؛ وليس كذلك أرواح الكفار في قبضها لكن ربما يتعرض الشيطان للمؤمن الضعيف اليقين والقاصر في العمل إذا بلغ الروح التراقى فيأتيه في صورة أبيه وأمه وأخيه أو صديقه فيأمره باليهودية أو النصرانية ذلك نسأل الله السلامة.

ثانيًا: بعض الأدلة من السنة الشريفة:

فِي التَّشَهُّدِ: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ». واضحٌ من أن هذا الخطاب لحي بعد انتقاله.

- وفي التشهد بعد ذلك: «السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ».

والصالحون منهم الحي ومنهم المنتقل، فيؤخذ منه حياة الصالحين.

- وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِنَّمَا الْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ. الترمذي (500/8).

- وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ-رضي الله عنهما- قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِحَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ أَوْ مَكَّةَ فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ثُمَّ قَالَ: بَلَى كَانَ أَحَدُهُمَا لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَكَانَ الْآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، ثُمَّ دَعَا بِجَرِيدَةٍ فَكَسَرَهَا كِسْرَتَيْنِ، فَوَضَعَ عَلَى كُلِّ قَبْرٍ مِنْهُمَا كِسْرَةً فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللهِ لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ تَيْبَسَا أَوْ إِلَى أَنْ يَيْبَسَا. صحيح البخاري (362/1).

- وعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: الْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتُوُلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ فَأَقْعَدَاهُ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ فَيُقَالُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنْ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنْ الْجَنَّةِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا، وَأَمَّا الْكَافِرُ أَوْ الْمُنَافِقُ فَيَقُولُ لَا أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فَيُقَالُ لَا دَرَيْتَ وَلَا

جئت به من الأوامر والنواهي المقربة إلى الله، المبينة لطريق توحيده؛ إذ هم عن السمع معزولون ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ أي: ليس في وسعك إسماع الدعاء للأصمين الفاقدين آلة الاستماع، سيما ﴿إِذَا وَلَّوْا﴾ وأعرضوا عنك ﴿مُدْبِرِينَ﴾ [النمل:80] بلا التفات وتوجه منهم إلى الاستماع والإصغاء.

تَلَيْتَ ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ. صحيح البخاري (5/ 113).

- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. صحيح البخاري (5 /173).

قال الشيخ عبد الغني النابلسي: فلا معنى لذلك إلا أن روحانيات الموتى إما تنعم في قبورهم، أو تُعذب فيها، وذلك باتصال الروحانيات بالأجساد البالية التي خرجت من الدنيا، وهي طاهرة بالإيمان والطاعات، أو قذرة بالكفر والمخالفات، فحينئذٍ قبور المؤمنين محترمة مبجَّلَة معظمة كما كانوا قبل ذلك، وهم أحياء محترمون مبجَّلون، فإن من احتقر عالمًا أو بغضه خيف عليه الكفر، كما صرَّح بذلك الفقهاء. ولا فرق في ذلك بين الأحياء والأموات، ورأيت أن الأحياء والأموات كلهم مخلوقات الله تعالى لا تأثير لأحدٍ منهم في شيءٍ من الأشياء ألبتَّة، وإنما المؤثر هو الله تعالى وحده على كل حال، والأحياء والأموات سواء في عدم التأثير قطعًا من غير شبهة، ولكنَّ الاحترام واجبٌ في حق الجميع. كشف النور في أحكام القبور (ص43).

وقال الشيخ السبكي: عود الروح إلى الجسد في القبر، ثابت في الصحيح، لجميع الموتى فضلًا عن الشهداء، وإنما النظر في استمرارها في البدن، وهو أن البدن يصير حيًا بها كحالته في الدنيا أو حيًا بدونها، وهي حيث شاء الله، فإن ملازمة الحياة للروح أمر عادي لا عقلي، فهذا- أي البدن- يصير بها حيًا، كحالته في الدنيا، مما يجوزه العقل، فإن صح به سمع اتبع.

وقد ذكره جماعة من العلماء، ويشهد له صلاة موسى في قبره، فلا تستدعي جسدًا حيًا، وكذلك الصفات المذكورات في الأنبياء ليلة الإسراء كلها صفات الأجساد، ولا يلزم من كونها حياة حقيقية أن تكون الأبدان معها كما كانت في الدنيا من الاحتياج إلى الطعام والشراب وغير ذلك من صفات الأجسام التي نشاهدها بل يكون لها حكم آخر. وأما الإدراكات كالعلم والسماع- فلا شك أن ذلك ثابت لجميع الموتى، هذا كلام السبكي. وانظر: «شرح الصدور» للسيوطي (ص204).

وبالجملة فقد أخطأ بوهمه من أنكر بهذه الآية سماع الصالحين، فإن الجمهور على حياة الروح، وسماع المسلمين منهم بالأحياء، وجواز التوسل والاستغاثة بهم بعد الممات، وانظر كتابينا: «الدلائل الواضحات في جواز التوسل والاستغاثة بالأولياء بعد الممات»، وكذا جمع المقال في إثبات الكرامات في الحياة وبعد الانتقال».

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النمل:81-86].

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا أَنتَ﴾ أيها المرسل للهداية، والمبعوث للإرشاد والتكميل ﴿بِهَادِي الْعُمْيِ﴾ الفاقدين لآلات الهداية وأسبابها ﴿عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ المركوزة في جبلتهم الراسخة في طباعهم ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي: ما تسمع أنت هدايتك وإرشادك أيها الهادي بوحينا وتوفيقنا ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على كمال وحدة ذاتنا، وقدرتنا وعلمنا وإرادتنا ويصدق بجميع ما جئت به من عندنا ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل:81] منقادون لأوامرنا وأحكامنا، مجتنبون عن نواهينا ومحظوراتنا، فهم من شدة شقاوتهم وغلظ غشاوتهم لا يؤمنون بك ولا يسلمون، فكيف يتأتى لك إسماعهم وإرشادهم؟!.

﴿وَ﴾ اصبر يا أكمل الرسل ﴿إِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ﴾ الموعود ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ولاح أمارات الساعة وظهر علامات القيامة، ودنا وقت قيامها ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ﴾ قبيل قيام الساعة ﴿دَابَّةً﴾ عظيمة ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ لتكون أمارة على قيامها، دالة على كمال قدرتنا على إحياء الأموات من العظام الرفات، طولها سبعون ذراعًا، ولها قوائم وزغب؛ أي: شعرات صفر كريش الفرخ، وريش وجناحان، يقال لها: الجساسة، لا يفوتها هارب ولا يدركها طالب.

سُئل ﷺ عن مخرجها فقال: «من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى»[1] يعني: المسجد الحرام.

فإذا خرجت عليهم ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ وتخاطب معهم بسوء فعالهم وحسن خصالهم فتفرق المؤمن من الكافر، وحينئذٍ ظهر ﴿أَنَّ النَّاسَ﴾ المنهمكين في بحر الغفلة

(1) رواه الحاكم في «المستدرك» (387/19).

والنسيان لأي شيء ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ الواصلة إليهم من ألسنة رسلنا ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: 82] ولا يذعنون، بل ينكرون ويكذبون عنادًا أو مكابرةً.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ﴾ ونسوق عند قيام الساعة ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ فرقة وجماعة هي صناديدهم ورؤساؤهم ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾ التي جاء بها رسلنا؛ لإهدائهم وإرشادهم ﴿فَهُمْ﴾ في حين حشرهم وسوقهم ﴿يُوزَعُونَ﴾ [النمل: 83] أي: يحبس أولهم لآخرهم؛ حتى يتلاقوا ويزدحموا، ويساقون أولئك المجرمون هكذا.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا﴾ المحشر وحضروا الموعد، وعُرضوا على الله صافين صاغرين ﴿قَالَ﴾ قائل من قبل سرادقات العظمة والجلال معيدًا عليهم: ﴿أَكَذَّبْتُم﴾ أنتم أيها المسرفون ﴿بِآيَاتِي﴾ في بادي الرأي بلا تأمل وتدبر فيها ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ أي: لم تطرحوا نظركم وعقولكم عن فحص معانيها وفحاويها؛ حتى ظهر عندكم ولاح عليكم هل هي جديرة بالرد والإنكار؟ أم حقيق بالقبول والاعتبار؟ فبادرتم إلى تكذيبها بلا إمعانٍ فيها ﴿أَمَّاذَا﴾ أي: أم أي شيء شنيع ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:84] أيها الجاهلون المسرفون؟!.

وبعدما جرى من أنواع التوبيخ ما جرى سكتوا حائرين، خائبين منكوسين ﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿وَقَعَ الْقَوْلُ﴾ المعهود منا، وتحقق الوعد، وحل العذاب الموعود ﴿عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي: بسبب ظلمهم السابق ﴿فَهُمْ﴾ حينئذٍ ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل:85] ولا يعتذرون، ولا يتضرعون، يكبهم على النار منكوسين؛ بحيث لا يسع لهم التنطق والتضرع أصلاً.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ولم ينظروا أولئك الحمقى بنظر العبرة إلى مصنوعاتنا المتبدلة المتغيرة بقدرتنا واختيارنا؛ ليتحقق عندهم أمر الساعة، ولم يبادروا إلى إنكارها؛ حتى لا يلحقهم ما لحقهم ﴿أَنَّا﴾ من كمال قدرتنا، ووفور حولنا وقوتنا كيف ﴿جَعَلْنَا اللَّيْلَ﴾ مظلمًا ﴿لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ بلا دغدغة منهم إلى الحركة والاشتغال ﴿وَ﴾ كيف جعلنا ﴿النَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مضيئًا تتحركون وترددون فيه بشغل معاشكم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإظلام والإضاءة على التعاقب والتوالي ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل قاطعات، وشواهد ساطعات على قدرة القديم القادر المقتدر على أمثال هذه المقدورات المتقنة، والمصنوعات المحكمة الصادرة عن محض الحكمة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل:86] ويذعنون بوحدة ذات الله

وكمال أوصافه وأسمائه.

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[النمل:87-90].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل تنبيهًا على التائهين في بيداء الغفلة: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ وهو البوق؛ لحشر الأموات من أجداثهم ﴿فَفَزِعَ﴾ وارتعد من هول تلك الصدى ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ من سكانها ﴿وَمَن فِي الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ تمكنه وقرار قلبه مطمئن بلا قلق واضطراب، وهم الأولياء المتمكنون في مقر الفناء في الله، المتحققون بمقام البقاء ببقائه، الواصلون إلى شرف لقائه بلا تلوين، منسلخين عن جلباب ناسوتهم رأسًا، وصاروا إلى حيث لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

﴿وَ﴾ بعدما أفاقوا من دهشتهم وهيبتهم العارضة إياهم من هول ما سمعوا، ﴿كُلٌّ﴾ ممن يتأتى منهم الإتيان ﴿أَتَوْهُ﴾ على كلتا القراءتين فعلاً أو اسم فاعل؛ أي: حضروا عنده وحاضروه ﴿دَاخِرِينَ﴾ [النمل:87] صاغرين ذليلين، منتظرين إلى ما جرى عليهم من حكم الله، يُساقون إلى النار بمقتضى عدله؟ أم إلى الجنة بمقتضى فضله وإحسانه؟.

﴿وَتَرَى﴾ أيها الرائي يومئذٍ ﴿الْجِبَالَ﴾ الراسيات التي ﴿تَحْسَبُهَا﴾ وتظنها ﴿جَامِدَةً﴾ ثابتة مستقرة في مكانها بلا حركة وذهاب ﴿وَهِيَ﴾ في نفسها ﴿تَمُرُّ﴾ أي: تتحرك وتذهب ﴿مَرَّ السَّحَابِ﴾ أي: كمروره وسرعة سيره؛ إذ الأشياء العظيمة التي لا يحيط الأبصار بجميع جوانبها قلما يحس بحركتها وإن أسرع فيها، بل يظن أنها ثابتة في مقره، وهكذا حال الجبال وجميع الأظلال والأطلال قبل قيام الساعة لو تفطنت بمرورها أيها الفطن اللبيب، وجدتها في كل آنٍ على التقضي والانصرام؛ إذ الأعراض لا قيام لها ولا قرار، بل كل يوم وآنٍ في شأن، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:26-27].

ومرور الجبال على هذا المنوال ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ أي: من صنع الله ﴿الَّذِي أَتْقَنَ﴾ وأحكم ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ إتقانًا بديعًا، ودبره تدبيرًا أنيقًا عجيبًا، وأودع فيه من الحكم والمصالح ما لم يطلع عليها أحد من عباده؛ إذ لا يسع لهم الإطلاع على أفعاله سبحانه، بل ﴿إِنَّهُ﴾ بذاته وبمقتضى أسمائه وصفاته ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل:88] أي: بجميع أفعالهم وأحوالهم، وأقوالهم الظاهرة والباطنة، يجازيهم عليها على مقتضى خبرته، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

لذلك ﴿مَن جَاءَ﴾ من المكلفين في دار الابتلاء ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ أي: الخصلة الواحدة المقبولة عند الله وعند الناس ﴿فَلَهُ﴾ في دار الجزاء ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ إذ يُعطى له بدله سبع مائة من الحسنة، وقد أبدل الخسيس بالشريف، سيما بأضعافه والفاني بالباقي ﴿وَهُم﴾ أيضًا مع وجود هذه المثوبات ﴿مِّن فَزَعٍ﴾ هائل مهول للناس ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم ينفخ في الصور ﴿آمِنُونَ﴾ [النمل:89] مطمئنون متمكنون، ولا يضطربون من هولها ولا يفزعون.

﴿وَمَن جَاءَ﴾ في دار الاختبار ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾ المردودة عند الله، وعند الناس من الأمور التي حرمها الشرع والعقل والمروءة ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ أي: كُبُّوا على وجوههم في النار صاغرين، قيل لهم حينئذٍ زجرًا عليهم، وطردًا لهم: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ أي: ما تُجزون بهذا الهوان والصغار ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:90] من السيئات الجالبة له في النشأة الأولى.

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل:91-93].

ثمّ لمّا أمر سبحانه الرسول ﷺ بتبليغ ما أوحي إليه من الوعد والوعيد، والأوامر والنواهي المصلحة لأحوال الأنام في النشأتين، وبيان مبدئهم ومعادهم، وما يؤول إليه أمرهم بعدما انقرضوا من هذه النشأة التي هي دار الابتلاء والاختبار، إما إلى دركات النيران وإما إلى درجات الجنان، ثمّ بيّن لهم طريق الوصول إلى مقر التوحيد، والتمكن في مقام التجريد والتفريد آمرًا أيضًا، بأن قال لهم إمحاضًا للنصح كلامًا ناشئًا عن

محض الحكمة، خاليًا عن وصمة الميل إلى الهوى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ الله الواحد الأحد الصمد عبادة خالصة عن الرياء والرعونات ﴿رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ أراد بها مكة - شرفها الله - خصها بالإضافة للتعظيم، وإلا فهو رب جميع البلاد والأماكن ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ هذه البلدة من الأمور التي أباحها في غيرها من البلاد ﴿وَلَهُ﴾ سبحانه ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ خلقه وملكه، وتصرف فيه كيف يشاء وأراد بلا منازع ومخاصم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل:91] المنقادين لأحكامه سبحانه، الممتثلين لأوامره ونواهيه بلا التفات إلى إيمان أحد وكفره وهدايته وضلاله.

﴿وَ﴾ أمرت أيضًا ﴿أَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ المنزل عليَّ من عند ربي، وأداوم على تلاوته بين أظهر الأنام؛ لأنه إنما أوحي للهدى والإرشاد بالنسبة إلى جميع العباد ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ به بعدما سمعه وتأمل معناه، وامتثل بمقتضاه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ ونفع هدايته عائد إليها، مفيد لها ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أي: أعرض عنه بعدما سمع واستكبر وكذب ﴿فَقُلْ﴾ أي: أمرني ربي أن قُل للمكذبين: ﴿إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل:92] أي: أمري منحسر بالإنذار والتخويف كسائر الرسل المنذرين، فالهداية والضلال إنما هو مفوض إلى الكبير المتعال.

﴿وَ﴾ بعدما أمرني ربي بهذه المأمورات المذكورة أمرني بتجديد التحميد على تبليغ ما أُوحيت به بقوله: ﴿قُلِ﴾ بعدما تلوت عليهم ما تلونا عليك ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما علمني ربي من الحقائق والمعارف، وشرفني بأنواع المكاشفات والمشاهدات، ويسر عليَّ تبليغ ما أوحي إليَّ، وأُمرت بتبليغه إلى قاطبة الأنام، وإن أعرضوا عن قبول ما بلغت لهم من مصالح دينهم في النشأة الأولى والأخرى.

قل لهم على سبيل التهديد: ﴿سَيُرِيكُمْ﴾ سبحانه في النشأة الأخرى وقيام الساعة الموعودة صدق ﴿آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمة ذاته، المتبينة لمواعيده ووعيداته ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ حينئذٍ، وتسمعونها سمع قبول ورضا، ولا يجديكم قبولها حينئذٍ نفعًا وفائدة؛ إذ قد مضى وقت الإرشاد والامتثال بها، والعمل بمقتضاها ﴿وَ﴾ بعدما بلغت لهم ما بلغت يا أكمل الرسل لا تبالِ بإعراضهم وإنكارهم؛ إذ ﴿مَا رَبُّكَ﴾ المطلع بالسرائر والخفايا ﴿بِغَافِلٍ﴾ ذاهل ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1] [النمل:93] من الرد والقبول بعدما

---

(1) قال حقي (10 /109): كلام مسوق من جهته تعالى مقرر لما قبله من الوعد والوعيد كما ينبئ

سمعوا منك وفهموا معناه، يجازيهم على مقتضى إطلاعه وعلمه.

ربنا اشرح لنا صدورنا بتأمل آياتك المنزلة من عندك، ويسِّر لنا أمورنا بأن نمتثل بمقتضاها بفضلك وجودك.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المواظب على تلاوة كتاب الله اللازم للاسترشاد والاستهداء منه أن تلاحظ أولاً منطوقات ألفاظه المفردة، ثمَّ مفهومات الكلام المركب منها، ثمَّ التأمل والتدبر في رعاية المطابقة لمقتضيات الأحوال الموردة لأجلها، ثمَّ التعمق في الأساليب والأغراض المسوقة لها الكلام، ثمَّ سرائر الأوامر والنواهي الموردة فيها، والعبر والأمثال المشتملة عليها الكلام، ثمَّ الحكم والمصالح الباعثة لإيراد الكلام على وجهها، ثمَّ التفطن والتنبه من النظم المتلو المقروء على المعارف والحقائق، والمكاشفات والمشاهدات التي هي العلل الغائية لإنشائه، والأسرار الباعثة لنظم كلماته وتأليف حروفه.

وعليك أيها الفطن الخبير أن تدرك أن «للقرآن ظهرًا وبطنًا، ولبطنه بطنًا إلى سبعة أبطن»[1] على ما نطق به الحديث الصحيح، صلوات الله على قائله وسلامه.

وإياك إياك أن تقنع منه بألفاظه ومنطوقاته التي تعرفها عوام العرب، أو تقنع منه

عنه إضافة الرب الى ضمير النبي ﷺ وتخصيص الخطاب أولاً به وتعميمه ثانيًا للكفر تغليبًا أي: وما ربك بغافل عما تعمل أنت من الحسنات وما تعملون أنتم أيها الكفرة من السيئات؛ لأنه الغفلة التى هى سهو يعتري من قلة التحفظ والتيقظ لا يجوز عليه تعالى فيجازي كلا منكم بعمله، وكيف يغفل عن أعمالكم وقد خلقكم، وما تعملون كما خلق الشجرة خلق فيها ثمرتها فلا يخفى عليه حال أهل السعادة والشقاوة وإنما يمهل لحكمه لا لغفلة وإنما الغفلة لمن لا يتنبه لهذا؛ فيعصى الله بالشرك وسيئات الأعمال وأعظم الأمراض القلبية نيسان الله، ولا ريب أن علاج أمر إنما هو بضده وهو ذكر الله حكى أن إبراهيم بن أدهم سر يومًا بمملكته ونعمته، ثم نام فرأى رجلاً أعطاه كتابًا فإذا فيه مكتوب لا تؤثر الفاني على الباقي، ولا تغتر بملكك فإن الذي أنت فيه جسيم لولا أنه عديم فسارع إلى أمر الله فإنه يقول: (سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة) فانتبه فزعًا، وقال: هذا تنبيه من الله وموعظة فتاب إلى الله ورسوله بالقبول والعمل والمجانبة عن التأخر فى طريق الحق والأخذ بالبطالة والكسل.

(1) ذكره حقي في «تفسيره» (6/293).

بالخواص والمزايا التي تعرفها أرباب اللسن منهم، بل لك أن تلاحظ على الوجه المذكور إلى أن صار علمك المتعلق به لدنيًا ذوقيًا خاليًا، بحيث تسمعه من قلبك، وتفهمه بقلبك بلا وسائل الألفاظ والحروف الجارية على لسانك؛ إذ الألفاظ والحروف إنما هي من جملة الحجب الغليظة عند أولي الألباب الناظرين في لب القرآن، فحينئذٍ فزت بحظك منه، ونلت نصيبك من هدايته وإرشاده.

ربِّ هب لي بفضلك من خزائن جودك التي أودعتها في كتابك الكريم، إنك أنت الوهاب الملهم بالخير والصواب.

سورة القصص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة القصص

لا يخفى على من تحقق بوحدة الحق، وانكشف باستقلاله وتوحده في التحقق والوجود، وشهد حضوره في الأكوان كلها بلا مزاحمة ضد وشريك، ومظاهرة مثل وظهير، إن وحدة الحق تستدعي نفي الكثرة والتعدد مطلقًا؛ ولهذا ما ظهر في فضاء الوجود إلا ما لمع عليه بروق تجلياته الحبيبة حسب أوصافه وأسمائه الذاتية، ومن انكشف له هذا وتمكن في هذا المشهد العظيم لم يسمع من أحدٍ أن يدعي الوجود لنفسه.

فكيف يدعي الألوهية والربوبية، والاستقلال بالآثار والتصرفات الواردة في عالم الغيبة والشهادة من ظهر على الله الواحد الأحد الصمد بهذه الدعوى، وترقى فيها جهلاً وعلوًا إلى أن قال: أنا ربكم الأعلى؟! ومن غيرة الله وكمال حميته على نفسه أن يطرد من يدعي هذا عن ساحة عز حضوره، ويهلكه بأشد العذاب وأسوأ النكال في النشأة الأولى والأخرى.

لذلك خاطب سبحانه حبيبه ﷺ بما خاطب، وأخبره عن أنباء أخيه موسى عليه السلام مع من تكبر واستعلى في الأرض إلى حيث استعبد من عليها مدعيًا الألوهية والربوبية لنفسه؛ لذلك أخذه الله نكال الآخرة والأولى، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى من قهر الله وغضبه، فقال سبحانه متيمنًا باسمه العلي الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي بجمعيته في الأكوان على مقتضى الأوصاف والأسماء ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعموم المكونات بإفاضة الوجود على سبيل الاستواء بلا تفاوت في خلقه وإظهاره ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواص عباده يوصلهم إلى توحيد ذاته بإفاضة أنواع الرشد وأصناف من الهدى.

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن

نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص:1-6].

﴿طسم﴾ [القصص:1] يا طالب السعادة المؤبدة المخلدة، ويا طيب الطينة، وسالم السر والسريرة المنيرة، المقدس عن المكدرات الطبيعية المورثة لأنواع الجهالات والضلالات المنافية لصفاء مشرب التوحيد.

﴿تِلْكَ﴾ الآيات المتلوة عليك يا أكمل الرسل في هذه الصورة الحاكية عن قصص إخوانك من الأنبياء والرسل . صلوات الله عليهم أجمعين . ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [القصص:2] أي: نبذ مما ثبت في لوح القضاء وحضرة العلم الإلهي الظاهر إحاطته وشموله لجميع ما لاح عليه شروق شمس الوجود.

﴿نَتْلُو عَلَيْكَ﴾ ونحكي لك يا أكمل الرسل ﴿مِن نَّبَإِ﴾ أخيك ﴿مُوسَىٰ﴾ الكليم ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ المستكبر المستعلي، المفرط في العتو والعناد، إنما أنزلته إليك هذا ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع مع كونك خال الذهن عنه وعن أمثاله؛ لكونك أميًا لا تقدر على مطالعة كتب التواريخ؛ وإنما أنزلناه لتكون آية ودليلاً لك على صدقك في دعواك ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص:3] ويصدقون رسالتك ونبوتك.

وذلك ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ المفسد المسرف ﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر، وترقى أمره إلى حيث تفوه بأنا ربكم الأعلى ﴿وَ﴾ من كمال علوه واستكباره ﴿جَعَلَ أَهْلَهَا﴾ أي: أهل مصر ومن يسكنون حولها ﴿شِيَعًا﴾ أي: فرقًا وأحزابًا يشايعونه لدى الحاجة ويزدحمون عليه عند الإرادة طوعًا وكرهًا.

وبعدما رأى فرعون في منامه ليلاً أن نارًا تخرج من دور بني إسرائيل، وتقع على داره وتحرقها وما حولها من دور القبط، ولم تضر بدور بني إسرائيل أصلاً فأصبح، وأمر بإحضار الكاهن العليم، فاستعبر منه الرؤيا فقال الكاهن: سيخرج من بني إسرائيل رجل يستولي عليك، ويستأصلك ومن معك، وبعدما سمع من الكاهن ما سمع صار ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ ويضعف ﴿طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ هي بنو إسرائيل، ويبالغ في إضعافهم إلى حيث ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي: أمر الشرطة أن يقتلوا من ولد منهم ذكرًا؛ لئلا يتقووا على قتاله، ولم يحدث بينهم من أخبر به الكاهن ﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ ليتزوجهن القبط ظلمًا

ويزدادوا ويلحق العار والصغار على بني إسرائيل، وبالجملة: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ﴾ أعظم ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:4] في الأرض، يريد أن يظهر على الله بقتل ما أوجده سبحانه عتوًا واستكبارًا.

﴿وَ﴾ بعدما بالغ في الإفساد والعناد، وتمادى في الجور والفساد زمانًا ﴿نُرِيدُ﴾ بمقتضى جودنا وسعة رحمتنا ﴿أَن نَّمُنَّ﴾ منة عظيمة ﴿عَلَى﴾ عبادنا ﴿الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرض العمالقة، وهم بنو إسرائيل الأسراء المظلومون في أيدي القبط ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ قدوة كرامًا متبوعين بعدما كانوا أتباعًا أذلاء صاغرين ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص:5] من ظالميهم، يرثون منهم أرضهم وديارهم وأموالهم.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ﴾ أي: نقررهم ونوطنهم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر والشام بعدما كانوا مضطربين متزلزلين ﴿وَنُرِيَ﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿فِرْعَوْنَ﴾ المفرط في العتو والعناد ﴿وَ﴾ ظهيره ﴿هَامَانَ﴾ المفتخر على أهل الزمان بنيابته ووزارته ﴿وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾ أي: بني إسرائيل ﴿مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:6] منه، وهو ظهور مولود منهم يذهب به دولة القبط، وصار سببًا لهلاكهم بالمرة.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص:7-10].

﴿وَ﴾ بعدما ولد موسى، وظهر من أراد به سبحانه زوال ملك فرعون استوحشت أمه؛ من وقوف الشرطة عليه وقتله ﴿أَوْحَيْنَا﴾ وألهمنا ﴿إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ مهما أمكنك إرضاعه وإخفاؤه ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ من وقوفهم إياه ضعيه في التابوت ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي﴾ من هلاكه وغرقه ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ من فراقه ﴿إِنَّا﴾ من وفور لطفنا وعطفنا ﴿رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ لتحضنه وتحفظه إلى وقت كبره ﴿وَ﴾ بعدما استوى وبلغ أشده ﴿جَاعِلُوهُ مِنَ﴾ جملة ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:7] المؤيدين بالوحي والإلهام،

وظهور أنواع المعجزات والخوارق من يده.

وبعدما تفرست أم موسى بوقوف الشرطة وتجسسهم بعدما أرضعته ثلاثة أيام وضعته في التابوت على الوجه المأمور، وألقته في اليم مفوضة أمرها إلى الله المتكفل بحفظه.

فذهب البحر بتابوته إلى حذاء دار فرعون فرآه من فيها ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ أي: أخذوه وأخرجوه من اليم وأحضروه، وبعدما كشفوا عنه ستره رأوا وليدًا في غاية الحسن والجمال إلى حيث تبهر به عيون الناظر إليه، يمضغ إبهامه، فلما رآه فرعون وامرأته وجميع من في بيته من الخدمة أحبوه وأعجبوا حسنه، وألقينا محبته في قلوبهم جميعًا إلى أن اتفقوا لحفظه غافلين عن مكرنا معهم ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أي: موجب حزن طويل وعداوة مستمرة ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص:8] مجبولين على الخطأ في جميع أفعالهم، ومن جملتها: محافظة العدو الموجب لأنواع العذاب والنكال في النشأة الأولى والأخرى.

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ آسية - رضي الله عنها - من كمال محبتها له وتحننها نحوه لفرعون: هو ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ كسائر أبناء بني إسرائيل على ظن أنه منهم، بل نحفظه ﴿عَسَى أَن يَنفَعَنَا﴾ أي: رجاء أن ينفع بنا نفعًا ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ خلفًا لنا إذا ظهر على رشد تام وعقل كامل ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1] [القصص:9] إنه عدوهم الذي يذهب به دولتهم وملكهم بيده، وهلاكهم بسببه.

﴿وَ﴾ بعد إلقائه في البحر ﴿أَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ صفرًا من العقل ومقتضياته، وصارت قلقة حائرة هائمة؛ بحيث اضمحلت عنها أمارات الحياة تحننًا إلى ولدها وشوقًا إليه، وخوفًا من قتله، سيما سمعت بالتقاط آل فرعون إياه ووقوعه بأيديهم ﴿إِن كَادَتْ﴾ أي: إنه صارت من غاية الحزن والأسف إلى أن قربت ﴿لَتُبْدِي

(1) قال في التأويلات: أنه لو لم يوفق لإهلاكهم لكان هلاكه على أيديهم ولما كان القرآن هاديًا يهدي إلى الرشد والرشد في تصفية القلب وتوجهه إلى الله تعالى وتزكية النفي ونهيها عن هواها وكانت قصة موسى ﷺ تلائم وفرعون أحوال القلب والنفس فإن موسى القلب بعصا الذكر غلب على فرعون النفس وجنوده مع كثرتهم وانفراده قد كرر الحق سبحانه في القرآن ذكر قصتهما تفخيمًا لعظم الشأن ثم زيادة في البيان لبلاغة القرآن ثم إفادة لزوائد من المذكور قبله في موضع يكرره.



بِهِۦ﴾ أي: لتظهر وتبوح بأمره صائحة عليه، فاجعة في شأنه من التقاط عدوه ﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا﴾ وألقينا ﴿عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ السكينة والطمأنينة ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [القصص:10] المصدقين لما وعدنا إياها برد ولدها لها بلا ضر من العدو.

﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص:11-13].

﴿وَ﴾ بعدما سكنت من البوح والنوح والإظهار ﴿قَالَتْ لأُخْتِهِ﴾ أي: مريم أخت موسى: ﴿قُصِّيهِ﴾ أي: اتبعي أثره وتتبعي أمره؛ كي تدرك إلى ما فعلوا معه فذهبت بأمرها ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ﴾ أي: موسى ﴿عَن جُنُبٍ﴾ بعد ﴿وَ﴾ أخفت حالها عنهم إلى حيث ﴿هُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:11] بقرابتها إياه، وهم بعدما اتفقوا على حفظه، وتركوا قتله أرادوا أن يرضعوه فطلبوا المرضعة؛ لحضانته ورضاعته.

﴿وَ﴾ قد كنا من متانة حكمنا وحكمتنا ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾[1] أي: قبل إلقائه أمه في البحر، وحين عهدنا مع أمه برده إياها بقولنا: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص:7]، فأحضروا مراضع كثيرة فأبى موسى عن مصهن، فتحيروا في أمره ﴿فَقَالَتْ﴾ مريم بعدما انتهزت فرصة: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ إن ابتغيتم المرضعة ﴿وَهُمْ﴾ أي: أهل ذلك البيت ﴿لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص:12] إلى أن كبر، بحيث لا يغفل من تربيته وحفظه.

فلما سمع هامان منها ما سمع قال: إنها قد عرفت أهله ومنشأه، خذوها حتى

---

(1) سقى الله روح موسى ألبان المعرفة من ثدي الوصلة، حين أخرجنا من العدم بنور القدم، وحرم عليها مراضع الأكوان والحدثان، ومنعها من الاستئناس بغيره من العرش إلى الثرى؛ لذلك أشار في القصة ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ولولا رضاعه الأول لاشتغل بإتيان غير مرضعته، فسقيه لبن المعرفة فطامه عن كل شيء سواه. قال بعضهم: إشارة إلى العارف؛ فإنه لا يصلح لبساط القربة من لم يكن مرضعًا برضاعة الأنس، فمن كان رضيع مخالفة، أو رضيع وحشة، فإنه لا يصلح لبساط القربة، ألا ترى الكليم لما كان فيه تدبير الخصوصية بالكلام كيف حرم عليه المراضع.

تخبر ما حاله؟ قالت مريم: إنما أردت، وهم للملك ناصحون فأمرها فرعون بإتيانها، فأتت بأمها وموسى على يدي فرعون يبكي ويصيح، فلما شم ريح أمه استأنس، والتقم ثديها ومص بلا إباء، فقال لها فرعون: من أنت منه فقد أبى كل ثدي إلا ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيبة الريح واللبن، لا أوتي بصبي إلا قبلني، فدفعه إليها وعيَّن أجرة حضانتها ورضاعتها، فذهب به إلى بيتها من يومه.

كما قال سبحانه: ﴿فَرَدَدْنَاهُ﴾ في يوم إلقائه في البحر ﴿إِلَى أُمِّهِ﴾ إيفاءً لوعدنا إياها ﴿كَيْ تَقَرَّ﴾ وتنور ﴿عَيْنُهَا﴾ بولدها ﴿وَ﴾ بعدما رددناه إليها ألهمنا لها أن ﴿لَا تَحْزَنَ﴾ بعد اليوم، وتثق بوعدنا إياك ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ القادر على إيفاء العهود ﴿حَقٌّ﴾ ثابت مطابق للواقع، فكما أوفى سبحانه وعد رده إليك يوفي وعد رسالته ونبوته أيضًا بلا خلف منه، فعليك أن تثقي بالله وتفوضي أمره إليه، فإنه سبحانه يكفي مؤونة شرور أعدائه ويوصل إلى منتهى ما جبله لأجله؛ إذ هو قادر غالب على كل ما أراد وشاء ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: أكثر الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص:13] كمال قدرته وحكمته.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص: 14-17].

﴿وَلَمَّا﴾ ربته أمه، وأحسنت تربيته بمعاونة عدوه إلى أن ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ كمال قوته في نشوئه ونمائه ﴿وَاسْتَوَى﴾ أي: كمل وتم عقله ورشده إلى أن صلح لحمل أعباء الرسالة ﴿آتَيْنَاهُ﴾ من كمال جودنا إيفاءً لما وعدنا له في سابق علمنا، وكتبنا لأجله في لوح قضائنا ﴿حُكْمًا﴾ نبوة ورسالة؛ ليضبط به ظواهرَ الأحكام بين الأنام ﴿وَعِلْمًا﴾ لدنيًا متعلقًا بمعرفة ذات الحق المتصف بجلائل الأوصاف والأسماء، وبمعرفة توحيده وتنزهه عن سمة الكثرة مطلقًا ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما جزينا موسى ﴿نَجْزِي﴾ عموم

﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص:14] من خلّص عبادنا البالغين رتبة الإحسان؛ لأنهم يعبدون الله كأنهم يرونه؛ وإنما أتى بلفظ الماضي مع أنه إنما أُرسل بعدما هاجر من بينهم إلى مدين تلميذ شعيب عليه السلام تنبيهًا على تحقق وقوعه.

﴿وَ﴾ بعدما بلغ أشده ﴿دَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ أي: مصر ﴿عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ لأنهم لا يترقبونه في ذلك الوقت، قيل: هو وقت القيلولة، وقيل: وقت العشاء ﴿فَوَجَدَ﴾ بعدما دخل ﴿فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ قتالاً شديدًا ﴿هَذَا﴾ أي: أحد المقاتلين ﴿مِن شِيعَتِهِ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿وَهَذَا﴾ أي: الآخر ﴿مِنْ عَدُوِّهِ﴾ وبعدما وصل موسى إليهما ﴿فَاسْتَغَاثَهُ﴾ أي: طلب منه الغوث والإغاثة، الرجلُ ﴿الَّذِي مِن شِيعَتِهِ﴾ هو ﴿عَلَى﴾ الرجل ﴿الَّذِي﴾ هو ﴿مِنْ عَدُوِّهِ﴾ لأن العدو غالب عليه، وبعدما وجد موسى صديقه مظلومًا مغلوبًا.

﴿فَوَكَزَهُ﴾ أي: العدو ﴿مُوسَى﴾ أي: ضم أصابعه مجتمعة مقبوضة فضرب بها العدو مرة ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ أي: هلك وانفصل روحه بوكزة واحدة فخجل من فعله هذا، واسترجع إلى الله مستحييًا منه سبحانه، حيث ﴿قَالَ هَذَا﴾ أي: ما جئت به من الفعلة الشنيعة ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ إذ هو يغريني عليه ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الشيطان المغري المغوي ﴿عَدُوٌّ﴾ لأهل الحق وأرباب اليقين ﴿مُّضِلٌّ﴾ لهم يضلهم عن الطريق المستبين ﴿مُّبِينٌ﴾ [القصص:15] ظاهر العداوة والضلالة بالنسبة إلى أرباب الرشد والكمال.

﴿قَالَ﴾ موسى متضرعًا نحو الحق، آيبًا إليه، تائبًا عما صدر عنه، مناجيًا له عن محض الندم: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع اللطف والكرم بين يدي عدوي، وخلصني من البلية العامة بمقتضى جودك ﴿إِنِّي﴾ بالإقدام على هذا الأمر الشنيع ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ وعرضتها لعذابك بالخروج عن مقتضى حدودك بقتل هذا الشخص بلا رخصة شرعية ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ يا ربّ زلتي بعدما تبت إليك، ورجعت عن ذنبي نادمًا، والتجأت إلى بابك راجيًا ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ ربه زلته بعدما رجع إليه مخلصًا ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده بعدما رجعوا نحوه متذللاً خائبًا خاسرًا ﴿الرَّحِيمُ﴾ [القصص:16] لهم يقبل توبتهم بعدما أخلصوا فيها، وبعدما تاب ورجع عمّا عمل خطأً.

﴿قَالَ﴾ مقسمًا: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع الكرامات أقسمت ﴿بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ من النعم العظام ﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾ بعد اليوم ﴿ظَهِيرًا﴾ مغيثًا ومعينًا ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص:17] الذين أدت إغاثتهم إلى جرم كبير وذنب عظيم.

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) ﴾ [القصص:18-21].

وبعدما صدر عن موسى ما صدر ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي: مصر ﴿خَائِفًا﴾ من أولياء المقتول ﴿يَتَرَقَّبُ﴾[1] منهم الاستقادة ﴿فَإِذَا﴾ أي: فوجئ بغتةً بالرجل ﴿الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ﴾ واستغاث منه ﴿بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ ويستغيثه لقبطي آخر يخاصم معه ويغلب عليه ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ﴾ أي: للمستغيث: ﴿إِنَّكَ﴾ مع ضعفك وقلة قوتك ﴿لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:18] ظاهر الغواية والضلال.

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ﴾ موسى بعدما نسبه الإسرائيلي إلى الغواية ﴿أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي﴾ أي: بالقبطي الذي ﴿هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ أي: لموسى والإسرائيلي؛ إذ القبطي عدو للسبطي مطلقًا ﴿قَالَ﴾ القبطي: ﴿يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي﴾ ظلمًا ﴿كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ جبرًا بغير حق ﴿إِن تُرِيدُ﴾ أي: ما تقصد بفعلك هذا ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا﴾ قتالاً ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ظلمًا وعدوانًا مباهيًا بقدرتك وقوتك ﴿وَمَا تُرِيدُ﴾ أنت بهذه الجرأة والجريمة ﴿أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص:19] بين المتخاصمين، بل من المفسدين أشد إفساد.

﴿وَ﴾ بعدما انتشر الخبر بين القوم، وشاع بين الأنام إلى أن وصل الخبر إلى فرعون وملئه بقتل موسى بعدما شاوروا في شأنه ﴿جَاءَ رَجُلٌ﴾ مؤمن ﴿مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾ إلى موسى، وهو ابن عمه حال كونه ﴿يَسْعَىٰ﴾ يسرع ويتبختر ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ

---

(1) يشير إلى أن موسى القلب في ابتداء أمره إذا لم يكن محلاً لوارد الغيب مستظهرًا بالإلهامات الربانية واثقًا بظهور الآيات عليه مطمئنًا بإمداد شواهد الحق لديه فيتعدى على بعض صفات النفس مكرهًا بقوة مساعد الصدق، فيذكر سطوة سلطنة فرعون النفس واستيلائه عليه يصبح خائفًا يترقب سطوة قهره أو يترقب نصرة الله إياه. [التأويلات].

﴿إِنَّ الْمَلَأَ﴾ أي: فرعون وأشراف قومه ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ وتشاوروا في شأنك واستقر رأيهم ﴿لِيَقْتُلُوكَ﴾ قصاصًا ﴿فَاخْرُجْ﴾ من المدينة ذا الساعة ﴿إِنِّي﴾ من كمال عطفي ﴿لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص:20] أنصحك بالخروج من بينهم؛ لئلا يلحقك شرهم وضرهم.

وبعدما سمع من الناصح ما سمع ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ أي: من المدينة على الفور ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ إدراكه من الخلف ﴿قَالَ﴾ حين خروجه ملتجأ إلى الله، مناجيًا له: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بكنفك وجوارك، ونجاني من أنواع الفتن والمحن ﴿نَجِّنِي﴾ بلطفك ﴿مِنَ﴾ إدراك ﴿الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:21] القاصدين لمقتي وقتلي.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص:22-24].

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي: جهة قرية شعيب عليه السلام ﴿قَالَ﴾ راجيًا إلى الله، ذاكرًا سوابق نعمه عليه من كمال فضله وكرمه: ﴿عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي﴾ بمقتضى جوده العميم ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص:22] أي: الطريق المستقيم المنجي عن العدو، الموصل إلى الصديق المشفق؛ ليهديني إلى صراط الله الأقوم الأعدل الذي هو التوحيد المخلص عن وساوس التقليد، فعن له ثلاث طرق فاختار أوسطها بإلهام من الله إياه، وجاء الطلاب عقيبه فاختاروا الآخرين، فنجا من شرورهم سالمًا.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ﴾ ووصل بعدما سار ثمانية أيام بلا زاد، يأكل الكلأ ﴿مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي: بئرًا قرب مدين، كان أهلها يسقون منها مواشيهم ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾ أي: فرقة عظيمة ﴿مِّنَ النَّاسِ﴾ قعد عندهم من شدة الوصب والجوع والعطش، وهم ﴿يَسْقُونَ﴾ مواشيهم بالدلو منها ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ أي: في مكان أبعد وأشغل من مكانهم ﴿امْرَأَتَيْنِ﴾[1] معهما غنم كثير ﴿تَذُودَانِ﴾ أي: تطردان وتصرفان غنمهما عن اختلاط

---

(1)-قال في التأويلات: وهما السر والخفي وهما ابنتا شعيب الروح في البداية بالتدريج فتنشأ منه الخفي وهو لطيفة ربانية مودعة في الروح بالقوة، فلا يحصل بالفعل إلا بعد غلبات الواردات

غنمهم، وتبعدان عن الماء.

﴿قَالَ﴾ موسى سائلاً عنهما بعدما شاهد حاليهما وذودهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: شأنكما وأمركما؟ وأي شيء مقصودكما من الذود مع أن أغنامكما في غاية العطش؟! ﴿قَالَتَا﴾ مع كمال الاستحياء والتحفظ من مكالمته: ﴿لَا نَسْقِي﴾ أغنامنا مع هؤلاء الرجال؛ إذ نحن من أهل بيت النبوة لا نجتمع معهم في السقي، بل نصبر ﴿حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أي: يُخلوا الدلو، ويُخرجوا مواشيهم إلى المرعى عن رأس الماء . الرعاء: جمع راعٍ كتجار: جمع تاجر، هذا على قراءة: ﴿يُصْدِرَ﴾ بضم الياء وكسر الدال، وأمّا على قراءة: ﴿يَصْدُرَ﴾ بفتح الياء وضم الدال؛ أي: يذهب الرعاء بمواشيهم مرتبة، وينصرفوا من شفير البئر . إذ نحن لا نختلط مع أجانب الرجال ﴿وَ﴾ نحن من كمال اضطرارنا جئنا للسقي؛ إذ ﴿أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص:23] فاقد البصر، وما لنا أخ وعم، وليس لأبينا سوانا.

وبعدما سمع موسى منهما ما سمع، ورأى ما رأى من كمال العطف والعفة والعصمة قام مع أنه في غاية الضعف؛ من شدة الجوع والوصب، وعلى رأس البئر حجر عظيم يقله عند الاستسقاء جمع كثير، فأقله وحده ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ جميع أغنامهما ﴿ثُمَّ تَوَلَّى﴾ وانصرف ﴿إِلَى الظِّلِّ﴾ وازداد جوعه ووصبه ﴿فَقَالَ﴾ ملتجئًا إلى ربه: ﴿رَبِّ إِنِّي﴾ من شدة جوعي وضعفي ﴿لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾ ورزقتني من موائد إفضالك وإنعامك ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ وصل إليّ، حينئذٍ ﴿فَقِيرٌ﴾[1] [القصص:24] محتاج مريد.

الربانية ليكون واسطة بين الحضرة والروح في قبول تجلي صفات الربوبية، وإفاضة الفيض الإلهي على الروح فيكون في هذه المدة بمعزل عن الاستيفاء، وكذلك السر وهو لطيفة روحانية متوسطة بين القلب والروح قابلة لفيض الروح مؤدية إلى القلب، وهو أيضًا بمعزل عن استيفاء ماء فيض الروح عند شغل القلب بمعالجات النفس وصلاح القالب إلى حين توجه موسى القلب إلى مدين عالم الروحانية.

(1) قال روزبهان: استظل ظل العناية وطلب من هناك حقائق الكفاية بنعت الرضا والتسليم وأظهر افتقاره إلى وصول المشاهدة حين عاين كنوز القدم مفتوحة وجلابيب الصفات مكشوفة فانبسط إليه بالسؤال حين انفرد من الخلق والخليقة. قال ابن عطاء: نظر من العبودية إلى الربوبية فخشع وخضع وتكلم بلسان الافتقار بما ورد على سره من أنوار الربوبية، فافتقاره افتقار العبد إلى مولاه في جميع أحواله لا افتقار سؤال ولا طلب. قال بعضهم: تولى إلى كهف الرعاية فإن فيه الراحة والاسترواح.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص:25-28].

وبعدما تم مناجاته مع ربه، وطلب حاجته منه سبحانه ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا﴾ أي: إحدى المرأتين ﴿تَمْشِي﴾ نحوه ﴿عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ تام منه، فلما وصلت حوله سلمت عليه، ثمَّ ﴿قَالَتْ﴾ له مستحيية: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾ ويكافئك ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ تبرعًا، فأجابها موسى تبركًا برؤية شعيب عليه السلام لا طمعًا لأجرته.

رُوي أنه لمَّا دخل عليه أتى أولاً بالطعام، فامتنع موسى عليه السلام وقال: نحن من أهل بيتٍ لا نبيع بالدنيا، قال شعيب عليه السلام: هذا من عادتنا مع كل من ينزل بنا، وإن من أتى بمعروف، وأهدي له لم يحرم أخذه وأكله في جميع الأديان.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ﴾ أي: جاء موسى شعيبًا ـ عليهما السلام ـ وتبرك بشرف صحبته لاح عليه حاله ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ الذي جرى عليه من أوله إلى آخره، وسمع منه الشيخ على التفصيل ﴿قَالَ لَا تَخَفْ﴾ بعد اليوم ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:25] يعني: فرعون وملأه.

وبعدما جلس موسى عند شعيب ـ عليهما السلام ـ وقصَّ عليه ما جرى من الخوف والحزن وأنواع الكآبة ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ أي: إحدى الابنتين، وهي التي استدعته للضيافة: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ لرعي الغنم، وأنت تريد الأجير ﴿إِنَّ خَيْرَ﴾ جميع ﴿مَنِ اسْتَأْجَرْتَ﴾ من الرجال هو؛ لأنه ﴿الْقَوِيُّ﴾ أي: شديد القوة ﴿الْأَمِينُ﴾ [القصص: 26] ذو الأمانة والديانة.

قال لها أبوها حمية وغيرة: من أين عرفت قوته وأمانته؟ فذكرت لأبيها إقلال الحجر العظيم وحده من رأس البئر مع أن الناس يقلونه في جمع كثير، فهذا دليل قوته،

وأمّا أمانته فإني بعدما دعوته قام ومشى قدامي، وأمرني بالمشي خلفه؛ صيانةً عن النظر إلي، فقال لي: دليني عن الطريق إن ضللت، وهذا دليل على كمال أمانته وصيانته حدود الله.

ولمّا سمع شعيب عليه السلام من ابنته ما سمع من أمارات أمانته ومروءته رغب إلى ألفته ومؤانسته؛ حيث ﴿قَالَ﴾ شعيب لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّي﴾ بعدما وجدتك شابًا صالحًا، سويًا ذا رشد وأمانة ﴿أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ على صداق معين ﴿عَلَى أَن تَأْجُرَنِي﴾ نفسك برعي الغنم ﴿ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾ كاملاً ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ تبرعًا وإحسانًا ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بأن أحملك أزيد من ذلك ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص:27] للخدمة والمصاحبة، والمؤاخاة والموافاة في أداء الحقوق والعهود.

﴿قَالَ﴾ موسى مجيبًا له، راغبًا لقبول ما ألقاه من الكلام: ﴿ذَلِكَ﴾ الوقت الذي عينته ملزمًا عليّ أولاً ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ معهود ثابت، والذي قلته ثانيًا تبرعًا مني، وبالجملة: ﴿أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ﴾ يعني: أجل الالتزام، وأجل التبرع ﴿قَضَيْتُ﴾ يقع المعهود بلا تردد ﴿فَلَا عُدْوَانَ﴾ ولا تعدي ﴿عَلَيَّ﴾ بعد انقضاء كل واحد من الأجلين ﴿وَاللهُ﴾ الشهيد المطلع لعموم أحوال عباده ﴿عَلَى مَا نَقُولُ﴾ من المشارطة والمعاهدة ﴿وَكِيلٌ﴾ [القصص:28] حفيظ يحفظه على وجهها.

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القصص:29-31].

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ﴾ أي: أقصى الأجلين، ومكث عنده عشرًا آخر بعدما تزوج ابنته؛ للاسترشاد والاستكمال، وبعدما كمل بصحبة المرشد الكامل المكمل أراد أن يرجع إلى قومه فخرج من عنده ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ نحو مصر، وهي حاملة فجاءها

الطلق في ليلة شاتية مظلمة، وهم على جناح السفر ضالين عن الطريق ﴿آنَسَ﴾ أي: أبصر موسى ﴿مِن جَانِبِ الطُّورِ﴾ أي: من الجهة التي تجاه الطور ﴿نَارًا﴾ ففرح من رؤيتها ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ ساعة ﴿إِنِّي آنَسْتُ﴾ وأبصرت ﴿نَارًا﴾ ومن هذا يُعلم أن أهله لم يروها، أذهب إليها ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ من الطريق أستخبر من عندها ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ أي: عود غليظ معه شيء ﴿مِّنَ النَّارِ﴾[1] إن لم أجد عندها أحدًا ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص:29] تستدفئون من البرد، فمكثوا.

فبادر إليها سريعًا ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ وقرب إليها ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ﴾ أي: شفيره وجانبه ﴿الْأَيْمَنِ﴾ باليمن، والكرامة الواقعة ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ التي كثر الخير والبركة فيها ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ أي: نُودي من الشجرة التي تعقد النار عليها نداءً عجيبًا معربًا عن اسمه، مصرحًا به: ﴿أَن يَا مُوسَىٰ﴾ المتحير في بيداء الطلب، القلق الحائر في فيافي التعب ﴿إِنِّي﴾ مع كمال إطلاقي وإن ظهرت على صورة نار، وتقيدت بها متنزهًا عن كمال تنزهي عن عموم الصور والتعينات ﴿أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص:30] الجامع لجميع الأسماء والصفات، المتجلي لجميع الصور والشئون، وعموم الهياكل والتماثيل، المتعالي عن الحلول في شيء والاتحاد به والمعية معه مطلقًا، فاطلبني تجد جميع حوائجك عندي؛ لأني رب العالمين، أي: مربِ الكل ومدبره بعدما أظهرت الأشياء، وأوجدتها من كتم العدم.

وبعدما سمع موسى ما سمع استوحش من هذا النداء، وارتعد من هيبة هذا الصدى؛ لأنه في ابتداء انكشافه وشهوده أنس معه ربه؛ إزالةً لرعبه ووحشتها، فقال مخاطبًا له، آمرًا: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ التي في يدك؛ حتى ترى عجائب صنعنا وغرائب حكمتنا وليزول استبعادك من ظهورنا على صورة النار فألقاها، فإذا هي حية تسعى ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ وتتحرك على وجه السرعة ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ أي: حية صغيرة سريعة

---

(1) يُشير به إلى أن التجريد في الظاهر والتفريد في الباطن، فإن السالك لا بدَّ له في السلوك من تجريد الظاهر عن الأهل والمال، وخروجه عن الدنيا بالكلية فقد قيل أن الكاتب عبد ما بقي عليه درهم، ثم من تفريد الباطن عن تعلقات الكونين فبعد وتفرد عن التعلقات يشاهد شواهد التوحيد، فإذا ما تبدو له في صورة شعلة النار كما كان لموسى والكوكب كما كان لإبراهيم عليهما السلام أكوكب ما أرى يا سعد أم نار تشبها سهلة الحدين معطار، ومن جملتها اللوامع والبروق والطوالع والسواطع والشموس والأقمار إلى أن ينجلي نور الربوبية مع مطلع الإلهية نور بيدور إذا بدا استمكن شمس طلعت ومن رآها آمن. [التأويلات].

السير ﴿وَلَّى﴾ موسى، وانصرف عنها ﴿مُدْبِرًا﴾ بعدما أدبر مرعوبًا مرهوبًا ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لم يرجع ولم يلتفت إلى أخذها خائفًا منها هاتبًا، قلنا له مناديًا؛ إزالةً لرعبه: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ﴾ إلى عصاك وخذها ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ منها ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص:31] عن ضرر ما ظهرت عليك من الصورة الحادثة المهيبة، فإنَّا سنعيدها سيرتها الأولى.

﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [القصص:32-37].

ثمَّ أمر سبحانه ثانيًا؛ تأكيدًا لتأنيسه إياه بقوله: ﴿اسْلُكْ﴾ وأدخل ﴿يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ﴾ على الفور ﴿بَيْضَاءَ﴾ مضيئة منيرة، محيرة للعقول والأبصار؛ من كمال إشراقها وضوئها، مع أنها ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي: مرض من برص وبهق، فأدخل وأخرج فرأى ما رأى ﴿وَ﴾ بعدما رأى موسى يده في غاية البياض والصفاء استوحش أيضًا منها واسترهب عن عروض المرض إليها، أمره سبحانه ثالثًا؛ إزالة لحزنه بقوله: ﴿اضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ أي: يديك، وأطوِ كشحك ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾ أي: الخوف والحزن، وهذا كناية عن الطمأنينة والوقار، وعدم إخطار الخوف في البال.

﴿فَذَانِكَ﴾ أي: العصا واليد البيضاء ﴿بُرْهَانَانِ﴾ أي: شاهدان على نبوتك ورسالتك، ومعجزتان باهرتان لك لمن يعارض معك وأنكر عليك رسالتك، متنشئان ﴿مِن﴾ أمر ﴿رَبِّكَ﴾ تأيدًا لك ولأمرك حين أرسلك ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ لتدعوهم إلى توحيد الحق وصراط مستقيم، وتنذرهم عمَّا هم عليه من الإفراط والتفريط ﴿إِنَّهُمْ﴾ من غاية انهماكهم في الغفلة والغرور ﴿كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص:32] خارجين عن

مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة في شرائع الأنبياء الماضين، والرسل المنقرضين.

ثمّ لمّا سمع موسى من ربه ما سمع ﴿قَالَ﴾ معتذرًا مستظهرًا: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بسوابق النعم ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ خطأ، وأنت أعلم به مني ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص:33] ويبادرون إلى قتلي قبل دعوتهم إلى دينك وتوحيدك لو ذهبت إليهم وحيدًا فريدًا بلا ظهير ومعين.

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وأوضح بيانًا، وأتم تقريرًا وتبيانًا ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾ وأشركه في أمري؛ ليكون ﴿رِدْءًا﴾ أي: معاونًا في أمري ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ لدى الحاجة ﴿إِنِّي﴾ من كمال عداوتهم معي، وشدة شكيمتهم وغضبهم عليَّ ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص:34] دفعة، ولا ينطلق لساني بمجادلتهم؛ بسبب لكنتي فأفوت بلكنتي حكمة رسالتي، وأحكام دعوتي ونبوتي.

﴿قَالَ﴾ له سبحانه على وجه التأييد والتعضيد: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ ونقويك ﴿بِأَخِيكَ﴾ مع ذلك لا تيأس من توفيقنا إياك؛ إذ بعدما أرسلناكما إلى فرعون وملئه ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ حجة قاطعة بها تغلبان عليهم ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بقهر واستيلاء ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: بسبب آياتنا التي معكما، ولا تخافا عن غلبتهم عليكما؛ بسبب شوكتهم وكثرة عَددهم وعُددهم، بل ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا﴾ من المؤمنين هم ﴿الْغَالِبُونَ﴾ [القصص:35] المقصورون على الغلبة، لا تتعدى الغلبة عنكم، وهم المغلوبون المنحصرون على المغلوبية، لا يتجاوزون عنها أصلاً.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ﴾ مؤيدًا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على صدقها في دعواه، مع كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ ظاهرات واضحات أنها من عندنا بلا تردد وريب ﴿قَالُوا﴾ من كمال قسوتهم وانهماكهم في الضلال: ﴿مَا هَٰذَا﴾ الذي أتى به على صورة المعجزة والبرهان ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾[1] اختلقه من تلقاء نفسه، ونسبه إلى الله افتراءً وترويجًا لباطله من صورة الحق ﴿وَ﴾ من شدة حرصه على ترويج ما زخرفه من عند نفسه سمّاه دينًا وهدايةً

(1) قال في التأويلات: لأن النفس خلقت من أسفل عالم الملكوت متنكسة، والقلب خلق من وسط عالم الملكوت متوجهًا إلى الحضرة فما كذب الفؤاد ما رأى، وما صدقت النفس ما رأت، فيرى القلب إذا كان سليمًا أن من الأمراض والعلل الحق حقًا والباطل باطلاً والنفس يرى الحق باطلاً والباطل حقًا ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه».

ورشدًا، ونسبه إلى الوحي والإنزال من الإله الواحد الموهوم، مع أنا ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أي: بوحدة الإله المرسل للرسل، والمنزل للكتب بالوحي والإلهام، الواضع للأديان والشرائع بين الأنام كائنًا ثابتًا ﴿فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ [القصص:36] إن هو إلا إفك افتراه، ولبَّس على الأنام أمره؛ تغريرًا عليهم، وتضليلاً لهم.

﴿وَ﴾ بعدما أبصروا الآيات القاطعة والبراهين الساطعة، ونسبوها من غاية غيهم وضلالهم إلى السحر والشعوذة، مع أنها بمراحل عنها ﴿قَالَ مُوسَى﴾ بعدما قنط من إيمانهم وصلاحهم: ﴿رَبِّي﴾ الذي رباني بأنواع الكرامات ﴿أَعْلَمُ﴾ منِّي ﴿بِمَن جَاءَ بِالْهُدَى﴾ والرشد المنزل ﴿مِنْ عِندِهِ﴾ بمقتضى وحيه وإلهامه، ومن اهتدى واسترشد به ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ يعني: العاقبة الحميدة المترتبة على هذه النشأة التي هي دار الابتلاء والاختبار، وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه بمقتضى عدله وحكمته ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [القصص:37] الخارجون عن مقتضى الحدود الإلهية، ولا يفوزون بما فاز المتقون من المثوبة العظمى والدرجة العليا.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص:38-42].

﴿وَ﴾ بعدما أتم موسى كلامه الصادر عن محض الحكمة ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ مستكبرًا مستحيًا عمَّن حوله من الأنام؛ لئلا ينسبوه إلى العجز والإفحام مناديًا لهم على سبيل العظمة والكبرياء: ﴿يَا أَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ﴾ يُعبد بالحق ويستحق لها ﴿غَيْرِي﴾ ومن أين يدَّعي هذا الكذَّاب في السماء إلهًا سواي؟! ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ أي: من العملة أن يتخذوا من الطين لبنها، وأوقدوه بالنار إلى أن صار آجرًا متحجرًا ﴿فَاجْعَل لِّي﴾ منها ﴿صَرْحًا﴾ رفيعًا، وقصرًا منيعًا سمكها متصلاً إلى السماء، فأستعلي عليه ﴿لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ فإن أقبل بالقتال أغلبه، وأحطه



على الأرض صاغرًا مهانًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّهُ﴾ في هذه الدعوة ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص:38] القائلين بقولٍ لا منشأ لها في الواقع ولا أصل.

قيل: بنى رصدًا؛ ليطلع على نظرات الكواكب، هل يجد فيها نظرًا يدل على زوال ملكه باستيلاء موسى عليه السلام؟.

﴿وَ﴾ من كمال سكرتهم وعمههم، وإمهالنا إياهم متمتعين ﴿اسْتَكْبَرَ هُوَ﴾ أي: فرعون ﴿وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ والاستحقاق، وترقبوا في عتوهم وعنادهم إلى أن ظهروا على الله بأمثال هذه الهذيانات الباطلة ﴿وَظَنُّوا﴾ بالإقدام والجرأة على مثل هذه الخرافات ﴿أَنَّهُمْ﴾ بعد خلعهم لوازم الناسوت ﴿إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 39] رجوع الأظلال إلى الأضواء المنعكسة من شمس الذات، والأمواج إلى الماء.

وبعدما بالغوا في العتو والعناد، وظهروا على الأرض بأنواع الفساد ﴿فَأَخَذْنَاهُ﴾ أي: فرعون بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿وَجُنُودَهُ﴾ أيضًا بأنواع العذاب ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ أي: طرحناهم ﴿فِي الْيَمِّ﴾ وغطيناهم بالماء فأغشيناهم بها، مثل غشي وجوداتهم الباطلة بالوجود الحق الإلهي ﴿فَانظُرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: 40] ومآل أمرهم، وما يؤول إليه حالهم وشأنهم ﴿وَ﴾ من كمال ابتلائنا إياهم ومكرنا معهم: ﴿جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ قدوة للضلال ﴿يَدْعُونَ﴾ من تبعهم ويقتفي أثرهم ﴿إِلَى النَّارِ﴾ أي: أسبابها وموجباتها؛ إذ مآل الكل إليها تابعًا ومتبوعًا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: 41] أي: لا يُدفع عنهم العذاب، ولا يُخفف عليهم بشفاعة أحد.

﴿وَ﴾ كيف ينصرون أولئك الضالون المضلون، مع أنَّا ﴿أَتْبَعْنَاهُمْ﴾ وألزمنا عليهم ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ مستمرة جارية على ألسنة من على الأرض ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعدة للجزاء ﴿هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص:42] المطرودين المسوقين نحو جهنم صاغرين مهانين؟!.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا

كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص:43-46].

﴿وَ﴾ بعدما نبذنا فرعون وجنوده في اليم ﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾ وأعطينا من كمال جودنا ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة الجامعة لظواهر الأحكام ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ واستأصلنا آثارهم وأحكامهم، بحيث لم يبقَ من شرائع المتقدمين وآثارهم وأحكامهم شيئًا بين الأنام، كنوح وهود وصالح وإبراهيم؛ وإنما آتيناه ليكون ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: ينوروا بأحكامه وأوامره عيون بصائرهم، ويستيقظوا من منام الجهل والغفلة، ويشتغلوا بطلب الحق.

﴿وَهُدًى﴾ يهديهم إلى سلوك مسالك التوحيد ﴿وَرَحْمَةً﴾ يبشرهم إلى البقاء الأبدي السرمدي بعد انخلاعهم عن خلع تعيناتهم العدمية، والإفناء عن هوياتهم الباطلة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:43] رجاء أن يتذكروا ويتنبهوا من المواعظ والأحكام التي ذُكرت فيه إلى ما جُبلوا لأجله من المعارف والحقائق والرموز، والإشارات والمكاشفات والمشاهدات.

ثم لمّا قصّ سبحانه على حبيبه ﷺ ما قصّ من قصة موسى الكليم، وكيفية انكشافه من النار الموقدة على الشجرة، وكيفية عروجه مترقيًا من العلم إلى العين ثم إلى الحق، أراد أن يمن عليه سبحانه بما اصطفاه وفضله من بين البرايا على الرسالة العامة، وأخبره من المغيبات بطريق الوحي والإلهام ما ليس في وسعه، لولا وحيه وإلهامه سبحانه إياه، فقال: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا أكمل الرسل حين انكشف موسى بالواد المقدس، وشهد من فضل الله عليه ما شهد ﴿بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ أي: الوادي الذي على شفيرها الشجرة بالطرف الغربي من مقام موسى؛ أي: ما كنت حاضرًا عنده ﴿إِذْ قَضَيْنَا﴾ وأوحينا ﴿إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ الذي هو مطلوبه الحقيقي من مطلوبه الصوري ﴿وَمَا كُنتَ﴾ حينئذٍ ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص:44] الحاضرين المطلعين على شأنه وشهوده.

﴿وَلَكِنَّا﴾ من كمال لطفنا وجودنا أخبرناك بما جرى بينه وبيننا في تلك الليلة، كما أخبرنا لك أحوال أمم ﴿أَنشَأْنَا﴾ من بعد موسى ومن قبلك ﴿قُرُونًا﴾ أي: زمانًا متطاولة ومدة بعيدة ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ ومكثوا في الدنيا كثيرًا، ودار بينهم الدول والحول وحدثت الفتن والمحن، ووقعت التغييرات والتحريفات في الشرائع والأديان،

واندرست معالم الهدى، وفشا الجدال والطغيان، واستولت الهوية الفاسدة والآراء الباطلة على أهل الزمان، فأخبرنا لك في كتابك هذا من وقائعهم؛ لتكون تذكرة لك، وعبرة للمؤمنين بك.

﴿وَمَا كُنتَ﴾ أيضًا يا أكمل الرسل ﴿ثَاوِيًا﴾ مقيمًا ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ شعيب عليه السلام ﴿تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على كمال القسط والعدالة بلسان نبينا شعيب عليه السلام حين انحرفوا عن جادة الاعتدال في المكيلات والموزونات، واشتغلوا بالبخس والتطفيف وأنواع التنقيص والتخسير ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص:45] مخبرين لك، موحين إليك ما جرى عليهم من الأحوال.

﴿وَمَا كُنتَ﴾ أيضًا حاضرًا ﴿بِجَانِبِ الطُّورِ﴾ الذي هو موعد موسى وقت ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾[1] موسى لأخذ التوراة ووحينا إليه ﴿وَلَكِن﴾ علمناك به؛ لتكون ﴿رَّحْمَةً﴾ لك نازلة إليك ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ تأييدًا لك، وتقويةً لشأنك، بل إنما أوحيناك ما أوحيناك ﴿لِتُنذِرَ﴾ به ﴿قَوْمًا﴾ بقوا على فترة من الرسل؛ إذ ﴿مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ من لدن عيسى عليه السلام، وهي خمسمائة وخمسون سنة، أو إسماعيل عليه السلام بناءً على أن دعوة أنبياء بني إسرائيل مختصة بهم لا يتعدى إلى غيرهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:46] يتعظون بما في كتابك، ويتنبهون بما في حكمه وأحكامه إلى مبدئهم ومعادهم، ويفوزون منها إلى المعارف والحقائق التي جُبلوا لأجلها.

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا

(1) قال في التأويلات: يعني حين سأل موسى ربه: إني أرى في التوراة أمة صفتهم كذا وكذا من هم؟ فقال: أمة محمد ﷺ حتى سأل عن أوصاف كثيرة وعن الجميع كان يجيب أنه أمة أحمد فاشتاق موسى إلى لقائهم فقال: إنه ليس اليوم وقت ظهورهم فإن شئت أسمعتك كلامهم كما مر ذكره ثم نادى فقال: يا أمة محمد فيه إشارة لطيفة وهي أن الله ﷻ لكرامة محمد ﷺ وشرفه أخذ الميثاق من موسى للإيمان به في غيبته وفي حضور موسى ما نادى محمدًا لأجله بل نادى أمته له ومن عليه باستماع كلامهم إياه وكما نادى موسى في الوجود حاضرًا نادى أمة محمد ﷺ وهم في العدم غائبين فهو كائن لهم حين لم يكونوا لأنفسهم.

وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: 47-50].

ثمَّ قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿وَلَوْلَا﴾ كراهة ﴿أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾ عظيمة جالبة لنزول أنواع العذاب والنكال ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بشؤم ما اقترفوا من المعاصي ﴿فَيَقُولُوا﴾ حينئذٍ مجتمعين علينا، مجادلين بنا بعدما أخذناهم عليها: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا﴾ وهلّا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ من عندك، مؤيّدًا من لدنك بالآيات البينات ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ البالغة إلينا برسالته ونصدقها، ونعمل بمقتضاها ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص:47] الموقنين بوحدانيتك، المخلصين من عذابك.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي: الرسول المرسل ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ ملتبسًا بالحق المؤيّد بالآيات الساطعة القاطعة ﴿قَالُوا﴾ من خبث طينتهم، وشدة شكيمتهم وضغينتهم: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ﴾ وهلّا أوتي بهذا الرسول المرسل إلينا من الدلائل والمعجزات ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ حتى نصدقه ونؤمن به؛ وما هذا إلا من غاية غيهم وضلالهم، وغلظ حجبهم وغشاوتهم، وإلا لو أوتي له مثل ما أوتي موسى لكفروا ل[illegible]البتة ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾.

حيث ﴿قَالُوا﴾ بعدما شاهدوا دلائله ومعجزاته مبالغين في رده وإنكاره: ﴿سِحْرَانِ﴾ أو ساحران على القراءتين ﴿تَظَاهَرَا﴾ يعني: موسى وهارون، مع أن ما أتيا به بعيد بمراحل عن السحر، وأنتم أيضًا من بقية ما كفروا بدلائل موسى، ونسبوها إلى السحر، ولو آتينا محمدًا ﷺ مثل ما آتينا موسى لكفرتم به ألبتة، كما كفر أسلافكم بآيات موسى ومعجزاته، مع أن دلائل محمد أقوى من دلائل موسى، وكتابه أجمع من كتابه وأتم نظمًا، وأكمل معرفة وأعم حكمًا وأشمل فائدة، وبعدما سمعوا ما دل على خباثة فطرتهم ﴿وَقَالُوا﴾ مظهرين ما في نفوسهم من الشرك والنفاق: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ﴾ مما يدعي الرسالة والنبوة، والإرشاد والهداية ﴿كَافِرُونَ﴾ [القصص:48] منكرون له، لا نقبل عن أبناء جنسنا مثل هذه المفتريات التي اختلقوها من تلقاء أنفسهم، ونسبوها ترويجًا لها إلى ما لا وجود له في الواقع، وسموه إلهًا واحدًا أحدًا صمدًا، فردًا وترًا، لم

يتخذ صاحبةً ولا ولدًا.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل على سبيل التعجيز والتوبيخ بعدما عاينت منهم الكفر على أبلغ وجه وآكده: ﴿فَأْتُوا﴾ أيها المفسدون المسرفون ﴿بِكِتَابٍ﴾ نازلٍ ﴿مِّنْ عِندِ اللهِ﴾ المنزل للكتب؛ لإرشاد عباده ﴿هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا﴾ أي: من التوراة والقرآن ﴿أَتَّبِعْهُ﴾[1] أي: الكتاب وما فيه من الأحكام، وأمتثل لأوامره، وأجتنب عما نهي فيه ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص:49] في نسبتنا إلى السحر.

﴿فَإِن﴾ عجزوا عن الإتيان، و﴿لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ ما طلبت منهم ﴿فَاعْلَمْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: إنهم إنما يتبعون أهواءهم الفاسدة، وآراءهم الباطلة بلا متابعةٍ منهم إلى ملةٍ من الملل السالفة، وإلى دينٍ من الأديان السابقة ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ طريقًا، وأشد غيًا، وأسوأ حالاً ومآلاً ﴿مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ حال كونه ﴿بِغَيْرِ هُدًى﴾ أي: توفيقٍ وإرشادٍ ﴿مِّنَ اللهِ﴾ الميسر لأمور عباده، وكيف يوفقهم الحق ويهديهم؟ ﴿إِنَّ اللهَ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله ﴿لَا يَهْدِي﴾ إلى الطريق المستبين ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:50] الخارجين عن مقتضى أوامره ونواهيه؛ إذ هم منهمكون في بحر الغفلة والضلالة لا يُرجى نجاتهم منها.

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص:51-56].

(1) قال في التأويلات: إشارة إلى أن لو كان لطالب صادق ومريد حازق شيخ يقتدي به وله شأن مع الله ثم استعد بشيخ كمثله كامل هو أهدى إلى الله منه وجب عليه اتباعه والتمسك بذيل إرادته حتى يتم أمره ولو تجدد له في أثناء السلوك هذا الاستعداد بشيخ آخر كما من الأول والثاني هلم جرا يجب اتباعه إلى أن يظفر بالمقصود الحقيقي وهو الوصول إلى الحضرة بلا اتصال وانفصال.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا﴾ وفصّلنا ﴿لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ بأنّا أتبعنا الأحكام بالحكم، والأوامر بالمواعظ، والتذكيرات والنواهي بالعبر والأمثال، وأوضحنا الكل بالقصص والوعيدات الهائلة لأهل الغفلة والنسيان، وتنزيل أنواع العذاب والنكال على أهل الكفر والإنكار ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:51] ويتعظون منها فيؤمنون ويقبلون، ومع ذلك لم يتعظوا ولم يتأثروا، فلم يقبلوا ولم يؤمنوا.

ثمّ قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: الفرقة الذين آتيناهم التوراة ووفقناهم على امتثال ما فيها من الأوامر والنواهي، وجميع الأمور المتعلقة بالمعتقدات الدينية ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ أي: قبل نزول القرآن ﴿هُم بِهِ﴾ أي: بالقرآن وبمحمد ﷺ، وإنزال القرآن إليه ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص:52] إذ هم مصدقون بجميع ما في كتابهم.

ومن جملة الأمور المثبتة في كتابهم: إرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن إليه، وهم يؤمنون به قبل بعثته ﷺ ونزول القرآن لمدة متطاولة ﴿وَ﴾ بعد نزول القرآن ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا﴾ مسلمين مصدقين: ﴿آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ﴾ المطابق للواقع، النازل ﴿مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل نزوله ﴿مُسْلِمِينَ﴾ [القصص:53] منقادين لما فيه، مصدقين له، مؤمنين بما أنزل إليه؛ إذ الإيمان به من جملة المعتقدات المثبتة في كتابنا، فالآن لمَ لم نؤمن مع أنّا وجدناه مطابقًا لما علمناه في كتابنا، وعلى الوجه الذي تلوناه فيه؟!.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿يُؤْتَوْنَ﴾ ويعطون ﴿أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ أي: ضعفين؛ أي: مرة على الإيمان السابق بالقرآن وبمحمد ﷺ بمقتضى ما ثبت في كتابهم، ومرة على الإيمان اللاحق بعدما عاينوا ما وصف لهم في كتابهم، وإنما ضوعفوا ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ وثبتوا على ما نزل عليه من قبل الحق، ولم يتركوا امتثاله سابقًا ولاحقًا بواسطة دوامهم وثباتهم على الأمر أو في كتابه ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ أي: يدفعون ويسقطون ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ أي: الخصلة الحميدة الموجبة لأنواع الإفضال والإنعام ﴿السَّيِّئَةَ﴾ الجالبة لأنواع العذاب والخذلان ﴿وَ﴾ هم أيضًا من كمال اتصافهم بالكمال والإحسان ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وأقدرناهم على كسبه ﴿يُنفِقُونَ﴾ [القصص:54] في سبيلنا؛ طلبًا لمرضاتنا.

﴿وَ﴾ من كمال تحفظهم، وصيانتهم نفوسهم عن نواهينا ﴿إِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ أي: الكلام الخالي عن المصلحة الدينية ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ اتقاءً وتحرزًا عن وصمة المداهنة والمراضاة بما لا يرضى منه سبحانه ﴿وَقَالُوا﴾ من سلامة نفوسهم، وكمال علمهم

للمرتكبين بعدما لم يقدروا على نهيهم: ﴿لَنَا﴾ جزاء ﴿أَعْمَالُنَا﴾ التي اقترفناها بسعينا واجتهادنا ﴿وَلَكُمْ﴾ جزاء ﴿أَعْمَالُكُمْ﴾ التي أنتم عليها مصرين، وقالوا لهم حين توديعهم والذب عنهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سلمكم الله العفو الرحيم عن عوائد ما كنتم عليه ووفقكم على التوبة والإنابة، وما لنا معكم مطالبة ومجادلة سوى إنَّا ﴿لَا نَبْتَغِي﴾ ولا نطلب مصاحبة ﴿الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص:55] بسوء عواقب الخصائل الغير المرضية عند الله وعند خالص عباده.

ثمّ لمّا احتضر أبو طالب، ودنا أن يخرج من الدنيا جاءه الرسول ﷺ مهتمًا بإيمانه وتوحيده، فقال له: «قل يا عمِّ مرة: لا إله إلا الله، أحاج بها لك عند ربي، وأخرجك بها عن زمرة المشركين»[1] قال: يا ابن أخي، والله إني علمت إنك لصادق في جميع ما جئت به، لكن أكره أن يقال: جزع أبو طالب عند الموت؛ أي: ضعف وجبن.

أنزل سبحانه هذه الآية؛ تأديبًا لحبيبه ﷺ، وردعًا عن طلب شيء لا يُعرف حصوله، فقال: ﴿إِنَّكَ﴾ يا أكمل الرسل من شدة حرصك واهتمامك ﴿لَا تَهْدِي﴾ وترشد إلى طريق الحق، وسبيل التوحيد كل ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وأردت إيمانه ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على استعدادات عباده ﴿يَهْدِي﴾ ويوفق على الإيمان والإطاعة بدين الإسلام ﴿مَن يَشَاءُ﴾ هدايته، وأثبت سعادته وتوحيده في لوح قضائه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:56] من عباده بعد أن بلغت لهم ما أمرك الحق بتبليغه، وما عليك إلا البلاغ، والهداية والرشاد إنما هو بإرادته سبحانه واختياره.

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [القصص:57-59].

ومن الأعراب قوم جاءوا إلى رسول الله ﷺ ﴿وَقَالُوا﴾: إنَّا قد علمنا يقينًا أنك

(1) رواه أحمد في «مسنده» (462/51).

على الحق والهداية والرشاد، لكن ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ﴾ ونؤمن بك ونعمل بدينك، واتبعناك بجميع ما جئت به من عند ربك على الوجه الذي اعتقدناك ﴿نُتَخَطَّفْ﴾ ونُخرج ﴿مِنْ أَرْضِنَا﴾ التي كنا مستقرين عليها بمخالفتنا العرب؛ إذ نحن أكلة رأس متفقين، ومتى خالفناهم في أمر لم يرضوا عليه أخرجونا من بينهم صاغرين مهانين، فرد الله عليه سبحانه عذرهم هذا بقوله:

﴿أَ﴾ يخافون أولئك الخائفون ﴿وَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ﴾ في ما مضى، ولم نجعل مكانهم الذي يستقرون فيه ﴿حَرَمًا﴾ ذا حرمة عظيمة ﴿آمِنًا﴾[1] ذا أمن من جميع المكروهات، جالبًا لأنواع الخيرات والبركات؛ إذ ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ﴾ ويجمع فيه، ويحمل نحوه ﴿ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: نفائسه من كل أمد بعيد، وفج عميق؛ ليكون ﴿رِزْقًا﴾ لهم سابقًا ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ إياهم؟! ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ المجبولين على الجهل والنسيان ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص:57] كمال لطفنا معهم، ووفور نعمتنا ورحمتنا إياهم.

﴿وَ﴾ قل لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنّا: لا تغرنّكم الحياة الدنيا، وإمهالنا إياكم فيها مترفهين متنعمين؛ إذ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ أي: كثيرًا أهلكنا أهل قرية قد ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: كان أهلها بطرين بسعة عيشها، ووفور معيشتها أمثالكم فدار عليهم الدول، فأخذناهم بأنواع النقم بدل نعمهم، فأهلكناهم واستأصلناهم صاغرين؟! ﴿فَتِلْكَ﴾ الأطلال الخربة، والآثار الكربة التي تجاه وجوهكم ﴿مَسَاكِنُهُمْ﴾ وأوطانهم التي يتمكنون فيها مترفهين بطرين، انظر كيف اندرست وتفتتت إلى حيث ﴿لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ﴾ في بلادهم وأماكنهم.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من أهل السفر والعبور ينزلون فيه، ويرحلون بلا إقامة فيها ووراثة لها، وهكذا الدنيا وحياتها، والاستقرار عليها والتمتع بمتاعها عند العارف المتحقق بحقيقتها ﴿وَ﴾ بعدما أهلكناهم، وخربنا بلادهم ﴿كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص:58]

---

(1) وقال الشيخ روزبهان: حرمهم بالحقيقة قلب محمد ﷺ، وهو كعبة القدس، وحرم الأنس، وسرادق مجد تجلي جلاله، وجماله يجبى إليه ثمرات جميع أشجار الذات والصفات، من دخل ذلك الحرم بشرط المحبة والموافقة كان آمنا من آفات الكونين والعالمين، وكان منظور الحق في العالم، وهكذا كل من دخل في قلب وليّ من أوليائه، وقلب العارف حرم المراقبات والمشاهدات، من دفع عنه خاطر الوسواس والهواجس يجبى إليه من أشجار الأنوار ثمرات الأسرار. [العرائس].

منهم، حيث لا نمكن فيها خلفًا من أبناء نوعهم من شؤم آثارهم ومعاصيهم التي كانوا عليها مصرين غير ممتنعين، وإن أرسلنا عليهم الرسل، وأنزلنا عليهم الكتب.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ وما ينبغي ويليق بشأن العليم الحكيم أخذهم بغتةً بلا منبه منذر، بل ما أخذهم على ظلمهم ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا﴾ أي: البلدة التي هي أم القرى الهالكة؛ إذ أهلها قبل المرشد والهداية من أصحاب القرى والنواحي، وهم تابعون لهم في معظم أمورهم ﴿رَسُولاً﴾ مؤيَّدًا من عندنا، مرسلاً إليهم ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على عظيم ذاتنا، وكمال قدرتنا على الإنعام والانتقام، ويدعوهم إلى توحيدنا والتدين بالدين الموضوع من عندنا، فتلا عليهم آياتنا فدعاهم إلى توحيدنا وديننا، فلم يقبلوا قوله ولم يستجيبوا له، بل كذبوه وجميع ما جاء به من الرشد والهداية مصرين على ما هم عليه من الغواية، فاستحقوا الهلاك والعذاب فأهلكناهم.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص:59] يعني: ما كنا مبادرين على إهلاك القرى الهالكة بلا سبق أسباب صدرت عنهم، واستوجبت هلاكهم، بل إنما أخذناهم بعدما ظلموا أنفسهم بالخروج عن مقتضى حدودنا الموضوعة فيها ظلمًا وعدوانًا، وصاروا مصرين مباهين بما آتيناهم من زخرفة الدنيا المستعارة الفانية التي ألهاهم عن اللذائذ الأخروية الباقية فيهم.

﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣)﴾ [القصص:60-63].

﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ في هذه النشأة ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الدنية التي هي على طرف التمام، مشرفة على التقضي والانصرام ﴿وَزِينَتُهَا﴾ الزائلة الذاهبة بلا قرار ولا دوام ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من المعارف والحقائق، والمكاشفات والمشاهدات لأرباب المراتب العلية، والمناصب السنية من المنقطعين نحو الحق بعد انخلاعهم عن لوازم هوياتهم البشرية الفائضة عن التلذذ باللذات الروحانية ﴿خَيْرٌ﴾ لا

يتخلل بينه شيء، ولا يعرضه ضر ﴿وَأَبْقَى﴾ إذ لا يلحقه انصرام ولا انقضاء، ولا زوال ولا فناء ﴿أَ﴾ تستبدلون أيها الحمقى الأدنى الفاني بالأعلى الباقي، وتختارون اللذة الجسمانية على اللذات الروحانية ﴿فَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص:60] ولا تستعملون عقولكم الموهوبة بمقتضاها؛ ليتميز عندكم ما هو الأليق بحالكم، والأولى بمآلكم؟!.

﴿أَ﴾ تسوون الأجل الباقي بالعاجل الزائد الفاني، مع أن الكل من عندنا وتحت قدرتنا ﴿فَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾[1] أي: موعدًا ذا حسن وكرامة، وبهجة وبهاء ﴿فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ أي: مدركه وموصله إليه؛ إذ لا خلف لوعدنا، أتظنون وتعتقدون أيها الجاهلون أن منزلة هذا السعيد الموفق على السعادة من عندنا ﴿كَمَن مَّتَّعْنَاهُ﴾ في هذه النشأة ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مكدرة بأنواع الكدورات، مشوبة بالآلام والحسرات، منغمسة بالخبائث والقاذورات ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بعد انقراض النشأة الأولى ﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص:61] للحساب والجزاء على ما تمتعوا في النشأة الأولى؟!.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن أشرك بالله، وأثبت له شريكًا في الوجود سواه ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الله المتعزز برداء العظمة والكبرياء حين ظهر على مظاهره باسم القهار، المفني لأظلال السوى والأغيار مطلقًا ﴿فَيَقُولُ﴾ على مقتضى غيرته وجلاله مخاطبًا لمن أشرك به شيئًا من عكوسه وأظلاله، مع أن الكل حينئذٍ مطموس مقهور تحت حوله وقدرته: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:62] أيها المشركون شركائي، وتعبدونهم كعبادتي عدوانًا وظلمًا؟! ثمّ أظهرهم الحق وأوجدهم؛ أي: التابعين والمتبوعين جميعًا بعدما قهرهم وعذبهم جميعًا؛ إظهارًا للقدرة الكاملة، وإلزامًا للحجة البالغة.

وبعدما أظهرهم وسأل عنهم ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ﴾ أي: ثبت وتوجه ﴿عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾

---

(1) قوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ الوعد الحسن: هو الوعد بالجنة، والوعد الأحسن هو الوعد بالرؤية، والموعود له من المؤمن بالإيمان الرسمي، فهو لاقيه يوم القيامة؛ لأنها جنة غير معجّلة، والموعود له هو المؤمن بالإيمان الحقيقي فهو لاقيه في الدنيا؛ لأن قيامة العارفين دائمة، وهذا الوعد مطلقًا مما يقتضيه استعداد كل من الأبرار والمقرّبين، فلا يتخطّى أحدهم حدّ الآخر بحكم اسم العدل دون الفضل؛ لكن فرق بين حالة وحالة، فإن الأبرار، وإن كانوا يرون ربهم؛ لكن ذلك في الآخرة لا في الدنيا، وكذا في الأسبوع مرة لا في كل لحظة، كما هو شأن المقربين؛ لأنه لا حجاب لهم أصلاً، كما دلّ عليه قوله: «وصنف لا يتستر الرب عنهم، وذلك من نتائج شهودهم في الدنيا بالبصيرة».

أي: السؤال من الله، وهم الشياطين المعبودون مناجين نحو الحق، متضرعين قائلين: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على فطرة التوحيد، كيف صدر منّا أمثال هذه الجرأة؟! بل ﴿هَؤُلَاءِ﴾ الغواة الهالكون في تيه الغي والضلال هم ﴿الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ عن منهج الاستقامة والسداد بأنواع التذلل والانقياد، والإطاعة والعبادة إيانا على مقتضى أهويتهم الفاسدة، وآرائهم الباطلة، مع أنَّا لا نستحق بها على توهم منهم إنَّا قادرون على إنجاح ما في نفوسهم من الأماني والشهوات.

ونحن أيضًا ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ﴾ بأنواع التغرير والتضليل ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ هؤلاء إيانا بعبادتهم وطاعتهم نحونا، فتعارض إغواؤنا بإغوائهم، وحين ظهر الحق تساقطا، فالآن ﴿تَبَرَّأْنَا﴾ عنهم وعن عبادتهم، والتجأنا ﴿إِلَيْكَ﴾ تائبين آيبين، مع أنهم ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص:63] حين ادعوا عبادتنا، بل إنما عبدوا أهوية نفوسهم، وأماني قلوبهم، وتوسلوا بنا فيها، والعابدون أيضًا يتبرؤون عن معبوداتهم بأشد من ذلك.

﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [القصص:64-70].

﴿وَقِيلَ﴾ حينئذٍ من قِبَل الحق للمشركين: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الذين تطمعون وتدعون شفاعتهم لكم ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ صائحين متضرعين ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ من كمال عجزهم وحيرتهم في أمر أنفسهم ﴿وَ﴾ بعدما ﴿رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ النازل على أربابهم قالوا متمنين على سبيل التلهف والتحسر: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [القصص:64] في النشأة الأولى لينقذوا أنفسهم من العذاب اليوم، فكيف إنقاذهم بنا؟!.

﴿وَ﴾ بعدما سأل سبحانه عن شركهم سألهم عن تكذيب رسله، اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الحق ﴿فَيَقُولُ﴾ سبحانه معاتبًا إياهم: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:65] حين دعوتكم إلى الإيمان والتوحيد، والعمل الصالح

والاجتناب عن المحظورات وترك المنكرات ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: ضلوا وتحيروا عن جميع طرق الكلام، وسُدت عليهم سبل الأجوبة والإخبار مطلقًا؛ وذلك من كمال دهشتهم وحيرتهم، وشدة عمههم وسكرتهم ﴿فَهُمْ﴾ يومئذٍ من غاية ولههم وحيرتهم ﴿لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [القصص:66] ولا يتقاولون؛ أي: لا يسأل بعضهم بعضًا حتى يعلمه، بل كلهم حينئذٍ حيارى سكارى، تائهين هائمين، لا يُسمع لهم ولا يتأتى منهم الالتفات والتلقي أصلاً.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ عمّا جرى عليه من المعاصي ﴿وَآمَنَ﴾ بالله على مقتضى ما أمرهم الحق بلسان رسله وأنبيائه ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ امتثالاً لما نطق به الكتب والرسل ﴿فَعَسَى أَن يَكُونَ﴾ هذا السعيد ﴿مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص:67] الفائزين بالمثوبة العظمى والدرجة العليا عند الله، ومن المبشرين من عنده بشرف اللقاء، والوصول إلى دار البقاء.

﴿وَرَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿يَخْلُقُ﴾ ويُظهر بمقتضى تجلياته الحبية الجمالية جميع ﴿مَا يَشَاءُ﴾ من المظاهر ﴿وَيَخْتَارُ﴾[1] منها ما يختار، فالكل مجبور تحت قدرته ومشيئته ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صح وثبت ﴿لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أي: التخير والاختيار؛ حتى يريدوا لأنفسهم ما هو الأصلح لهم، بل جميع شئونهم وأمورهم مفوضة إلى الله أولاً وبالذات، وهم مقهورون مجبورون تحت حكمه وقضائه، وكيف لا يكونوا مجبورين؛ إذ هم من عكوس أسمائه وظلال أوصافه، ما لهم وجود في أنفسهم، وتحقق في ذواتهم؟! ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ المنزه عن المثل والشبيه ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: 68] من الشريك والنظير.

---

(1) قال في التأويلات: يشير إلى مشيئته الأزلية في الخلق والاختيار في خلق، وإنه مختار يخلق ما يشاء كيف يشاء ثم يشاء ولا يشاء متى يشاء وله الاختيار في خلق الأشياء، فيختار وجود بعض الأشياء على عدمه فيوجده، ويختار عدم بعض الأشياء على وجوده فيعدم، ويختار بقاء بعض الأشياء في الوجود فيجعله باقيًا ولا يفنيه، ويختار بعض الأشياء في العدم فينشئه فانيًا في العدم ولا يوجده، وله الخيرة في أن: يخلق بعض الأشياء جمادًا وبعض الأشياء نباتًا وبعض الأشياء حيوانًا وبعض الأشياء إنسانًا. وأن يخلق: بعض الإنسان كافرًا وبعض الإنسان مؤمنًا وبعضهم وليًا وبعضهم نبيًا وبعضهم رسولاً. وأن يخلق: بعض الأشياء شيطانًا وبعضها جنًا وبعضها ملكًا وبعض الملك كروبيًا وبعضهم روحًا، وله أن يختار: بعض الخلق مقبولًا وبعضهم مردودًا وليس لشيء من هذه الأشياء اختيار فيما هو به ولا أن يكون شيئًا آخر بعدما اختار له الله.

﴿وَرَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا تُكِنُّ﴾ وتخفي ﴿صُدُورُهُمْ﴾ أي: ضمائرهم وقلوبهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[1] [القصص:69] بجوارحهم وآلاتهم.

﴿وَ﴾ كيف يخفى عليه شيء؛ إذ ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ الواجب لذاته، المستقل في وجوده وظهوره على عروش عموم مظاهره ومصنوعاته بالاستقلال التام والاستيلاء الكامل ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ في الوجود سواه، ولا عالم لما ظهر وبطن ﴿إِلَّا هُوَ﴾ لذلك ثبت ﴿لَهُ الْحَمْدُ﴾ والثناء من ألسنة ذرائر الأكوان، وجميع من رش عليه من رشحات جوده ولمعات وجوده ﴿فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ من نشأتي الظهور والخفاء، والبروز والكمون، والقبض والبسط ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ والأمر في الصعود والهبوط، والنزول والعروج، وجميع الشئون والتطورات ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره؛ إذ لا غير في الوجود ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:70] وتُحشرون، كما أن منه تُبدؤون وتُنشؤون؟!.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ

(1) يشير إلى مكنونات الأوصاف النفسانية والأوصاف القلبية والأوصاف السرية والأوصاف العقلية والأوصاف الروحية، فإنه هو الذي أودع في وجود هذه الودائع حين خمر طينة آدم بيده أربعين صباحًا فهو العالم الخبير به، كما قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:14] هو الخبير بما أودع فيه من الأوصاف وهي على ضروب ثلاثة: ضرب منها: ما هو فيه بالقوة ولم يحصل فيه بالفعل فلا يطلع عليه صاحبه إلا بعد حصوله بالفعل فيظهر فيه داعية استعمال فيطبع عليه أن فيه هذه القصة وإن لم يستعملها حتى يصير علنًا فيبقى فيه سرًا مكنونًا فالله يعلم سره وعلانيته، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ [القصص:69] أي: ما يخفون ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص:69] أي: ما يظهرون. والضرب الثاني: منها ما قد حصل فيه بالفعل ويظهر عليه بما يحضر بباله داعية استعمال في العلن وإن لم يعلنه. والضرب الثالث: منها ما يعلنه بالاستعمال في الظاهر ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ﴾ يصلح للألوهية ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وهو المتفرد بعز الهيبة والمنفرد بجلال ربوبية لا شبيه يساويه ولا نظير يضاهيه، ﴿لَهُ الْحَمْدُ﴾ [القصص:70] استحقاقًا على عظمته والشكر استحبابًا على نعمه ففي الدنيا المحمود الله، وفي العقبى الشكور الله. [التأويلات].

جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص: 71-73].

ثمَّ أشار سبحانه إلى معظم ما أنعم على عباده من تجدد الملوين، وتعاقب الجديدين امتنانًا لهم، وحثًا على مواظبة شكره ومداومة ذكره، والتذكر بإحسانه وإنعامه، وتعريضًا للمشركين، فقال آمرًا لحبيبه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للناس الناسين توالي نعمنا المترادفة مستفهمًا إياهم، مستخبرًا منهم على سبيل التنبيه والتذكير: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني أيها المغمورون بنعمي ﴿إِن جَعَلَ اللَّهُ﴾ المحول للأحوال، المدبر لجميع التدابير ﴿عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ﴾ المظلم ﴿سَرْمَدًا﴾ ممتدًا مستمرًا بلا تخلل ضوء بينه ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ﴾ قادر على إيجاد الضوء في خلال الظلمة ﴿غَيْرُ اللَّهِ﴾ على زعمكم الفاسد ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ تفوزون إلى أمور معاشكم بسببها ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص:71] أمثال هذه التذكيرات ولا تفهمون معناها، ولا تستكشفون عن الحكم والمصالح المدرجة فيها أيها المجبولون على الفهم والاستكشاف؟!.

ثم قال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ﴾ المصلح لجميع حالاتكم ﴿عَلَيْكُمُ النَّهَارَ﴾ المضيء ﴿سَرْمَدًا﴾ مستمرًا دائمًا بلا لحوق ما يضاده ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد، المستقل بالألوهية والربوبية ﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ وتستريحون من تعبكم اللاحق من أشغالكم ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:72] آلاء الله الفائضة عليكم على التعاقب والتوالي؛ لإصلاح أحوالكم ليلاً ونهارًا؛ حتى تواظبوا على شكرها، وتداوموا لأداء حقها سرًا وجهارًا؟!.

﴿وَمِن﴾ كمال ﴿رَّحْمَتِهِ﴾ ووفور مرحمته ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ متجددين متعاقبين ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي: في الليل، وتستريحوا عما عرض عليكم في النهار من المتاعب والمشاق ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ وتطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وسعة جوده في النهار ﴿وَ﴾ إنما أفاض عليكم كل ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:73] نعمه سبحانه؛ كي تفوزوا إلى ما أعد لكم من موائد كرمه، ولا تشركوا معه شيئًا من مظاهره ومصنوعاته، ولا تنظروا إلى الوسائل والأسباب العادية، ولا تنسبوا الأفعال الحادثة في الآفاق على غيره سبحانه، بل نزهوه عن مطلق المشاركة والمماثلة، وقدسوه عن جميع ما لا يليق بشأنه.

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن

كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص:74-77].

﴿وَ﴾ اذكر للمشركين أيضًا يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الحق ﴿فَيَقُولُ﴾ مغاضبًا عليهم، مستفهمًا على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:74] أيها الحمقى شركاء معي، أحضروهم حتى يظهر الحق، ويقمع الباطل الزاهق الزائل.

﴿وَ﴾ بعدما بهتوا وسكتوا من الجواب ﴿نَزَعْنَا﴾ وأخرجنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهد عليهم جميع ما صدر عنهم وجرى عليهم في دار الاختبار، والشهيد هو النبي المبعوث إليهم حين انحرافهم عن سبيل الاستقامة ﴿فَقُلْنَا﴾ للأمم بعد نزع شهدائهم: ﴿هَاتُوا﴾ أيها الضالون ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: مستندكم ودليلكم الذي أنتم تضلون لأجله وتشركون بسببه، وتنحرفون عن جادة العدالة وسبيل السلامة بمتابعته ﴿فَعَلِمُوا﴾ حينئذٍ ﴿أَنَّ الْحَقَّ﴾ أي: اللياقة والاستحقاق على العبادة ﴿لِلَّهِ﴾ الحقيق بالحقية، الجدير بالألوهية اللائق بالربوبية، ليس كمثله شيء يُعبد له ويُرجع إليه ﴿وَ﴾ بعدما جاء الحق وزهق الباطل ﴿ضَلَّ﴾ أي: غاب وخفي حينئذٍ ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص:75] المعبودية إليه وينسبون الألوهية والربوبية نحوه جهلاً وعنادًا، ويدعون اشتراكه مع الله في استحقاق العبادة والرجوع إليه لدى الحاجة.

ثمّ قال سبحانه تذكيرًا للمؤمنين وعبرةً لهم عن تفظيع حال من تكبر على الله، وعتا على كليمه، وخرج عن ربقة الإيمان وقلادة الإخلاص معه؛ بسبب ما بسط الله عليه من حطام الدنيا ومن زخرفاتها ابتلاءً وفتنةً: ﴿إِنَّ قَارُونَ﴾ المتجبر المتكبر الذي ظهر على الله وعلى رسوله مفتخرًا بماله وجاهه ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ أي: من جملة من آمن له وصدّقه، قيل: هو ابن عمته، وقيل: ابن خالته، وكان أميرًا بين بني إسرائيل قد أمّره عليهم فرعون، وبعدما ظهر موسى وهارون فآمن له وحفظ التوراة وأحسن

حفظه إلى حيث يقرؤه عن ظهر القلب، ثمّ لمّا استولى موسى وأخوه على مملكة العمالقة، وانقرض الفراعنة رأسًا حسدهما قارون، وأنكر جاههما إتكاءً بما عنده من الكنوز، فقال يومًا لموسى: لك الرسالة ولأخيك الحبور، وأنا في غير شيءٍ إلى متى أصبر؟! ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ وقصد مغالبتهم.

﴿وَ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿آتَيْنَاهُ﴾ وأعطينا له مكرًا له، وافتتانًا عليه ﴿مِنَ الْكُنُوزِ﴾ أي: الأموال التي عهد ادخارها من الذهب والفضة وغيرها، وبلغت من الكثرة إلى ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ أي: إلى حد مفاتح أقفال مخازنه، وأقفال الصناديق الموضوعة فيها المختومة المقفولة ﴿لَتَنُوءُ﴾ وتثقل من كثرتها ﴿بِالْعُصْبَةِ﴾ أي: الجماعة الكثيرة من الحفظة، مع أنهم من ﴿أُولِي الْقُوَّةِ﴾ أقوياء على حمل الثقيل جدًا، وكان مفتخرًا بها بطرًا، فرحانًا يمشي على وجه الأرض خيلاء ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ أي: بعض منهم من أقربائه وقرنائه بعدما أبصروا بطره المفرط نهيًا له، وتشنيعًا عليه، وحثًا له على الإنفاق والصرف في سبيل الخيرات: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ بما عندك من الزخرفة الفانية فإنها عن قريب ستفوت، وأخرجها من قلبك ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: 76] منهم، سيما بحطام الدنيا ومزخرفاتها الملهية عن اللذات الروحانية.

﴿وَابْتَغِ﴾ واطلب ﴿فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ﴾ المنعم المفضل من الرزق الصوري الزائل الغير القار ﴿الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي: الرزق المعنوي القار، المسمى في دار القرار، وذلك لا يحصل لك إلا بإنفاق ما في يدك من الرزق الصوري في سبيل الله للفقراء؛ طلبًا لمرضاته بلا شوب المنّ والأذى، وسدِّ الثغور وبناء القناطير والخانات، والمساجد وبقاع الخيرات، وغير ذلك من الأمور المتعلقة لعموم مصالح العباد والتسهيل عليهم ورفع العسرة عنهم ﴿وَ﴾ إن أردت أن تكون من أهل الثروة والجاه المخلد في النشأتين ﴿لَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ وهو الاجتهاد في مرتبة الاستخلاف والنيابة على مقتضى كريمة: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ..﴾ [الحديد: 7].

إذ العبد وما في يده لمولاه، والتصرفات الحادثة في عالم الكون والفساد إنما هي مستندة إلى الله أولاً بالذات ﴿وَ﴾ بعدما علمت ما هو نصيبك وحظك من دنياك؛ وما معك منه في أخراك إلا الإحسان والإنفاق ﴿أَحْسِنْ﴾ مما جعلك الحق خليفةً عليه ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ﴾ أي: لا تطلب ﴿الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ اتكالاً على ما في يدك من أسبابه التي هي الأموال المؤدية إلى أصناف الفسادات، وارتكاب أنواع

المحذورات والمنهيات ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لجميع حالات عباده ﴿لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:77] منهم، سيما بمظاهرة حطام الدنيا الدنيّة.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠)﴾ [القصص:78-80].

وبعدما سمع قارون منهم المواعظ والتذكيرات المتعلقة بإصلاح حاله، النافعة له في الأولى والأخرى أعرض عنهم وعن مقالهم عتوًا واستكبارًا، حيث ﴿قَالَ﴾ مستعظمًا بشأنه، مستبدًا برأيه: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ أي: ما أوتيت بما أوتيت من الرزق الصوري إلا ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ حاصلٍ ﴿عِندِي﴾ يعني: منشأ إتيان المال عليّ وحصولها عندي اتصافي بعلم كامل موجب لحصولها وتحصيلها؛ أي: ما هي وجمعها إلا بحولي وقوتي وعلمي بطرق تحصيلها.

إنما قال هذا بطرًا واستغناءً، وكبرًا وخيلاءً، وقيل: إنه عالم بعلم الكيمياء، قال سبحانه ردًا عليه على سبيل التعيير والتوبيخ: ﴿أَ﴾ يتفوه ويقول هذا الطاغي الباغي الهالك في تيه الغي والضلال أمثال هذه الخرافات ﴿وَ لَمْ يَعْلَمْ﴾ بالتواتر ومطالعة كتب التواريخ، ومن القصص المثبتة في التوراة ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿قَدْ أَهْلَكَ﴾ واستأصل كثيرًا ﴿مِن قَبْلِهِ مِنَ﴾ أهل ﴿الْقُرُونِ﴾ الماضية ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ بحسب الأولاد والأتباع ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ لحطام الدنيا، أما يستحي هذا الطاغي المسرف يظهر على الله، ولم يخف من بطشه وانتقامه بغتةً ﴿وَ﴾ من سرعة نفوذ قضاء الله وقت إرادة إنفاذه عند الغضب على أعدائه ﴿لَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:78] إذ اطلاعه سبحانه بحالهم وضلالهم يكفي في انتقامهم، فلا يحتاج إلى سؤالهم؟!.

وبعدما ذكروا عنده من الزواجر والعبر فلم ينزجر ولم يعتبر، بل ما زاد إلا بطرًا وخيلاءً ﴿فَخَرَجَ﴾ يومًا من الأيام من بيته مباهيًا ﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾ مستكبرًا عليهم، مستغرقًا

﴿فِي زِينَتِهِ﴾ الكاملة؛ إذ هو على بغلة شهباء . هي الأبلق الذي كثر بياضه على سواده . وعليه ثياب فاخرة حمرٌ كلها تسر الناظر إليها؛ من صفاء لونها وبهائها، وعلى البغلة سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زيِّه، وقيل: تسعون ألفًا على زيِّه، وعلى خيولهم ومراكبهم أيضًا لبسة حمراء، فخرج الناس معه صافين حوله، ناظرين نحوه، متعجبين من حاله، متمنين من الله رتبته، حيث ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وزينتها، وهمهم مقصور إليها، وغاية متمناهم حصول مثلها لهم: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا﴾ من حظوظ الدنيا ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1] [القصص:79] ونصيبٍ كامل من الدنيا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ اللدني والمعرفة الكاملة وبالنشأة الأخرى؛ ردًا عليهم وإزالةً لحسرتهم، وردعًا لهم عن متمناهم على أبلغ وجه وآكده: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أي: يلزمكم ويلكم، ويحل عليكم هلاككم أيها القاصرون عن معرفة الحق، وما يترتب عليها من المكاشفات والمشاهدات التي ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، بل ﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾ المحسن المفضل، ورضاه من عبده ﴿خَيْرٌ﴾ من الدنيا وما فيها من أضعافها وآلافها ﴿لِمَنْ آمَنَ﴾ له احتسابًا على نفسه ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: قرنَ إيمانه بالعمل الصالح إحسانًا منه بالنسبة إليه سبحانه، وطلبًا لمرضاته ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا يُلَقَّاهَا﴾ أي: لا يصل إلى هذه المثوبة العظمى، والدرجة العليا التي أعدها الله لعباده ﴿إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص:80] على ما جرى عليهم من البليات، وعلى مشاق الطاعات ومتاعب العبادات، والرضا بما أعطاهم الحق ورزقهم من الحظوظ بلا تمنٍ منهم، ولا تحسرٍ إلى مرتبة أحد من أصحاب الجاه والثروة، بل هم بما عندهم راضون، وبما أعطاهم الحق على مقتضى قسمته الأزلية متمكنون مطمئنون، ألا أنهم هم المؤمنون حقًا وأولئك الفائزون المفلحون؟!.

ربنا اجعلنا من زمرتهم بمنِّك العظيم وجودك الكريم.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ

(1) قال نجم الدين: من نعيم الدنيا وزينتها وإنما وقع نظرهم على عظمة الدنيا وزينتها مع دناءتها وخستها وهوانها وقلة متاعها؛ لأنه اعتل بعلة سبب حب الدنيا وزينتها المولد من تراكم شهوات ظلمات صفات النفس بعضها فوق بعض فهم ينظرون بنظر ظلمات صفات النفس بعد أن كانوا ينظرون بنظر نور صفات القلب ويبصرون عزة الآخرة وعظمتها وخسة الدنيا وهوانها، فإن الرضاع يغير الطباع.

ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [القصص: 81-84].

وبعدما أمهلناه زمانًا، ورفهناه نشطًا فرحانًا، أخذناه غضبانًا ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾[1] قلقًا حيرانًا؛ يعني: طبقنا الأرض عليه وعلى أمواله وخزائنه بعدما أخذتها وابتلعتها امتثالاً لأمر موسى الكليم ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ وذلك أنه كان يؤذي موسى دائمًا حسدًا عليه، وكان موسى يداريه صيانةً لقرابته.

ثمّ لمّا نزلت الزكاة صالح معه من كل ألِف بواحدة من أي جنس كان فحاسبه، فبلغ مبلغًا عظيمًا فاستكثره فمنعه، فعمد إلى أن يفضح موسى بين بني إسرائيل بغيًا عليه وعدوانًا فبرطل بغيّة، وأعطى لها رشوة؛ لترمي موسى بنفسها.

فلمّا كان يوم عيدٍ قام موسى خطيبًا، فقال في خطبته: من سرق قطعناه، ومن زنى غير محصن جلدناه، ومن زنى محصنًا رجمناه، فقال قارون: ولو أنت يا موسى، قال: ولو كنت أنا؟! قال: إن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت مع فلانة، قال موسى: فأحضروها فأُحضرت، فناشدها موسى بالله الذي فلق البحر، وأنزل التوراة أن تصدق، فقالت بإلقاء الله في قلبها كرامةً لموسى، وتنزيهًا له عمّا لا يليق بشأنه، وتفضيحًا لقارون: جعل لي قارون جعلاً كذا؛ على أن أرميك بنفسي، فخر موسى ساجدًا، فقال في سجدته: إلهي إن كنت نبيك ورسولك فانصرني واخذل عدوي، فأوحى الله في سجدته: أن مُر الأرض أي شيء شئت، فتجيبك يا موسى.

فرفع رأسه من سجدته مرتعدًا غيورًا غضبانًا، فقال: يا أرض خذيه فابتلعته على

---

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن حاصل قارون النفس إذا بغى على موسى القلب وصفاته وخرج عن المتابعة وعن زينة الحياة الدنيا واستيفاء لذاتها وشهواتها ومتابعًا لهواه أن يخسف به الأرض أرض دركات السفل وأسفل سافلين النار ثم يخسف بداره وداره قالبه والأرض أرض جهنم فيها خالدين أبدًا.

الفور إلى ركبته، فأخذ يتضرع: يا موسى ارحمني! فأنا قرابتك، ثمّ قال موسى مغاضبًا على الأرض: خذيه! فأخذته إلى وسطه، فازداد في تضرعه وتفزعه، ثمّ قال: خذيه! فأخذته إلى عنقه، فتضرع وصرخ نحو موسى من أول أخذه إلى خسفه سبعين مرة لم يرحم عليه، ثمّ قال: خذيه! فخسفت به وطبقت عليه، فلم يرحمه حتى عاتبه سبحانه: ما أفظّك يا موسى! حتى استرحمك سبعين مرة فلم ترعه، فوعزتي وجلالي: لو دعاني مرة لأجبته.

وبعدما خُسف قارون قال بنو إسرائيل: إنما قتله ليرث أمواله، فأشعر بهم موسى فأمر الأرض بخسف داره وأمواله وخزائنه إلى حيث لم يبق من منسوباته شيء على وجه الأرض ﴿فَمَا كَانَ لَهُ﴾ حينئذٍ ﴿مِن فِئَةٍ﴾ أعوانٍ وأنصارٍ ﴿يَنصُرُونَهُ﴾ ويدفعون عذاب الله عنه ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ القادر المقتدر على دفع أمثاله، وهو بريء من الله ﴿وَ﴾ هو غير ملتجئ إليه ومتضرع نحوه؛ ولذلك ﴿مَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:81] الممتنعين من العذاب لا بنفسه ولا بمعاونيه وأنصاره.

وبعدما خُسف قارون بشؤم أمواله التي جعلها وسيلة إلى أنواع الفسادات، من جملتها: رمي كليم الله وخُلَّص رسله بالزنا التي هي بمراحل عن طهارة ذيله ونجابة طينته؛ إذ الأنبياء كلهم معصومون عن الكبائر مطلقًا.

﴿وَأَصْبَحَ﴾ الفقراء ﴿الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ﴾ ومنزلته ﴿بِالأَمْسِ﴾ أي: الزمان الذي هو أقرب زمن بخسفه، متحسرين بما عنده من الثروة والجاه، أخذوا ﴿يَقُولُونَ﴾ متمنين على عكس متمناهم السابق، متعجبين من كمال علم الله ومتانة حكمته، قائلين كل منهم لصاحبه: ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ المعنى على الانفصال بين «ويك» و«أن»، والاتصال بينهما إنما هو بمتابعة المصحف؛ يعني: ويل لك، وهلاكك لازم بمتمناك الذي تمنيته بالأمس، اعلم أن ﴿اللهَ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ بمقتضى حكمته ﴿لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ على مقتضى استعداداتهم ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقبض عن من يشاء أيضًا على وفق استعداده، وما لنا اطلاع على متانة علمه وحكمته ﴿لَوْلا أَن مَّنَّ اللهُ﴾ المصلح لمفاسدنا ﴿عَلَيْنَا﴾ بمنعنا عن متمناها ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ أيضًا من شؤم مبتغانا، مثل ما خسف قارون، وإنما منّ علينا ما منّ؛ لإيماننا به سبحانه، وإخلاصنا فيه ﴿وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص:82] ولا يفوزون بالنجاة عن عذابه سبحانه، بل يوفقهم سبحانه على ما يوقعهم في عذابه افتتانًا منه وانتقامًا.

ثمّ قال سبحانه تبشيرًا للمؤمنين المتواضعين، وتنشيطًا للمتقين الموقنين: ﴿تِلْكَ﴾ الجنة التي سمعت وصفها، وبلغك خيرها في كتب الله وألسنة رسله وأنبيائه وأوليائه المنكشفين بها، الفائزين بمقاماتها ﴿الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ أي: الموصوفة بهذه الصفة؛ إذ لا مقر لأهل الله سواها؛ لذلك سميت بها ﴿نَجْعَلُهَا﴾ بمقتضى فضلنا وجودنا مقرًا ﴿لِلَّذِينَ﴾ أي: للمؤمنين الموحدين الذين ﴿لَا يُرِيدُونَ﴾ من كمال حلمهم وعلمهم ﴿عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تفوقًا وتكبرًا على من عليها، ولا يمشون عليها خيلاء غافلين عن تزود الآخرة ﴿وَلَا﴾ يقصدون فيها ﴿فَسَادًا﴾ مؤديًا إلى هتك محارم الله والخروج عن مقتضى حدوده.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿الْعَاقِبَةُ﴾ الحميدة التي عبر بها عن الجنة ودار الآخرة، ودار السلام والخلد وغير ذلك من العبارات معدة مهيأة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:83] الذين يحفظون نفوسهم عن ارتكاب المنهيات والمحظورات مطلقًا، ويجتنبون عن جميع ما يؤدي إلى إسقاط المروءة رأسًا، ويتصفون بجميع ما جاء به الرسل ونطق به الكتب من الأمور المشعرة للهداية والصلاح، والفوز بالنجاح والفلاح، فأولئك السعداء المقبولون هم الواصلون إلى درجة القرب والشهود، الوالهون بشرف مطالعة لقاء الخلاق الودود.

ثمّ أشار سبحانه بشارة جميلة محتوية على أصول جميع المواعظ والتذكيرات المتعلقة لعموم مصالح عباده، فقال: ﴿مَن جَاءَ﴾ في النشأة الأولى ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ والخصلة المقبولة عند الله وعند عموم عباده ابتغاءً لمرضاته سبحانه، وأداءً لحقوق عباده ﴿فَلَهُ﴾ عند الله في النشأة الأخرى جزاءً عليها ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ وبأضعافها تفضلاً وإحسانًا ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ والخصلة الذميمة أيضًا فيها، المستقبحة عقلاً وشرعًا ﴿فَلَا يُجْزَى﴾ من قبل الحق في يوم الجزاء المسيئون ﴿الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ التي لا يرضى بها الله ولا خُلَّص عباده ﴿إِلَّا﴾ مثل ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص:84] عدلاً منه سبحانه.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ

هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص:85-88].

ثمّ لمّا اغتم رسول الله ﷺ حين هاجر من مكة بسبب مكر المشركين، فلما وصل إلى جحفة اشتد اشتياقه إلى مولده وموطن آبائه، وتحزن حزنًا شديدًا إلى حيث أراد أن يعود منها إليها، فنزلت تسليةً عليه ﷺ، وإزالةً لحزنه: ﴿إِنَّ﴾ القادر المقتدر ﴿الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ وقدر لك إنزاله، وأقدرك على الامتثال بجميع ما فيه من الأوامر والنواهي وكشف عليك ما فيه من الحقائق والمعارف، والرموز والإشارات المتعلقة بصفاء مشرب التوحيد، وذكر لك فيه القصص والعبر والأمثال إرشادًا لك إلى مقامك الذي وعدك الحق تفضلاً وامتنانًا، وسماه من عنده مقامًا محمودًا ﴿لَرَادُّكَ﴾ ومعاودك ﴿إِلَى مَعَادٍ﴾ معهود، هو مولدك وموطن آبائك وأسلافك على أحسن وجه وأكمله.

وبعدما عدت ورجعت إليه بعد هجرتك من بينهم أن أضلوك ونسبوك إلى ما لا يليق بشأنك ﴿قُل﴾ لهم على سبيل المجاراة: ﴿رَبِّي﴾ الذي وسع علمه كل شيء ﴿أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَن جَاءَ بِالْهُدَى﴾ منّا أنا أو أنتم ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [القصص:85] منّا ومنكم.

﴿وَ﴾ عليك يا أكمل الرسل أن تفوض أمورك إلينا اتكالاً علينا، واعتصامًا لحولنا وقوتنا، ولا تلتفت إلى المشركين وإيمانهم ولا تداريهم، ولا تك في رعبٍ منهم، إنّا كفيناك مؤنة شرورهم عنك.

إذ ﴿مَا كُنتَ تَرْجُو﴾ وتأمل ﴿أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ الجامع لفوائد جميع الكتب المنزلة من عندنا، لكن ما أنزل إليك هذا ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ تفضلاً عليك، وتلطفًا معك بلا تطلب منك وترقب من قبلك، فكذلك يكفيك جميع مهماتك على الوجه الأصلح، فاتكل عليه واتخذه وكيلاً، وفوّض أمورك كلها إليه، ومتى سمعت نبذًا من شأنك الذي أنت عليه في ابتداء حالك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ أي: معاونًا ومعينًا ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ [القصص:86] ولا مستظهرًا ومستعينًا بهم، بل فلك أن تمضي وتبلغ على الوجه الذي أُمرت بلا مبالاة لهم ومداراة معهم.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ ويصرفنك مواساتهم ومداراتهم، والمسامحة معهم ﴿عَنْ﴾ تبليغ ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾ المشتملة على الإنذارات والوعيدات الشديدة إياهم ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ وأُمرت بتبليغها ﴿وَادْعُ إِلَى﴾ توحيد ﴿رَبِّكَ﴾ بعدما بعثك إلى كافة البرايا، وعامة الأمم كله، مَنْ جبله الحق على صورة الإنسان، وكلفه بالمعرفة والإيمان ﴿وَلَا

﴿تَكُونَنَّ﴾ بالمداهنة والمسامحة معهم ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص:87] المشتركين في شركهم وكفرهم.

﴿وَ﴾ بعدما ظهرت على التوحيد الذاتي، وأكملت مراسم الدين، وأتممت مكارم الأخلاق واليقين ﴿لَا تَدْعُ﴾ بحالٍ من الأحوال ﴿مَعَ اللهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، الفرد الوتر الذي لم يلد ولم يولد، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾ شريكًا له في الوجود والألوهية والربوبية، وجميع التصرفات الواقعة في مظاهره ومماليكه؛ إذ ﴿لَا إِلَهَ﴾ في الوجود، ولا موجود في الشهود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ هذا هو نهاية ما نطق العارف عنه سبحانه، وبعد ذلك يقلق ويدهش ويهيم، ويفنى ويتلاشى.

إذ ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ يتراءى لك من أظلال أسمائه وعكوس صفاته ﴿هَالِكٌ﴾ في حد ذاته، باقٍ على عدمه، مستمرًا على استحالته وامتناعه ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾[1] الذي اقتبس به النور من تجليات الحق على حسب أسمائه وصفاته، واستمد به العكس من شوارق بوارق شئونه المتشعشعة المتجددة، وعن دقائق رقائق لوائح لوامع تطوراته التي تخطف بها أبصار أرباب الكشف والشهود من المنجذبين نحو الحق، المتأملين في شأنهم، الوالهين بمطالعة جماله وجلاله، وبالجملة: بعدما ثبت هلاك الكل في ذاته سبحانه وظهوره وانعكاسه منه ابتداءً ثبت ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ والأمر في جميع ما كان ويكون أزلاً وأبدًا ﴿وَإِلَيْهِ﴾ انتهاء لا إلى غيره؛ إذ لا غير في الوجود معه ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:88] رجوع الأمواج إلى الماء، والأظلال إلى الأضواء.

سبحان من ظهر على الكل فأظهره، وبطن في الكل فأهلكه، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم.

---

(1) في هذا التجلي الذاتي تقديس صور الوجود، فيكون الله فيها هو الموجود والمشهود، كما قال باب مدينة العلم على المصطفى وعليه التحية: إن غبت بدا وان بدا غيبني، فلذلك قال الشيخ ﷺ: إني عجبت لمثلي كيف ما عبدا؛ أي: أنا هالك ووجه الله هو الظاهر لا أنا، فلو عبدت لكان هو المعبود، فما المانع من جواز عبادتي؟ وقد بيّنا لك أن المانع من ذلك هو كمال في العارف لا نقص؛ لأن الحق متنزل فيه لمرتبة العبودية، كما أن باطنه عين مرتبته الربوبية.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتوجه نحو الحق بوجهك الذي يلي الحق المقتبس به منه أشعة أنوار تجلياته الذاتية حسب أسمائه الحسنى وصفاته العليا، أن تتأمل في كيفية نشآت الكثرات الغير المحصورة عن الواحد من كل الوجود، وتتعمق بمقتضى العقل المفاض لك من حضرة علمه سبحانه على سبيل التوديع؛ لتتدبر معرفة مبدئك ومعادك حسب استعدادك الفطري، وقابليتك الجبلية التي بها امتيازك عن سائر المظاهر والمصنوعات، وبها تستحق الخلافة والنيابة عن الله، وبواسطة تلك الوديعة البديعة المودعة فيك كلفك الحق إلى ما كلفك، وأعد لك من المراتب العلية والمقامات السنية عنده ما أعد لك حسب صعودك وترقيك في معارفك، وحقائقك على مقتضى التكاليف التي توصلك إليها إن أخلصت فيها.

فلك أن تتحمل على مشاق التكليفات ومتاعب الرياضات مادمت في مجال التكاليف ومنازل العروج إلى أن جذبك الحق منك نحوه، ومكنك بموعدك المعهود ومقامك المحمود الذي هو مرتبة الكشف والشهود، وحينئذٍ اتحد قوسا الوجوب والإمكان، وارتفعت الزبد والأمواج عن بحر العيان، وفزت بما فزت من موائد اللطف والإحسان، فظهر لك حينئذٍ معنى قوله تعالى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:88].

سورة العنكبوت

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة العنكبوت

لا يخفى على من تدرج في درجات الكمال، وترقى من حضيض الجهل ومضيق الغفلة إلى سعة ذروة المعرفة وفضاء الوصال، وتمكن بمقر التوحيد بلا تلوين وتقليد، وانكشف له ما في استعداده من الودائع الإلهية المقتضية لظهوره، الباعثة لبروزه من موطن الكمون والخفاء إلى صحراء الجلاء والانجلاء، إن الاختبارات والابتلاءات الإلهية الواقعة بين مظاهره ومصنوعاته؛ إنما هي لحصول الاعتدال الحقيقي والقسط المعنوي المنبئ عن مرتبة الخلافة والنيابة عن الله المستلزم للتخلق بأخلاقه العظيمة، والتثبت على الصراط المستقيم.

لذلك جرت سنته السنية، وعادته العلية على تنقيد أعمال جميع من كلف على الإيمان والعرفان بالعرض على محك الإخلاص؛ ليتميز المغشوش المكدر بأنواع الكدورات من الرياء والسمعة والعجب، وأنواع الأهوية الفاسدة، والرعونات الكاسدة الناشئة من النفوس الخبيثة عن الصافي الخالص الخالي عن شوب اللوث بالأمور الطبيعية، الطاهر المطهر على الأدناس البشرية الحاصلة من تسويلات النفوس الأمارة وتلبيسات الشياطين المنبعثة على قوى البهيمية لأنواع الجهالات والضلالات.

لذلك خاطب سبحانه حبيبه ﷺ بما خاطب، وبيّن في خطابه على أبلغ وجه وآكده ما عاتب به عباده من ترك الإخلاص والاغترار على مجرد الأقوال بلا مطابقة الاعتقاد، متيمنًا باسمه العلي الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي كلف عباده بما كلف؛ ليتأدبوا بآداب العبودية حتى يستعدوا لفيضان آثار الربوبية ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بإفاضة ما يصلحهم عمّا هم عليه من المفاسد البشرية ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم بعدما امتثلوا بما أمروا إلى أقصى ما هيأ لهم من الدرجات العلية والمقامات السنية.

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ

ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [العنكبوت:1-6].

﴿الم﴾[1] [العنكبوت:1] أيها الإنسان الأكمل الأعلم، اللائق لفيضان لوامع أنوار الوجود ولوائح آثار الفضل والجود، المؤيد الملازم لاستكشاف مكنونات ما في مظاهر المكونات من المعظمات آثار الإلوهية، ومكرمات أنواع الربوبية اللامعة اللائحة على

(1) أقسم الحق سبحانه بإشارة الألف إلى استواء فردانية أزليته على قلوب المفردين من أهل التفريد، وبإشارة اللام إلى كشف جماله للأرواح العاشقين الذين استقاموا مع الله بنعت التجريد، وبإشارة الميم إلى محبة القدمية السابقة لسباق المحبين الذين استغرقوا في بحار التوحيد أنه تعالى لا يدفع من ادَّعى محبته ومعرفته في مقام وصاله، وكشف جماله في الدنيا بوصف السرمدية إلا ويبتليهم بعد التجلي بالاستتار وبعد كشف الأنوار بتعذيب الأسرار؛ لاستيفاء حق الربوبية من العبودية وغيرة الأزلية على كون الحدث بالأسامي والنعوت في نعوته الأبدية.

قال ابن عطاء: ظن الحق أنهم يتركون مع دعاوى المحبة، ولا يطالبون بحقائقها، وحقائق المحبة هي صبُّ البلاء على المحب وتلذذه بالبلاء، فبلاءٌ يلحق جسده، وبلاءٌ يلحق قلبه، وبلاءٌ يلحق سره، وبلاءٌ يلحق روحه، وبلاء النفس في الظاهر الأمراض والمحن، وفي الحقيقة منعها عن القيام بخدمة القوي العزيز بعد مخاطبته إياه بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وبلاء القلب تراكم الشوق ومراعاة ما يرد عليه في الوقت بعد الوقت من ربه والمحافظة على أحواله مع الحرمة والهيبة، وبلاء السر هو المقام مع من لا مقام للخلق معه والرجوع إلى من لا وصول للخلق إليه، وبلاء الروح الحصول في القبضة والابتلاء بالمشاهدة، وهذا ما لا طاقة لأحدٍ فيه، ثم بيَّن سبحانه أنه لا ينجو أحدٌ من الأولين والآخرين من دركات الامتحان بقوله: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾، ميز بالتبوء بين الصادق والكاذب؛ فتبين شكر الشاكرين في النعمة وصبر الصابرين في المحنة ودعوى الكاذبين بفرارهم عن البلاء والطاعة.

قال ابن عطاء: يتبين صدق العبد من كذبه في أوقات الرخاء والبلاء، من شكر في أيام الرخاء وصبر في أيام البلاء فهو من الصادقين، ومن بطر في أيام الرخاء وجزع في أيام البلاء فهو من الكاذبين، ثم بيَّن سبحانه أن الذين عاشوا في البطالة لم يبلغوا منازل الصديقين بالتمني والتجلي وأبواب مقادير سعادة الأزال مسدودة عليهم، أيحسبون أن ينقضوا قضيات الحق السالفة فيهم بوصف الشقاوة والطرد والقطيعة، ويبدلوها بقضياته السابقة بنعت الاصطفائية في حق المحبين المطيعين؟! كلا ليس كما يحسبون؛ فإن أحكام الأزلية مقدسةٌ من النقوض والنقائض بهوسات المفلسين البطالين. [العرائس].

نواصي عموم ما ظهر وبطن غيبًا وشهادة على التعاقب والتوالي بلا انقطاع وانصرام، أزلاً وأبدًا، وبلا ذهول وغفلة، وفتور وفترة، بحيث لا يعزب عن حيطة حضرة علمه ذرة من ذرائر ما ظهر ولاح دون إشراق شمس وجهه الكريم.

﴿أَحَسِبَ﴾ وظن ﴿النَّاسُ﴾ المنهمكون في الغفلة والنسيان ﴿أَن يُتْرَكُوا﴾ ويُهملوا على ما هم عليه من عدم مطابقة قلوبهم لأفواههم، وأعمالهم بنياتهم، وأفعالهم بحالاتهم بمجرد ﴿أَن يَقُولُوا آمَنَّا﴾ بلا موافقة من قلوبهم، مع أن الإيمان في الأصل هو الإذعان والقبول والإخلاص بالقلب، والانقياد والتسليم بالجوارح والآلات من لوازمه ومتمماته ﴿وَهُمْ﴾ بمجرد ما يلقلق به لسانهم، ويظهره بيانهم ظنوا أنهم ﴿لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:2] ولا يمتحنون، بلى والله لنبلونهم ونختبرنهم بشيء من الخوف والجوع، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، حتى ظهر إخلاصهم في جميع ما آمنوا، فترتب خلاصهم حينئذٍ على إخلاصهم

﴿وَ﴾ ليس افتتاننا واختبارنا إياهم ببدع منا، بل ﴿لَقَدْ فَتَنَّا﴾ وامتحنا ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السالفة، مع أنهم يدعون الإيمان، ويتفوهون ويتقوهون به أمثالهم، ومع ذلك لم نتركهم بلا ابتلاء واختبار، وليس اختبارهم وامتحانهم إلا لإظهار حجتنا البالغة عليهم، وإلا ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ المطلع على ضمائر عباده وسرائرهم ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ منهم، وأخلصوا في إيمانهم ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[1] [العنكبوت:3] أيضًا منهم.

وهم الذين لا يخلصون مع الله في حالٍ من الأحوال، وعملٍ من الأعمال، ولا يسمعون أوامر الله ونواهيه من ألسنة رسله سمع قبولٍ ورضا، وإنما أرادوا بإيمانهم الظاهر الذي أتوا به على سبيل الكراهة إسقاط لوازم الكفر من حقن الدماء، وسلب الذراري ونهب الأموال، وإلا فهم ليسوا ممن يذعنون بدلائل التوحيد وبراهين الإيمان

---

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن صدق الصادقين وكذب الكاذبين الذين عجنوا في تخمير طينتهم لا يظهر إلا إذا طرح في نار البلاء تصاعدت فيها روائح الضر وفوائح الشكر عن عود جوهر الصادقين ويصده بصدتين الضجرة وكفران النعمة عن رشيق جوهر المذنبين، وأنهم في البلاء على ضروب منهم: من يصبر في حال البلاء ويشكر في حال النعماء وهذه صفة الصادقين، ومنهم: من يصبح ولا يصبر في البلاء ولا يشكر في النعماء فهو من الكاذبين، ومنهم: من يؤثر في حال الرخاء لا يشتمع في العطاء ويستريح إلى البلاء فيستعذب مقاساة الضر والعناد وهذا أقل الكبراء.

عن صميم قلوبهم، ظنًا منهم أنَّا غافلون عن بواطنهم ونياتهم.

﴿أَمْ حَسِبَ﴾ أي: بل ظن المسرفون ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ مصرين عليها، مبالغين في إتيانها ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ ويفوتوا عنا جزاء ما عملوا، ويسقطوا عن حسابنا ما أتوا به من المعاصي، بل نحن مطلعون عليها حين كانوا في استعداداتهم قبل ظهورهم في فضاء الوجود، فكيف حين وجودهم وظهورهم، وصدور الآثام عنهم بالفعل؟! ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت:4] علينا حكمهم هذا ونسبتهم هذه. أعاذنا الله وعموم عباده عن أمثال هذه الظنون الفاسدة بالنسبة إليه سبحانه. كل ذلك عن جهلهم بالله وبمقتضى عزه وعلوه، وإنكارهم بلقائه والوقوف بين يديه.

إذ ﴿مَن كَانَ يَرْجُو﴾ ويأمل ﴿لِقَاءَ اللَّهِ﴾ المتجلي على الأكوان حسب أسمائه العلية وصفاته السنية، ويترصد أن ينكشف له ما هو الموعود من لدنه سبحانه من الدرجات العلية والمقامات السنية حال كونه متأدبًا بالآداب المنزلة من عنده بواسطة أنبيائه ورسله، متحملاً على متاعب التكاليف ومشاق الطاعات المفروضة المشروعة له، مترقبًا للانكشاف والشهود، راجيًا لقياه بلا يأس وقنوط، فاز بمبتغاه على الوجه الذي وُعد بعدما وفقه الحق وجذبه إلى نفسه ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ الذي وعده لعباده أن يشرفهم بشرف لقائه ﴿لَآتٍ﴾ بلا شك وارتياب ﴿وَ﴾ كيف لا يشرفهم بعدما وعدهم؛ إذ ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمناجاتهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت:5] بحاجاتهم التي هي الفوز بشرف اللقاء، والوقوف عند سدرة المنتهى، والتدلي إلى مقام دنا فتدلى ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم:9].

﴿وَمَن جَاهَدَ﴾ واجتهد في الوصول إلى ما ذكر من المقام المحمود، والموعود الذي هو مرتبة الكشف والشهود ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ إذ نفعه عائد إليه، وهو واصل إلى منتهى مطلوبه بعدما كان طالبًا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المنزه عن الطلب والاستكمال، المبرأ عن الترقب والانتظار ﴿لَغَنِيٌّ﴾ في ذاته ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[1] [العنكبوت:6] وطاعاتهم

(1) نبّه الخلق أن ربوبيته منزّهةٌ عن عبودية الخلق، وأن صفات الحدث يرجع بنعوتها إلى الحدث؛ لأنه مقدّس عن النفع والضر، وهو غنيٌ عن وجود الخلق وعدمه، فبيّن قيمة المجاهدة أنهم إذا جاهدوا ولم يظفروا بمأمولهم يعلمون أنهم يدورون حواليهم، وأن الفضل من الله خاصٌ لأهل الخصوص ممن عرفهم الله نفسه بلا كدٍّ ولا عناءٍ. قال الواسطي: بالنعم ابتدأ الحق الخلق تفضيلاً من غير استحقاقٍ، جلت نعمه وعطاياه أن تستجليها الحوادث بحال الكنه المبتدئ

وعباداتهم ورجوعهم إليه، وتوجههم نحوه.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [العنكبوت:7-9].

ثمّ قال سبحانه حثًا لعباده على التوجه نحو بابه؛ ليفوزوا بما أعد لهم من الحسنات والدرجات: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأخلصوا إيمانهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المشعرة المؤيدة لإخلاصهم بلا شوب الهوى والرياء والرعونات أصلاً ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ﴾ ونمحون عن ديوان أعمالهم ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ التي جاءوا بها وقت جهلهم وضلالهم ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ ونعاملن معهم ﴿أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:7] يعني: أحسن من الجزاء الذي كانوا يستحقون بأعمالهم بعد إيمانهم وأزيد منه بأضعافه تفضلاً وإحسانًا.

وبعدما حثهم سبحانه على الإيمان والعمل الصالح أوحى لهم وأمرهم ببر الوالدين وحسن المعاشرة معهما والتحنن إليهما؛ لأنهما من أقرب أسباب ظهورهما على مقتضى سنة الله سبحانه فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ﴾ بعدما كلفه بالإيمان والعمل الصالح أن يأتي كل منهم ويعمل ﴿بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾[1] أي: معاملة ذات حسنٍ يستحسنه العقل والشرع ويرضيه الحق ويقتضيه المروءة بحيث لا يحوم حولها شائبة منٍّ ولا أذى

بالنعم والمتفضل بها.

(1) يشير إلى تعظيم الحق تعالى، وعظيم شأنه وعزة الأنبياء وإعزازهم، وعرفان قدر المشايخ وإكرامهم؛ لأن الأمر برعاية حق الوالدين المعنيين:

أحدهما: أنهما كانا سبب وجود الولد، والثاني: أن لهما حق التربية، فكلا المعنيين في إنعام الحق تعالى على لعباد حاصل بأعظم وجه، وأجلّ حق منهما لأن حقهما كان مشوبًا بحظ نفسهما وحق الله تعالى منزه عن الشوب، وأنهما وإن كانا سبب وجود الولد لم يكونا مستقلين بالسببية بغير الحق تعالى وإرادته؛ لأنهما كانا في السببية محتاجين إلى مشيئته وإرادته بأن يجعلهما سببًا لوجود الولد، فإن الولد لا يحصل بمجرد سببهما بالنكاح بل تحصيل بموهبة الله تعالى. [التأويلات].

ولا استخفاف واستحقار، بل يتذللون لهما ويتواضعون معهما على وجه الانكسار التام والتذلل المفرط.

وعليكم أيها المكلفون امتثال جميع أوامرهما ونواهيهما سوى الشرك بالله والطغيان على الله والعدوان معه ومع رسله وخُلّص عباده ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ﴾ أيها المأمور على بر الوالدين أبواك وبالغا في حقك، مقدمين أشد إقدام وألحا لك أبلغ إلحاح وأتم إبرام ﴿لِتُشْرِكَ بِي﴾ شيئًا من مظاهري ومصنوعاتي ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾[1] أي: ليس علمك ويقينك متعلقًا بإلوهيته وربوبيته واستحقاقه للعبادة والرجوع إليه في المهمات، فلا تطعهما ولا تقبل أمرهما المتعلق بالإضلال والإشراك، ولا تمتثل قولهما هذا، بل أعرض عنهما وعن قولهما هذا، ولا تمض على دينهما وملتهما، إذ ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أصلاً وفرعًا، مؤمنًا وكافرًا، موحدًا ومشركًا، وبعد رجوعكم إلي ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ وأخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:8] في دار الاختبار، أحاسب عليكم أعمالكم، وأجازيكم على مقتضاها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ منكم في دار الاختبار مخلصين ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ تكميلاً لإيمانهم وتتميمًا له بما هو من لوازمه ومتفرعاته ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ﴾ حين رجوعهم إلينا ﴿فِي﴾ زمرة السعداء ﴿الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت:9] المقبولين الآمنين المستبشرين، الذين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:62] والذين كفروا منكم في النشأة

---

(1) قال في التأويلات: وفيه إشارة إلى أن المريد الصادق والطالب العاشق إذا تمسك بذيل إرادة شيخ كامل ودليل واصل بصدق الإرادة وعشق الطلب بعد خروجه عن الدنيا بتركها بالكلي جاهها وما لها، وقد سعى بقدر الوسع في قدر تعلقات تمتعه عن السير إلى الله متوجهًا إلى الحضرة بعزيمة كعزيمة الرجال، فإن كان له والدان وهما بمعزل غما يهيجه من الصدق والمحبة فهما بجهلهما عن حال الولد يمنعان عن صحبة الشيخ وطلب الحق بالإعراض، ويقبلان به إلى الدنيا ويرغبانه في طلب جاههما ومالها ويحثان على الترويج في غير أوانه، فالواجب على المريد أن لا يطيعهما في شيء من ذلك فإن ذلك بالكلي طاغوت وقته وعليه أن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، وهما يجاهدانه على أن يشرك بالله لجهلهما بحاله وحال نفسهما وأنه يريدان أن يخرج عن عهدة العبودية الخالصة لربه، كما قضى ربه أن لا يعبدا إلا إياه، ولا يعبد ما دونه من الدنيا والآخرة وما فيهما، وما يعلمان مهما يكن أنهن عبدة الهوى وأنهما يدعوانه إلى عبادة غير الله، فالواجب عليه أن لا يطيعهما في ذلك، ولكن عليه أن يردهما باللطف، ولا يزجرهما بالعنف إلى أن يخرج عن عهدة ما قضى به من العبودية بالإخلاص، ثم الواجب عليه أن يحسن إليهما ويسمع كلامهما ويطيعهما فيما لا يقطعه عن الله على وفق أمره.

الأولى وأصروا على الكفر والشرك، ولم يرجعوا عنه بعد بعث الرسل ونزول الكتب وورود الزواجر والروادع الكثيرة فيها، لنعذبنهم عذابًا شديدًا، ولندخلنهم يوم يُعرضون في زمرة الأشقياء المردودين المغضوبين الذين لا نجاة لهم من النار، ولا يرجى خلاصهم منها.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت:10-13].

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ المجبولين على التزلزل والتذبذب ﴿مَن يَقُولُ﴾ خوفًا من عذاب الله ﴿آمَنَّا بِاللهِ﴾ بلا تمكن له واطمئنان في قلبه ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي﴾ سبيل ﴿اللهِ﴾[1] من أعدائه انقلب على الكفر حيث ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ وإيذاءهم ﴿كَعَذَابِ اللهِ﴾ القادر بالقدرة الكاملة على أنواع المحن والابتلاءات؛ يعني: يسوون بين خوف الله وخوف

(1) يشير إلى أن حقيقة الإيمان نور إذا دخل قلب المؤمن ينظر الله تعالى وعنايته لا يخرجه أذية الخلق بل يزيد بالصبر على أذاهم والتوكل على الله، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:173] وكقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:146] وذلك لأن المحن تظهر جواهر الرجال، وهي تدل على قيمتهم وأقدامهم فقدر كل أحد وقيمته تظهر في محنته من فوات الدنيا ونقصان نصيبه منها، أو كانت محنته بموت قريب من الناس أو فقد حبيب من الخلق فحقر قدره وكثير من الناس مثله، ومن كانت محنته في الله ولله تعزيز قدره وقليل من كان مثله بقدر الوقوف في البلاء يظهر جواهر الرجال يصفوا عن الخبث مرآة قلوبهم، ويتزكى عن رذائل أخلاق نفوسهم كما تخلص جوهر نعم العبدية عن معدن الإنسانية بمدة أيام البلاء لأيوب ﷺ مستعين بالصبر على البلاء، فالمؤمن من يكف الأذى، والولي من يجلي عن الخلق الأذى ويشرب ولا يترشح عنه الشكوى عن البلوى ولا إظهار الدعوى كالأرض يلقى عليها كل قبيح فينبت منه كل مليح، ومن كان إيمانه لسانيًا لا جنانيًا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم. [التأويلات النجمية].

الناس، فكما يؤمنون بالله من خوف عذابه يكفرون به من خوف عذاب الناس بلا تفاوت بين الخوفين وبين العذابين، بل يرجحون خوفهم على خوف الله، فيختارون الكفر على الإيمان من ضعف يقينهم وعدم رسوخهم وتمكينهم على الإيمان، وذلك من عدم ترقيهم من حضيض الجهل والتقليد إلى ذروة العرفان والتوحيد ﴿وَ﴾ من غاية تزلزلهم وتلونهم ﴿لَئِن جَاءَ نَصْرٌ﴾ وعون للمؤمنين الباذلين مهجهم في سبيل التوحيد ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل وصاروا غالبين على أعداء الله بنصر الله إياهم، وفازوا بالفتح والغنائم وأنواع الكرامات ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ أولئك المذبذبون المتزلزلون، مبالغين في دعوى الموافقة والمؤاخاة: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ موافقين ظاهرًا وباطنًا، وفي دين الإسلام متمكنين مطمئنين سرًا وجهرًا، فأشركونا في ما نلتم من الغنيمة والخير، وهم يقصدون بقولهم هذا التغرير والتلبيس على المؤمنين، بل على الله أيضًا، لذلك قال سبحانه: ﴿أَ﴾ تعتقدون التلبيس والتشبيه أيها الجاهلون بعلو شأنه ﴿وَ لَيْسَ اللَّهُ﴾ المتجلي على جميع ما ظهر وبطن في الأكوان غيبًا وشهادةً ﴿بِأَعْلَمَ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:10] بل بما في استعداداتهم وقابلياتهم التي كانوا عليها حيث لم يكونوا؟ وإن كان حالهم أيضًا كذلك الآن عند من له أدنى حظ من المعرفة والإتقان.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ويميزن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وبذلوا جهدهم في سبيله، وليظهرن إخلاصهم ورسوخهم على الدين، وتمكنهم واطمئنانهم في مرتبة اليقين بعدما أمرهم بالجهاد والقتال الصوري والمعنوي ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ﴾ ويظهرن أيضًا كيد ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت:11] ومكرهم وتقاعدهم عن القتال، واحتيالهم في التخلف عن المؤمنين.

﴿وَ﴾ من جملة مكرهم واحتيالهم مع المؤمنين وخداعهم إياهم ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ قاصدين إضلالهم عن طريق الحق وانصرافهم عن الدين المستبن: ﴿اتَّبِعُوا﴾ أيها الحمقى المتذللون في أيدينا ﴿سَبِيلَنَا﴾ واختاروا طريقنا الذي كنا عليه من عبادة الأوثان والأصنام التي هي دين آبائنا وأسلافنا ﴿وَ﴾ إن خفتم على مقتضى زعمكم من أثقال ذنوبكم يوم العرض والجزاء ﴿لْنَحْمِلْ﴾ أثقال ﴿خَطَايَاكُمْ﴾ عنكم حينئذ فتصيروا مخففين بلا وزر وذنب، إنما قالوا هكذا؛ تغريرًا عليهم وتضليلاً لهم واستهزاءً وإلا فهم منكرون بالآخرة وجميع ما فيها من الوعيدات الهائلة والإنذارات ﴿وَ﴾ هم وإن فرض أنهم اعتقدوا النشأة الأخرى وما فيها ﴿مَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ

خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: شيئًا قليلاً من خطاياهم، فكيف بجميعها؟! وبالجملة: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [العنكبوت:12] في جميع مواعيدهم وعهودهم؛ إذ الكل لا يطابق اعتقادهم ولا الواقع؛ إذ لا تحمل يومئذ وازرة وزر أخرى، عدلاً من الله تعالى.

ولهذا قال سبحانه مقسمًا: ﴿وَ﴾ الله ﴿لَيَحْمِلُنَّ﴾ حينئذٍ ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾ أي: خطاياهم التي اقترفوها لنفوسهم يزيدون عليها ﴿وَأَثْقَالاً﴾ أخر حاصلة من إضلالهم وتضليلهم عباد الله ﴿مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ الأصلية ﴿وَ﴾ الله مع تلك الأثقال على الأثقال ﴿لَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت:13] على الله من إثبات الشريك له في الوجود واستحقاق العبادة، وعن نسبتهم إليه ما لا يليق بشأنه افتراءً ومراءً.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾ [العنكبوت: 14-18].

ثم ذكر سبحانه نبذًا من أحوال أهل الضلال والإضلال من المفترين الذين مضوا في سالف الزمان تسليةً لرسول الله ﷺ وإزالة للحزن الذي لحقه ﷺ من تمادي المشركين في الغفلة والفساد وتطاولهم في الغي والعناد، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾ وقت إذ ظهر فيهم أنواع الفسوق والجدال وأصناف الغي والضلال ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ﴾ وتحمل على مشاق دعوتهم وأنواع أذاهم ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ فهم كانوا يضربونه ويشتمونه وينسبونه إلى الجهل والجنون والخرف وأنواع الاستخفاف والاستحقار، ومع ذلك لم يتقاعد عن دعوتهم، ولم ينزجر عن زواجرهم، بل يبلغهم ما أمره الحق بتبليغه من الآيات الظاهرة والمعجزات الباهرة، وهم من شدة شكيمتهم وخبث طينتهم لم يزيدوا من سماعها إلا تعنتًا واستكبارًا، وعتوًا واغترارًا وإصرارًا على ما هم عليه، وبعدما استحقوا كمال العذاب والنكال ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ حين خرج

الماء من التنور المعهود وطاف عليهم فأغرقهم واستؤصلوا ﴿وَهُمْ﴾ في أنفسهم ﴿ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:14] خارجون عن مقتضى الحدود ومنهمكون في بحر الغفلة والغرور، ضالون في تيه الجهل والطغيان؛ لذلك أخذهم الله بالطوفان واستأصلهم بالمرة إلى حيث لم يبق منهم أحد على وجه الأرض بعدما أغرقناهم وأهلكناهم.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ أي: نبينا نوحًا عليه السلام ﴿وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ وهم المؤمنون الذين ركبوا معه عليها حين نبع الماء من التنور، قيل:كانوا ثمانين، وقيل:كانوا ثمانية وتسعين، وقيل:نصفهم ذكور ونصفهم إناث ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ أي: قصة هلاكهم بالطوفان ﴿آيَةً﴾ عظيمة ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:15] تستدلون بها على كمال قدرتنا ووفور حكمتنا في انتقام من خرج على حدودنا وأحكامنا وأوامرنا ونواهينا.

﴿وَ﴾ أرسلنا أيضًا يا أكمل الرسل جدك ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الخليل - صلوات الرحمن عليه وسلامه - إلى قومه الذين تمادوا زمانًا في الغفلة والغرور؛ ليصلح مفاسدهم ويرشدهم توحيدنا، اذكر ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ بعدما بعثناه إليهم ليهديهم إلى طريق الحق ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستحق للعبادة والإطاعة استحقاقًا ذاتيا ووصفيًا ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ عن ارتكاب محارمه ومنهياته، واجتنبوا جميع ما لا يرضى به حتى لا تستجلبوا سخطه وغضبه عليكم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي أوصيكم به من العبادة والعرفان واجتناب عن المحارم والطغيان والاتصاف بالتوحيد والتقوى وجميع لوازم الإيمان ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأولى بحالكم وأنفع لنفوسكم في أولاكم وأخراكم مما أنتم عليه من عبادة التماثيل التي تنحتونها بأيديكم وتسمونها من تلقاء أنفسكم آلهة دون الله ظلمًا وزورًا ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:16] أي: إن كنتم من ذوي العقول المستكملين بالقوة النظرية المفاضة لكم من حضرة العلم الإلهي؛ ليميزكم به عن سائر الحيوانات ويعدكم للخلافة والنيابة عن الله.

ثم نبه سبحانه على خطئهم في عبادة غير الله فقال: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ المستحق للعبادة والاستقلال بلا شريك ومثال ﴿أَوْثَانًا﴾ تسمونهم آلهة ظلمًا وعدوانًا وتعبدونهم كعبادة الله عنادًا وطغيانًا ﴿وَتَخْلُقُونَ﴾ أي: تفترون وتنسبون إلى الله بإثبات الشريك له، سيما هذه التماثيل الباطلة العاطلة ﴿إِفْكًا﴾ كذبًا وافتراءً، مجادلةً ومراءً، مع أن هؤلاء التماثيل لا تنفعكم ولا تضركم ولا ترزقكم ولا تمنع رزقكم، بل ﴿إِنَّ﴾ الآلهة ﴿الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الحقيق بالإطاعة والعبادة مطلقًا سواء كان هؤلاء

الجمادات أو ذوي الحس والحركات ﴿لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ أي: أمر الرزق مقصور على الله المتكفل لأرزاق عباده، ليس في وسع غيره أن يرزق أحدًا من عباده رزقًا صوريًا أو معنويًا وإنما خص سبحانه الرزق بالذكر مع أنهم لا يملكون سواه أيضًا؛ لأنه أظهر لإلزامه وأتم لشدة احتياجهم إليه، وإن أردتم رزقًا جسمانيًا أو روحانيًا ﴿فَابْتَغُوا﴾ واطلبوا ﴿عِندَ اللهِ﴾ القادر المقتدر ﴿الرِّزْقَ﴾ الصوري المقوي لمزاجكم والمعنوي، الموصل إلى مبدئكم ومعادكم؛ لتتزودوا برزقه في أولاكم وأخراكم ﴿وَ﴾ إذا سمعتم وعلمتمَ ألّا رازق لكم سوى الله ﴿اعْبُدُوهُ﴾ حق عبادته، واعرفوه حق معرفته ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أداء لحق شيء من حقوق نعمه، ونبذ من موائد فضله وكرمه، واعلموا أنكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:17] رجوع الظل إلى ذي الظل والأمواج إلى الماء.

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا﴾ أي: إن تكذبوني في قولي ولم تقبلوا مني رسالتي، ولم تتعظوا بنصحي وإرشادي ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ﴾ أمثالكم رسلهم مثلي ﴿مِّن قَبْلِكُمْ﴾ ومن قبلي فصار تكذيبهم وبالاً عليهم وسبب هلاك لهم ونزول عذاب عليهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ما أبالي بتكذيبكم كما لم يبالوا بتكذيب أممهم؛ إذ ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ﴾ المرسل إلى قوم من عند الله ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [العنكبوت:18] أي: تبليغ ما أرسل به مكشوفًا ظاهرًا بلا سترة وحجاب وزيادة ونقصان، وأمّا أمر القبول والامتثال بالمأمور فمفوض إلى مشيئة الله وإرادته وقدرته له؛ أي: يتصرف في عباده بأن يجعل الكافر الجاحد مؤمنًا مطيعًا، والمطيع المؤمن كافرًا نافيًا للصانع - العياذ بالله من سخطه وغضبه - فالكل مقدور له مثبت في لوح قضائه، حاضر في حضرة علمه، لا يُسأل عن فعله وحكمه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)﴾ [العنكبوت:19-23].

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾ إلى كمال قدرته ومتانة حكمه وحكمته ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ﴾ أي: يظهر ويبدع ﴿اللَّهُ﴾ القادر المقتدر ﴿الْخَلْقَ﴾ أي: جميع المخلوقات والموجودات من كتم العدم بلا سبق مادة ومدة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ويعدمه كما براه وأظهره على مقتضى النشأتين نزولاً وعروجًا، هبوطًا وصعودًا، ظهورًا وبطونًا، مدًا وقبضًا، نشرًا وطيًا، لطفًا وقهرًا، جمالاً وجلالاً ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ التبديل والتحويل ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ المتجلي في الأكوان في كل آن في شأن ﴿يَسِيرٌ﴾[1] [العنكبوت:19] إذ لا يعرضه العسر والفتور، ولا يلحقه العجز والقصور ولا يبرمه مر الدهور وكر الشهور.

وإن أنكروا لك ولم يقبلوا منك تنويرك الذي جئت به ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الحلم والخلة: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ سير معتبر خبير ﴿فَانظُرُوا﴾ بنظر الاعتبار والاستبصار ﴿كَيْفَ بَدَأَ﴾ وأظهر ﴿الْخَلْقَ﴾ في أقطار الآفاق ونشرهم فيها وبسطهم عليها بامتداد أظلال أسمائه وصفاته ﴿ثُمَّ اللَّهُ﴾ القادر المقتدر على كل ما أراد وشاء بالاختيار والاستقلال ﴿يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ المقابلة لنشأة الظهور والإبداع، وهي نشأة الكمون والإخفاء والفناء والإفناء، بأن قبض سبحانه بمقتضى قهره وجلاله جميع ما امتد من أظلال، وطوى نحوه ما نشر من آثار الأوصاف والأسماء ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مقدوراته ومراداته ﴿قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت:20] لا تنتهي قدرته عند مقدورٍ، بل له أن يتصرف فيه كيف شاء ومتى أراد أزلاً وأبدًا.

---

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أنه تعالى كما بدأ الخلق بإخراجهم عن العدم إلى عالم الأرواح، ثم أهبطهم من عالم الأرواح إلى عالم الأشباح عابرين على الملكوت والنفوس السماوية والأفلاك والأنجم والفلك الأثير والهواء والبحار وكرة الأرض، ثم على المركبات والمعادن والنبات والحيوان إلى أن يبلغ أسفل سافلين الموجودات وهو القالب الإنساني، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين:5] أي: بتقدير النفخة الخاصة كما قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ﴾ [الحجر: 29] فكذلك تعيده بجذبات العناية إلى الحضرة راجعًا من حيث هبط عابرًا على المنازل والمقامات التي كانت على قمره بقطع تعلق نظره إلى خواص هذه المنازل، وترك الانتفاع بها فإنها حالة العبودية على هذه المنازل استعداد خواصها وبعض أجزائها منها لاستكمال الوجود الإنساني روحانيًا جسمانيًا، فصار محجوبًا عن الحضرة فعند رجوعه إلى الحضرة بجذبة (ارجعي) يرد من كل منزل ما استعاد منه، فإن العارية مردودة إلى أن يعاد إلى العدم بلا أنانية بتصرف جبة العناية ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: على العبد العود إلى الله بلا جذبة العناية عسير غير ممكن.

ومن كمال قدرته ومقتضى حكمته ومشيئته: ﴿يُعَذِّبُ﴾ من عباده ﴿مَن يَشَاءُ﴾ لا ملجأ لهم دونه ولا مرجع لهم سواه؛ إذ ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ برحمته الواسعة أيضًا كذلك على مقتضى لطفه وجماله ﴿وَ﴾ لا ملجأ لهم دونه ولا مرجع لهم؛ إذ ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره؛ إذ لا غير في الوجود معه ﴿تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت:21] انقلاب الزبد هواء والأمواج ماء.

﴿وَ﴾ إذا ثبت أن منقلبكم إليه ومرجعكم نحوه، فعليكم الإطاعة والإيمان بالله وبوحدانيته طوعًا بلا تذبذب وتلعثم؛ إذ ﴿مَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ على إدراككم وأخذكم ﴿فِي الأَرْضِ﴾ لو تحصنتم فيها ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ لو تدليتم إليها؛ إذ الكل في قبضته وقدرته وتحت تصرفه، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ﴾ المعيد المبدئ، المحيي المميت ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يولي أموركم بالاستقلال ويتصرف فيكم بالإرادة والاختيار ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت:22] ينصركم على أعدائكم ويدفع ضررهم عنكم.

ثم قال سبحانه؛ حثًا لهم إلى الإيمان وترغيبًا لهم إلى التوحيد والعرفان: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ الدالة على عظمة ذاته وكمال أسمائه وصفاته ﴿وَلِقَائِهِ﴾[1] أي: أنكروا بلقائه الموعود لأرباب الكشف والشهود ﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء المطرودون عن ساحة عز القبول هم الذين ﴿يَئِسُوا﴾ وقنطوا ﴿مِن رَّحْمَتِي﴾ مع سعتها ووفورها ﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ المردودون في تيه الغفلة والضلال ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت:23] في النشأة الأولى والأخرى، لا يرجى نجاتهم وخلاصهم أصلاً.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا

(1) قال نجم الدين: يشير إلى طائفة من أرباب الطلب وأصحاب السلوك العابرين على بعض المقامات، المشاهدين آثار شواهد الحق الكاشفين ببعض الأسرار، ثم أدركتهم القربة بحجاب العزة فابتلاهم الله للغيرة بالالتفات إلى الغير، فحجبوا بعد أن كوشفوا، واستتروا بعد أن تجردوا، واستدرجوا بعد أن رفعوا، وبعدوا بعد أن قربوا، وحاروا بعد أن كاروا نعوذ بالله من الحور بعد الكور.

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٥ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٦﴾ [العنكبوت:24-26].

وبعدما بلغ الخليل ـ صلوات الرحمن وسلامه عليه ـ في الدعوة والإرشاد، وأيده بأنواع المواعظ والتذكيرات والرموز والإشارات، ونبذ من الوعيدات والإنذارات رجاء أن يتنبهوا منها ويتفطنوا بها على ما هو الحق ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ بعد استماعهم مقالاته تفصيلاً ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ متفقين مجتمعين: ﴿اقْتُلُوهُ﴾ حدًا، فإنه قد أعرض عن دينكم وانصرف عن آلهتكم وشفعائكم ﴿أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ فإنه جدير بالإحراق؛ لعظم جرمه وكبر ذنبه، وبعدما اتفقوا على حرقه أوقدوا نارًا عظيمة بحيث لا يمكن التقرب إليها إلا بمسافة بعيدة، فوضعوه في المنجنيق، فرموه بها إليها ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ﴾ الرقيب المطلع على إخلاص عباده وأخلصه ﴿مِنَ﴾ حرق ﴿النَّارِ﴾ وجعلها له بردًا وسلامًا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإنجاء والإنقاذ مع أن طبع النار على الإحراق والإفناء ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظام ودلائل جسام على كمال قدرة الله وحوله وقوته ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:24] بوحدة ذاته وكمال أسمائه وصفاته؛ لأنهم هم المنتفعون بأمثال هذه الشواهد والبراهين.

وبعدما أنجاه الله منها ﴿وَ﴾ أيس من إيمان قومه ﴿قَالَ﴾ لهم موبخًا عليهم وموعدًا لهم بوحي الله وإلهامه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم﴾ وأخذتم ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ المتوحد بالألوهية والربوبية ﴿أَوْثَانًا﴾ آلهة؛ لتكونوا أسبابًا لكم توجب ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ وتوقع المحبة والمؤاخاة بين أظهركم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بأن تجتمعوا عندها وتعتكفوا حولها، وتتقربوا إليها بالهدايا والقرابين ﴿ثُمَّ﴾ اعلموا أيها الضالون المنهمكون في بحر الغفلة والضلال والجهل بالله وبقدره وقدر حوله وقوته ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعدة للعرض والجزاء وحساب ما صدر عنكم في دار الابتلاء ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ يعني: يقع التناكر والتخاصم بينكم، فيكفر بعضكم ببعض ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: كل منكم ومن معبودكم يتلاعنون ويتخاصمون حال كونكم متبرئين كل منكم عن صاحبه تابعًا ومتبوعًا، عابدًا ومعبودًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَأْوَاكُمُ﴾ ومرجعكم إليها أنتم وآلهتكم جميعًا، خالدون فيها لا نجاة لكم منها بأعمالكم وأفعالكم ﴿النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت:25] ليشفعوا لكم وينقذوكم منها بشفاعتهم.

وبعدما أنجى سبحانه خليله ـ صلوات الرحمن عليه وسلامه ـ من النار، وخرج منها سالمًا سويًا بلا لحوق ضرر ﴿فَآمَنَ لَهُ﴾ ابن أخيه ﴿لُوطٌ﴾ وهو أول من آمن به

وأنكره غيره، ونسبوه إلى السحر والشعبذة وأنواع الخرافات ﴿وَ﴾ لما أيس الخليل عن إيمانهم ﴿قَالَ﴾ للوط وزوجته سارة ابنة عمه: ﴿إِنِّي﴾ بعدما أيست عن إيمان هؤلاء الجهلة الضالين، ونجوت عن مكائدهم ﴿مُهَاجِرٌ﴾ مبعد منهم ﴿إِلَى﴾ أرضٍ أمرني ﴿رَبِّي﴾ للهجرة إليها، وأوحاني أن أذهب نحوها، فعليَّ أن امتثل لأمره وأمضي على موجب حكمه ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه في ذاته وأسمائه وأفعاله ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على جميع ما جرى عليه مشيئته وقضاؤه ﴿الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:26] المتقن في جميع ما صدر عنه إرادة واختيارًا.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [العنكبوت:27-30].

﴿وَ﴾ بعدما خرج عليه السلام من سواد الكوفة مع لوط وزوجته وصل إلى حران، ثم منها إلى الشام، فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم، ثم لما استقر وتمكن على فلسطين ﴿وَهَبْنَا لَهُ﴾ من كمال لطفنا معه وفضلنا إياه ابنه ﴿إِسْحَاقَ﴾ نافلة ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ليزول بهما كربة الغربة ووحشة الجلاء، مع أن هبة ولده إياه من محض الجود الإلهي على سبيل خرق العادة؛ إذ هو كبير السن وامرأته عاقر ﴿وَ﴾ أيضًا من كمال لطفنا معه ﴿جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ﴾ مستمرةً إلى يوم الجزاء ﴿وَالْكِتَابَ﴾ أي: آتينا الكتاب لبعضِ منهم؛ يعني: رسلهم، وإنما فعلنا معه كذلك؛ لئلا تنقطع سلسلة كرامتنا عنه، بل تستمر إلى انقراض العالم ﴿وَ﴾ بالجملة: بعدما هاجر إلينا الخليل بالكلية، وانخلع عن لوازم ناسوته بالمرة ﴿آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ﴾ أي: أجر هجرته ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ على وجه لا ينقطع صيته عن الآفاق أبدًا ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت:27] لقبولنا، المقبولين في ساحة عز حضورنا.

﴿وَ﴾ أرسلنا أيضًا ﴿لُوطًا﴾ إلى قوم انحرفوا عن جادة الاستقامة، وضلوا عن

سواء السبيل، اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ﴾ لوط ﴿لِقَوْمِهِ﴾ بوحي الله إياه وإلهامه: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المفسدون المسرفون ﴿لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ أي: الفعلة الذميمة التي ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ بغاية قبحها وهجنتها ونهاية شنعتها ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ أي: أحد ﴿مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:28] من بني نوعكم، بل أنتم ابتدعتموها واخترعتموها من خباثة نفوسكم وشؤم شهوتكم.

ثم وبخهم وقرعهم بهُجنة أفعالهم وأعمالهم فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ أيها المفرطون في متابعة القوة الشهوية ﴿لَتَأْتُونَ﴾ وتطئون ﴿الرِّجَالَ﴾ من أدبارهم وهم أمثالكم ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ أي: سبيل التناسل والتوالد، وتبطلون الحكمة البالغة الإلهية المتعلقة بإبقاء النوع ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ﴾ أي: مجالسكم ومحافلكم ﴿الْمُنكَرَ﴾ أي: الفعلة الذميمة، أي: تأتون بها على رءوس الملأ بلا مبالاة واستحياء وإخفاء، بل يتباهون بإظهارها، مع أن إعلان المنكرات من أعظم الجرائم وأقبح الفواحش عند الله وعند المؤمنين، سيما هذا المنكر المستبدع المستقذر ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ بعدما سمعوا منه التشنيع والتقبيح على أبلغ وجه وآكده ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ متهكمين له، مصرين على ما هم عليه من الفعلة الذميمة الشنيعة: ﴿ائْتِنَا﴾ يا لوط ﴿بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ الذي أدعيت نزوله علينا بسبب فعلنا هذا ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت:29] في دعواك، فنحن لم نمتنع بهذياناتك عن فعلتنا هذا قط، ولم نقبل منك نصيحتك أصلاً.

وبعدما أيس من صلاحهم وإصلاحهم ﴿قَالَ﴾ مشتكيًا، ملتجئًا نحوه، مستنصرًا منه: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني على صفة الصلاح والنظافة ﴿انصُرْنِي﴾ بحولك وقوتك بإنزال العذاب ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:30] المسرفين المفرطين في الإفساد، الخارجين على مقتضى حدودك.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ۝ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۝ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا

ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [العنكبوت:31-37].

وبعدما استحقوا الإهلاك والاستئصال بإصرارهم عليها وعدم امتناعهم عنها مع كونهم مجاهرين بها، مفاخرين بإظهارها، أخذناهم بغتة واستأصلناهم مرة ﴿وَ﴾ ذلك ﴿لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ أي: ليبشروه بهبة الولد والنافلة ﴿قَالُوا﴾ مخبرين له على طريق الوحي من الله: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ يعني: سدوم، وجاعلوها منقلبة على أهلها ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [العنكبوت:31] خارجين عن مقتضى الحدود الإلهية، منقلبين الحكمة البديعة بالبدعة الشنيعة.

ولما سمع إبراهيم عليه السلام منهم ما سمع ﴿قَالَ﴾ مضطربًا قلقًا: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ من خُلص عباد الله ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ منك ﴿بِمَن فِيهَا﴾ بتعليم الله إيانا ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ مما سيصيب قومه بأمر الله علينا بإنجائه، ومن معه من أهل بيته والمؤمنين له ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت:32] الهالكين لنفاذ قضاء الله على هلاكها فيهم؛ إذ هي من جملتهم ومن عدادهم وفي زمرتهم.

﴿وَ﴾ بعدما بشروا إبراهيم بما بشروا، وأخبروا له ما أخبروا توجهوا نحو لوط، اذكر يا أكمل الرسل ﴿لَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾ أي: فجاءته المساءة والسآمة والكرب بقدومهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: ضاق ذرع طاقته بنزولهم؛ إذ اشتد عليه حفظهم عن أهل القرية، وضاقت طاقته عن تدبير خلاصهم له منهم؛ لأنهم جاءوا على صورة صبيان صباح ملاح، أمارد في غاية الحسن وكمال الجمال، فهم مشغوفون بطلب أمثالهم ﴿وَ﴾ لما تفرس الرسل منه الخوف والحزن والضجرة وأنواع الغموم والهموم العارضة لهم من إلمامهم إياه ﴿قَالُوا﴾ له تفريجًا لهمه: ﴿لاَ تَخَفْ﴾ يا لوط إضرارهم بنا ﴿وَلاَ تَحْزَنْ﴾ من لحوق العار عليك بسببنا؛ لأنا رسل ربك، أرسلنا الله لنصرك وتأييدك وإنزال العذاب على قومك، ولا تحزن أيضًا تعذيبنا لك ولمن تبعك

﴿إِنَّا﴾ بأمر ربنا ﴿مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ مما يصيبهم من العذاب والهلاك ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت:33] الهالكين، هكذا ثبت في حضرة علم الله ولوح قضائه.

ثم فصلوا له العذاب وقالوا: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: عذابًا ذا رجز؛ أي: قلقًا واضطرابًا يقلقل المضطرب المعذب، ويضطربه اضطرابًا شديدًا حين نزوله ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت:34] أي: بفسقهم الذي باهوا به وتمادوا فيه مجاهرين مصرين.

﴿وَ﴾ بعدما انتقمنا منهم وأخذناهم بفسقهم ﴿لَقَد تَّرَكْنَا﴾ وأبقينا ﴿مِنهَا﴾ أي: من حكايتهم وقصتهم ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ أي: عبرة ظاهرة لائحة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:35] حتى يستعملوا عقولهم في مواضع العبر، ويتأملون فيها معتبرين منها مستبصرين بها، فاعتبروا يا أولي الأبصار، واعلموا أن الأبرار إنما يتميزون عن الأشرار بالاعتبار والاستبصار.

بصرنا الله بعيوب نفوسنا، وجعلنا من المعتبرين بعيوب الغير عند وجوده.

﴿وَ﴾ أرسلنا أيضًا ﴿إِلَى مَدْيَنَ﴾ حين ظهر فيهم الخيانة في المكيلات والموزونات ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ ليصلح ما فيهم من المفاسد ﴿فَقَالَ﴾ بعدما بعثناه إليهم مناديًا لهم ليقبلوه ويطيعوا أمره: ﴿يَا قَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه؛ لكمال العطف والشفقة وإمحاض النصح ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد، الحقيق بالعبادة والإطاعة ﴿وَارْجُوا﴾ من الله ﴿الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي: ائتوا بالإيمان والإخلاص والعمل الصالح، راجين من الله الثواب في يوم الجزاء ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ ولا تتحركوا عليها حال كونكم ﴿مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:36] لمصالح عباد الله وأمور معاشهم ومعادهم.

وبعدما سمعوا مقالتهم ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فجاءوا بتكذيبه بلا مبالاة له وبكلامه فاستحقوا المقت العظيم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلة الشديدة مع الصيحة الهائلة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ التي بنوها للحياة والمعاش ﴿جَاثِمِينَ﴾ [العنكبوت:37] ماتين هالكين باركين على ركبهم، ساقطين على وجوههم.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَٰبِقِينَ

﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت:38-40].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿عَادًا﴾ المبالغين في الظلم والعدوان ﴿وَثَمُودَ﴾ المتجاوزين عن مقتضى حدود الله بالبغي والطغيان ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ وظهر عندكم ولاح عليكم أيها الناظرون المعتبرون عتوهم واستكبارهم ﴿مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾ الرفيعة وحصونهم الحصينة المنيعة ﴿وَ﴾ ذلك بأنهم قوم ﴿زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ وحسنها في نفوسهم فاستبدوا بها ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: أعرضهم الشيطان بتزيين أعمالهم الفاسدة عن الصراط المستقيم والطريق المستبين ﴿وَ﴾ هم ﴿كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت:38] متمكنين، قادرين على الاستبصار والاعتبار، فلم يعتبروا؛ إذ لم يُسلب عنهم لوازم عقولهم، بل لبَّس عليهم الشيطان أفعالهم وحسن عندهم أعمالهم، فظنوا أنهم مهتدون وما كانوا مهتدين.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿قَارُونَ﴾ المباهي بالمال والنسب على أهل عصره وزمانه ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ المستعلي بالسلطنة والملك إلى أن تفوه من غاية عتوه واستكباره بدعوى الألوهية لنفسه ﴿وَهَامَانَ﴾ وزيره، قد تفوق على أقرانه وأهل زمانه بالثروة والجاه والنيابة الكاملة وعلو المكانة والمنزلة بين الأنام ﴿وَ﴾ من كمال تعنت هؤلاء المفسدين المسرفين واستعلائهم ﴿لَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ﴾ بوحينا رسولاً منا؛ ليهديهم إلى طريق الحق وصراط مستقيم، فكذبوه ولم يبالوا به وبكلامه مع كونه مؤيدًا ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ القاطعة والمعجزات الساطعة ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ على الله وعلى رسله وعموم عباده وانصرفوا عن مطلق أوامره ونواهيه منكرين وجوده وإرساله ووحيه عنادًا ومكابرة ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿مَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت:39] بنا، حافظين نفوسهم عن إدراك عذابنا إياهم وانتقامنا منهم.

﴿فَكُلًّا﴾ منهم ﴿أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ الذي صار علة تامة لبطشه وانتقامه على مقتضى عدلنا، ثم فصل سبحانه أخذه إياهم بعدما أجمل، فقال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي: ريحًا عاصفًا فيها حصباء، رميناهم ورجمناهم بها كقوم لوط وعاد ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ الهائلة كثمود وأصحاب مدين ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ

﴿الأَرْضَ﴾ كقارون وما معه من زخارفه التي هي سبب طغيانه وبغيه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقوم نوح وفرعون وهامان وجميع جنودهما ﴿وَ﴾ ما أخذنا كلاً منهم إلا بذنوب عظيمة صدرت عنهم على سبيل الإصرار والاغترار؛ إذ ﴿مَا كَانَ اللهُ﴾ المستوي على العدل القويم والطريق المستقيم وما صح عليه وحق له سبحانه ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ ويأخذهم بلا ذنب صدر عنهم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:40] أي: هم كانوا يظلمون أنفسهم باستجلاب عذاب الله عليها بارتكاب أسبابه وموجباته، وعرضها على غضب الله بالخروج عن مقتضى أوامره ومنهياته، وما ذلك إلا من رسوخ التقليدات والتخمينات في نفوسهم، واستقرار الرسوم والعادات في جبلتهم؛ لذلك أصروا بما هم عليه وانصرفوا عن سواء السبيل وكذبوا الرسل الهادين إليه، وأنكروا عليهم عتوًا واستكبارًا، فهلكوا خسارًا وبوارًا.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (44) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45)﴾ [العنكبوت:41-45].

ثم أشار سبحانه إلى توهيم جميع التقليدات والتخمينات الحاصلة من هوية النفوس الخبيثة بالماديات، والعقول السخيفة المكدرة بكدورات الأوهام والخيالات، فقال على سبيل التمثيل والتشبيه، على مقتضى إدراك العوام؛ توضيحًا لهم ليتنبهوا على طريق الحق ويتفطنوا بالتوحيد القويم: ﴿مَثَلُ﴾ القوم ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ﴾ المنزه عن الأشباه والأنداد مطلقًا ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ يوالونهم كولاية الله ويعبدونهم مثل عبادته، متوهمين أنهم شركاء معه أو شفعاء لهم عنده سبحانه مع أنهم لا يتأتى منهم الشركة والشفاعة أصلاً، إنما مثلهم في هذا الاتخاذ والاعتقاد ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ﴾ التي ﴿اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ من لعابها، ثم تركتها واتخذت آخر مثلها، ثم تركتها، وهكذا حالها

دائمًا مع أن هذه الأبنية والبيوتات المتخذة لا تدفع حرًا ولا بردًا، ولا تصير مانعًا له من العدو وحجابًا كهؤلاء المقلدين الضالين الذين اتخذوا تقليد بعض الضلال دينًا، ثم تركوها بتقليدٍ آخر منهم بلا رسوخ ولا تمكن، وهكذا حالهم دائمًا مع أن الأديان المتخذة لا تكشف لهم طريق الحق، ولا توصلهم إلى معرفته وتوحيده، ولا تنقذهم من الأوهام والخيالات الباطلة العائقة عن مشرب التوحيد، ولا تخرجهم من سجن الطبيعة وقيود الإمكان وأغلال الأنانيات وسلاسل العينات.

﴿وَ﴾ قال سبحانه على سبيل التأكيد والمبالغة والتصريح بالتوهين بعدما كنى؛ لينزجروا ويرتدوا على ما هم عليه من الأديان الباطلة: ﴿إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ﴾ وأضعف الأبنية ﴿لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾[1] إذ لا بيت أضعف منه، وأشرف إلى التخريب والانهدام، وأقل وقاية من الحر والبرد ودفع الضر ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:41] وهنه وعدم نفعه لما اتخذوها، لكنهم لم يعلموا، فاتخذوا جهلاً وعنادًا، فسيعلمون عاقبة ما اتخذوا ووبال ما عبدوا.

ثم قال سبحانه على وجه الوعيد إياهم، آمرًا لحبيبه ﷺ: قل لهم يا أكمل الرسل: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده وسرائرهم ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا يَدْعُونَ﴾ وتعبدون ﴿مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ من الأصنام والأوثان على التفصيل؛ إذ لا يعزب عن حيطة علمه شيء مما ظهر وبطن وخفي وعلم، ولكن يمهلهم ويؤخر أخذهم بها زمانًا؛

---

(1) قال في التأويلات: يشير على أن مثل النفس وصفاتها في اتخاذها من دون الله أولياء من الهوى والدنيا والشيطان كمثل العنكبوت أتخذت بيتًا لمعانٍ:

إحدها: معنى قوله: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:41] إنه سريع الزوال وشيك الانفصال، وإن حاصل ولايتهم اليوم العداوة في الآخرة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:67] يعني إلا الذين اتقوا عن اتخاذ الأولياء دون الله، والثاني: إن العنكبوت كلما زاد على نسجه في بيته ازداد بعد أمن الخروج فهو يعني ولكن سجنًا على نفسه وقيدًا على رجله بحيث يتوقع هلاكه، كذلك من اتخذ الهوى والدنيا والشيطان أولياء سجن فيه بسلاسل الإضلال والإغواء على طريق الشهوات إلى مهلكة النيران، ولا ينفعه استغاثة ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان:28- 29]، والآخر: هو أن بيت العنكبوت أوهن البيوت؛ لأنه بلا أساس ولا جدار ولا سقف، فلا يمسك على أهون دفع، كذلك الكافر لا أصل لشأنه ولا أساس لبنيانه ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ [النور:39] .

لحكم ومصالح استأثر الله بها ولم يطلع أحدًا عليها ﴿وَ﴾ كيف لا يأخذهم بما صدر عنهم إنه ﴿هُوَ العَزِيزُ﴾ الغالب القادر على الانتقام بالقوى الكاملة والبطش الشديد ﴿الحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:42] المتقن في أفعاله بما لا مزيد عليه.

﴿وَ﴾ إن استهزءوا معك يا أكمل الرسل، متهكمين بما في كتابك من التمثيلات بأحقر الأشياء وأضعفها مثل: الذباب والعنكبوت والنمل وغيرها لا تبال بهم وبتهكمكم واستهزائهم؛ إذ ﴿تِلْكَ الأَمْثَالُ﴾ التي ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ المنهمكين في الغفلة والنسيان؛ لنوضح لهم طريق التوحيد والعرفان وسبيل السلامة والإيمان، إنما هو للموفقين منهم المجبولين في استعداد القبول وفطرة الإسلام، لا كل أحدٍ من أهل الغفلة والمترددين في أودية الجهل والخيال وهاوية المراء والجدال ﴿وَ﴾ لذلك ﴿مَا يَعْقِلُهَا﴾ ويفهم معناها وما يصل إلى مغزاها ﴿إِلَّا العَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:43] الواصلون بما فاض عليهم من رشحات بحر العلْم الإلهي ينبوع بحر الوحدة الذاتية التي هي منبع جميع الكمالات اللائحة على صحائف الآفاق وصحفات الأكوان، حيث ﴿خَلَقَ اللهُ﴾ المتجلي بجميع صور الكمالات وأظهر على مقتضى الأسماء والصفات ﴿السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات المتفاوتة، المتخالفة باختلاف الأسماء والصفات، المتنشئة من الذات الأحدية حسب الشئون والتطورات المترتبة على الكمالات المندمجة فيها ﴿وَالأَرْضَ﴾ أي: طبيعة العدم، القابلة لجميع الانعكاسات المنعكسة من أشعة التجليات الذاتية غيبًا وشهادةً، ظهورًا وبطونًا، بروزًا وكمونًا، جمالاً وجلالاً؛ يعني: ما خلق وأظهر ما ظهر وبطن إلا ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع بلا شائبة شك فيه وارتياب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإيجاد والإظهار على الوجه الأبدع الأبلغ والنظام الأتم الأكمل ﴿لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت:44] الموحدين الموقنين بوحدة ذاته وكثرة أسمائه وصفاته حسب شئونه وتطورات على مقتضى التجليات المتجددة الغير المتكررة أزلاً وأبدًا.

﴿اتْلُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ﴾ الجامع لما في النشأتين، الحاوي لجميع الأمور الجارية في المنزلتين، وتأمل في مرموزاته وإشارته حق التأمل والتدبر واتصف بأوامره واجتنب عن نواهيه، واعتبر عن عبره وأمثاله وذق حلاوة معارفه وحقائقه ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ﴾ أي: داوم على الميل المقرب إلى الله بجميع جوارحك وأركانك بالانخلاع عن لوازم ناسوتك مطلقًا ﴿إِنَّ الصَّلاةَ﴾ على الوجه

المذكور ﴿تَنْهَى﴾ وتكف صاحبه ﴿عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ المترتبة عن القوى البهيمية من الشهوية والغضبية ﴿وَالْمُنكَرِ﴾ المترتب على البشرية المنغمسة بالعلائق المادية والشواغل الجسمانية ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَذِكْرُ اللهِ﴾ المنزه في ذاته عن جميع الأكوان، المبرئ أوصافه وأسماءه عن وصمة النقصان وسمة الحدوث والإمكان، والاشتغال بذكره حسب إطلاقه ﴿أَكْبَرُ﴾[1] شمولاً وأتم توجهًا وأكمل حصولاً ووضولاً لو جذبتك العناية من لدن جنابه ووفقك التوفيق منه نحو بابه ﴿وَ﴾ كن يا أكمل الرسل في نفسك متوجهًا إلى ربك، متقربًا إليه على الوجه الذي أمرت به، ولا تلتفت إلى هذيانات أهل البدع والأهواء الفاسدة؛ إذ ﴿اللهُ﴾ المطلع بجميع حالاتهم ﴿يَعْلَمُ﴾ منهم ﴿مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت:45] من الاستخفاف والاستهزاء وعدم المبالاة بمعالم الدين ومراسم التوحيد واليقين، فيجازيهم على مقتضى علمه بهم.

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [العنكبوت:46-49].

﴿وَ﴾ بعدما سمعتم أيها المؤمنون خطاب ربكم مع نبيكم ﴿لاَ تُجَادِلُوا﴾ ولا تخاصموا ﴿أَهْلَ الكِتَابِ﴾ أي: الأحبار الذين واظبوا على محافظة كتاب الله المنزل إليهم واستنبطوا منه الأحكام، وامتثلوا بأوامره واجتنبوا نواهيه ﴿إِلاَّ بِالَّتِي﴾ أي: بالطريق

(1) من أن يكون أحدٌ فيه بحق العبودية، فكيف بحقوق الربوبية؟! وقيل: ذكر الله لكم في الأزل أكبرُ وأحكمُ وأقدمُ وأتمُ، وقال ابن عطاء: ذكر الله أكبر من ذكركم؛ لأن ذكره بلا علة وذكركم مشوبٌ بالعلل والأماني والسؤال، قال القاسم: ذكر الله أكبرُ من أن يحويه أفهامكم وعقولكم، وحقيقة الذكر طرد الغفلة، وإذا لم تكن الغفلة فما وجه الذكر؛ لأنه أكبر من أن يلحقه ذكرٌ أو يدنيه إشارةٌ؛ لأن الإشارة تطلب الأين، والأين يلحقه الحين، وقال الأستاذ: لذكر الله أكبر من أن يعرف قدره أحدٌ وأكبر من أن يعارضه ذكرٌ، ويقال: ذكر الله أكبر من أن يبقى معه وحشةٌ.

التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ الطرق، وأبعد عن المكابرة وأقرب إلى الصواب، هينين لينين معهم بلا قلق واضطراب وفضول الكلام ماداموا متصفين معتدلين بلا ميل منهم وانحراف إلى المكابرة والاعتساف ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ جهلاً وعنادًا، وخرجوا عن منهج الصواب بغيًا وعدوانًا ﴿وَقُولُوا﴾ لهم على مقتضى ما أُمرتم به في كتابكم: ﴿آمَنَّا﴾ وصدّقنا ﴿بِالَّذِي﴾ أي: بالكتاب الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ من ربنا على طريق الوحي لنبينا ﴿وَ﴾ آمنا أيضًا بالكتاب الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ منه سبحانه وحيًا على نبيكم ﴿وَ﴾ كيف لا نؤمن لكتابكم ونبيكم؛ إذ ﴿إِلَٰهُنَا﴾ الذي أنزل علينا كتابًا ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾ الذي أنزل عليكم أيضًا كتابًا ﴿وَاحِدٌ﴾ لا تعدد فيه ولا شريك له، ولا مثل له يماثله ولا كفو له يشابهه ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:46] مؤمنون، منقادون، مطيعون وبجميع ما حكم به سبحانه في كتبه وعلى ألسنة رسله مصدقون ممتثلون إلا ما نسخ في كتابنا.

﴿وَ﴾ كيف لا يقول لهم المؤمنون هكذا ولا يؤمنون بالكتب المنزلة من عندنا ﴿كَذَٰلِكَ﴾ وعلى ذلك ﴿أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الْكِتَابَ﴾ الجامع لما في الكتب السالفة؛ لتكون أنت ومن تبعك مؤمنين مصدقين لجميع الكتب والرسل بلا تفرقة ولا تفاوت ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ قبل كتابك ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بكتابك ويصدقون بك أيضًا، كذلك على الوجه الذي وعدناهم في كتبهم من أنّا سنرسل رسولاً موصوفًا بأوصاف ما بيناه لهم في كتبهم، ومعه كتاب جامع مصدق لجميع الكتب السالفة والرسل السابقة، وإن كان مشتملاً على النسخ والتبديل لبعض أحكام الكتب السالفة على مقتضى سنتنا القديمة وعادتنا المستمرة من نسخ بعض الأحكام السابقة باللاحقة.

﴿وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: الأعراب ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي: بهذا الكتاب وإن لم يسبق لهم وعد؛ لأنهم ليسوا من أهل الكتاب في وقت من الأوقات، بل إنما آمنوا به؛ لكونهم من أرباب اللسن والفصاحة، تأملوا في نظم ألفاظه العجيبة واتساق معانيه البديعة، انكشف لهم أنه ما هو من جنس كلام البشر، فجزموا بإعجازه وآمنوا به، فصدقوه أنه نازل من عند الله على سبيل الوحي ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا يَجْحَدُ﴾ وينكر ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الظاهرة الإعجاز، العجيبة الشأن، الباهرة البيان ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ [العنكبوت:47] الساترون نور الهداية والإيمان بظلمة الكفر والطغيان عنادًا ومكابرة.

﴿وَ﴾ كيف لا يكون القرآن وحيًا نازلاً من عند الله بمقتضى إرادته؛ إذ ﴿مَا كُنتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿تَتْلُو﴾ وتتعلم ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ أي: قبل القرآن ونزوله ﴿مِن كِتَابٍ﴾

من الكتب المنزلة ﴿وَلَا تَخُطُّهُ﴾ وتنسخه ﴿بِيَمِينِكَ﴾ على سبيل النقل؛ يعني: ما كنت من أهل النسخ والإملاء والكتابة؛ إذ هي مسبوقة بالتعلم وأنت أمِّي، عارٍ عن الدراسة والكتابة والتعلم مطلقًا، ولم يعهد منك أمثال هذه الأمور الدالة على الأخذ والاستنباط، ولو كنت متصفًا بها وأهلاً لها ﴿إِذًا لَّارْتَابَ﴾ شك وتردد ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾(1) [العنكبوت: 48] المجاهرون بالقول الزور الباطل في شأنك وفي شأن كتابك وكونه معجزًا، مع أنه ما هو - أي: القرآن - حينئذ أيضًا محل ارتياب؛ لأنه في نفسه باعتبار نظمه العجيب البديع ومعانيه الغريبة وأسلوبه المحكم معجز خارق للعادة عند من له أدنى دربة في أساليب الكلام، ولا ينبغي لأحد أن يشك في إعجازه إلا من هو متناهٍ في البلادة وسخافة العقل وركاكة الفهم.

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: القرآن في نفسه ﴿آيَاتٌ﴾ ودلائل دالة على توحيد الحق ﴿بَيِّنَاتٌ﴾ واضحات الدلالات في أنفسها، ثابتات ﴿فِي صُدُورِ﴾ الموحدين ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ اللدني المترشح من حضرة العلم الإلهي، المفاض لهم منها حسب استعداداتهم وقابلياتهم تفضلاً عليهم وامتنانًا لهم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا يَجْحَدُ﴾ وينكر ﴿بِآيَاتِنَا﴾ مع قواطع برهانه وسواطع تبيانه ﴿إِلَّا﴾ القوم ﴿الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت:49] الخارجون عن مقتضى العلم والعين والكشف والشهود.

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً

---

(1) قال الشيخ كبرى: يشير إلى أن القلب إذا تجرد عن المعلومات والسر تقدير عن يومان والروح تنزه عن الموجودات بالكافر أقرب إلى الفطرة، ولم يشتغلوا لقبول النفوس السفلية من الخسيسات والخيالات والوهميات، فكانوا لما صادفهم من المغيبات قابلية من غير ممازجة طبع ومشاركة كسب وتكليف وتكيف بشرية، ولما كان قلب النبي ﷺ في البداية ممزوجًا بعمل جبريل إذا خرج منه ما أخرج، وقال: هذا حظ الشيطان منك. وفي النهاية محفوظًا عن النفوس التعليمية بالقراءة والكتابة قابلًا لإنزال القرآن عليه مختصًا به عن جميع الأنبياء.

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت:50-54].

﴿وَ﴾ من غاية بغضهم مع رسول الله ﷺ، وشدة شكيمتهم وضغينتهم معه ﴿قَالُوا﴾ مقترحين منه على سبيل التعجيز والإنكار: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ إن كان صادقًا في دعواه كالآيات التي نزلت على الأنبياء الماضين مثل: ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى وسائر معجزاته، وغير ذلك ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة، خاليًا عن وصمة الشبهة: ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ﴾ كلها ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ أنزلها وفي قبضة قدرته، وعلى مقتضى إرادته ومشيئته حتى تعلقت إرادته بإنزال آية منها، أنزلها على من أنزلها إرادةً واختيارًا ﴿وَ﴾ ليس في وسعي وطاقتي ولا في وسع كل من مضى قبلي من الأنبياء والرسل إنزال عموم ما طلبتم، وإتيان جميع ما اقترحتم من الآيات، وكذا حال الأنبياء الماضين مع أممهم المقترحين عليهم بالآيات، بل ﴿إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ﴾ من قبل الحق إياكم ﴿مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت:50] ظاهر الإنذار والتخويف، وكل من الأنبياء والرسل أيضًا كانوا كذلك بالنسبة إلى أممهم؛ إذ نحن معاشر الأنبياء والرسل ما لنا إلا التبليغ والإنذار على مقتضى الوحي والإلهام الإلهي بلا تحريف منا وتبديل، وأمّا التنزيل والإنزال من قبل الحق، والقبول منكم فمفوض إلى القادر الحكيم.

ثم قال سبحانه على المقترحين وتقريعًا لهم: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ﴾ ولم يغنهم من جميع الآيات التي اقترحوا عنك يا أكمل الرسل ﴿أَنَّا أَنزَلْنَا﴾ من مقام جودنا ولطفنا معك ﴿عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾[1] الجامع لما في الكتب السالفة، المحتوي على أحوال النشأتين على الوجه الأبلغ مع أنه لا يغيب عنهم، بل ﴿يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ ويُقرأ عندهم دائمًا بخلاف سائر الآيات، فإنها كما ظهرت غابت هي وأثرها وهو وأثرها حاضر عندهم غير مغيب عنهم، وبالجملة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الكتاب الذي هو في نفسه آيات عظيمة الفوائد، دائمة العوائد، غير منقطعة آثارها عن من تمسك بها واستهديها ﴿لَرَحْمَةً﴾ أي:

(1) وهو إتيان بدلالة: أحدهما: إن نفس القرآن آية لأنه لا يمكنهم معارضته لا الإتيان شيء من مثله. والثاني: إن تيسير قراءة مثل هذا القرآن لا من غير كاتب وقارئ وإنزاله عليه وحفظ أدبه وإحالة وجزالة بيانه آية واضحة وعليها دلائل لائحة. [التأويلات].

نعمة عامة نازلة من قبل الحق ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ أي: عظة وتذكيرًا شاملاً لعموم عباده، ملقاة من عنده سبحانه ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:51] بتوحيده وأسمائه وصفاته، ويصدقون المبدأ والمعاد والعرض والجزاء والفوز بشرف اللقاء جميع ما وعد لهم في النشأة الأخرى.

ثم لما أتى قوم من ضعفاء المسلمين إلى رسوله الله ﷺ بكتف رُقم فيها بعض أراجيف اليهود وأقاويلهم الكاذبة، متبركين بها، متيمنين بما فيها، فقال ﷺ مبغضًا عليهم: كفى بضلالة قوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم من قبل ربهم إلى ما جاء به غير نبيهم، وصدقوا ما جاء به غير نبيهم مع أنه كذب مفترى، وكذبوا ما جاء به النبي مع أنه صدق مطابق للواقع، فنزلت حينئذ تسلية لرسول الله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمكذبين لك وبما جئت به، مصدقين لأعدائك وبما جاءوا به: ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أيها المكابرون ﴿شَهِيدًا﴾ حاضرًا معي ومعكم مطلقًا، على حالي وحالكم وما جرى في ضميري وضمائركم؛ إذ هو سبحانه ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري جميع ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَ﴾ ما ظهر في ﴿الْأَرْضِ﴾ وكذا ما ظهر بينهما وما بطن فيهما، فيجازي كلاً منا ومنكم على مقتضى علمه بنا وبكم.

﴿وَ﴾ كيف لا يجازي القادر المقتدر على انتقام عصاة عباده ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأطاعوا ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الذي هو بمراحل عن الحق والصدق ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ الحق الحقيق بالحقية، المستوي على منهج الصدق والصواب، وأعرضوا عن إطاعته وانقياده عنادًا ومكابرةً، وبالجملة: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ البعداء المطرودون عن ساحة عز الحضور، والأشقياء المحرومون عن سعة رحمة الملك الغفور ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت:52] المقصورون على الخسران والخذلان، لا يُرجى ربحهم وتفريجهم أصلاً.

﴿وَ﴾ من غاية غيّهم وضلالهم، ونهاية انهماكهم في بحر الغفلة والغرور ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ تهكمًا واستهزاءً ﴿بِالْعَذَابِ﴾ واستهزاءً بك الذي أنذرتهم بوحي منا إليك بنزوله إياهم من كمال إنكارهم وتكذيبهم ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ ووقت معين موعود، مثبت في لوح قضائنا ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ اليوم فجأةً عاجلاً؛ لاستحقاقهم بنزوله إلا أنه مؤقت موعود على مقتضى سنتنا القديمة المستمرة من ترهين الأمور على الأوقات المعينة المثبتة في لوح القضاء وحضرة العلم.

قل لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا: لا تغتروا بإمهالنا إياكم زمانًا ﴿وَ﴾ الله

﴿لَيَأْتِيَنَّهُم﴾ ولينزلن عليهم العذاب الموعود ﴿بَغْتَةً﴾ أي: دفعة وفجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت:53] ولا يطلعون بنزوله وأمارات إتيانه.

ومن غاية عمههم وسكرتهم وكمال انهماكهم في أسباب العذاب وموجباته ولوازمه ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ ظنًا منهم أن ما هم عليه إنما هو من موجبات الثواب وأسباب النجاة والجنة، بل هي عينهما؛ إذ لا إيمان لهم بالنشأة الأخرى وما فيها، كيف لا يعذبون في النشأة الأخرى ولا يدخلون النار ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ الموعودة فيها لهم ﴿لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت:54] محتوية عليهم الآن في النشأة الأولى باعتبار أسبابها وموجباتها؟!.

﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت: 55-60].

اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ في الآخرة، كغشي أسبابها التي هي عبارة من لوازم الإمكان إياهم اليوم ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي: من أعلاهم وأسفلهم، ومحيطًا بجميع جوانبهم ﴿وَيَقُولُ﴾ قائل من قِبَل الحق زاجرًا لهم وتوبيخًا: ﴿ذُوقُوا﴾ أيها المستكبرون المصرون على الكفر والعناد جزاء ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:55] أيها المعاندون المكابرون.

ثمّ قال سبحانه على سبيل التعليم والتنبيه مناديًا لخُلّص عباده الذين جلّ همهم الإخلاص في جميع ما جاءوا به من الأعمال: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أضافهم سبحانه إلى نفسه؛ تفضلاً عليهم، ومزيد إكرام لهم مقتضى إيمانكم: الإخلاص والحضور معي، والتوجه إليّ مع فراغ البال في كل الأحوال، فإن لم تجدوا الفرصة والفراغة المذكورة في أرض لا تستقرون فيها، ولا تتمكنون عليها، بل عليكم أن تفروا وتخرجوا منها طالبين الجمعية والحضور ﴿إِنَّ أَرْضِي﴾ ومقر عبادي وعبادتي ﴿وَاسِعَةٌ﴾ فإن لم تجدوا

لذة التوجه وحلاوة الرجوع إليّ في أرض، ولم يتيسر لكم الجمعية الحاصلة المنعكسة من صفاء مشرب التوحيد فعليكم الخروج والجلاء منها، وبالجملة: ﴿فَإِيَّايَ﴾ في كل الأماكن والأحوال ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت:56] عبادةً مقارنة بالإخلاص والخضوع والخشوع، والتبتل والتوكل والتفويض، والرضا والتسليم، ولا تغتموا وتحزنوا بالخروج عن الأوطان والجلاء منها خوفًا من الموت الطبيعي، إن كنتم مائلين إلينا راغبين نحونا.

إذ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس المستحدثة بحدوث البدن ﴿ذَائِقَةُ﴾ كأس ﴿الْمَوْتِ﴾ في أي موطنٍ ومكانٍ كانت ﴿ثُمَّ﴾ بعدما ذاق كأس الموت، وخلص عن قيود الهويات العدمية المانعة عن الطبيعي لإطلاق الحقيقي، فحينئذٍ ﴿إِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا؛ إذ لا موجود في الوجود سوانا ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:57] رجوع الأضواء إلى الشمس، والأمواج إلى الماء.

﴿وَ﴾ بعد رجوع الموحدين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ موقنين ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مقارنين إيمانهم بها، مخلصين فيها إلينا ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ وننزلنَّهم تفضلاً منا إياهم وتكريمًا ﴿مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ المعدة لأرباب المعرفة والتوحيد ﴿غُرَفًا﴾ أي: لكل منهم غرفة معينة تصير له مقرًا ومنزلاً ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والحقائق، والمكاشفات والمشاهدات على تفاوت طبقاتهم وقدر قابلياتهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ دائمين، غير متحولين عنها أصلاً ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [العنكبوت:58] الجنة وما فيها، مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهم أُولو العزائم الصحيحة.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على جميع مشاق التكاليف ومتاعب الطاعات وأذيات الأعادي، والجلاء من الأوطان ومفارقة الخلان، وغير ذلك مما جرى عليهم من طوارق الحدثان ﴿وَ﴾ مع ذلك هم في جميع حالاتهم، وفي عموم ما جرى عليهم ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لا على غيره من الوسائل والوسائط ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت:59] وينسبون إليه ما ينسبون لا إلى الوسائل والأسباب العادية؛ إذ الكل منه بدأ وإليه يعود، بل الوسائل كلها مطوية عندهم، والأسباب منسية لديهم، بل نظرهم مقصور على المسبب الواحد الأحد، الفرد الصمد، القيوم المطلق الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:3،4].

وبعدما أمر سبحانه المؤمنين بالجلاء ومفارقة الأوطان؛ لكسب الجمعية وحضور

القلب، قالوا متخوفين عن العيلة والاضطرار في أمر المعاش: كيف نعمل ونعيش في بلاد الغربة، ولا معيشة لنا فيها، قال سبحانه تسليةً لهم، وإزالةً لخوفهم: ﴿وَكَأَيِّن﴾ أي: كثير ﴿مِّن دَابَّةٍ﴾ تتحرك على الأرض محتاجة إلى الغذاء المقوم لمزاجها مع أنها لضعفها وعدم مكنتها ﴿لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي: لا تطيق لحمل رزقها وادخاره وكسبه ﴿اللَّهُ﴾ المتكفل لأرزاق عموم عباده ﴿يَرْزُقُهَا﴾[1] من حيث لا تحتسب ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أيضًا، وأنتم من جملة الحيوانات التي تكفل الله برزقها، بل من أجلتها، فلا تغتموا لأجل الرزق، ولا تقولوا قولاً به زل نعلكم عن خالقكم ورازقكم ﴿وَ﴾ لا تُخطروا أيضًا ببالكم أمثال هذا؛ إذ ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالكم ﴿الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت:60] بأحوالكم وبيناتكم، فعليكم أن تتقوا في كل الأحوال بالله المتولي لأمركم، مفوضين كلها إليه، متوكلين عليه، متمكنين في توكلكم وتفويضكم، راسخين فيه بلا تلعثم وتزلزلٍ.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:61-64].

ثمّ قال سبحانه قولاً على سبيل الإلزام والتبكيت: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يا أكمل الرسل؛ أي: أهل مكة مع كفرهم وشركهم: ﴿مَّنْ خَلَقَ﴾ وأظهر ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾

---

(1) قال روزبهان: حثّ سبحانه العباد بالتوكل عليه والتيقن بلطيف صنعه والكرم العميم منه على جميع البرية، وبأن يرضى العباد بما يجري عليهم من الأقدار السابقة في الأزل، ولا يكونوا مهتمين بما يستقبلون من الأيام الباقية والأعمار الماضية بجهة الرزق؛ لأنه تعالى قدّر مقادير الخلق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وما قدّر في الخلق والرزق والأجل لا يتبدل بقصد القاصدين وجهد الجاهدين، ألا ترى إلى الوحوش والطيور لا تدّخر شيئا إلى الغد «تغدو خماصا وتروح بطانا»؛ لاتكالهما على الله بما وصل إلى قلوبها من نور معرفة خالقها، كيف يكون الإنسان يهتم لأجل رزقه ويدّخر شيئا لغده ولا يعرف حقيقة رزقه وأجله، فربما يأكل ذخيرته غيره ولا يصل إلى غده؛ لذلك كان ﷺ لا يدّخر شيئا لغدٍ؛ إذ الأرزاق مجددةٌ كالأنفاس المجددة في كل لمحة، ولذلك وصف الله سبحانه في أوائل الآية أهل التوكل والرضا.

من كتم العدم؟ ﴿وَ﴾ من ﴿سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ دائبين؟ ﴿لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ المظهر للكائنات، المستقل في إيجادها، والمتصرف فيها حسب إرادته ومشيئته، وبعدما أقروا بتوحيد الحق وانتهاء مراتب الممكنات إليه ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت:61] ويُصرفون عن توحيده والإيمان به، والامتثال بأوامره ونواهيه الجارية على ألسنة رسله وكتبه؟!.

وإن صرفهم عن الإيمان فاقة أهل الإيمان وفقر الموحدين، قل لهم نيابة عنا: ﴿اللهُ﴾ المطلعَ لاستعدادات عباده وقابلياتهم ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ على مقتضى استعداده ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ ويقبض عنه حسب تعلق إرادته ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتقن في أفعاله ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ صدر عنه إرادة واختيارًا ﴿عَلِيمٌ﴾ [العنكبوت:62] لا يعزب عن حيطة علمه شيء من لوازمه ومتمماته، وجميع مقتضياته.

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يا أكمل الرسل: ﴿مَّن نَّزَّلَ مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ﴾ أي: بواسطة الماء على مقتضى عادته المستمرة من تعقيب الأسباب بالمسببات ﴿الْأَرْضَ﴾ الجامدة اليابسة ﴿مِن بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ أي: جمودها ويبسها؟ طبعًا ﴿لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ طوعًا، القادر المقتدر على الإحياء والإماتة، ومع اعترافهم بوحدة الله وانتساب معظم الأشياء إليه يشركون له غيره عنادًا ومكابرةً ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل بلسان الجمع، بعدما عصمك الحق عن الشرك وأنواع الجهالات بإفاضة العقل المفاض، وهداك إلى توحيده بالرشد الكامل المكمل المميز لك أكمل التمييز، حامدًا لله شاكرًا لنعمه، سيما نعمة العصمة عن الشرك والضلال: ﴿الْحَمْدُ﴾ والثناء الصادر من ألسنة ذرائر الكائنات المتذكرة لمبدئها ومنشئها طوعًا وطبعًا، ثابتة حاصلة ﴿لِلَّهِ﴾ راجعة إليه سبحانه أصالةً؛ إذ لا مُظهر لهم سواه، ولا موجد في الوجود إلا هو.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ من نهاية غفلتهم وضلالهم عن الله ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:63] ولا يفهمون وحدة الحق واستقلاله في الآثار والتصرفات الواقعة في الأنفس والآفاق، ولا يستعملون عقولهم المفاضة لهم للتدبر والتأمل في هذا المطلب العزيز حتى يستعبدوا لفيضان نزول الوحدة بطريق الكشف والشهود، فخلصوا عن التردد في هاوية الجهالات، وأودية الخيالات والضلالات، وما يعوقهم ويمنعهم عن الوصول إلى هذا المطلب العلي، والمقصد السني إلا المزخرفات الدنيّة الدنيوية، الملهية للنفوس البشرية عن اللذات الروحانية، مع أنها ما هي في أنفسها إلا أوهام وخيالات باطلة،

فكيف ما يترتب عليها من اللذات الوهمية والشهوات البهيمية؟!.

كما قال سبحانه مشيرًا إلى فناء زخرفة الدنيا وعدم قرارها وثباتها، وبقاء النشأة الأخرى وما يترتب عليها من اللذات الروحانية، والدرجات العليّة النورانية المتفاوتة علمًا وعينًا وحقًا على تفاوت طبقات أرباب الكشف والشهود، ومقتضيات استعداداتهم الثابتة في لوح القضاء وحضرة العلم الإلهي: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ التي لا قرار لها ولا مدار حقيقة، بل لا أصل لها أصلاً سوى سراب انعكس من شمس الذات، وأمواج حدثت في بحر الجود ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾[1] يعني: كما أن السراب يُلهي ويخدع العطشان بالتردد والتبختر نحوه على اعتقاد أنه ماء، فيتعب نفسه ويزيد عطشه، بل يهلكها، كذلك الحياة الدنيوية ومزخرفاتها الفانية، ولذاتها الزائلة الذاهبة الإمكانية تُتعب صاحبها طول عمره، ولا ترويه، ثم تميته بأنواع الحسرة والضجرة ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ وما يترتب عليها من المكاشفات والمشاهدات اللدنية، وما يترتب عليها من أنواع الفتوحات والكرامات الفائضة لأرباب التوحيد ﴿لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أي: هي مقصورة على الحياة الأزلية الأبدية التي لا يطرأ عليها زوال، ولا يعقبها فناء، ولا يعرض للذاتها انصرام وانقضاء ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:64] يوقنون بها وبما فيها من الكرامات لم يؤثروا الدنيا الدنيّة وحياتها الفانية المستعارة عليها، ولم يختاروا اللذات الوهمية البهيمية على لذاتها الأزلية الأبدية، وبجهلهم وضلالهم اختاروا الفاني على الباقي، والزائل على القار، والسراب المهلك على الفرات المحيي.

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ

(1) يُشير إلى هذه الحياة الدنيا يعيش بها المرء في الدنيا بالنسبة إلى الحياة التي يعيش بها أهل الآخرة في الآخرة، وجوار الله تعالى لهو ولعب، وإنما شبهها باللهو واللعب لشيئين: أحدهما: أن اللهو واللعب سريع الانقضاء لا يداوم، فلهذا المعنى أن الدنيا بشهواتها كظل زائل لا يكون لها بقاء، فلا تصلح لاطمئنان القلب بها والركون إليها، والثاني: أن اللهو واللعب من شأن الصبيان والسفهاء دون العقلاء وذوي الأحلام؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «ما أنا من دد ولا دد مني» والدد اللهو واللعب فالعاقل يصون نفسه منه. [التأويلات].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت:65-69].

والعجب منهم ومن حالهم كل العجب أنهم مع شركهم وإصرارهم على الكفر، وعدم تأثرهم بالزواجر والروادع الواردة من قِبَل الحق، وظهور المعجزات المزعجة إلى الإيمان ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ﴾ متضرعين نحوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: كائنين كالمؤمنين المطيعين، الخالصين إطاعتهم وانقيادهم لله بلا شوب الشرك وشين الكفر ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ﴾ من كمال فضلنا وجودنا إياهم ﴿إِلَى الْبَرِّ﴾ وأخلصناهم من المهلكة آمنين ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:65] يعني: هم ما جاءوا على الفور بُعيْد ما خلصوا من التهلكة إلى الشرك والطغيان، وأنواع العصيان والكفران.

قل لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا آمرًا لهم على سبيل التهديد: ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ أولئك الكافرون ﴿بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من النعم العظام، سيما نعمة الإنجاء من مضيق البحر ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ أولئك المتمتعون بما عندهم من الحطام الدنيوية، وما هم عليه من الإصرار على الكفر والضلال ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:66] ما يترتب على كفرانهم وتمتعهم وشركهم وضلالهم.

﴿أَ﴾ ينكرون نعمنا وإنعامنا إياهم أولئك الكافرون المبطلون ﴿وَ لَمْ يَرَوْا﴾ ولم يعلموا أهل مكة ﴿أَنَّا﴾ من مقام جودنا وفضلنا إياهم ﴿جَعَلْنَا﴾ بلدهم؛ يعني: مكة ﴿حَرَمًا﴾ يعني: ذا حرمة عظيمة يأوي إليها الناس من جميع أقطار الأرض من كل مرمى سحيق وفج عميق ﴿آمِنًا﴾ ذا أمن أهله من النهب والسبي وأنواع الأذى ﴿وَيُتَخَطَّفُ﴾ أي: يختلس ويؤخذ ﴿النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ نهبًا وسبيًا، وهم آمنون فيها، مصونون عن المؤذيات كلها، وهم مع ذلك يكفرون نعمنا ويشركون بنا غيرنا ﴿أَ﴾ ما تستحيون من الله أيها المبطلون، وما تخافون من بطشه أيها المفسدون المسرفون؟! ﴿فَبِالْبَاطِلِ﴾ العاطل الزاهق الزائل؛ يعني: الأصنام والأوثان ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يطيعون ويعبدون، مع أنهم لا يقدرون على جلب نفع ودفع ضر ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ القادر المقتدر القوي على البطش والانتقام ﴿يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت:67] فستعلمون أيها الجاهلون الضالون أيّ منقلب تنقلبون.

ثمّ قال سبحانه على سبيل التهديد والوعيد الشديد: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وأشد عدوانًا على الله، وخروجًا عن مقتضى حدوده ؛ ىنى نفسه بالعرض على بطشه وعذابه ﴿مِمَّنِ افْتَرَى﴾ وانتسب إلى الله مراءً وافتراءً ﴿عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ عظيمًا بأن يُشرِكَ معه غيره، مع أنه ليس في الوجود سواه ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع، الثابت النازل من عنده سبحانه؛ يعني: الرسول ﷺ ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ كذبه فجأة بلا تأمل وتدبر عنادًا ومكابرةً ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت:68] يعني: أيزعمون أولئك المسرعون في التكذيب، المجترئون على الإنكار أنهم لا يدخلون جهنم الطرد وجحيم الخذلان، خالدين مخلدين بسبب هذا الجرم العظيم والافتراء البالغ نهاية البغي والفساد على الله وعلى كتابه ورسوله؟! بلى هم المستوجبون المقصودون على الخلود فيها أبدًا مهانين صاغرين.

ثمّ قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة من تعقيب الوعيد بالوعد: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ يعني: المؤمنين الموقنين الذين حازوا كلا مرتبتي العين والحق على مقتضى استعداداتهم الفطرية، ثمّ اجتهدوا ببذل وسعهم بأن يفنوا فينا، ويبقوا ببقائنا، باذلين مهجهم في سبيلنا، تاركين أنانيتهم وأعيانهم الباطلة في هويتنا وعيننا الحق ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾ ونوفقنّ عليهم ﴿سُبُلَنَا﴾[1] ولنزيدنَّ هديهم ورشدهم إلينا جذبًا منا إياهم، وعنايةً لهم، وإحسانًا معهم ﴿وَ﴾ كيف لا يجذبهم ولا يعتني بشأنهم، ولا يزيد برشدهم وتوفيقهم؟! ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتجلي لخلّص عباده بمقتضى أسمائه وصفاته ﴿لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:69] منهم، وهم الذين يحسنون الأدب مع الله، ويجتهدون في إفناء ذواتهم في ذاته بعدما تحققوا بمقام الكشف والشهود، وتيقنوا ألّا موجود سواه، ولا إله في الوجود إلا هو، اجتهدوا حينئذٍ أن يحكوا أظلال هوياتهم الباطلة، وعكوس

---

(1) قال البقلي: قال الجنيد: لنهدينهم سبيل الإخلاص. قال ابن عطاء: المجاهدة صدق الافتقار إلى الله بالانقطاع عن كل ما سواه. قال النهرجوري: والذين جاهدوا في خدمتنا لنفتحنَّ عليهم سبل المناجاة معنا والأنس بنا والمشاهدة لنا، ومن لم يكن أوائل أحواله المجاهدة كانت أيامه وأوقاته موصولة بالتواني والأماني، ويكون حظه البعد من حيث يأمن القرب. قال عبد الله بن منازل: المجاهدة علم أدب الخدمة لا المداومة عليها، وأدب الخدمة أعزُّ من الخدمة. قال الشيخ أبو عبد الله بن خفيف: وكل محتملٍ لثقل العبودية في اختلاف ما وضع الله من عوضٍ وفضلٍ فهو داخلٌ في أحوال المجاهدين. قال الأستاذ: شغلوا ظواهرهم بالوظائف، فأوصل إلى سرائرهم اللطائف.

تعيناتهم الهالكة العاطلة عن دفتر الوجود مطلقًا؛ لئلا يبقى لهم عين ولا اسم ولا رسم.

وبعدما طرحوا بتوفيق الله وجذب من جانبه ما أطرحوا من أباطيل التعينات ولوازم الهويات والأنانيات، وعموم الاعتباريات عن دفتر الوجود وفضاء الشهود، بحيث لم يبق لهم عين ولا أثر، بل لا معنى للمعية والمصاحبة والمقارنة؛ ولا تشوشك منطوقات الألفاظ والعبارات إن كنت من أهل الرموز والإشارات، هو يقول الحق، وهو يهدي السبيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

خاتمة السورة

عليك أيها المجتهد المتوجه نحو الحق، المتعطش بزلال توحيده، المعرض عن الباطل وما يترتب عليه من غوائل الشيطان ووساوسه أن تجتهد أولاً في استخلاص نفسك البشرية عن أمانيها مطلقًا، سيما أنية أمارتك المائلة بأنواع الفجور، المبغية على الله بأصناف الكفر والفسوق، والغيبة التي لا تفهم مقتضيات الوحدة وإشارات أرباب التوحيد أصلاً، العرية عن مبدأ المعارف والحقائق والأسرار والمكاشفات، الواقعة في طريقه رأسًا، فلك أن تروضها بمتاعب الرياضات ومشاق التكليفات إلى أن تجعلها مطمئنة راضية بما جرى عليها من القضاء.

ثمّ بعدما صارت نفسك مطمئنة راضية انبعث شوقك، واقتضى ذوقك مع جذب من جانب الحق إلى أن تجعلها فانية في هوية الله، مضمحلة في ذاته، متلاشية في أوصافه وأسمائه، بحيث لا يبقى لها عين ولا أثر، فحينئذٍ صرت في زمرة المحسنين المهديين، المرضيين الذين هم من الله في جميع حالاتهم لا بطريق المصاحبة والمقارنة، ولا بطريق الحلول والاتحاد على ما يخيلك الألفاظ والعبارات، بل بطريق الفناء فيه والرجوع إليه، والبقاء ببقائه.

جعلنا الله ممن اجتهد في طريق التوحيد، وجاهد نفسه في مسلك الفناء حتى بذلها في سبيل الله وأفناها في هويته بمنّه وسعة جوده.

فهرس المحتويات

سورة الإسراء 3
فاتحة سورة الإسراء.................................... 3
خاتمة السورة 53
سورة الكهف.. 54
فاتحة سورة الكهف 54
خاتمة السورة 103
سورة مريم... 105
فاتحة سورة مريم عليها السلام......................... 105
خاتمة السورة 135
سورة طه... 136
فاتحة سورة طه 136
خاتمة السورة 171
سورة الأنبياء 172
فاتحة سورة الأنبياء عليهم السلام....................... 172
خاتمة السورة 208
سورة الحج... 210
فاتحة سورة الحج 210
خاتمة السورة 245
سورة المؤمنون 247
فاتحة سورة المؤمنين 247
خاتمة السورة 277
سورة النور... 278
فاتحة سورة النور..................................... 278
خاتمة السورة 314
سورة الفرقان... 315
فاتحة سورة الفرقان 315

خاتمة السورة 350

سورة الشعراء 351

فاتحة سورة الشعراء.. 351

خاتمة السورة 392

سورة النمل.. 394

فاتحة سورة النمل 394

خاتمة السورة 433

سورة القصص 435

فاتحة سورة القصص.. 435

خاتمة السورة 474

سورة العنكبوت 475

فاتحة سورة العنكبوت.. 475

خاتمة السورة 509

فهرس المحتويات.. 511

